

فضيلة الشيخ
عَطِيَّةٌ تَصِفُ

مَوْسُوعَةٌ
الْأُسْرَةُ تَحْتَ رِعَايَةِ الْإِسْلَامِ

مراحل نكوتين الأسيرة

الجزء الأول

الناشر
مكتبة وهب

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة ت: ٣٩١٧٤٧٠

اسم الكتاب:

موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام

مراحل تكوين الأسرة

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

اسم المؤلف:

فضيلة الشيخ عطية صقر

مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -

عابدين - القاهرة.

مقاس الكتاب: ١٧ × ٢٤ سم

رقم الإيداع: ١١٨١٩ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولي: I.S.B.N.

977-225 - 169- 8

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر). غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأى وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أى نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ،
أما بعد ..

فنظرا لنفاد الطبعة الأولى من كتابي « الأسرة تحت رعاية الإسلام » رغب إلى
الكثيرون في إعادة طبعه لحاجتهم الشديدة لمعرفة الأسس الصحيحة التي ينبغي
أن تبني عليها الأسرة بوصفها اللبنة الأولى في بناء المجتمع، وبخاصة بعد انتشار
الأفكار التي تتنافى مع المبادئ التي جاء بها الإسلام .

فلبيت رغبة المؤسسة الدينية العظيمة « مكتبة وهبة للطباعة والنشر
والتوزيع » في القيام بهذه المهمة، لما لمستهم ولمسه الكثيرون من اهتمامها بإخراج
مطبوعاتها الدينية في صورة كلها احترام وتقدير للثقافة الإسلامية .

وقد أضفت إلى هذه الطبعة ما وجدت الحاجة ماسة إليه .
والله أسأل أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم، إنه سميع مجيب .

عطية صقر

القاهرة في ١٢ ربيع الأول ١٤٢٤ هـ

١٣ مايو ٢٠٠٣ م

بَيْتُ اللَّهِ الرَّخِيمِ الرَّخِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فهذه بحوث تتحدث عن البيت الإسلامى السعيد، تضع له رسومه وقواعده، وتحدد مواصفات المواد اللازمة لبنائه، وتوضح الروابط التى تشد أركانه، وترشد إلى الأثاث الذى يزينه، والزاد الذى يؤمن الحياة لساكنيه، ويوفر البهجة والمتعة لمن فيه، كما تعنى بالاحتياجات التى تدفع ما يراد به من سوء، وتصلح ما يحدث فيه من خلل.

إنها بحوث تتحدث عن الخطوات التمهيديّة لتكوين الأسرة ثم عن القيم التى تربط بين الزوجين. وعلاقتهما بالثمرات الجديدة فى هذا البيت، ثم عن الطرق المثلى لحل ما يواجهها من مشكلات وما يعترضها من عقبات، وعن وضع الزوجة بين بيتها ونشاطها الخارجى، وعن المرأة بشكل عام كنصف المجتمع الإنسانى.

إنها بحوث تتناول الأسرة من يوم أن كانت مجرد فكرة عند شريكى الحياة، وتصاحبها فى مسيرتها الطويلة إلى أن تثمر ثمرتها المرجوة بإذن الله، لا تتركها فى هذه المسيرة وحيدة مع مشكلاتها كلها، بل تقف إلى جانبها حارسه أمينة، وناصحة مرشدة، ومعالجة حكيمة.

ولا أحب أن أتعجل الحكم على هذه الموسوعة الشاملة قبل أن نستوعب أبوابها وفصولها، ونتابع حوادثها وحلولها، ونعيش فى جوها العبق مع أزاهير طرقها، ورياحين حكمها.

غير أنى أستمنحك عفوا إذ أقدم لها بكلمة تلقى بعض الضوء على الدوافع التى حملتنى على تأليفها. والعوامل التى أثرت فى أسلوبها، والظروف التى تم إخراجها فيها.

فمن المعتاد عند الحكم على عمل من الأعمال، أو دراسة شخصية من الشخصيات، أن يحاط أولاً بكل ما يتصل بالموضوع من مميزات سابقة وظروف محيطية وآثار لاحقة، ولهذا سأقدم للكتاب بكلمة أضطر فيها إلى حديث شخصي أرجو ألا يتبرم به أحد، أو يظن به غير ما أشرت إليه، والقارئ لا يعدم أبداً من ذلك فائدة قد تتضح في الأجيال التالية.

لقد عملت في حقل الدعوة منذ وقت مبكر من حياتي. فقد وفقني الله للتعلم بالدين علماً وعملاً بحكم الوسط الذي نشأت فيه، حيث كان والدي رحمه الله على تقوى من الله كعادة أهل الريف في ذلك الزمان. فألحقني بكتاب القرية^(١) وأنا في سن الخامسة^(٢) وأتممت حفظ القرآن الكريم ولما أبلغ التاسعة، وأتممت تجويده بالأحكام وأنا في سن العاشرة.

ولما كانت هذه السن لا تؤهلني للالتحاق بمدرسة المعلمين^(٣) في مدينة الزقازيق، وقد كانت أمل الكثيرين من أهل الريف، ولما كانت المعاهد الدينية التابعة للأزهر بعيدة عن قريتنا بعداً لا يجعل أهلي يطمئنون على اغترابي في طلب العلم، وبخاصة أنه لا يوجد فيها أحد من أهل القرية حتى أكون في صحبته - اضطررت إلى الالتحاق بالمدرسة الأولية ١٩٢٥ م (الإلزامية فيما بعد) التي أنشئت في قريتنا - بهناباي - منذ سنة تقريباً. فأتممت دراسة سنواتها الأربع في ثلاث. ثم استخرت الله تعالى استخارة شرعية بالصلاة والدعاء المأثور، والتحققت بمعهد الزقازيق الديني سنة ١٩٢٨ م وأنا في سن الرابعة عشرة - وكان قد مضى على افتتاحه نحو ثلاث سنوات.

(١) صاحب الكتاب اسمه أحمد حسن عبيد، وكان مأذوناً، توفي في يوم الثلاثاء ١٤ من صفر ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦/٥/٥ م) وذلك بعد وفاة الملك أحمد فؤاد الأول يوم الثلاثاء ٧ من صفر ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦/٤/٢٨ م).

(٢) ولدت في يوم الأحد ٤ من المحرم ١٣٣٣ هـ = ٢٢ من نوفمبر ١٩١٤ م = ١٣ من هاتور

١٦٣١ قبطية.

(٣) كانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات تؤهل المتخرج منها للتدريس في المدارس الأولية التي تغيرت إلى إلزامية ثم إلى ابتدائية، ويشترط فيمن يلتحق بها حفظ القرآن الكريم مع مبادئ في الحساب والإملاء.

وكان الالتحاق بالمعهد الدينى أمنية والذى أحب العلم وعشق الوعظ بنوع خاص لتأثره بالمواعظ التى كان يلقيها فى القرية المرحوم الشيخ الحسينى المسلمى^(١) فيجتذب الناس بروحه الشفافة وأسلوبه المؤثر.

ولما كان أهل القرية يحبون العلم ويكرمون العلماء، شجعونى على إلقاء دروس لهم فى شهر رمضان، فبدأت ذلك فى المسجد القريب من بيتنا «مسجد أبو جماعة» الذى جدد بناؤه سنة ١٩٢٩ م. ولم يمض على التحاقى بالمعهد إلا سنة واحدة. ولما أنست نجاحا فى هذا العمل ازددت رغبة فى القراءة فى كتب الوعظ، وخطبت على المنابر عدة مرات خطبا منتقاة من أحسن ما قرأت فى المجلات والدواوين العصرية. وقصدنى الكثيرون من أجل الاستفسار عن المسائل العلمية، بل أنسوا إلى وأفضوا بذات صدورهم فيما يتعلق بالنواحي الأسرية الدقيقة الحساسة. وكان نشاطى فى ذلك حديث القرية على الرغم من أننى لم أتجاوز المرحلة الثانوية من المعهد^(٢). وهذا النشاط العلمى والوعظى بشكل خاص دفعنى إلى الالتحاق بكلية أصول الدين - إحدى كليات الجامع الأزهر -^(٣) سنة ١٩٣٧ م وكان مقرها إذ ذاك «مدرسة الخازندارة» بشبرا.

ولما حصلت على الشهادة العالية سنة ١٩٤١ م التحق أكثر زملائى بتخصص التدريس، فأثرت الالتحاق بتخصص الوعظ وتخرجت منه سنة ١٩٤٣ م. وكان لنشاطى العلمى المبكر أثر فى تقدمى على زملائى فى الدراسة، وكنت أول الناجحين فى الشهادة العالية. وفى إجازة الدعوة والإرشاد^(٤) فعينت

(١) توفى وهو مراقب للوعظ بعد أن خرج إلى المعاش وكانت وفاته سنة ١٩٦١ م ودفن ببلده (الصوة) مركز أبو حماد شرقية.

(٢) كانت المرحلتان الأولى والثانية تسع سنوات، الأولى أربع سنوات وشهادتها اسمها «الأولى» والثانية ثلاث سنوات منها وشهادتها «الكفاءة» ثم سنتان وشهادتها الثانوية. وكان يطلق على «الكفاءة»: الثانوية قسم أول. وعلى الثانوية: الثانوية قسم ثان، وهى الأهلية فى النظام القديم.

(٣) كانت الكليات ثلاثا فقط: أصول الدين، الشريعة، اللغة العربية، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات.

(٤) كانت نسبة درجائى فى إجازة الدعوة ٩٦٪ ومدة الدراسة فى تخصص الوعظ سنتان.

فور تخرجى بمسجد الأوقاف بتاريخ ١٦ من أغسطس سنة ١٩٤٣م. لأن التعيين فى قسم الوعظ بالأزهر كان موقوفا لظروف مالية وسياسية، فتسلمت عملى فى مسجد صغير قرب مسجد الإمام الشعرانى، اسمه «مسجد عبد الكرىم الأحمدى» وقد أثرته على مسجد كبرى فى الاسكندرية. لعدم رغبتى فى البعد عن القاهرة فى ذلك الوقت. ثم نقلت منه فى فبراير ١٩٤٤م لافتتاح مسجد «الأربعين البحرى» بالجيزة - حاليا اسمه عمار بن ياسر - بحضور ملك مصر إذ ذاك واسمه فاروق الأول - توفى ١٨/٣/١٩٦٥م - مكثت به حتى عينت واعظا بالأزهر فتسلمت عملى فى مركز طهطا فى ٤ يونية ١٩٤٥م. فوجدتنى بين جمهور على مستوى طيب من الثقافة والوعى. اضطررنى إلى أن أكون عند حسن الظن، فكنت أعد لخطبة الجمعة والمحاضرة بعدها طوال الأسبوع، أدعم موضوعى بكل ما أستطيع من آيات وأحاديث وحكم وقصص، وألقى منه على الجمهور ما يتسع له الوقت. وشجعنى إقبال الناس على الاجتهاد فى الاطلاع والتنظيم وحسن العرض، إلى جانب ما كنت أقوم به من محاضرات عامة خارج المسجد، وما أشارك فيه من حل المشكلات الاجتماعية والأسرية بالذات، التى تكثرت فى الوسط الذى كنت أعمل فيه.

ثم قلت لنفسى أولا: إن الذى تعبت فى جمعه أياما طويلة أنفثه فى الهواء فى دقائق هى مدة الخطبة أو المحاضرة، وأذهان الناس لا تعى منه إلا القليل، وما نظمته من معلومات أحسست بتوفيق الله فى عرضها، وما هبط على من فكر طارئة أثناء إلقاء الموعظة، قد يصعب على الرجوع إليه مرة أخرى إذا كان غير مدون. فالخطب ألفاظ سيالة تتبخر فى الهواء. وتذهب طليقة فى الأجواء، والبخار إذا لم يكثف أسرع تطايره وعز العثور عليه بعد إفلاته، وهنا آمنت أن الدرر التى يكد القارىء فى استخراجها من أعماق الكتب، والآلىء التى تلتقط من المسموع والمرئى فى العالم الذى يعج بالوان الثقافة المبتوثة بأكثر من وسيلة. ينبغى ألا تترك دون صيانة بالتقييد وحفظ بالتدوين. وتذكرت قول الشاعر الحكيم:

العلم صيد والكتابة قيده
 قيد صيودك بالحبال الوثيقة
 فمن الحماسة أن تصيد غزاة
 وتعيدها بين الخلائق طالقة

وفى القديم والحديث رأينا رجلا تنبها إلى ذلك فدونوا ما قالوا: ونظموا ما جمعوا، وأسرعوا بنشره أولا بأول، فكان لهم سبق الغزو في ميدان الثقافة، وفضل البعث للهمم الراكدة، وتنبيه الغافلين إلى اللحاق بركب المجدين.

وقلت لنفسى ثانيا: قد يعيش الإنسان عمرا طويلا يتمتع براحة نفسية لأنه نجح في عمله، ثم لا يجد الناس من بعده أثرا مما جمع من كنز أو أنفق من علم، فهو يموت وحسبه أنه دلهم على خير له جزاء مثل جزاء من عمل به. فرأيت أن من الأكمل أن يترك الإنسان أثرا مكتوبا يكثر المنتفعون به عن طريق القراءة إذا فاتهم الانتفاع عن طريق السماع. وقوى ذلك في نفسى قول النبى ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم^(١) وغيره عن أبى هريرة.

(١) مشاهير رجال الحديث ووفياتهم: (من كتاب الباعث الحثيث لابن كثير).

- ١ - البخارى. توفى ليلة الفطر سنة ٢٥٦ هـ فى قرية «خرتنك» وكان ميلاده بعد صلاة الجمعة ١٣ شوال ١٩٤ هـ.
- ٢ - مسلم. توفى ٢٦١ هـ لخمس بقين من رجب فى نيسابور عن ٥٥ سنة.
- ٣ - أبو داود. توفى ٢٧٥ هـ فى شوال بالبصرة.
- ٤ - الترمذى توفى ٢٧٩ هـ يوم ١٣ رجب فى ترمذ.
- ٥ - النسائى. توفى ٢٠٣ هـ.
- ٦ - ابن ماجه القزوينى. توفى ٢٧٣ هـ.
- ٧ - الدارقطنى. توفى ٢٨٥ هـ فى بغداد فى ذى القعدة عن ٧٩ سنة.
- ٨ - الحاكم النيسابورى. توفى فى صفر ٤٠٥ هـ وقد جاوز الثمانين ودفن فى نيسابور. وولد بها فى ربيع الأول ٣٢١ هـ.
- ٩ - أبو نعيم الأصبهانى، توفى ٤٣٠ هـ عن ٩٦ سنة. ولد ٣٣٤ هـ.
- ١٠ - أبو بكر البيهقى. توفى ٤٥٨ هـ فى نيسابور عن ٧٤ سنة.
- ١١ - الخطيب البغدادى. توفى ٤٦٢ هـ عن ٧١ سنة.
- ١٢ - الطبرانى. توفى ٢٦٠ هـ.
- ١٣ - أبو يعلى الموصلى. توفى ٣٠٧ هـ.

وقلت لنفسى ثالثا: إن الحلول التى توصلت إليها فى علاج المشكلات الاجتماعية، والتجارب التى أفدتها من دراسة البيئة الأسرية بالذات، وممارستها بالفعل أيضا، لا ينبغى أن تعرض للضياع، فتهمل دون تدوين وتنظيم، بل يجب أن تعد للإفادة منها ولتكون كالأدوية فى الصيدلية تلبى طلب المحتاج.

وهنا عقدت العزم على أن أدون كل ما أقرأ أو أسمع. من جديد ليس فى مكتبتى المحدودة. ومن فكرة طيبة لم أعرفها من قبل. ومن تجربة ثبت نجاحها فى حل مشكل، وأعددت من أجل ذلك سجلا ضخما لرؤوس موضوعات هامة، أضع تحت كل منها ما يناسبه مما جمعت، مشيرا إلى مصدره بدقة حتى يسهل الرجوع إليه عند تحضير محاضرة أو كتابة موضوع.

وقد أعاننى هذا الصنيع، وهو فهرسة الموضوعات وبيان مصادرها، على إخراج كتابين كبيرين، أحدهما بعنوان «الدعوة الإسلامية دعوة عالمية» كان ضمن البحوث الكبرى التى فازت فى مسابقة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف المصرية سنة ١٩٦٤م، وثانيهما بعنوان «محاضرات البحوث الاجتماعية» لطلاب القسم العالى^(١) للدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر. وعلى عمل بحوث كثيرة فى مسائل شتى نشرت كرسائل مستقلة، أو كمقالات فى المجلات الإسلامية الكبرى.

كما أعاننى هذا الصنيع على إخراج موسوعة الأسرة التى أقدم لها الآن، وعلى وضع مشروعين لعملين كبيرين، أحدهما «الدعوة إلى الله تاريخا ومنهجيا» أملاه على إيمانى بأن رجل الدعوة يجب عليه أن يضع أمام زملائه

١٤ - أبو بكر البزار. توفى ٢٩٢ هـ.

١٥ - محمد بن إسحق بن خزيمة صاحب الصحيح. توفى ٣١١ هـ.

١٦ - أبو حاتم محمد بن حبان البستي صاحب الصحيح. توفى ٣٥٤ هـ.

١٧ - ابن عدى صاحب الكامل. توفى ٣٦٧ هـ.

(١) كان تابعا لكلية الشريعة، ثم صار مستقلا باسم «المعهد العالى للدراسات الإسلامية

والعربية» ثم أصبح كلية فى مايو ١٩٧٥.

أو طلابه حصيلة ما جمعه من مقروء، وما أفاده من تجربة، في الناحية الفنية للمهنة، ليكون دليلاً يرشد إلى الصواب .

وثانيهما «موسوعة الوعظ» ألتى تجمع أهم الموضوعات التى يجب أن تتناول فى الخطابة والدروس . مما له صلة وثيقة بحياة الناس، والتى يجب أن تبرز فى ثوب جديد مناسب للعصر المملوء بالشبهات، ترد الناس إلى الحق . وتبرهن على ما يملك الإسلام من رصيد ثقافى تربوى تنظيمى يزرى بكل ما يتبجح به الناس فى قديم التاريخ وحديثه .

وأنا معترزم - بعون الله - أن أقدم لهم فى الموسوعة الوعظية مائدة شهية من الثقافة الدينية الأصيلة . الخالية من الدخيل الذى غصت به الكتب الرخيصة وغير المتخصصة . أقدم لهم فيها مائدة مزودة بأطيب ما فى القرآن والسنة من نصوص . وألذ ما فى كتب الأدب من طرف، وأحلى ما فى كتب التاريخ من حوادث . وأوفق ما فى كتب الشريعة من رأى، وأشهى ما فى الثقافة العامة من كل ما يشد الانتباه ويغرى بمعاودة التردد على تلك المائدة . وأرجو أن أوفق لإخراج هذين العملين الكبيرين، فإن لم أستطع أرجو أن يحاول ذلك من يأنس فى نفسه القيام بهذا العمل الجليل، وله منى كل الدعاء بالتوفيق .

أعود إلى موسوعة الأسرة التى أقدمها لك الآن فأقول :

لقد شغلنى هذا الموضوع أول ما شغلنى فى بدء حياتى الرسمية، فكنت لا أعثر على شىء إلا دونته دون اهتمام بالترتيب والتنظيم وطال زمن الجمع والتدوين، ثم رأيت أننى لو تماديت فى الجمع وحسب، لم أنته فى أى موضوع إلى غاية مقنعة لفضولى فى البحث ومتابعة الدراسة، ذلك أن البحث أشبه بمحيط واسع يقبل كل ما يصب فيه من أنهار وما ينحدر إليه من سيول، وما يهطل عليه من أمطار، ثم خشيت أن ينتهى الأجل وما تركت بعد شيئاً ينتفع به، فشرعت فى تبييض ما سودت وتنظيم ما جمعت .

وكان التنظيم أصعب ما صادفته فى إخراج هذه الموسوعة، لأننى أردت أن

أقدمها سائغة للقارئ تمر إلى عقله بيسر، ويستعيدها بسهولة، فعامل التنظيم للأفكار من أهم العوامل لاستيعاب الموضوع وتذكره، وكنت فى هذه المهمة أشبه بالنحلة التى تقع على كل زهرة فترتشف منها الرحيق ثم تجمع ذلك كله فى معملها الكيماوى الالهى لتخرجه عسلا مصفى فيه شفاء للناس .

ولقد كتبت هذه البحوث فى فترات متباعدة، لكل منها خصائصها فى الفكرة والأسلوب، بدأتها سنة ١٩٤٤م، وانتهيت منها - مع التجوز فى هذا التعبير فهى لم تنته ولن تنتهى - فى هذا العام بعد أن فارقت الوطن « مصر » إلى الكويت فى ٩ أكتوبر ١٩٧٢م. وكنت كلما وجدت فكرة أضفتها إلى البحث، أو حصلت على مادة ألحقتها بما يناسبها، أو حدثت مشكلة عقدت لها فصلا خاصا .

وقد أثرت على مهنتى فى الوعظ فى ناحيتين، ناحية المادة وناحية الأسلوب . ففى المادة قدمت كل ما يمت إلى الموضوع بصلة قريبة أو بعيدة . مما عثرت عليه . وذلك لأستوعبه ما استطعت من جميع نواحيه، حتى يكون الواعظ مستعدا للإجابة على كل سؤال يوجه إليه . فإن تداعى المعانى عند المستمع إلى الموعظة بوجه خاص كثيرا ما يضطره إلى الإلقاء سؤال قد تكون صلته بموضوع المحاضرة ضعيفة أو بعيدة، ولكنه فى نظره مهم، وهنا يضطر الواعظ، بحكم نظرة الناس إليه، أن يجيب على السؤال، إما إجابة مباشرة وافية إن كان متمكنا منها، وإما مختصرة على قدر علمه بها، وإما متصرفا بلباقة تمنع إحراجه، وتحافظ فى الوقت نفسه على الأمانة العلمية .

وفى الأسلوب مزجت الحقيقة العلمية بالطرفة الأدبية تلافيا لجفاف الموضوع، وشداً لانتباه السامع للموعظة، أو القارئ لما يكتب، وهذا الأسلوب، فى نظرى، أعون على تفهم الموضوع، وإيداعه فى بؤرة الشعور، بحيث يصعب نسيانه بسرعة، مع دعم كل ذلك بالقصص المشوقة والأحداث التاريخية، ليخرج المستفيد بباقة طيبة من ألوان متعددة جذابة المنظر، فواحة الشذا .

ذلك كله مع إيماني العميق بأن الإنسان مهما أوتي من علم يجب ألا يغيب عنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]، وأن يتعظ بموسى عليه السلام الذي أعجبت خطبته، وعندما سئل: أى الناس أعلم؟ قال: أنا أعلم. فعتب عليه ربه وأراه أن الخضر^(١) أعلم منه، وأن علمهما معا بالنسبة إلى علم الله كمنقرة العصفور فى البحر، واقرأ الآيات المسجلة لذلك فى سورة الكهف. أخرج هذا الحديث البخارى ومسلم عن أبى بن كعب^(٢).

وإيمان العالم بهذه الحقيقة يحمله على مداومة الاطلاع والاستفادة. فهو ما يزال متعلما حتى يواريه التراب. روى الطبرانى عن مجاهد عن ابن عمر، لا أعلمه إلا عن النبى ﷺ « من قال، إني عالم فهو جاهل ».

ورحم الله الإمام الشافعى^(٣) إذ يقول:

كَلِمًا أَدْبَنِي الدَّهْرُ أَرَانِي نَقْصَ عَقْلِي
وَإِذَا مَا زَدْتَ عِلْمًا زَادَنِي عِلْمًا بِجَهْلِي

وحسبى من الدنيا ألا أكون قد أسأت إلى الدين أو العلم أو إلى أحد من المسلمين، أما أن أكون قد أحسنت فهذا ما أرجوه من ربى إن كنت أهلا لذلك، والله عند حسن ظن عبده به، كما ثبت فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: « يقول الله: أنا عند ظن عبدى بى ».

وأرجو ألا أكون أحد الثلاثة الذين تسعربهم النار أول ما تسعر « رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فىك القرآن. قال: كذبت، ولكنك

(١) روى البخارى وأحمد والترمذى عن أبى هريرة حديث « سُمى الخضر خضرا لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء » أخرجه فى الجامع الصغير.

(٢) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٥٨ .

(٣) توفى سنة ٢٠٤ هـ وكانت ولادته سنة ١٥٠ هـ عام توفى الإمام أبو حنيفة.

تعلمت ليقال : عالم، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار» رواه مسلم عن أبى هريرة.

ولقائل أن يقول :

لقد أشرت إلى الدواعى التى جعلتك تضع مشروعاً لتاريخ الدعوة ومشروعاً لموسوعة الوعظ، فما الذى جعلك تولى الأسرة هذا الاهتمام الكبير وتؤثرها على المشروعين الآخرين بالإخراج؟

والجواب : هناك سببان رئيسيان حملانى على المبادرة بالكتابة فى الأسرة، وذلك إلى جانب ما سيذكر بعد ذلك من وظائف الأسرة، أولهما : أن الحقوق والواجبات والمشكلات الموجودة بين الزوجين وبينهما وبين الأولاد صورة مصغرة لما فى المجتمع الكبير الواسع من علاقات تحكم سير الناس، فكل حديث فى الأسرة هو حديث مباشر، أو غير مباشر. فى المجتمع كله، والمتحدث عن الأسرة كأنه يتحدث عن هدى الإسلام عامة فى إصلاح المجتمع. ولعل هذا الشعور هو الذى حملنى - كما يرى فيما بعد - على الاستطراد فى الحديث عند مسألة أسرية إلى الحديث عن موضوع اجتماعى آخر له صلة ما بالأسرة.

وثانى السببين أن الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع، أو الخلية الأولى فى جسم الاجتماع البشرى. فمن مجموعة أسر تتكون القرية أو المدينة، ومن عدة قرى ومدن تتكون الدولة التى تكون مع الدول الأخرى المجتمع الإنسانى العام.

واللبنة إذا كانت صالحة فى نفسها قوية فى التحامها مع اللبنة الأخرى كان بناء المجتمع سليماً قوياً، وكذلك إذا كانت الخلية الأولى سليمة قوية كان الجسم المتكون من تكاثرها سليماً قوياً. مع اعتبار الظروف الأخرى التى لا يخلو منها كائن حى.

فإذا أردنا أن نصلح المجتمع فلنبدأ بإصلاح وحدته الأولى وهى الأسرة وهذا هو رأى فى الإصلاح أن يبدأ من القاعدة لا من القمة، لأن القمة ما جاءت إلا

على أكتاف القاعدة، أو هي واحدة منها إن كانت هناك حرية واستقلال، فالرئيس الذي يلقي عليه بعض المنادين بالإصلاح كل التبعة بالنسبة إلى المجتمع في صلاحه أو فساد، ما هو إلا فرد من أفراد الأمة نشأ في أسرة، فإن كانت تنشئته طيبة فإن ذلك سينعكس على سلوكه أيا كان وضعه في المجتمع، حتى لو تغلب على الحكم وأخذه بالقوة واستبد به، فهو أصلاً فرد من أفراد شعبه.

والذين يصرخون من فساد الجهاز الحكومي في دولة ما، ومن انحراف ممثلي الأمة في مجلس من المجالس هم قوم يرون القذاة في أعين غيرهم ويعيبونها، ولا يحسون بالخشبة في أعينهم ولا يبالون بها.

من الذي انتخب هؤلاء الممثلين للأمة في المجلس، والذين كان برأيهم تكوين الحكومة؟ إنهم هم أفراد الشعب الذين فسدت تربيتهم فاختراروا غير الصالحين ليمثلوهم، تأثراً بعلاقة نسب أو صداقة، أو بإغراء مادي أو أدبي. ولو أنهم تربوا في أسرهم ومعاهدتهم على الصراحة وحرية الاختيار، وتقديم الصالح المستقيم لتمثيلهم في المؤسسات والهيئات ما حدث ما يشكون منه ويصرخون.

صحيح أن صلاح القمة له أثره الكبير في صلاح القاعدة، فالناس على دين ملوكهم، وبخاصة إذا كانت القمة متسلطة أو مستعمرة لا ممثلة للشعب ولكن متى تكون القمة سالحة، إن لم تكن تربيتها الأولى تربية سالحة في رحاب الأسرة، وفي الفترة الأولى من التنشئة، ومن شب على شيء شاب عليه.

يأتي بعد هذا سؤال آخر: وهو أن المؤلفات في الأسرة كثيرة، فما الذي جعلك تنفق كثيراً من جهدك في وضع صورة مما وضع غيرك؟

والجواب: صحيح أن المؤلفات كثيرة، ولكنني لاحظت عليها ما يأتي:

(أ) أن البحوث الحديثة في الأسرة متناثرة لم يجمعها كتاب واحد. وكثير منها مقالات في صحف أو أبحاث في مجلات. أو أخبار تنقل إلى الناس مكتوبة أو مسموعة أو مرئية.

(ب) أن كثيراً من الكتب التي ألفت خاصة بالأسرة ناقصة - من وجهة

نظري على الأقل - كما وكيفا، فقد يترك مؤلف الكتاب بحثا هاما أو مسألة لها خطورتها في تكوين الأسرة، ولا يدون إلا ما أهمه هو، أو مال هواه إليه، أو لاعتبار آخر، وهنا يكون النقص في كم الأبحاث والموضوعات.

وقد يستوعب كل الأبحاث والقضايا والمشكلات، ولكنه لا يوفيهما حقها من التحليل والتدليل والتحرير والتوضيح، وهنا يكون النقص في الكيف.

(ج) أن أبحاث الأسرة قد تكون مجموعة في كتاب واحد، ولكنها مدروسة من زاوية واحدة، ككتب الفقه مثلا، وفت الأسرة حقها بما كتبه في باب النكاح والطلاق والنفقات وكل ما يتصل بذلك، ولكن صبغة البحث صبغة فقهية تعنى ببيان الحكم الوضعي والتكليف من الصحة والفساد والحظر والجواز وما إلى ذلك، أما الناحية الاجتماعية والنفسية في علاقة الزوجين وفي تربية الأولاد مثلا، وأما ربط ما في الإسلام من نظم بما جد في المجتمع من نظم أخرى، وغير ذلك من الموضوعات التي تتطلبها الدراسة الحديثة، فإن كتب الفقه لا تهتم بها كثيرا، على الرغم من غزارة مادتها وتحرير أحكامها الشرعية ودعم كل صغيرة وكبيرة بالأدلة وآراء الفقهاء.

(د) أن بعض الكتب التي ألفت حديثا عن الأسرة كتبت بأقلام غير إسلامية، أو بأقلام متأثرة بما كتب غير المسلمين. فهم يكتبون من زاوية فلسفية اجتماعية لا يعيرون فيها الناحية الدينية اهتماما، ومع ذلك يجتهدون في فرض آرائهم على الناس، أو يحاولون إثبات صحتها على الأقل، غير مباليين أن كان الدين يقرها أو يرفضها، وهؤلاء يزعمون أنفسهم أحرارا أو متطورين مجدددين.

ومثل هذه الكتب في عدم اهتمامها بمقررات الدين وتقاليد المجتمع الإسلامي، تجرى وراء كل جديد في الغرب لتدعو إليه وتنشره بين المسلمين، تأثرا بعقدة التقليد أو مركب النقص كما يقولون، ولا يمكن أن يقوم على ما فيها مجتمع صالح، ولا يمكن لأسرة تسير على ضلالها أن يكتب لها النجاح في مهمتها النبيلة.

وإزاء كل هذه الألوان من الكتابات كان عملي موجهاً إلى جمع الشتات وبحث كل الموضوعات وتوفية كل منها حقها، بقدر الإمكان، وإلى إبراز الصبغة الاجتماعية والنفسية في البحث لتكميل ما في كتب الفقه الإسلامي، وإلى إضافة تجربتي العملية في علاج المشكلات الأسرية، التي صادفت منها كثيراً في حياتي الخاصة والعامة، وإلى بيان ما في الآراء المنحرفة من زيف وضلال، والاجتهاد في إبراز سمو التشريع الإسلامي في هذا المجال، وإلى لفت أنظار الجاهلين إلى ما فيه من قيم ومثل ونظم وإجراءات، حتى لا يعيبوه بأنه دين تخلف ورجوع إلى الوراء، كما يحلو للمتعالين أن يصموا المتمسكين بهذه الآداب الإسلامية، بأنهم رجعيون، كما كان من عملي في هذا التأليف تلافياً للجفاف الذي تصبغ به البحوث العلمية، وتيسير الأسلوب وتزيينه بما يساعد على الفهم ويجدد النشاط ويغري بمتابعة القراءة.

كل هذا وأنا معترف بصدق وإخلاص أنني لم آت إلى النهاية التي أريدها من التمام والكمال، فما أنا إلا بشر، والكمال لله وحده، وحسبى أنني كملت بعض الناقص، وأوضحت بعض المبهم وفصلت بعض الجمل، فإن أصبت فبتوفيق من الله، وإن أخطأت فبقصور عقلي، والبحث مفتوح يقبل كل إضافة، ويرحب بكل تصحيح، ولعل كثيراً لا يعرفون أن هذا الكتاب قد أخذ على في الأيام الأخيرة كل وقتي، كل يوم أراجعه لأعدل عبارة، أو أضع إضافة، وقد يروق لي في الغد غير ما راق لي اليوم، فأغير وأبدل، وهذه سنة الله في قصور جهد الإنسان، في محاولة إرضاء كل الأذواق. يقول العماد الأصفهاني أو غيره - كما في بعض الكتب:

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يوم إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

ومهما يكن من شيء فإنني أقرر مقدما أن في الكتاب عيوباً كثيرة، فليوفر
المجرحون تجريحهم.

ومن في الناس يرضى كل حى وبين هوى النفوس مدى بعيد؟
والهوى الشخصى أو النظرة الخاصة لا ينبغي أن تغفل ما قد يكون فى
الكتاب من محاسن فى نظر الآخرين.

وعين الرضا عن كل عيب كليله كما أن عين السخط تبدى المساويا
فالذين يعشقون الأدب والاجتماع يقدرون ما فيه من طرف وأقوال وحكم
وأمثال، ويغضون الطرف عن بعض التقصير فيما يهتم به الفقهاء من بيان
الواجبات والمندوبات ومعرفة الشروط والأركان، وكذلك الذين يغلب عليهم
التزمت قد تطيح فكاهة مرفهة أو عبارة مرحة بما ينبغي أن يقدر من أجله الكتاب
فى أحاديثه التى تعبت كثيرا فى تخريجها، ووقائعه التى حرصت على نسبتها
إلى مصادرها أو مراجعها.

وعلى كل حال، فما قصدت إليه من خير، وراء ما فيه من عيوب، لا أرجو
المثوبة عليه إلا من الله وحده، وهو الذى يغفر لى ما لم أوفق فى عرضه، والأعمال
بالنيات، ولكل امرئ ما نوى.

وأحمد الله سبحانه أن أعانى على نفسى، فأنا فى مثل هذا المقام أقدم
حسن الظن بالناس، أو على الأقل لا أسرع بسوء الظن، فإن غلبنى شيطانى فإننى
لا أتمادى فيه، ولا أبني عليه حقائق، وهديى فى ذلك قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] وما روى
عن النبى ﷺ: «ثلاثة لا يسلم منهن أحد، الظن والطيرة والحسد، فإذا ظننت
فلا تحقق - أى فلا تبين على الظن حقائق - وإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت
فلا تبغ» (١).

(١) رواه عبد الرزاق بن معمر عن إسماعيل بن أمية مرفوعاً «نفثات صدر المكمد، وقره
عين المسعد لشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد، للشيخ السفارينى ج ٢ ص ١٠٤ نشر المكتب
الإسلامى بدمشق» ورواه أبو الشيخ الطبرانى عن حارثة بن النعمان بلفظ آخر، وهو ضعيف، كما
روى عن الحسن مرسلًا بلفظ آخر، الجامع الصغير للسيوطى.

ومن هنا لا أسمح لنفسى أن أتهم الناقدين بأنهم ضرائر الحسنة، كما قال أبو الأسود الدؤلى^(١)، ولا ممن قال فيهم قعنب بن أم صاحب :

إن يَأذِنُوا رِيبةً طَارُوا بِهَا فَرِحَا مِنِّي وَمَا أَذِنُوا مِن صَالِحِ دَفِنُوا
صَمٌ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذَكَرْتُ بِهِ وَإِنْ ذَكَرْتُ بَشْرًا عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

يقال: أذن لكذا أى استمع له. ويصح أن يقال: عندهم أذن. والمعنى واحد فى كلتا الحالتين.

فإن ما كتبتة هو فى نظرى كما قاله ضرائر هند صاحبة عمر بن أبى ربيعة^(٢) وأدعو الله أن يجزيهم بما هم أهل، وأحمده سبحانه أن هيا لى بعض الناس لنشر فضيلة طويت :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

كما يقول أبو تمام^(٣) وكما يقول القائل :

عداى لهم فضل على ومنة فلا أبعد الرحمن عنى الأعداى
همو بحثوا عن زلتى فاجتنبتها وهم نافسونى فاجتنبت المعاليا

يقول العتابى: من قرض شعرا أو وضع كتابا فقد استهدف الخصوم، واستشرف الألسن، إلا عند من نظر فيه بعين العدل والإنصاف وحكم بغير الهوى.

وأذكر نفسى وأذكرهم أخيرا بقول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) إشارة إلى قوله:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالكل أعداء له وخصوم
كضرائر الحسنة قلن لوجهها حسدا وبغيا: إنه لدميم

(٢) إشارة إلى قوله:

حسنى فى كل عين من تود

(٣) زهر الآداب للحصرى ج ١ ص ٢٠٢ طبعة الحلبي.

وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿ [الأحزاب : ٥٨] ،
وقوله : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] .

منهج البحث :

المنهج الذى حاولت أن أتبعه - وقد يحدث أحيانا عدم التزامه - فى مادة الكتاب ومصادره، وفى عرض الموضوع وأسلوبه يتلخص فيما يأتى :

١ - عندما أريد الاستدلال المباشر على مسألة من المسائل أعتمد أولا وبالذات على كتاب الله تعالى إن وجد الدليل، وذلك بعد الاطلاع على أهم كتب التفسير، كالجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وتفسير ابن كثير، وروح المعانى للألوسى، وغيرها، وإذا كان فى الآية لفظ غامض شرحته بما يقتضيه المقام . فكانت مادتي الأولى من القرآن لقوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] والحديث الرسول ﷺ فى التمسك بكتاب الله الذى هو خير هدى، وسيأتى بعد، وللأمر العام باتباع الكتاب الذى أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وذلك فى أكثر من آية فى القرآن الكريم .

٢ - وكذلك أستمد مادتي ودليلي من السنة النبوية بأقوالها وأفعالها وتقريراتها وكل ما يتصل بالنبي ﷺ من أحواله وصفاته، إن لم أجد طلبتي فى القرآن الكريم، أو كان الأخذ منها للتأكيد والإيضاح أو التكميل بأى وجه من الوجوه، وذلك أن النبي ﷺ قدوتنا بنص قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] وقوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] ، ولأنه أرشدنا إلى اتباع سنته كما سيأتى بعد، وهى الأصل الثانى للتشريع كما هو معروف .

وأود أن يتنبه القارئ إلى أن الحديث الذى أعتمد عليه فى الاستدلال هو الحديث الصحيح أو الحسن، والحديث الصحيح فى عرف العلماء هو ما رواه العدل الضابط عن مثله، واتصل سنده ولم يكن به شذوذ ولا علة قاذحة،

والحديث الحسن هو كالصحيح إلا أن الرواة المعروفين بالصدق فيهم قصور في الضبط عن ضبط رواية الصحيح، ولا أحب أن أدخل بك في تفاصيل فنية لشرح هذا الكلام فموضعه الكتب المختصة.

أما الحديث الضعيف، وهو ما فقد شرطاً من شروط الصحة والحسن التي على أساسها يكون الحديث مقبولاً، فلن أعول عليه في الاستدلال لإثبات أصل الحكم، بل لتوضيحه أو الترغيب فيه أو الترهيب منه، أو للتنبيه على ضعفه حتى لا يظن باستفاضته بين الناس أنه حديث مقبول. والحديث الضعيف أقسامه كثيرة جاءت كثرتها من فقدان شرط أو أكثر من شروط الصحة والحسن، وستأتيك ألفاظ تعبر عن ضعفه مثل: معضل، مقطوع، مدلس، ربما أفسرها لك في حينها.

وإذا رويت الحديث الضعيف فإنى أحاول أن أبين ضعفه، إما بالنص عليه من واقع كتب المختصين، وإما بالاكْتفاء بروايته بصيغة التمرّيز حسب اصطلاح علماء الحديث مثل: روى. وقد رأى الجمهور عدم جواز روايته بغير بيان ضعفه حتى لا تتوهم صحته أو حسنه.

وأجاز بعضهم رواية الضعيف من غير بيان ضعفه بشروط:

١ - أن يكون الحديث في القصص أو المواعظ أو فضائل الأعمال أو نحو ذلك مما لا يتعلق بصفات الله تعالى وما يجوز ويستحيل عليه، ولا بتفسير القرآن ولا بالأحكام كالحلال والحرام.

٢ - أن يكون الضعف فيه غير شديد، فيخرج من انفراد من الكذابين والمتهمين بالكذب والذين فحش غلطهم في الرواية.

٣ - أن يندرج تحت أصل معمول به.

٤ - ألا يعتقد عند العمل به ثبوته، بل يعتقد الاحتياط.

ومن رخص في رواية الضعيف ما عدا الموضوع، في الترغيب والقصص لا

فى صفات الله وفى الحلال والحرام، ابن الصلاح وعبد الرحمن بن مهدي وأحمد ابن حنبل وعبد الله بن المبارك، حيث قالوا: إذا روينا فى الحلال والحرام شددنا، وإذا روينا فى الفضائل ونحوها تساهلنا.

والشيخ أحمد شاكر رأى وجوب بيان الضعف فى الحديث الضعيف فى كل حال، لا فرق فى ذلك بين الأحكام والعقائد، وفضائل الأعمال، وحمل قول أحمد بن حنبل ومن معه على أن التساهل يراد به الأخذ بالحديث الحسن لا بالحديث الصحيح، «انظر الباعث الحثيث» لابن كثير مع تعليقات الشيخ أحمد شاكر.

وروايتى للضعيف، كما قلت، ليست لإثبات الحكم بل لتقويته أو لغرض آخر كما تقدم، وقد أجاز بعض العلماء ذلك، ومنعه الآخرون. وقد اخترت رواية الضعيف، كما اختار غيرى من العلماء الأجلء السابقين، مع احتياطات روايته، لمعنى آخر يفيدنى فى عرض نظام الأسرة فى الإسلام والمجتمع الإسلامى، فإن الحديث الضعيف يدل على الأقل، على أن المعنى الذى يحمله كان معروفا فى العصر الذى روى فيه، وهذا يمثل صورة من الفكر فى فترة من الفترات، ولونا من ألوان السلوك فى هذا العهد الذى ذكر فيه.

كما أننى، كما قلت، قد أقصد برواية الضعيف التنبيه على ضعفه، على الرغم من استفاضته على ألسنة الناس، وذلك مثل حديث «إياكم وخضراء الدمن» قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: «المرأة الحسناء فى المنبت السوء» وسيأتى توضيح ضعفه فى موضوع: اختيار الزوجين.

وأحب أن أنبه أيضا إلى أن بعض الأحاديث الضعيفة قد اختلفت فيها أنظار المختصين، فبعضهم يحكم بضعف الحديث والبعض الآخر يحكم بحسنه أو صحته، فما دام فى الحديث خلاف فى وجهة النظر فلا مانع عندى من روايته للأغراض التى ذكرتها.

وأنبه أيضا إلى أن بعض الأحاديث الصحيحة نفسها قد يكون بينها خلاف

فى عبارة من العبارات لا يغير الحكم، فيرويها الثقات كالبخارى ومسلم عن أحد الرواة، ثم يرويها كتاب آخر مع تغيير العبارات فيحكم عليها الناقدون بأنها ضعيفة أو موضوعة من أجل اختلاف اللفظ أو اختلاف الرواة.

خذ مثلاً حديث مسلم فى صحيحه «إن المرأة تقبل فى صورة شيطان وتدبر فى صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما فى نفسه».

هذا المعنى رواه الخطيب عن عمر عن النبى ﷺ بلفظ «إذا رأى أحدكم امرأة حسنة فأعجبته فليأت أهله، فإن البضع واحد ومعها مثل الذى معها» أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير، وحكم عليه ناصر الدين الألبانى بأنه موضوع، مع أن ابن حبان رواه عن جابر بلفظ «إذا رأى أحدكم المرأة التى تعجبه فليرجع إلى أهله حتى يقع بهم، فإن ذلك معهم» وقال الألبانى نفسه: إنه صحيح.

وكذلك حديث البخارى ومسلم «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» فهو مروى عن أبى هريرة واتفق عليه الشيخان، ومع ذلك رواه الطبرانى عن أبى بكر بلفظ «آية المنافق من إذا حدث كذب، وإذا أؤتمن خان، وإذا وعد أخلف» وأخرجه السيوطى فى الجامع الصغير، فقال عنه الألبانى: أنه ضعيف.

إن المتن صحيح فى المثالين المذكورين، والذى ضعفهما فى الروايات التى فى غير البخارى ومسلم هو السند ورواته، أو زيادة طفيفة لا تغير أصل الحكم.

وكحديث صلاة الاستخارة ودعائها الذى رواه البخارى وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله بلفظ «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إنى أستخيرك بعلمك..... إلى آخر الحديث.

لكن عندما أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير بلفظ «إذا أراد أحدكم أمراً فليقل: اللهم إنى أستخيرك بعلمك.....» قال عنه الألبانى: إنه ضعيف، ولعله

لعدم ذكر الصلاة. وهذا يجعل الإنسان يشك في الحديث الصحيح المروى عن الثقات.

ومثل ذلك أيضا حديث «الحرب خدعة» رواه مسلم في صحيحه، ولما رواه أبو يعلى قال البوصيرى: فيه هشام بن زياد وهو ضعيف، «المطالب العالية ج ٢ ص ١٩٥» فالذى ضعفه هو راو من رواة السند.

أستمنحك العفو أيها القارئ، إذا أطلت قليلا في الكلام على الحديث الضعيف، لأهميته حتى تعرف شيئا عن منهج المسلمين في رواية الحديث، وحتى لا تصدم حين تعلم أن حديثا مقبولا حكم عليه بعض بالضعف، أو بالعكس.

والسنة النبوية التي أعتمد عليها أراجع فيها الشروح المعتمدة، كفتح البارى لابن حجر العسقلانى، وشرح النووى على صحيح مسلم، وأكثر ما اعتمدت عليه من كتب السنة وشروحها، هذان الكتابان، وشروح رياض الصالحين للنووى، والترغيب والترهيب للمندرى، والمواهب اللدنية للقسطلانى، والجامع الصغير للسيوطى وكذا نيل الأوطار للشوكانى، وزاد المعاد لابن القيم.

هذا، وقد يصادفك عند حديث من الأحاديث لفظ «متفق عليه» أو «رواه الشيخان» أو «رواه الخمسة» أو «رواه الجماعة».. والكتب الأصلية مختلفة في الاصطلاح على هذه الرموز، فلفظ «متفق عليه» يعنى أن البخارى ومسلما أخرجاه في صحيحيهما. وهو عند ابن تيمية في «منتقى الأخبار» وشرحه «نيل الأوطار» للشوكانى يستعمل فيما رواه البخارى ومسلم وأحمد بن حنبل.

ومعنى «رواه الشيخان» رواه البخارى ومسلم.

ومعنى «رواه الخمسة» عند ابن تيمية والشوكانى - رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وهم: الترمذى والنسائى وأبو داود وابن ماجه.

ومعنى رواه الجماعة: رواه السبعة كلهم: البخارى ومسلم وأحمد وأصحاب السنن الأربعة المذكورون.

وأحب أن أُنبه أيضا إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو بشر رسول، كان يعامل زوجاته أحيانا بشكل تظهر فيه شخصيته الإنسانية أكثر من شخصيته الرسولية، فمعاملته مثلا للسيدة خديجة قبل الرسالة كانت إنسانية محضة وكانت معاملة نبيلة مثالية، لأنه مهياً في هذه الفترة ليكون رسولا نموذجا للناس، وبعد الرسالة عامل زوجاته بمزيج من الشخصيتين، بحيث يصعب على الإنسان أن يفرق بينهما حيث لا يوجد فاصل واضح بين ما يقتدى به فيه وما لا يقتدى به، ويتضح ذلك في أحواله وتروكه، وتوضيح مدى الاقتداء به عليه الصلاة والسلام يرجع إليه في بحثي عن: الاتباع والابتداع، في كتابي «توجيهات دينية واجتماعية».

ولعل مما يوضح هذا الجانب في حياة الرسول مع زوجاته حادث التخيير، عندما اجتمعن حوله وطالبته كل بما يمتنعها من خيرات الدنيا كما تتمتع نساء الملوك، فما دفعهن إلى ذلك إلا شعورهن بإنسانية الرسول شعورا أوضح وأقوى، وبخاصة عندما تحملهن وهن يطالبنه تقديرا لكونهن نساء من البشر، ثم نبههن أخيرا إلى شخصيته الرسولية فعرض عليهن البقاء معه على حاله أو تطليقهن، واعتزلهن شهرا، وسيأتي مزيد توضيح لذلك عند بحث: تعدد الزوجات.

٣ - وكما أستمد مادتي ودليلي من الكتاب والسنة أستمدهما من أقوال الصحابة وأفعالهم فهم أدري بالإسلام في نصه وروحه، وقد نبهنا الرسول ﷺ إلى الأخذ عنهم والاقتداء بهم، كما نأخذ من الكتاب ونقتدى بالرسول الكريم. فألى جانب ما روى مسلم وابن ماجه وغيرهما عن جابر وهو يتحدث عن خطبة الرسول عليه الصلاة والسلام أنه كان فيما قال: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة» وما جاء عن ابن عباس في خطبة النبي في حجة الوداع:

«إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه» رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد، وله أصل في الصحيح^(١) جاء عن

(١) الترغيب ج ١ ص ٣١ .

العرباض بن سارية أنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون، فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح^(١). ومعنى: عضوا عليها بالنواجذ احرصوا على السنة والزموها كما يلزم العاض على الشيء بنواجذه خوفا من ذهابه وتفلقته، والنواجذ هي الأنياب، وقيل الأضراس^(٢).

وأحوال الصحابة معروفة في الكتب الهامة التي أشرت إليها في كتب السنة، وفي كتب الفقه الكبرى كالمجموع للنووي، والمغنى لابن قدامة.

وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أوصانا باتباع سنة الخلفاء الراشدين، فإنه قد روى عنه أنه أرشدنا إلى الأخذ بهدى غيرهم من بقية أصحابه «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم، روى معناه عن أنس وعن ابن عمر، والإسنادان ضعيفان^(٣). وقد اعتمد كثير من الفقهاء أقوال الصحابة وبخاصة فيما لا مجال فيه للرأي، وعده بعضهم من المرفوع إلى النبي ﷺ.

وإذا ضربت مثلا بغير عهد الصحابة كالتابعين وتابعيهم فإنما ذلك لتقوية الحكم لا لإثبات أصله، وذلك إذا كان موافقا لهدى الكتاب والسنة والخلفاء الراشدين.

أما الحوادث الفردية لشخصيات ليس لها مقام التشريع والاقتداء، وهي تخالف المأثور القوي، فلا أعنى بذكرها للرد عليها أو التماس مخرج لها، فإنها خارجة عن الأصل وشاذة وسط الكثير الغالب، وهذا كاف في عدم الاعتماد عليها.

(١، ٢) الترغيب ج ١ ص ٣٣ . (٣) المطالب العالية ج ٤ ص ١٤٦ .

وذلك كما نقلت كتب الأدب والتاريخ عن عائشة بنت طلحة التي كانت تفخر بجمالها فتسفر عن وجهها أحيانا، فإن ذلك لا يضرنا فهي ليست ممن يؤخذ عنها أو يقتدى بها على فرض صحة ما نسب إليها. وقد يكون في ذكر حادثتها في السفر تنبيه للناس على غلط من نسب ذلك إلى عائشة أم المؤمنين، للتشابه بين الاسمين، وهي أيضا بنت أختها أم كلثوم بنت أبي بكر.

٤ - ومن المصادر التي اعتمدت عليها في معرفة الأحكام كتب الفقه المذهبي^(١)، وبخاصة منها ما يتحدث عن المذاهب المعروفة لا يختص بمذهب واحد، كمجموع النووي ومغنى ابن قدامة، ونيل الأوطار للشوكاني، وكذلك شرح النووي لمسلم، والكتابان الأخيران وإن كانا كتابي حديث إلا أنهما يعنيان بالفروع الفقهية، ومثلهما زاد المعاد لابن القيم، وقد حاولت البعد عن التفريعات الكثيرة إلا في بعض المسائل الهامة، محيلا القارئ إلى مظانها من كتب الفقه حيث تكون المناقشة والترجيح، وما يحتاجه الفقهاء والقضاة والدارسون المختصون للإهداء إلى حكم أو بحث مسألة معينة بحثا عميقا.

٥ - وكذلك من المصادر التي مونت بها كتابي لا لإثبات حكم شرعي، بل لتقويته أو توضيحه، أو لمجرد تلبيته للغريزة الإنسانية في حب الاستطلاع، أو لإعطاء صورة عن مجتمع أو فترة من فترات التاريخ، أو للترفيه عن النفس بالطرف والملح - من هذه المصادر كتب التاريخ الإسلامي والعام، والكتب

(١) أشهر المذاهب السنية السائدة الآن: (من كتاب الباعث الحثيث لابن كثير).

١ - مذهب أبي حنيفة، توفي ببغداد سنة ١٥٠ هـ عن ٧٠ سنة.

٢ - مذهب الشافعي، توفي بمصر سنة ٢٠٤ هـ عن ٥٤ سنة.

٣ - مذهب مالك، توفي بالمدينة سنة ١٧٩ هـ، وقد جاوز الثمانين.

٤ - مذهب أحمد بن حنبل، توفي ببغداد سنة ٢٤١ هـ عن ٧٧ سنة.

ومن الفقهاء:

١ - سفيان الثوري. توفي بالبصرة سنة ١٦١ هـ عن ٦٤ سنة.

٢ - الأوزاعي. توفي ببغداد سنة ١٥٧ هـ عن ٧٠ سنة.

٣ - إسحاق بن راهويه. توفي ٢٣٨ هـ عن ٧٧ سنة.

الاجتماعية، والكتب التى تخص الأسرة، وكذلك كتب الأدب والرحلات وما إليها، وما ينشر وما يذاع بالوسائل المتعددة.

المواد التاريخية والصور الاجتماعية وبخاصة ما كان متصلا منها بالشعوب البدائية والمجتمعات النائية اعتمدت فيها على ما كتبه ذوو الاختصاص فى كتبهم وما نشره فى الصحف والمجلات، وكتب الرحلات لها ميزة ظاهرة وبخاصة الكتب القديمة، فرحلة ابن بطوطة مثلا تصور حياة الناس تصويرا دقيقا فى عصره، ورحلات محمد ثابت تناولت كثيرا من المشاهدات والتعليقات على الحياة المعاصرة.

والكتب والدارسون وبعض ناشرى الرحلات نقلوا بدورهم بعض معلوماتهم عما كتبه المختصون والمهتمون بالدراسات التاريخية والاجتماعية من الغربيين أمثال «وستر مارك، وبول جيلر وسبنسر وغيرهم» الذين اعتمدوا هم أيضا على معارف غيرهم من الباحثين والدارسين والرحالة والمكتشفين، ذلك أن الدراسات الاجتماعية بالذات - لأنها تتناول أكثر من لون - تحتاج إلى جهود متضافرة متضامنة لتبرز الصورة التى يريد الكاتب لبحثه عن المجتمعات والحضارات.

والصحف والمجلات تنشر أخبارا جديدة عن حياة الناس فى العالم، ودراسات وافية لبعض الموضوعات. والإذاعة المسموعة أو المرئية فيها تسجيلات حية دقيقة لحياة بعض الشعوب وعباداتهم تصلح مادة خصبة للدراسة الاجتماعية، فكل ذلك يكمل الصورة التى يريد الباحث ويحددها تحديدا واضحا بقدر الإمكان.

وأحب أن يتنبه القراء إلى أن الخبر المنشور أو الصورة التى رآها الرحالة، أو الانطباع الذى دونه الكاتب قد يكون خاصا بالمجتمع أو البلد أو الولاية التى نقل عنها هذا العرف، ولا يلزم منه أن يكون عرفا عاما للدولة كلها أو الأمة بأسرها. ففى الصين والهند مثلا قبائل متعددة ومجتمعات متنوعة، لكل منها تقاليدها

الخاصة، لا ينبغي أن نعطي منها حكما عاما على الصين كلها أو الهند كلها وهكذا، على أن الصورة المنقولة قد تتغير إلى أفضل، وقد تزول تماما، فالمنقول يعبر عن وقته فقط، ولو عرف القراء هذا لاندفع كثير من الاعتراضات على ما دون في هذا الكتاب خاصا بقوم معينين أو لفترة معينة، وتدوينه على ما هو عليه له فائدة كبيرة عند الدارسين وبخاصة في مجال المقارنة ودراسة حركة التطور البشرى.

٦ - إن خبرتى الشخصية هي أحد المصادر لمادة الكتاب، وبعض الحلول لمشكلات الأسرة ربما لا تكون في كتاب مدون، وإذا كانت مدونة في كتب سابقة فحسبى أننى أبرزتها ووضحتها وأعطيتها اللون العصرى ليسهل فهمها بالأسلوب الجديد. لقد كانت حياتى فى الوظيفة واحتكاكى بالمجتمع فرصة لبحث المشكلات التى تعرض على، فى استقصاء عللها وأسبابها، والبحث عن الحلول المناسبة لها من هداية الدين وما يجرى عليه العرف الذى يختلف من بيئة إلى بيئة، حيث تكون مشكلات التطبيق للنص واضحة ولا ينبغي أن نقف حيالها عاجزين، بل لا بد من التصرف على أى نحو لحل المشكلة مع الحفاظ على قدسية النص بالطبع، وانتهاز فرصة الخلاف فى آراء المفسرين لاختيار أنسبها فى هذا المجال.

وليكن معلوما للقارىء أن هناك أمورا جدد فى المجتمع بقانون التطور البشرى ولم تكن موجودة فى العهد التشريعى الأول، وتواضع الناس على أثرها الطيب، فى الوقت الذى لم يرد فى الدين ما يعارضها، وهنا أتركها بغير استدلال خاص مكتفيا، إما باندراجها تحت أصل دينى عام يقرها، وإما بعدم وجود ما يعارضها من نصوص الدين.

وبهذا لا ينبغي أن يقال عن الاجراءات الحديثة المفيدة إنها بدعة غير مشروعة، استنادا على أنها لو كانت مشروعة لورد النص بها، أو وجدت فى العهد التشريعى الأول، فتسجيل المولود فى السجلات الرسمية لا ينبغي أن يقال

عنه إنه بدعة مرفوضة لمجرد أنه لم يرد فيه نص بعينه، أو لم يكن معهودا من قبل، بل إن هذا التسجيل، فوق أنه طاعة لأولى الأمر في الأمور التنظيمية التي لا ياباها الدين، يضمن للمولود الحقوق التي لا تنال إلا بتسجيله، ولا يقال إن طاعة ولى الأمر في هذا غير واجبة، فإنه لا دليل مطلقا على أنه معصية حتى لا يطاع فيه، ومن المقرر أن وسيلة الشيء تأخذ حكمه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وكم من الأمور في هذا العصر حتمتها الظروف لا تنال إلا بإجراءات مرفوضة من ولى الأمر، ومهما يكن هذا الولى من عدل أو ظلم، فإن الحقوق التي عند الظالم لو أمكنك التوصل إليها بما ليس محرما فعليك أن تسلك لها هذا السبيل.

وكذلك ما يقيمه الوالدان من حفل عيد الميلاد للطفل إظهارا لفرحهما به، وقد يكون معه شكر ضمنى لله على هذه النعمة، إذا دعى له الأصحاب ولم يصحبه منكر فلا بأس به مطلقا، ولا يقال: إنه بدعة مستحذثة هي وصاحبها في النار، فإن من يدعى ذلك إما مخطيء في فهم الدين أو جاهل بسماحته التي جعلته قابلا لكل زمان ومكان، وهذا الحفل ليس قرينة خالصة أو عبادة حتى تجرى عليه معنى البدعة المنكرة، ولم يصحبه محرّم حتى يكون محرما لا لذاته بل لعارض عرض كشرب الخمر فيه أو اختلاط الجنسين وغير ذلك مما لا يقره أحد لا عقلا ولا ذوقا ولا ديناً.

ومهما يكن من شيء فإن مجال تفصيل معنى البدعة وما تكون فيه يمكن الرجوع إليه في كتابي «توجيهات دينية واجتماعية».

٧ - قد أنقل نصوصا عن التوراة والإنجيل، عند عرض نظام اليهود أو النصراني في موضوع معين، وليس هذا أولا وبالذات اعترافا بتنزل ما يوجد الآن من التوراة والإنجيل، ولا هو لإثبات حكم شرعى ندين نحن به، وإنما غالب ذلك يكون في عرض تاريخي أو إبراز صورة حاصلة عندهم من واقع ما يعترفون هم به لنقارنها بما عند الإسلام، وقد تكون في نصوص كتبهم صور مشوهة عن قداسة

الأنبياء لا يقرها المسلمون، وهنا قد أصرح بكذبها، وقد أتركها كاعتقاد خاص بهم لا نلزم نحن به، وقد أنسب إلى غيرى الحكم عليها مكتفيا بذلك.

٨ - فى هذا الكتاب أعرض موقف الإسلام من المشكلات من واقع النصوص والمنابع الأخرى، وإذا عرضت الآراء الأخرى غير الإسلامية فإنما أعرضها لقياسها بمقياس الإسلام، لا لقياس حل الإسلام بها، فإنها عرضة للتغيير لأن كثيرا منها فى دور التجربة، وهى وضع بشرى لا ينبغى أن يكون مقياسا مقدما على الوضع الإلهى الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٩ - حاولت أن أربط بين النص الدينى والواقع الحالى من النظم، مع عدم الإسراف أو التعسف فى التأويل حتى يتمشى النص مع الآراء الحديثة التى تثبت صحتها، فالذى تثبت صحته من الآراء والإجراءات لا داعى لالتماس دليل من الكتاب والسنة عليه، وهذا الشئ الجديد قد تكون صحته لوقت معين أو بيئة خاصة، لا يوافق عصرا آخر أو بيئة أخرى. ويكفى لصحة أى نظام صدق تطبيقه وبخاصة ما دام لا يخالف نصا شرعيا أو حقيقة فقهية متفقا عليها.

١٠ - إن أكثر اهتمامى فى هذا الكتاب هو توضيح حكمة التشريع، مع عدم الاستطراد فى الخلافات الفقهية إلا فى مسائل قليلة هامة كتنظيم النسل مثلا وكختان البنات وتعدد الزوجات، وغير ذلك مما ثار حوله الكلام كثيرا فى عصرنا الأخير.

ولى رأى فى الفروع الفقهية: أن الأصول إذا سلمت فلا ضير فى اتباع رأى من آراء الفقهاء فى الفروع. والمجتهدون الآن يحاولون اختيار رأى من آراء الفقهاء يتناسب مع العصر فى قضايا المعقدة ومشكلاته الضاغطة، بصرف النظر عن التزام مذهب فقهى معين. وأقصد بهذا أن أنبه إلى أن هناك بعضا ربما لا يعجبهم حكم فقهى أو رأى اخترته استنادا إلى قول إمام من الأئمة أو صاحب من أصحابه، وهنا قد ينقدون ما اخترته نقدا مرا يفهم منه أن خلافه هو الصحيح الذى لا معدى عنه، وهذا تعصب ممقوت للآراء الفقهية فى الفروع بالذات،

وقصور فى الاطلاع على الكتب الفقهيّة الخصبّة الزاخرة بعرض الآراء المختلفة،
التي لو اطلع عليها لهاله ما رأى، ولخفت حدة تعصبه لرأيه أو رأى إمامه الذى
أحب أن يتبع مذهبه.

١١ - لقد التزمت ترقيم الآيات، وتخريج الأحاديث - فى الأعم الأغلب -
وبيان مراجعها أو مصادرها المعتمدة والمألوفة، وقد أذكر موضع الحديث فى
صحيح البخارى مثلاً، وقد اكتفى بعزوه إلى كتاب معتمد أثبت أنه فى صحيح
البخارى، وذلك كرياض الصالحين أو الترغيب والترهيب، وقليلاً ما أعتمد على
المصادر الحديثة غير المشهورة، وكذلك بينت مصادر الأحداث التاريخيّة
والقصص والطرف وما إلى ذلك مما مونت به كتابى، وقل أن أورد شيئاً بغير بيان
مصدره.

وليعذرني القارىء إذا حاول التثبت من صحة العزو إلى كتاب فوجد عدم
تطابق بين ما فى ذلك الكتاب وبين ما أثبتته، ذلك أنه إلى جانب جواز الخطأ،
توجد عدة طبعات للكتاب الواحد تختلف فيها الأجزاء وأرقام الصفحات، فلا
ينبغى أن يسرع القارىء بالشك فيما عزوت أو الطعن فى عدم الدقة.

ويلاحظ أننى أحياناً أعزو القول إلى صاحبه ليتحمل تبعته من الصحة
أو الخطأ، أو القبول أو الرفض، دون أن أبدى رأياً فيه، ولا يحمل سكوتى على
أننى أوافق، فإنى أترك الفرصة لغيرى لبحثه ويحكم عليه بنفسه.

١٢ - لقد عرضت المسائل بأسلوب مبسط، يجمع إلى سهولة العبارة عمق
الفكرة، وليس فيه اختصار مخل ولا تطويل ممل، والكتاب ليس موضوعاً للخاصة
حتى يركز، ولا للمبتدئين حتى يسهب فيه ويطول، ولكنه لكل المهتمين
بالمشكلات وحلولها، سواء منهم المحترفون كالباحثين الاجتماعيين وغير المحترفين
كعامّة المثقفين، ولعل الأسلوب المبسط يرضى الطبقة المتوسطة، والفكرة العميقة
ترضى الخاصة من المثقفين.

وقد اجتهدت ما أمكننى فى تنظيم البحث، حتى تتكون من المادة وحدة

يمكن الإمام بها في يسر وسهولة، وليستطيع القارئ أن يستعيدها بدون كبير عناء، وطريقة العرض متعبة للغاية، وبناء كيان منسجم من ركام المواد المتنوعة يحتاج إلى مهارة بالغة، وما أمكنني قد عملته، وربما لا يرضى غيري، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

١٣ - إن الدراسة الاجتماعية الوافية للأسرة عموما وللأسرة الإسلامية بوجه خاص، تحتاج إلى جهد كبير يعتمد أساسا على استقصاء واسع لمختلف البيئات في تاريخها وتطورها، وتأثير الإسلام فيها وتأثيرها فيه، وفي مدى اتباع المسلمين لهديه الصافي النقي، وتحتاج إلى جهود كثيرة متضافرة كذلك، وقد يكون هذا ميسرا لمن تفرغ له، ولكن حسبي أننى أوردت بعض النماذج للاستئناس، ووضعت شمعة على الطريق يمكن أن تضم إليها شمعات، غير أن الجانب الديني في الأسرة هو الذي فاز منى بنصيب غير قليل من البحث والتحرير والاستنتاج. وهو أمر فيه يسر نوعا لأن في الإسلام وفاء تاما لعلاج جميع مشكلات الأسرة، وإن كان التقاط هذا العلاج من مظانه المبعثرة يحتاج إلى صبر طويل ومران كبير.

١٤ - هذا، وقد جعلت الكتاب كروضة غناء نضرة، تناثرت فيها الأزاهير وتنوعت المناظر الساحرة، ينتقل فيها القارئ من نص قرآني إلى حديث نبوي، ومن حكم فقهى إلى حدث تاريخي، ومن قصة مشوقة إلى طرفة شيقة، ومن حكمة أدبية إلى أمثال مروية، ومن أسلوب تجريدي إلى تحليل واقعي، ومن طراز شرقي إلى لون غربي، وهكذا تتعدد الألوان والمنازل، ليفيد القارئ ثقافة متنوعة، فيتضح لديه الموضوع أولا، ولا تمل نفسه ثانيا، فهي كما يقول إسماعيل بن القاسم «أبو العتاهية»:

لا يصلح النفس إذ كانت مدابرة إلا التنقل من حال إلى حال

ومعنى مدابرة: غير مقبلة، أى منصرفة^(١).

(١) زهر الآداب للحصري ج ١ ص ٢ طبعة الحلبي.

١٥ - قبل أن أنتهى من الأسس التى قام عليها منهج البحث أحب أن أنبه إلى مسألة فى غاية الدقة والأهمية وهى :

أن الكتاب قد تكون فيه بعض عبارات أو بعض أبحاث تتصل بالجنس، وقد عرضتها بغير أسلوب الأدب المكشوف الذى يعيبه بعض المعاصرين، وقصدت بعرضها العف المهدب بيان الحكم الشرعى الذى يجب على كل مسلم ومسلمة معرفته بدون خجل أو حياء، ولم أقصد بذلك إثارة شهوة، كما يريد بعض الكاتبين فى الأدب الرخيص.

والتربية الجنسية بهذا الهدف وبهذا الأسلوب كانت لها عناية فى كتب المسلمين فى جميع عصور التاريخ، انظر كتب الفقه فى المذاهب كلها، وانظر ما كتبه ابن القيم فى زاد المعاد فى هذا الموضوع، ولو أننا عنيينا بالتربية الجنسية على النحو الإسلامى ما كان هناك مكان للكتب الرخيصة التى يتهافت الناس عليها اليوم.

إن الصحابييات سألن رسول الله ﷺ فى مسائل دقيقة حول هذا الموضوع ولم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين، وستصادفك صور كثيرة من هذا فى عدة مواضع من الكتاب، فاقراها على ضوء ما بينت لك، وذع الظنون والأوهام، ولا تسرع بالاتهام، والله يتولانا جميعا بهداه.

ومن الملاحظ فى عصر الحرية والإنطلاق أن بعض الذين يعيبون الكتابة فى الجنس من بعض الأشخاص لا يرون عيبا فى التحدث عن الجنس بالوسائل الأخرى كعرض الصور الفاضحة فى الصحف والمجلات، وكالقبيل والحركات والكلمات الخليعة فى الأفلام، وكثيرا ما يبررون ذلك بأنه فن، وقد يمتدحون فيه ناحية من نواحي الجمال الفنى، بل إن بعض الصحف تنشر مذكرات لعاهرات ولا يرى الكثير بأسا من قراءتها ونشرها كمذكرات «نورماليفى» بطله أشهر فضيحة أخلاقية فى بريطانيا التى نشرتها جريدة «القبس» الكويتية فى شهرى مايو ويونيه ١٩٧٤ م .

وأولى بكل هذا أن يسمى أدبا مكشوفاً يجب منعه، لكن إذا عرضت المسائل عرضاً فقهياً مهذباً من مختص ظن به بعض الناس أسوأ الظنون، ويا ويل الناس من الناس:

أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس ؟

تسمية الكتاب وتقسيمه :

لقد وضعت أمامي عدة عناوين لهذا الكتاب فاخترت منها عنوان :

«الأسرة تحت رعاية الإسلام»

وذلك لأسباب : منها أنني أريد إبراز العلاقة الوثيقة بين الأسرة والدين، فارتباط الزوجين بعضهما ببعض ليس ارتباطاً طبيعياً تمليه الغريزة الجنسية فحسب، ولكنه ارتباط ديني، يقوم أمثاله على الثواب والتفريط فيه على العقاب، وكذلك علاقة الوالدين بالولد ليست علاقة تملئها عاطفة الأبوة أو الأمومة ولكنها عاطفة دينية أيضاً، فيها ثواب وعقاب .

وجميع الأديان السماوية قد وضعت الأسرة في هذا الإطار فجعلت لها قدسيته وحرمتها، ورفضت أن تجعلها تحت إشراف مدني بحث كالمعاملات الدنيوية العادية، وذلك كله بغية القيام بمهام الحياة الزوجية بإخلاص يمليه الرجاء في رضوان الله قبل رضاء الناس، والخوف من عقوبته قبل الخوف من سطوة القانون الوضعي، والإخلاص في الأسرة يزيد قوة ومتانة، وبالتالي يكون المجتمع قويا متينا، وسيأتي توضيح هذه النقطة في مقدمة بحث الأولاد إن شاء الله تعالى .

ومن أسباب اختياري لهذا العنوان التأكيد على أن الإسلام فيه العلاج الكافي لكل المشكلات الإنسانية، ومنها مشكلات الأسرة، ذلك أنه دين كامل واف كما يقول الله سبحانه : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣]، وهو لا يكون كاملاً إذا خرجت الأسرة من نطاقه، ولا تكون النعمة تامة إذا تركت العلاقة الزوجية بدون تحديد يساعد على الشعور معها بالسكن النفسي، والله لا يرضى لنا الإسلام ديناً إذا

كان ناقص الهداية، فأين نبغى نظاماً للأسرة بعد الإسلام الذي قال الله فيه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وسيأتى مزيد توضيح لهذه النقطة فى مقدمة بحث حقوق الأولاد إن شاء الله.

ولقد كان من أسباب اختيارى لهذا العنوان أيضا إيمانى بأن علاج الإسلام لمشكلات الأسرة هو العلاج الأمثل، وهذا شأنه فى علاج جميع المشكلات الاجتماعية، القائم على مقررات نفسية وأصول تربوية، نابعة من طبيعة البشر ومناسبة لتطور الاجتماع، فهو يعالج المشكلة ككل، يتقصى أسبابها ويعالج كلا منها بما يناسبه، ويعالجها من الأعماق والجذور لا من السطح والشكل، ويسلك سبيل التدرج فى اقتلاع العادات المتأصلة، ويهيىء النفس تهيئة كاملة لتلقى الحكم، ويشرك كل الاختصاصات وجميع الأجهزة فى حل المشكلة الواحدة ذات المنابع المتعددة والآثار المتنوعة، ولا يعالج مشكلة على حساب أخرى، أو يعطى دواء ثم يترك وراءه داء، بل هو حكيم حكمة بالغة، لأنه صنع الله الذى أتقن كل شىء، وهو الحكيم الخبير، خلق الإنسان وهو يعلم كل ما يتعرض له وما يصلحه، ويعلم ما يصلح للنفس وما يصلح للبدن، وما يناسب العقل وما يلائم الغريزة، فكل ذلك منه وله وحده، ومن أراد استيفاء هذه النقطة فليرجع إلى كتابى «توجيهات دينية واجتماعية».

وسيأتى طرف منه فى أول الجزء الرابع إن شاء الله.

* * *

هذا وقد قسمت هذه «الموسوعة» إلى أجزاء:

الجزء الأول: فى مراحل تكوين الأسرة، ويتناول الحديث فيها: مقدمة الموسوعة، ونظرات عامة على الأسرة، ومقاييس اختيار الزوجين، والخطبة، والعقد، والزفاف.

الجزء الثانى: عن الحجاب بين التشريع والاجتماع ومكانة المرأة فى

الإسلام، وأضواء على النشاط النسوي في العالم الإسلامي . ويتناول الحديث في هذا الجزء: تحديد الحجاب، وحكمته، والسفور وآثاره، وعلاقة الحجاب بالنشاط الخارجي، ومنزلة المرأة في الإسلام، والحركات التحررية الأخيرة، وموقف الإسلام منها.

الجزء الثالث: عن حقوق الزوجية كما ينظمها الإسلام، والكلام فيها قسمان كبيران، أحدهما عن حقوق الزوجة على الزوج، والثاني عن حقوق الزوج على الزوجة.

الجزء الرابع: عن حقوق الأولاد في الإسلام، وتفصيل الرعاية البدنية والرعاية الأدبية، وبيان أسباب الانحراف وعلاجه.

الجزء الخامس: عن حقوق الوالدين على الأولاد، وعن صلة الأرحام، وحقوق الخدم وواجباتهم.

الجزء السادس: عن أهم مشكلات الأسرة: أزمة الزواج، تعدد الزوجات، الطلاق.

وفي نهاية كل جزء من الأجزاء دليل للأحاديث الواردة فيه ليتمكن الاهداء به إلى مواضعها في البحث ومعرفة مدى نسبتها إلى النبي ﷺ .
والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، إنه سميع مجيب .

القاهرة في يوم السبت ٢٨ من ربيع الآخر ١٤٠٠ هـ

١٥ من مارس ١٩٨٠ م

عطية صقر

مراحل تكوين الأسرة

يتناول الحديث عن مراحل تكوين الأسرة بيان مكانة الأسرة في نظر الإسلام، والأسس التي يختار عليها شريك الحياة، وإجراءات الخطبة، وعقد الزواج، ثم الدخول بالزوجة، وسأعقد لكل من هذه النقاط بابا خاصا، وتحت كل باب فصول توضح ما يحتويه هذا الباب بالتفصيل، على أن تسبق الأبواب مقدمة في أمور عامة تتعلق بالموضوع ككل لا بد من الإمام بها قبل الشروع في التفصيل، فنقول وبالله التوفيق.

المقدمة

١ - معنى عنوان الكتاب :

عودنا كبار مؤلفينا القدماء، جزاهم الله خيرا، أن نتصور عنوان الكتاب أو البحث ببيان مفرداته إن كان مركبا، وبالمراد منه بعد التركيب، وذلك نزولا على القول المعروف: الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وعنوان الكتاب وهو «الأسرة تحت رعاية الإسلام» فيه كلمات ثلاثة لايد من معرفة معناها، وهى: الأسرة، الرعاية، الإسلام.

(أ) فالأسرة فى اللغة العربية هى عشيرة الرجل ورهطه الأذنون، وسميت بهذا الاسم لما فيها من معنى القوة، حيث يتقوى بهم الرجل، والأسرة فى اللغة أيضا هى الدرع الحصينة، وفيها معنى القوة أيضا، ذلك أن مادة «أسر» تعطى معنى القوة والشدة، فالأسر هو شدة الخلق، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]، وأسر الجندى عدوه يعنى شده بالاسار، والاسار هو كل ما يشد به، ولذلك سمي المأخوذ أسيرا، لأنه يشد بالقيد.

والنطاق الذى يشمل العشيرة، والرهط، والأفراد الذين يدخلون تحت معنى الأسرة سيأتى توضيحه بعد، والأسرة فى نظر الشرع هى الجماعة التى ارتبطت ركنها بالنزواج الشرعى والتزمت بالحقوق والواجبات بين طرفيها وما نتج عنهما من ذرية وما اتصل بهما من أقارب سيحددون فيما بعد.

والأسرة فى عرف الناس تطلق على كل جماعة بينها رباط من نوع معين، فيقال مثلا، أسرة المعلمين، أسرة الفنانين، أسرة الأدباء، أو يقال: أسرة التعليم، أسرة الفن، أسرة الأدب.

وحدثنا فى هذا الكتاب عن الأسرة الشرعية.

(ب) والمراد بالرعاية الحفظ والوقاية والتنمية والزيادة، والفعل رعى، يقال: رعى الأمير رعيته رعاية ومثلها المراعاة يقال: راعى الأمر للاحظه وراعاه من مراعاة

الحقوق، فالرعاية مصدر للفعل «رعى»، المراعاة مصدر للفعل «راعى» فهو قياسى لما كان على وزن فاعل.

وهذه الرعاية تتحقق بجلب كل خير، ودفع كل شر، ولا يكون ذلك إلا بالتزام الأسرة لكل تعاليم الإسلام المتصلة بها.

(ج) والإسلام هو الدين الذى أرسل به محمد ﷺ، ورعاية الإسلام هى الرعاية التى تقوم على الأسس التى جاءت فى الإسلام مأخوذة من مصدرية الكبيرين الكتاب والسنة، ومما استنبطه منهما فقهاء التشريع، وما جاءت به قرائح المفكرين، متصلا بهذا الموضوع، وقد تقدم أن دين الإسلام لم يترك الأسرة دون تنظيم بمقتضى أنه دين كامل واف، وأن كتابه نزل تبيانا لكل شىء.

٢ - الزواج:

الزواج فى اللغة يعطى معنى انضمام شىء إلى شىء آخر ليصيرا زوجا أو زوجين، ولفظ الزوج يطلق فى اللغة على خلاف الفرد، وكل واحد من الرجل والمرأة يسمى زوجا، ويقال للثنين زوجان، وهما زوج، كما يقال: هما سيان وهما سواء. قال ابن سيده: الزوج هو الفرد الذى له قرين، والزوج هو الاثنان، والرجل زوج المرأة، وهى زوجه وزوجته، وأباها الأصمعى بالهاء. وأهل الحجاز يضعون «زوج» للمذكر والمؤنث وضعا واحدا، تقول المرأة: هذا زوجى، ويقول الرجل: هذه زوجى، قال تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقال: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ [النساء: ٢٠] أى امرأة مكان امرأة، والأصمعى تشدد بلا داع فى عدم قول زوجة لأن العرب قالوه.

قال الفرزدق:

وإن الذى يسعى يحرش زوجتى كساع إلى أسد الشرا يستبيلها

لعل معنى يستبيلها يجعلها تبول.

ويقولون: تزوج امرأة وزوجه الله إياها وتزوج بها، وأبى بعضهم تعديتها بالباء، مع أن الله يقول: ﴿وَزَوْجَانَهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠].

قال الفراء: تزوجت بامرأة لغة في أزدشنوءة، ومن شعر العرب:

يا صاح قل لذوى الزوجات كلهم أن ليس وصل إذا انحلت عرا الذنب
انتهى ملخصا من لسان العرب.

ومما جاء فى القرآن مفيدا لأن لفظ زوج يطلق على الفرد باعتبار اقترانه بالفرد الآخر أو اتصاله به على نحو ما من الاتصالات قوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤]. أى فردان من كل نوع من الأنواع الأربعة، فالزوجان من الضأن مثلا بينهما صلة نوعية وهى الذكورة والأنوثة بصرف النظر عن ارتباطهما بزواج، هذا فى اللغة، أما الزواج فى الشرع فهو العقد الذى يباح به للرجل التمتع بالمرأة والالتزام بالواجبات المقررة بينهما، على أن يكون هذا العقد بلفظ زواج أو نكاح أو نحوهما: حتى يخرج بذلك المخاللة والهبة والتمتع بملك اليمين، وسيأتى توضيح ذلك فى موضعه.

٣ - العلاقة بين الزواج والأسرة:

إن الزواج المراد به لغة مجرد اقتران ذكر بأنثى لا يلزم منه تكوين أسرة شرعية من رجل وامرأة فهو كاقتران ذكر الحيوان بأنثاه، وكاتفاق رجل وامرأة على الاتصال الجنسى دون أن يكون هناك استقرار والتزام بالحقوق والواجبات بينهما وبين ما ينتج منهما، فالأسرة الشرعية التى نتحدث عنها هى التى تكونت عن طريق الزواج الشرعى.

والملاحظ فى طبيعة المخلوقات أن الله سبحانه وتعالى خلق من كل شىء زوجين، ذكرا وأنثى أو سالباً وموجباً. يكون أحدهما محتاجاً إلى الآخر احتياجاً تمليه طبيعته وذاتيته المادية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ ﴿ [الذاريات : ٤٩] ، وقال : ﴿ سَبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ
الْأَرْضَ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : ٣٦] . فالتعميم فى الآية الأولى
﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يدخل النبات والحيوان مع الإنسان بل يدخل الجماد أيضا،
حيث يرجع أصل الجميع، كما قرر البحث الحديث، إلى المادة، والمادة تنتهى إلى
الذرة، والذرة لها عناصر ذات شحنات كهربية سالبة وموجبة، فالسلب والإيجاب
يعطى معنى الزوجية فى كل شىء .

والآية الثانية، قد يراد من كلمة « الأزواج » فيها الأصناف والأنواع،
سواء أكان التصنيف والتنوع بحسب المركبات والمقومات المادية، أم
بحسب الأشكال والصور، أم بحسب الألوان والطعوم والروائح، أى بحسب
المادة أو الصورة . وهذا بالطبع دليل على قدرة الله فى تشكيله للكائنات بهذا
الاتساع فى كل الأنواع : النبات والإنسان والمجهول الذى لا يعلمه إلا الله وحده،
أو كان مجهولا للعرب عند نزول القرآن وسيعلم بعد . وذلك كما فى الكهرباء
السالبة والموجبة التى لم يكن للعرب بل للعالم علم بها إذ ذاك ثم عرفت أخيرا .
وهذا التشكيل يدحض شبهة القائلين بأن العالم مخلوق بالطبع أو بالعلة،
أو موجود بالصدفة . فإن ما كان مخلوقا بذلك لا يوجد فيه هذا التنوع، كما
قرره علماء التوحيد .

وقد يراد بالأزواج فى هذه الآية الذكر والأنثى أو السالب والموجب، فى
النبات والحيوان والإنسان . وفى القوى الخفية وهى الكهرباء مثلا .

وكان السرفى خلق زوجين من النبات والحيوان هو التكاثر اللازم لتعمير
الأرض واستمرار الحياة فيها، وقد ترك الله هذه المخلوقات تتزاوج وتتفرن مسوقة
بغرائزها أو بالسنن الطبيعية الكامنة فيها، لأن المقصود الأول منها هو التكاثر عن
طريق التناسل، وهو فى حقيقته لخدمة الإنسان الذى جعله الله سيد الكون،
بمعنى أنه سخر له الكون وخلق له كل ما فى الأرض من أجل تحقيق خلافته فيها،
قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ

عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةٌ وَبَاطِنَةٌ ﴿ [لقمان: ٢٠]، وقال: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ
لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩] إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على
أن وجود هذه المخلوقات وتزاوجها وتناسلها إنما هو لخدمة الإنسان .

أما تناسل الإنسان وتزاوجه ليكون محققا لحكمة وجوده فله طريقة معينة
تدخلت فيها أوامر الله وإرشاداته، فهو سبحانه لا يريد كثرة آدمية أيا كانت
الكثرة . وإلا كان هو والبهائم والمخلوقات الأخرى سواء، لكنه يريد من تزاوجه
تنظيم حياته حتى يتمكن من أداء مهمته التي خلق لها، إن البهائم والنبات ليس
لها دور قيادي في الوجود، وليس لها حقوق والتزامات بعضها نحو بعض،
فالحكم فيها للقوى، والسلوك فيها مسير بالغرائز، وبخاصة في قطاع الجنس
والغذاء، أما ما وراء ذلك فليس من رسالة أحد إلا الإنسان، فلتكن العلاقات بين
غير الإنسان كما تكون .

ولكن الإنسان، مع غرائزه التي يشرك فيها الحيوان، له عقل يفكر، وله معان
أدبية، له وجدان وضمير، فلا بد أن يتدخل أمر الله في تنظيم حياته ليساعد
عقله الذي كرمه به، على هذا التنظيم .

إن أنثى الحيوان إذا اتصل بها الذكر انتهت العلاقة بينهما بعد ذلك
مباشرة . فهو يتصل بغيرها كما اتصل بها، وهى عند حاجتها لذلك لا تتقيد
بالبحث عنه بالذات بل تمكّن أى ذكر منها ليقضى حاجتها الغريزية، وذلك كله
فى أغلب الأحيان عند أغلب الحيوانات، فالذكر غير ملزم بالأنثى بعد الاتصال
فى طعام أو مأوى مثلا، وليس ملزما بما تلده هى من حيوانات . فغريزتها تلزمها
بمساعدة ما تلده إلى وقت ما ثم يستقل المولود عنها، وهذا، كما قلت، هو الأعم
الأغلب فى الحيوانات، وقد يكون فيها النادر الذى يحس ببعض الالتزامات نحو
الأنثى، وبخاصة عندما تضع البيض مثلا، فهو يشاركها احتضانها، كما يشاركها
فى جمع الطعام للفراخ . أحيانا .

أما الإنسان صاحب الرسالة الكبرى فلا بد أن يكون تناسله على نحو يحقق هذه الرسالة، أى يكون فيه الاستقرار والسكن المشعر بالتعاون والراحة النفسية، مع إحساس كل بواجبه نحو الآخر، وبالأخص نحو الناتج منهما، فهو ليس كالناتج من الحيوانات الأخرى، إذ لا يستطيع أن يستقل بكسبه. كما يولد غيره كاسيا كاسبا، بل يظل محتاجا إلى عون أمه بلبنها وخدمتها، وعون أبيه برعايته وتقويمه وتوفير مطالبه.

والطبيعة الإنسانية إذا كانت تدفع لهذه الرعاية، فإن بعضا من الناس ربما لا يحسون بهذا الواجب فيقتصروا فيه، ومن هنا جاءت الأديان تركز فيهم المعنى الإنسانى، وتضع الحدود والمعالم للطريق الصحيح فى التزاوج والتناسل عن طريق تكوين الأسر المستقرة، التى هى جماعة صغيرة تعطى صورة للمجتمع الكبير. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فقلوه: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يشير إلى المعنى الطبيعى فى الزواج، وقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا...﴾ يشير إلى المعنى الأدبى فيه، وسيوضح هذا المعنى عند ذكر وظائف الأسرة. ويتضح الفرق أيضا بين التزاوج الطبيعى والتزاوج الشرعى المكون للأسرة، فى أن الله سبحانه ترك الأول للسنن الكونية والغرائز المودعة فى المخلوقات، وإن كان هناك تنظيم للتزاوج الطبيعى فيه فهو من الإنسان نفسه الذى يتدخل بعقله وتجاربه لمراقبة التزاوج من أجل مصلحته هو لا مصلحة الحيوان والنبات، كما يشاهد فى التلقيح الصناعى والتهجين والانتخاب، لتحسين الأنواع وكثرة الانتاج، فهو تدخل من الإنسان مباشرة لمصلحته أولا وبالذات، والله سبحانه قد خول له ذلك التدخل بحكم تسخير الكون له وإباحة التمتع بكل ما فيه فى حدود ما شرعه، وما يحقق رسالته.

ومن هذا العرض يظهر الفرق بين التزاوج الطبيعى وبين الأسرة الإنسانية الشرعية.

٤ - وظائف الأسرة :

إن وظيفة الأسرة مرتبطة بمبدأ تكوينها ومدى إتساعها وشمولها لأفرادها، وهى بهذا تتطور وتتغير، فمثلا عندما كانت الأسرة تطلق على العشيرة الكبيرة كانت وظيفتها كبيرة واسعة تشبه وظيفة شيخ القبيلة، أو حاكم الشعب فى نشاطها الاقتصادى والاجتماعى والقضائى وغيره، فهى أسرة تشبه الدولة المستقلة القائمة بجميع شئونها، وكذلك الأسرة الرومانية القديمة كانت تقريبا على هذا المنوال، فقد منحت النظم الرومانية مثلا عمداء الأسر سلطة قضائية واسعة، حتى استطاع أن يحكم العميد بالإعدام على أحد أفرادها، كما كان لهم وضع النظم الدينية والثقافية، كل فى محيطه .

ولما طغى سلطان المجتمع على سلطان الأسرة سلبها بعض وظائفها وكذلك لما قامت الأديان العالمية اختفت معها بعض النظم الدينية والقضائية والتشريعية والتنفيذية وما إليها .

ومع كل هذا السلطان الذى شارك الأسرة فى وظائفها وانتزع كثيرا من خصائصها . فما يزال لها دور كبير فى التربية الخاصة والعامة، وأثر واضح فى نظام المجتمع العام .

ولما كان الزواج الشرعى هو الوسيلة الصحيحة لتكوين الأسرة كان الحديث عنها حديثا عن الزواج فهما متلازمان .

إن الأسرة هى أول خلية فى جسم المجتمع، أو هى اللبنة الأولى فى بناء الهيكل الإنسانى العام، ومن أجل بناء المجتمع عليها كانت لها قوانين تحكم وجودها وارتباطها بالمجتمع، عن طريق الأديان والأعراف والتقاليد المتواضع عليها، فهى تؤثر فيه وتتأثر به كالجسم البشرى تماما .

وهى بهذا الوضع لها خصائص ومميزات ولها وظائف تؤديها يمكن إجمالها فيما يأتى :

١ - هى وسيلة للتكاثر النوعى المنظم كما سبق بيانه . فالتكاثر النوعى وإن

كان قد يحدث فى خارج نطاق الأسرة، غير أنه تكاثر غير منظم كتكاثر النبات والحيوان .

٢ - وهى وسيلة لانتقال الغرائز والاستعدادات من جيل إلى جيل انتقالا منظما . وهذا من أهم أعمالها فى نقل الصفات . والحديث فى هذا يوضح الأمر بحسن اختيار الزوجين، كما أنه فى جو الأسرة يمكن التحكم . أو السمو به، فبيئة الأسرة تساعد على بروز ما كمن فى أحد أعضائها ليعالج معالجة خاصة نافعة .

٣ - الأسرة باعتبارها مجموعة من أكثر من فرد هى الإطار الذى يحدد تصرفات الأفراد لا يتركها طليقة حرة من كل القيود . بل يكيفها بحيث تكون لمصلحة الآخرين بجلب الخير لهم ودفع الشر عنهم . وبهذا التبادل لروح التصرفات يقوى معنى الأسرة ويزيد استقرارها .

٤ - والأسرة بهذا الاعتبار هى مصدر العادات والتقاليد، فالأدب والنظام والتعاون والأمانة، والتكسب والادخار والإيثار... أول ما يصنع ذلك يصنع فى الأسرة، ويتلقاه الوليد مع لبن أمه وفى غنائها له وترقيصها إياه وخدمته، ويخرج إلى المجتمع مزودا بكل التأثيرات والانطباعات التى تلقاها فى مجتمعه الأول تحت إشراف الوالدين .

٥ - والأسرة أيضا وسيلة لخلق صفات جديدة فى الطفل أو الإسراع فى خلقها عن طريق القدوة والتقليد، كالنطق مثلا وهو القوة الكامنة تبرزها الأسرة أو تسرع فى إبرازها، بخلاف ما لو عاش فى غابة أو غير مجتمع إنسانى يشبه مجتمع الأسرة المحدود .

٦ - الأسرة هى المدرسة الأولى، أو المصنع الأول لتخريج جيل أو نسل صالح لمتابعة التطور البشرى، ولا يجاريها أى تنظيم فى هذه الأولية، ويتضح ذلك فى بحث حقوق الأولاد ودور الأبوين وبخاصة الأم فى هذا المجال .

٧ - الأسرة مؤسسة تعاونية، أقيمت في أحد أشكالها وفي أحد عصورها على أساس التعاون بين الرجل والمرأة في كسب العيش وتوفير الخدمة والاستقرار، وفي العصور البدائية كانت كل أسرة مستقلة بمطالبها ليست في حاجة قوية إلى أسر أخرى تساعد، فالرجل يصطاد الغذاء ويجلب الماء، والمرأة تساعد على طهوه وتقديمه له، يكفيها هو هم تحصيل القوت، وتكفيه هي إعداده وحراسة متاعه وتهيئة سبل الراحة له. بل إن المرأة في بعض المجتمعات كانت هي التي تتولى الأعمال التي تحصل منها قوت الأسرة، والرجل يقتصر عمله على الحراسة والحماية، ويكيف ذلك وضعهم البدائي.

٨ - ويقول المحدثون، بوحى من النظم الجديدة، إن الأسرة وحدة إحصائية نعمل الإحصاءات اللازمة للدولة لتقدير حاجات المجتمع من واقع حاجات كل أسرة، تيسيرا على جمع هذه المعلومات من الشعب كأفراد.

٩ - والأسرة هي العامل الأول الذى يشعر الإنسان بالانتماء، أى أنه منتسب إلى المجتمع وليس مضيعا مهملا لا حق له ولا واجب عليه، وهذا الشعور هو أساس المعنى الاجتماعى الذى لا يستغنى الإنسان عنه، فإن إدراك الطفل أنه محتاج لأمه فى تغذيته وحمايته يشعره بوجود الانتماء أو خلق الشعور الاجتماعى، ولا يترك الشعور الفردى الأنانى يستبد به، وهذا ما يشير إليه كتاب الاجتماع بقولهم: الإنسان مدنى بطبعه. كما يلاحظ فى شعور الانتماء إلى المجتمع الذى يقوى فى محيط الأسرة، أن الالتزام بقوانين الأسرة أقوى وأشد من الالتزام بقوانين الدولة العامة، نظرا لعوامل كثيرة، منها أن قوانين الأسرة تنفذ مع عامل الاحترام لها، وأنها أول ما عرف من قوانين تلتزم، وأن الرقابة فيها أقوى وفرص التفلت منها أقل. وأن الآثار الاجتماعى والأدبى المترتبة على مخالفتها أصعب على النفس من مخالفة القوانين العامة.

١٠ - تكوين الأسر المستقرة يحد من تنازع الرجال على النساء والتقاتل على الفوز بهن، فالأسرة بهذا مهذبة للغريزة الجنسية ومنظمة لها، وهى بهذا تبعد الإنسان عن الشبه بالحيوانات.

١١ - الأسرة الشرعية من أهم العوامل للسكن النفسى والراحة الفكرية، لكن الاتصال الجنسى خارج نطاقها لا يمنع القلق والاضطراب ولا تأنيب الضمير، ولا يوفر الاستقرار والسكن النفسى حتى لو عاش الإنسان مع زملاء من بنى جنسه، والإنسان بدون السكن النفسى لغريزته والروحى لقلبه وضميره مضيع، كالطفل الذى لا ينتمى إلى أسرة يحس فيها بحنان الأب وعطف الأم.

والسكن فى الأسرة يحس به كل من الطرفين، الزوج والزوجة، وكذلك الأطفال. والفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...﴾ [الروم: ٢١] يقول: إن السكن تعدى إلى، وهو سكن روحى، وليس سكنا ماديا فإنه يتعدى غالبا بغير اللام، مثل سكن عنده.

وهذا السكن الروحى بالزواج يؤكد حجة النوعين إليه حتى فى كبر السن، الذى يظهر فيه المعنى الروحى أكثر من المعنى المادى، بل إن حاجة كبار السن إلى الزواج قد تكون أشد من حاجة الشباب، وإن كان سبب الحاجة فيهما مختلفا.

كما أن مما يؤكد أن السكن فى الأسرة سكن روحى أن الله عطف عليه فى الآية قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وإن كان جعل المودة والرحمة عاما ليس خاصا بالزواج. وقد جعل الله هذه المودة والرحمة من الآيات الدالة على قدرته، ومن نعمه على عباده، فالسكن إلى الزوجة التى هى من نفس الإنسان آية قدرة ونعمة معا. فقدوته تظهر فى جعل النوعين يميلان بعضهما إلى بعض ميلا جنسيا، ونعمته فى إيجاد وسيلة أو مظهر لهذا الميل الذى يجد الإنسان فيه لذته، وقدرته فى جعل الناس عامة يتوادون ويتراحمون حيث يسيطر على نزعاتهم الفردية التى يعتد كل إنسان فيها بنفسه، وألف بين قلوبهم بالرحمة والحب ليتم التعاون الإنسانى. ونعمته فى أنه لم يترك الإنسان فردا يعجز وحده عن توفية مطالبه بل خلق فيه المعنى الاجتماعى ليتم التعاون على مهام الحياة، والأساس المتين لهذه الروح الاجتماعية هو الرحمة والحب.

قال علماء الإسلام: إن الزواج وهو أصل تكوين الأسرة له مهام رئيسية ثلاثة هي، بحسب الترتيب:

(أ) الولد، وهو ما يراد به في كلام المحدثين من التناسل.

(ب) التعاون، وهو واضح من تعاون الزوجين بعضهما مع بعض لرخاء عيشهما ورعاية النسل الناتج منهما.

(جـ) قضاء الشهوة الجنسية، ذلك أن هذه الشهوة لا بد أن يكون لها منفذ طبيعي، وإلا لأضرت البدن كفضلات الطعام وما يتخلف عن العمليات الكيماوية العضوية في الجسم، والرجل والمرأة في ذلك سواء. وهذا المعنى وإن كان يوجد بوسيلة أخرى غير الزواج، إلا أن له أخطاء لا تخفى على أى إنسان، فقضاؤها في ظل أسرة شرعية يمنع هذه الأخطاء.

وبعد فهذه لمحّة على خصائص الأسرة ووظيفتها وهي في أكثرها بدينية نفسية دنيوية، وهناك وظائف دينية أخرى ستذكر عند الحديث عن حكمة مشروعية الزواج.

٥ - أصل نشأة الأسرة:

هناك نظرتان في أصل تكوين الأسرة، نظرة دينية وأخرى طبيعية:

(أ) فالنظرة الدينية تقول: أن أول أسرة ظهرت على سطح الأرض من الجنس البشري هي أسرة آدم، وقد تكونت في الجنة، كما قال تعالى: ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥]. وكانت مكونة من زوج هو آدم وزوجة واحدة هي حواء، وهذا هو ما يعتقده أهل الأديان السماوية، المسلمون والمسيحيون واليهود.

وكان تكوينها بأمر الله سبحانه، فقد خلق آدم وحده، ثم خلق له من يؤنسه، وهي حواء. قال: تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وليس هناك دليل على أن التقاء آدم بحواء أنتج ذرية قبل هبوطهما إلى

الأرض، قال تعالى: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه: ١٢٣]. والراجح أن الأمر هو لآدم وحواء فقط، فإن الحديث عنهما في الآية قبلها كان بصيغة المثني ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [طه: ١٢١]. وكون بعضهما عدوا لبعض يشهد له قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن: ١٤].

وقال البعض: إن الأمر بالهبوط لاثنين هما آدم وحواء من جهة، وإبليس من جهة أخرى، أى فهو الطرف الثانى الموجه إليه الخطاب مع آدم الذى تتبعه زوجته كأنهما فرد واحد. ولذلك جاء الأمر بالهبوط فى آية أخرى بصيغة الجمع ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الأعراف: ٢٤]. وعداوة الشيطان لآدم وزوجته وذريته مقررة لا نزاع فيها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦].

ومهما يكن من شىء فإن التقاء آدم بحواء نتج عنه ذرية فيها ذكور وإناث، وحدث بالتزاوج بين النوعين عدة أسر، كان منها التكاثر للجنس البشرى. فهناك جو دينى عند تكوين أول أسرة، وعند تكوين الأسر الأولى التى أشرف عليها آدم بتوجيه ربه. ثم تفرقت الأسر، كل فى سبيل، من أجل الكفاح لطلب العيش، وتباعدت المسافات بين الأخوة وبين الأسر، وتكونت مجتمعات على قدر من الوعى لمهمتها، وعلى صلة ضعيفة بالهدى السماوى الذى جاء به آدم. فحدثت أفكار جديدة وتسلطت على الأسر أجواء غريبة، سنتحدث عنها فى تطور الأسرة.

تنبيه:

ليس معروفا بالضبط ولا بطريق صحيح المكان الذى هبط فيه آدم على الأرض، ولا المكان الذى هبطت فيه حواء، وهناك أقوال لا سند لها صحيحا نقول: أن آدم نزل فى الهند، وما يزال هناك أثر قدم على قمة جبل فى جزيرة سيلان «سرى لانكا» يقال إنه قدم آدم حين هبط لأول مرة على الأرض، ويقصده

الزوار من كل العالم، وكم من أمثال هذه الآثار نسبت بدون سند صحيح إلى شخصيات لها تاريخها المقدس.

كما تقول هذه الأقوال: إن حواء هبطت في جدة بأرض الحجاز، وما زال في التيه يبحثان بعضهما عن البعض حتى التقيا في مكان جبل عرفات الذي يقال: إنه سمي بهذا الاسم لتعارف آدم وحواء عليه، كما يقولون: إن الدموع التي سكبته حواء نبتت منها الورود، والتي سكبها آدم نبتت منها الشوك، وأن حواء دفنت في جدة ويشيرون إلى قبر طويل يقولون: إنه قبرها.

وكل ذلك أولاً لا دليل عليه، وثانياً لسنا مكلفين بمعرفته، وثالثاً البحث فيه ضياع لوقت هو أولى أن ينفق في معرفة الطريق الأمثل لتحقيق الرسالة على الأرض.

(ب) والنظرة الطبيعية في تكوين الأسرة انقسم القائلون بها إلى قسمين: قسم يقول بتسلسل الأنواع والترقى والتطور، وهو داروين وأتباعه، وهؤلاء يقولون: إن الأصل في تكوين الأسرة كان هو الإباحة العامة بغير تقدير للعفة، أي أن الذكور تتصل بالإناث بدافع جنسى دون تقدير لمعان أدبية وراء ذلك، ومن هنا، أي بدافع الجنس، كان التزاوج والتناسل والإخصاب.

وفي الحيوانات الراقية التي هي قبل الحلقة المفقودة بينها وبين الإنسان. وهي القردة، ترقى الرابطة نوعاً ما بين أفرادها، فنرى فيها غير نابعة من الذكر على الأنثى، وهي صورة من صور الزواج المنظم الذى انحط عنه بعض الإباحيين قديماً وحديثاً.

ومما يدل على تقديسها لهذه الرابطة أن القردة تقتل القردة الأنثى التى تفرط فى نفسها لغير زوجها المختص بها، ومشاهدات المختصين تثبت ذلك.

ولعل هذه الصورة يشهد لها ما رواه البخارى فى التاريخ الكبير عن عمرو ابن ميمون الأزدى الذى قال: رأيت فى الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة فرجموها ورجمتها معهم. وثبت فى رواية أخرى لعمرو أن سبب الرجم هو

الزنى، وإن كان أصحاب الحديث يققون موقف التشكك فى هذه الرواية، فإن عمرا وثقه البعض وطعن فيه البعض الآخر، ويؤولون الخبر - على فرض صحته - بأن هذه القرودة ربما كانت جنا. فإن التكليف لا يسرى على الحيوانات حتى يكون هناك رجم على الزنى وإن كنا نرى أن ذلك ليس تكليفا. ولكنه عادة حيوانية لا غير^(١).

وبمقتضى كلام هؤلاء لم يوجد فى الأصل أسرة أولى معروفة، بل وجدت عندما ترفت البشرية.

والقسم الثانى من القائلين بالنظرة الطبيعية فى تكوين الأسرة، لا يؤمنون بالتطور ولكن يعللون قيام الأسرة بإحدى علتين:

(أ) فبعضهم يعلله بحاجة طبيعية غريزية هى سيطرة الرجل لقوته على المرأة لضعفها، شأن العراك بين القوى وتنازع البقاء، والغيرة على ما يملك، ويقول هؤلاء: كان أصل تكوين الأسرة بزوجة واحدة.

(ب) وبعضهم الآخر يعلل قيامها بحاجة اقتصادية، فهم يرون أن المرأة ضعيفة فى كسب قوتها، فاحتاجت إلى مساعدة الرجل لقوته، وكانت الشهوة رابطا بينهما، ومن القائلين بذلك بريفو.

وعلى رأيه تكون المرأة هى أولا صاحبة السيطرة فى الأسرة، خصوصا أن الرجل كان يغيب كثيرا للصيد، وهى باقية بالمنزل. فلما استقر الرجل وزرع تملك هو السلطة.

وقال بعض الباحثين: إن كل الحاجات والظروف هى التى ساعدت على إيجاد الأسر، وما يروى من العادات المتغيرة بين الشعوب - على رأى أهل الدين - فهو بسبب نسيان الناس لتعاليم الله، أو بعدهم عن مراكز الأديان السماوية طلبا للقوت أو مسaire لتطور البيئة التى يعيشون فيها. فالرعاة مثلا كانت أسرهم

(١) انظر كتاب: حياة الحيوان الكبرى للدميرى. مادة، قرد.

تقوم على نظام مباشرة المرأة لكل أعمال المنزل ومساعدة الرجل فى الرعى، والصيدون كان الرجل هو صاحب السلطة فى المنزل وله المقام الأعلى، لأن عمله يقتضى القوة، وهى فيه متوافرة عن المرأة، وكان ذلك قبل الترقى إلى طور الزراعة، التى فيها كانت له السلطة الكاملة، والمرأة كان لها عمل المنزل.

٦ - نطاق الأسرة:

سبق أن قلنا: إن أسرة الرجل هى عشيرته ورهطه، لكن هذا المفهوم كان له تاريخ فى أذهان الناس وفى تطبيقاتهم.

فى العصور القديمة والبيئات المتخلفة البعيدة عن مناطق الحضارة كان لفظ الأسرة يطلق على العشيرة، أى الجماعة الكبيرة التى تربط أفرادها رابطة واحدة قد تكون غير رابطة الدم، بل رابطة الانتماء إلى توتم واحد، وهو حيوان أو نبات أو أى شىء آخر يرمز به إلى العشيرة ويجلونه ويحترمونه وينتمون إليه بدرجة واحدة دون تفاضل بينهم فى هذا الإلتماء كما هو موجود عند العشائر الجنوبية من سكان استراليا الأصليين التى كشف منها «هويت» خمسمائة توتم، معظمها حيوان أو نبات.

والأسرة عند اليونان والرومان القدامى كانت تتكون من جميع الأقارب الذكور والأرقاء والموالى والأدعياء^(١) كلهم يحملون لقباً واحداً، وما كانت الصلة بين هؤلاء هى صلة الدم بل الادعاء، فكان للعميد الحق فى الاعتراف بأحد من ولد له أو إنكاره بعد عرضه على مجمع العصابة ليقرروا جواز إلحاقه بهم أو عدم جوازه.

وكذلك فى الأمم السامية كان الكثير منهم فى القديم يعتبرون الأسرة مجموعة من الأقارب الذكور، أى العصابة ومن الموالى والأدعياء، ولقوة الرابطة بينهم واتحاد درجة قرابتهم كانوا كالشخص الواحد فى نظر القانون، وكانت الثروة

(١) الأرقاء هم العبيد، والموالى من ينتمون إلى الأسرة بارتباطات وعهود، والأدعياء هم المتبنون.

ملكاً لشخص الأسرة المعنوي، وهم متضامنون في دفع الأذى والمطالبة بالثأر وتحمل نتائج عدوان أحدهم على أحد من عشيرة أخرى.

وكانت القرابة عند العرب في الجاهلية قائمة على الادعاء لاعلى صلة الدم، فالولد لا يلحق بأبيه إلا إذا رضى، ولم يكن رضاء ملزماً دائماً لانتسابه، بل قد ينفيه ويخرجه، وهو النظام المعروف بنظام الخليع. وسيأتى توضيح لذلك في بحث حقوق الأولاد.

وعند العبرانيين قديماً كانت الأسرة تضم جميع أفراد العشيرة، وهم عصبه الذكور، والملكية بينهم عامة هي لشخص الأسرة المعنوي.

ثم أخذ نطاق الأسرة يضيق قديماً حتى انتهى عند الرومان في عصورهم التاريخية إلى الأسرة الأبوية المكونة من قسمين: أعضاء دائمين وأعضاء غير دائمين، فالأولون هم العميد وأبناؤه وأبناء أبنائه مهما نزلوا، وزوجته وزوجات أبنائه مهما نزلوا إذا ادعاهن، وهذا الادعاء ينطبق على زوجته نفسها وزوجات أبنائه، وكذلك ينضم إليهم الأرقاء والموالي والأدعياء، وهذه هي الأسرة ما دام العميد حياً، فإذا مات أصبح كل ابن له عميداً للأسرة خاصة.

والأعضاء غير الدائمين هم بنات العميد وبنات أبنائه ما دام معترفاً بهن ولم يتزوجن، وعند الزواج يلتحقن بالأسر التي تزوجن فيها.

فالقرابة لم تكن على أساس الدم بل الادعاء الذي يجوز أن ينقطع من الأسرة من كان مدعى ثم خلعه أو باعه أو قبل انضمامه إلى أسرة أخرى، ومن صور ادعاء الولد عند ولادته أن يوضع عند عتبة الحجر، فإذا ضمه أبوه إلى صدره كان اعترافاً به، وإن تركه اعتبر أجنبياً.

ثم أخذ نطاق الأسرة يضيق أكثر كما هو الحال في العصور الحديثة، فأصبحت لا تشمل إلا الزوج والزوجة وأولادهما ما داموا في كنف الأسرة، وقد اصطلاح علماء الاجتماع على تسمية هذه الأسرة بالأسرة الزوجية، وإن كان بعض الأسر حديثاً لا تزال فيها بقية من النظم القديمة أو راسب منها.

ومن هذا العرض رأينا أن مفهوم الأسرة قد خضع لاعتبارات واصطلاحات اجتماعية، ولم يكن خاضعا لعوامل طبيعية إنسانية تملئها الغرائز الأصلية.

على أن النظم قد تتطور، فتصبح الأسرة عبارة عن الزوج والزوجة فقط، أما الأولاد فهم ينفصلون عنها إذا تبنت الحكومات تربيته من ولادتهم كبعض الدول الشيوعية، وكما كان قديما في «أسبرطة» اليونانية. وهذا نظام يقضى على المعاني الأساسية للأسرة^(١).

٧ - العوامل المؤثرة في الأسرة:

الأسرة ككل كائن حي يتأثر بعدة عوامل تكيف اتجاهه وتحدد سلوكه، وهي مجتمع صغير تحكمه أوضاع منتزعة من البيئة التي تحيا فيها والأساس الذي بنيت عليه والهدف الذي ترمى إليه.

فالجو الطبيعي والموقع الجغرافي، والوسط الزراعي أو الصناعي أو التجاري، والفكر السياسي واللون الثقافي وما إلى ذلك كله يؤثر على الأسرة تأثيرا متعدد الجوانب مختلف الأشكال.

فمثلا الأسرة التي تتكون في بيئة زراعية يميل أهلها بل يحبون التوطن والاستقرار، ولا يرغبون في الانتقال من البلدة التي هي منطقة عرشهم. وموظفو الحكومات لا يرغبون في الانتقال إلى وظائف أخرى في غير مسقط رأسهم، ويمثل هذه الروح ضاعت مناطق كان من الممكن استغلالها لو رغب هؤلاء في الانتقال إليها كالواحات الصحراوية والمساحات الواسعة في البلاد الأخرى.

وفي الأسرة الزراعية يحدث كثيرا أن يتنازع الرجل مع ابنه من أجل كسبه، فهو يريد أن يصب في البيت الذي يعيشون فيه متعاونين متضامنين، وفي مثل هذه البيئة يتدخل الوالدان بشكل واضح في اختيار الزوجة لولدهما، ويختاران له بنتا تملك ثروة أو تجيد العمل في الحقل أو خدمة البيت، وبسبب روح اعتماد

(١) ملخص من كلام الدكتور على عبد الواحد وافى في كتابه «الأسرة والمجتمع» من

بعضهم على بعض كان شىء من التواكل والتراخى، ويبدو ذلك فى زواج الشاب من مال أبيه، وأكله أيضا من ماله، لا من كده هو وماله الخاص، ومن هنا قل الانتاج وضعفت المنافسة والابتكار، وظهر التهالك على وظائف الحكومة والعزوف عن الأعمال الحرة فى بعض البلاد.

والأسرة فى البيئة الصناعية نرى أفرادها لا تهتم بالارتباط بمسقط الرأس، لأن سبيل العيش ميسر فى أى مكان تتوافر فيه الإمكانيات التى يستطيعون منها أن يحصلوا على قوتهم، فهم يحبون التنقل ويمتازون بالصبر والتحمل، كالكسوسنيين الذين يهاجرون ويعمرون فى كل بلد يذهبون إليه، ومن الأمثلة على ذلك الشركة الهندية الانجليزية التى ملكت «بومباى» فى عهد «شارل الثانى» سنة ١٦٦٩م وفى سنة ١٨٥٨م كانت الهند من ممتلكات بريطانيا.

إن أفراد الأسرة الصناعية يحبون أن يتلقوا من العلوم ما يؤهلهم للأعمال الفنية، ولا يرغبون فى العلوم العقلية النظرية البحتة كالفلسفة، ولا يحرصون على إسكان أولادهم المتزوجين معهم، كما هو مشاهد فى البيئة الزراعية، وتقل أو تنعدم الخلافات مع الحموات، وذلك لسهولة الانفصال وعدم تحتم الارتباط بالأسرة الأم.

والعامل الاقتصادى يؤثر على تكوين الأسرة وسيرها فى طريق حياتها، فعند الخطبة يكون الاهتمام بثناء العروس إن كان الخطيب فقيرا أو متوسط الحال، فهو يريد لها ذات دخل يوفر العيش الكريم له فى محيط الأسرة، وربما لا يهتم بجمالها، بل ولا بشرفها أحيانا إن تمكن حب المادة من نفسه.

والأسرة الغنية قد يكون مع غناها تدين وخلق فتكون سعيدة إلى حد كبير، حيث يهتم أفرادها بتربية الأولاد تربية كريمة، ويقل فيها النزاع من أجل النفقات مثلا، أما إذا لم تكن ذات دين وخلق فقد تنصرف إلى المجون والمتع المحرمة، وتوضيح ذلك سيكون فى بحث اختيار الزوجين.

والأسرة الفقيرة إن كان معها خلق حافظت على شرفها وقنعت بما عندها،

وإن كانت لا تستطيع تربية أولادها تربية عالية لضيق ذات اليد. أما إن لم يكن معها خلق فإن الشجار يكثر وبخاصة فيما يتعلق بالنفقات، وتهمل فيها الأولاد بل قد يدفعون إلى الانحراف. وقد نرى المرأة فى الأسرة الفقيرة تكذب وتتعب لتعاون زوجها، وقد تتمرد عليه إن أرغمها على ذلك، وقد تقل الغيرة عند الرجل من أجل الحاجة إن خرجت زوجته للعمل فى الحقل أو فى بيت آخر، أو إذا كانت فى المدن لتزاول مهنة قد تكون غير مناسبة خلقيا، ولكنها الحاجة الملحة التى تتوارى معها القيم ولو إلى حين.

والأسرة البدوية القائم أمرها على الرعى والترحل تكون المرأة فيها ذات عمل فعال فى خدمة الأسرة، وتحمل عبئا كبيرا فى معاونة الزوج لتحصيل القوت، وهنا يكون لها مركزها ووزنها الاجتماعى. والغرض من الزواج فى البادية لا يقتصر على المتعة بل تكون معه المعاونة والقدرة على الخدمة، وفيها لا يكون اهتمام بتربية الأولاد، فكفى أن يشبوا عن الطوق ليتولوا الرعى مع والديهم.

أما الأسرة الحضرية فتختار فيها الجميلات الماهرات، لأن قصد المتعة يبرر الاهتمام بهن، ويكون الثراء هو محور الاهتمام وذلك لتوفير الرفاهية للبيت وتربية الأولاد.

والأسرة فى البلاد المتمدنية جدا تكون الرابطة الزوجية فيها ضعيفة فالزوج لا يحتاج إلى زوجته لتهيئة الطعام والملابس، فالمطاعم ودور الخدمات متوافرة، وتربية الأولاد فى هذه الأسرة تكون استقلالية بشكل واضح، وارتباط الوالدين بهم ضعيف، والحرية مكفولة لكل عضو فى الأسرة، وهنا تضعف الرقابة الخلقية.

وتطبيقا لما تقدم نرى من تأثير العامل الاقتصادى أن العلاقات الجنسية باردة عند قبائل «الهونتوت» كما يحكى «كولبين»، ويقول الدكتور «متشل» إن الزواج لا أهمية له فى قبائل «الجونكين» فالرجل يهتم بحصد سنبله قمح أكثر

من اهتمامه باقتناء امرأة، وذكر «لاندر» في رحلته إلى وادي النيجر أن ملك «بوسا» يباشر شئونه المنزلية بنفسه وتعيش قرينته الملكة في بيت منفصل، ولكل منهما ثروة ومنافع مستقلة. وهما أسعد زوجين بينهما ألفة وصداقة في هذه القبائل.

ومن أثر العامل الاقتصادي أيضا أن اليهود حديثا لا يهتمون بعفاف المرأة بقدر ما يهتمون بما تجنيه من ربح مادي، وفي ظلال الهمجية في القرون الوسطى أبيعحت المخاللة وأبيع عشق المرأة لغير زوجها بغرض الانتاج كما فعلت كاترين «انظر ترجمتها في بحث: الحجاب» وكذلك من مظاهره تأثير عهد الإقطاع في النظر إلى المرأة نظرة فخر وعنجهية.

والمسلمون عندما أراد بعضهم تطوير مجتمعهم أياحوا للمرأة العمل كالرجل بل شجعوها على ذلك، من أجل زيادة الإنتاج، وكان لذلك أثره على تربية الجيل التي لم تعد تستطيعها مع مزاولتها للعمل.

وهكذا تكثر عوامل التأثير على الأسرة، وتنوع وتختلف المشكلات، والدراسة الاجتماعية لا بد أن تراعى كل ذلك عند وضع الحلول، ليكون الحل جذريا أصيلا لا يقنع بالقشور.

٨ - أنواع الأسرة:

تحدث علماء الاجتماع عن أنواع الأسرة باعتبارات مختلفة، ومن أهم الاعتبارات التي تنوعت بها الأسر اعتبار الرياسة في البيت أو المحور الذي يدور عليه نشاط الأسرة، وتنتسب إليه أفرادها.

قالوا: إن الأسرة في الجماعات القديمة وعند المعاصرين المتأخرين أيضا أنواع:

(أ) أسرة تكون النسبة فيها للأم.

(ب) وأسرة تكون النسبة فيها للأب.

(جـ) وأسرة تكون النسبة فيها لهما مع رجحان الأب.

(د) وأسرة تكون النسبة فيها لهما مع رجحان الأم .

(هـ) وأسرة تكون النسبة فيها لهما بدون رجحان لأحد منهما .

(و) وأسرة تكون النسبة فيها للتوتم .

أما الأسرة الأولى فنسب الأفراد فيها يكون لغير الأب، بل لأقارب الأم، والسلطة إما أن تكون لأخيها، كما هو الحال في قبائل الهنود الحمر في مقاطعة «أوهاما» أو لأبيها كبعض قبائل هضبة «ليرادور». والقبيلة المتبعة لهذا النظام تنقسم إلى عشيرتين، والفتى يتزوج فتاة من العشيرة الأخرى لا من عشيرته. ومن القبائل الحالية التي تجعل النسب للأم قبائل البجة، وهم يسكنون على ساحل البحر الأحمر ابتداء من موازاة «قوص» في مصر إلى السودان وأول الحبشة، كما يقول المقریزی في خططه^(١) :

وهؤلاء قوم لا دين لهم، يورثون ابن البنت وابن الأخت دون ولد الصلب ويقولون: إن ولادتهما أصح، فإن الولد إن كان من زوجها أو من غيره فهو من المرأة علي كل حال، وهذه القبائل، كما يقول المقریزی، تكرم الضيف بالبحر له، ويصنع النساء الحراب الشديدة في موضع لا يختلطن فيه برجل إلا المشتري منهن. وإذا ولدت إحداهن من الطارقين لها جارية استحيتها وإن ولدت غلاما قتلتها، لأن الرجال عندهم بلاء وحرب. وكل رجل منزوع البيضة اليمنى، وأما النساء فأشفار فروجهن تقطع ثم تترك لتلتحم حتى يشق عنه للمتزوج بمقدار ما يدخل ذكره، وقل ذلك عندهم، ومنهم جنس يسمى «البازة» نساؤهم جميعا يتسمون اسما واحدا وكذلك الرجال. ويقول المقریزی: وفد عليهم رجل مسلم فيه جمال فتدافعوا للنظر إليه وقالوا: هذا أنزله الله من السماء، وهو جالس تحت الشجرة ينظرون إليه من بعيد. وهذه القبائل متعددة. أهـ

ومن الذين يجعلون النسب للأم سكان غانة الجديدة، الذين يعتقدون أن الجن تضع الجنين في سلة، وبطريقة خفية يدخل بطن أمه، وبعضهم يعتقدون أن

الطفل ينشأ في البحر ويدخل بطن الأم خلسة وهي تستحم في الماء، ومن لم ترغب في الذرية لا تنزل البحر أبداً، وهم يعدون الأب دخيلاً على الأطفال .
وأما الأسرة الثانية فالسلطة فيها كلها للأب، وهذا النظام هو السائد قديماً، والأب هو الذى يرأس الحفلات الدينية ويحرس الآلهة .

وأما الثالثة التى يكون النسب فيها للأب والأم معا فسأرجىء الحديث عنها إلى بحث حقوق الأولاد . وكذلك بقية الأسر .

هذا فى النسب أما فى السلطة فالأمر مختلف، فقد يكون مع النسب سلطة . وقد يكون غير ذلك . ففى كتاب « القوانين الصحية » المسمى (ليكى) : أن المرأة كانت تخضع لثلاث سلطات متوالية : الأب والزوج والابن بعد موت الزوج، وشيخ القبيلة له السلطان التشريعية والتنفيذية، ولرب الأسرة سلطة واسعة فى مثل هذا المجتمع، فله حق بيع أولاده حتى بعد سن الرشد، كما كان فى فلسطين القديمة .

وفى روما القديمة كانت المرأة خاضعة للرجل لا تملك ولا تستقل، واليهود القدماء خولوا للرجل حق طلاق المرأة لا أن تطلقه هى (١) .

٩ - عوامل تطور الأسرة (٢) :

يقول الباحثون : أن الأسرة تتطور من عدة نواح، من جهة وحدة الزوجة، ومن جهة الانتساب، ومن جهة عوامل البيئة .

فيقولون : يظن أن أول نظام أسرى كان هو اقتصار الرجل على زوجة واحدة، وكان الاعتماد عليها فى رعاية البيت، وكان عمل الرجل خارجه، ومن هنا كان النسب لها لا له، كما فى قبائل البوشمان فى أفريقيا، والفيدا فى الهند وسيلان (سرى لانكا حالياً) وغيرها من الجماعات البدائية .

وفى المجتمعات التوتمية التى ترجع أصولها إلى نوع من الحيوانات أو النباتات

(١) الأسرة ومشاكلها الاجتماعية لويس اسكندر .

(٢) انظر ٦، ٧، ٨ .

أو الظواهر الكونية كان عدد أفراد الأسرة كبيرا ما دام الرابط الذي يجمعهم واحداً، وهو يشبه العشيرة والقبيلة، وهؤلاء يعدون التزاوج من بعضهم تديسا للقوة الإلهية المقدسة الحالة في أجسادهم فكانوا يتزوجون من خارج أسرهم. ثم تغيرت نظرة الأصل النسبي وانتقل من التوتمية إلى نظام الدم.

غير أنه كان لرئيس الأسرة أن يضيف إليها من شاء ولو لم يكن من قبيلته، كما يخرج من شاء ولو من صلبه، فرب الأسرة حر التصرف في هذا، وكان منه نظام التبنى والاستلحاق، وكان هذا سائدا في اليونان والرومان قديما وعند عرب الجاهلية والعبرانيين القدامى، وكان للأسرة شخصية معنوية ومتضامنة، ثم ضاق نطاق الأسرة بإبطال التبنى والإخراج والرق.

ويقولون: إن الحياة في الأسرة تطورت، فكانت الحياة فيها قديما تقوم علي الأهمية الاقتصادية وكفاية الأسرة لمطالبها، وكان فيها سيادة الرجل، وحماتها لأفرادها بعامل الوفاء لكل العناصر المثلة فيها، وكان للأسرة بيئة دينية ذات طقوس وعبادات مفروضة. وكان الزواج مبكرا والطلاق نادرا، وكان الرجل يحب الاستقرار في البيت.

لكنها تطورت بتطور الحياة، فأصبحت الأسرة الآن مستهلكة لا منتجة اللهم إلا في الريف فهي منتجة أكثر منها مستهلكة، وتحرر الأبناء من سلطة الأسرة، وترك الرجل منزله كثيرا لكثرة أعماله، وقلت سيطرته على الأسرة وتركها للمرأة. بل أن المرأة خرجت من المنزل وعملت كالرجل وتركت الأولاد في دور الحضانة، وفقدت الأسرة كثيرا من مقوماتها الدينية، وكثر التوتر والانحلال، وتحرر الفرد كثيرا.

ثم تحدث العلماء عن عوامل التطور للأسرة. فقررروا أنها متعددة ومن أهمها:

١ - العامل المورفولوجي، ويظهر في: (أ) انتقال الحياة الاجتماعية من محلية إلى اجتماعية واسعة. (ب) نشأة المدن وهجرة السكان من الريف إليها.

(ج) إلغاء الرق وتحرر الفرد من سلطة الأب . (د) تركيز السكان فى المدن قد رفع ثمن الأرض، فأقيمت المنازل الصغيرة والعمارات السكنية، وأقامت بعض الأسر فى « البنسيونات » . (هـ) تقدم وسائل المواصلات أدى إلى زيادة التداخل الاجتماعى فتهذبت التقاليد ومظاهر العرف .

٢ - العامل الاقتصادى، ويظهر فى : (أ) تطور نظم الانتاج، فالأسرة القديمة كانت منتجة لنفسها، أما الحديثة فهى تنتج لها وللمجتمع كله، وتشتري ما تحتاجه من السوق الخارجية . (ب) تحرر الفرد من رق الأب والأسرة اضطره إلى الخروج للعمل والتغيب معظم ساعات اليوم، ونشوء مشكلات كثيرة بسبب ذلك . (ج) ظهور نشاط للمرأة خارج المنزل، مما زاد الحالة الاقتصادية تحسنا، ولكن سبب مشكلات عائلية خلقية . (د) الثورة الصناعية وعدم اطمئنان رب الأسرة على حماية نفسه من خطر الآلات والمناجم، واستغلال الرأسمالين للعمال أدى إلى انخفاض مستوى المعيشة فيهم وسوء صحتهم وأخلاقهم، ووجدت بطالة وتسول .

٣ - العامل الثقافى والحضارى غير العادات ومقاييس الجمال والذوق وتنسيق المنزل، وإمداده بوسائل الترفيه من حدائق وموسيقى ومذياع وتليفزيون ولوحات ...

٤ - النظرة الديمقراطية التى حصلت بها المرأة على حقوقها السياسية واهتمام البنات بالتعليم والرقى الفكرى والثورة على التقاليد، ووجود تيارات مذهبية وقلبية فى أفراد الأسرة الواحدة .

٥ - آلية الحياة المنزلية، وذلك بالغسلات الكهربائية والمواقد وغير ذلك مما خفف أعباء الحياة المنزلية ووفر الوقت والجهد والنفقات، وأوجد فرصة للعمل المرفه أو الكاسب، وأدى ذلك إلى زيادة مطالب الأسرة والرفاهية .

١٠ - الاهتمام بالأسرة :

إن التفكير فى تنظيم الأسرة تفكير قديم قدم الشعور بأهميتها . والأديان

بوجه عام لم تدع الحديث عنها بما يناسب وضعها فى العصور المختلفة التى جاءت فيها الأديان . وفى المجتمعات التى لم تنزل فيها رسالات كان هناك مفكرون شغلوا بالبحث فى نظام الأسرة . ففى الصين وضع كونفوشيوس نظاما لها . وفى اليونان تحدث أفلاطون بما يجب أن تكون عليه الأسرة فى مدينته الفاضلة، وإن كان حديثه لم يحظ بالتطبيق، حيث كان أقرب إلى الخيال، وكذلك تحدث أرسطو عنها، والرومان وضعوا فى قوانينهم أصولا لتنظيم الأسرة . هى مزيج من أفكار اليونان ومن الدين المسيحى الذى اعتنقوه بعد .

وتفصيل الحديث عن الأسرة عند هؤلاء مذكور فى بحث حقوق الأولاد . والقرآن الكريم فى بحثه نظام الأسرة كان هو التشريع المثالى الذى حظى بشرح وتوضيح وتفصيل على هدى السنة، بمعرفة الفقهاء الذين عقدوا أبوابا خاصة فى كتبهم للزواج والطلاق والنفقات وكل ما يتصل بالأسرة، إلى جانب الهدى الإلهى العام الذى تشترك فيه المرأة مع الرجل فى العبادات والمعاملات والواجبات الأخرى .

وتناول الفلاسفة والكتاب موضوع الأسرة بالبحث، وصدرت كتب خاصة بها، بل صدرت مجلات تهتم بهذا الموضوع اهتماما كبيرا، وبخاصة بعد النهضة الأوربية وإطلاق حرية الفكر، وانطلاق المرأة من قيودها القديمة وغشيانها للمجتمعات وممارستها لكل أنواع الأنشطة، وتمتعها بكثير مما كانت محرومة منه ثقافيا واجتماعيا وسياسيا، الأمر الذى أثر على الأسرة تأثيرا كبيرا كما سبق ذكره، فوضعت كتب متخصصة تعيد المرأة إلى صوابها، وتعيد للأسرة قدسيتها، وترثى لحال النشء المضيع، أو الذى هو فى طريق الضياع .

بل أن بعض الحكومات أنشأت مؤسسات أو فروعاً فى وزاراتها للعناية بالمرأة والأسرة والأولاد كالمدارس الموجودة فى أسبانيا «الأهرام ١٠/٧/١٩٦٣» وكمركز تنظيم الأسرة فى اسكتلنده الذى ترأسه «مسز كيلر» زوجة العالم الاسكتلندى رئيس مجلس البحوث العلمية، وهو يؤهل الفتاة للحياة الزوجية

ويعطى شهادة بذلك «الأهرام ٣١/١٠/١٩٦٣». وسيجيء ذلك فى بحث الحجاب. وفى مصر أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية سنة ١٩٣٩ م، وكان بها قسم خاص بمشكلات الأسرة، ثم أُلغى سنة ١٩٤٥، اكتفاء بالأنشطة الأخرى.

وعن قانون الأحوال الشخصية فى مصر يقول الشيخ محمد أبوزهرة فى كتابه «الأحوال الشخصية»: منذ تولى أبو يوسف منصب القاضى الأول فى بغداد صار لمذهب أبى حنيفة المنزلة الأولى فى الحكومة، وكان القضاة من الأحناف.

وأول قاض حنفى بمصر هو إسماعيل بن اليسع الكندى، ولاه المهدي، وكان يرى إبطال الوقف، فثار عليه الليث بن سعد، فعزله المهدي.

وبقدر تمكن المذهب الحنفى فى الحكومة تمكن المذهب الشافعى فى الشعب لإقامته وموته بها، كما تمكن المذهب المالكى لكثرة تلاميذ مالك بها كعبد الرحمن بن القاسم وابن وهب وابن عبد الحكم.

وفى عهد الدولتين الطولونية والأخشيديّة كان القضاة من المذاهب الثلاثة يتناولون الرياسة بالتناوب. ولما جاءت الدولة الفاطمية اتخذت الشيعة الإسماعيلية مذهباً. وحاربت مذهب الأحناف لأنه مذهب الدولة العباسية خصيمتها. وفى عهد الدولة الأيوبية شاع المذهب الشافعى والمالكى ثم شاع المذهب الحنفى أخيراً لما تولى نور الدين أمر الشام.

وفى عهد المماليك انتشرت المذاهب الأربعة، وجعل القضاة منهم. ولما جاء محمد على كان المذهب الحنفى هو المذهب الرسمى للقضاء كله.

وعندما دخلت القوانين الأوروبية اقتصر القضاء بالمذهب الحنفى على أحوال الأسرة والهبات والأوقاف والموارث والوصايا، وهنا لم يعد المذهب الحنفى وحده هو المذهب الرسمى فى القضاء. بل دخلت مسائل أخرى من المذاهب رؤى أنها توافق العصر. فاتجه الرأى إلى وضع قانون من المذاهب الأربعة ليلائم التطور الحديث.

وعرضت المشروع على الشعب، فانتقده البعض ونام المشروع بسبب قيام الحرب العالمية الأولى، ثم ظهر فى شكل ما فى القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ وكان من عمل شيخ الأزهر وشيخ المالكية ورئيس المحكمة العليا الشرعية ومفتى الديار المصرية ونائب المالكية وغيرهم. وكان مأخوذا من مذهب مالك، وارتاح له الناس. ثم شرعوا فى تنقيحه أكثر، فصدر القانون رقم ٥٦ لسنة ١٩٢٣، وعارضه الكثيرون ثم ألغوه، ولكن ظهرت حركات بعد ذلك لإصلاحه، فألفت فى أكتوبر سنة ١٩٢٦ لجنة متحررة جريئة من تلاميذ الشيخ محمد عبده، أخذت من كل المذاهب المعروفة وغيرها، وجاء فى مشروعها تقييد رغبة الرجل فى تعدد الزوجات بإذن القاضى، وعدم وقوع الطلاق المعلق الذى يقصد به التهديد. ووقوع الطلاق بلفظ الثلاث طلقة واحدة، وجواز اشتراط المرأة فى العقد ألا يتزوج عليها الرجل وألا ينقلها من بلدها....

فقامت ضجة حول المشروع فنام فى وزارة العدل. ثم ظهر المرسوم رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ مقتصر على المذاهب الأربعة، مع الأخذ بوقوع الطلاق بلفظ الثلاث واحدة، وعدم وقوع الطلاق المعلق الذى قصد به التهديد، وطرحت فكرة منع تعدد الزوجات.

ثم جاءت سنة ١٩٣٦ فكونت وزارة العدل لجنة لوضع قانون شامل للأسرة ووافق عليها مجلس الوزراء فى ٥ من ديسمبر ١٩٣٦، فصدر قانون الميراث رقم ٧٧ لسنة ١٩٤٣، وبدأ العمل به فى ١٢ من أغسطس ١٩٤٣، ثم قانون الوقف رقم ٤٨ لسنة ١٩٤٦ ثم القانون رقم ١٨٠ لسنة ١٩٥٢ بإلغاء الوقف الأهلى، ثم قانون الوصية رقم ٧١ لسنة ١٩٥٦ وجاء فيه إجازة الوصية للوارث وإيجابها لبعض الأقربين من ذرية الميت.

ثم بدأت الدولة فى إصلاح قانون الزواج فألفت أول لجنة سنة ١٩٥٦، وما زال العمل جاريا فى هذا السبيل إلى وقتنا هذا (أغسطس ١٩٥٧) ا.هـ. بل كان ذلك على نطاق دولى وفى هيئة الأمم بالذات مثل منظمة الأمم المتحدة

للأطفال «يونيسيف»، وسيأتي الحديث عنها في بحث حقوق الأولاد. وكل ذلك مفصل في هذا البحث، وفي البحوث الأخرى من هذا الكتاب. وذلك إلى جانب التنظيمات الأهلية من أجل العمل لسعادة الأسرة وحل مشاكلها وحماية الأحداث واللقطاء.

هذا ومن أهم الكتب المؤلفة في الأسرة:

- ١ - كتاب الأسرة والمجتمع للدكتور على وافى.
 - ٢ - الزواج ومقارنته بقوانين العالم للأستاذ زهدى يكن.
 - ٣ - كتاب «ادوارد وستر مارك» الذى عربه: عبد المنعم الزياى.
 - ٤ - كتاب «بول جيلر».
- وهناك كتب كثيرة، كل منها تخصص فى ناحية من نواحي الأسرة. أو اعتمد على أمهات الكتب القديمة، وسيشار إليها عند النقل منها.

* * *

الباب الأول

مكانة الأسرة في الإسلام

● المقدمة:

سيكون الحديث إن شاء الله تعالى عن مكانة الأسرة في الإسلام مقسما إلى عدة فصول، أول فصل منها يتناول بيان وضع الأسرة في غير الإسلام، حتى يتبين منه مكانتها في الإسلام، فبضدها تتميز الأشياء كما هو معروف، وعرض الصور الأخرى ليس للاستقصاء، بل هو عرض نماذج فقط يمكن أن تؤخذ منها صورة فيها بعض الوضوح لحال تلك الأسر، والفصل الثاني في هذا الباب سيكون عن أمر الإسلام بتكوين الأسر عن طريق الزواج، والفصل الثالث عن آثار الزواج أو حكمة مشروعيته، والفصل الرابع عن الاتصالات الجنسية الشاذة، والفصل الخامس عن حكم الزواج أو مدى فاعلية الأمر الوارد بتكوين الأسر.

* * *

الفصل الأول

الأسرة في غير الإسلام

وسيكون الحديث في هذا الفصل عن مجموعتين كبيرتين هما: الأسرة في القوانين الوضعية والأسرة في الأديان السماوية، والمجموعة الأولى تشمل:

- (أ) الأسرة في العهود الأولى البدائية.
 - (ب) الأسرة عند البيئات المتحضرة القديمة.
 - (ج) الأسرة عند العرب في الجاهلية.
 - (د) الأسرة في نظر الفلاسفة المحدثين.
 - (هـ) الأسرة في ظل القوانين الحديثة.
 - (و) الأسرة عند الجماعات المتأخرة في عصرنا الحديث.
- والمجموعة الثانية تشمل:

- (أ) الأسرة عند اليهود.
- (ب) الأسرة عند المسيحيين.

فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: الأسرة في القوانين الوضعية:

أقصد بالقوانين الوضعية ما تشمل المواضع القبلية والأعراف التي تحكم سلوك الناس في أى شكل من أشكال وضعهم الاجتماعى، كما تشمل القوانين النظامية للحكومات المختلفة. وسيكون الحديث فيها عما كان موجوداً قبل الإسلام وبعد الإسلام.

١ - الأسرة في العهود البدائية (١) الأولى :

تحدثنا في أصل نشأة الأسرة عن نظرة المعتقدين في الأديان وعن نظرة غيرهم . وقد كانت ، كما يعتقد أهل الأديان السماوية ، أسرة آدم هي أول أسرة ظهرت في الوجود البشرى ، ونتج عن زواج آدم بحواء ذرية تزوجت وأنتجت كثيرا ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] .

وكان لهذه الأسرة في حدودها الضيقة من الروابط ما تستطيع به تحقيق رسالتها في الحياة .

ذلك أن الله سبحانه لم يشأ أن يترك عبده في هذه الدنيا وحيدا ضالا دون أن يضع له منارا يستنير به في علاقته الجنسية (٢) . وطريقا يسلكه في جهاده المر الذي تزداد مرارته كلما تذكر الحياة الناعمة الأولى التي كان لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى . فأوحى الله إليه بما أوحى وشرع ما شرع ، وطبق تلك التعاليم على الأمة التي أرسل إليها . وما كانت تعدو أولاده وما تناسل منهم .

(١) لفظ البدائية يعطى في عرف الناس معنى التخلف الحضارى أو قلة عوامل التمدن . وهو يطلق على العهود الأولى التي لم تكن تملك من وسائل الحضارة أو مظاهرها ما تملكه الآن ، وكذلك على من يعيشون في هذا العصر على هذا المستوى ولعله يكون من جهة اللغة مأخوذا من «البداءة» بفتح الباء وكسرهما ، بمعنى الإقامة في البادية ، وهي ضد الحضارة ، والتسمية الصحيحة لها «بداوى» لكن الكلمة «بدائية» معربة عن الأصل الأفرنجى المأخوذ عن العربى ، ويعنى حياة البداءة . فى مقابل لفظ « سيفيليزاسيون » أى التمدن المتصل أو المنسوب إلى المدينة فهى بمثابة المصدر الصناعى .

(٢) جاء فى كتاب كشف الغمة للشعرانى (ج ٢ ص ١٠٢) أن الله لما أهبط آدم من الجنة وأهبط معه حواء لم يكن بينهما جماع فى الجنة ، فكان كل واحد منهما ينام وحده حتى أتى جبريل إلى آدم وأمره أن يأتى أهله ، وعلمه كيف يأتىها ، فلما أتاها جاء جبريل فقال له : كيف وجدت امرأتك ؟ قال «صالحة إن شاء الله» .

وروى هذا على أنه حديث عن على مرفوعا إلى النبى ﷺ ، ولا أعلم مسنده ، ولا درجته الآن .

وبطول العهد بهذه الحياة المريرة فى تلك الأرض المترامية الأطراف لجأ أولاده إلى السعى فيها لطلب العيش واستثمار موارد الخير، والتنقل ليس غريبا على أول عهد الإنسان بالحياة فى الأرض، فهو موجود فى تاريخنا القريب، فى مثل قبيلة «كاتاي» أو «الخاطاي» التى كانت فى منشوريا ثم تفرقت فى الدنيا تحت اسم «العجر» دائمى التنقل^(١).

نأت الأصقاع بأولاد آدم وشط بهم المزار، وتفرقوا فى جنبات الأرض حتى كادت وحدتهم الأسرية الأولى تتلاشى، وكون كل منهم خلية جديدة فى جسم المجتمع الإنسانى، وتناسوا أو نسوا تلك الإرشادات التى كان يتعهدهم بها أبوهم، وحولت مشاغل الحياة مجرى تفكيرهم إلى مجال أوسع. استقبالا لهذه الظروف المعقدة، التى تفتتح كل يوم عن مشكلة جديدة. فسار كل فى طريق وتصرف كما يشاء مستوحيا من الطبيعة بأشجارها وحيوانها وظواهرها المختلفة ما يرشده فى حياته، وكونت هذه الانطباعات والاستنتاجات عادات سلوكية وأنماط فكرية جعلها دستور الذى يسير على ضوئه.

ولم يكن هناك من الاهتمام أو من الوقت ما يسوقه إلى ربطها بتلك التى كان أبوهم الأول يوصيهم بها، والناحية المثالية أو الاتجاه الخلقى والروح الاجتماعية لم تخلق فيهم بعد، أو كانت مستترة إلى حين، فإن الوصول إلى لقمة العيش كان الشغل الشاغل لكل منهم فى كل نشاطه. ومن هنا كان كل فرد مع مجموعته الصغيرة الجديدة يعيش فى صقع من الأصقاع فى حالة بدائية. بالنسبة إلى ما نحن فيه الآن، ليس عندهم من القوانين المعقولة ما ينظمون به حياتهم، اللهم إلا عند بعض مجموعاتهم التى تقاربت، وسهل الاتصال بينها، وهنا يرسل الله إليهم رسولا خاصا فى محيطهم المحدود، يرشدهم إن تنكبوا الطريق. أما من نأى عن تلك المجموعات فإنه أوغل فى الهمجية والبدائية والابتكار الذى تمليه عليه ظروف حياته فى إقليمه الخاص، مقلدا فى كثير من

(١) المصور ٢٥/١٢/١٩٥٣.

الأحيان مظاهر الطبيعة، ومن هذا التفرق والتباعد والاستقلال بعدت الهوة بين الأخلاق والعادات واللغات والألوان .

وعلى هذا وجدنا البدائيين لا يقدرّون الأسرة حق قدرها، فهم ينظرون إلى الزواج كاستجابة لداعى الغريزة الجنسية، وإلى التناسل كعملية بيولوجية لا تستهدف غرضا ساميا فى الحياة، ولم تتمكن فيهم عاطفة الحب والتقدير لرربة المنزل، ولا عاطفة الحنو على الولد، أو الاحترام للوالد .

واستمرت تلك النزعات موروثه عدة أجيال طويلة حتى كان لها فى ظل المدنية الحديثة أثر بارز فى كثير من سكان المعمورة ممن لم تصل إليهم يد التهذيب، ولم تشرق عليهم شمس المدنية بدفعها الذى يذيب جليد البدائية والجمود على العادات القديمة .

يحدثنا «سبنسر» وغيره من علماء الاجتماع أن بعضا من سكان «نيوزيلانده» لا يحبون البنات بل يقتلونهن عند الولادة، وفاقوا عرب الجاهلية فى ذلك بما لم يؤثر عن غيرهم من الشعوب المنحطة، فعمدوا فى كل خمس سنوات أو ست إلى ذبح جميع أطفالهم ذكورا وإناثا إذا ولدوا فى سنة يتوقعون فيها بؤسا، ويقومون بهذه المجزرة الرهيبة رابطى الجأش هادئى البال كأنهم لا يأتون منكرا، وعند هجرتهم من مكان قحطوا أو هوجموا فيه يتركون ضعفاءهم وأولادهم نهبا للجوع يفترسهم، وللعُدو ينكل بهم .

وكما يقول بعض الكاتبين: لقد انحطوا بهذا عن درجة الحيوان الأعجم، فإن العصفور المسمى «هيرونديل» له نظام خاص فى الهجرة، لا يترك ولده حتى يراه مستكملا لجميع شرائط الحياة الاستقلالية .

كذلك يقول محمد ثابت عن الأسرة فى «كانو» التى يسكنها «الهاوسا»: مع تعصبهم للإسلام ومع وجود مسحة من الجمال فى الرجال والنساء، وبخاصة العذارى منهن، تلبس النساء أردية تغطى ما تحت الثديين، والصدور عارية تلفت النظر، خصوصا عند الطلاء بالبودرة .

أما المتزوجات فأرديتهن تغطي الجسم كله، والغيرة على النساء فاترة عند الرجال، ونسبة العفاف قليلة، خصوصا عند غير المتزوجات. فالفتاة تصادق من تشاء، ويكثرون تعدد الزوجات، وللأغنياء التسرى بزيادة على الأربع لتكثر الذرية، والمولود البكر يهمل أمره على ما هو موضح في بحث حقوق الأولاد، حيث توجد صور غريبة في الأسرة تعيش في عصرنا الحديث.

أما الجهات التي كانت مهبط الوحي وميدان الرسائل كجزيرة العرب وما جاورها من البلاد التي سهل الاتصال بها، فإن تفكيرهم قد ترقى، ونظموا حياتهم بفضل الاقتباس من البيئات الدينية، ومما يدل على ذلك، اتصال المصريين بالبلاد الشرقية المجاورة لهم، وزيارة يوسف وموسى ومن قبلهما إبراهيم لهم، كذلك زيارة فلاسفة اليونان للشرق واقتباسهم من حضارته.

لقد عرفت هذه المجتمعات للأسرة قدرها، وإن اختلفت في ذلك تبعا لاختلاف مستوى الثقافة ونضوج العقل وتحكم البيئة وصدق النظر في فهم العواطف.

٢ - الأسرة عند البيئات المتحضرة قديما :

إن الحديث عن الأسرة في مصر وبابل وآشور والهند والصين واليونان والرومان وهي الأمم المتحضرة في الزمن القديم قبل ميلاد المسيح عليه السلام. هو مزيج من الحديث عن الأولاد، وعن المرأة، وعن قيمة الشرف. وقد فصلت ذلك كله في بحث حقوق الأولاد وبحث الحجاب وبحث حقوق الزوجين. ولعدم التكرار يمكن الرجوع إلى هذه المظان، وإن كنت لا أرى بأسا من إعطاء إشارات أو رموز خفيفة أمهد بها لمعرفة نظرة الإسلام إلى الأسرة وإلى الزواج الشرعى الذى يكونها.

١ - رأينا قدامى المصريين يحترمون رابطة الزوجية^(١)، فأحلوا المرأة محلها

(١) انظر بحث الحجاب ورأى أحمد خاكي فى الأسرة المصرية.

اللائق بها، حتى كان من النساء من تولت الملك، وحافظوا على العرض والشرف كما تحكى قصة يوسف مع زليخا.

٢ - والصين التى كانت تقدر تعاليم «كونفوشيوس» اهتمت بالأسرة فكان هو، كما يقول الدكتور مصطفى الخشاب، أول من بحث نظام الأسرة بحثاً فلسفياً. بروح الأخلاق الفاضلة. التى كانت طابع فلسفته، وكان هو من أنصار النظرية القائلة. بأن الرقى الذاتى أساس التقدم الاجتماعى، أى أن الفرد هو أساس الأسرة. والأسرة هى أساس المجتمع، فلا بد للفرد من ثقافة وأخلاق، على أساسها يكون صلاح الأسرة والمجتمع.

ودعائم الأسرة الفاضلة عنده: التضامن الطبيعى بين عناصرها، وطاعة الأبناء للأباء، والزوجات للأزواج، والتطهير والإخلاص والمعرفة، والمشاركة الوجدانية كالحب والعطف، وذلك عندما تكلم عن الواجبات الإلهية الخمسة: واجبات بين الملك ووزيره، وبين الوالد وولده، وبين الزوج وزوجته، وبين الأخ الأكبر والأصغر، وبين الأصدقاء، ولا تتأتى هذه عملياً إلا بثلاث فضائل: المعرفة والمروءة وقوة العزيمة.

ويقول محمد ثابت عن الأسرة الصينية: إنها تبكر بالزواج، وإنها مركز النشاط، فهم لا يضحون بالصالح الخاص من أجل الصالح العام، ولأب حق بيع أولاده وقتلهم، والبنت محتقرة. وقد تخطب فى سن الطفولة، ولا تفسخ الخطوبة مهما كانت، ولا تخرج أو تتصل بالغير ما دامت مخطوبة، ولا يراها خطيبها قبل الزواج، ويجهزها أبوها بإسراف والأب يدفع لبنته مهراً، ويكثر الانتحار بينهم إذا تأخرن عن الزواج، أو أساء الحموات معاملتهن، والمرأة الصينية معروفة بشدة التحمل والإخلاص للزوج والأولاد.

٣ - ويقول محمد ثابت أيضاً عن الأسرة اليابانية: إن الزواج يتم بخطبة أهل الولد له، ولو رفض أهله زواجه ممن يحب انتحر، ولا يوثق الزواج إلا بعد سنة، فإن ظهر الوفاق، وإلا صح الفراق إن رضى أهل الزوجين، وإلا لجأوا إلى القانون الذى يبيح الطلاق.

والتبني سائغ فيهم، والعراف يحدد ساعة العقد خوف النحس، ومظاهر الزفاف عندهم مذكورة في موضعها من هذا الكتاب، والطفل محبوب من والديه، ولا تحتقر البنت، بل عند ولادتها يعلن أهلها عنها للأقارب والأصدقاء ليقدّموا الهدايا، وقلما يبكى الطفل هناك، وتسلمه أمه لأخوته يربطونه وراء ظهورهم ويسيرون هكذا في الشوارع، ويقيمون للولد حفل ميلاد في اليوم الخامس من شهر مايو كل عام. وللبنت في اليوم الثالث من مارس.

٤ - واليونان وهي مهد التفكير الأوروبي القديم عرفت قيمة الرابطة الزوجية، حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد. على أساس أن الرجل والمرأة شريكان في تحمل الحياة داخل المنزل وخارجه، ولم يكن هناك - بادئ الأمر - دخل للعفاف في تقدير قيمة المرأة، بل كانوا يحترمون العواهر.

وفى القرن الخامس قبل الميلاد نظمت آراء أفلاطون هذه العلاقة الزوجية، فجعلت من حق كل رجل أن يختار زوجة له، على شريطة أن تكون من بلده، والذي يحجم عن الزواج يعاقب بما يراه الحاكم الذى له من السلطة أن يرغم الرجل على الزواج من نساء مخصوصات فقدن عائلهن أو ضاقت ذات أيديهن.

ولعل النضال المستمر بين الأثينيين والاسبرطيين كان له دخل فى تشجيع الزواج للحاجة إلى النسل الذى يخوض غمار الحروب التى لا تكاد تخبولها نار، والمرأة التى لم تنجب بعد عشر سنين ينفخ عقد زواجها من نفسه تلقائياً.

وقبل هذا العهد كان من حق الرجل أن يبيع أولاده أو يقتلهم. فأخذ هذا الحق مظهراً آخر تحت تأثير الآراء الأفلاطونية، وأعطى الرجل حق التبرؤ من أولاده، لا أن يقتلهم، بشرط أن يرفع الأمر إلى القضاء.

على أن الرجل كان منصرفاً إلى الشؤون السياسية والرياضية، بحكم الظروف التى ألجأته إلى ذلك، فلم يكن عنده من الوقت أو الأهمية ما يجعله

يفكر فى تنظيم أسرته، فرأينا من أثر ذلك أن الرجل إذا خرج من المنزل أغلق كل منفذ، ورفع كل ما يوصل إليه، وتظل المرأة حبيسة بئسة تشاكس الخدم والأسرى الذين تعج بهم الدار. ونتج عن هذه الحالة عدم عنايتها بولدها، فكانت ترميه بعد ولادته فى أحضان الخدم حتى يبلغ ثم يخرج من البيت للتعلم فى المدرسة، ثم يزوج به فى أحضان الحياة العامة تحت تأثير الاتجاه الديموقراطى الذى أغرى كل فرد بالاشتراك فى توجيه السياسة وتنظيم الأداة الحكومية.

ولما ضعف هذا الاتجاه بتولى الحكومة المطلقة تفرغ الرجل نوعا لتنظيم أسرته على ضوء تعاليم سقراط وأفلاطون واكسينوف، ثم تدهورت بعد عندما استولى عليهم الاسكندر المقدونى، وسيأتى فى بحث حقوق الأولاد مزيد توضيح لوضع الأسرة فى أثينا واسبرطة.

يقول الدكتور الخشاب :

أولا : تحدث أفلاطون فى جمهوريته الفاضلة عن الأسرة من وجهتين :

(أ) عن الأسرة فى طبقات الشعب، وهى تقوم على وحدة الزوج والزوجة بالتعاقد المشروع، والطلاق يباح عند وجود مقتضياته المحددة. ورأى تحديد النسل تبعا لحاجة الأمة، ومناسبة مواردها.

(ب) وتحدث عن الأسرة فى طبقة الحراس، وهى تقوم على خضوع الأطفال لتربية اجتماعية واحدة، وتتولى الدولة تربيتهم ماداموا موجودين فى أسرة الجندية، وتحدث عن المساواة بين الجنسين فى الحقوق والواجبات والوظائف، وحرمة طبقة الحراس التملك ومن تكوين أسر بالمعنى المعروف، وأباح الشيوعية الجنسية فى أسرة الجندية، بمعنى أن يكون الحارسات حقا مشاعا للحارسين، ونظم هذه الاتصالات بأن أوجب على المشرفين على نظام الحراسة أن يتولوا فى الأعياد والمناسبات صياغة عقود الزواج المؤقتة بين الحراس والحارسات، على شرط الكفاءة بينهما، وذلك من أجل ضمان نسل ممتاز ومحدد.

ويرى أفلاطون أن الأم يجب أن تبدأ بالإنجاب فى سن العشرين حتى

الأربعين. والرجل فى سن الخامسة والعشرين حتى الخامسة والخمسين، ويمتنع بعد ذلك الاتصال، وحرمة الاتصال الجنسى بين الرجل وأصوله (أمه وجدته) وفروعه المباشرة (بنته وحفيدته) وكذلك بين المرأة وأصولها وفروعها.

ولما كان من المتعذر فى هذا النظام تمييز صلات القربى والأصول والفروع قال: يؤخذ تاريخ الزواج أساسا للفصل بين الطبقات الزوجية، فمثلا بالنسبة للزوجين يعتبر الأطفال الذين ولدوا منذ الشهر السابع إلى العاشر فى مرتبة أولادهم (بنين وبنات) وبالتالي عندما يكبر هؤلاء الأطفال حتى سن الاتصال الجنسى فإن من يأتى من أصلابهم فى مرحلة زواجية يعتبرون أحفادا بالنسبة للزوجين الأولين، وهؤلاء يحرم عليهم التزاوج، إلا إذا حدث واختيروا بالقرعة استجابة لوحى الإله «أبولو».

ويوضع الأطفال فى مكان واحد عند مرضعات فاضلات، تخفيفا عن الحارسة لتقوم بواجب الحراسة، وممنوع تعريف الأمهات بأولادهن حتى لا تشغلهن العاطفة عن أداء الواجب. أما الثمرات الضعيفة فيقذف بها فى مكان مجهول، وأباح أفلاطون إعدامهم، ولكن اليونانيين لم يقبلوا آراءه فبقيت خيالات لم تحقق.

وثانيا: وأما أرسطو فقد قرر أن تكوين الأسرة هو داعية طبيعية ككل الكائنات، والأسرة عنده زوجان وأولاد وعبيد، والطبيعة عينت مركز كل منهم. فالعقل يحكم كسيد. والقوى فى جسمه ينفذ الأعمال ويقوم بالخدمة. والرجل سيد والمرأة أقل عقلا، لذلك كان عملها هو التربية وتدبير المنزل، والعبيد مخصصون للأعمال الشاقة. وكان توزيعه لهذا العمل قائما على أساس فلسفى، حيث يقول: إن النفس تسيطر على البدن، والعقل يحكم الغريزة، والإنسان يسخر الحيوان والذكر يسيطر على الأنثى.

وللرجل عنده ثلاثة مظاهر للسلطة، سلطة السيد كديكتاتور على أرقائه،

وسلطة الأب على أولاده كسلطة الملكية، وسلطة كزوج، وتعتبر سلطة جمهورية.

ويقول: إن مركز الكائن الأخلاقي تابع لإرادته، فعدم الإرادة (الرقيق) ليس فاضلا في ذاته، والذي يأمر هو فاضل في أكمل الصور، ووظيفته في الأسرة كالمهندس، أما الآخرون والعمال فليس لهم فضائل إلا بحسب وظائفهم. وأهم فضيلة في المرأة هي الطاعة، كما أن فضيلة الرجل هي السلطة، ويقول: لا ينبغي التبكير في الزواج، والحد الأدنى له ثمانية عشر عاما للنساء، وحوالي سبعة وثلاثين للرجال، ويتحتم قطع الإنجاب في حوالي سن الخمسين وذلك لبلوغ العقل قوته، أي بعده بنحو أربع سنوات أو خمس، وعليه ألا يجب ولا يشغل بعواطف نحو الأسرة.

وتحدث عن الخيانة الزوجية فحرمها، ووضع لها عقوبة مناسبة تشتد في الفترة المعينة للإنجاب، وقرر أن تعدم الثمرات الحادثة من الخيانة، وهو يؤيد تحديد النسل بالإجهاض، وإعدام المشوهين وفاسدى التربية كما رأى أفلاطون. وعنى بنظام تربية الأطفال، فجعل لهم مفتشين، وأوصى بعدم اختلاط الأطفال بالعبيد وقرناء السوء الذين يجب نفيهم عن البلد. انتهى ملخصا من كلام الدكتور الخشاب.

ومن منقولات الكاتين أن سقراط كان يستصوب أن يتقارض الأصدقاء من الرجال زوجاتهم، وقد أعار هو زوجته لصديقه ليتمتع بها^(١) ولعل لهذه الفلسفة أثرا في العصر الحديث في تقارض الأصدقاء لزوجاتهم في حفلات الرقص وغيرها.

٥ - أما الرومان فقد جاء في نظامهم أن الأب حاكم مطلق لكل من في البيت. وله أن يقتل ويبيع من يشاء، واستمرت هذه الحال مدة الجمهورية حتى

(١) اسم الزوجة جزانتيب واسم الصديق اليسيب.

فقدت الروابط بين أعضاء الأسرة، ورأينا الولد الأكبر يرث أباه في ملكيته لكل ما في البيت، حتى في وضع يده على زوجة أبيه، كما فعل العرب في الجاهلية.

ولما سقطت الجمهورية وتولى الأباطرة تلطفت تلك الحال. فحرم قتل الأولاد وشدد فيه «كونستنتان» وإن بقي حق رمي ابنه عند ولادته. فقد كان من طقوسهم أن الولد بعد أن يولد يوضع عند رجلى والده فإن أمر برفعه صار ابنه، وإن سكت رمى في جهة نائية حتى يموت أو يلقطه أحد المارة، وليس للأُم أية شفاعة في هذا الأمر الشاذ، فهي مجردة عن الحقوق، وبهذا فقدت لذة الأمومة وانصرفت لحياة الخلاعة والمجون، وخفف «كونستنتان» من حدة هذا الحق وهو رمي الولد، وأبقى بيعه ساعة ميلاده فقط، وليس له بعد تربيته إلا حق التبرؤ منه عند اقتضاء حالة فقر تضطره إلى ذلك.

يقول «جوستاف لوبون»: إن الفتاة عند الرومان ما كانت تستطيع أن تتصل برجل واحد إلا إذا دخلت قبل ذلك في حوزة القسيس كزوجة أو أمة، ويقول: إن التعاليم القديمة كانت تأمر المرأة بأن تسلم نفسها لأجنبي قبل الزواج. وفي القرن السادس الميلادي جعل «جوستنيان» قصرا جميلا على البسفور وأمر النساء البغيات بالرهبانية فلم يستطعن، وفر بعضهن وانتحر البعض الآخر، لكنه لم ينفذ ذلك جديا، لأنه هو نفسه تزوج بغيا وهي «تيودورا». وفي بحث الحجاب صور لتتهتك المرأة الرومانية وقيام «كاتو» بحملة ضدهن في القرن الثالث قبل الميلاد.

٣ - الأسرة في الجزيرة العربية قبل الإسلام:

تحدث عنها القرآن حديثا مفصلا. ويعرف ذلك عند عرض النظام الذي وضعه الإسلام للأسرة في كل تفاصيله فلا داعي لذكره هنا.

وإلى جانب ما هو مذكور في هذا الكتاب مما يوضح وضع الأسرة في الجاهلية يمكن الرجوع إلى كتاب الأحوال الشخصية لمحمد الحسيني، والمرأة في القرآن للعقاد، والصديقة بنت الصديق له أيضا، وما كتبه أحمد خاكي عن المرأة

فى عصور التاريخ، وكتب أخرى، يعرف منها أن المرأة كانت شريكة الرجل فى الرعى، وكان الولد أقوى من مركز البنت، من أجل ظروف الخروب والثرات والدفاع، وكان العفاف عند البادية فى غير المحل الأرفع عند الحضرم، وكانت المرأة على كل حال مطلباً للمتعة أولاً، وظهر التبرج والاتصالات الجنسية على أنحاء مختلفة، وإن كان ذلك فى غير البيوت الكريمة. وكانت أشعارهم مملوءة بالغزل والتشبيب، وكان الإبداع فيه عنوان البلاغة، وشاع الغرام بينهم ولهم فيه قصص شيقة.

٤ - الأسرة فى نظر الفلاسفة المحدثين:

على الرغم من أن اليهودية ما زال لها أتباع يقدرون بنحو ١٤ مليوناً، وكذلك المسيحية التى يقدر عدد أتباعها بنحو ٩٨٥ مليوناً^(١) فإن من اليهود والنصارى فلاسفة لهم آراؤهم فى الأسرة بصرف النظر عن كونها نابعة من دينهم أو كانت وحيًا من استقلالهم الفكرى، ومن أهم من تحدث عن آرائهم الدكتور الخشاب ثلاثة: أوجست كونت، ليستر وارد، سمير.

١ - فأوجست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧م) كانت نظرتة الفلسفية للأسرة نظرة اجتماعية لا فردية، والزواج عنده اقتران طبيعى يجب أن يكون قائماً على مبدأ وحدة الزوجة، ويكره الطلاق عنده، لأنه يؤدى إلى زواج آخر، ولا يحب الأنانية فى حياة الأسرة، وقرر وجوب خضوع المرأة للرجل بحكم الطبيعة، وإن كانت أرقى منه عاطفة وشعوراً بحياة الجماعة، إلا أنها أقل منه ذكاء بسبب اعتبارات بيولوجية دائمة.

ويحتم على الأم أن يلازمها ولدها حتى السابعة، وذلك لتربية عقله وأخلاقه وجسمه، وكذلك لتربى فيه الروح الدينية، وجعل الزواج رابطة مقدسة، ومنع الاتصال الجنسي فى سن الثانية والستين، ودعا إلى الاعتكاف والرهينة والتصوف استعداداً للموت.

(١) من ملحق دائرة المعارف البريطانية ١٩٧٢ منشور بمجلة العربى عدد يونية ١٩٧٣.

٢ - ليستر وارد (١٨٤١ - ١٩١٣م) كان يشيد بمبدأ الحب الطبيعي، وفروعه عنده هي: الحب العاطفي بين الرجل والمرأة، والحب الزوجي بين الزوجين، والحب الأبوي بين الأب وأولاده، والحب الأمي بين الأم ورضيعها، والحب الجنسي القائم على الصلات الاثنولوجية والاجتماعية بين الأجناس.

وتكلم عن الحب العاطفي «الرومانتيك» وقال: أنه أول خطوة في نظام الزواج، وهو ناشئ من عدم مساواة المرأة بالرجل، وعدم اعتمادها على نفسها، ويقول: إن الحب ضروري قبل الزواج، وهو يدل على مركب نقص في الرجل والمرأة. فكل منهما يشعر بنقص، والآخر هو الذي يكمله وإن كانا لا يحسان هذا المعنى، بل ينقادان إليه لا شعوريا.

ويقول: إن هناك فترة شيوعية جنسية مرت بها الإنسانية قبل انتشار الحب العاطفي بين الجنسين، وظهرت رواسب هذه الإباحية الجنسية في العلاقات الزوجية وفي أفكار الرجال عن الزواج، ويقول: إن الصعوبات والاضطرابات التي يعانها الزوجان في ظل وحدة الزوجة يرجع معظمها إلي بقايا النظام الشيوعي للجنس، وذلك لصعوبة الانتقال من الإباحية إلى الاقتصار على واحدة، ففيه تقييد لحرية الرجل، ولذلك كان هذا النظام امتحانا لأخلاق الرجل يحتاج إلى مران، وبهذا يكون نظام وحدة الزوجة أرقى نظام في نظره.

ويرى أن الحب بين الأم ورضيعها هو من آثار الحب الطبيعي الجنسي، لما تحسه المرأة من لذة أثناء الإرضاع، ويرى أن أقدم مظهر للحصول على الزوجة هو الاستيلاء عليها بالقوة، وكان ذلك على أساس نظام احتكار الأقوى من الرجال للنساء، أما الرجل الضعيف فكتبت عليه العزوبة لعدم منازلة الأقوياء في هذا المجال.

٣ - وأما سمندر (١٨٤٠ - ١٩١٠م) فيرى أن الزواج ظاهرة طبيعية واجتماعية من أجل التعاون، ويرى أن النسب الأمي كان أسبق من النسب الأبوي، فكان يلحق الولد بنسب أمه، لأن علاقته بأمه واضحة ومحدودة، ولأن

الرجال كانوا يبعدون كثيرا عن زوجاتهم للصيد والتجارة، فلما استقرت الحياة كان هو محور النسب، وهو يكره الطلاق ويحذ عدم تعدد الزوجات .

هذه بعض أفكار أوردتها لا للأخذ بها، ولكنها معرض لصور من التفكير البشري، بعضه تبدو فيه الحرية الفكرية، والبعض يبدو عليه في بعض المسائل تعصبه لدينه أو لنظام مجتمعه، ولا أكلف نفسي مناقشتها فإن عرض نظام الإسلام بحكمته وفلسفته فيه ما يغنى عن بيان ما فيها من باطل .

٥ - الأسرة في ظل القوانين الحديثة :

استمىحك عفوا أيها القارئ، إذا لم أتحدث الآن عن الأسرة في النظم المعاصرة فستجد الحديث عنها وافيًا في أبحاث الحجاب ومركز المرأة . وحقوق الزوجية ونظام الطلاق وغيرها من أبحاث هذا الكتاب . وسنرى فيها فرقا كبيرا بينها وبين الإسلام في تشريعه الحكيم وذوقه الرفيع . ولعلك لحت بعض أوضاع الأسرة الحديثة في عرضنا السابق لعوامل تطور الأسرة .

يقول « جوستاف لوبون » : إن الفلسفة الإباحية القديمة عند اليونان لها أثر في العصر الحديث عند أوروبا، فقد نقل عن دراسة نشرتها المجلة العلمية أن السفاح بين الفتيان والفتيات قبل الزواج وفي أعراسه وفي المراقص العامة لا يزال عادة مرعية عند أقوام من أهل أوروبا يعيشون في هذا العصر . فهم يرون أن مما تعاب به الفتاة أن تتخلف عن هذا السفاح . كما يرون أن العفاف شيء مستهجن . حتى ليصعب على الفتاة التي لا تحمل سفاحا قبل الزواج أن تجد لها زوجا . أهـ .

وقد نشرت الصحف أخيرا صورا من الفساد الخلقي وتدهور الأسرة في إنجلترا، وبخاصة بعد وجود القوات العسكرية الأمريكية فيها، والمكاتب والمؤسسات العالمية في ألمانيا وغيرها، والتي تورد الفتيات لكبار الشخصيات، إما لإبتزاز الأموال وإما للتجسس ونقل الأخبار، وإما لإفساد الأخلاق كمخطط صهيوني معروف لليهود .

(م ٦ - موسوعة الأسرة ج ١)

ومن المؤسف أن بعض من ينتسبون إلى الإسلام أو يعيشون في الدول الإسلامية راجت فيهم تلك المظاهر الخليعة، ومارسوا ما تمارسه البيئات الأجنبية من مفساد، من أجل الكسب المادى أو من أجل أغراض أخرى وراء ذلك، وكانت بعض عواصم الدول العربية مباءة منتنة لهذا الفسق المتعدد الألوان .

والإسلام على الرغم من أنه وضع أدق الأنظمة لسياسة الأسرة، التي أدت دورها كاملا في العصور الأولى، فإن غزو الأفكار الأجنبية، والسير السريع مع ركب المدنية الحديثة، جعلوا الناس يتحللون شيئا فشيئا من نظام الإسلام الذى لم يفهموه حق الفهم . والذى ظنوه قيذا للحربة ثقيلًا يحول دون النهوض .

وأول ما دب الفساد إلى الأسرة المسلمة دب في الدول التي وقعت تحت نير الاستعمار، وذلك بدافع التقليد من الضعيف للقوى، بحمل القوى للضعيف على اتباع تقاليده هو لمحو الشخصية الإسلامية، وربط الأفكار والقلوب والعادات بالدول الكبرى .

وكان الفساد يدب أولاً إلى المدن الكبرى ثم إلى المدن الصغرى حتى وصل إلى القرى وإلى أعماق الريف .

إن مركز الأسرة تابع لشعور المجتمع بالروح الدينية والخلقية، فكانت الأسرة مثلاً قوية في عصر الخلفاء الراشدين، لكنها في عصر العباسيين بدأ يدب إليها الفساد، بما كان في الدولة من ترف، ومن آثار تركتها عليها العناصر التي دخلت في الإسلام بأفكارها وحضاراتها .

والأسرة في أوروبا في العصور الوسطى كانت أحسن حالا منها الآن، وقوى مركزها في عصر المتطهرين في إنجلترا، ثم تلا ذلك انفجار في التهلكة بعد عصر النهضة، وعودة الملكية في إنجلترا، كما يقول أحمد خاكي، وتوضيح ذلك في بحث الحجاب ومركز المرأة في المجتمع .

٦ - الأسرة في الجماعات المتأخرة في العصر الحديث :

على الرغم من انتشار الحضارة والمدنية الآن فإن بعضاً من الشعوب ما تزال

محتفظة بطابعها القديم لسبب أو لآخر، وكانت الأسرة الطيبة بالنسبة لباقي الأسر كنغمة نشاز في سيمفونية الحياة الأسرية.

وقد تسيطر على بعض المجتمعات حالات نفسية أو عقلية أو ضرورات اقتصادية تجعلها تشكل حياتها على ضوء هذه الحالات أو الضرورات، ويظهر ذلك في طقوس الزواج والنظر إلى المرأة والأولاد والأسرة بوجه عام.

يقول محمد لطفى جمعة: روى الأستاذ «روشا» أن النساء في كاليدونيا الجديدة من السكان الأصليين يعشن في استسلام دائم. وكذا نساء استراليا الأصليات. وفي بولنيزيا توجد حرية مطلقة. وليس الزنى جريمة. بل هم يقرضون نساءهم بأبخس الأثمان للأجانب. وهذا الإقراض يرويه الرحالة «كوك» عن نيوزيلاندا أيضا.

وأهل جزيرة تاهيتي عاصمة بولنيزيا يقدمون المرأة للضيف تكريما له، ويهبونه عذراء من بين أصناف الطعام، ويرقصون ويطربون حول الضيف وهو يغازل الأنثى على مشهد منهم^(١). وبلغ من إباحية تاهيتي وجزر سوسيتي أن كونوا جمعية لإشباع مطالب الجسد وواد الأطفال، وعملهم هو التنقل في الجزر للمغازلة والمتعة الجنسية، والنساء يرقصن رقصة «تيمورودي» المثيرة للشهوة، ولا يستطعن الاحتفاظ بأولادهن إذا وجدن من يتبناهم، فإذا خولف ذلك قررت الجمعية فصل الأم والمتبنى. ويسبون الأم بأنها واضعة الأطفال، وهؤلاء الأعضاء يرون أنفسهم أرقى الجنس البشرى.

والاسكيمو أيضا يكرمون الضيف بالمرأة، ويبيعونها ويؤجرونها، وهي لا ترعى كرامة للزوج إذا غاب، وأهل سينتياجو عاصمة شيلي يساكنون العاهرات، ونساؤهم يدعون المارة لغرف مزينة، ومثل هذا كان في مالطة في أواخر القرن التاسع عشر، كما أشار إليه أحمد فارس الشدياق في كتابه «الواسطة في أخبار مالطة».

(١) في فيلم تليفزيونى عرض بالكويت عن حياة الشعوب يوم السبت ١٩٧٣/٦/٢ عن جزيرة فيجي وما جاورها في المحيط العادى شاهدنا هذه الصورة.

والرجل فى دارفور كان يدافع عن عاشق ابنته وأخته، وكثير من هذه الأمثلة موجودة فى العدد ١٢٤ من السنة الثالثة لجريدة البلاغ الأسبوعى فى مصر بتاريخ ٢٤ من صفر ١٣٤٨ هـ .

ويقول الرحالة والباحثون : إن الأسرة فى استراليا يغلب عليها طابع الانحلال والإباحية، وذلك بسبب ضعف الميل للدين، وعدم الاهتمام بالتبشير الدينى فيها، وسببه ضغط الحاجة الاقتصادية على تفكيرها، وشعورها بالاعتراب عن الوطن الأسمى الأم، وعدم خوفهم من النقد، فالرابطة الاجتماعية ضعيفة بين الأسر النازحة من أطراف العالم، ولكل منها ما تتميز به عن الأخرى تبعاً لما نقلته معها من وطنها، والأسرة هناك مهزوزة جداً، وذلك لكثرة الأندية وانتشار وسائل الترفيه وتقديم متطلبات الإنسان بسهولة .

يقول الرحالة محمد ثابت وغيره : فى نيوريلنده شعوب الماورى أرقى همج الدنيا وأكثرهم استعداداً للرقى، ملابس النساء مصنوعة من عيدان الكتان، وهى تلبس على الخصر وتترك أعلى الجسد عارياً، وهن مرحات رغم الفقر، وفيهن شجاعة، والمرأة هى التى تختار زوجها، ويدعى بنوها الرفعة عن طريقها لا عن طريق الأب، وهن كلفات بالوشم .

تلك صور وغيرها كثير ترينا ما على الأرض من عجائب بشرية، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] .

ثانياً - الأسرة فى الأديان السماوية :

إن أكبر دينين ظهرا فى الوجود قبل الإسلام هما اليهودية والنصرانية لكثرة أتباعهما، ولأنهما آخر الأديان قبل الدين الخاتم وهو الإسلام، والأديان وحى سماوى نظم جميع العلاقات البشرية، ومنها العلاقة الأسرية، والقرآن الكريم قد أشار إلى طرف من هذا، فهامى ذى أسرة نوح لم تؤمن فيها زوجته ولم يطعه

ولده فكان من المغرقين، وأسرة لوط التي لم تؤمن زوجته فأصابها ما أصاب القوم من حجارة من سجيل، وأسرة إبراهيم الذي اشتاق للذرية فوهبه الله على الكبر إسماعيل وإسحاق من هاجر وسارة، وما كان من أمر الذبيح وبناء البيت الحرام وإنشاء مجتمع مكة، وأسرة يعقوب وكيد أولاده لأخيهم يوسف، وأسرة زكريا الذي دعا ربه أن يرزقه فرزقه يحيى على كبر، ومريم ابنة عمران وولادتها لعيسى على غير المعتاد، وكيف كان بها بارا كما كان يحيى من قبل مع أبيه زكريا، كل ذلك يعطينا فكرة عن الأسر التي نمت وترعرعت في ظل الأديان السماوية، وتفصيل ما في هذه الأسر يمكن أن يعرف في أثناء الكلام على الأسرة تحت رعاية الإسلام حيث تعرض صور كثيرة مما عرف قديما وما يعرف حديثا ليظهر بها إشراق الصورة الإسلامية في نظامها الحكيم.

* * *

الفصل الثانى

أهمية الزواج فى الإسلام

الزواج الذى سنتحدث عنه هو الزواج الشرعى الذى تتكون منه الأسرة المستقرة المنتجة المؤدية لدورها فى الحياة، ولذلك سيكون حديثنا عن الزواج حديثاً عن الأسرة لتلازمهما.

ولا تتضح نظرة الإسلام لهذه العلاقة المقدسة إلا بمعرفة نظرة الأجيال السابقة إليها كما يرويها علماء الاجتماع فنقول:

أولاً - أن الأقوام الذين بعدوا عن مواطن الأديان وميادين الحضارة نظروا إلى الزواج كعملية طبيعية تدعو إليها الغريزة الجنسية، ولا شىء وراء ذلك من رعاية للحقوق ولا اهتمام بالنتائج، وهؤلاء إلى البهائم أقرب.

لقد كان بعض هؤلاء يجهلون أن الاتصال الجنسى يحدث الجنين فى بطن المرأة، كما تقدم ذكره، ويقولون أنه جاء من القمر، أو بسبب استحمام المرأة فى البحر، ومن لم ترد أن تحمل لا تستحم فيه^(١)، بل أن طائفة كانت تعبد القمر بوصف أنه إله التناسل، حيث تحمل أشعته قوة الإخصاب والإنجاب، وإذا أرادت المرأة الحمل استلقت على ظهرها تحت ضوء القمر، ويحل لأى رجل مار بها أن يطأها ليفتح الطريق لنور القمر أن يدخل بطنها، فلم يكن لرباط الزوجية أى شأن عند هؤلاء، كما يقوله «راترى تايلور» فى كتابه عن الجنس ص ٢١٥^(٢).

وتظهر بهيمية هؤلاء فى التجاء الذكر إلى أعنف الوسائل للحصول على الأنثى من أجل تلبية رغبته الجنسية، كالقتال والنهب والتطاحن بين الذكر للظفر بها كما يفعل الحيوان تماماً، فكانت الأنثى إذ ذاك ككرة التنس أو السلة تتقاذفها المضارب وتلقفها الأيدي، لتطوح بها هنا وهناك حتى تستقر عند البطل الفائز فى حلبة الصراع.

(١، ٢) كتاب على منصور «مقارنات» ص ١٤٣.

روى سبنسر كثيرا من عادات المتوحشين والهمج في الزواج فقال: إن بهيمية الذكر تتضح في قبائل «الشيبويبان» بأمريكا وقبائل «البوشمان» بأفريقيا، فعندما يريد الرجل أن يلبي نداء الغريزة الجنسية فتعجبه أنثى يقاتل زوجها حتى يتغلب عليه فتنقاد له المرأة طائعة مسوقة بدافع الإعجاب بشجاعة الذكر الجديد الذي هو قرة عينها، والذي ستمثل دوره عندما تهيج شهوتها وتريد أن تستأثر بقلبه الذي تشترك معها فيه عدة ضرائر، فهي تقاتلهن وتغالبن في معركة بالعصى الغليظة تحت سمع الرجل وبصره حتى تفوز، وهذا شائع في قبائل «كينسلان» بأفريقيا.

وكفاءة الرجل في تأدية هذه العملية الجنسية لقوة جسمه يظهر تقديرها في بعض قبائل استراليا عندما يقوم فريقان بالقتال، فإن انتصر أحدهما ذهبت نساء المغلوبين إلى الغالبين عن طيب نفس، ولهذا لم يحتفل هناك بالزواج، إذ كيف يكون هناك احتفال مع أن الزوجة المحتفل بها يجوز أن تكون زوجة لآخر بعد يوم أو بعد ساعات؟

ينقل الأستاذ على بدوى - من أساتذة القانون بالجامعة المصرية - عن «دكلاريل» أن المجتمع في عصوره الفطرية كان يقوم على نظام زواج الجماعة، أى أن النساء مشاعات بين الرجال، والولد كان ينسب لأمه لعدم معرفة أبيه، واستند «دكلاريل» في هذا إلى دراسات المانية عن «بوست، باخوفن» ويرى أن المبالغة في حرية الاختلاط في بعض جهات السلاف هي من ظلال العهد الإباحي الغابر.

ونقل عن سبنسر مثل هذا الكلام، وقال: وعليه فانتقال المجتمع من حالة الإباحية إلى الاستئثار بزوجة هو تنزه عن الرجعية وسمو بالمدينة، ثم يقول على بدوى: ولكن أول صورة للاختلاط الجنسي كانت الاستئثار بزوجة، كما في قوله تعالى لآدم ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾.

ومعنى الزواج الذى يفهمه العقلاء، كما يقول سبنسر، ليس له وجود فى

بعض قبائل كاليفورنيا بأمريكا الشمالية، فإنهم يختلطون كالبهائم والطيور، لا يحفلون بقداسة هذه الرابطة، حتى خلت لغتهم من لفظة لها، وكيف يضعون اسما لشيء أغنت طبيعتهم عن وضع اسم له يميزه؟ ولهذا لم يجد هؤلاء الرجال عارا في إكرام الصديق بتقديم الزوجة والبنات له مدة ضيافته، وذلك شأن قبائل الاسكيمو ومتوحشى أمريكا وبعض قبائل بولينيزيا والسودان والحبشة، وله صورة في قبائل البوشمان، فإن الرواد نقلوا أن المرأة تستأذن زوجها في الذهاب إلى رجل تعاشره ثم تعود، ويعد ذلك من مكارم الأخلاق عند الاسكيمو في جزيرة « جرونيلادا » .

يقول الأستاذ محمد جاد المولى : وكيف يستغرب هذا الإحساس وقد كان شرعة الإنجليز قبل مائة سنة، حيث كان يجوز للرجل أن يبيع زوجته بثمن يقدر بأربعة وعشرين مليما؟^(١) .

وبمثل هذه النظرة للزوجة لم تقدر رابطة الزواج، بل عد السكان الأصليون لاقليم « داريان » في أمريكا أن من انحطاط الأخلاق عند النساء أن ترد طلب طالب، ومثل ذلك عند نساء « اندمان » في آسيا، بل تفاخر قبائل « الشيباش » بأمريكا الوسطى بمغازلة الرجال لنسائهن، لأنه عنوان تقدير المرأة في جمالها وأنوثتها، وينفرون من البكر ويعدونها من سقط المتاع^(٢) .

وجاء في أهرام ١٨ / ١٢ / ١٩٥٩ أن المرأة في الأرجنتين تهتم بمعاكسة الرجال، لأنه دليل على الرغبة فيها ويرجى لها الزواج، فإن لم تظفر بمن يغازلها عند خروجها عادت حزينة إلى بيتها، لذا تفكر الطفلة أول أمرها في هذا قبل أن تفكر في الدرس والعلم، وحاولت « ايفا براون » منع هذه العادة فلم تستطع، فالغزل عند المرأة أولا هو الأهم، والزواج يكون في المرتبة الثانية^(٣) .

(١) محمد المثل الكامل لجاد المولى ص ٩٩ . (٢) مجلة الأزهر، المجلد الرابع ص ٥٧٤ .

(٣) عندما ينقل هذا الكلام يظن القارئ أن كل النساء هناك كذلك، لكن نقلت صور

أخرى مضادة تجعل الإنسان يعتقد أنها عادات محلية لا عامة، أنظر أول بحث الحجاب .

والحياة فى اليابان فيها صورة من خدمة المرأة للضيف فى كل ما يحتاجه،
وفتيات الجيشا معروفات بهذه المهنة، وتوجد صورة من ذلك أيضا فى «لاجوس»
بنيجيريا كما يحكيها الرحالة محمد ثابت.

ثانيا: أما البلاد التى كانت مهبط الوحى ومهد الحضارات فإنها نظرت إلى
الزواج نظرة أرقى، فهو مع استجابته لنداء الغريزة استجابة للتعاون فى الحياة، وقد
رسمت قواعد ووضعت أصولا للزواج حتى ينتج النتيجة المطلوبة.

وما كان الله ليذر آدم يضل فى متاهات الحياة الدنيا دون أن يقيم له
منارات تهديه سواء السبيل، فجعل أنثاه سكنا له تشاطره آلامه وآماله، وكان
من أثر هذا الزواج ذلك العالم الصاحب الذى يعج بالأحداث المثيرة إلى يوم
الدين.

تتابع الأنبياء على هذه السنة التى تدعو إليها الطبيعة ويدعو إليها الدين
لضمان تعمير الأرض وتحقيق خلافة آدم فيها. فالزواج سنة من سنن الله الكونية
فى الطبيعة البشرية، وهو أيضا هدى من هدى الدين الذى نظمه تنظيما دقيقا.

فالأنبياء تزوجوا كبشر، اقتداء بأبيهم الأول، وتزوجوا كمأمورين من الله
سبحانه، وكانت شرائعهم مختلفة فى نظام الزواج والنظم الأخرى. تبعا
لاختلاف بيئاتهم والظروف التى عاشوا فيها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ
قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾ [الرعد: ٢٨].

ومن شذ عن ذلك ابنا الخالة «يحيى وعيسى» قال تعالى فى يحيى مخاطبا
زكريا على لسان الملائكة وهو يصلى فى المحراب ﴿أَنَّ اللَّهَ يَشْرِكُ بِيَحْيَىٰ مَوْلَاكَ
بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وفى تفسير «الحصور» قال ابن كثير: الحصور قيل: هو الذى لا يأتى
النساء، وقيل: الذى لا يولد له ولا ماء له، وقيل: الذى لا ينزل الماء، وعن بعض
التابعين أن يحيى كان ذكره مثل هذا، وتناول شيئا من الأرض، أو أشار بطرف

أصبغه السبابة، أو مثل هدية الثوب، وأشار بأتملته أو قذاة من الأرض، وروى هذا التفسير الأخير مرفوعاً إلى النبي ﷺ عن أبي هريرة « كل ابن آدم يلقي الله بذنوب يعذبه عليه إن شاء أو يرحمه، إلا يحيى بن زكريا، فإنه كان سيذاً وحصوراً ونبياً من الصالحين » ثم أهوى النبي إلى قذاة من الأرض فأخذها وقال: وكان ذكره مثل هذه القذاة اهـ.

وقد نفى القاضي عياض هذا التفسير للحضور، وقال: إن المراد أنه كان معصوماً من الذنوب، أو مانعاً نفسه من الشهوات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ كانه قال: ولد له ذرية ونسل وعقب.

لقد قيل إن يحيى لم يتزوج، وقيل إنه تزوج ولم يجامع. وحكمة زواجه هذا قيل أنها لنيل الفضل وإقامة السنة، وقيل: لغض البصر، كما قاله أبو طالب المكي في كتابه « قوت القلوب » حيث قال: وروينا في أخبار الأنبياء أن يحيى بن زكريا تزوج امرأة ولم يكن يقربها قيل لغض البصر، ويقال للفضل في ذلك كانه أراد أن يجمع الفضائل كلها، وقيل لاجل السنة اهـ. لكن هذا كله لا دليل عليه.

وأما عيسى فرفعه الله، ولم يتزوج، وقيل: إنه سيتزوج عند نزوله آخر الزمان ويولد له ويحج ويدفن مع النبي « الزبيدي على شرح الإحياء »، وكان عدم زواجهما لحكمة عظيمة، هي قطع سلسلة النسب الديني من إسحق، إيذاناً بانتقال النبوة إلى فرع أخيه إسماعيل ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام.

(١) لقد كان الزواج عند اليهود هدياً دينياً إلى جانب كونه سنة طبيعية. فأقبلوا عليه تنفيذاً لأمر الله حتى يكثروا عددهم ويتغلبوا على الجبارين ومن دعاهم الله لقتالهم، ولعل مما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ [الإسراء: ٦]، وقد أكثروا من الزواج كثرة لم يكن لها حد معين، كما سنوضحه في بحث تعدد الزوجات، وكان من أهم أغراضه كثرة

النسل، التي كان من ضمن إجراءاتها أن يفرض على الأخ أن يتزوج أرملة أخيه ليولدها ولدا ينسب لأخيه. وتوضيح ذلك في بحث الأولاد.

وهم في تشريعاتهم الحديثة يشجعونه ويجعلونه مفروضا، فقد نقل انور الخطيب في كتابه «الزواج في الشرع الإسلامي والقوانين اللبنانية» عن كتاب «المقارنات والمقابلات» لمحمد حافظ صبرى، في المادة ٣٩٣، المنقول عن كتاب «قدوستين وكوبوت» أن الزواج فرض في اليهودية، لأن النكاح بنية التناسل ودوام حفظ النوع الإنساني فرض على كل إسرائيلي، ومن تأخر عن أداء هذا القرض وعاش عزبا بدون زواج كان سببا في غضب الله على بني إسرائيل.

(ب) وأما المسيحية فليس في نصوصها الصحيحة ما ينفر من الزواج، أو يدعو إلى الرهبانية، فإن دين الله حاشاه أن يضاد الفطرة، والمسيحية هي امتداد لليهودية، وقد رأيت مشروعية الزواج في هذا الدين، وسيدنا عيسى ما جاء لينقض الناموس، بل جاء في كتبهم المقدسة عندهم على لسان عيسى «لا تظنوا إنني جئت لأنقض ناموس الأنبياء، ما جئت لأنقض، بل لأكمل» (متى - اصحاح ٥ : ١٧). وقال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة : ٤٦].

وكان المسيحيون الأوائل الفاهمون لشرية الله معترفين بقدسية الزواج، وجاء في أقوالهم: كذلك أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن، حتى وإن كان البعض لا يطيعون الكلمة، وجاء أيضا: فإنه هكذا كانت النساء القديسات قديما خاضعات لرجالهن، كما كانت سارة تطيع إبراهيم، داعية إياه سيدها . اهـ.

كما جاء أيضا: كذلك أيها الرجال كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناث النسائي كالأضعف، معطين إياهن كرامة كالوازيات أيضا معكم نعمة الحياة لكيلا تعاق صلواتكم.

نسب هذا الكلام إلى بطرس، وجاء في رسالة إلى أهل افسيس

اصحاح (٥) قول بولس عن طاعة الزوجة لزوجها، أيها النساء، اخضعن لرجالكن، كما للرب . لأن الرجل هو رأس المرأة، كما أن المسيح رأس الكنيسة، وقال : أن المرأة خلقت من الرجل ومن أجله، ولا قيمة لها بدونه «مقارنات ص ١٦١» .

ولكن على الرغم من مشروعية الزواج في الدين المسيحي دخل نظام الرهبنة والدعوة إلى التبتل على المجتمع المسيحي، وكان له دوره في الحياة الخاصة والعامّة، ومن الخير أن نفرّد هذا النظام بكلمة :

الرهبنة :

١ - الرهبنة هي صفة الراهب، والرهبان الذين انقطعوا عن الحياة إلى العبادة مستشعرين الرهبة والخوف من الله، وقد عرف الرهبنة أهلها بقولهم : هي حياة جماعية منظمة لغرض ديني .

وقالوا : إنها تقوم على نذور ثلاثة : الطاعة لرئيس الدير، والفقير، والبتولية أي عدم الزواج، كما قالوا : إنها تكون للنساء والرجال .

٢ - والرهبنة المسيحية شبه مقصورة على الكنيستين الكاثوليكية والإرثوذكسية، وترجع رهبنة الكنائس الشرقية إلى نظام القديس «باخوميوس» في مصر، ونظام القديس «باسيليوس» في البلاد العربية الأخرى، وبدأت الرهبنة المسيحية في مصر وفلسطين، فعاش الرهبان في الصحراء، وأشهرهم القديس «أنطونيوس» في القرن الرابع، ومعاصره القديس «باخوميوس» الذي أدخل نظام الرهبنة الجماعية في مصر. وتأثر الغرب بالشرق في هذا النظام .

وضعت الرهبنة في أوروبا في القرن الخامس عشر، على أثر الإصلاح الديني الذي دعا إليه «مارتن لوثر»^(١) وحاربها دعاة البروتستانتية، فقام اليسوعيون بمعارضتهم والتحمس لها، ومنذ القرن السابع عشر ظهرت رهبينات أخرى جديدة^(٢) .

(١) ولد في ١٠/١١/١٤٨٣ م وتوفي في فبراير ١٥٤٦ م .

(٢) الموسوعة العربية الميسرة .

٣ - والرهبنة المسيحية قيل: إنها من ابتداع المسيحيين ولم يكونوا مسبقين بها، استنادا إلى قوله تعالى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَنِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

وقد نوقش هذا القول بأن التاريخ أثبت أنه كانت هناك رهبنة البوذيين قبل الميلاد المسيحي جاء في كتاب «الدامابادا» لبوذا قوله: الحب والشهوة يتولد منهما الحزن والخوف، والرجل العاقل هو الذي يعيش وحيدا، ففي الوحدة المتعة. وقوله: خير للإنسان أن يقع بين فكى نمر مفترس أو تحت سيف الجلاد من أن يساكن امرأة، ويحرك في نفسه الشهوة. «مقارنات على منصور ص ١٥٢ نقلا عن كتاب: الزرادشتية والبوذية والإسلام تأليف دارميسيتير. ص ١٢٢، ١٢٣، ١٣٤، ١٤٨» وعند الرومان الذين كانوا يفرضون على العذارى عدم الزواج ليتفرغن لخدمة النار المقدسة. وربما يرد على ذلك بأن تقرير الآية لابتداع المسيحيين لها يراد به إنها لم تشرع في دين سماوى من الله، وإن كانت موجودة في التشريعات الوضعية، بدليل قوله «ما كتبناها عليهم» فأوليتها عندهم بالنسبة للتشريع الإلهي.

وقد يقال: إن الرهبنة كانت موجودة في أواخر العهد اليهودي، التي حاول «شودة» في كتابه «شريعة الزوجة الواحدة في المسيحية» أن يجعلها قمة التدرج في الحد من تعدد الزوجات، فقد كان اليهود يعددون بلا حد، وترقوا فجعلوا للتعدد حدودا، ثم جاءت مرحلة الزوجة الواحدة في المسيحية، ودعا عيسى إلى الترهيب والتبتل، وكان آخر القديسين، من اليهود بتولين مثل يسوع وإيليا وليشع ودانيال ويوحنا المعمدان. هكذا قال. وقال الدكتور «وستر مارك» أستاذ علم الاجتماع بجامعة لندن والحجة، كما يقول العقاد، في شئون الزواج على اختلاف النظم الإنسانية: إن اليهود لم يفكروا في الرهبنة إلا عند جماعة منهم

أخيرا قبيل مجئ المسيحية، عرفت باسم الحسيديم واختلطوا بالاسييم وتفانوا فى
محرابة الشهوات وعدوا الزواج دنسا «مقارنات على منصور ص ١٥٨» .

لكن هؤلاء لم يؤثروا فى الاتجاه اليهودى العام، وإن كان لهم أثر فى الرهينة
المسيحية، وقد يرد على وجودها عند اليهود بأنه لم يكن بتشريع سماوى، وإنما
من ابتداء بعض المتأخرين منهم، أو كانت ضرورة طبيعية على ما قيل فى تفسير
الحصور. عند حديث القرآن عن يحيى بن زكريا، المعبر عنه عندهم بيوحنا
المعمدان .

٤ - وسواء أكان المسيحيون مبتدعين لها أم متأثرين فيها بغيرهم من أهل
الأديان السماوية أو غيرها فإن الرهينة قويت عندهم وكثرت أديرتها وتنوعت
أنشطتها وأساليبها .

ولكن ما السبب الذى دعاهم إلى الرهينة، هل كانت نتيجة لظروف طارئة
عليهم فى حياتهم . أو لونا من العبادة مشروعا فى كتبهم كالألوان الأخرى؟

قالت جماعة: أن الرهينة المسيحية ما كانت معروفة أو ممارسة فى العهد
المسيحى الأول، بل وجدت ظروف اضطرتهم إليها، أيام اضطهاد الرومان الوثنيين
لأتباع الدين المسيحى، وقالت جماعة ثانية: أنها عبادة قديمة مستندة إلى أدلة
من الكتب شأنها شأن العبادات الأخرى . وجاء من يوفق بين القولين، فزعم أنها
عبادة مشروعة بأدلتها، ولكن لم تمارس على شكل واضح إلا عند الاضطهاد
الرومانى . وزعم آخرون عكس ذلك فقالوا: أنها لم تمارس قبل الاضطهاد، فلما
اضطروا إليها التمسوا لها دليلا من كتبهم .

وعلى أى الاتجاهين فى بيان أصلها ما هى الظروف الطارئة، وما هى الأدلة

الدينية؟

جاء فى تفسير قوله تعالى «ورهبانية ابتدعوها» كما فى الطبرى وابن كثير
والقرطبى وغيرهم ما يفيد أن ناسا قالوا للملك ظالم بدل التوراة والإنجيل: لو قتلت
المؤمنين الذين يقرءون التوراة والإنجيل ويدعون إلى دين!! ولكن المؤمنين...

قالوا له: نحن نكفيكم أنفسنا. فطلب بعضهم منه بناء صوامع لهم فى الفيافى، وهم يعولون أنفسهم بالزراعة. وقال بعض: اجعلوا لنا أسطوانة ارفعونا فيها واعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا، ولا نرد عليكم، وقالت طائفة: دعونا فى الأرض، ونسيح، ونشرب كالوحوش فى البرية، فإذا قدرتم علينا فاقتلونا.

فمضى أولئك على منهاج عيسى، وخلف قوم من بعدهم ممن غير الكتاب فقالوا: نسيح ونتعبد كما تعبد هؤلاء وهم على شركهم لا علم بإيمان مقدم من الدين اقتدوا بهم، فذلك قوله تعالى «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» ابتدعها هؤلاء الصالحون، فما رعوها أى المتأخرون.

وروى الكوفيون عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ فيما قال له: «.. هل تدرى من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية»؟ فذكر قريبا من ذلك. ثم قال «أتدرى ما رهبانية أمتى»؟ «الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على التلاع» والتلاع جمع تلة. وهى ما ارتفع من الأرض وما انهبط. وهو من الأضداد. وهذا الحديث - على فرض صحته - يثبت أن بنى إسرائيل كانت فيهم رهبانية، وإن كانت قليلة بالنسبة لرهبانية النصارى.

وأما المستند الدينى لمشروعية الرهبة عند المسيحيين فهو ما جاء عن «بولس» الذى شرح البتولية، وهى أحد أركان الرهبة على ما تقدم من تعريفها، فى رسالته الأولى إلى أهل «كورنثوس» كما فى اصحاح ٧، فكان من قوله: حسن للرجل ألا يمس امرأة، أريد أن يكون جميع الناس كما أنا، أنت منفصل عن المرأة فلا تطلب امرأة، أريد أن تكونوا بلاهم، غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضى الرب، وأما المتزوج فيهتم فيما للعالم كيف يرضى امرأته.

بهذا النص تعلق الذين قالوا بمشروعية الرهبة، التى اشتدت ممارستها مع الانعزال فى الأديرة عند الاضطهاد الرومانى. وعززوا مشروعيتها بقولهم: إنها شرف، حيث كان المسيح بتولا، وولد من أم بتول، وعمده وبشر به يوحنا المعمدان، وهو بتول. كما عهد بأمه إلى رسول بتول هو يوحنا.

٥ - وقد تحمس لمشروعية الرهبنة كثيرون من أوائل المسيحيين تحت تأثير نظرية الزهد في الزواج، وقال «ساتورتيلس» الغنوسطي: إن إنجاب الأطفال من عمل الشيطان، وهنا اعتبر الآباء إنكار النفس بالرهبنة نوعا من الاستشهاد، وقوى ذلك في عصر قسطنطين، وتطرف «ايرونيμος» في مهاجمة الزواج وقال: إن الخالق لم يقل عن اليوم الثاني في الخلق: أنه حسن، لأن العدد (٢) يشير إلى الزواج. وترهب في دير منقطع ولكن خياله كان يسرح مع الفتيات، كما فلسف جماعة فكرة الرهبنة بجعلها أثر الشعور بالخطيئة الإنسانية الأولى، وبتصور أن الله يغار من صلة العبد بأحد سواه في كل الأحوال، فالشعور بالذنب ومحاولة تكفيره، والتحمس الشديد للانقطاع لله، واعتبار الاتصال الجنسي شؤما وذنبا، كل ذلك أملى عليهم هذا النوع من العبادة، وهو الرهبنة.

لقد تأسست في القرن الثاني الميلادي جماعة برياسة «مارسيون» حرمت الزواج مطلقا على جميع أتباعها، ومن كان متزوجا وأراد الانضمام إليهم فعليه أن يطلق زوجته^(١). ونادى «سانت جيروم» وهو من رجال الكنيسة في روما في القرن الرابع الميلادي بمثل ذلك وقال: لنضرب بالبلطة شجرة الزواج الجافة، إن الله سمح بالزواج في بداية العالم، ولكن المسيح ومريم بقيا عذارى^(٢).

إن الكنيسة الغربية في روما أخذت بهذا المبدأ، واعتمدت على عبارة لبولس في العهد الجديد، وهم يعتبرون تعاليم بولس كتعاليم المسيح ذاته، هذه العبارة هي أن الزواج هو السر الأعظم، فأعطت لنفسها حق التشريع لهذا السر، وأصدرت «القانون الكنسي» لمسائل الأحوال الشخصية، وادعى البابوات خلافتهم للمسيح وبولس، وأصدروا قرارات أوجبوا أتباعها.

وبسبب هذا الحق انقسمت المسيحية إلى كنائس خرجت على كنيسة روما، فجاء الأرثوذكس، ورفضوا الاعتراف برياسة البابا وقراراته. وبقارات المجامع

(١، ٢) بول جيد في كتابه المرأة في القوانين القديمة والحديثة ص ١٧٨.

الكنسية، كما جاء البروتستانت برياسة مارتن لوثر «ولد ١٠ / ١١ / ١٤٨٣ وتوفى فى فبراير ١٥٤٦م» الذى احتج على حق البابا فى وضع الأحكام، واعتبر الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للمسيحية. ومهمة الكنيسة هى الإرشاد لتعاليمه، وليس لها ولا للبابا حق تشريع جديد.

إن الكنيسة الغربية فى روما حرمت الزواج على رجال الكهنوت فى أول تاريخها كما حرمت الطلاق، والكنيسة الشرقية نظمت الزواج وأباحت الطلاق، وقالت: إن «بولس» لم يمنع الزواج عن الجميع، بل لم يمنعه عن الأسقف، وإنما اختار له زوجة واحدة، وكره إليه التعدد، فقال: يجب أن يكون الأسقف بلا لوم، بعل امرأة واحدة. ويفهم من هذا أنه يصح للأسقف أن يتزوج بأخرى ولكن يكون ملوماً.

وبهذا يظهر للمنصف تضارب آراء بولس أو ما نقل عنه فى هذا الموضوع، وقد اتهمه جماعة بأنه دخيل على المسيحية، وكان له الأثر الكبير فى تشويه حقائقها الدينية.

٦ - إن مبدأ التبتل أدى إلى أمرين، سوء الفكرة عن المرأة، وكرهية الزواج الثانى حتى بعد وفاة الزوجة الأولى أو فراقها، كما يقول معظم آباء الكنيسة، وجاء فى كتاب «شنودة» المشار إليه سابقاً: من يتزوج ثانية بعد وفاة زوجته الأولى تفرض عليه عقوبة، بأن يبعد عن الكنيسة وعن تناول الأسرار المقدسة مدة من الزمن تتراوح بين سنة وخمس سنوات، ولا يحضر القس وليمة زواجه، ولا يدخل فى شرف كهنوت «ص ٩١ - ٩٦».

وصرح ابن العسال فقيه الأقباط الأرثوذكس بأن الزيجة الثانية مكروهة، والثالثة علامة الغواية، والرابعة زنى، وأولاده لا يعتبرون بنين له «المجموع الصفوى باب ٢٤ الفصل الأول ص ١٩٧، ٢٠٥، ٢٠٦» (١).

(١) تعدد الزوجات لتوفيق العطار.

والأقباط الأرثوذكس كانوا على منع الزواج بعد وفاة الزوجة الأولى حتى القرن العشرين، ثم عدل عنه، معللين هذا بأنه لا يوجد في الإنجيل ما يمنع ذلك، بل أن فيه: من لا يطيق العزبة فليتزوج أولى من التحرق بالشهوة «الخلاصة القانونية في الأحوال الشخصية للأقباط الأرثوذكس»^(١).

بل إنهم قالوا: أن أقوال بولس في التبتل متضاربة، فقد كتب في رسالته إلى «تيموثاؤس» والى «تيطس»: أنه ينبغي أن يكون للأسقف امرأة واحدة، وكذلك للشماس، وهو بهذا لم يمنع الزواج أصلا، بل حدده بواحدة، بل أنه نعى على المانعين، وسماهم مرتدين.

وجاء في رسالته إلى كورنثوس إصحاح ٨: أقول لغير المتزوجين والأرامل: إنه أحسن لهم إذا لبثوا كما أنا، ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا، لأن التزوج أصلح من التحرق.

لقد اختلف المفسرون لأقوال بولس ما بين رافض للزواج ومدافع عنه، حتى أن «ترتوليان» المشهور بعدائه للمرأة شوه النص الوارد عن بولس، وعد الزواج زنى، وذم المرأة كثيرا، داعيا إياها أن تكون بعيدة عن الأنظار في ملابس حداد تمثل الشعور بالخطيئة.

٧ - والكنيسة، وإن حاربت الزواج الرسمي لرجال الكهنوت، فقد اعترفت به كاستجابة لنداء الطبيعة. وأباححت من أجل ذلك التسرى واتخاذ الخليلات. فهي متناقضة مع نفسها في نظرتها للمرأة وانشغال الرجل بها على أى نحو من الانحاء، إنها تحاول أن تفصل بين حياة الزوج وحياة الجسد بإجراءات شكلية، وإن كانت النتيجة واحدة تقريبا، فالنهاية أن الرجل اتصل بالمرأة، وليكن شكل هذا الاتصال ما يكون.

وكان من رجال الكنيسة أنفسهم من مارس هو التسرى. مثل

(١) المرجع السابق ص ١١٣.

«اغسطينيوس» الذى عاش سرية لمدة ستة عشر عاما، ولم يتزوجها رسميا، لعدم تناسب حالتها الاجتماعية.

ولكن تطور الأفكار وإلحاح الطبيعة جعلوا هؤلاء الناس يغيرون من أفكارهم عن الترهّب. فجعلوه لطبقة معينة. وسموه بالرهينة الاختيارية، ونفذها النساء أولا. وبخاصة الأرامل والعدارى. دون حاجة إلى اعتكاف فى الأديرة أو التمييز بزى خاص.

٨ - لقد كان زواج رجال الدين مباحا إلى القرن الثالث الميلادى. ثم صدرت قرارات كنسية تمنع على القسس الزواج إذا رغبوا فى تعيينهم فى الوظائف الدينية، ولم يكونوا قد تزوجوا من قبل. أما من لهم زوجات فإن مفارقة زوجاتهم أمر اختياري. وحاول مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م استصدار قرار بمنع المتزوجين من الكهنة الاستمرار فى معاشره زوجاتهم. وحدثت خلافات كثيرة من أجل ذلك مذكورة فى كتبهم.

لقد كان أول أثر لاستنكار زواج القسس هو قرار مجمع أنقرة سنة ٣١٤ م، فجعل زواجهم جريمة كالزنى وتعدد الزوجات. وقرر مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م معاقبة من يقدم على الزواج من الرهبان أو الراهبات، وحدث خلاف فى هذه القرارات حول بطلان الزواج وعدمه، وخلاف فى تساوى الرهينة المؤقتة البسيطة، مع الرهينة الرسمية. كما ذهب إليه «جراتيان» الراهب الإيطالى ومثله «بيير لومبارد» أسقف باريس فى القرن الثانى عشر الميلادى.

إن قرارات البابوات فى منع زواج أصحاب الرتب الدينية الكبرى وهم الأساقفة والقسس والشمامسة لم تنفذ تماما، بل إن بعضهم تزوج بالفعل، وجاءت فترة سميت بفترة الفحش، كثر فيها هذه الزيجات.

وتحدى الأسقف «سجنفريد» هذه القرارات، وتزوج علنا، وأطلق على زوجته اسم «الأسقف» وذلك إلى جانب التسرى الذى لم يتخذ صفة الزواج الرسمى، الذى كثر حتى اضطر البابوات إلى الاعتراف به.

جاء في منشور للأسقف «هوجو» بتاريخ ٣ مارس ١٥١٧ م تصوير لحال الكنيسة في ذلك العصر يقول: إن الاكليروس - رجال الكنيسة - على غاية من الفساد والإفساد، لأنهم منعوا الزواج الطاهر، وكان الناس يفرحون بأن يروا للكهنة سرية عشيقة، دفعا لشره عن المحصنات.

وجاءت ثورة «مارتن لوثر» في القرن السادس عشر ناعية على هذا الإجراء، ودعت إلى العودة إلى قول بولس في إباحة زوجة واحدة للأسقف الراعي للكنيسة، واستجاب لهذه الثورة كثير من رجال الكهنوت، وتزوج بعضهم فعلا، وكان أولهم «برنارد فلدكرخن» راعي كنيسة «كمبردج» وبقي الرهبان في الأديرة على منعهم من الزواج في مبدأ الأمر، ولما لمس الفساد بينهم حمل لوثر على الرهبنة، وألف كتابا في إبطالها، لأنها ليست من الدين، بل من إملاء الشيطان.

يقول «ميرل دوبينا» الانجليزي: لقد كان مما أثر في ضمير «لوثر» أشد التأثير معرفته أن الزواج ترتيب الله، وأن البقاء على العزبة ترتيب الناس. وبعد حيرة وتفكير طويل قرر «لوثر» الزواج، فتزوج من الراهبة «كاترينا بورا» في ١١ من يونيه سنة ١٥٢٥ م. وصدرت كتب تنعى على موقف الكنيسة الكاثوليكية في تحريم زواج الاكليروس، لأنه نشر للفساد تحت ستار الرهبنة، ومن هذه الكتب كتابان للطبيب الفرنسي دكتور «بول دي رجلا» هما: الكنيسة والحب، الكنيسة والزواج. هاجم الكنيسة ورائدها الأول بولس، فقال: أن الكنيسة إذ أخذت بتعاليم القديس بولس، وتحت تأثير رغبتها في تنظيم العلاقات الجنسية وإقصائها عن طبيعة الجاذبة والحب واللذة، قد فتحت الباب على مصراعيه بكل بساطة للفساد والامعان فيه.

وكان لفضيحة «شنتاي» التي شغلت الرأي العام الفرنسي في مستهل القرن العشرين أثرها في قسوة نقده لتعاليم الكنيسة. ويرى أن هذه الفضيحة واحدة من أمثلة كثيرة للمفاسد. ويتهم الكنيسة بأنها مقلدة للقوانين الرومانية

فى ذلك، وليست مستلهمة روح المسيحية الحقبة، ويقول: أن القديس «توماس»^(١)، الذى له تأثيره الكبير على الكنيسة الكاثوليكية بأرائه الفلسفية، عرف الزواج بما يقرب من تعريف القانون الرومانى، وأن نظريته فى المحارم استعارها من أرسطو الذى كان يعشق فلسفته.

ولقد ثار على هذا الوضع كثيرون من رجال الكنيسة فى الأيام الأخيرة وإليك بعض الأخبار فى ذلك:

١ - قدم واحد وثمانون عالما كاثوليكيا من الأطباء وعلماء الطبيعة والفلسفة والاجتماع وأساتذة الجامعات يمثلون اثنتى عشرة دولة - قدموا إلى زعماء المجلس المسكونى فى الفاتيكان التماسا بتشكيل لجنة مصالحة لإعادة النظر فى العلاقة الحالية القائمة بين الواجبات الكنسية وبين الامتناع عن الزواج، وذلك بعد أن أعلن البابا بولس السادس ضرورة حذف مسألة الزواج من المناقشة العامة للمجلس ووجوب الاحتفاظ بقوة القانون القديم الإلهى المقدس، وطلبوا فى الالتماس منح مزيد من التقدير للجسم البشرى ولحقوق الإنسان، لأن القساوسة المؤمنين يجدون مزيدا من الصعوبة فى إشعاع عظمة الكنيسة وهم فى حالة العزوبة^(٢).

٢ - قال الأب «أرنولد مكماهون» القس الانجليزى الكاثوليكى فى حديث نلفزيونى: إنى أشعر أن الله يريد منى أن أكون كاهنا، وأعتقد أنه يريد منى أيضا أن أكون متزوجا. وذلك بعد أن أعلن اعترافه بالزواج من أمريكية، وشن حملة ضد ما أسماه «الامبريالية الروحية» المتمثلة فى حظر الكنيسة الزواج على القساوسة^(٣).

٣ - مائتان من القسس المنشقين الذين يمثلون ثمانى دول تقدموا بالتماس

(١) ولد فى صقلية ١٢٢٥ م وتوفى ١٢٧٤ .

(٢) الأهرام ١٠/٢١/١٩٦٥ .

(٣) الأهرام ٢/١٩/١٩٦٧ .

إلى الكنيسة بالعدول عن قرارها فى تحريم زواج القسس، وذلك فى مؤتمر عقده فى روما، معللين سياسة الكنيسة بأنها تسبب عذابا للناس وتصيبهم بعقدة الذنب^(١).

٤ - وفى يناير سنة ١٩٧٠ م أصدر المجلس الرعوى الخامس للكنيسة الكاثوليكية الهولندية قرارا بإنهاء العزوبة الاجبارية للقسس. وفى الشهر نفسه أيد هذا القرار مجلس الأساقفة الهولندى، وطالب بإعادة القسس الذين فصلوا بسبب الزواج. وتدل الاحصاءات على أن الكنيسة الكاثوليكية فقدت خلال الفترة من ١٩٦٤ - ١٩٦٩ م نحو ١٢٨٠٠ من العاملين فى خدمتها على مختلف درجاتهم الكهنوتية، بسبب خروجهم على مبدأ العزوبة الإجمارية.

وقد استند القسس الثائرون إلى أن مبدأ العزوبة الإجمارية ليس فى صلب الدين المسيحى، بل هو مجرد تقليد كنسى، والكنائس الشرقية الكاثوليكية لا تأخذ به، على أن البابا نفسه استثنى حالات معينة بين القسس، وسمح لهم بالزواج^(٢).

٥ - نشرت وكالة الأنباء «رويتز» خبرا نصه: أكد تقرير للفايكان أن أكثر من ألفى قس كاثولىكى يهجرون الكنيسة كل عام، بسبب قرار تحريم زواج القساوسة. وقالت صحيفة (أفينيرى) التى نشرت التقرير فى روما: إن هذه النسبة تتزايد فى كل عام^(٣).

هذه صور تبين أن موقف الكنيسة لا يتفق مع جوهر الدين الإلهى أبدا، وأن قراراتها كانت صدى لقرارات رومانية قديمة أو فلسفات لا تمت إلى الدين بصلة، والكنيسة الشرقية غير الكاثوليكية لا تأخذ بهذه القرارات فهى تبيح الزواج لرجالها العاملين فيها.

(٢) الأهرام ٢٦/٢/١٩٧٠.

(١) الأهرام ١٧/١٠/١٩٦٩.

(٣) الأهرام ٧/٨/١٩٧١.

ومن الفكاهات التي نشرت في هذا الصدد: أن أحد الآباء كان يريد أن ينحول نظر بنته عن الزواج، فأراد أن ينفرها منه، فذكر لها قول «بولس»: من يتزوج يأتي عملا طيبا، ولكن من لم يتزوج يأتي بعمل أطيّب. فقالت البنت: فلنأت نحن عملا طيبا يا أبت، ولنذع سوانا يأتي بعمل أطيّب (١).

هذا، ولما كانت الرهبنة المبتدعة منافية للطبيعة البشرية ولا تتناسب مع دين الفطرة لم يقرها الإسلام، بل دعا إلى الزواج ورغب فيه وذم الرهبنة في القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ...﴾ [الحديد: ٢٧]. وروى أحمد «ج ٦ حديث رقم ٢٢٦» أن امرأة عثمان بن مظعون شكت للنبي ﷺ إهمال زوجها لها، فقال: «إن الرهبانية لم تكتب علينا». وروى أبو داود حديث «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، تلك بقاياهم في الصوامع والديار» وجاءت أحاديث أخرى ترفض رهبانية النصارى، وتستبدل بها أعمالا إيجابية مفيدة لصفاء النفس وترويض الشهوة، وفي الوقت نفسه تفيد المجتمع خيرا كثيرا.

ففي تفسير ابن كثير: روى أحمد عن أبي سعيد الخدري أن رجلا جاءه، فقال: أوصني، قال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك «أوصيك بتقوى الله، فإنها أساس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض» قال ابن كثير: تفرد به أحمد.

وجاء فيه أيضا: روى الحافظ أبو يعلى عن عبد الله بن محمد بن أسماء عن عبد الله بن المبارك حديث «لكل أمة رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله».

وجاء في الجامع الصغير للسيوطي أن هذا الحديث جاء بلفظ «لكل نبي...» وقال: إنه من رواية أحمد عن أنس بسند ضعيف.

(١) آخر ساعة ٤/٣/١٩٥٣.

وجاء فى هذا المعنى أيضا: « لا رهبانية فى الإسلام » ولكنه غير صحيح (١).

ثالثا - على أنقاض النظم والعادات القديمة جاء الإسلام بنظرته السامية إلى الزواج، وارتفع به فوق مستوى التلبية لنداء الغريزة الجنسية، وجعله الأساس المتين لبناء الأسرة المنوط بها إخصاب الحياة بالحركة والنشاط. فالأسرة هى المنطلق الأول لحركة الإصلاح الإنسانى العام، ولعل مما يشير إلى نظرة الإسلام للأسرة، والأمر بالاسراع فى تكوينها:

(أ) أن أول ما بدأ النبى دعوته وجهها إلى الأسرة، وهى أسرته المتصلة به كنموذج للأسر الأخرى، فاتجه بعرض الدعوة إلى خديجة زوجه، وزيد بن حارثة مولاه، وعلى بن أبى طالب المتربى فى بيته، وأم أيمن مولاته.

ثم خطا الخطوة الثانية، فدعا عشيرته الأقربين، ثم خطا الخطوة الثالثة فدعا العرب، ثم كانت الخطوة الأخيرة بدعوة الأسرة الإنسانية كلها.

وهذا يشبه إلى حد كبير أثر الحجر يلقى فى بركة ماء، تنشأ عنه الدوائر الموجية التى تتمركز أولا فى أقرب محيط ثم تأخذ فى الاتساع شيئا فشيئا ليكون محيطها أكبر وأشمل.

وهذه الخطة التنفيذية مستمدة من روح القانون الإلهى المسطر فى القرآن الكريم، ذلك أن الله بدأ أولا فى الهداية بربط العبد بمولاه ليستمد منه الأوامر ويلتمس منه العون والتوجيه إلى الصراط المستقيم، ثم جعل فى المرتبة الثانية إصلاح الأسرة، مهتما بالوالدين اهتماما أوليا كرمز لما يريد الله للأسرة التى يسيطر عليها هذان القطبان، وسيأتى توضيح ذلك فى بحث حقوق الوالدين على الأولاد، ففيه النصوص التى تبين منزلة بر الوالدين من منزلة توحيد الله سبحانه. لدرجة أن الله وضع الوصية بهما ضمن وصية لقمان لابنه بعد أمره بعدم الشرك بالله مباشرة.

(١) دائرة المعارف الإسلامية.

(ب) أن الشيطان الذي أقسم حين طرد من الجنة أن يغوى الناس أجمعين اتخذ له موقعا يفسد به المجتمع الإنساني وهو الأسرة التي إن فسدت فسد المجتمع كله أو سهل إفساده على الأقل.

إنه عندما يوزع سراياه المفسدة يتابع نشاطها ويحاسبها على ما عملت، فيكون أقرب جنده إلى قلبه هو الذي استطاع هدم أسرة. روى مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال: ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، قال: فيدنيه، أو قال: فيلتزمه ويقول: نعم أنت أنت» (١).

وتتضح نظرة الإسلام إلى الزواج في الترغيب فيه. والتنفير من العزبة والرهينة، وذكر القرآن آيات في معرض الامتنان على الناس بنعمة الزواج وما فيه من سكن وراحة وذرية، وذكر آيات أخرى تصرح بالأمر به لمن لم يفهم بالإشارة ما يقصد من آيات الامتنان على الناس بنعمته، كما جاءت الأحاديث النبوية الكثيرة وآثار السلف الصالح تبين أهمية الزواج.

(أ) فمن القرآن آيات تبين أنه نعمة وتأمير ضمنا به، منها:

١ - قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

٢ - وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

٣ - وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

(١) صحيح مسلم شرح النووي ج ١٧ ص ١٥٦ ورواه الشبلي المحدث الحنفى المتوفى ٧٦٩ هـ في كتابه أكام المرجان ص ١٦٨.

٤ - وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

٥ - وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

ومن القرآن آيات أخرى تصرح بالأمر به، منها:

٦ - قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣].

٧ - وقوله: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

(ب) ومن الأحاديث النبوية ما يلي:

١ - «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، عن عبد الله بن مسعود.

والباءة مختلف في معناها، فذكر اللغويون أنها الجماع، وهو الذي فهمه ابن مسعود، لأنه قال هذا الحديث عندما عرض عليه عثمان الزواج بجارية شابة، لعلها تذكره بعض ما مضى، فرفض مستنداً إلى هذا الحديث، ولعل سنه قد تقدمت فلم يعد يقوى على ما يقوى عليه الشاب.

وقيل إن المقصود ليس هو المعنى اللغوي، بل المقصود من الباءة المؤن وتكاليف الحياة الزوجية، ويقوى هذا الرأي أن الخطاب للشباب، والغالب أنهم قادرون على الباءة اللغوية أي الجماع، فشرط عليهم القدرة على تحمل أعباء الأسرة، والصوم يصلح وجاء للشبان القادرين على الجماع، فإن من تقدمت به السن إن عجز عن الجماع لماذا يلجأ إلى الصوم، والوجاء حاصل بالشيخوخة.

والوجاء في الأصل هو رض الخصيتين، والمراد أن الصوم يقطع الشهوة وخطر

المنى كما يفعل الوجود . يقول الجاحظ فى كتابه . حياة الحيوان - ص ٥٩ : إن الوجود أن توجأ العروق والخصيتان على حالهما ، أما الخصاء فهو أن يسلب الخصيتين .

ونداء الحديث للشباب يفهم منه استحباب التبكير بالزواج ، وهو كما يكون للذكر يكون للأنثى ، قال الحكماء : العجلة فى خمسة أشياء محمودة : فى الكريمة إذا خطبها الكفاء ، وفى الميت حتى يخرجها ، وفى عيادة المرضى ، وفى الصلاة إذا دخلت حتى يؤديها ، وفى الضيف إذا نزل حتى يقدم إليه الطعام . نسب هذا القول إلى الأحنف (١) .

٢ - جاء رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها - أى عدوها قليلة - فقالوا ، أين نحن من النبى ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : « أنتم القوم الذين قلتهم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك .

٣ - أراد عثمان بن مظعون أن يتبتل ، فنهاه رسول الله ﷺ ، ولو أجاز له ذلك لاختصينا . رواه مسلم عن سعد بن أبى وقاص .

والتبتل هو الانقطاع عن النساء وترك النكاح تفرغا لعبادة الله ، وهو أصل فى القطع ، ومنه : مريم البتول ، وفاطمة البتول ، لانقطاعهما عن نساء زمانهما فضلا ، ومنه قيل للزاهد : متبتل ، لتركه لذات الدنيا .

٤ - عن أنس أنه سمع النبى ﷺ يقول « من أراد أن يلقى الله طاهرا مطهرا فليتزوج الحرائر » رواه ابن ماجه .

(١) مفيد العلوم للخوارزمى ص ٢٠٥ .

٥ - «أربع من سنن المرسلين: الحياء - وفي رواية الحناء - والتعطر والسواك والنكاح» رواه الترمذى عن أبي أيوب الأنصارى، وقال: حسن غريب^(١) والمراد بسنن المرسلين طرائقهم وشرائعهم، وذلك أعم من الوجوب أو الندب، أى ليس المراد بالسنة اصطلاح الفقهاء: ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه.

٦ - «انكحوا فإنى مكاثربكم» رواه ابن ماجه عن أبى هريرة، وذكره السيوطى فى الجامع الصغير وصححه.

٧ - «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد فى سبيل الله، والمكاتب الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العفاف» رواه الترمذى عن أبى هريرة، ورواه ابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. والمكاتب هو الرقيق الذى كتب عليه سيده دفع مال ليعتقه.

٨ - «أربع حق على الله عونهم: الغازى والمتزوج والمكاتب والحاج» رواه أحمد عن أبى هريرة بسند حسن. وقال الألبانى على الجامع الصغير: إنه ضعيف.

٩ - «النكاح سنتى، فمن أحب فطرتى فليستن بسنتى» رواه أبو يعلى عن ابن عباس بسند حسن، والمراد بالسنة الطريقة والشريعة كما سبق ذكره، فقد تكون واجبة أو مندوبة.

١٠ - انقطع ربيعة الأسلمى إلى رسول الله ﷺ يخدمه ويبيت عنده لحاجة إن طرقتة، فقال له رسول الله ﷺ «ألا تتزوج»؟ فقال: يا رسول الله إنى فقير لا شىء لى، وأنقطع عن خدمتك. فسكت ثم عاد ثانيا فاعاد الجواب، ثم تفكر ربيعة وقال: والله لرسول الله ﷺ أعلم بما يصلحنى فى دنياى وآخرتى، وما يقربنى إلى الله منى، ولئن قال لى الثالثة لأفعلن، فقال له الثالثة «ألا تتزوج»؟ قال: فقلت: يا رسول الله زوجنى. قال «أذهب إلى بنى فلان فقل: إن رسول الله يأمركم أن تزوجونى فتاتكم» قال: فقلت: يا رسول الله لا شىء لى، فقال

(١) معنى غريب رواه راو فقط. وقد يكون الحديث مع الغرابة صحيحا أو حسنا، وهو اصطلاح للمحدثين.

لأصحابه « أجمعوا لأخيكم وزن نواة من ذهب » فجمعوا له، فذهبوا به إلى القوم فأنكحوه. فقال له « أولم » وجمعوا له من الأصحاب شاة للوليمة. أخرجه أحمد من حديث ربيعة صاحب القصة بإسناد حسن. والنواة من الذهب جاء تفسيرها في قول النووي: قدرت بخمسة دراهم كما قال أكثر العلماء، وقال أحمد: هي ثلاثة دراهم وثلاث، وقال بعض المالكية، النواة ربع دينار عند أهل المدينة، وظاهر كلام أبي عبيد أنه دفع خمسة دراهم، قال: ولم يكن هناك ذهب، إنما هي خمسة دراهم تسمى نواة، كما تسمى الأربعون أوقية^(١).

١١ - « إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الباقي » رواه الطبراني في الأوسط، والبيهقي مع اختلاف بسيط وضعفه ابن الجوزي من طريق أنس، ورواه الحاكم وصححه بلفظ « من رزقه الله امرأة سالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله في الشطر الباقي ».

١٢ - قال النبي ﷺ لعكاف « يا عكاف ألك زوجة »؟ قال: لا، قال: « أنت إذا من إخوان الشياطين، إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم، وإن كنت منا فمن سنتنا النكاح » ذكرها الماوردي في كتابه « أدب الدنيا والدين » عن عطية بن بسر (بضم الباء وسكون السين) عن عكاف بن رفاعة الهلالي، وذكرها ابن الأثير في كتابه « أسد الغابة » في ترجمة « عكاف بن وداعة » وفيه: ألك زوجة؟ قال: لا. ولا جارية؟ قال: لا. قال: وأنت صحيح موسر؟ قال: نعم والحمد لله. قال: « أنت إذا من إخوان الشياطين..... » وقال بعده « شراركم عزابكم، وأراذل موتاكم عزابكم، ويحك يا عكاف، تزوج » فقال عكاف: يارسول الله لا أبرح حتى تزوجني من شئت، قال « زوجتك على اسم الله والبركة كريمة بنت كلثوم الحميري ».

وحديث عكاف بهذه الصورة رواه أحمد وأبو يعلى. قال ابن حجر: طرقه

(١) شرح النووي على مسلم ج ٩ ص ٢١٦.

كلها لا تخلو من ضعف واضطراب (كذا في الإصابة) وضعفه البوصيري أيضا .
وقال الذهبي في التجريد : الحديث قوى (١) .

وكلمة « العزاب » جمع مفردة عزب ، يقال : رجل عزب ، وامرأة عزب أو
عزبة ، والاسم : العزبة والعزوبة ، (بضم العين) .

وحديث « شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم » أخرجه أحمد عن أبي
ذر بسند حسنه السيوطي في جامعه ، وأبو يعلى في مسنده عن عطية بن بشر -
هكذا - مرفوعا إلى النبي ﷺ . وأورده ابن الجوزي في الموضوعات عن طريق أبي
هريرة ، لكن السيوطي حسنه من الطريق الآخر (٢) .

١٣ - عن أبي هريرة قال : لو لم يبق من أجلى إلا يوم واحد لقيت الله عز
وجل بزوجة ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « شراركم عزابكم » رواه
الطبراني . قال الهيثمي : فيه خالد بن إسماعيل المخزومي ، وهو متروك ، وقال
البوصيري : حديث منكر .

١٤ - كان النبي ﷺ يعطى من الفىء حظين للمتأهل وحظا للعزب ، كما
فعل مع عوف بن مالك وعمار بن ياسر . رواه البغوى فى باب الفىء ج ٢ ، وذلك
للتشجيع على الزواج .

(ج) والصحابة (٣) رضوان الله عليهم عندما سمعوا هذه الترغيبات فى
الزواج وذم العزبة استجابوا لأمر الله والرسول . وإليك صورا تبين مدى هذه
الاستجابة :

(١) المطالب العالية لابن حجر ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) غذاء الألباب للسفاريني ج ٢ ص ٢٥٩ .

(٣) الصحابة رضوان الله عليهم هم الذين رأوا رسول الله ﷺ فى حال إسلامهم وإن لم
تطل صحبتهم وإن لم يرووا عنه شيئا . فمجرد الرؤية كاف فى إطلاق الصحبة عليه ، وهناك صحبة
خاصة هى التى طالت سنواتها ، ومن هنا كان الصحابة درجات . وهم جميعا عدول ، وما شجر بين
بعضهم من خلاف كان إما بغير قصد كيوم الجمل ، وإما باجتهاد كيوم صفين ، والمجتهد معذور وإن
أخطأ فله أجر . والروافض من الشيعة حكموا بكفر الصحابة إلا سبعة عشر سموهم على حسب
هواهم ، ويقال إن عددهم كان عند موت النبي ﷺ ١١٤ ألفا .

١ - قال ابن عباس رضى الله عنهما لسعيد بن جبير: تزوج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساء، رواه البخارى، وكان ابن عباس يجمع غلمانَه إذا أدركوا: كريباً وعكرمة وغيرهما ويقول: إن أردتم النكاح أنكحتكم فإن العبد إذا زنى نزع الإيمان من قلبه. (الاحياء).

٢ - قال ابن مسعود: لو لم يبق من أجلى إلا عشرة أيام وأعلم أنى أموت فى آخرها يوماً ولى فيهن طول النكاح لتزوجت مخافة الفتنة. (الاحياء).

٣ - أكثر عمر بن الخطاب من النكاح لأجل الولد وقال: لا يمنع من النكاح إلا عجز. أو فجور (الاحياء).

٤ - وإلى جانب أقوال الصحابة فى تشجيع الزواج أكثروا هم منه، فقد ذكر السفاريني^(١) أن التاريخ حكى أن أبا بكر أحسن أربعاً، وأنجب ستة أولاد، وأن عمر تزوج عشراً ولدن خمسة عشر، وأن عثمان تزوج ثمانياً وأنجب سبعة عشر ولداً، وتزوج على سبعا ولدن ثلاثة وثلاثين.

فى كتاب الرياض النضرة فى مناقب العشرة للطبرى وغيره من الكتب ما خلاصته:

(أ) زوجات أبى بكر:

١ - قتيلة من بنى عامر بن لؤى، وولدت له عبد الله وأسماء.

٢ - أم رومان بنت الحارث من بنى غنم بن كنانة. ولدت له: عبد الرحمن وعائشة.

٣ - أسماء بنت عميس الخثعمية. ولدت له: محمداً. تزوجها بعد موت جعفر بن أبى طالب.

٤ - حبيبة بنت خارجة بن زيد. ولدت له أم كلثوم بعد موته.

(١) غذاء الألباب ج ٦ ص ٣٥٦.

(ب) زوجات عمر:

- ١ - زينب بنت مظعون . ولدت له : عبد الله وعبد الرحمن الأكبر .
- ٢ - أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب . ولدت له : زيدا الأكبر .
- ٣ - أم كلثوم جميلة بنت عاصم بن ثابت حمى الدبر . ولدت له : عاصما .
- ٤ - مليكة بنت جرول الخزاعية (وتكنى أم كلثوم) . ولدت له : زيدا الأصغر ، عبید الله .

- ٥ - لهية « أم ولد » . ولدت له : عبد الرحمن الأوسط .
- ٦ - (أم ولد) لم يذكر اسمها . ولدت له : عبد الرحمن الأصغر .
- ٧ - عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل . ولدت له : عياضا .
- ٨ - أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة . ولدت له : فاطمة .
- ٩ - فكيهة (أم ولد) .

(ج) زوجات عثمان:

- ١ - رقية بنت النبي ﷺ . ولدت له : عبد الله الأصغر .
- ٢ - أم كلثوم بنت النبي ﷺ .
- ٣ - فاخثة بنت غزوان . ولدت له : عبد الله الأكبر .
- ٤ - بنت جندب بن الأزدي . ولدت له : عمرا ، أبان ، خالد ، عمر .
- ٥ - فاطمة بنت الوليد . ولدت له : سعيدا ، الوليد .
- ٦ - أم البنين بنت عيينة بن حصن . ولدت له : عبد الملك .
- ٧ - رملة بنت شيبه بن ربيعة . ولدت له عائشة ، أم أبان ، أم عمر .
- ٨ - نائلة بنت الفرافصة الكلابية . ولدت له : مريم .
- ٩ - أم ولد .

(د) زوجات علي :

١ - فاطمة بنت النبي ﷺ .

٢ - خولة بنت إياس بن جعفر، وهى من بنى حنيفة أعطاهما له أبو بكر، ولدت له : محمدا الأكبر المعروف بابن الحنفية .

٣ - ليلى بنت معوذ بن خالد النهشلى لعلها ليلى بنت سعد الدارمية ولدت له : محمد الأصغر، المكنى بأبى بكر، عبد الله، وقتلا فى كربلاء .

٤ - أم البنين بنت حرام بن خالد، الوحيدية ثم الكلابية ولدت له : العباس، جعفرا، عبد الله، عثمان . وقتلوا فى كربلاء .

٥ - عدة أمهات أولاد .

٦ - أسماء بنت عميس، تزوجها بعد وفاة أبى بكر - بوصية من فاطمة ولدت له : يحيى وعونا .

٧ - أم حبيب الصهباء التغلبية، من سبايا حرب الردة - ولدت له : عمر، رقية .

٨ - أمامة بنت أبى العاص . (لعلها أمامة المذكورة بعد) .

٩ - أم سعد بنت عروة بن مسعود الثقفى . ولدت له : أم الحسن، ورملة .

١٠ - أمامة بنت زينب بنت النبي ﷺ بوصية من فاطمة . ولدت له : محمدا الأوسط . قتل فى كربلاء .

ويقال : إنه تزوج غير هؤلاء . وكان فى ذمته يوم قتل أربع نسوة زوجات : أمامة، ليلى، وأسماء، وأم البنين الكلابية . بجانب ١٨ سرية من أمهات الأولاد . وكان أول زواج له بعد موت فاطمة بسبع ليال . وكان له من الأولاد ٢٧ منهم ١٤ ذكرا . (أنظر كتاب إمامة على بين العقل والقرآن ص ١٥٥ ، ١٥٦) لمؤلفه : محمد جواد مغنية .

وطلحة تزوج ستا ولدن خمسة عشر، والزيير تزوج ستا ولدن عشرين،

(م ٨ - موسوعة الأسرة ج ١)

وعبد الرحمن بن عوف تزوج ثلاث عشرة ولدن ثمانية وعشرين، وسعد بن أبي وقاص تزوج إحدى عشرة ولدن ستة وثلاثين. أهـ والسرية هي المملوكة للرجل يتمتع بها كالزوجة لكن بدون عقد زواج بل بملك اليمين.

والمغيرة بن شعبة الذي أسلم عام الخندق حصن ثلثمائة امرأة في الإسلام، وقيل ألفا^(١)، والحسن بن علي كان كثير الزواج، فقد تزوج أكثر من مائتين، وقيل: أربعمائ^(٢). وربما كان يتزوج الأربعة دفعة واحدة، ويطلق أربعاً دفعة واحدة، ويقول ابن سعد: بالرغم من كثرة زواجه قلما يحظين عنده رغم حبهن له، وقد حذر والده الناس من تزويجه، وقال: يا أهل الكوفة لا تزوجوا الحسن فإنه رجل مطلق. فقال رجل من همدان: والله لنزوجنه، فما رضى أمسك وما كرهه طلق، وذكر العدوى في مشارق الأنوار أنه أحصن تسعين امرأة^(٣) ومعاذ بن جبل ماتت له امرأتان في الطاعون وكان هو أيضاً مطعوناً فقال: زوجوني فإنى أكره أن ألقى الله عزبا (الاحياء).

(د) والتابعون^(٤) ومن بعدهم من السلف الصالح كانوا على هذا المنوال في تشجيع الزواج ودم العزبة من أجل التناسل اللازم للجهاد ولفوائده الأخرى،

(١) شرح النووي على مسلم ج ١ ص ٦٣ .

(٢) غذاء الألباب ج ٢ ص ٣٥٦ .

(٣) مشارق الأنوار للعدوى ص ١٦٩ .

(٤) التابعى هو من صحب الصحابى، ولا يكتفى بمجرد رؤيته، بل لا بد من الصحبة له أو

الرواية عنه كما قال الحاكم.

وقال الحاكم: إن من بين التابعين من ولدوا في حياة النبي من أبناء الصحابة: كعبد الله بن

أبي طلحة، وأبى أمامة أسعد بن سهل بن حنيف، وأبى إدريس الخولانى.

وقيل: أن هؤلاء ينبغي أن يعدوا في صفار الصحابة.

والمخضرمون هم الذين أسلموا في حياة الرسول ولم يروه.

ومن أفضل التابعين إن لم يكن أفضلهم سعيد بن المسيب، والحسن البصرى، وعلقمة،

وأويس القرنى وعطاء بن رباح. والفقهاء السبعة بالحجاز، القاسم بن محمد، خارجة بن زيد، عروة

ابن الزبير، سليمان بن يسار، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وسالم بن عبد الله بن عمر،

ومعهم سعيد بن المسيب....

ولضم أيامى الحرب وما أكثرهن، ذكروا أن سعيد بن المسيب علامة التابعين زوج تلميذه عبد الله بن أبي وداعة ابنته ثانی يوم توفيت فيه زوجته، وخبره مذكور فى بحث مقاييس اختيار الزوجين.

وأحمد بن حنبل تزوج فى اليوم الثانى من وفاة أم ولده عبد الله وقال: أكره أن أبیت عزبا (الاحياء) ولم يرض عن انصراف إبراهيم بن أدهم عن الزواج خوفا من روعة العيال وقال: بكاء الصبى بين يدى أبيه يطلب منه الخبز أفضل من كذا وكذا.

ولعل هذه الصورة تبين الفرق الكبير بين أصحاب محمد وأصحاب عيسى فى الاستجابة للسنة الكونية والهدى الإلهى.

لكن ماذا يقال فى النصوص الواردة التى تنفر من الزواج ومنها:

١ - حديث «خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ، الذى لا أهل له ولا ولد».

٢ - حديث «قلة العيال أحد اليسارين. وكثرتهم أحد الفقيرين».

٣ - حديث «يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده، يعيرونه بالفقر ويكلفونه ما لا يطيق فيدخل المداخل التى يذهب فيها دينه فيهلك».

٤ - سئل أبو سليمان الداراني عن النكاح فقال: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن، والصبر عليهن خير من الصبر على النار.

والجواب: أن الحديث الأول ضعيف كما قاله العراقى، وقد جاء نحوه بسند صحيح، لكن الصحيح لا يعارض ما هو أصح منه من النصوص الواردة فى الترغيب فى الزواج.

والحديث الثانى أيضا ضعيف، وكذلك الحديث الثالث، وسيأتى توضيح ذلك فى بحث حقوق الأولاد. وكلام الداراني لا ينفر منه وإنما يبين أنه أمر هام لا يصلح له كل الناس، وهو كلام مهمما قيل فيه لا يعارض النصوص الصحيحة.

وقال الإمام الغزالي فى هذا المقام، وبالجملة لم ينقل عن أحد الترغيب عن النكاح مطلقاً إلا مقروناً بالشرط، وأما الترغيب فى النكاح فقد ورد مطلقاً ومقروناً بشرط. أهـ. وهذا يعنى رجحان الترغيب فيه عن الترغيب عنه. (إنظر إحياء علوم الدين. كتاب النكاح).

هذا، وقد اختلف فى النكاح هل هو من الشهوات أو من القربات والطاعات، قال الشافعى :

إنه من المباحات أى من الشهوات التى قال الله فيها ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ... ﴾ [آل عمران ١٤]، وجاء فى الحديث « حُبُّ إِلَى مِنْ دُنْيَاكُمْ الطَّيِّبِ وَالنِّسَاءِ وَجَعَلَتْ قِرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » رواه النسائى فى سننه عن أنس، وإسناده حسن كما قال الحافظ، وقال الحاكم: إنه صحيح على شرط مسلم.

ووضح النووى هذا الكلام فقال: إن قصد به طاعة كاتباع السنة أو تحصيل ولد صالح أو عفة فرجه أو عينه فهو من أعمال الآخرة يثاب عليه.

وقال الحنفية: هو سنة مؤكدة على الأصح (الزبيدى فى شرحه للأحياء) لكن يبدو لى أن هذا الخلاف إنما هو فى الوطاء لا فى الزواج، أما الزواج فسيأتى ما قاله العلماء فى حكمه، فالذى يظهر أنه من الشهوات المباحة هو الوطاء.

* * *

الفصل الثالث

حكمة مشروعية الزواج

حكمة مشروعية أى تكليف هى فائدته الروحية والنفسية والخلقية والاجتماعية، أى أثرها على الإنسان من كل نواحيه وفى جميع علاقاته المادية والروحية وتتضح فى الأثر أو الضرر الذى ينجم عن المخالفة.

ولقد ذكرت فى كتابى «توجيهات دينية واجتماعية» أن عبادة الله تقتضى القيام بالتكليف دون الحاجة إلى فهم أسرارها وآثارها، ضرورة الإيمان بأن أفعال الله لا تخلو عن حكمة فهو سبحانه الخبير العليم، المنزه عن العيب لا يأمر إلا بخير وإن جهلنا حكمته، ولا ينهى إلا عن شر وإن لم ندرك سره، كما قال سبحانه فى تشريع الجهاد ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، غير أن الله سبحانه قد فضل علينا فبين لنا بعض حكم التشريع لتنشط النفس إلى الاستجابة وتدفع ما قد يوجه إلى التكليف من شكوك.

وكرم الله العقل فأطلق له العنان يفكر ملتمساً معرفة حكمة الله فى تشريعه، والعقول بطبيعتها متفاوتة فى قوة الاستعداد للاستنتاج، وفى إصابة الحكم أيضاً لتأثرها، إن قليلاً وإن كثيراً، بالظروف المختلفة، والميول المتنوعة، ومع اجتهاد العلماء فى التماس حكم للتشريع لم ينص الله عليها، أو فى توضيح ما نص عليه، فإنه لا ينبغى أن تكون هناك مشاحة بين نتائج الفكر فيما لا يمس جوهر الدين، «راجع الكتاب لتوضيح ذلك أكثر».

وقد ذكر علماء الأخلاق فى الإسلام حكماً لتشريع الزواج، لخصوها فى هذه الأمور الثلاثة، وهى فى الأهمية على هذا الترتيب: (أ) التناسل، (ب) التعاون، (ج) قضاء الشهوة.

وقد سبق الحديث عن بعض هذه الحكم فى عرض وظيفة الأسرة، وسنزيدها هنا توضيحا وتنظيما. مع إضافات تبرز الناحية الدينية فيما يتعلق بالشواب والعقاب.

يقول المودودى (توفى ١٩٧٩) فى حكمة مشروعية الزواج ما ملخصه:
ليس المقصود منه النسل فقط، فالحيوانات تتناسل، ولا قضاء الشهوة فقد تنفصل المحبة بعد قضائها. وإنما المقصود منه هو التمدن، والتحضر، ومن هنا كان الإنسان دائما فى شوق إلى الزوجة، والمرأة فى شوق إلى الزوج، بخلاف الحيوان. كما أن حب الرجل لاولاده يدوم بعد فترة التربية ولاجيل قادمة، أما الحيوانات فتحنو على أولادها مدة طفولتها ثم تتركها، فالمقصود من الزواج الحياة الاجتماعية لا الفردية. وذلك أساس التمدن والحضارة، فالعلاقة الإنسانية بين الزوجين أدوم وأكد من العلاقة الجنسية، ولا بد للتمدن من تعديل الميل الجنسى، لأن إضعافه لا يساعد على التمدن، كما أن الإفراط فيه يسبب الفوضى. واستقرار الأسرة لا يكون بمجرد الحمل فإن المرأة تكابد آلامه وتبعاته سنين طوالا، أما الرجل فلا يتحمل شيئا بعد وضع النطفة، لذلك ربط الدين الرجل بالمرأة بالنكاح وألزمه بنفقات الولد والأسرة، وجعل زينة المرأة وأسلحتها شبكة لإيقاعه فى حبها مع وجود الولد بينهما، اهـ.

وهذا الكلام لا يخرج كثيرا عما سبق بيانه من الفرق بين نظام الأسرة وبين مجرد التقاء الرجل بالمرأة، وهو يبرز ناحية التعاون فيما أجمله العلماء من حكمة التشريع.

والإمام الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» جعل فوائد النكاح خمسة أمور هى: الولد، وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وكثرة العشيرة، ومجاهدة النفس بالقيام بواجبات الأسرة، وهو فى كلامه لا يخرج عن المقاصد الثلاثة الأساسية للنكاح.

إن المقاصد الثلاثة الأساسية للنكاح، يمكن تركيزها في التناسل من جهات
ثلاثة:

١ - بقاء النوع .

٢ - تنظيمه منعا للفوضى .

٣ - تأمينه بالتربية في حضن الأسرة . ذلك أن بقاء النوع قد يحصل بأى
لقاء جنسى كالحيوانات، ولأجل تنظيمه كان الارتباط بعقد الزواج لمعرفة النسب
والحقوق . ولأجل تربيته كان تعاون الزوجين .

والآن نشرع في تفصيل هذه الحكم وتوضيحها فنقول وبالله التوفيق :

إن بيان حكمة التشريع يقتضينا بيان الفوائد المترتبة على الزواج، مع بيان
الآثار والتبعات اللازمة له أيضا، ولهذا سيكون حديثنا ذا شقين :

الشق الأول : بيان الفوائد، والشق الثانى : بيان التبعات .

أولا - الفوائد :

سأجمل هذه الفوائد فى المهام الرئيسية للزواج كما قال علماء الإسلام،
وهى ثلاثة : التناسل، والتعاون، وقضاء الشهوة، مع شرح كل منها بما يوضحها،
ويرجع ما قاله غيرهم من الفوائد إليها فنقول :

١ - التناسل :

والتناسل نتيجة طبيعية لالتقاء الذكر بالأنثى فهو ظاهرة بيولوجية فى
الإنسان والحيوان أيضا، حيث أن فى كل نوع أجهزة خاصة للقيام بعملية
التناسل، وهذا التناسل له حكمتان أساسيتان : أولاهما . بقاء النوع الإنسانى .
وثانيتهما التعاون على مهام الحياة وتحقيق الخلافة فى الأرض . إلى جانب فوائد
أخرى نابعة من هذين الأصلين تظهر فى بعضها المسحة الدنيوية، وفى بعضها
الآخر المسحة الدينية .

وأثر الزواج فى بقاء النوع الإنسانى أمر لا يشك فيه أحد ولا يحتاج إلى دليل ينص عليه .

ولئن كان التناسل يحصل بدون زواج شرعى ، فإن الأديان تريد نسلا ممتازا يستطيع أن يؤدى واجبه المنوط به ، ولا يكون ذلك إلا فى ظل أسرة أساسها زواج مشروع له ترتيباته واحتياجاته وضمناته كما سبق بيانه .

وأثر التناسل فى التعاون على مهام الحياة واضح كذلك ، فإن الإنسان هو الذى يكشف النواميس المجهولة ، ويستكنه الحقائق الموجودة وهى كثيرة جدا ، لا بد لها من تعاون الجهود وكثرة الأيدي العاملة : لتنفيذ نتائج الفكر فى هذا العالم الواسع .

واليد العاملة لتنفيذ نتائج الفكر لا يمكن الاستغناء عنها ، على الرغم من وفرة الآلات فى العصر الحاضر ، فإنها فى الحقيقة لا تلغى وجود الإنسان العامل ، ولكنها تسد النقص فى وجوده ، فهى مكملة له ، وهو الأصل . وإذا كانت الآلات تنزل الحاجة إلى اليد العاملة فى ميدان ما إلى النصف مثلا ، فذلك لتوفر النصف الآخر لميدان آخر .

وإذا كانت اليد العاملة بلغت حسب إحصاء الأمم المتحدة سنة ١٩٧٢ م نحو ٣,٥٥٢,٠٠٠ أى أكثر من ثلاثة آلاف مليون ونصف المليون^(١) . فإن الأرض واسعة تستطيع أن تستوعب كل بنى آدم ، فقانون الحياة العام فيه الوفيات والمواليد ، والله سبحانه خلق الكون وقدر فيه أقواته قبل أن يخلق آدم الذى يعمره ، وقرر فى كلامه المجيد ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] ورسم الطريق للوصول إلى هذا الرزق وهو العمل ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ [الملك : ١٥] ، والمناكب

(١) ملحق دائرة المعارف البريطانية - مجلة العربى يونية ١٩٧٣ .

واسعة وما على الناس إلا أن يمشوا فيها بعملهم وفنهم الزراعى والصناعى،
والتجارى، وسائر أنواع نشاطهم.

ولكن كانت بعض الدول تشكو كثرة المتعطلين فليس ذلك بضائر حكمة
الله فى وجود الإنسان وتناسل النوع البشرى، لأن سبب الشكوى سوء فهم الناس
للحياة الإنسانية التى يجب أن يسودها التعاون والتكافل. فهم يزدحمون فى
جهة ما يظنون فيها الخير ويهجرون جهات أخرى فى أمس الحاجة لمن يستثمرها
ويكشف عن كنوزها، والحزازات أو الأناية الإنسانية هى التى تحول دون هذا
التعاون ودون تبادل الهجرات والكفايات.

لقد رأينا بعض الدول تشكو قلة الأيدى العاملة وتفتح باب الهجرة، ورأينا
بعضها الآخر يستخدم بعض الحيوانات الراقية للخدمة المنزلية، إلى جانب الآلات
الحديثة المتوافرة.

ذكرت الصحف^(١) أن قاضى مدينة « كانساس » بالولايات المتحدة عين
أربعة قرود مدربة لتنظيف المحكمة بأجر قدره خمسة جنيهات فى الساعة، وذلك
لعدم وجود من يقوم بذلك من العمال.

ومع فتح باب الهجرة إلى المناطق المحتاجة إلى اليد العاملة، شجعت بعض
الدول التناسل بالمكافآت والمزايا الكثيرة، ولجأ بعضها - على الرغم من أن قوانينها
تحرمه - إلى إباحة تعدد الزوجات على أية صورة من الصور ولو تحت اسم
العشيقات والحليلات، وإلى وسائل أخرى كالتلقيح الصناعى، الذى سنتحدث
عن حكم الإسلام فيه فى موضعه.

والإسلام يشجع التناسل ويريده منظماً منتجاً، فأباح تعدد الزوجات، ونفر
من زواج غير الولود، وحرم قتل الأولاد خشية الفقر ووأد البنات بالذات، ونهى
عن العزل والإجهاض، وكل ذلك موضح فى بحث حقوق الأولاد فى الإسلام.
وفى غيره من بحوث هذا الكتاب.

(١) أخبار اليوم ٢٨/٤/١٩٤٥.

ولأهمية التناسل في نظر الإسلام وجعله في المقام الأول من حكمه الزواج نهى عن وسائل الاتصال الجنسي الأخرى التي لا تحقق هذا الغرض، كاتصال الذكور بعضها ببعض، وكذلك اتصال الإناث، وعن الاتصال بين الجنسين في غير الحرث الذي ينتج النسل، وسيأتى الحديث عن كل ذلك مفصلاً.

وإلى جانب هاتين الفائدتين الأساسيتين للتناسل هناك فوائد أخرى ستذكر مع بيان الفوائد العامة من الزواج وتكوين الأسر، وذكر كثير منها أيضاً في بحث حقوق الأولاد. منها: إثبات رجولة الرجل وأنوثة المرأة بشكل أقوى، وإشباع غريزة الأبوة والأمومة، وتوكيد العلاقة بين الزوجين، وامتداد ذكر الإنسان بعد موته، ومساعدة الأسرة على مهام الحياة وحمايتها من عوارض السوء، وكسب رضا الله بتكثير عدد المسلمين وعدم تعطيل الحرث الطبيعي لإنتاج الإنسان، وإيجاد مجال لعمل الخير نحو الذرية والتبرك بدعائهم إلى غير ذلك مما سيوضح إن شاء الله في موضعه.

ومما يؤكد حرص الإسلام على التناسل عن طريق الزواج لفت نظر المسلمين إليه عند الاتصال الجنسي، كما قال المفسرون في قوله تعالى ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] وذلك في معرض الكلام عن الاتصال الجنسي للصائمين في أول تشريع الصيام ﴿أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] فقالوا: إن ابتغاء ما كتب الله هو الولد، بمعنى أن يكون الغرض الأساسي من المباشرة هو الولد لا مجرد قضاء الشهوة.

كما قال المفسرون أيضاً في قوله تعالى: ﴿نِسَائِكُمْ حَرَّتُ لَكُمْ فَاتُوا حَرَثَكُمْ أَنْتُمْ شَتْمٌ وَقَدِمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، أن ما يقدم للنفس هو الولد الناتج

من المباشرة فى الموضوع الذى ينتج الزرع وهو المكان الطبيعى للمباشرة الجنسية، يقدم ليكون شفيعا له يوم القيامة.

٢ - التعاون :

الحكمة الثانية من تشريع الزواج التعاون على مهام الحياة لتحقيق الخلافة فى الأرض، وهو كما يكون بالتناسل يكون بتكوين الأسر حتى مع عدم التناسل، ولهذا التعاون مظاهر عدة، يمكن أن يكون كل منها حكمة مستقلة، ولكن التنظيم هو الذى جعلنى أضعها جميعا تحت هذا العنوان . ومن هذه المظاهر:

(١) تحمل الزوجة شطرا من عبء الحياة ليتفرغ الزوج إلى المهام الأخرى، التى يفيد منها المجتمع وتفيد الأسرة، والتعاون قدر مشترك بين الرجل والمرأة، فهو يكسب ويكسب لتحصيل العيش نظرا لما عنده من استعدادات طبيعية للكفاح، وهى تساعده على تهيئة هذا العيش ليكون غذاء ولباسا وأثاثا وغير ذلك من عوامل الاستقرار فى البيت، إلى جانب رعاية الذرية إن كانت ذرية، مع المهام الأخرى للأسرة، وتقسيم الكفاح بينهما هو عون أكيد على سهولة الحياة ويسرها المادى والأدبى، ولعل الزوجة الصالحة هى الحسنة الدنيوية المطلوبة من الله فى قوله سبحانه ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة: ٢٠١]، وسيأتى توضيح ذلك فى بحث حقوق الزوجين إن شاء الله .

وتظهر قيمة الزواج فى العون الدنيوى فى البيئات المتخلفة حضاريا حيث تعمل هى مع الرجل، فى الحقل والصيد والرعى ...

وكذلك فى البيئات التى تحتاج إلى الرخاء حيث تعمل فيها المرأة كما يعمل الرجل فى كل مجالات النشاط . وكان عمل المرأة مقياسا لاختيارها عند الزواج لتحقيق المشاركة والتعاون مع الزوج، كما هو موضح فى بحث مقاييس اختيار الزوجين، ويحضرنى الآن فى هذا المقام أن الرجل الاسكتلندى يختار

زوجته المستعدة للتعاون معه فى الأشغال الشاقة، وذلك بتجربة قطع شجرة كبيرة بمنشار ذى مقبضين، فإن استطاعت أن تصمد معه حتى ينتهيا كانت صالحة لتكون شريكة حياة متعاونة .

إن المعنى التعاونى يؤكد الروح الاجتماعية والاهتمام بالغير، الذى يمتد إلى الأولاد والأجيال القادمة، فهى نظرة عميقة فى الأسرة لا توجد فى غيرها، يؤثر الزوج وزوجته ويؤثر أولاده بكل ما يدخل السرور عليهم، ويضحى بكل ما يملك ليدفع الشر عنهم، وهذا معنى قل أو ندر أن يكون فى غير جو الأسرة .

(ب) ومن مظاهر التعاون بالزواج استكثار الزوج بعشيرة الزوجة واستكثار الزوجة بعشيرة الزوج، حيث تترابط الأسر، وتتأكد الصلات بين الدول، وهو ما أشار إليه النبى ﷺ فى خطبته عند زواج فاطمة، لعلى، حيث قال : إن الله تبارك اسمه وتعالى عظمتة جعل المصاهرة سببا لاحقا وأمرأ مفترضا، أوشج به الأرحام، وألزم به الأنام... وسيأتى توضيح ذلك فى بحث بر الوالدين وصلة الأرحام .

إن الناس فى حاجة إلى الترابط وإلى تقوية أواصر الود بينهم، والزواج من أهم ما يقويها، وكان العرب يقدرون أثر المصاهرة فى هذه الناحية، ويعدون من ولدته الزوجة من زوجها البعيد عن قبيلتهم، يعدونه من قبيلتهم . فمن كلامهم المأثور : ابن أخت القوم منهم، ولهذا أثره فى توطيد دعائم السلم بين القبائل، وضممان تعاونها، وبعض كبار العرب اليوم يصهرون إلى القبائل المختلفة ضممان لاستقرار الأمر لهم، وقد لجأ إلى هذه الوسيلة أمراء الولايات فى الحبشة، الذين زوجوا بناتهم إلى الأباطور خشية أن يغزوههم، وحدث مثل ذلك فى أوروبا فى القرون الوسطى . حيث كان الملوك يلجأون إلى الزواج من الممالك الأخرى تقية للحرب أو تقوية للأواصر بين الدولتين، ويسمى هذا بالزواج السياسى .

وحدث أول نوع من هذا الزواج عند قدماء المصريين، حيث تزوج الملك « حوراها » حاكم الوجه القبلى فى عاصمته « طبتة » قرب العرابة المدفونة، بالملكة

« تيب حوتب » حاكمة الوجه البحرى فى عاصمتها « بوفو » قرب كفر الشيخ، ونزلت له عن الملك، ومنهما تكونت أول أسرة فى تاريخ مصر (١).

وحكى التاريخ أن الاسكندر الأكبر المقدونى تزوج زوجة من سمرقند هى ابنة ملكها. وأقام حفلة عرس كبرى تزوج هو وتسعون من قواده وأصدقائه عرائس فارسىات. وقدم هدايا العرس لكل الجنود المقدونيين الذين تزوجوا آسيويات. وكان يبلغ عددهم عدة آلاف، وسمى هذا الزواج زواج أوروبا وآسيا، يريد بذلك ارتباط القارتين (٢).

وكان لزواج النبى ﷺ من بعض الزوجات مثل هذا الغرض للاستعانة به على توطيد دعائم السلم ونشر الدعوة. وهو مفصل فى موضعه.

(ج) ومن مظاهر التعاون فى الزواج، الترفيه عن النفس من جد الحياة ومتاعب العمل، والسكن إلى الزوجة بالإيناس الطيب، فإن النفس تنشط لعبادة الله إن أخذت حظها من المتعة الحلال، ولذلك امتن الله على الإنسان بالزواج وجعله من الآيات التى تسوق العبد إلى شكره، قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، وكان هو مطلب عباد الرحمن الذين قالوا ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤]. ولعل مما يشير إلى أثر الزواج فى سكن النفس وعدم قلقها ما ورد عن النبى ﷺ أنه قال « غزا نبى من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعنى رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولم يبن بها » رواه البخارى عن أبى هريرة. وتكلمته « ولا أحد بنى بيوتالم يرفع سقفها، ولا أحد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها » رواه البخارى ومسلم.

(١) د. ذكى سعد - آخر ساعة ٩ / ٤ / ١٩٥٢، الأهرام ٤ / ٦ / ١٩٥٢.

(٢) معالم تاريخ الإنسانية تأليف ه. ج. ويلز ج ٢ ص ٣٦٩.

ومعلوم أن الجسد المتواصل يمل النفس ويحد من نشاطها، فلتكن هناك فترة تعطى فيها رغباتها بقدر ما يجدد لها النشاط، ومن أنسبها الخلوة بالزوجة، إن بسمت بسمت له الحياة ومسحت بكلماتها الحلوة ما غلف نفسه من يأس وكلال، يقول النبي ﷺ «لكل عامل شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى» رواه الترمذى عن أبى هريرة بسند صحيح. ورواه أحمد والطبرانى من طريق عبد الله بن عمرو. والشرة معناها الجسد والمكابدة بحددة، والفترة هى الوقوف للاستراحة.

وفى الحديث الذى رواه أبو ذر أن رسول الله ﷺ قال «على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات، ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بمطعمه ومشربه» رواه ابن حبان، ويقاس على المطعم والمشرب اللذة الجنسية المباحة، بل إنها مما يثاب عليه، كما سيعرف فى موضعه. (وهو جزء من حديث طويل فى صحف إبراهيم، انظر الإحياء).

ويؤكد السكن الذى ذكرته الآية بين الرجل والمرأة ما جاء فى التوراة: أن الرجل يترك أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا^(١).

وأليس من السكن فى الزواج، حتى لو لم يكن معه اتصال جنسى، ما قالته السيدة خديجة رضى الله عنها للنبي ﷺ وهو عائد من غار حراء يرجف فؤاده، من كلمات سكنت قلبه وهدأت من روعه؟ وسيأتى توضيح ذلك فى بحث حقوق الزوجين.

(د) ومن مظاهر التعاون فى الزواج، إيجاد وصف للإنسان لولاه لم يكن، وتوليد عواطف لم تكن لتوجد إلا فى جو الأسرة، فأوصاف الولاية والرعاية والرياسة والمسئولية أمام الله عن تلك الرعية، تجعل للإنسان قيمة أدبية يشعر فيها بوصف جديد وإن كان مصغرا لكنه يكمل شخصيته، ويحقق ما تتوق إليه نفسه من هذه المعانى إذا حرمها فى جو المجتمع خارج الأسرة.

(١) سفر التكوين اصحاح ٢ : ٢٤.

وعواطف الحنو على الولد وعلى الضعيف، والحب والرحمة للأنتى التى تشاطره آماله وآلامه، واحترام الكبير من الوالدين أو الأخوة. كل ذلك مجاله الأسرة التى تخلق هذه الأحاسيس التى يجد صداها خارج المنزل، ويقدرها قدرها بين الناس. ويعلل بعض المحللين السياسيين فظاعة الحكام الديكتاتوريين وميلهم إلى الحروب بأنهم حرموا التمتع بعواطف الحنو على الولد والرحمة والحب للزوجة.

إن وجود الذرية فى ظل الأسرة يذهب السامة والملل عندما يكون الزوجان وحيدين، قالت امرأة لزوجها: أنت تتشاءب، فأجابها: يا عزيزتى، الزوج والزوجة شخص واحد، وعندما أكون وحدى أحس بالضجر^(١)، وهى إجابة لبقة، كسبها إلى جانبه بإظهار حبه لها، بأنهما شخص واحد، وأشار إلى فائدة وجود الذرية التى تقطع هذه الوحدة الفلسفية، إنه فى الحقيقة ضجر برم لعدم تغير الصورة اليومية فى البيت.

والحق أن المنزل امتحان للرجل فى تدبيره وسياسته وصبره وتحمله، واختبار لخلقه ودرجة إيمانه، فإن ذلك لا يظهر إلا بالمعاشرة والمعاملة والاندماج فى بيئة يتصل بها اتصالاً وثيقاً، فيها مشارب متباينة وميول متعددة، والسعيد من اجتاز هذا الامتحان ونجح فيه، وقد يكون مما يدل عليه قول النبى ﷺ «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى» رواه الترمذى عن عائشة وصححه.

وكل هذا تعاون من البيت مع الرجل فى صقل نفسه وتهيتها لأداء دورها فى الحياة الواسعة. وكذلك مع المرأة فى صقل نفسها بما تمارسه من أعمال ومسئوليات يلزمها الصبر والحكمة.

(هـ) ومن مظاهر التعاون فى الزواج، فتح ميدان جديد لطاعة الله، وإيجاد مجال لكسب رضوانه، ذلك أن الهم الذى يلاقه الزوج فى سبيل إسعاد زوجته. والجهد الذى تبذله الزوجة لتوفير الأمن والراحة لزوجها ولأولادها كل ذلك له

(١) آخر ساعة ٤/٣/١٩٥٣.

قيمتها العظيمة في الثواب الأخرى، وسيوضح ذلك في بحث حقوق الزوجين، لكنني أعجل بإيراد بعض النصوص التي تدل على ذلك.

جاء في الحديث الصحيح « وفي بضع أحدكم صدقة » رواه مسلم عن أبي ذر، وقول النبي لسعد بن أبي وقاص « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك » رواه البخاري ومسلم، في = فم . وجاء أيضا « يوم من وال عادل أفضل من عبادة ستين سنة » رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر . وفي رواية الطبراني « سبعين سنة » والرجل وال في أسرته وراع فيها كما نص عليه الحديث المتفق عليه وسيأتي بعد، وجاء أيضا « كل شيء يلهو به الرجل باطل ، إلا رميه بقوسه ، وتأديبه لفرسه ، وملاعبته لامرأته » رواه البغوي بإسناد حسن . وروى أن النبي ﷺ قال « طوبى لمن بات حاجا وأصبح غازيا . رجل مستور ذو عيال ، ومتعفف قانع باليسير من الدنيا ، يدخل عليهم ضاحكا . فوالذي نفسي بيده إنهم هم الحاجون الغازون في سبيل الله » (١) . وقال لاسماء بنت يزيد بن السكن حين سألته عن سبق الرجل بعمل الخير في الجماعة والجمعة والجهاد ، وليس للمرأة من ذلك من شيء ، إنها في البيت تخدمه ولا غير - قال لها النبي ﷺ : « أفهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها - قيامها بواجب الزوجية - وطلبها مرضاته واتباعها موافقته تعدل ذلك » ذكره الحافظ ابن عبد البر في كتابه « الاستيعاب » وروى البزار مثل ذلك مختصرا ، وسيأتي كل ذلك في بحث حقوق الزوجين .

وهذه صورة من صور التعاون في الحياة الزوجية ، يشغل فيها الإنسان بغيره كما يشغل بنفسه ، ومن شغل بغيره كان أعلى درجة ، فذلك جهاد نفسي يعدل الجهاد في سبيل الله المتعدد الميادين . وهذه المظاهر للتعاون كافية في بيان أهميته في الحياة الزوجية فلننتقل إلى الحكمة الثالثة .

(١) رواه الديلمي في الفردوس عن أبي هريرة وسنده ضعيف .

٣ - قضاء الشهوة:

هذه الحكمة من الزواج لها مظهران من مظاهر كثيرة:

(١) فالزواج فيه صرف مواد ضارة بالبدن لو بقيت حبيسة فيه، فالإفرازات الجسدية المتنوعة جعل الله لها منافذ تخرج منها كالأذنين والعينين والأنف والسبيلين «القبل والدبر» ومسام الجلد، فحبسها مضر بالبدن، ويتعدى الضرر إلى العقل والنفس، وقد أجمع على ذلك الأطباء والمختصون، القدامى والمحدثون.

قال ابن القيم عن المنى: إذا دام احتقانه أحدث أمراضا رديئة، منها الوسواس والجنون والصرع، وغير ذلك. وقد يبرئ استعماله من هذه الأمراض كثيرا، فإنه إذا طال احتباسه فسد واستحال إلى كيفية سمية توجب أمراضا رديئة. كما ذكرنا، ولذلك تدفعه الطبيعة إذا كثر عندها من غير جماع، اهـ. ونقل كلاما عن السلف في عدم ترك الجماع مدة طويلة حتى لا تضعف الأعصاب وتسد المجارى... فارجع إليه^(١). ولا شك أن الزواج هو أمثل طريق للتخلص من هذه الفضلات ولا تغنى عنه وسائل أخرى كما سيتضح بعد.

(ب) ومما يتعلق بالشهوة في الزواج إعفاف النفس عن الحرام. وكبح جماحها أن تورد الإنسان المهالك، وهو المشار إليه في الحديث «فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج» وبيان خطورة البصر والفرج موضع في بحث الحجاب وحقوق الزوجين.

إن الشهوة لا يمكن للنفس أن تصم آذانها عن نداءها الصارخ مهما استعمل الإنسان من وسائل للكبت أو الاعلاء أو غيرهما، ولو تملكتم زمام الإنسان غيرت مجرى تفكيره، وجعلت من نفسه مرتعا خصيبا للهواجس والضلالات، ولن تدع فرصة تمر عليه إلا زينت له السوء حتى لو كان واقفا بين يدي ربه في الصلاة، فهي

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ١٤٦ المطبعة العصرية.

أكبر ساعد للشيطان، ينفذ منها إلى حيث يريد، ولذلك حاول بعض علماء النفس المعاصرين «سيجموند فرويد» أن يرجع كل الغرائز إلى الغريزة الجنسية التي تبعث الشهوة، وكثيرا ما سأل النبي ﷺ ربه - تعليما لأمته - أن يحفظ له فرجه، وأمر من وقع نظره على امرأة تاقت إليها نفسه أن يسرع فيجامع أهله، أخرج أحمد بإسناد جيد عن أبي كبشة الأنماري أن امرأة مرت بالنبي ﷺ فوقه في قلبه شهوة النساء فدخل فأتى بعض أزواجه وقال «فذلك فافعلوا، فإنه من أمثال أفعالكم إتيان الحلال»، وروى مسلم عن جابر أن النبي ﷺ رأى امرأة فدخل على زينب فقضى حاجته وخرج وقال «إن المرأة إذا أقبلت أقبلت بصورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليات أهله، فإن فيها مثل الذي فيها» (١).

وقد يكون هذا تعليما من النبي للناس وإن لم تتحرك شهوته عند رؤيته هذه المرأة، على أن إنسانيته أو طبيعته البشرية لا تمنع ذلك التحرك فإن أثره كان في حلال حيث انتهى إلى إتيان زوجته، وما كان يقصد النظر إلى هذه المرأة للشهوة.

والرجل والمرأة سواء في هذه الناحية، كل منهما محتاج لتلبية نداء الغريزة الجنسية، ولئن كان الرجل هو البادئ غالبا بطلب الإعفاف بالزواج فإن المرأة لحيائها تأبى أن تكون بادئة، وإن كانت النفس تحدثها بإجابة أول طارق يدق الباب ليتزوجها - اللهم إلا في حالات شاذة تطلب المرأة فيها الاتصال بالرجل كما سيأتي توضيحه في بحث الحجاب في حادث يوسف وامرأة العزيز.

والرغبة عند المرأة إذا كانت كامنة تخشى أن تظهرها نزولا على العرف، فإنها في بعض البيئات العصرية المتحررة تكون سافرة قوية، وإعلانات أرامل الحرب الثانية العالمية للزواج امتلأت بها الصحف التي نشرتها بصور ملتوية تبقى

(١) شرح النووي على مسلم ج ٩ ص ١٧٧.

فيها المرأة على معاشها كأرملة وتستطيع أن تتمتع كامرأة، وليس هذا بكثير على أوروبا وحريتها الواسعة.

وإذا كان هذا واضحا في الشباب من الجنسين فإنه موجود أيضا عند المتقدمين والمتقدمات في السن. يتندر بعض الأدباء بأن عجوزا رغبت إلى أولادها السبعة أن يزوجوها، فقالوا: لا، إلا أن تصبرى على البرد متعرية في العراء، سبع ليال، لكل منا ليلة، ففعلت، فلما كانت الليلة السابعة ماتت، فسميت هذه الأيام أيام العجوز، أو برد العجوز «مجرد طرفة».

وقالت عجوز لبنيتها:

أيأ بنى إننى لناكحة، وإن أبيتتم إننى لجامحة، هان عليكم ما لقيت البارحة من الحكاك والعروق الطامحة^(١). والحكاك = اسم للحك وهو إمرار جرم على جرم صكا، والطامحة أى النافرة البارزة أو المشتاقة للرجال.

ومن حكايات الأدب القديم، ما رواه البيهقي في كتابه «المحاسن والمساوي»^(٢): أن همام بن مرة التغلبي كان رجلا غيورا وله أربع بنات، فجعلهن في قصر، فلما بلغن مبالغ النساء اشتھين الرجال، واستردن الأب وبعثن إليه في ذلك بأبيات شعر، فكتبت واحدة منهن:

أهمام بن مرة حن قلبي إلى صلعاء مشرقة القذال

(في القاموس ذكر: قنفاء بدل صلعاء، فرد عليها أبوها: وما قنفاء؟ تريدن معزى) فقال: يا بنية أهب لك بيضة، ولم يعرف ما تريد، وكتبت إليه الثانية:

أهمام بن مرة حن قلبي إلى شئ يكون مع الرجال

فقال: نعم، ولم يعرف ما تريد، أهب لك سيفا، وكتبت إليه الثالثة:

أهمام بن مرة حن قلبي إلى

(١) محاضرات الأدباء للاصبهاني ج ٢ ص ١٢٠.

(٢) ج ٢ ص ٢٠٣ والمستطرف للأبشيبي والقاموس المحيط مادة «القنفاء».

فقال : نعم يا بنية، أهب لك فرسا، فقالت الرابعة :

أهمام بن مرة حن قلبي إلى شئ.....

فلما صرحت بالمراد عرف ما يردن وزوجهن جميعا.

وقد سبق موقف بنت الرجل المسيحي التي حيب أبوها لها عدم الزواج كما قال بولس، وكم للنساء من حيل فى الزواج بمن يردن . ورفض من لا يردن، حتى تلجأ الواحدة منهن إلى ادعاء أن « حبيبها » عاشرها وحملت منه حتى يوافق أبواها على الزواج، والحوادث القديمة والجديدة فى ذلك كثيرة.

ومن كلام الحكماء: من حماقات الرجال أنهم ما يزالوان يطاردون النساء، والواقع أنهم لو تريثوا وقتا كافيا لطاردهم النساء.

هذا الذى حكيناه للطرافة يدل، مع الواقع الملموس، على أن الزواج سنة طبيعية وضرورة جنسية هى أحسن وسيلة لاستغلال الشهوة فى المنفعة الشخصية والاجتماعية، ولهذا كان الزواج حصنا من سوء كما قال الحديث « فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج » وكان أيضا مما تهواه قلوب الصالحين لمعانيه السامية الأخرى، كان الجنيد^(١) يقول: أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت . وكان ابن عمر يفطر من صيامه على الجماع ليتفرغ قلبه للعبادة ، ووصفه ابن عباس لشاب أعزب خاف على نفسه الزنى، حتى لو لجأ إلى نكاح الأمة، والإنسان مخلوق ضعيف لا يستطيع أن يحمل مالا طاقة له به كما قال قتادة فى تفسير قوله تعالى: « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » إنه هو الغلظة أى الاشتياق إلى النكاح . وكما قال عكرمة ومجاهد فى قوله تعالى (وخلق الإنسان ضعيفا) أى لا يصبر على النساء، وفى نوادر التفسير عن ابن عباس فى قوله تعالى (ومن شر غاسق إذا وقب) قال قيام الذكر، وإن كان البعض يشك فى هذه النادرة من نوادر

(١) عالم صوفى توفى ٢٩٧ هـ.

التفسير. فليكن فى الزواج حصن له من كثير من الأزمات النفسية بالذات^(١).

ولا يقولن أحد إن صرف هذه المادة يكون بطريق آخر غير الزواج، فإن لذلك أضراره التى سأوضحها فى الفصل التالى إن شاء الله.

ثانيا - التبعات :

تلك هى بعض الفوائد المترتبة على الزواج التى تبرز حكمة مشروعيته، لكن يا ترى هل الزواج كله فوائد وليس له وجه آخر فيه بعض المضار؟ إن أى أمر فيه الناحيتان، وإن أى تشريع له وجهه الآخر لا محالة، ولكن إذا كثرت المنافع وزادت على المضار كان الأمر فى حيز المأمور به، أو على الأقل لا يكون ممنوعا، وبالعكس إذا كثرت المضار وزادت على المنافع كان منهيًا عنه، أو على الأقل غير مرغوب فيه.

إن الزواج المكون للأسرة له تبعات وتكاليف والتزامات، والوردة الجميلة الفواحة بالرائحة الزكية حولها أشواك تؤلم من تمتد يده إليها ليقطفها أو يشم رائحتها، والعسل الشهى لابد لجنيه من لسع النحل. والتمر قد يجد الإنسان فى طريق جنيه أشواكا غليظة مؤلمة، لكن «لا توجد حلوة من غير نار» كما يقول المثل العامى، وصدق الشاعر إذ يقول:

ومن طلب الحسنة لم يغله المهر ولا بد دون الشهد من إبر النحل

وكانت تبعات الزواج صارفة لبعض الناس عنه، فاهمين أن الحياة كلها سهلة ورخاء لا صعوبة فيها ولا معاناة، وإليك بعض هذه التبعات مع بيان الأنطباع النفسى عند بعض الناس عنها، وعن الزواج مطلقا:

١ - تبعات اقتصادية، وهى تكاليف الزوجة، والأولاد والأسرة عامة، فكلها

(١) ماروى عن ابن عمر وابن عباس نقله الغزالى فى الإحياء عن قوت القلوب لأبى طالب

على كاهل الزوج، الذى يحس أنه بالزواج كسفينة ليست من الإحكام بالقدر الذى يمكنها من أن تشق طريقها إلى شاطئ الأمان، فإن أقدم على المخاطرة وعصفت به الأنواء، فهو إما أن يستسلم إلى الفقر فيزيد المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، ويخرج إلى المجتمع جيشا متعطلا ليس عنده استعداد لتحمل المسئوليات، وإما أن يكذب ويجهتد ليجمع ما يعيش به مع أسرته الثقيلة، وقد يلجئه هذا الكد إلى طرق غير مشروعة، يزيد بها جرائم المجتمع.

ومثل هذه الحالة جعلت بعض الناس لا يقدمون على الزواج حتى تنهيا لهم الظروف المناسبة، ولا يرضون أن يكونوا كمن قيل فيهم:

لن يسع الفأرة جحرها علق المكنس فى ذيلها

ولهؤلاء عذرهم، فالله يقول ﴿وَلَيْسَتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ

يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]. والرسول عليه الصلاة والسلام شرط عند ندائه للشباب أن يتزوج، أن توجد الباءة كما تقدم، ولهذا لم يرض أن يتزوج رجل لا يجد صداقا إلا ثوبه الذى يدفعه للزوجة ويبقى هو عاريا «الزبيدي ج ٣ ص ٢٣٨. زاد المعاد لابن القيم».

جاء فى إحياء علوم الدين أن سفيان بن عيينة رأى على باب السلطان فقيل له: ما هذا موقفك فقال: وهل رأيت ذا عيال أفلح. وكان سفيان يقول:

يا حبذا العزبة والمفتاح ومسكن تخرقه الرياح لا صخب فيه ولا صياح

وجاء فى هذا حديث ضعيف كما نص عليه المحافظ العراقى. وذكره

القرطبى فى تفسيره «ج ١٠ ص ٣٦١» فقال: ذكر على بن سعد عن الحسن بن واقد قال: قال رسول الله ﷺ «إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلت لأمتى العزبة والعزلة والترهب فى رعوس الجبال».

وذكر أيضا على بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن

الحسن يرفعه إلى رسول الله ﷺ «يأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه،

إلا من فربدينه من شاهق إلى شاهق، أو حجر إلى حجر، فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله، فإذا كان ذلك حلت العزبة» قالوا: يا رسول الله، كيف تحل العزبة وأنت تأمرنا بالتزويج؟ قال «إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدي أبويه، فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي القرابات والجيران» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال «يعيرونه بضيق المعيشة، ويكلفونه ما لا يطيق، فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها». وجاء مثل ذلك في تفسير الطبرى. والحجر بكسر الحاء الموضع.

٢ - تبعات نفسية تنبع من الاهتمام بمصالح غيره بعد أن كان لا يهتم إلا بنفسه فقط، وذلك أن الزواج يوقعه فى مسئوليات تأخذ قدرا كبيرا من تفكيره لإدارة المملكة الجديدة التى تكثر مطالبها وتتعدد مشاكلها، وذلك حتى مع يسر حاله ووفرة ماله، فإن الاهتمام بالغير، وهو كثير، تعب نفسى، يقلق البال والأعصاب، وهذا أمر لا بد منه فى تكوين الأسرة، جعل سفيان يقول الكلام السابق الذى يفضل فيه العزبة بمسكنها المتواضع الذى يريحه هو ولا يسمع فيه صخبا ولا صياحا للأولاد أو الزوجة.

ومن هذه الزاوية التى ينظر بها إلى الزواج، قرر أبو العلاء المعرى، الذى يمثل المتشائمين، أن يعيش بعيدا عن هذه الهموم، فنعى على الزواج وما ينتج عنه، وأوصى أن يكتب على قبره:

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد
وهو القائل:

ومن رزق البنين فغير ناء
فمن ثكل يهاب ومن عقوق
بذلك عن نوائب مسقمات
وأرزاء يجئن مصمات

ولا شك أن الجو النفسى الذى يعيش فيه الإنسان وسط الأسرة وتحمل مسئولياتها هو ضريبة التمتع بحياة الاستقرار بالزواج وإضافة خلية إلى جسم

المجتمع الإنساني، إلى جانب الفوائد الجمة التي يجنيها الفرد ويجنيها المجتمع كله من الزواج كما تقدم توضيحه، وهو أمر له وزنه عند الله إذ هو امتثال لأمره في العمل لتحقيق خلافة الإنسان في الأرض. لا يحجم عنه إلا من لم يجد عنده الاستعداد الطبيعي له، قيل لإبراهيم ابن أدهم^(١): طوبى لك فقد تفرغت للعبادة بالعزبة فقال: لروعة منك بسبب العيال أفضل من جميع ما أنا فيه، فقيل له: فما الذي يمنعك من النكاح؟ قال ما لي حاجة في امرأة، وما أريد أن أغر امرأة بنفسى. «الاحياء».

ومن أجل هذه التبعات الاقتصادية والنفسية أعرض كثير عن الزواج، وساعدهم على ذلك توفير مطالبهم خارج الأسرة، في المطاعم والفنادق ومؤسسات الخدمات المتنوعة، حتى الناحية الجنسية الرخيصة التي انزلت في مهاويها بعض من لا خلاق لهم، ومهما يكن من شيء فإن ذلك كله لا يفقد الأسرة أهميتها أبدا، والذي ينصرف عنها يلزمه القلق مهما غالط نفسه. ويحاول أن يجعلها فلسفة معقولة بتخلصه من تبعات جسام إلى تبعات ضئيلة في نظره.

نصح بعضهم أحد الأباء أن ينتظر حتى يصبح ولده عاقلا فيزوجه، فأجابه قائلا: لن أتبع نصيحتك، فإن ولدي إذا أصبح عاقلا فهو لن يتزوج أبدا^(٢) وهذا صدى لما أحس به هذا الرجل في زواجه من تعاسة.

ويقال أيضا: إن هنديا فقيرا تقدم إلى باب «جنة براهما» ليدخلها، فسأله حارسها: هل تطهرت بالتكفير عن ذنوبك في النار؟ فأجابه الرجل: كلا، ولكنني كنت متزوجا. فقال الحارس: إذن فادخل، فلا فرق بين الاثنين.

هذه كلها تصورات عن الأسرة بهمومها الاقتصادية والنفسية، جعلت الفاشلين يجسمونها بهذه التعبيرات الشعرية الخيالية.

(١) صوفى توفى ١٦٠ أو ١٦٢ هـ. ودفن في صور.

(٢) آخر ساعة ١٩٥٣/٣/٤.

٣ - تبعات دينية، وأهم مظاهرها أمران :

(أ) أن المسؤولية الدينية عن الأسرة كبيرة، والتقصير في واجباتها خطير، وقد يعجز بعض الناس عن الوفاء بها لضعف في الإدارة والشخصية أو لقلّة ذات اليد أو لعوامل أخرى، ولا يحس بهذه التبعة إلا من يؤمن بالله ويؤمن بالمسؤولية الأخروية، فهو يضع أمام عينيه قول الرسول الكريم «والرجل راع في بيته ومسئول عن رعيته» رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر، وقوله «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت» رواه مسلم.

ومن هنا لما سئل بشر بن الحرث عن عدم تزوجه قال: يمنعنى منه قول الله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. ولإدراك خطر المسؤولية في الزواج اعتذرت أم هانئ عن عدم زواجها بالرسول بأن لها أولادا تخاف أن يشغلها حقهم عن حق الرسول عليه الصلاة والسلام كما هو موضح في مبحث تعدد الزوجات. وتفصيل مسؤولية الأسرة في بحث حقوق الزوجين.

(ب) والمظهر الثانى للتبعات الدينية في الزواج يتمثل في جماعة من العباد رأوا أن الزواج يشغلهم عن الله الذى يجدون فى الإنس به أكبر لذة دونها ما يقال من لذات فى الزواج، وبهذا يعلل رفض رابعة العدوية^(١) للزواج من محمد بن سليمان الهاشمى الذى عرض عليها مهرا غاليا يتناسب مع ثروته العظيمة ورغبته القوية فى زواجها، إذ ردت عليه بقولها: أما بعد، فإن الزهد فى الدنيا راحة القلب والبدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فإذا أتاك كتابى هذا فهىء زادك، وقدم لمعادك، وكن وصى نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تراثك، وصم عن الدنيا وليكن إفطارك على الموت، وأما أنا فلو أن الله خولنى ما خولك وأمثاله ما سرنى أن أشتغل طرفة عين عن الله^(٢).

ومثل هذا كثير فى عالم الزهاد والمتصوفين.

(١) صوفية توفيت ١٣٥ هـ .

(٢) الاحياء للغزالي .

وقد علل بعض العلماء امتناع عيسى عليه السلام عن الزواج، بانصرافه إلى الدعوة وأعبائها، لأنه يرى أن الزواج يقعد همته عنها، وهو بحاله أدرى، وعلى شاكلته عمل كثير من أتباعه وكانت الرهينة التي سبق الحديث عنها. وكان موقفهم من المرأة عامة.

وبالمقابلة تظهر مزية سيدنا محمد ﷺ في تحمله لهذه الأعباء كلها، أعباء الدعوة الجسيمة، وأعباء الحياة الأسرية الواسعة، وناهيك برسول كان يأتيه الوحي وهو في فراش بعض زوجاته، توزعت جهوده، ولم يشغله حق عن حق، ولم يقعد به جهاد عن جهاد، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

هذه تبعات معقولة في الزواج، لا يجوز أن تصرف كل الناس عنه، فكما قلت، لا بد لكل تشريع من مزايا وتبعات، والحكم هو للأغلب منها، فلتكن نظرة الإنسان إلى تبعاته نظرة فردية شخصية خاصة، ويقرر الأصلح له بعد الموازنة.

وإلى جانب هذه التبعات العامة. التي يسميها الغزالي وغيره آفات، تبعات خاصة لها ظروفها المحدودة المعينة جعلت صاحب هذه الظروف يؤثر عدم الزواج، وليست كلها مما يوافق عليه الشرع، فبعض النساء تمتنع عن الزواج خوفاً أن يقطع معاشها المخصص للأرامل، وقد تصبر على الوحدة وتصمد أمام نداء الغريزة الجنسية، وفيه من المعاناة ما فيه، وبخاصة إذا كانت في مقتبل عمرها. وقد تلجأ إلى الزواج السري إيماناً بضرورته الطبيعية، وهنا تستولى على أموال لا تستحقها رسمياً، فقد وقعت في محذور، أو تلجأ إلى الطرق الأخرى للاتصال الجنسي التي لا يقرها دين، وهنا تكون الطامة.

و من الناس من يمتنع عن الزواج بعد موت زوجته حدادا عليها، أو تمتنع هي بعد موته حدادا عليه وله صورة في غير الإسلام عند الهنود، فالأرملة لا تتزوج وفاء لزوجها الأول كما تمليه العادات أو يأمر به دينها، وقد تترمل المرأة وهي في الخامسة من عمرها، لشيوع زواج الرجال المسنين بالصغيرات حتى قبل

ولادتهن، كما فى القديم، وقد حمل «غاندى» زعيم الهند على هذه العادة المذمومة. ومشروعية هذا العمل مذكورة فى بحث حقوق الزوجين، ومثله امتناع المرأة عن الزواج لرعاية أطفالها اليتامى، أو امتناع الرجل عن الزواج بعد موت زوجته حرصاً على شعور أولاده منها، أو خوفاً من ضياعهم تحت رعاية زوجة الأب، كما يشاهد كثيراً، وهذه كلها نظرات خاصة لا تؤثر فى حكمة مشروعية الزواج وفوائده العظيمة.

وهناك انطباعات شخصية عن الزواج لا داعى لذكرها، وقد تقدم امتناع همام بن مرة عن تزويج بناته لأنه لا يجد لهن أكفاء كما يتصور، كما أن بعض الفنانين والفنانات فى هذا العصر لا يشجعون قيام أسر مستقرة بالزواج، انصرفوا إلى الفن، بحجة التفرغ لإتقانه، أو لما فيه من انطلاق لا يجهله إنسان، وقل أن تستمر أسرة فنية وقتاً طويلاً، أو يشعر أعضاؤها بالاستقرار.

* * *

الفصل الرابع

الاتصالات الجنسية الشاذة

من أجل المحافظة على حكمة تشريع الزواج التي لخصتها في الأهداف الثلاثة: التناسل، التعاون، وقضاء الشهوة، سد الله المنافذ التي قد يلجأ إليها بعض الناس ليستغنى بها عن الزواج، فإن أية وسيلة أخرى لا تحقق أهداف الزواج جميعها، فهي كلها متضامنة في إبراز حكمة التشريع.

فرب إنسان يقول: إن المقصد الأول من الزواج وهو التناسل قد يتحقق بطريقة أخرى غير تكوين الأسرة، ومن هذه الطرق جعل الاتصال الجنسي بدون تقييد بالأسرة، فهو مثمر للتناسل، ومن طرقه أيضا التلقيح الصناعي المعروف، وبهاتين الطريقتين أو إحدهما يمكن الاستغناء عن الارتباط بالزواج لتكوين الأسرة.

ويرد على هذا، بأن هاتين الطريقتين إن تحقق بهما نسل فإنه نسل مضيع كنسل الحيوانات التي ينزو بعضها على بعض على ما سبق تقريره، ومع ذلك فإن الهدفين الآخرين للزواج لم يتحقق منهما التعاون، ولا قضاء الشهوة في بعض صور التلقيح الصناعي الذي لا يكون فيه التقاء جنسى.

ومن أجل هذا سد الله هذين المنفذين، وهما الاتصال الجنسي غير المنظم وهو الزنى، والتلقيح الصناعي في بعض صورته كما سنبينه فيما بعد.

ورب إنسان آخر يقول: إن المقصد الثانى وهو التعاون قد يتحقق بغير الزواج الذى يستمر فيه جنس مع جنس آخر في جو الأسرة، وذلك بتعاون ذكرين أو ذكور معا على مهام الحياة، أو بتعاون أنثى مع أنثى كذلك، فلا يتحتم للتعاون اختلاف الجنسين.

ويرد على هذا، بأن المقصد الأول وهو التناسل لا يحصل بهذا التعاون بين

جنس واحد، وكذلك قضاء الشهوة على وجه سليم لا يتم بذلك، وربما يقول هذا القائل: إن الشهوة تحصل فى هذه الحال وهى الاتصال بين الذكرين أو بين الأنثيين.

ويرد عليه بأنه لو حصل ذلك فالتناسل مفقود، ولذلك حرم الله هذا الاتصال، وهو ما يسمى باللواط إذا كان بين ذكرين، أو بالسحاق إذا كان بين أنثيين.

ورب إنسان ثالث يقول: إن قضاء الشهوة لا يتحتم أن يكون عن طريق الزواج بين ذكر وأنثى فقد يتم بدون ذلك، كأن يفرغ الإنسان منيه بذلك ذكره على نحو من الأنحاء، أو الاتصال ببهيمة مثلا يحقق معها لذته الجنسية.

و الرد على هذا، أن إفراغ مادة الحياة بدون الطريق السليم الذى خلقت من أجله، لا يتحقق معه التناسل، ولا التعاون المقصودان من الزواج، وكذلك الاتصال بالبهيمة، وإن حقق اللذة نوعا فهو لا يحقق التعاون الأسرى، ولا يحقق التناسل الطبيعى آدمى، فعلى فرض جواز التناسل بين الإنسان والحيوان فهو تناسل غير آدمى خالص، وشرح ذلك يرجع فيه إلى ذوى الاختصاص.

ومن أجل ذلك حرم الله: الاستمنا، وحرمة إتيان البهائم.

وأراك أيها القارىء منتظرا بيان حكم الشرع فى هذه المنافذ بالتفصيل، وهى: الزنى، التلقيح الصناعى، اللواط، السحاق، الاستمنا، إتيان البهائم.

أما حكم الزنى فهو معروف، وحرمة معلومة من الدين بالضرورة، ومع ذلك ففيه بحث واف ستجده إن شاء الله عند الكلام على حقوق الزوجين. ولبيان الأمور الأخرى نقول:

التلقيح الصناعى:

يطلق التلقيح الصناعى على وضع ماء الرجل فى رحم الأنثى بطريقة صناعية أى بغير الاتصال الجنسى المباشر وذلك لغرض الحمل.

وهذه العملية فى حد ذاتها ليست معجزة خارقة، فقد فطن العقل البشرى

منذ مئات السنين إلى إمكان حدوث الحمل به، ويروى أن شيخين من العرب كانا يتنافسان في اقتناء الخيول الأصيلة وكان أحدهما يفوق خصمه في كل سباق، فاغتاظ منافسه وأوعز إلى بعض رجاله أن يلحقوا في جناح الليل أفراس خصمه بمنى حصان من صعاليك الخيل، ويرجع تاريخ هذه القصة إلى القرن الرابع عشر.

وفي القرن الثامن عشر تحقق العلماء من إمكان حدوث الحمل بهذه الوسيلة، وقاموا بعمل تجارب على الحيوانات فنجحت، كالتجربة التي أجراها العالم الإيطالي «لازار يوسبا لانترامنى» سنة ١٧٨٩ م على كلبة، وأصبح التلقيح في وقتنا هذا من أهم وسائل الرقى في الانتاج الحيوانى والنباتى كيفاً وكماً، وذلك باستخدام مواد ممتازة للتلقيح، وإمكان تلقيح عدد كبير من الإناث بنطفة ذكر واحد.

وأول من مارس تجربة الإخصاب الصناعى فى الآدميين هو الدكتور الانجليزى «جون هنتر» سنة ١٧٩٩ م عندما تقدم إليه زوجان لعلاجهما من العقم المتسبب عن خلل فى الجهاز التناسلى بعد فحصهما ومعرفة عدم ما يمنع الحمل بينهما. وكان التلقيح بنطفة الزوج لزوجته.

أما تلقيح المرأة بمنى رجل آخر فقد أجرى لأول مرة فى فرنسا سنة ١٩١٨ م، وانتشر بسرعة، ففي سنة ١٩٣٥ م لم تسجل إلا حالة إخصاب واحدة، أما الآن ففيها مئات الحالات، وفى أمريكا أجرى التلقيح لنحو عشرين ألف امرأة، وقدر رسمياً عدد الأطفال الصناعيين فيها عام ١٩٤١ بنحو ٣٦٤٩، وهذا غير ما خفى عن الإحصاء.

ونسب إلى هتلر عند إعداده فرقة الصاعقة المكتملة الرجولة أنه قرر احتفاظه بهم للتلقيح لإنجاب شعب جديد قوى، وبهذا يمكن الاستغناء عن عدد كبير من الرجال، فقد ثبت أن الرجل يستطيع أن يلقح ٤٠٠ امرأة فى أسبوع. ولكثرة انتشار التلقيح الصناعى فكروا فى إنشاء بنك لحفظ النطفة لتكون معدة لإجراء عملية التلقيح فى كل وقت.

وجاء فى برقية من (ايوا) فى أمريكا (أهرام ١٢/٥/١٩٥٣) أن أول امرأة لقت بالمواد المنوية المحفوظة فى أجهزة التبريد ستضع طفلا آخر هذا الشهر فى مدرسة الطب بجامعة (ايوا) وهناك ثلاث أمهات أخريات أجريت عليهن التجربة، ويقول الدكتور «بنج» المشرف على التجارب: إنها مبنية على أبحاث التلقيح الصناعى على الحيوانات التى أعلنت سنة ١٩٤٩ م فى لندن، وهى أول تجربة على الآدميين.

ومارس الأطباء هذه العملية على الرغم من أنهم يعلمون أن المولودين منها غير شرعيين، إلا أنهم كانوا يشترطون لها - تقريبا من آثارها النفسية والاجتماعية - شروطا قاسية منها:

١ - موافقة الزوج موافقة تامة، لأن المولود سيكون رسميا ابنه الشرعى، وهو يعلم أنه من نطفة أجنبية، وقد وافق كثير من الناس على ذلك، وتفادوا به التبنى والوقوع فى الرذيلة، وكان مبنيا على أن الرضا بالزنى من الطرفين لا يعد جريمة.

٢ - السرية المطلقة، بمعنى ألا يعرف الزوجان مصدر النطفة، ولا يعرف صاحب النطفة من تلقحت بها، وذلك حتى لا تثار مشاكل قانونية يهدد بها صاحب النطفة من استعملوها، لابتزاز أموالهم خوفا من افتضاحهم، وقد يطالب هو بالولد، وقد تطالبه المرأة بنفقة الحمل، وقد يطعن أقارب الزوج فى بنوة الولد...

٣ - أن يكون عقم الزوج مؤكدا ومؤبدا، حتى لا تتغير نظرة الرجل إلى الطفل الدخيل إذا شفى وأمكن أن ينجب أطفالا شرعيين.

٤ - عدم الإسراف فى تلقيح نساء كثيرات بنطفة رجل واحد، حتى لا تكثر الإخوة والأخوات ويتصادف زواج بعضهم ببعض.

إن التطور فى عمليات التلقيح الصناعى جعل العلماء يفكرون فى طريقة للإخصاب بدون حاجة إلى الذكر، فقام بعضهم منذ خمسين سنة بإيلاد ثلاث

قنafd من غير أب، وذلك بوضع بيضات عذراء فى محلول «كلورور الماغنيزوم». والعالم الفرنسى «أيفس دلاج» أجرى أيضا مثل هذه العملية على غير القنafd. واستطاع العالم الأمريكى «جريجورى بنكوس» إنتاج ثلاثة أرناب بدون أب، وجرب بعضهم ذلك فى المرأة فوفقوا بعض التوفيق فى إثارة حركة ابتداء الحمل فى المرأة بدون رجل، ويجرى البعض استخدام شبكة من الموجات الأثيرية، وعليه فان نتيجة التناسل العذرى الذى بدىء به فى الأرناب ستخفى الرجال من الوجود.

بل إن الأبحاث تبادت وتطورت حتى قام العلماء الغربيون بنقل بويضة الأنثى من البيض وتلقيحها فى أنبوبة اختيار بحيوان منوى، أو نقلها ملقحة ووضعها فى هذه الأنبوبة لتأخذ طورا من النمو، ثم يعاد زرعها فى رحم امرأة أخرى يصلح لإتمام تكوين الجنين وولادته من هذه السيدة. وصاحب هذه التجربة هو الدكتور بيفرز الانجليزى أستاذ أمراض النساء بجامعة ليدز، وقد أعلن فى مؤتمر صحفى عقده فى يوركشاير أن هناك ثلاثة أطفال فى أوربا كاملى التكوين من أثر الزرع فى الأنابيب. وقد سبقه فى هذه التجربة الدكتور روبرت ادواردز الأستاذ بجامعة كمبردج الذى نجح فى الجمع بين بويضة وحيوان منوى من أصل آدمى داخل أنبوبة. وقد أعلن الدكتور ادواردز سنة ١٩٧٤ أن المشاكل الأساسية التى طرحتها زراعة الأجنة قد وجدت حلا منذ الآن. فهل معنى هذا أنهم نجحوا فى حقن رحم امرأة ببويضة ملقحة فى الأنبوبة؟ «مجلة حواء ١٩ أكتوبر ١٩٧٤».

جاء فى أهرام ٢٠ / ١ / ١٩٨٨ م أن أول طفلة أنابيب فى العالم ولدت فى ٢٥ من يوليو ١٩٧٨ م واسمها «لويزا براون» وذلك بمستشفى الدكتورين «باتريك ستيبنتوى، روبرت ادوارز» فى «بورن هول قرب كمبردج» وأول ولادة بطريق الإخصاب المباشر دون أنبوبة - بنقل البويضة من قناة فالوب إلى موضع فيها تخصب بنطفة زوجها - عملت على يد «د، ريكاردو» فى سانت أنطونيو بجامعة تكساس بالولايات المتحدة. وكان ذلك فى سنة ١٩٨٤ م وفى إنجلترا سنة ١٩٨٦ م.

هذه معلومات عن أصل الفكرة وتاريخها وتطورها، ولكن ما هي نظرة الناس لها، ورأى الشرع فيها؟

عندما عملت أول عملية على الإنسان سنة ١٧٩٩ م قدم رئيس أساقفة كانتبري بلندن استجوابا لمجلس اللوردات البريطانى لمناقشة الموضوع، وفى الوقت نفسه كان البابا يخطب فى مؤتمر الأطباء الكاثوليك فى هذا الشأن، وهما لا يمنعان الحمل الصناعى، بل جعلاه محرما فقط فى غير المتزوجة، وفى المتزوجة إذا كان بلبقاح زوجها، على أن التلقيح بلبقاح زوجها لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة، وعدته الكنيسة خيانة زوجية من المرأة ضد زوجها، ومن صاحب النطفة ضد زوجته.

وأصدرت لجنة حكومية فى السويد منذ سنة ١٩٥٣ قرارا بأنه يسمح به إن كان ببذرة الزوج وموافقتهما معا، وأن ذلك من رأى الكنيسة « جريدة الشعب ١٩٥٨/٣/٨ ».

وفى فرنسا أعلن الأطباء مشروعيته إذا وافق الزوجان عليه، وفى سنة ١٩٥٦ أعلن أحد قضاة شيكاغو أنه يعتبر جريمة زنى سواء وافق الزوج أم لا، وفى ألمانيا الغربية هو ممقوت خلقيا إذا كان بغير بذرة الزوج « المصدر السابق ».

وقد أقر البرلمان الإيطالى قانونا يقضى بحبس أية امرأة لمدة سنة إذا لجأت إليه، كما توقع العقوبة نفسها على الزوج الذى يوافق على ذلك « جريدة الشعب ١٩٥٨/١١/٢٣ ».

وقد سبق أن الكنيسة حرمته علي غير المتزوجة وعدته خيانة زوجية غير أن جريدة أسبوعية تصدرها جماعة الجزويت فى ميلانو نشرت خبرا مؤداه: أن الكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان أفتت بأن الحمل بالتلقيح الصناعى لا يعد خيانة زوجية ولا يتعارض مع الدين، ولكن الابن المولود يعتبر ابنا غير شرعى « الأهرام ١٩٥٩/٣/٢٥ ». لكن نشرت جريدة الشعب « ١٩٥٨/٣/٨ » أن البابا فى إيطاليا أصدر أمرا بتحريمه، ولعل هذا فى غير المتزوجة أو فى المتزوجة الملقحة بغير منى زوجها.

هذه المعلومات مستقاة من المصادر الآتية إلى جانب المذكورة: «مجلة
الوعى الإسلامى عدد شوال ١٣٨٦ ص ٧٧ من نقل الدكتور وجيه زين العابدين
«بغداد» من كتاب أجنبي عن «أخلاق الأطباء». «مجلة الدكتور مارس
١٩٥٢م». «المسألة الجنسية فى حياتك» وهو كتاب مارى ستوبس، مجلة آخر
ساعة عدد ٧٩٢ فى ٢٨/١٢/١٩٤٩ م .

وأما حكم الشرع الإسلامى فى هذه العملية فيتعلق بناحيتين، الأولى هل
هى جائزة أولا؟ والثانية هل يثبت بها النسب أولا؟

(أ) أما جوازها أو منعها، فإن كان التلقيح بين الزوج وزوجته فلا مانع
منه، ولا يعترض عليه الدين، وقد يكون وسيلة لإشباع غريزة الأبوة والأمومة
عندما تحول الظروف الطبيعية دون إنجاب الذرية، وسببا من أسباب الاستقرار
العائلى .

وإن كان بغير ماء الزوج سواء رضى أم لم يرض فهو حرام وأشد نكرا من
التبنى على صورته التى كانت فى الجاهلية، لأن المتبنى معروف أنه ابن رجل آخر
ويعد غريبا عن الأسرة، أما ولد التلقيح فهو يجمع إلى إدخال عنصر غريب فى
الأسرة، صورة الزنى التى تختلط بها الأنساب وتضعف الروابط وتضيع الحقوق
وتزرع الأحقاد والضغائن، ولولا أن صورة التلقيح تختلف إلى حد ما عن صورة
الزنى لوجب به الحد المقرر لهذه الجريمة المنكرة .

(ب) وأما ثبوت النسب شرعا بالتلقيح، فإنه إذا كان بين الزوج وزوجته
ثبت نسب المولود إليهما، لأنه تخلق من مائه ومن بويضتها، وإذا كان التلقيح
بمنى رجل آخر فهو فى حكم الزنى، فينسب المولود إلى الزوجة كما ينسب إلى
المرأة إذا كانت غير متزوجة، لأنه تخلق من بويضتها، أما النسب إلى الزوج فإن
كان التلقيح بغير علمه نسب إليه المولود بحكم الفراش للحديث الصحيح «الولد
للفراش» وإن كان بعلمه هل ينسب إليه أيضا بحكم الفراش، أو لا ينسب إليه إلا
إذا أقر به، أولا ينسب إليه أصلا، أنا أميل إلى الثالث عقوبة له لإقراره صورة الزنى

بامراته، وهو الديوث الذى حرم الله عليه الجنة، وقطعا لدابر الفساد، وسدا للذرائع، لأنه قد يجر إلى إقرار الزوج للزنى الحقيقى بزوجته، بل قد يدعو هو بنفسه رجلا ليزنى بها إذا أراد ذرية، وهو الاستبضاع الذى كان فى الجاهلية وحرمه الإسلام.

نقل البويضة:

أخذ بويضة امرأة وتلقيحها خارجا ثم إعادتها إليها حكمه كالتلقيح الصناعى، أما أخذها ملقحة ووضعها فى رحم امرأة أخرى فلى فيه وجهة نظر: إن البويضة حين أخذت من المرأة حكمها حكم السقط الذى لم يتخلق، أو الإجهاض قبل نفخ الروح فى الجنين، وحكم الإجهاض مفصل فى بحث حقوق الأولاد، فالبويضة قد انفصلت عن المرأة ميتة موتا شرعيا، أى لا روح فيها، لا علميا، وانقطعت علاقتها بها، فإذا دخلت البويضة رحم امرأة أخرى وتخلق الجنين فيه فإن هذه المرأة الجديدة لم تشترك فى الجنين ببويضتها، ولم يشترك زوجها، إن كانت متزوجة، بمائه، فهو ليس منهما قطعا، وليس لها إلا فضل التنمية والتغذية كإرضاع الطفل الأجنبى. فهل تقاس تغذية الجنين بدمها على تغذية الرضيع بلبنها فيكون ولدها من هذه الناحية، ويعطى حكم الرضيع فقط فى أحكامه الخاصة، أو ينسب إليها بولادته منها كما ينسب كل المولودين؟ ويا ترى إذا نسب إليها بالولادة هل تكون نسبة ولد الزنى، وهو لم يتخلق منها أصلا، لا بالبويضة ولا بالماء، وقد سمينا غيره ولد زنى إذا كانت البويضة منها والماء من رجل أجنبى؟ أو لا ينسب إليها أصلا، لا كالرضاع ولا كالزنى، وتعد هى كأنها حاضنة، وإنما ينسب إلى أبويه صاحبى النطفة والبويضة؟

نحن ننتظر نتائج بحث الفقهاء، وحسبى أننى أثرت هذه التساؤلات المفصلة، وإن كان الأشبه عندى - بصفة مؤقتة - أن يعطى الولد حكم الرضيع فقط، ويعطى حكم اللقيط بالنسبة إلى أبويه، وحكم التلقيح بالنسبة إلى زوجها. على أن يكون وضع البويضة فى رحمها حراما، لما ينجم عنه من التنازع والاختلاف والآثار الأخرى.

اللواط :

اللواط هو إتيان الذكر للذكر، وأول من فعله هم قوم لوط، وذلك بنص قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وليس الصحيح ما زعمه بعضهم أنها كانت قبل قوم لوط، وأن الشيطان هو الذى دعا الناس إلى ذلك مع نفسه، فلا دليل عليه بعد هذه الآية.

وجاء فى حاشية الباجورى على شرح ابن قاسم فى فقه الشافعية أنه لم يعرف فى العرب فى الجاهلية ولا فى الإسلام حتى كثر الغزو والسبى فى الإسلام فظهر أول ما ظهر فى خراسان فكانوا يستعملون الأسرى كالنساء وفشا فيهم.

وقد وردت نصوص تبين شناعة هذه الفعلة المنكرة، فسامها الله فاحشة قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] كما سُمى الزنى فاحشة فى قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]

ووصفها بالخبث فقال: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]. فى مقابل وصف الزواج بالنساء بالطهر ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]

ووصف فاعليها بأوصاف قبيحة، فهم قوم سوء فاسقون كما فى هذه الآية، وهم قوم عادون أى متجاوزو الحدود المعقولة المشروعة فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ... أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَدْرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٠ - ١٦٦]، كما وصفهم بأنهم مسرفون فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، كما وصفهم بأنهم يجهلون فقال: ﴿أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ

الرِّجَالِ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ [النمل: ٥٥] لجهلهم
شناعة هذا العمل دنيا وأخرى.

وكان جزاء هؤلاء القوم الذين فسدت فطرهم فتركوا الحرث الطاهر المنتج،
وهو النساء، إلى الخبيث الذى لا يرجى منه نسل ولا انتاج وهو الذكور، ونزع
منهم الحياء حتى تعاطوا هذا المنكر علنا وهم يبصرون كما تدل عليه آية النمل
المتقدمة رقم ٥٤، وَحَتَّىٰ حَاوَلُوا الْاِعْتِدَاءَ عَلَيِ الْمَلَائِكَةِ ضَيُوفِ لُوطٍ ﴿٦٨﴾ قَالَ إِنَّ
هَؤُلَاءِ ضَيُفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ ﴿٦٩﴾ [الحجر: ٦٨، ٦٩] -
كان جزاء هذا العمل عقابا شديدا سماه الله رجزا ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤]. فأخذهم الله
بصيحة دمرت قريتهم المؤتفكة فجعلت عاليها سافلها، وأرسل عليها حاصبا
رجمتهم بحجارة من سجيل، وجعلتهم عبرة لمن بعدهم، وهدد الله كل من
يعمل عملهم بأخذهم بالشدة ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ [انظر الآيات رقم:
٧٣، ٧٤ من سورة الحجر، ٨٢، ٨٣ من سورة هود، ٣٤ من سورة القمر].

والحاصب ريح عاصف فيها حصباء، والسجيل الطين المحرق، أى الآجر،
وهى كلمة معربة من سنك كل كما قال جمهور المفسرين.

وإلى جانب هذه الآيات وردت أحاديث كثيرة تنفر من هذا العمل، ومن
أحسن الأحاديث المقبولة قوله عليه الصلاة والسلام.. «لعن الله من عمل عمل
قوم لوط» ثلاث مرات، فى ضمن حديث رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى
والنسائى عن ابن عباس. وقوله: «إن أخوف ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط»
رواه ابن ماجه عن جابر، ورواه الترمذى وقال عنه: حسن غريب، ورواه الحاكم
وقال: صحيح الإسناد. وقوله أيضا: «لا ينظر الله عز وجل إلى رجل أتى رجلا أو
امراة فى دبرها» رواه الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه عن ابن عباس.
وقوله: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» رواه أبو
داود والترمذى وابن ماجه والبيهقى كلهم من رواية عمرو بن أبى عمرو عن

عكرمة عن ابن عباس، وعمرو هذا قد احتج به الشيخان وغيرهما، وقال ابن معين: ثقة ينكر عليه عكرمة عن ابن عباس، يعنى هذا الحديث^(١) إلى غير ذلك من الأحاديث الضعيفة، التي سنورد بعضها عند الحديث عن السحاق.

من واقع هذه النصوص عرفنا أن اللواط محرم تحريماً قاطعاً وهو من الكبائر التي استحقت أن ينكل الله بمن فعلها ويجعلهم عبرة لغيرهم. وتحريمه مما علم من الدين بالضرورة ويكفر جاحده. وكانت علة تحريمه ما سبق ذكره من الأوصاف الواردة في النصوص، حيث إنه أمر غير طبيعي أن يترك الرجل المرأة التي جعلها الله حرثاً طبيعياً للانتاج، ومكاناً طاهراً لقضاء الشهوة، وسكناً للنفس، كما قال الله عند خلق حواء لآدم، يتركها إلى القذارة والعقم وما يوجب النفور.

ومن أجل هذا وضع الله له عقاباً يناسبه لينفر الناس من الإقدام عليه، ويزجر مرتكبه أن يعاوده، وإلى جانب النصوص المذكورة ورد قوله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦]، حيث قال ابن بحر فيها: أن المراد بها اللواطون، كما يراد بآية ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِّنْكُمْ...﴾ وهي السابقة عليها، السحاقيات، ويراد بآية سورة النور ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي...﴾ الزناة^(١).

كما وردت آثار منها عن ابن عباس في البكر يوجد على اللوطية قال: يرحم. رواه أبو داود والنسائي والدارقطني، ومنها عن أبي بكر أنه حرق رجلاً يسمى «الفجاءة» بالنار حين عمل قوم لوط.

ولهذا اختلف الفقهاء في حكم مرتكب هذه الجريمة، وسألخص أقوالهم مما ذكره القرطبي في تفسيره لسورة الأعراف عند ذكر قوم لوط، ومن قول البغوي الذي أورده الحافظ المنذرى في كتابه الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١٨ ومن نيل الأوطار للشوكاني ج ٧ ص ١٢٢ - ١٢٤ فأقول:

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ١١٦ - ١١٩ وقال ابن القيم عن هذا الحديث: رواه أصحاب السنن الأربعة وإسناده صحيح وحسنه الترمذى «زاد المعاد ج ٢ ص ٢٠٩».

(٢) تفسير النسفى سورة النساء.

(أ) مذهب الإمام مالك أنه يرمم، سواء أكان محصنا أى سبق له الزواج أم غير محصن أى بكرا، وكذلك يرمم المفعول به إن كان محتلما أى بالغا مكلفا، وهو قول أحمد وإسحق، وروى حماد بن إبراهيم عن إبراهيم - يعنى النخعى - قال: لو كان أحد يستقيم أن يرمم مرتين لرمم اللوطى، وهو قول آخر للشافعى. وهو مروى عن سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس، وروى عن الشعبي، وبه قال الزهرى.

وحجة أصحاب هذا الرأى قوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر: ٧٤]، حيث كان حكم الرجم شاملا لهم جميعا لا فرق بين محصن وغير محصن، ولا فاعل ولا مفعول به، وكذلك من حجتهم حديث « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » وقد تقدم، وجاء فى رواية الترمذى له « أحصنا أو لم يحصنا » وقد عرفت أن الحديث مناقش ولا يحتج به فى الحدود للاحتياط فيها.

قال القرطبى فى تفسيره: روى عن مالك أيضا يرمم إن كان محصنا، ويحبس ويؤدب إن كان غير محصن، وهو مذهب عطاء والنخعى وابن المسيب وغيرهم.

وفى تفسير القرطبى: قال ابن العربى: والذى صار إليه مالك أحق فهو أصح سندا وأقوى معتمدا. والذين قالوا بقتله اختلفوا فى كيفية القتل، فروى عن على بالسيف ثم يحرق، وإليه ذهب أبو بكر، وذهب عمر وعثمان إلى إنه يلقى عليه حائط، وذهب ابن عباس إلى إنه يلقى من أعلى بناء فى البلد فيرمى به منكسا ثم يتبع بالحجارة « نيل الأوطار للشوكانى ».

(ب) مذهب أبى حنيفة أنه يعزر ولا يحد، استنادا لآية ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنكُمْ فَادُّوهُمَا ﴾ والإيداء لا يبلغ حد الرجم، وسواء فى ذلك المحصن وغيره. قال القرطبى فى تفسيره شارحا هذا الرأى: وتعلق الحنفىون بأن قالوا: عقوبة الرنى معلومة، فلما كانت هذه المعصية غيرها وجب ألا يشاركها فى حدها، ويأثرون

فى هذا حديثا «من وضع حدا فى غير حد فقد تعدى وظلم» وأيضا فإنه وطاء فى فرج لا يتعلق به إحلال ولا إحصان ولا وجوب مهر ولا ثبوت نسب، فلم يتعلق به حد .

ثم قال القرطبى : وروى عن مالك . قال الشوكانى : وهذا مخالف للأدلة المذكورة فى خصوص اللوطى وفى عموم الزنى .

(ج) ومذهب الشافعى فى اللواط أنه مثل الزنى فيرجم المحصن، أما غير المحصن فيجلد مائة جلدة . قال البغوى : وهو قول سعيد بن المسيب وعطاء بن أبى رباح والحسن وقتادة والنخعى، وبه قال الثورى والأوزاعى، ويحكى أيضا عن أبى يوسف ومحمد بن الحسن (وهما من أصحاب أبى حنيفة) . ثم قال البغوى : وعلى المفعول به عند الشافعى على هذا القول جلد مائة وتغريب عام، رجلا كان أو امرأة . محصنا كان أو غير محصن .

ومما يؤيد مذهب الشافعى ما ذكره القرطبى فى تفسير سورة الأعراف أنه روى أن سبعة أخذوا فى زمن ابن الزبير فى لواط، فسأل عنهم فوجد أربعة قد أحصنوا . فأمر بهم فخرجوا بهم عن الحرم فرجموا بالحجارة حتى ماتوا، وحد الثلاثة، وعنده ابن عباس وابن عمر فلم ينكرا عليه . ثم قال القرطبى : وإلى هذا ذهب الشافعى . وحجة هذا الراى أن اللواط نوع من الزنى لأنه إيلاج فرج فى فرج، فيكون اللائط والملوط به داخلين تحت عموم الأدلة الواردة فى الزانى المحصن والبكر . ويؤيده حديث «إذا أتى الرجل الرجل» وعلى فرض عدم شمول الأدلة المذكورة له فهو لاحق بالزنى بالقياس، وقد يقال إن الأدلة الواردة فى قتل الفاعل والمفعول مخصصة بعموم أدلة الزنى الفارقة بين البكر والمحصن .

(د) أما الإمام أحمد فمذهبه كمذهب الإمام مالك، كما ذكره البغوى .

قال الحافظ المنذرى : حرق اللوطية بالنار أربعة من الخلفاء : أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن الزبير وهشام بن عبد الملك .

وذكر المنذرى أن ابن أبي الدنيا زوى، ومن طريقه البيهقى، بإسناد جيد عن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر الصديق أنه وجد رجلا فى بعض ضواحي العرب ينكح كما تنكح المرأة، فجمع لذلك أبو بكر أصحاب رسول الله ﷺ واستشارهم، وفيهم على بن أبي طالب، فقال على: إن هذا ذنب لم تعمل به أمة إلا أمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمتم، أرى أن نحرقه بالنار، فاجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ أن يحرق بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد ابن الوليد أن يحرقه بالنار، فأحرقه^(١). وقال القرطبي: ثم أحرقهم ابن الزبير فى زمانه، ثم أحرقهم هشام بن عبد الملك، ثم أحرقهم خالد القسرى بالعراق.

وعند الشيعة الإمامية يقتل الفاعل والمفعول إذا كان بالغا عاقلا، والإمام مخير فى الموقب بين قتله ورجمه وإلقائه من جدار وإحراقه. ومن لم يوقب فحده مائة على الأصح ولو تكرر مع الحد قتل فى الرابعة على الأشبه. (المختصر النافع للحلى ص ٢١٨).

وعندهم لو فجر بسلام أو رجل حرم عليه أمه وأخته وبنته. لا فرق فى الفاعل والمفعول به بين الصغير والكبير «الدين بين السائل والمجيب للاحقافى ص ٥٨» الموقب = المولج، وقب الشيء أى دخل وأوقبه، أى أدخله فى الوقب وهو كل نقر أو ثغرة فى الجسد، ويقال امرأة: ميقاب أى واسعة الفرج، ورجل موقاب أى كثير شرب النبيذ «لسان العرب».

هذا هو اللواط فى نظر الشرع، فعل شاذ وعقوبته صارمة. ونهايته أليمة، نرجو أن تقف الحكومات الإسلامية موقف الحزم ممن تحدثهم أنفسهم به، فإذا فشا فى جماعة يخشى أن يحل بها ما حل بقوم لوط «وما هى من الظالمين ببعيد» وشذوذ الغرب فى هذا الأمر مشهور ذكرت صوراً منه فى بحث الحجاب.

(١) روى حديث أبى بكر فى حرق اللوطى: البيهقى وفى إسناده إرسال وروى من وجه آخر عن على فى غير هذه القصة (نيل الأوطار).

السحاق :

هو ممارسة العملية الجنسية بين المرأة والمرأة، كما أن اللواط ممارستها بين الرجل والرجل، قال الأصبهاني في كتابه محاضرات الأدباء^(١) : أول من سنت السحاق ابنة الحسن اليماني، هويت امرأة النعمان بن المنذر، وكانت قد وفدت عليها، فأنزلتها وشغفت بها، فلم تزل تزين لها ذلك وقالت : في اجتماعنا أمن من الفضيحة وإدراك للشهوة . فاجتمعتا، وبلغ من شغف كل واحدة بالأخرى أنه لما ماتت ابنة الحسن اعتكفت هند امرأة النعمان على قبرها، واتخذت الدير المعروف بها في طريق الكوفة، وفيها يقول الفرزدق :

وفيت بعهد كان منك تكريما كما لابنة الحسن اليماني وفيت هند

وقد جاء قول الله تعالى ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٥] وقد حملها ابن بحر على السحاقيات كما مر ذكره، كما وردت أحاديث تنعى على هذه العملية، من أقواها ما رواه واثلة ابن الأسقع عن النبي ﷺ « سحاق النساء زنى بينهن » رواه أبو يعلى، وضعف البوصيرى سنده لتدليس الوليد بن مسلم، وله شاهد من حديث أبي موسى^(٢) . وروى البيهقي بسند ضعيف عن أبي موسى حديث « إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان » وقيل : إن الحديث منكر^(٣) وروى البيهقي عن أنس عن النبي ﷺ « إذا استحلّت أمتي خمسا فعليهم الدمار، إذا ظهر التلاعن، وشربوا الخمر، ولبسوا الحرير، واتخذوا القيان -

(١) ج ٢ ص ١٦٤ .

(٢) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر ج ٢ ص ١١٥ .

(٣) جمع الجوامع ، طبع مجمع البحوث بالأزهر، الجزء الأول ص ٣٠٨ . وكذلك في نيل

الأوطار للشوكاني .

المغنيات - واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء»^(١) وأخرج أبو داود والنسائي عن أبي الحصين الهيثم قال: سمعت أبا ريحانة يقول: «نهى رسول الله ﷺ عن عشرة.... وعن مكامعة المرأة المرأة بغير شعار»^(٢) والكامعة هي أن يجتمع الرجلان أو المرأتان في إزار واحد لا حاجز بينهما.

ولهذه النصوص وغيرها حكم العلماء بعدم جواز هذا العمل، لأنه يدخل ضمن قوله تعالى ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ووجه بعضهم المنع بأن الإسلام إذا كان قد نهى عن اجتماع الرجلين أو المرأتين في إزار واحد فإن النهى عن ممارسة العملية الجنسية أولى، وجاء في كتاب معجم المغني لابن قدامة^(٣): إن تداكت امرأتان فهما زانيتان ملعونتان، ولا حد عليهما وعليهما التعزير. وعند الشيعة الإمامية يحد في السحاق مائة جلدة حرة كانت أو أمة محصنة كانت أو غير محصنة، للفاعلة والمفعولة. وجاء في كتاب «النهاية» ترجم مع الأحصان وتقتل المساحقة في الرابعة مع تكرار الحد ثلاثا، ويعزر المجتمعتان تحت إزار واحد مجردتين، ولو تكرر مرتين مع التعزير أقيم عليهما الحد في الثالثة، ولو عادتا قال في النهاية: قتلتا. (المختصر النافع في فقه الإمامية ص ٢١٨، ٢١٩) وجاء فيه عن القيادة أى الجمع بين الرجال والنساء للزنى، أو الرجال والصبيان للواط: الحد فيه خمس وسبعون جلدة، وقيل يحلق رأسه ويشهر، وينفى بأول مرة (انظر شعر أبي العتاهية في ترجمته في الأغاني).

الاستمناء:

استخراج المنى بغير طريق الجماع يسميه أهل العراق - كما يقول القرطبي - استمناء، وهو استفعال من المنى، ويسمى أيضا الخضخضة التي هي تحريك الماء للنزول، ويسمى «جلد عميرة» بالتصغير أو عمرة بدون تصغير، وأبو عمير كنية الفرغ كما في لسان العرب، قال القرطبي: سمي جلد عميرة لقول الشاعر:

(١، ٢) حسن الأسوة ص ٢٥٥.

(٣) ص ٤٦٢ طبعة أوقاف الكويت.

إذا حلت بأرض لا أنيس بها فأجلد عميرة لاداء ولا حرج

وقد تحدث العلماء عن حكم هذه العملية التي يستخرج بها المنى بذلك الذكر باليد أو بأية وسيلة أخرى، تحدثوا عنها في كتب التفسير والفقهاء، وبين حكمها الزبيدي في شرحه للإحياء، كما أورد فيها الشعراني في كشف الغمة بعض الآثار، وتعرض لها سيدي أحمد زروق في شرح الرسالة القيروانية، وأفردها بكتيب السيد عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري الحسني، وتكلم عنها ابن القيم في كتابه «بدائع الفوائد» وكل هؤلاء تحدثوا عن حكمها استنتاجاً من قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧]، وبناء على الأحاديث التي وردت في النهي عنها، والآثار التي وردت عن السلف فيها.

أما الأحاديث التي وردت في لعن من نكح يده فليس فيها حديث مقبول، وقال بعض العلماء: ليس في هذه الأحاديث ما يساوي سماعه، فلا داعي لذكرها.

ومن الآثار الواردة أن ابن عباس جاءه شاب جميل الوجه فقال له: إني شاب وأجد غلظة شديدة - أي شوقاً شديداً للجماع فأدلك ذكري حتى أنزل، فقال له: نكاح الأمة خير منه وهو خير من الزنى. «إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٧ وكشف الغمة ج ٢ ص ١٣٢».

وقال الحسن البصري: إنما هو مأوك فأرقه^(١). وقال: كانوا يفعلونه في المغازي. وقال العلاء بن زياد: لا بأس بذلك قد كنا نفعله في مغازينا^(٢). وقال أنس بن مالك: ملعون من فعل ذلك^(٣). وقال مجاهد: كانوا يعلمونه صبيانهم فيستعفوا به عن الزنى^(٤).

(٤، ١) شرح الرسالة القيروانية، نقل الزبيدي في شرح الأحياء.

(٣، ٢) اختلاف الفقهاء للطبري، نقل الزبيدي في شرح الأحياء.

ومن الآية والأقوال الماثورة التي لا يطمأن لسندها والتي تدور بين الحظر والإباحة اختلف الفقهاء على النحو التالي:

١ - قال الشافعية والمالكية: إنه حرام، استنادا للآية المذكورة. حيث أن المستمنى عادٍ بفعله عن هذين المنفذين الحلالين، الأزواج وما ملكت الأيمان. وحكاية بعض الناس لجوازه عند الشافعي باطلة « شرح الزبيدي للأحياء ».

٢ - وقال الأحناف: إنه حرام إذا كان لاستجلاب الشهوة، أما إذا غلبته ولم تكن له زوجة فاستمنى بقصد التسكين لشهوته فالرجا ألا يكون مؤاخذا ولا آثما « المرجع السابق » ويجب الاستمناء عنده إذا خيف الوقوع فى الزنى بدونه « التشريع الجنائى لعبد القادر عودة ج ٢ ص ٣٦ وما بعدها ».

٣ - وقال الحنابلة: إنه حرام الا للحاجة، فهو كالفصد، أى إخراج الدم عند الحاجة، فهو جائز إذا خاف الزنى أو خاف على صحته إذا لم تكن له زرجة ولا أمة ولم يقدر على الزواج. ولشيوع القول بجوازه عند الحنابلة أنقل بعض ما قاله علماءهم فيه. قال ابن قدامة فى المغنى^(١): من استمنى بيده فقد ارتكب محرما.

وقال ابن القيم فى بدائع الفوائد « ج ٢ ص ٩٦ »: إذا قدر الرجل على الزواج أو الترسى حرم عليه الاستمناء، قال ابن عقيل: أصحابنا وشيوخنا لم يذكروا سوى الكراهة لم يطلقوا التحريم.

قال: وإن لم يقدر على زوجة ولا سرية ولا شهوة له تحمله على الزنى حرم عليه الاستمناء، لأنه استمتاع بنفسه، والآية تمنع منه، وإن كان متردد الحال بين الفتور والشهوة ولا زوجة له ولا أمة ولا ما يتزوج به كره ولم يحرم، وإن كان مغلوبا على شهوته يخاف العنت كالأسير والمسافر والفقير جاز له ذلك. نص عليه أحمد، وروى أن الصحابة كانوا يفعلونه فى غزواتهم وأسفارهم، وإن كانت

(١) ص ٦٤ معجم المغنى طبعة أوقاف الكويت.

امرأة لا زوج لها واشتدت غلمتها فقال بعض أصحابنا: يجوز لها اتخاذ «الكرنج» وهو شئ يعمل من جلود على صورة ذكر فتدخله المرأة أو ما أشبه ذلك من قثاء وقرع صغار، قال: والصحيح عندي أنه لا يباح. لأن النبي ﷺ إنما أرشد صاحب الشهوة إذا عجز عن الزواج إلى الصوم. ولو كان هناك مغنى غيره لذكره. ثم استطرد وقال:

وإذا انتهى وصور في نفسه شخصا أو دعا باسمه فإن كان زوجة أو أمة له فلا بأس إذا كان غائبا عنها، لأن الفعل جائز، ولا يمنع من تخيله وتوهمه، وإن كان غلاما أو أجنبية كره له ذلك، لأنه إغراء، لنفسه بالحرام وحث لها عليه.

وإن قور بطيخة أو عجينا أو اديما أو نجش^(١) في صنم أو ما إليه فأولج فيه فعلى ما قدمنا من التفصيل. قلت: وهو أسهل من استمنائه بيده.

وفى الفصول: روى عن أحمد في رجل خاف أن تنشق مثانته من الشبق أو تنشق أنثياه لحبس الماء في زمن رمضان، أن يستخرج الماء، ولم يذكر بأى شئ يستخرجه. قال: وعندي أن يستخرجه بما لا يفسد صوم غيره، كاستمنائه بيده أو يد زوجته أو أمته غير الصائمة. فإن كانت أمته طفلة أو صغيرة استمنى بيدها، وكذلك الكافرة، ويجوز وطؤها فيما دون الفرج، فإن أراد الوطء في الفرج مع إمكان أخراج الماء بغيره فعندي أنه لا يجوز، لأن الضرورة إذا رفعت حرم ما وراءها كالشبع من الميتة، بل هاهنا أكد، لأن باب الفروج أكد في الحظر من الأكل. قلت: وظاهر كلام أحمد جواز الوطء لأنه أباح له الفطر والإطعام، فلو اتفق مثل هذا في الحيض لم يجز الوطء قولا واحدا. اهـ.

ولما تكلم ابن العربي في أحكام القرآن على آية «فمن ابتغى وراء ذلك...» ذكر مذهب الإمام أحمد ثم قال: وهذا من الخلاف الذي لا يجوز العمل به، ولعمري لو كان فيه نص بالجواز أكان ذو همة يرضاه لنفسه؟ وما يذكر فيه من الأحاديث ليس فيها ما يساوى سماعه (شرح الزبيدي للإحياء).

(١) النجش هو الاستثارة، وأصله البحث وأستخراج الشئ «لسان العرب».

٤ - وقال الشيعة: إنه ليس بحرام «أنظر شرح الزبيدي لإحياء علوم الدين».

لكن جاء في المختصر النافع في فقه الإمامية تأليف الحلبي طبع الأوقاف المصرية ص ٢٢٧: ومن استمنى بيده عزز بما يراه الإمام. ولعل الذين يحلون طائفة منهم قال عنهم أحمد زروق في الرسالة: إنهم الرافضة.

٥ - ويرى ابن حزم أنه مكروه. لأن مس الرجل ذكره بشئ له مباح بالإجماع، فإذاً هو مباح، فليس هناك زيادة على المباح إلا التعمد لنزول المنى وليس ذلك حراماً أصلاً. قال تعالى ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩] وليس هذا مما فصل لنا تحريمه فهو حلال.

ويقول ابن حزم: إنه مكروه، ولكن ليس لوجود دليل خاص بكرهيته، بل لأنه ليس من مكارم الأخلاق، وروى لنا أن ممن كرهه ابن عمر وعطاء، وممن أباحه ابن عباس والحسن.

وقال المجوزون له: إن تحريم الشئ وتحليله لا يثبت إلا بحجة ثابتة يجب التسليم بها، وليس في هذا حجة تحرمه.

بعد عرض هذه الأقوال، رأينا أن أكثرها لا يجيزه إلا الحاجة، وإن لم يكن له دليل ثابت فإن مكارم الأخلاق تنفر منه، قال القرطبي في تفسير سورة [المؤمنون]: وأحمد بن حنبل على ورعه يجوزه ويحتج بأنه إخراج فضلة من البدن فجاز عند الحاجة، أصله الفصد والحجامة. وعامة العلماء على تحريمه.

وقد نشر الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق في مجلة الأزهر مجلد ٤٣ عدد محرم ١٣٩١ ص ٩١ - نشر فتوى عن الاستمناء وانتهى فيها إلى قوله: ومن هذا يظهر أن جمهور الأئمة يرون تحريم الاستمناء باليد، ويؤيدهم في ذلك ما فيه من ضرر بالغ بالأعصاب والقوى والعقول، وذلك يوجب التحريم، والمروى عن أحمد بن حنبل وعن الحنفية جوازه عند الحاجة وللضرورة القصوى فيكون من باب: ارتكاب أخف الضررين.

هذا وبعض الأطباء يرى أنه لا بأس به على الصحة، فهو إفراز كسائر

الأفرازات التي يتخلص منها الجسم وحبسها يضره، ثم قالوا: إن كان فيه ضرر فهو ضرر نفسى من شعور فاعله بالإثم لما سمع من نكران الدين له، أو لما يراه فى نفسه من العجز عن تكوين أسرة بالزواج، فالضرر نفسى لا غير، وإذا كان هناك ضرر بدنى فهو ناتج من حالته النفسية، أو من الإفراط فى هذه العملية، فإنها كالجماع إذا أفرط فيه أورث الخمول الجسمى والعقلى وأضعف بعض الحواس، وبخاصة أن اللذة بالاستمناء لا تستكمل كالجماع الطبيعى، وذلك له آثاره ولا شك.

وعلى القول بتحريم هذه العملية، فإن الحرمة صغيرة من الصغائر نرجو أن تكفر بعمل الحسنات، قال تعالى ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: ١١٤] كما اختاره البلالى فى كتابه «مختصر الإحياء»^(١) مع التنبيه على أن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة من الكبائر، فليحذر أولئك الذين يداومون عليها ولا يبالون بخطرها الصحى والدينى.

هذا وقد علمت من كلام «بدائع الفوائد» أن حكم المرأة فى ممارسة هذه العملية كحكم الرجل سواء بسواء.

ولتلافى الوقوع فيها وتجنب أخطارها يحسن التبكير بالزواج عند عدم المانع منه، والإكثار من صيام التطوع، والابتعاد عن المثيرات الجنسية، وملء الفراغ بما ينفع لصرف التفكير عنه، واختيار الرفقة الصالحة، والأخذ بالتعاليم الطبية للحد من جموع الشهوة كالإكثار من الحمامات الباردة صيفا، ومن الألعاب الرياضية، وتجنب الأطعمة المحتوية، على ما يهيج كالبهارات، والإقلال من المنبهات كالقهوة ومن اللحوم الحمراء والبيضاء، وعدم النوم على الظهر أو البطن. إلى جانب استشعار خوف الله سبحانه.

(١) شرح الزبيدى للإحياء

إتيان البهيمة :

مما حرمه الله على الإنسان حتى لا يزهد فى الزواج، إتيان البهائم أو الأتصال بها، على أى نحو من الانحاء، يستوى فى ذلك الرجل والمرأة.

وقد أجمع العلماء على حرمة، لدخوله تحت عموم قوله تعالى ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ على نحو ما فسروا به الآية فيما سبق. ولورود أحاديث تنهى عن هذا العمل وترتب عليه عقوبة.

روى أبو داود والدارقطنى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة معه » والسند الذى روى به هذا الحديث هو سند حديث « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » وقد تقدم الكلام عليه.

وروى البيهقى عن مفضل بن فضالة عن ابن جريج عن عكرمة عن النبى ﷺ « اقتلوا الفاعل والمفعول به والذى يأتى البهيمة ».

وهذا الحديث من كلام البغوى الذى ذكره الحافظ المنذرى فى كتابه « الترغيب والترهيب » ج ٣ ص ١١٨ ولم يتعرض للحكم عليه.

والحديث الأول قال عنه الخطابى : إنه معارض بالنهى عن قتل الحيوان إلا لآكله، لكن تفسير ابن عباس للسرفى قتله يدفع هذا التعارض ويجعل الحديث مخصوصا، فقد سئل ابن عباس : ما شأن البهيمة؟ قال : ما أراه قال ذلك إلا أنه يكره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل.

قال ابن المنذر : إن يك الحديث، أى حديث ابن عباس ثابتا فالقول به يجب، وإن لم يثبت فليستغفر الله من فعل ذلك كثيرا، وإن عززه الحاكم كان حسنا.

وإزاء هذه المآثورات اختلف العلماء فى حكم هذا العمل، وسألخص أقوالهم

مما ذكره القرطبي في تفسير سورة «المؤمنون» ومما قاله الشوكاني في كتابه «نيل الأوطار»^(١)، وذلك فيما يلي:

١ - قيل يقتل الفاعل هو والبهيمة أى تذبح، وحجة هذا القول الحديثان المذكوران، والسرفى ذبح البهيمة مع أنها غير مكلفة ذكره القرطبي بقوله: لثلا تلقى خلقا مشوها. أى تلد مخلوقا عجيبا، فيكون قتلها مصلحة.

وحكى ابن المنذر هذا القول عن أبى سلمة عبد الرحمن، وهو قول للشافعى.

٢ - وقيل: لا يقتل هو ولا البهيمة، أما عدم ذبح البهيمة فرمما يكون سنده النهى عن ذبح الحيوان إلا لأكله، كما قال الخطابى، وقد تقدم الكلام عليه.

والذين قالوا بعدم قتل الفاعل اختلفوا فى جزائه على النحو التالى:

(أ) قيل: يحد حد الزنى، وهو مائة جلدة سواء أحسن أم لم يحسن، لإلحاق هذا العمل بالزنى فهو فى فرج محرم شرعا ومشتهى طبعاً، قال الزهرى: يجلد مائة أحسن أو لم يحسن، وقال الحسن: هو بمنزلة الزانى.

وعلى هذا القول أبو يوسف والإمام الشافعى فى قول له. وقال جابر بن زيد: يقام عليه الحد إلا أن تكون البهيمة له.

(ب) والقول الثانى هو التعزير، أى إيقاع عقوبة عليه لا تصل إلى الحد، وسند هذا القول ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال: ليس على الذى زنى بالبهيمة حد. قال أبو داود: وكذا قال عطاء، وقال الحكم: أرى أن يجلد ولا يبلغ به الحد، وهو قول النخعى. وعلى هذا القول أبو حنيفة، وأصحاب الرأى، ومالك وأحمد، والثورى، والشافعى فى قول آخر له. وهؤلاء منعوا الحد بحجة أن هذا العمل ليس بزنى، ولا يصح أن يلحق به.

هذا هو الحكم فى الفاعل، وأما البهيمة فإن الجمهور على ذبحها حتى لو

(١) نيل الأوطار ج ٧ ص ١٢٤ - ١٢٦.

كانت غير مأكولة اللحم خشية أن تأتي بمخلوق مشوه، وحتى لا تكون فضيحة الفاعل بها متكررة ما دامت البهيمة بين الناس. أما حكم الأكل من لحمها، ففيه قول بالتحريم، وهو مروى عن الإمام على، واختاره الشافعى فى قول له، وفيه قول بكراهة التنزيه، واختاره أبو حنيفة وأبو يوسف والشافعى فى قول آخر، وذهبت إليه القاسمية.

هذا. وجاء فى كتاب «المختصر النافع فى فقه الإمامية تأليف الحلى ص ٢٢٧ طبعة الأوقاف المصرية» ما يأتى: إذا وطئ البالغ العاقل بهيمة مأكولة اللحم كالشاة والبقرة حرم لحمها ولحم نسلها، ولو كان المهم - المقصود منها - ما يركب ظهرها لا لحمها كالبعغل والحمار، أغرم ثمنها إن لم تكن له وأخرجت إلى غير بلده، ويعزر الواطئ، ولو تكرر الوطاء مع التعزير ثلاثا قتل فى الرابعة. ومما تحكيه كتب الأدب أن بنى فزارة كانوا يرمون بإتيان الإبل، فقال فيهم ابن دارة:

لا تأمن فـزاريا خلوت به على قلو صك و اكتبها بأسيار
لا تأمننه ولا تأمن بوائقه بعد الذى امتل أير العير فى النار
أطعتم الضيف غرمولا مخاتلة فلا سقاكم إلهى الخالق البارى

(من شرح السهيلي لسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٨، حياة الحيوان الكبرى للدميرى).

وأصل ذلك أن فزاريا وتغلبيا وكلبيا اشتوا فى سفر حمار وحش فغاب الفزارى فى بعض حاجاته فأكل صاحباة العير وخبأ له غرموله، أى ذكره، فلما حضر قدماه إليه فجعل يأكل ولا يسيغه وهما يضحكان فاخترط سيفه وهددهما إن لم يخبراه الخبر، فأبى أحدهما فأطاح برأسه، وكان أسمه «مرقمه» فقال صاحبه: طاح مرقمه، فقال الفزارى: وأنت إن لم تلقمه، وقد عيرت فزارة بهذا حتى قال فيهم سالم بن دارة هذا الشعر، «من كتاب الأمثال للأصبهاني».

والقلوص من النوق هي الشابة بمنزلة الجارية من النساء، والمراد بكتابتها
بالأسيار خياطة فروعها، حتى لا يتمكن الفزارى من إتيانها وأمتل أى أدخل فى
الملة وهي الرماد الحار.

وكانت نمير من القبائل التي تهجى، فقال فيهم جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فحدث أن شريك بن عبد الله النميرى ساير يزيد بن عمر بن هبيرة
الفزارى، فبرزت، أى سبقت، بغلة شريك، فقال له يزيد: غض من لجامها، فقال
له: إنها مكتوبة، أصلح الله الأمير، فضحك وقال: ما ذهبت حيث أردت، وإنما
عرض بقوله: غض من لجامها بقول جرير: فغض الطرف إنك من نمير..... فعرض
له شريك بقول ابن داره:..... واكتبها بأسيار^(١).

* * *

الاستنساخ:

ظهر أخيرا ما يعرف بلاستنساخ لتحسين النوع أو لكثرتة، وسنتكلم عليه
إن شاء الله فى الجزء الرابع.

* * *

(١) زهر الآداب للحصرى ج ١ ص ٢١ طبعة الحلبي تحقيق على محمد البجاوى.

الفصل الخامس

حكم الزواج

سنتكلم فى هذا الفصل عن ثلاث نقط، الأولى عن لفظ النكاح وإطلاقه على العقد أو الوطء، وعن موقع النكاح من الحكم التكليفى، وعن الأولوية بينه وبين الفرائض الأخرى.

١ - لفظ النكاح يطلق ويراد به أحيانا العقد على الزوجة، ويراد به أحيانا أخرى الاتصال الجنسى أى الوطء، فهل إطلاقه على المعنيين إطلاق متساو، أو فيه تفاوت بين أحدهما والآخر، من جهة الحقيقة والمجاز؟ وتحديد المراد من لفظ النكاح له أهميته فى تصور الموضوع وبالتالي فى حمل الحكم عليه، فالتصديق فرع التصور كما يقول أهل الفن المنطقى، وأحسن خلاصة فى هذا الموضوع ما قاله النووى فى شرحه لصحيح مسلم^(١) ولهذا سأكتفى بإيراد ما قاله مع بعض التصرف.

فالنكاح فى اللغة هو الضم، ويطلق على العقد وعلى الوطء... قال الأزهرى: أصل النكاح فى كلام العرب الوطء، وقيل للتزويج نكاح لأنه سبب الوطء... قال الواحدى: وقال أبو القاسم الزجاجى: النكاح فى كلام العرب الوطء والعقد جميعا، قال: وموضع (نكح) على هذا الترتيب فى كلام العرب للزوم الشئ الشئ راكبا عليه. هذا كلام العرب الصحيح. فإذا قالوا: نكح فلان فلانة ينكحها نكحا ونكاحا أرادوا تزويجها.

وقال أبو على الفارسي: فرقت العرب بينهما فرقا لطيفا، فإذا قالوا: نكح فلان بنت فلان أو أخته أرادوا العقد عليها، وإذا قالوا: نكح امرأته أو زوجته لم يريدوا إلا الوطء، لأن بذكر امرأته وزوجته يستغنى عن ذكر العقد.

(١) ج ٩ ص ١٧١.

قال الفراء: العرب تقول: نكح المرأة - بضم النون - بضعها، وهو كناية عن الفرج، فإذا قالوا: نكحها أرادوا أصاب نكحها وهو فرجها، وقل ما يقال: ناكحها كما يقال: باضعها. هذا آخر ما نقله الواحدى.

وقال ابن فارس والجوهري وغيرهما من أهل اللغة: النكاح الوطاء، وقد يكون العقد، ويقال: نكحتها ونكحت هى أى تزوجت، وأنكحته زوجته، وهى ناكح أى ذات زوج واستنكحها تزوجها، هذا كلام أهل اللغة.

وأما حقيقة النكاح عند الفقهاء ففيها ثلاثة أوجه لأصحابنا، حكاها القاضى حسين من أصحابنا فى تعليقه، أصحها أنها حقيقة فى العقد مجاز فى الوطاء، وهذا هو الذى صححه القاضى أبو الطيب، وأظن فى الاستدلال له، وبه قطع المتولى وغيره، وبه جاء القرآن العزيز والأحاديث. والثانى أنه حقيق فى الوطاء مجاز فى العقد، وبه قال أبو حنيفة، والثالث حقيقة فىهما بالاشتراك. والله أعلم.

٢ - الحكم الشرعى فى اصطلاح الأصوليين هو خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاء أو تخييراً أو وضعاً.

وفى اصطلاح الفقهاء هو الأثر المترتب على خطاب الشارع لا الخطاب نفسه، والحكم التكليفى بهذا الاعتبار يترك أثره على الفعل نفسه ويتصف به، وبهذا ينقسم إلى خمسة أقسام:

(أ) الواجب وهو ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه: كالصلاة، وطاعة الزوجة لزوجها.

(ب) الحرام، وهو ما يثاب على تركه ويعاقب على فعله، كالسرقة ونشوز المرأة.

(ج) المندوب، وهو ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه، ومثله المستحب والرغيبية والسنة. فى بعض معانيها، كصلاة النافلة وصوم التطوع، والتوسعة فى النفقة على الأهل.

(د) المكروه. وهو ما يثاب على تركه ولا يعاقب على فعله، كرفع البصر إلى السماء في أثناء الصلاة، وعبوس الزوجة في وجه زوجها، وإهماله في التزين لزوجته.

(هـ) المباح، وهو ما لا يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه، وما أكثر المباحات في حياة الإنسان، وبعبارة أخرى يمكن أن يقال:

الشيء إذا كان مطلوباً طلباً جازماً فهو الواجب، وإذا كان الطلب غير جازم فهو المندوب، فكلاهما مطلوب فعله ويختلفان في درجة الطلب.

وإذا كان منهيّاً عنه نهياً جازماً فهو الحرام، وإذا كان النهي غير جازم فهو المكروه. فكلاهما منهي عن فعله، ويختلفان في درجة النهي.

أما إذا استوى الطرفان أى طرف الطلب وطرف النهي فهو المباح.

أما الحكم الوضعي فينقسم متعلقه باعتبار أثر الخطاب إلى أقسام منها:

١ - السبب. وهو ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم لذاته كطلوع الفجر في رمضان لدخول وقت الصيام.

٢ - الشرط، وهو ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته. كالطهارة للصلاة.

٣ - المانع، وهو ما يلزم من وجوده العدم ولا يلزم من عدمه وجود ولا عدم لذاته. كالحيض في الصوم.

٤ - الصحيح وهو الفعل الذي يترتب أثره عليه شرعاً.

٥ - الفاسد وهو الفعل الذي لا يترتب أثره عليه شرعاً. ويرادفه الباطل عند بعض الأئمة.

إن معرفة هذه الاصطلاحات هامة. وستصادفك أحكام كثيرة في هذا البحث ستساعدك هذه الاصطلاحات على فهمها، وعلى معرفة مقدار قيامك بها، أو ممارستها.

وتطبيقا لذلك ما هو حكم النكاح؟

لقد تحدث العلماء عن هذا الموضوع واختلفت آراؤهم فيه، وكلهم داروا بالنكاح بين أكثر من حكم من هذه الأحكام، أى لم يقولوا: إنه واجب فقط فى كل الأحوال، أو مندوب فقط فى كل الأحوال، بل إنه تارة يكون واجبا وتارة يكون مندوبا، بل وقد يكون حراما كما سيأتى.

ولما كان لكل عالم طريقته فى عرض هذه الأحكام سأكتفى بنقل بعض الطرائق التى تمثل المذاهب الفقهية، وإليك البيان مع بعض التصرف:

أولا: ما قاله الإمام النووى وهو أحد أعلام الفقه الشافعى، فى شرحه لصحيح مسلم عند قول النبى ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج....»^(١) قال:

فى هذا الحديث الأمر بالنكاح لمن استطاعه وتاقت إليه نفسه، وهذا مجمع عليه، لكنه عندنا - الشافعية - وعند العلماء كافة أمر ندب لا إيجاب، فلا يلزمه التزوج ولا التسرى وهو وطء الأمة بملك اليمين.

سواء خاف العنت - الزنى - أم لا. هذا مذهب العلماء كافة، ولا يعلم أحد أوجهه، إلا داود ومن وافقه من أهل الظاهر. ورواية عن أحمد، فإنهم قالوا: يلزمه إذا خاف العنت أن يتزوج أو يتسرى. قالوا: وإنما يلزمه فى العمر مرة واحدة، ولم يشترط بعضهم خوف العنت.

قال أهل الظاهر: إنما يلزمه التزويج فقط - العقد - ولا يلزمه الوطء، وتعلقوا بظاهر الأمر فى هذا الحديث مع غيره من الأحاديث مع القرآن. قال الله تعالى ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وغيرها من الآيات.

واحتج الجمهور - أى القائلون بأنه مندوب - بقوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ..... أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فخيره سبحانه وتعالى بين

(١) ج ٩ ص ١٧٣، ١٧٤.

النكاح والتسرى، قال الإمام المازرى: هذا حجة للجمهور، لأنه سبحانه وتعالى خيره بين النكاح والتسرى بالاتفاق، ولو كان النكاح واجبا لما خيره بينه وبين التسرى، لأنه لا يصح عند الأصوليين التخيير بين واجب وغيره. لأنه يؤدي إلى إبطال حقيقة الواجب، وأن تاركه لا يكون آثما.

وأما قوله «فمن رغب عن سنتي فليس مني» فمعناه: من رغب عن سنتي إعراضا عنها غير معتقد ما هي عليه. والله أعلم. انتهى كلام النورى.

وبناء على ما اختاره من أن الأمر بالنكاح ليس للوجوب بل للندب تحدث عن المفاضلة بين فعله وبين تركه عند وجود ظروف تقتضى هذه المفاضلة، فقال:

أما الأفضل من النكاح وتركه، فقال أصحابنا: الناس فيه أربعة أقسام:

(أ) قسم تتوق إليه نفسه ويجد المؤن فيستحب النكاح.

(ب) وقسم لا تتوق - أى نفسه - ولا يجد المؤن فيكره له.

(ج) وقسم تتوق ولا يجد المؤن فيكره له، وهذا مأمور بالصوم لدفع

التوقان.

(د) وقسم يجد المؤن ولا تتوق، فمذهب الشافعى وجمهور أصحابنا أن

ترك النكاح لهذا والتخلى للعبادة أفضل، ولا يقال: النكاح مكروه بل تركه

أفضل. ومذهب أبى حنيفة وبعض أصحاب الشافعى وبعض أصحاب مالك أن

النكاح له أفضل والله أعلم.

والذى ذكره النووى فى المفاضلة بين النكاح وعدمه يتفق مع ما ذكره

الخطيب فى شرحه على أبى شجاع^(١) حيث قال:

إن النكاح مستحب لتائق له بتوقانه للوطء إن وجد أهبتة من مهر وكسوة

فصل التمكين ونفقة يوم، حفظا لدينه، سواء أكان مشغلا بالعبادة أم لا، فإن

(١) ج ٢ ص ١١٥، ١١٦.

فقد أهبتة فتركه أولى، وكسر، إرشادا، توقانه بصوم، خبر «يا معشر الشباب من من استطاع منكم الباءة...» فإن لم ينكسر بالصوم فلا يكسر بالكافور ونحوه، بل يتزوج.

وكره النكاح لغير التائق له لعله أو غيرها إن فقد أهبتة، أو وجدها وكان به علة كهرم وكعين - من لا يستطيع الوطء - لانتفاء حاجته، مع التزام فاقد الأهبة ما لا يقدر عليه، وخطر القيام به فيمن عداه.

وإن وجدها ولا علة به فتخل للعبادة أفضل من النكاح إن كان متعبدا اهتماما بها، فإن لم يتعبد فالنكاح أفضل من تركه، لئلا تفضى به البطالة إلى الفواحش.

ثم قال: لو كان في دار حرب لا يستحب له النكاح وإن اجتمعت فيه الشروط، كما نص عليه الشافعي، وعلة بالخوف على ولده من الكفر والاسترقاق.

ثانيا: ما قاله السفاريني في كتابه «غذاء الألباب»^(١) وهو يمثل علماء الحنابلة: أن النكاح تعتره من الأحكام الخمسة أربعة:

(أ) فيسن لذي شهوة ولا يخاف الزنى ولو فقيراً، واشتغاله به أفضل من التخلي لنوافل العبادة.

(ب) ويباح لمن لا شهوة له.

(ج) ويجب على من يخاف الزنى من رجل وامرأة علما أو ظنا، ويقدم حينئذ على حج واجب، نص عليه الإمام أحمد، ولا يكتفى في الوجوب بمرة واحدة، بل يكون في مجموع العمر، ولا يكتفى بالعقد فقط، بل يجب الاستمتاع، ويجزئ التسرى عنه، ويجب بالندر.

(د) ويحرم بدار حرب إلا لضرورة، فإن كانت لم يحرم، ويعزل وجوبا إن حرم، وإلا استحبابا، اللهم إلا أن تكون آيسة أو صغيرة فلا حرمة.

وقيل: إن النكاح لغير ذى شهوة مكروه، لمنع من يتزوجها من التحصين

(١) ج ٢ ص ٣٥٦.

بغيره، وإضرارها بحبسها على نفسه، وتعريض نفسه لواجبات وحقوق لعله لا يقوم بجمعها، ويشتغل عن العلم والعبادة بما لا فائدة فيه .

قال السفاريني: ينبغي أن يفصل بين الفقير الذي لا يجد ما ينفق وليس بذى كسب وهو مع ذلك ليس بذى شهوة فيقال: يكره النكاح فى حقه لعدم قدرته على مؤن النكاح، وعدم تحصين زوجته وعدم حاجته إليه، أ هـ .

وجاء فى معجم المغنى لابن قدامة^(١): أن الناس بالنسبة للزواج ثلاثة أقسام:

(أ) من يخاف على نفسه الزنى فيجب عليه .

(ب) من له شهوة يأمن معها الوقوع فى المحذور فالنكاح له أفضل من التخلّى لنوافل العبادة .

(جـ) من لا شهوة له كالعينين، أو كانت وذهبت للكبر والمرض ففيه قولان، أحدهما يستحب النكاح، والثانى يستحب التخلّى للنوافل، ولا فرق بين القادر على الإنفاق والعاجز عنه .

ثالثا: جاء فى تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ... ﴾ [سورة النور: ٣٢] ما ملخصه وهو يمثل علماء المالكية:

المسألة الثانية: يختلف الحكم فى ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العنت ومن عدم صبره، ومن قوته على الصبر وزوال خشية العنت عنه، وإذا خاف الهلاك فى الدين أو الدنيا أو فيهما فالنكاح حتم، وإن لم يخش شيئا وكانت الحال مطلقة فقال الشافعى: النكاح مباح، وقال مالك وأبو حنيفة هو مستحب .

تعلق الشافعى بأنه قضاء لذة فكان مباحا كالأكل والشرب، ويعلق علماؤنا - المالكية - بالحديث الصحيح «من رغب عن سنتى فليس منى» .

(١) ص ٩٧٠ - ٩٨٠ طبع أوقاف الكويت .

ثم قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتَعَفِّفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾:

المسألة الرابعة: من تاقت نفسه إلى النكاح فإن وجد الطول - القدرة على تكاليف الزواج - فالمستحب له إن يتزوج، وأن لم يجد الطول فعليه الاستعفاف، فإن أمكن ولو بالصوم فإن الصوم له وجاء كما جاء في الخبر الصحيح. ومن لم تتق نفسه إلى النكاح فالأولى له التخلي لعبادة الله تعالى. وفي الخبر «خيركم الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد». الحاذ = الحال، وتفسيره ما بعده. وكلمة «نكاحا» في الآية المذكورة = ما تنكح به المرأة من المهر والنفقة، كاللحاف اسم لما يلتحف به، واللباس اسم لما يلبس. أه.

رابعا: وبعد عرض هذه النماذج لعلماء الشافعية والحنابلة والمالكية. إليكم ما قاله بعض المعاصرين:

جاء في كتاب فقه السنة للسيد سابق ما ملخصه:

أحكام النكاح خمسة:

(أ) الوجوب للقادر على النفقة، التائق للزواج، الذي يخشى العنت أي الزني. فإن تاق وعجز عن النفقات وسعه قول الله: ﴿وَلَيْسَتَعَفِّفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وقول النبي ﷺ: «ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

(ب) الاستحباب، للتائق القادر لكنه يأمن العنت. فهو أولى من الرهبانية.

(ج) الحرمة، لمن يخل بحق وطء المرأة وبحق الانفاق مع قدرته عليه وتوقانه للزواج.

(د) الكراهة، لمن يخل بحق وطئها وبالانفاق، حيث لا يقع ضرر بالمرأة، بأن كانت غنية وليس لها رغبة قوية في الوطاء، فإن انقطع بذلك عن شيء من الطاعات أو الاشتغال بالعلم اشتدت الكراهة.

(هـ) الإباحة، إذا انقطعت الدواعى والموانع.

وجاء فى كتاب «الزواج فى الشرع الإسلامى والقوانين اللينانية» لأنور الخطيب ما ملخصه:

حكم الزواج يختلف باختلاف الأحوال، فهو واجب إذا كان فى تركه ضرر صحى، أو كان سببا فى الوقوع فى الإثم. ومحرم إذا أدى إلى ترك بعض الحقوق والواجبات. وكالزيادة على أربع. ومكروه إذا كان فعلة موجبا للوقوع فى مكروه، كما لو كان سببا فى التسول، ومستحب إذا كان فعلة أرجح من تركه، ومباح إذا كان فى فعلة مصلحة تساوى المصلحة فى تركه أه^(١).

بعدهما تقدم من النقول والأقوال، على الإنسان أن يعرض نفسه على ما فيها ليعرف ما يناسبه من الأحكام، مؤثرا فى ذلك دينه، متحملا بعض المتاعب فى سبيل تحقيق الخير والمصلحة.

فمن كان له مال حلال وخلق حسن وجد فى الدين لا يشغله الزواج عن الله واحتاج إلى تسكين شهوته وإلى من يساعده على أعباء الحياة فالزواج له أفضل، وإن لم تكن هناك فائدة مرجوة من زواجه ولم تسعفه حالته النفسية والاقتصادية والدينية فالعزوبة له أولى، فإن تقابلت فوائد الزواج مع الأضرار أو المتاعب المترتبة عليه فليحكم عقله ودينه. فإن رجحت الفوائد فليتزوج، وإلا فليلجأ إلى الوجود وهو الصوم، أو ما يصرفه عن التفكير فى النساء.

وأظهر الفوائد الولد وتسكين الشهوة، وأخطر الآفات كسب الحرام والانشغال عن الله، فمن طلب الولد وأمن على نفسه غائلة الشهوة ولكن النكاح سيلجئه إلى كسب الحرام والانشغال عن الله فالعزوبة أولى، لأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح، وإن غلبت عليه شهوته وخاف الزنى ولكن النكاح يضطره

(١) ممن عرض الخلاف فى حكم النكاح الزبيدى فى شرحه لآحياء علوم الدين ناقلا إياه عن الولي العراقى فى شرح التقريب، عند تفسير حديث ابن مسعود: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج....» مجلد ٥ ص ٣٢٢ شرح الآحياء.

إلى كسب الحرام فالنكاح أولى، لأن كسب الحرام أهون من الزنى، ارتكابا لأخف الضررين، ولعل الظروف تهيبه له بعد الزواج كسبا حلالا، وإن كانت شهوته لا تلجئه إلى الزنى بل إلى النظر فقط أو ما يماثله فلا يبرر ذلك زواجه الذى يترتب عليه كسب الحرام، فالنظر أخف منه، وضرره على نفسه دون غيره، وهو إلى العفو أقرب إن لم يصدقه الفرج.

وأما إذا تعارض النكاح مع التخلي لعبادة الله فالنكاح أفضل لأن فى إدارة المنزل وهم المعيشة مجالا واسعا للطاعة كما سبقت الإشارة إليه وإن كان الأولى عند استحكام شهوته وضيق ذات يده أن يصرف نشاط الغريزة إلى ناحية أخرى يرى فيها مجالا مناسبا لنشاطها، كما قرره رجال التربية. والفنون الجميلة فيها ما يخفف حدتها ويهدىء ثأرتها غالبا إن لم يرض الصيام طريقا لعلاجها، فالصيام علاج مادى بدنى، والفنون علاج أدبى نفسى. ولو جمع بينهما كان أقوى وأفضل.

٣ - الزواج والحج: إن الحديث السابق فى المقابلة بين الزواج والتخلي لعبادة الله، المقصود من العبادة فيه هو النوافل، أما الفرائض فلا يمكن أن تعقد المقارنة بينها وبين الزواج ضرورة عدم القول بأفضلية الزواج عليها بأى حال.

والنقطة الجديدة بالنظر هى المقارنة بين الزواج وبين الحج الواجب إذا كان هناك مال لا يكفى إلا واحدا منهما فقط، فهل ينفق فى الزواج أولا، ويسقط عنه الحج لعدم استطاعته؟ أو ينفق فى الحج أولا لوجود الاستطاعة، والزواج بعد ذلك موكول للظروف؟

قال العلماء: إذا كان المال لا يكفى إلا واحدا من هذين المطلبين كان الحج مقدما لأن الحج واجب على المستطيع وهو مستطيع، والزواج سنة ولا تقدم السنة على الواجب. لكن محل ذلك إذا لم يصبح الزواج واجبا فى حقه كالخوف على نفسه من الزنى، فهنا يتعارض واجبان، لكن أحدهما فورى وهو الزواج، والآخر على التراخى، فليتزوج أولا، وإن استطاع أن يحج بعد ذلك فليحج.

على أن العلماء قالوا في الاستطاعة أن يكون عنده مال زائد عن حاجته
الضرورية وحاجة من يعولهم، وهو في توقعه إلى الزواج وخوفه من الزنى يعتبر
في حالة ضرورة يجب أن يوفر لها المال. فإن زاد عن ذلك حج وإلا فلا.

وفي مثل الحج قالوا في فروض الكفايات أنها تقدم على الزواج، مثل طلب
العلم والجهاد، ولكن بشرط عدم الخوف من العنت. قال ابن قدامة في معجم
الفقه الحنبلي «ص ٢٢١»: «وإن احتاج إلى النكاح وخاف على نفسه الوقوع في
المحرم قدم النكاح على الحج، وإن لم يخف ذلك قدم الحج».

جاء في كتاب الفقه على المذاهب الخمسة لمحمد جواد مغنية: لو كان عنده
مال يكفي أحدهما فقط - أي الزواج والحج - فأبو حنيفة يقدم الحج، والشافعية
والحنابلة والمحققون من الإمامية يقدمون الزواج إذا كان في تركه حرج ومشقة
(كفاية الأختيار - المغنى - فتح القدير).

* * *

الباب الثانى

مقاييس اختيار الزوجين

سيكون الحديث فى هذا الباب مقسما إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة . فالمقدمة فى نبذة موجزة عن مقاصد الزواج، والفصل الأول فى أهمية الاختيار، والثانى فى مقاييس اختيار الزوجة، والثالث فى مقاييس اختيار الزوج، والرابع فى أهمية الكفاءة بين الزوجين ودور الولى والزوجة فى تحقيقها، والخاتمة فى طرق شاذة لاختيار الزوجين .

المقدمة :

تعين المقصود الأهم من مقاصد الزواج يختلف باختلاف الأفراد كما يختلف باختلاف الأمم، وباختلاف ذلك تختلف المقاييس التى يقيس بها الإنسان شريكة حياته، والمقاييس التى تضعها الأمم لبناء الأسرة، كما تختلف مقاييس المرأة فى اختيار شريك حياتها لتحقيق الغرض من تكوين الأسرة، والناس بوجه عام مختلفون فى الطباع والأهواء والآراء والمقاصد، وكذلك الأمم مختلفة باختلاف الأفراد، كما أن وجهات النظر تختلف أيضا من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى بيئة .

فمثلا قبل عصر المناداة بحرية المرأة كانت مقاييس اختيار الرجل لزوجته تقوم على حسن إدارتها للبيت ومهارتها فى الأعمال المنزلية، إلى جانب شرف الأسرة التى تنتمى إليها، وحبها للاستقرار فى البيت وعدم حرصها على الاختلاط بالناس، أما بعد تحرر المرأة ومزاومتها لكثير من أنواع النشاط الاجتماعى وتوليها للوظائف المختلفة وحاجة الناس إلى مواجهة مطالب الأسرة بعد الأزمات الاقتصادية فإن الرجل ينظر إلى شريكة حياته من خلال هذا الواقع، فيريدها متعلمة تحمل الشهادات العالية، أو عاملة تكسب خيرا، أو فتاة مجتمع تجيد المقابلات ولا تخشى المجتمعات، مع غض النظر، إلى حد ما، عن الجمال أو عن

المهارة فى أعمال المنزل، أو صلتها النسبية، فهذا كله لا ضرورة له فيما يهدف إليه من تكوين الأسرة. وكذلك الحال بالنسبة إلى نظرة المرأة للرجل على ما سيأتى بيانه.

والإسلام جعل المقصود الأسمى من الزواج الشرعى ثلاثة أمور، هى فى أهميتها على الوجه التالى: إنجاب الذرية، والتعاون على الحياة، وتلبية نداء الغريزة الجنسية، وقد مر توضيح ذلك فى الباب الأول.

وإذا كان قد وضع شروطا لتكوين الأسرة لتحقيق هذه الأهداف، فأحل أمورا وحرّم أخرى، فإن هناك بين الحلال تفاوتات تختلف فيه امرأة عن امرأة، ورجل عن رجل، غير أن الله لم يترك الإنسان سدى، بل نصب له علامات تهديه فى هذا القفر الواسع، ورغبة فى الاستهداء بها من غير إلزام له حتى لا تكون الأمور مضيقة عليه بشدة، ولأن من العسير حمل جميع الناس على طعام واحد تشهد الطبيعة بأن التزامه ينغص الحياة عند بعض الناس، ويتنافى مع السكن المقصود من الزواج، وكذلك فى التيسير على الناس فى حرية اختيار ما يناسبهم إيجاد مجال لكل رجل ولكل امرأة فى العثور على شريكة الحياة وشريكة العمر فى تكوين الأسرة.

ولولا اختلاف الأذواق لبارت السلع، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

* * *

الفصل الأول

أهمية الاختيار

١ - لما كانت الأسرة من الأهمية بالشكل الذى بيناه فيما سبق من الكتاب كانت مهمة اختيار العمودين الأساسيين اللذين يقيم عليهما بناء الأسرة صعبة، تتطلب التأنى والتفكير الطويل والاستشارات الكثيرة من ذوى الرأى والتجربة، فإن الاخفاق فى الزواج الأول بالذات يورث فى الرجل والمرأة عقدة نفسية تنغص حياتهما ما عاشا فى الدنيا، فانهما إما أن يرضيا بالواقع المر، والمرارة إخفاق، وإما أن ينفصلا، والانفصال أيضا إخفاق، حتى لو بنى كل منهما بعد ذلك بيتا جديدا، فإن التجربة السابقة لا بد أن تلازمهما آثارها إلى أن تنتهى الحياة. يقول المثل الفارسى^(١): إذا كنت على سفر عازما فصل مرة واحدة، وإذا كنت إلى الحرب ذاهبا فصل مرتين، وإذا كنت على الزواج مقدما فصل ثلاث مرات. نعم يصلى ويجتهد فى الدعاء بالتوفيق، فالطريق مظلم مخوف، والمستقبل غيب مستتر، واللغز خفى معقد.

إن الحياة الزوجية كطائر جناحاه الرجل والمرأة، والطائر لا يرقى فى الأجواء العالية، ولا ينعم بفسحة الفضاء إلا إذا سلمت فيه هاتان القوتان اللتان تدفعانه إلى حيث يريد، بل إن الزوج والزوجة أشبه بمركب كيماوى ذى عناصر خاصة وتركيب معين، إن أعوز هذا المركب أحد العناصر، أو اختلفت نسبة التركيب والامتزاج ذهب الأثر المطلوب، وضاعت الفائدة المرجوة، وربما أنتج هذا المركب نتيجة عكسية هى الهلاك والدمار.

ولأهمية بناء الأسرة وحاجتها إلى التأنى والاستشارة، خصوصا فى عصرنا الحاضر المعقد، وفى المدن الكبيرة بالذات، وجدت فى الغرب مكاتب تلبى

(١) جريدة المصرى ١٧/٦/١٩٤٥ م.

رغبات الباحثين عن الزوجة التي يضع لها الزوج مواصفات معينة، أو تقدم لهم المشورة لاختيار من تصلح له بعد دراسة ظروفه وأحواله وأهدافه . وسمعنا أن « هينز جينر » افتتحت مكتبا لهذا الغرض ١٩٣٩ م وأن كتابا طبع لها في هذا الموضوع، اسمه « الزواج مهنتي » اعترفت فيه بتطور رغبات المتزوجين عاما بعد عام، وقبل الحرب وبعده^(١) .

وفى مبحث تعرف الزوجين في الباب الثالث الذي يأتي بعد . صور مختلفة تبين مدى اختلاف الناس فى نظرتهم إلى الزواج والمقاييس التي وضعوها عند بناء العش الجديد، وهى نابعة من بيئاتهم وعصورهم وأهدافهم في الحياة .

وإذا كان هدف الإسلام من الزواج ما قدمنا، فإنه لم يترك الإنسان حائرا، بل وضع له منارات فى الطريق تكشف له عن مواهب المرأة ومدى استعدادها لتلبية غرضه الشخصى والاجتماعى والغرض الإنسانى العام . ووضع له أصولا وقواعد يحل بها لغز المرأة الغامض .

وليست هناك منارات أقوى نورا، ولا أصول أحكم من التي وضعها الحكيم الخبير سبحانه وتعالى، فهى كالبوصلة التي توجه سفينة الحياة وسط الأمواج المتلاطمة والرياح العاصفة والظلمات الكثيفة إلى مرفأ السلامة والأمان، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ آتَبَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه : ١٢٣] .

٢ - أثر المرأة على الرجل :

إن أثر المرأة على الرجل لا ينكره أحد، والواقع يشهد له ويؤكدده . وفكرة الناس عنها فى حمل حواء لأبينا آدم على الأكل من الشجرة المحرمة لا يحوها الزمان أبدا، كانا ينعمان فى الجنة بنعيم مضمون فيه كل متعة وراحة ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ [طه : ١١٨] ، [١١٩] ، وعلى الرغم من تحذير الله له فى عدم طاعة الشيطان ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا

(١) آخر ساعة أول يوليو ١٩٥٣ م .

عَدُوُّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿ [طه: ١١٧] نسي آدم هذا العهد ولم يجد الله له عزماً ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿ [طه: ١٢١، ١٢٢]. وهبط الجميع إلى الأرض للكفاح والنضال والتعب والشقاء والعداوات والحزازات، وليس في الوجود ظاهرة أقوى من هذه الظاهرة تدل على أثر المرأة في الرجل إن صح أن حواء هي التي أغرت آدم بالأكل من الشجرة، بطريق مباشر، أو أن سكنه إليها ومتعته بها أنسته عهد الله.

لقد كان للمرأة في قديم التاريخ وحديثه أثر بارز في حياة الرجل على كل المستويات، وفي حياة الأمم والشعوب في كل العصور، والناس في هذه الأيام لا يزالون يرددون هذه الجملة «فتش عن المرأة» التي قالها الكاتب الفرنسي «الكسندر ديماس» نقلاً عن الوزير الفرنسي «فوشيه» الذي كان وزيراً للداخلية في أيام نابليون، عندما كان يتحدث عن إحدى الجرائم^(١).

وفي بحث الحجاب ستأتيك صور كثيرة تؤكد هذه الحقيقة. ومن أقدم القصص في ذلك أنه قيل للاسكندر الأكبر المقدوني: لو تزوجت بنت دارا!! فقال، لا تغلبني امرأة غلبت أباه^(٢) ومن أحدثها حب ادوارد الثامن ملك إنجلترا المتوفى في ١٩٧٢/٥/٢٨، لامرأة هي مسز سمبسون وتنازله عن العرش من أجلها وذلك في ١٩٣٦/١٢/١١ م. وهو من أعظم العروش في العصر الحديث، وقال في ذلك الشاعر الشيخ إبراهيم بديوي:

فقيس في كتاب الحب سطر وادوارد الكتاب وما حواه

ومن مآثور الأدب العربي في ذلك أثر هند بنت عتبة بن ربيعة في زوجها أبي سفيان وعدائه للرسول بعصبية جامحة كانت طابعه في كل تصرفاته، حتى جعلته ألد أعداء الرسول، على الرغم من قرابته له ومصاهرته إياه عن طريق ابنته أم حبيبة أم المؤمنين.

(١) آخر ساعة ١٩٧٤/٢/١٢ أنيس منصور.

(٢) زهر الآداب للحصري ج ١ ص ٢١٢ طبعة الحلبي.

إن هنداً هي المغيظة المحنقة من بنى هاشم، والمربية لابنها معاوية تربية تؤهله لأن يسود غير قومه فضلاً عن قومه^(١)، وهي الباقرة لبطن حمزة واللائكة لكبده، وهي المنشدة أناشيد الحماس في حرب الكفار للرسول، وهي الصارخة أخيراً في وجه أبي سفيان يوم فتح مكة، عندما أحست ميله إلى الإستسلام بالإسلام.

ذكر المؤرخون أن أبا سفيان مضى يوم الفتح، حتى إذا جاء قريشا صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند فأخذت بشاربه وقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس، قبح من طليعة قوم. فقال أبو سفيان: ويلكم!! لا تغرنكم هذه من أنفسكم. فإنه قد جاءكم فيما لا قبل لكم به.

الأحمس هو الذي لا خير فيه، والحميت هو الزرق ويراد بالدسم الضخم السمين. وفي غير سيرة ابن هشام بدل الأحمس: الأحمش الساقين أى دقيقهما.

ولما رجع من مفاوضته للنبي لمد الهدنة، قبل فتح مكة، ودخل عليها ليلاً قالت له: لقد غبت حتى اتهمك قومك، فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فانت الرجل، ثم جلس منها مجلس الرجل من امرأته فقالت ما صنعت؟ فأخبرها الخبر، وقال: لم أجد إلا ما قال علي، فضربت برجلها في صدره وقالت: قبحت من رسول قوم، فما جئت بخير...^(٢).

ولكن أنى لموجة الحق أن يصدها الباطل؟ لقد جرفها تيار الإسلام - كما جرف زوجها - فرضخت لحكم الواقع وأسلمت وأسلم أولادها، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوى الألباب منكن » رواه مسلم عن ابن عمر.

كما يحكى التاريخ أن خالد بن يزيد بن معاوية أحب رملة بنت الزبير عندما رآها في موسم الحج، ولما عرض عليها الزواج، اشترطت عليه أن يطلق

(١) سيأتى فى بحث حقوق الأولاد وأثر الأم فى التربية.

(٢) شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢٩٣.

نساءه، فطلق امرأتين كانتا عنده، وسافر بها إلى الشام، وعندما لأمه الحجاج بن يوسف الثقفي على خطبتها، لأن آل الزبير من ألد أعداء بني أمية نهر خالد رسول الحجاج... وقال له: قل للحجاج: ما كنت أرى أن الأمور بلغت بك إلى أن أشاورك في خطبة النساء، ثم أنشد فيها:

أليس يزيد السير في كل ليلة	وفي كل يوم من أحببتنا قربا
أحن إلى بنت الزبير وقد علت	بنا العيس خرقا من تهامة أو نقبا
إذا نزلت أرضا تحبب أهلها	إلينا وإن كانت منازلها حربا
وإن نزلت ماء - وإن كان قبلها	مليحا - وجدنا ماءه باردا عذبا
تجول خلاخيل النساء ولا أرى	لرملة خلخالا يجول ولا قلبا
أقلوا على اللوم فيها فيأني	تخيرتها منهم زيرية قلبا
أحب بنى العوام طرا لأجلها	ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا
فإن تسلمى نسلم وإن تنصرى	يخط رجال بين أعينهم صلبا

القلب: بضم القاف السوار، ولعله يريد بذلك أنها سمينة بحيث لا يسمح سمنها للخلاخيل والأسورة أن تتحرك في رجليها ويديها.

ولما قال له عبد الملك بن مروان: تنصرت يا خالد؟ قال: وما ذاك؟ فأنشده هذا البيت الأخير، فقال له خالد: على من قاله ومن نحلنيه لعنة الله. معنى هذا أنه يتبرأ من هذا القول وأن البيت الأخير مدسوس عليه^(١). ولد خالد ٦٣٥ وتوفي ٧٠٤م «دائرة معارف الشعب».

وكما أن للمرأة آثارا سيئة على الرجل كذلك لها آثار حسنة، فقد يكون لها رأى حكيم تفرج به أزمة عن الرجل، أو تدفعه بسلوكها إلى موقف بطولي، وستأتى صور من ذلك فى البحوث التى تعالج حقوق الزوجين، ومن أروعها فى التاريخ الإسلامى مشورة السيدة أم سلمة أم المؤمنين على النبى ﷺ فى التحلل

(١) زهر الآداب للحصرى طبعة الحلبي ج ١ ص ٣٩٣، وكتاب «أعلام النساء» لعمر كحالة، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق الدكتور احسان عباس ج ٢ ص ٢٢٤.

من الإحرام فى الحديبية حتى يقتدى به المسلمون الذين رأوا فى التحلل صعوبة نفسية، وكذلك فى قبوله لإسلام ابن عمه أبى سفيان بن الحرث فى طريقه لفتح مكة.

وفى التاريخ القديم أن الأمبراطور الرومانى «كلوديوس» (٥٢ ق م) حين حكم على «بيتوس» بالإعدام وقف ساعة التنفيذ يبكى ويستجدى العفو، فعز على زوجته «آريه» أن ترى زوجها جباناً إلى هذا الحد، فاندفعت نحو الجلاد وخطفت منه الخنجر وأغمדתه فى صدرها ثم نزعته وناولته زوجها وقطرات الدم تسيل منه وصاحت: بيتوس أنه لا يؤلم.

ويذكرنا هذا بنشيد نسوة العرب للمحاربين فى الجاهلية، ونشيدهن لهم فى الإسلام، وسيأتى كل ذلك فى بحث الحجاب إن شاء الله.

ولقوة تأثير المرأة على الرجل، وإمكانها أن تجعل منه إنساناً كما تريد، عن طريق الحب الذى تقود به الرجل حيث تشاء، والذى تتفنن فى أساليبه وإحكام شبابه - رأى الغرب المستعمر أن يعتمد على المرأة فى التمكين لنفوذه ونشر تقاليد، وذلك بتعليم البنت المسلمة فى المدارس الخاصة، تحت إشراف الأجانب لتستطيع هى بدورها أن تؤثر على زوجها وعلى أولادها فى تحقيق أغراض المستعمر.

لهذا عنى الإسلام باختيار الزوجة، فإنها أقوى من الصديق الذى يقول فيه الحديث الشريف «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل» رواه الترمذى وحسنه عن طريق أبى هريرة، وكذلك رواه أبو داود.

ذلك أن الصحبة لا يلتقى فيها الخليلان إلا ساعات محدودة بين فترات قد تكون متباعدة، مع التنبه إلى الفرق الكبير بين شعور الحب وشعور الصداقة - أما الزوجة وبخاصة إذا كان يحبها زوجها فهى صاحب الجنب الملتصقة بالرجل والمتلاقية معه كثيراً، لذلك كانت أخطر من الصديق فى التأثير على الرجل.

وقد حذر بعض المفكرين من التعجل والتهاون فى الاختيار فقال: لا تتهاون

فى اختيار زوجتك حتى لا يكون زفافك هو الجنازة التى تشم فيها رائحة أزهارها بنفسك .

ذكر الخوارزمى فى كتابه « مفيد العلوم ومبيد الهموم » ص ٢٤٩ أن أشرف الناس منكحا مصعب بن الزبير، جمع بين سكينه بنت الحسين، وعائشه بنت طلحه، وابنة الحميد عبد الله بن عامر بن كرز، وأسماء بنت ريان بن أنيف الكلبى .

ثم خالد بن يزيد بن معاوية، تزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، وآمنة بنت سعيد بن العاص، ورملة بنت الزبير .

٣ - أثر الرجل على المرأة :

كما أن المرأة تؤثر على الرجل، كذلك هو يؤثر عليها، فالخلطة نفسها والمجالسة بشكل عام من وسائل نقل الأخلاق والعادات والأفكار، وبخاصة إذا صحب النقل حب وفتنة، وذلك موجود بين الزوجين بشكل قوى .

تقول السيدة عائشه رضى الله عنها: النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته . ويقول البيهقى: روى هذا مرفوعا إلى النبى ﷺ . ولكن وقفه أبو عمرو التوقانى على عائشه أو أسماء ابنتى أبى بكر، وهو الأصح .

إن المرأة بتزوجها دخلت تحت رعاية الرجل، وصار عليها من الواجبات له أكثر مما يجب عليها لوالدها الذى أنجبها ورباها طوال هذه المدة، والنساء كما يقول الحديث « عوان عندكم » فالمرأة أشبه بالأسير الذى كان ينعم من قبل الأسر بالحرية والانطلاق، ويمرح فى هذا الكون المترامى الأطواف، يقول ويفعل كما يشاء، والحدود التى كانت تحد من حرته كانت بسيطة إلى حد لا يحول دون تمتعه ببهجة الحياة، فوق الآن تحت يد مالك له، يكيف اتجاهاته، أو يتدخل فى شئونه من أجل صالح مالكة أو صالح البيئه الجديدة التى حل فيها، فهو يضيق عليه، ولو كان التضيق بسيطا، بحديث يشعر بالفرق العظيم بين العهدين، ويبعد المسافة بين البيئتين .

والحظ يلعب دورا كبيرا فى هذا الأمر الخطير، فإن أتاح القدر لهذه الأسيرة العانية زوجا يحترم كرامة الإنسان وحرية الطبيعية، ويقدر نظرة الناس إلى الحياة فى حرصهم على التمتع فيها بأكبر قدر ممكن، كان ذلك من سعادة هذه المرأة التى لن تحس بعظم الفرق بين العيش القديم الذى درجت فيه، والعيش الجديد الذى سيقى إليه .

وبالعكس إن ابتلاها القدر بزواج خشن يهوى السيطرة ويحب السيادة فى أية صورة كانت، ويريدها محفوفة بمظاهرها التى يوحى بها لفظ السلطة، والتى فتن بها الناس فى مختلف العصور، فسوف لا تجد هذه المسكينة فى وضعها الجديد إلا التعاسة والشقاء، وسوف لا يجد هذا المالك من مملوكه إلا التمرد والعصيان، وستكون له المرأة قاصمة الظهر ونذير الشيب ورسول الموت المبكر، بخلاف المملوك الأول الذى سيقابل الإحسان بالإحسان، فيتفانى فى خدمة سيده، ويخلص له فيما وكل إليه أن يؤديه، ويكون له من الوفاء بالقدر الذى لا يدانيه أى حق لأية ناحية وإن عزت عليه .

غير أن الشرع جعل فرقا بين الأسير الذى وضع قهرا تحت يد سيده وبين المرأة، حيث جعل لها الحرية الكافية فى اختيار من تنضم إليه، ووضع لها قواعد توجهها وجهة الخير، وتضمن لها الراحة فى بيتها الجديد . فلا ترضى إلا برجل يستجيب لنداء الحق، ويقف عند مقتضى العقل وينفذ أمر الرسول الكريم « استوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك . . . » رواه الترمذى عن عمرو بن الأحوص الجشمى، وقال : حسن صحيح .

وإذا كانت مهمة اختيار الرجل للمرأة المناسبة شاقة، فإن مهمة اختيارها له أشق، ذلك أن الرجل إذا لم يوفق فى زواجه فالسبيل ليسر له بفك الارتباط الذى يملك هو حقه من جانب واحد، فيخلص نفسه من هذه الورطة، ويبحث له عن حرث جديد يحقق له أمله المنشود، ولكن المرأة العانية إن أخفقت فى زواجها . فإما أن ترضى بالذل وتستسلم للألم حتى تقضى حياتها، وإما أن تفتدى نفسها

ولو بأعز ما عندها لتنعم بالحرية بعيدا عنه، إما بدون زواج، وهو على كل حال أخف ألما عندها من الزواج السابق، وإما بزواج جديد قد توفق فيه، وسيكون لها من التجربة الأولى ما يحملها على التدقيق عند الاختيار والموافقة على الزواج الجديد.

ومن أجل هذا كانت المرأة فى العصور الأولى تجتهد ما استطاعت فى البحث عن شريكها، بل قد تعرض نفسها عليه أن أعجبت به، كما أن ولى أمرها كان يسعى أيضا ما وسعه جهده فى تلمس بيئة جديدة طيبة يضع فيها كريمته ويودع فيها أمانته، وهو لا يأنف إن وجد بغيته أن يعرض فتاته عرضا على هذا الذى أنس فيه الكمال الذى يقاس به الأزواج الصالحون. ويتألم جد الألم إن رفض الشخص هذا العرض، ولم يأبه لهذه الثقة التى وضعها ولى المرأة فيه.

يروى البخارى^(١) عن عبد الله بن عمر أن عمر رضى الله عنه حين تأيمت بنته حفصة قال: لقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، قال: سأنظر فى أمرى، فلبثت لىالى ثم لقينى فقال: قد بدا لى ألا أتزوج يومى هذا، فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إلى شيئا، فكنت عليه أوجد - أغضب - منى على عثمان. فلبثت لىالى ثم خطبها النبى ﷺ، فأنكحتها إياه. فلقينى أبو بكر فقال: لعلك وجدت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئا، فقلت: نعم، فقال: فإنه لم يمنعنى أن أرجع إليك شيئا حينما عرضت على إلا أننى كنت علمت أن النبى ﷺ ذكرها، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ ولو تركها النبى ﷺ لقبلتها.

وروى أن النبى ﷺ قال لعمر: ستتزوج حفصة خيرا من عثمان، وسيتزوج عثمان خيرا منها، فتزوجها النبى ﷺ وزوج عثمان ابنته أم كلثوم بعد موت أختها رقية التى كانت متزوجة منه، وروى أن النبى ﷺ قال له: «والذى نفسى بيده لو أن

(١) ج ٧ ص ١٧ طبعة الشعب.

عندى مائة بنت يمتن واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى»^(١) والأيم هي التي لا زوج لها، وهو الذى لا زوجة له، يطلق على الرجل والمرأة.

وفى بحث تعدد الزوجات أمثلة أخرى لمن يعرضن أنفسهن على الرسول ﷺ، وكذلك فيه حرص أم حبيبة على أن تضم أختها إليها لتعيشا معا تحت كنف النبي عليه الصلاة والسلام، وسترى فيما بعد عرض سعيد بن المسيب بنته على أحد تلاميذه.

فى الحق أن مهمة اختيار الزوج خطيرة أكثر من اختيار الزوجة، ولهذا كانت تؤخذ الآراء من عدة أشخاص ذوى خبرة، ويستشار العقلاء لتلافى ما عساه يحدث لو تم القبول بسرعة.

قال أبو حفص العكبرى: سمعت أبا بكر بن مريح يقول: بلغنى عن أحمد أنه قال: إذا أراد الرجل أن يزوج رجلا فأراد أن تجتمع له الدنيا والدين فليبدأ فيسأل عن الدنيا، فإن حمدت سأل عن الدين، فإن حمد فقد اجتمعا، وإن لم يحمد كان فيه رد الدنيا من أجل الدين، ولا يبدأ فيسأل عن الدين، فإن حمد ثم سأل عن الدنيا فلم يحمد كان فيه رد الدين لأجل الدنيا^(٢).

وروى مسلم^(٣) عن فاطمة بنت قيس أنها عندما خلت من عدتها بعد طلاقها من زوجها أبى عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، ذكرت للنبي ﷺ أن معاوية بن أبى سفيان^(٤)، وأبا جهم بن هشام خطباها، فقال ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه (فى رواية: فرجل ضراب للنساء، وفى رواية: أخاف عليك من شقشقتة «حياة الحيوان الكبرى للدميرى ج ٢ ص ١٨ طبعة صبيح») وأما معاوية فصعلوك لا مال له (فى رواية: فرجل ترب لا مال له «زاد المعاد ج ٤ ص ١٥٧ المطبعة العصرية») انكحى أسامة بن ريد» فنكحته فجعل الله فى ذلك خيرا واعتببت به.

(١) شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ج ٢ ص ٢٠٠.

(٢) كتاب الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح الحنبلى ج ١.

(٣) ج ١٠ ص ٩٧ بشرح النووى.

(٤) قال بعضهم: إنه غير ابن أبى سفيان، وهو غلط.. النووى على صحيح مسلم ج ١٠.

الفصل الثانى

أسس اختيار الزوجة

أولاً - المقاييس الوضعية :

أشرنا سابقاً إلى أن الناس مختلفون قديماً وحديثاً فى المقياس الذى تقاس به المرأة لتصلح لتكوين أسرة كما يريد الرجل ويحقق الصالح العام للمجتمع، وقد يركز الرجل على صفة معينة ضارباً الصفع عن الصفات الأخرى، غير متيقظ لأثرها الظاهر أو الخفى فى حياته .

ومهما يكن من شىء فإن هناك أموراً تكاد تكون عامة هى مقصد الرجال من النساء، تحدث عنها علماء الإسلام وكتاب العصر، ولنذكر بعضها مع بيان الرأى فيها .

١ - الجمال :

يريد بعض الأزواج من الزوجة أن تكون جميلة، بل يكون جمالها فوق العادة، تبلغ فى سحرها المبلغ الذى يتحدث عنه خيال الشعراء والصورة التى ترسمها أقلام الكتاب، غير ناظر إلى النواحي الأخرى التى يجب أن تكتنف هذا الجمال لتحفظ له قيمته وتصونه مما يشينه .

والجمال وإن كان محبباً إلى كل نفس بشرية، فإن الأنظار تختلف فى مقاييسه، وسيأتى فى بحث حقوق الزوجين توضيح لهذا المعنى وعرض لمقاييسه عند كثير من الأمم .

ومهما يكن من شىء فطالب الجمال يجب عليه أن يتنبه إلى ما يأتى :

(أ) الجمال وصف غير دائم، وإن كان بطىء الزوال، فعوادى الزمن ومفاجآته كثيرة، وقد يطرأ ما يغير هذه الصفة فيتحول الحب إلى كراهية، لأن متعلق الحب قد زال، أو ضعف أثره فى النفس .

(ب) الجمال البارع مدعاة للتدلل، وإذا تدللت الجميلة ذابت في دلالتها أخلاق النبيل وصفات الاحترام، وقد قيل في الحكم: من بسطه الإدلال قبضه الإدلال.

(ج) هذا الجمال مثير للفتنة مقلق للرجل، لأنه يريد أن يحافظ على هذه الوردة الجميلة أن تستهوى اللاثمين. وعلى هذا العنقود المغرى أن تمتد إليه أيدي القاطفين، ومن من الناس يرى هذا المرعى الخصب ولا يرتع فيه؟ فهو على الأقل يحوم حوله، أو تتشوف إليه نفسه، ويتعلق به قلبه.

ولن تصادف مرعى ممرعا أبداً إلا وجدت به آثار منتجع

يقول المثل: من عنده زوجة جميلة يحتاج إلى أكثر من عينين.

ويقول الشاعر:

لا تطلب الحسن إن الحسن آفته ألا يزال طوال الدهر مطلوباً
وما تصادف يوماً لؤلؤاً حسناً بين اللآلئ إلا كان مثقوباً

(د) أن الرجل لا يملك نفسه من شدة الصبوة بهذا الجمال. فهو يسارع إلى تلبية ندائه. كالمغناطيس يجذب إليه القلوب ويصعب التفلت منه. وكيف بمن انخلع قلبه أن يتوانى عن إرضاء جاذبه أو يعارض في طلب حبيبه، حتى لو كان الهلاك في الإقدام عليه؟ والمرأة مشتتة غير هادئة العاطفة، متمادية غير متراجعة، تملئ وهو ينصت، وتدعو وهو يستجيب.

وهنا قد يوقف نفسه مواقف لا تليق بالرجال، خصوصاً إذا كانت فتنته خضراء الدمن، حسناء في منبت سوء.

روى أن النبي ﷺ قال: «إياكم وخضراء الدمن» قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: «المرأة الحسننة في المنبت السوء» رواه الدارقطني في الأفراد، وذكره الغزالي في الاحياء، ورواه العسكري في الأمثال من طريق أبي سعيد الخدري، وقد تفرد به الواقدي وقال العراقي: أنه ضعيف^(١).

(١) انظر الزرقاني على المواهب اللدنية، في كلام النبي وفصاحته.

وفى الرسالة العاشرة من رسائل إخوان الصفا، أن خضراء الدمن غبار يتلبد على الأرض والصخور والأحجار، ثم يصيبها المطر فتصبح بالغداة خضراء كأنه نبت زرع وحشائش، فإذا أصابها حر الشمس نصف النهار تجف ثم تصبح بالغد مثل ذلك من نداوة الليل وطيب النسيم، ولا تنبت الكمأة ولا خضراء الدمن إلا فى أيام الربيع فى البقاع المتجاورة لقرب ما بينها^(١).

وأنبه إلى أن نقد الجمال ليس معناه التنقيص من قدره وصرف الناس عن طلبه، فإن الشرع قد أشاد به، ولكنى أريد بهذا ألا يقصر النظر عليه، وألا يسرف فى تقديره إسرافاً يطيح بالقيم الأخرى، ويقضى على الكمالات الواجب توافرها فى المرأة الكاملة.

٢ - المال :

يريد الرجل زوجة غنية موسرة لتكفى نفسها مؤنتها.. ويكتفى هو أيضاً بمالها، فهو يجتهد فى البحث عنها أيا كانت، ولا يهمله بعد غناها جمال أو دمامة، أو صلاح أو فسق، ما دام قد وصل إلى ما يقصده وبلغ الأمل الذى كان ينشده. وليحذر صاحب هذا المقياس ما يأتى :

(أ) المال عرض زائل وظل حائل، وما أشد تقلبات الزمن وعوادى الدهر، إن وجد المال وجدت الرغبة، وإن فقد فقدت المحبة، فكأن المال هو المنكوح المتعاقد عليه وليس المرأة، وقد قال عبد الحميد الكاتب: من عظمك عند إكثارك استقلك عند إقلالك.

(ب) قد تمنعك المرأة مالها وتبخل به عليك، وبخاصة إذا لم تحسن عشرتها أو رأت منك ما يريبها، وهنا إذ تعذر عليك نيل ما تريد تعيش منغصاً محسوراً، وينقلب شعورك الودود نحوها إلى نفور قد يتطور فيقطع الصلة، وقد قيل: من ودك طمعاً فيك أبغضك إذا آيس منك.

(ج) إنها تمن عليك إذا نالك شىء من مالها، بل تحتقرك لأنك أدنى منها،

(١) من كتاب: الإنسان فى القرآن الكريم، للعقاد ص ١٠٥ طبعة دار الهلال.

بل تبدأ عليك ولا يهملها أمرك، وأنت المضطر للتحمل ما دمت محتاجاً إليها، فليهن لديك كل شيء، ولتمت فيك العزة والكرامة.

(د) الطمع فى مالها والوصول إلى الغاية منه قد يعلم الرجل الكسل ويعوده التعطل، وقلة الاكتراث والاهتمام بالمسئوليات، ما دام القوت قد وصله سهلاً لاتعب فيه، وهذه الصفات من أخط الرذائل التى يجب أن يتنزّه عنها الرجل.

(هـ) إقدام الرجل على زواج الغنية يتطلب منه صداقاً يناسب غناها، ومن أين يأتى به وهو الفقير الطامع فيما عندها، فضلاً عن عجزه عما يقدمه لها؟ إنه قد يلجأ إلى الاستدانة ليستمر موقفه أولاً حتى يظفر بالغنيمة، ولكن هل يضمن أنه يسعد فى الزواج ويحصل منها على المال الذى يسدد به دينه؟ إنه سينكشف أمره، وتضيع البهجة من حياته الزوجية.

(و) هذه الموسرة ستأنف أن تطيع الرجل أو تخدمه، فهو فى نظرها، أدنى من مستواها، وأولى به فى نظرها أن يخدمها ويطيعها، وهنا تنقلب الأوضاع ويتوارى معنى قوامه الرجل على المرأة، وقد وصف العرب أمثال هذه المرأة بأنها «غل قمل» وأصل هذا أن الأسير فى الجاهلية كان يغل عنقه بحبل فيه شعر. فإذا طال العهد به كثر به القمل، فينادى الأسير من ناحيتين: القمل والغل «نهاية ابن الأثير - غل» وسيأتى بعد قليل مزيد توضيح له.

(ز) ستكون النفقة عليها كبيرة إن أيس من مالها، فنفتها لا بد أن تناسب مستواها: وهنا يكون تعبه، وقد يلجأ إلى طرق غير مشروعة. أو يفكر فى فك الارتباط بهذا الغل، ولو أتعب نفسه ليرضيها ويغضى مطالبها فلن يحوز رضاها لأن شعورها نحوه شعور أبى الاعتراف بأى جميل يقدم إليها، وسيكون صاحبنا كالمئب لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

(ح) إن مثل هذه المرأة يخشى الزوج أن يطلقها إن ساء سلوكها معه، ما دام ينعم بمالها الذى وصل إليه، فهو يمسكها راضياً بالذل والهون، تتقلب

نفسه على جمر العذاب الأليم، وصدق القول المأثور: « لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يرديها، ولا لمالها فلعل مالها يطغيها » روى هذا القول على أنه حديث مرفوع إلى النبي ﷺ. أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو من طريق عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وقال العراقي: أنه ضعيف.

يقول الخوارزمي في كتابه « مفيد العلوم » ص ٢٠٦: من تزوج الغنية كان له منها خمس: مغالاة في الصداق، وتسويف الزفاف، ووفور النفقة، وفوت الخدمة، ولم يقدر على طلاقها لذهاب المال معها.

ويدخل في هذا الباب رغبة الرجل في زوجة عاملة، من أجل الكسب المادي، والعاملة قد تقصر في واجباتها الزوجية وترهق نفسها وزوجها بالمطالب والخدم، على ما هو مفصل في بحث الحجاب عن عمل المرأة خارج بيتها.

ويقول بعض الكتاب: إذا كان القصد من زواج الغنية هو المال، فإن الحصول عليه ولو بالدين أهون من زواج الغنية ما دامت ستكون سبباً في آلام متعاقبة له، وفي المثل الاسكتلندي: لا تتزوج طمعاً في المال. فاقتراضه أهون.

وأخيراً لا يهتم بمال المرأة إلا مدخول القصد، ففي الحكمة: إذا رأيتم الرجل يسأل عن المرأة وما تملك فلا تزوجوه فإنه لص. قالها الثوري^(١).

٣ - الحسب والنسب:

هاتان الكلمتان قيل: إن معناهما واحد، وقيل: إن الحسب هو شرف الوضع الاجتماعي، والنسب هو شرف الأصل، وقيل العكس.

ومهما يكن من شيء فإنهما قد يجتمعان. فيكون الإنسان ذا سلسلة نسبية شريفة، ومع ذلك له وضع اجتماعي شريف، وقد يكون غير شريف النسب في سلسلة الآباء والأجداد، ولكنه في وضع اجتماعي مشرف، كما يقول القائل وهو نهار بن توسعة اليشكري كما في الكامل للمبرد:

(١) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٧ طبعة عثمان خليفة.

دَعَى القوم ينصر مدّعيه فيلحقه بذى الحسب الصميم
أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقرىس أو تميم

وقد يكون العكس، نسب الإنسان العائلى كريم ولكنه فى المجتمع مهين
ذليل .

إن التمسك بالحسب والنسب قد فتن به العرب فى جاهليتهم، ومفاخراتهم
فى ذلك معروفة، وكان موجوداً فى أوائل الإسلام فقضى عليه الدين بالتدريج،
وفى قصة المخلوق وبناته والدعاية لهن على لسان الأعشى ما يصور هذا المعنى .

كان المخلوق أبا ثمانى بنات عوانس رغب الرجال عن خطبتهن لفقرهن،
فأضاف الأعشى الشاعر وأكرمه، فمدحه ونوه بذكره فى سوق عكاظ والمجامع
الأخرى فلم يمحض زمن قصير حتى كانت كل بنت زوجة لسيد كريم .

وكل فتاة تحاول أن تظهر للناس أنها ذات حسب ونسب، قالت العجماء
بنت علقمة السعدية: اجتمعت ثلاث نسوة من بنى سعد، وأخذت كل واحدة
تذكر أحسن أوصاف الرجال، فقالت الأخيرة: وأبيكن إن فى أبى لنعتكن،
فقالت العجماء: كل فتاة بأبيها معجبة، وصارت مثلاً^(١).

بعض الراغبين فى الزواج يبحثون عن فتاة ذات حسب زاك وذات نسب
عظيم، وقد يقصد بعضهم من ذلك أن يطمئن إلى طهارة النسب وشرف البيئة
لأثرهما على خلق المرأة أولاً، وعلى تربية الأولاد ثانياً، ولكن بعضهم ينظر إلى
ذلك ليكون موضع فخر بها وبأسرتها، مكملًا نقصاً لاحقاً به فيتمسح بغيره،
وهو ما يشير إليه رد بنت النعمان للمغيرة .

فى المستطرف جـ ٢ ص ١٨٥ الطبعة القديمة، ص ٢٥١ طبعة الحلبي: أن
المغيرة بن شعبة لما ولى الكوفة ذهب إلى دير هند بنت النعمان وهى فيه عمياء
مترهبة، فاستأذن عليها فقالت: من أنت؟ قال: المغيرة بن شعبة الثقفى، قالت:

(١) أعلام النساء لعمر كحالة - العجماء .

ما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً، قالت: إنك لم تكن جئتني لجمال ولا مال، ولكنك أردت أن تتشرف في محافل العرب تقول: تزوجت بنت النعمان. وإلا فأى خير في اجتماع عمياء وأعور... اهـ.

واسمها الكامل: هند بنت النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن النعمان اللخمية، وتلقب بالحرقة، ترهبت بعد قتل أبيها لزوجها عدى بن زيد، في ديرها المعروف باسمها في ظاهر الحيرة، وكانت بنته وفاء لنذرهما أن خلص الله أباهما من كسرى حين غضب عليه، ولما فتح خالد بن الوليد الحيرة طلب منها أن تسلم لزوجها مسلماً شريفاً فأبت ورفضت الزواج عامة لكبر سنهما، وهى التى قالت متذكرة أيام مجدها:

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة تنتصف
فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف

«أعلام النساء لعمر كحالة» وحرقة بضم الحاء وتشديد الراء.

وغالب ما يقصد من هذه النظرة الوصول إلى خدمة دنيوية من وراء الحسب والنسب، تستولى على الرجل هذه الفكرة فينقب عن المرأة بين أصحاب الرتب أيهم أعلى وبين ذوى النسب أيهم أزكى، ولا يهمله من المرأة بعد ذلك شكلها أو خلقها، ولكن يجب أن يفتح هذا المغرور بصره على الحقائق الآتية:

(أ) حسب المرأة مدعاة لترفعها عليك وزهوها وافتخارها، وشعورها بأنها ربتك وأنت عبدها، فهى فى واد وأنت فى واد، إن بذلت لك حقك المشروع رأيت أنها منحتك أمراً لست أهلاً له، وإن أجابتك إلى ما تسأل كان منة منت بها عليك، وإن لم تجيبك رأيت أنها فعلت أمراً هى أهل له، وقد جعلك الله لها سيدياً فكيف ترضى أن تكون لها عبداً؟

ومن أكبر الشواهد على ذلك فى الأدب العربى قصة هند بنت النعمان مع الحجاج، ذكرها الأبشيهى فى كتابه المستطرف ج ١ ص ٤٦ وستأتى فى بحث الطلاق.

(ب) أن حسبها يفوت عليك خدمتها لك، بل يتطلب ذلك أن تخدمها أنت، أو تهين لها من يخدمها، فإن مثلها لا تخدم نفسها، ولئن كفاها خادم واحد كان ذلك أهون الشر، فقد تطلب عدة من الخدم، لكل منهم عمل معين، كما يفعل آبؤها، وكما يقتضيه حسبها، لتفاخر بكثرتهم وتباهى بالأمر والنهي فيهم.

(ج) أن وضع هذه الحسبية يقتضى نفقات مناسبة، والويل لك إن توانيت أو أهملت، فلتعش في هم ونكد ليصدق فيك القول المأثور «من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا دناءة» رواه الطبراني عن أنس مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وضعفه ابن حبان والنسائي، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات.

ولعل الله سبحانه يريد أن يعكس على هؤلاء أغراضهم، ويخيب ظنونهم، فيأتيهم الشر من حيث لا يحتسبون، لعلهم يعترفون بعجز عقولهم، ويوقنون بسمو الهدى الإلهي الحكيم.

ذكر الأدباء أن أعرابياً قبيح المنظر، لكنه طويل القامة، خطب امرأة فقيل له: على أي ضرب تريد؟ فقال: أريدها وسيمة قصيرة، ليأتي ولدها في وسامتها وفي طولى. فتزوج بها فأتت له بولد في قصرها ودمامته.

٤ - العلم:

يريد بعض الناس زوجة متعلمة، وليس المقصود تعليماً أولياً بسيطاً بل تعليماً عالياً تمنح به الشهادات والألقاب العلمية، وتعتلى به المراكز والمناصب الكبيرة، إنه يريد لها كذلك ليتشرف بها ويفخر بذكرها في الأوساط الراقية، ويباهى بتردد اسمها في الصحف والمجلات، متعللاً في اختياره لها بأن المتعلمة هي ربة المنزل الحديث الذي يحقق لها السعادة.

إن صاحب هذه النظرة العلمية المجردة لا يبالي بالصفات الأخرى التي يجب أن تراعى لتحقيق سعادة البيت، وكثير من تعليم هذا العصر ملوث بما يأتي:

(أ) أن صاحبة اللقب العلمي الناشئة في الوسط الثقافي العالي تميل

بحكم التنشئة إلى النواحي العلمية والنقاش والبحث والأخذ والرد. وقد تزهى، وكثيراً ما يكون ذلك، وتفخر على زوجها الذى يكون فى درجة علمية أقل من درجتها، وهنا تكون معاملتها له معاملة الزميل للزميل لا معاملة الزوجة للزوج، إن نادته فبلقب الزميل أو الأستاذ، وإن نادها فبلقب الدكتورة أو الأستاذة، تراها طوال نهارها أو فى أكثر أوقاتها متنقلة بين المكتبات ودور العلم، أو أمام مكتبتها بين الكتب والمجلدات، وفى ليلها تحب السهر وحضور الحفلات، وهنا يضيع فيها معنى الزوجة وحنان المرأة، ويعيش معها كرجل مع رجل.

(ب) وأنى لمثل هذه الأستاذة المزهوة بلقبها العلمى أن تنزل فتصلح بيتها أو تنظم أثاثها؟ إن مقامها الرفيع يأبى إلا أن يكون لها من الخدم ما يساعدها على التفرغ لعلمها وبحوثها، التى يصعب عليها أن تتركها، وكيف وهى التى أنفقت زهرة شبابها فى الحصول عليها؟

(ج) كثير من المتشبعات بروح هذا التعليم يحملن بين جوانهن المعانى المطلقة لكلمات: الحرية والمدنية والتقدم والتطور والديموقراطية والمساواة، وتستخدمها فى الحديث والزيارات وفى المقابلات، وكم شكنا الناس من مثل هذه المفاهيم التى أسىء استعمالها، ولو ذهبنا نعدد مفاصد هذه النزعة لرأينا العجب العجاب.

ليس معنى هذا أننا نبخس العلم قدره، ولكننا ننعى على التعليم العالى الذى يصرف عن الواجبات الزوجية ويبعد المرأة عن رسالتها الحقيقية فى الحياة، أما لو استعملت علمها فى تحقيق رسالتها كزوجة وأم فإنها تكون المرأة المثالية، ولا يتم ذلك إلا إذا صاحب العلم خلق ودين وفهم صحيح لرسالة المرأة وعلاقتها بالرجل ووضعها فى المجتمع.

٥ - المدنية :

يريد بعض الأزواج أن تكون له زوجة متمدينة متحضرة متطورة اجتماعية لا متمزمتة ولا منطوية ولا رجعية، تجيد الايتيكيكيت وتفهم البروتوكول، ليكون

مرفوع الرأس بين أقرانه إن زاروه فبادلتهم التحية بالتحية، وظهرت بينهم بملابس العصر المناسبة، ثم شاركتهم حفلاتهم الراقصة الماجنة، وهو يزهى بها عندما يتأبط ذراعها عند الخروج، وهى بشكل جذاب وأصباغ لافتة للأنظار ... إلى آخر ما يراه الناس ويشمئز منه العقلاء.

إنه يريد بها بهذا الوصف الذى قد تختفى معه الأوصاف الكاملة للمرأة التى توفر لزوجها وأولادها وبيتها الهدوء والسعادة الحقيقية. لا السعادة الزائفة التى تعرفها من نظرتها الخاصة. ومثل هذه المرأة لا تحقق رسالة البيت أبداً كما يريد بها الإسلام، والواقع المريشيد بذلك.

٦ - الأجنيبات :

يريد بعض الناس، وبخاصة منهم ذوو الثراء، أن يتزوجوا أجنيبات عن الوطن الإسلامى أى من اليهوديات أو المسيحيات، وبخاصة إذا كن من الغرب الأوروبى أو الأمريكى.

وحجتهم فى ذلك أنها أدرى بالواجبات الزوجية، وأقدر على إدارة البيت ورعاية الأولاد من المرأة الشرقية والمسلمة.

والزواج بالكتابات، وإن كان جائزاً شرعاً، على ما سنوضحه فى باب العقد وشروطه، إلا أن له أخطاراً كثيرة، من أهمها: محاولة التأثير على الرجل فى عقيدته وسلوكه، والميل بشعوره وعواطفه نحو وطنها هى وقومها الأجنب، وتنشئة الأولاد على ما تريد هى لأنها أشد أثراً فى تربيتهم من الرجل، كما أنها متشعبة بالمعانى الحديثة للتطور والمدنية، وفيها ما يتنافى مع الإسلام، وقد تأتى فى سلوكها أموراً تراها مناسبة ولكن الإسلام لا يقرها، وهنا يعيش الرجل، إن كانت عنده غير دينية وخلقية، فى معركة نفسية بين الإبقاء عليها، على ما يراه من سلوكها، وطلاقها وهو محتاج إليها، وإليك صوراً توضح خطر الزواج بالأجنيبات :

(أ) ذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه « تراجم إسلامية » أن

الزواج بالأجنبيات يؤدي إلى انحلال العصبية الإسلامية، وهو ما كان سبباً في سقوط الدولة الأندلسية، فإن تزواج الأمراء بالمسيحيات كان كثيراً، ومن الأمراء من أمه نصرانية، مثل عبد الرحمن الناصر. وحفيده هشام المؤيد، فقد كانت المسيحية تتشيع لأهلها وتكيد للمسلمين، ومنهن «ثريا» الرومية بنت أحد قواد أسبانيا، تزوجها أبو الحسن علي بن سعد النصرى الأحمرى ملك غرناطة الذى تولى سنة ٨٧١هـ (١٤٦٦م). تزوجها مع زوجته الحرة عائشة بنت عمه السلطان أبى عبد الله الأيسر. وكان لدسائسها أثر كبير فى الحرب الأهلية فى غرناطة وحوادث أخرى أنهارت بسببها الدولة سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م).

(ب) من جهة أخرى قد يكون زواج الأجنبيات سبباً فى تأليف الملوك والتقريب بين وجهات نظرهم، كما فعله الاسكندر وقواده فى أصهارهم للفرس، وقد تقدم. وهذه الفائدة تظهر إذا كان الزوج أقوى من أهل الزوجة، وعند ضعفه يسارع إليه الانحلال، ويأتى الفناء له ولقومه.

(ج) من أمثال خطرهن ما قامت به «أيلونا» القوطية أرملة «الذريق» ملك القوط عند الفتح، وهى التى يسميها العرب «أم عاصم» تزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير الحاكم الأول للأندلس، وكان نفوذها ووحيتها السيئ من الأسباب التى أدت إلى قتله على يد الخوارج عليه سنة ٩٥هـ.

(د) ومنهن «لامبيجيا» الفرنجية الحسناء ابنة «أودو» أمير «أكويتن» تزوجها عثمان بن أبى نسة الذى تسميه الرواية الأفرنجية «منوزا» وكان حاكماً للولايات الشمالية «البرنية» تحالف مع أبيها الدوق «أودو» ودبر الخروج على حكومة الأندلس والاستقلال بولايته، لكن عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس قتله وأسر زوجته، وأرسلت إلى بلاط دمشق سنة ١١٣هـ.

(هـ) ومنهن «ماريا» الأسبانية النصرانية زوجة الأمير محمد بن محمد، ووالدة عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الأندلس، وتسميها العرب «مزنة».

(و) فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كان تأثير النساء على سلاطين

الأترك قوياً، حتى إن الإيطاليات والصقليات كن يعرضن أنفسهن للبيع اختياراً، لإثارة الدسائس فى الحرم، ومنهن « يافا » الإيطالية، وكذلك « روكسلانا » الروسية التى قتل بسببها وزراء وأمرء، كما ذكره الأستاذ « حسين محمد مجيب المصرى » فى كتابه « فارسيات وتركيات » .

وقد تنبه المسلمون الأولون إلى خطر الزواج بالأجنبيات، وسيأتى فى بحث العقد وشروطه بيان وجهات النظر فى زواج الكتابيات ، وما استند عليه بعضهم من منع هذا الزواج على الرغم من وجود نصوص فى القرآن تبيحه .

بعد هذا العرض نرى أن الأنظار تختلف فى المقياس الذى تقاس به المرأة لتصلح ربة أسرة، والاقتصار على مقياس واحد منها له ضرره، وأريد أن أنبه إلى أن الفتاة المثالية التى يحاول الرجل أن يجدها مكتملة للأوصاف الطيبة من الجمال والغنى والنسب والحسب والعلم. إن هذه الفتاة لن توجد، أو قل أن توجد، فالكمال المطلق ليس له وجود فى هذه الدنيا، فليبحث الرجل عن الصفات التى تكون أقرب لتحقيق الغرض الأصلى من الزواج، وليتغاض عن بعض المقاييس الأخرى، أو فليتغاض عن تقديرها بالدرجة النهائية، ولتكن المؤهلات الأصيلة لرسالة الأسرة على أعلى مستوى إن وجد، أما المؤهلات الأخرى المكتملة فيقبل منها أى تقدير، فإنك أنت أيها الرجل لن تكون الفتى المثالى فى نظر المرأة إذا تطلبت هى ذلك، كن واقعياً وأحب للناس ما تحب لنفسك .

ثانياً - المقياس الإسلامى :

إذا كانت المقاييس الوضعية مختلفة، لأنه ينقصها بعض العناصر التى تجعلها مثمرة، فما هى تلك العناصر، وعلى أى ضرب يكون التركيب للمقياس الإسلامى ؟

ذلك ما أشار إليه الرسول ﷺ مركزاً على الأهم منها فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة « تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها . فاظفر بذات الدين والخلق تربت يداك » .

إن النبي ﷺ يذكر هذه المقاييس لأنها كانت أهم ما وجد في عصره، وقد وجدت بعده مقاييس، تبعاً لتطور المجتمع البشرى وتغير النظرة الإنسانية للحياة ومنزلة الأسرة فيها، وهو يرشد في هذا الحديث إلى اختيار ذات الدين والخلق، ويدعو على من يخالف ذلك بالفقر، الذى كنى عنه بالتراب يلصق بيد الإنسان بمعنى أنه لا يملك من الدنيا إلا التراب، الذى هو من الكثرة وهبوط قيمته بحيث لا يحرص عليه ولا يعتمد عليه، وقيل: إن هذه العبارة هى مثل قولهم: لا أبا لك، وويل أمه. يقصد بها تأكيد الكلام السابق، ولا يراد معناها الوضعى الحقيقى.

أولاً :

لقد جعل الرسول عليه الصلاة والسلام وصف الدين أساساً لطيب العيش وحصول المقصود من الزواج بعد خلو المرأة من الموانع الشرعية، وهو وصف تتلاشى أمامه قيمة كل الأوصاف، وتتضاءل أمام أهميته كل المقاييس التى وضعها الناس، وقد نبه عليه جبريل رسول الله ﷺ عندما أمره أن يراجع حفصة بقوله: أنها صوامة قوامة.

وعلى أساس الدين اختار عمر رضى الله عنه لابنه عاصم زوجة تخاف الله، وهى البنت التى سمعها تحذر أمها من خلط اللبن بالماء لأن الله يراها وهى تفعل ذلك، إن لم يرها أمير المؤمنين، وهذا الزواج المبارك كان من نتيجته الإمام الورع عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين فى الدولة الأموية.

يقصد بالدين عقيدة تبعث المرأة على الخوف من الله، فلا تفرط فى واجباتها العامة ولا فى واجباتها نحو زوجها وأولادها، تصون عرضها وتحفظ شرف زوجها، وترعى ماله بأمانة، وتخلص فى كل ما تقوم به من أعمال، لأنها أعمال دينية مرجوة الثواب.

وهذه العقيدة تلزمها معرفة بالحقوق والواجبات، وتنفيذ لها على الوجه المرضى، والدين بهذا المعنى يتطلب أخلاقاً تكون بالاضافة إلى المرأة كمالاً، وقد

تكون بالاضافة إلى الرجل نقصاً، كما يصور ذلك على كرم الله وجهه: شر خصال الرجال خير خصال النساء، البخل والزهو والجبن، فإنها إن كانت بخيلة حفظت مالها ومال زوجها، وإن كانت مزهوة أبى زهوها أن تكلم أحداً بكلام فيه لين، وإن كانت جباناً^(١) فرقت - خافت - من كل شيء، فلازمت بيتها، واتقت مواضع التهمة خوفاً من زوجها.

وهذا كلام جميل لو لم تتعد هذه الصفات هذه الحدود، ومع ذلك فكل شيء له موضعه الذى يحسن فيه، والعصر الذى يحكم عليه بالخير والشر. وفى الحق إن لم يقدر الإنسان هذا الأصل وهو الدين كان لا بد له من المنغصات الآتية:

(أ) منغصات من جهة الشرف والعفاف، فإن المرأة إذا لم تستشعر الخوف من ربها، وحامت حولها شبهة التهاون فى عرضها أذرت بسمعة زوجها، وسودت بين الناس وجهه، وشوشت بالغيرة قلبه، ونغصت عليه عيشه، فإن كان شهماً غيوراً يعيش فى عراك نفسى وأزمات داخلية، ولم تزل الهواجس تتراكم فى ذهنه، والشيطان يشعل النار فى قلبه، وكيف يجد صاحب هذه الحال سكنه وراحته؟

وإن لم يكن من ذوى الغيرة فترك الحمى يرتع حوله الراتعون. أو يرمى فيه الرعاة، كان هو الديوث الذى لا يجد ريح الجنة، روى النسائى والبخارى وصححه الحاكم عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة، العاق لوالديه، والديوث، والرجلة^(٢) من النساء»، وفى رواية عمار بن ياسر تفسير الديوث الذى لا يبالي من دخل على أهله، أو هو الرجل الذى يعلم الفاحشة فى أهله ويقرهم عليها».

(١) يقال للمرأة جبان كما يقال للرجل جبان أيضاً، ويقال لها حصان ورزان. كما وصف حسان ابن ثابت بها السيدة عائشة رضی الله عنها:

حصان رزان ما تزن برية وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

(٢) الرجلة، ضبطها الحافظ المنذرى بقوله «كسر الجيم» وفى لسان العرب مشکولة بضم الجيم، كأنها مؤنث رجل.

(ب) منغصات من جهة تدبير المنزل وسياسته، فإنها إذا كانت غير مبالية بحقه، سيئة التصرف في ماله لم يزل في هم وقلق، فإن ناقشها فقد يسلم النقاش إلى عراك وتخاصم ثم استفحال للشهر، وإن سلم وسكت وماتت فيه النخوة واهتزت الرجولة كان كالجماذ المتحرك، ليس حيواناً، أو كالحَيوان المتكلم وليس إنساناً، ولأهمية هذا الأصل بالغ في الحث عليه القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فقد جعله القرآن وصفاً مميزاً للكاملات من النساء ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء ٣٤]، ودعا رسول الله على من لا يباليه باله وأهمل في رعايته بالفقر: تربت يداك .

وروى مسلم والنسائي وابن ماجه حديث «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة» وروى ابن حبان في صحيحه حديث «أربع من السعادة، المرأة الصالحة، والمسكن الواسع والجار الصالح، والمركب الهنيء». وروى الطبراني في الكبير والأوسط، وإسناد أحدهما جيد، عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ «أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة، قلب شاكر، ولسان ذاكر، وبدن على البلاء صابر، وزوجة لا تبغيه حوباً في نفسها وماله» والحبوب هو الذنب والخطيئة، وروى النسائي وأحمد بسند صحيح عن أبي هريرة وأبو داود من حديث ابن عباس قوله عليه الصلاة والسلام «خير نسائك من إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك» .

وسياتى توضيح هذه النقطة في بحث حقوق الزوجين إن شاء الله .

إن الإنسان ليس من الفراغ بحيث يستطيع ملازمة البيت ليراقب حركات الزوجة وتصرفاتها، ويناقشها فيما تأتى وما تذر، فإنه خدن أسفار، وزمن بعده عن البيت قد يكون أكثر من زمن مكثه فيه، فلتكن الزوجة من طراز التي سمعها عمر تنشد ليلاً، وقد غاب عنها زوجها في الغزو مدة طويلة، تنشد شعراً يصور اشتياقها لزوجها، ويدل على خوفها من الله وحرصها على شرف زوجها، وسياتى في بحث حقوق الزوجين إن شاء الله» (١) .

(١) انظر تاريخ أمراء المؤمنين للسيوطى ص ٩٥، ومغنى اللبيب لابن هشام ج ١ ص ١٩٩ .

ثانياً :

وقد حُبب الإسلام إلى جانب الدين والخلق أن تكون الزوجة ذات دراية بحقوق الزوجية وإدارة المنزل حتى تستطيع أن تؤدى واجبها على الوجه الأكمل، فإن الجاهلة بالشئ لا تعرف قيمته، ولا درجة طلبه . أو خطورة حظره، ومما يساعدها على ذلك دراسة نفسية الرجل ومعرفة ما يسره وما يحزنه، ومراعاة ظروفه بحيث يكون تصرفها معه فى المصلحة، ومفتاح ذلك كله هو العلم، أى أن تكون قارئة وكاتبة لتستطيع أن تحصل على هذه المعارف اللازمة لأداء مهمتها، ولا يستوجب ذلك أن تكون حاصلة على درجة علمية كبيرة، فإن المبادئ الأولية العامة تكفى، وإن زادت من المعارف بقصد استخدامها لمهمتها الأساسية كان ذلك أحسن، وقد اتجهت الحكومات أخيراً إلى تزويد مناهج الدراسة فى المراحل الأولى للتعليم العام وبخاصة النسوى منه بالمعلومات الأساسية التى تساعد الفتاة على القيام بواجباتها المنزلية .

إن المرأة المثقفة نفسياً واجتماعياً تكون معاملتها لزوجها مرجوة التوفيق، بخلاف الجاهلة بهذه الأصول الأولية لفن المعاملة فإنها ستكون كالغل القمل . قال ابن سيده فى الحديث : النساء غل قمل يقذفها الله فى عنق من يشاء لا يخرجها إلا هو، وقال عمر بن الخطاب : النساء ثلاثة هينة لينة عفيفة مسلمة، تعين أهلها على العيش، ولا تعين العيش على أهلها، وأخرى وعاء للولد، وأخرى غل قمل يضعه الله فى عنق من يشاء، ويكفه عمن يشاء اهـ . قال الأصمعى : كانوا يغلون الأسير بالقد وعليه الوبر، فإذا طال الغل عليه قمل فيلقى جهداً، يضرب لكل من يلقى فى شدة أه والقد هو السير من الجلد . « حياة الحيوان للدميرى مادة : قمل » .

وقد وردت عبارات كثيرة للأدباء فى النساء اللاتى ينبغى الابتعاد عن تزوجهن لجهلهن بفن معاملة الزوج، فمن ذلك قولهم : لا تنكحوا من النساء ستاً : الأنانة، والمنانة، والحنانة والحداقة، والبراقة، والشداقة . وقول بعضهم : لا تنكح أربعاً : المختلعة، والمبارية، والعاهرة، والناشر، وإليك توضيح هذه الصفات :

فالأثانة هي التي تكثر الأنين والشكوى، وتتصنع المرض وتحتال عليه، إما كسلاً منها حتى لا يكلفها زوجها ما تكلف به الزوجة، وإما لأن من طبعها الشكوى من كل شيء ولو كان هينا يمر أمثاله بكثير من أمثالها دون اللجوء إلى ما تلجأ هي إليه .

والمنانة هي التي تمن على زوجها فتقول مثلاً: أعطيتك كذا، وفعلت لك كذا، ويكثر هذا من الغنيات وذوات الحسب والنسب .

والحنانة هي التي تحن إلى ولدها من زوج سابق ويسميها العرب « اللفوت » أو هي التي تحن إلى زوج سابق كانت لها معه حياة طيبة بحسب تقديرها، وصاحب هذه المرأة لا يشعر ببهجة الزواج، ولو حاول أن يرضيها ليصرفها عما تحن إليه فلن يستطيع أن يحصل على نتيجة مرضية، وأصدق شاهد عربي على ذلك بنت قيس بن مسعود الشيباني المقلب بذي الجدين، تزوجها لقيط بن زرارة ابن عدس، وكان فارساً شجاعاً، فلما قتل زوجها ابن عم لها، فكانت لا تسلو عن ذكر لقيط، فقال لها زوجها: أي يوم رأيت فيه لقيطاً أحسن في عينيك؟ فقالت: خرج يوماً يصطاد البقر، فصرع منها، ثم أتى مختضباً بالدماء، فضمني ضمة، ولثمني لثمة، فليتني مت ثمة، فخرج زوجها ففعل مثل ذلك، ثم أتاها فضمها ولثمها، ثم قال لها: من أحسن، أنا أم لقيط عندك؟ فقالت: مرعى ولا كالسعدان^(١). والسعدان نبت من أفضل مرعى الإبل، شبهت لقيطاً بالسعدان وزوجها الحالى بمرعى أقل منه .

والحداقة هي التي ترمى إلى كل شيء بحدقتها فتشتيهه، وتكلف زوجها شراءه أو إحضاره . وقد يعجز فيكون ما يكون .

والبراقة هي المشتغلة طول النهار بتصقيل وجهها وتزيينه، ليكون براقاً لامعاً، وقيل: هي التي تغضب على الطعام فلا تأكل إلا وحدها، وتستقل نصيبها منه، وهي لغة يمانية، يقولون: برقت المرأة وبرق الصبي الطعام إذا غضب عنده .

والشداقة هي المتشدة كثيرة الكلام، ومنه الحديث الشريف « إن الله يبغض الثرارين المتشدين » رواه الترمذى وحسنه عن جابر عن النبي ﷺ .

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج٢ ص ١٩٢ الطبعة الأولى القديمة وعلى هامشها زهور

والمختلعة هي التي تطلب الخلع كثيراً من زوجها بدون سبب .
والمبارية هي المباهية بغيرها، المفاخرة بأسباب الدنيا .
والعاهرة هي الفاسقة التي تعرف بالأخلاء والأخدان .

والناشز هي التي تعلقو على زوجها بالفعال والمقال، مأخوذ من الناشز وهو المرتفع من الأرض، وجاء في كتاب « كشف الغمة للشعراني ج ٢ ص ٦٩ » حديث لم يخرج له أن النبي ﷺ نهى زيد بن ثابت أن ينكح الشَّهْبَرَةَ واللَّهْبَرَةَ والنَّهْبَرَةَ والهنْدَرَةَ واللفوت، وشرح له المعنى، فالشهبرة هي الزرقاء البزية - يعنى العين - واللهبرة هي الطويلة المهزولة، والنهبرة هي العجوز المدبرة، والهندرة هي القصيرة الدميمة، واللفوت هي ذات الولد من غيره .

وإذا عرفت أن النساء فيهن من لا تستقيم بها حياة زوجية وجب الاجتهاد فى الاختيار، يقول أوفى بن دلهم: النساء أربع، فمنهن معمع، لها شيءها أجمع، ومنهن ممنع، تضر ولا تنفع، ومنهن مصدع، تفرق ولا تجمع، ومنهن غيث وقع ببلد فأمرع . ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيهن:

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

وذلك عندما سمع رجلاً يقول:

وكلنا يشتهى شم الرياحين^(١)

إن النساء رياحين خلقن لنا

ويقول شاعر:

سواء وبون بينهن بعيد
ومنهن نيران لهن لهيب

أرى صاحب النسوان يحسب أنها
فمنهن جنات يفيء ظلالها

وأنشد أبو العيناء عن أبى يزيد:

منهن مر وبعض المر مأكول
فيهن من هفوات الجهل تخيل

إن النساء كأشجار نبتن معا
إن النساء، ولو صورن من ذهب

(١) بلوغ الأرب للألوسى ج٢ ص ١٣ .

إن النساء متى ينهين عن خلق فإنه واجب لا بد مفعول
وما وعدتك من شر وفين به وما وعدتك من خير فمطول

إن هذه الأمور تدخل في أخلاق المرأة، وأخلاقها فرع تدينها، وأصل ذلك كله هو العلم والمعرفة، فقد ذكرها بعض الكاتبين في توضيح ذات الخلق والدين، وقد جعلتها هنا كأثر من آثار العلم والمعرفة، وكل هذه أمور متضامنة يوضح بعضها بعضاً ويعتمد بعضها على بعض.

ثالثاً:

استحب الإسلام إلى جانب الدين والخلق أن تكون كريمة الأصل، فالتى لها أصل نسبي كريم تستحى معه أن تفعل نقيصة من النقائص وهى إذا لم تبتعد عما يشينها بوازع من الدين ابتعدت عنه بوازع شرف الأصل، ولو اجتمع الوازعان كان ذلك غاية الكمال، والذي يدعوننا إلى الحرص على اختيار كريمة الأصل أمور:

(أ) إن نجابة الأولاد مرغوب فيها، وفى الغالب ينزع الولد إلى أصوله فى الأخلاق والعادات، بعامل الوراثة أو البيئة أو بهما معاً. ويندر أو يقل أن يشذ عن هذه الظاهرة، وهذا ما يشير إليه القول المأثور: « تزوجوا فى الحجز الصالح فإن العرق دساس » رواه ابن ماجه عن عائشة مرفوعاً إلى النبى ﷺ مختصراً دون قوله: فإن العرق دساس. ورواه ابن عدى من حديث أنس، وهو ضعيف. قال السيوطى فى أول كتابه: الجامع الكبير: جميع ما عزوه إلى العقيلى وابن عدى وابن عساكر والخطيب والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، والحاكم وابن النجار فى تاريخيهما، والديلمى فى الفردوس فهو ضعيف.

والحجز «بضم الحاء وكسرهما» هو الأصل، وقيل: بالضم هو الأصل والمنبت، وبالكسر هو بمعنى الحجة وهو هيئة المحتجز، كناية عن العفة وطيب الإزار. وقيل: هو العشيرة، لأنه يحتجز بهم ويمتنع. ومعنى «دساس» دخال، لأنه نزع فى خفاء ولطف. وروى هذا الأثر بلفظ «انظر فى أى شىء تضع ولدك، فإن العرق دساس» رواه أبو موسى المدينى من حديث ابن عمر، وهو ضعيف، ورواه

ابن عدى فى الكامل وابن عساكر بلفظ «فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن» الجامع الصغير ج ١ ص ٢٢٣ .

وقيل: إن جعفر بن سليمان بن على عاب يوماً على أولاده أنهم ليسوا كما يحب، فقال له ولده أحمد بن جعفر: إنك عمدت إلى فاسقى مكة والمدينة وإماء الحجاز فأوعيت فيهن بضعتك ثم تريد أن ينجبوا. هلا فعلت فى ولدك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلة قومها.

وقال أبو عمرو بن العلاء: قال رجل: لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدى منها، فقيل له: كيف ذلك، قال: أنظر إلى أبيها وأمها، فإنها تجر بأحدهما «عيون الأخبار لابن قتيبة» (١).

يقول الشاعر:

لا تنكحن سوى كريمة معشر فالعرق دساس من الطرفين
أو ما ترى أن النتائج كلها تبع الأخس من المقدمتين (٢)

(ب) أن الرجل إذا تزوج غير كريمة الأصل كانت له سبة ولولده عاراً، فإن النسب مهما كان النظر إليه له دخل فى نظرة الناس ومعاملتهم لصاحب النسب بقدر نسبه، وفى هذا يقول أكثم بن صيفى حكيم العرب: يا بنى لا يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب، فإن المناكح الكريمة مدرجة للشرف، وحكى الأدباء أن أبا الأسود الدؤلى قال لبنيه: يا بنى قد أحسنت إليكم صغاراً وكباراً، وقبل أن تولدوا، فقالوا: وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد؟ قال: اخترت لكم أمماً لا تسبون بها. وأنشد الرياشى (توفى ٢٥٧هـ):

فأول إحسانى إليكم تخيرى لماجدة الأعراق باد عفافها

(١) ج ٤ - الوراثة.

(٢) القياس الافترانى فى المنطق يتكون من مقدمتين، صغرى وكبرى: ومن نتيجة، والسلب خسة بالنسبة للإيجاب، والجزئية خسة أى نقص بالنسبة للكلية، فإذا كان فى إحدى المقدمتين سلب أو جزئية، بمعنى إذا كانت إحدى المقدمتين سالبة أو جزئية، فإن النتيجة لا يمكن أبداً أن تكون موجبة كلية أى لا تكون كاملة تماماً، بل فيها سلب أو جزئية.

وكرم الأصل هو ما لجأ إليه النبي ﷺ عندما رأى عائشة وحفصة تعيبان صفية بأنها يهودية، حيث قال لصفية: «هلا قلت لهما: وكيف تكونان خيراً منى وأبى هرون وعمى موسى وزوجى محمد»؟ أخرجه الترمذى عن صفية.

(ج) أن المرأة النسبية الشريفة يندر أن يطاوعها شرفها على أن تفعل شيئاً يتنافى مع كرم أصلها، فغالب تصرفاتها فى دائرة المقبول، كما تقدم. يقول ابن الجوزى فى كتابه «صيد الخاطر» ما مؤداه: ينبغى للعاقل أن ينظر إلى الأصول فيمن يعاشره ويزوجه أو يتزوج إليه، فإن الشيء يرجع إلى أصله، وبعيد ممن لا أصل له أن يكون فيه معنى مستحسن، فإن المرأة الحسناء إذا كانت من منبت ردى فقل أن تكون أمينة، فأياك ومن لا أصل له، وعليك بصاحب الأصل الكريم الذى يخاف عليه من الدنس، فالغالب السلامة.

وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل: أشر على فيمن أستعمل، فقال: أما أرباب الدين فلا يريدونك، وأما أرباب الدنيا فلا تريدهم، ولكن عليك بالأشراف، فإنهم يصونون شرفهم عما لا يصلح، ثم روى عن أبى إسحق، قال:

دعانى المعتصم يوماً فأدخلنى معه الحمام ثم خرج فخلا بى وقال: يا أبا إسحق، فى نفسى شىء أريد أن أسألك عنه، إن أخى المأمون اصطنع فأنجبوا، واصطنعت أنا مثلهم فلم ينجبوا، قلت: ومن هم؟ قال: اصطنع طاهراً وابنه، واسحق وآل سهل، فقد رأيت كيف هم، واصطنعت أنا الافشين، فقد رأيت ما آل إليه أمره، وأساس، فلم أجده شيئاً، وكذلك أنبأح ووصيف. فقلت: يا أمير المؤمنين: ها هنا جواب، وعلى أمان من الغضب؟ فقال: ذلك لك، قلت: نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعملت فروعاً لا أصول لها فلم تنجب فقال: يا أبا إسحق، مقاساة ما مر بى طول هذه المدة أهون على من هذا الجواب.

فليحذر المرء خضراء الدمن فإنها ستنزح إلى أصلها، ولا يغرنه جمال براق فإن وراءه الشر المستطير.

رابعاً:

أن تكون ولوداً، ليتم بذلك مقصود النكاح من النسل وبقاء النوع وعمارة الكون، والعقيم وإن كانت تحقق له العفة وتساعده على الحياة، فالسكن والراحة النفسية والاطمئنان إلى مستقبل البيت لا يتم إلا مع من هي صالحة للإنجاب . ويعرف كونها ولوداً بسابقتها مع غيره إن كانت ثيباً، وبأصولها وأخواتها إن كانت بكرًا، والصحة والشباب من أمارات الصلاحية للإنجاب فى الغالب، والكشوف الطبية الآن تساعد على معرفة صلاحية الفتاة للإنجاب أو عدم صلاحيتها، وكانوا فى الزمن القديم يلجأون إلى طرق جربوها، وأثبتتها الكتب العربية كتجربة صحت فى نظرهم .

جاء فى كتاب « حياة الحيوان الكبرى » للدميرى، فى مادة « إنسان » قال الأطباء: إذا أردت أن تعلم هل المرأة عقيم أم لا فمرها أن تتحمل بثومة فى قطنة، أى تدخل ثومة فى قطنة فى فرجها، وتمكث سبع ساعات، فإن فاح من فمها رائحة الثوم فعالجها بالأدوية فإنها تحمل بإذن الله، وإلا فلا . قال الرازى: وهى مجربة لذلك .

وولادة المرأة من مميزات الشريفة، وعليها بنى النبى ﷺ تفضيل السيدة خديجة على غيرها من زوجاته حيث قال ضمن كلام عنها « ورزقت منى الولد إذ حرمتموه » وهو مذكور فى بحث « تعدد الزوجات » .

والنبى ﷺ نهى عن تزوج العقيم حتى لو كانت جميلة، روى أبو داود وصححه الحاكم عن معقل بن يسار أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال وأنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال « لا » ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة وقال « تزوجوا الولود فإنى مكاثركم » وثبت بإسناد صحيح عن سعيد بن يسار مرسلًا^(١) « خير نسائكم الولود الودود » وقد جاء هذا الحديث بعدة روايات منها الصحيح والحسن .

(١) الحديث المرسل ما سقط منه الصحابى، أى رواه التابعى مباشرة عن النبى ﷺ أى لم يذكر الصحابى الذى تلقاه عن النبى ﷺ .

ويقول سيدنا عمر رضى الله عنه: لحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد. قال العراقي: ولأبى يعلى بسند ضعيف «ذروا الحسناء العقيم، وعليكم بالسوداء الولود، فإنى مكاثركم الأم»، وعد بعضهم عقم المرأة من الصفات المشئومة التى يجدر بالمرء ألا يلجئ نفسه إليها ما دامت لم تدع إلى ذلك ضرورة أو حاجة.

خامسا :

ينصح الإسلام بتزوج البكر، ليتمكن الحب وتكمل المتعة ويتم الأنس، وقد قال رسول الله ﷺ لجابر: «هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك» وفى رواية بدل «بكرًا» «جارية» رواه البخارى ومسلم وقصته طريفة^(١).

وقد رفع الله من شأن البكارة فجعلها من صفات الحور العين اللائى لم يطمثهن إنس ولا جان قبل من يكن له، وقد قال الله فيهن: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عربياً أتراباً﴾ [الواقعة ٣٥-٣٧]. والعرب جمع عرب وهى المرأة المتحسبة إلى زوجها، والأتراب أى الزميلات فى السن مفرده ترب (بكسر التاء).

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها فى معرض تميزها على غيرها من نساء النبى ﷺ: رأيت يا رسول الله لو مررت بشجرة قد أرتع فيها وشجرة لم يرتع فيها ففى أيهما كنت ترتع بعيرك؟ قال: «فى التى لم يرتع فيها» تريد أنه لم يتزوج بكراً غيرها.

= وذكر مسلم فى مقدمة كتابه أن المرسل ليس بحجة، وقال ابن الصلاح: سقوط الاحتجاج به استقر عليه آراء جماعة الحفاظ وناقدا الأثر، قال: والاحتجاج به مذهب مالك وأبى حنيفة وأصحابهما فى طائفة، ومحكى عن أحمد فى رواية، والشافعى نص على أن مرسلات سعيد بن المسيب حسان لأنه تتبعها فوجدها مسندة، وقال الشافعى فى رسالته: مراسيل كبار التابعين حجة إن جاءت من وجه آخر ولو مرسله، أو اعتضدت بقول صحابى أو أكثر العلماء، أو كان المرسل لا يسمى إلا ثقة، قال ابن الصلاح: وأما مراسيل الصحابة كابن عباس وأمثلة ففى حكم الموصول، لأنهم يروون عن الصحابة وكلهم عدول فجهالتهم لا تضر.

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج. ١٠ ص ٥٣ - ٥٦ وصحيح البخارى طبعة الشعب

وامتياز البكر يظهر فيما يأتي :

(أ) أنها تحب الزوج وتألفه . وهنا يوجد الود المرغوب فيه ، كما في الحديث المتقدم « خير نسائكم الولود الودود » والطبع محبوب على الأُنس بأول محبوب ، كما يقول الشاعر :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

والشيب التي خبرت الرجال ومارست هذه الأحوال ربما لا ترضى بعض الأوصاف التي تخالف ما عرفتته وتعودته من الزوج السابق ، فتكره زوجها ، ويصعب أن يجد حبه إلى قلبها سبيلاً .

(ب) أن بكارتها أكمل في مودته هولها ، فإن الطبع ينفر ، ولو إلى حد ما ، ممن مسها غير زوجها ، حتى لو كان ذلك المس شرعياً ، وقد تشتد النفرة في بعض الطباع فيؤول الأمر إلى الانفصال .

(ج) أنها لا تحن إلى غيره ، لأنها لم تعرف سواه ، وهو المقصود من قولهم : لا تنكحوا الحنانة .

(د) إمكان تعويدها ما يريده الزوج ، وتوجيهها الوجهة التي يرضاها فهي عنده أشبه بالعجينة ، يصورها كيف يشاء ، في أى ناحية من النواحي التي تربطه بها ، ويرسم لها الطريق الذي يحب أن تنتهجه لتحقيق له ما يريد من الزوجية ، وتجعله يدرك معنى الانسجام .

(هـ) أن الأبتكار أكمل في المتعة الجنسية ، ولعل مما يشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لجابر ، « فأين أنت من العذارى ولعابها ؟ » رواه مسلم^(١) ، (واللعب ، إما بكسر اللام مصدر لاعب ، وأما بالضم وهو الريق ، قال الشراح وفيه إشارة إلى مص لسانها ورشف شفيتها عند الملاعبة والتقبيل) ، وقد قالوا في تعليل

(١) مسلم شرح النووي ج ١٠ ص ٥٢ .

ذلك : أنهن أعذب أفواهاً، وأنتق أرحاماً، وأسخن أقبالاً، وأرضى باليسير، روى الطبراني عن ابن مسعود، وابن ماجه والبيهقي عن عويمر بن ساعدة مرفوعاً^(١) «عليكم بالأبكار، فأنهن أعذب أفواهاً، وأنتق أرحاماً، وأرضى باليسير»^(٢).

وفي الأوسط للطبراني عن جابر: زيادة «وأقل خباً» وزاد أبو نعيم عن ابن عمر مرفوعاً «واسخن أقبالاً».

معنى انتق أرحاماً أكثر ولادة، وأرضى باليسير، أى اليسير من العيش تقنع به لأنها لم تجرب عيشاً سابقاً مع أحد، أو اليسير من الجماع لأنه أول عهداها به ولم يسبق فى حياتها ما تظنه أكثر من حاضرها، ومعنى «خباً» خداعاً.

يقول الحريرى فى تفضيل البكر: أما البكر فالدرة المخزونة، والبيضة المكنونة، والثمرة الباكورة، والسلافة المدخورة، والروض الأنف، والطرف الذى ثمن وشرف، لم يدنسها لامس، وما استغشاها لابس، ولا مارسها عابث، ولا وكسها طائث، لها الوجه الحى، والطرف الخفى، والغزاة المغازلة، والملحة الكاملة، والشاح الطاهر القشيب، والضجيع الذى يشب ولا يشيب اهـ (شرح الزبيدى للأحياء جه).

ومزايا البكارة تفسر لنا بعض نواحي أو مبررات حب الرسول عليه الصلاة والسلام للسيدة عائشة، وزهوها على غيرها بأنه لم ينكح بكرة سواها، كما تقدمت الإشارة إليه.

واختيار البكر مرغوب فيه ما لم تكن هناك داعية إلى زواج الشيب. كاحتياج الرجل إلى تدبير المنزل الذى لا يصلح له إلا متمرنة ألفت هذه الإدارة، أو إلى رعاية أولاد عنده لا يصلحهم إلا عاقلة خبرت هذه الأحوال، وهو ما تشير إليه المحادثة التى جرت بين الرسول ﷺ وبين جابر فى غزوة ذات الرقاع، وهما قافلان منها، حيث قال له: «يا جابر هل تزوجت بعد»؟ قال: قلت: نعم

(١) الحديث المرفوع هو المسند إلى النبى ﷺ، وليس موقوفاً على أحد قبله.

(٢) حياة الحيوان الكبرى للدميرى «مادة: قطا».

يا رسول الله، فقال: «أثيبا أم بكرًا» قال: فقلت: بل ثيبًا، فقال «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟» قال: فقلت: يا رسول الله إن أبى أصيب يوم أحد وترك بنات له سبعًا، فنكحت امرأة جامعة، تجمع رءوسهن وتقوم عليهن. فقال: «أصبت إن شاء الله» رواه مسلم^(١) ورواه البخارى^(٢).

وإذا عمد الإنسان إلى ثيب فلتكن مطلقة من غيرها، فهى أولى ممن مات عنها زوجها، وذلك إن أراد حظ نفسه، ذلك أن الزوج يقول للمطلقة إن رأى منها ما لا يعجبه: لو كان فيك خير ما طلقك زوجك، أما الثانية فتقول له إن رأيت منه ما لا يعجبها: رحم الله فلانًا قد كان خيرًا منك بكذا وكذا. أما إذا أراد العطف على أرملة لقرابة أو رعاية أولادها الذين يهملهم أمرهم، أو لأمر آخر فتكون المتوفى عنها أولى، كزوجة أخيه ليضم أولادها، أو زوجة صالحة يرى زواجها راحة له وتكريمًا لها.

وعلى كل حال فالأنظار ما زالت مختلفة فى تفضيل إحداهما على الأخرى، أى البكر والثيب، ولكل وجهة هو موليها، ولولا اختلاف الأذواق لبارت السلع.

ذكر اختيار الدين الحسينى المتوفى سنة ٩٢٨ هـ فى كتابه «أساس الاقتباس» أن على بن الجهم الشاعر المتوفى سنة ٢٤٩ هـ تزوج صببية على امرأته وقال:

قالوا: نكحت صغيرة فأجبتهم
كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة
أشهى المطى إلى ما لم يركب
لبست، وحنة لؤلؤ لم تثقب^(٣)
فأجابته الأولى:

إن المطية لا يلذ ركوبها
والدر ليس بنافع أصحابه
ما لم تذلل بالزمام وتركب
ما لم ينظم فى العقود ويثقب

(١) ج١٠ ص ٥٢ شرح النووى.

(٢) ج٧ ص ٦ طبعة الشعب.

(٣) ورد هذا البيت بلفظ: نظمت بدلا لبست، والتي نظمت هى المثقوبة التى دخل فيها

خيطة العقد.

وجاء هذان البيتان على وجه آخر هو :

إن المطيعة لا يلذ ركوبها حتى تدلل بالركوب وتركبا
والحب ليس بنافع أحبابه حتى يؤلف فى النظام ويثقبا

وفى نظرى أن الرواية الأولى أحسن لتوافقها مع ما قاله الزوج فى الروى،
فالباء فىهما مكسورة، والإجابة على الشعر تكون حسنة إذا توافق الرويان .

وابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد» عزا هذه المحاورة إلى غير هذا الشاعر،
فقال : كانت «فضل» المتوكلية جارية المتوكل، الشاعرة ثيباً، فأراد أبو دلف
الشاعر أن ينكت عليها فأنشد لها البيتين فردت عليه بمثلهما «غذاء الألباب
للسفارينى ج ٢ ص ٣٥٥، المستطرف للأبشيهى ج ٢ ص ١٨٣» .

ومع اختلاف أمزجة الناس فى ذلك فقد أوصوا إذا تزوج الرجل ثيباً ألا
تكون متقدمة فى السن، أى أكبر منه بقدر كبير عرفاً، وجاء فى الأدب ما ينفر
من نكاح العجوز، منه ما ذكره الجاحظ فى كتابه «المحاسن والأضداد»^(١) .

لا تنكحن عجوزاً إن دعيت لها وإن حبيت على تزويجها الذهبا
فإن أتوك وقالوا : إنها نصف فإن أطيّب نصفها الذى ذهبا

والنصف (بفتح النون والصاد) هى المرأة التى بين الحدة والمسنة . لكن قد
تفضل العجوز عند بعض من لا يهتمون بالناحية الجنسية كثيراً، وذلك لمعان
مناسبة فيها أو فيه، ومما قيل فى الترغيب فى نكاحها : العجوز أقنع باليسير،
وأصبر على قلب الدهور، وأقل مشاغبة ومجازبة، تؤثر التذلل، وتجتنب التذلل،
تصبر على الاقلال، وتؤمن من ولادتها الزيادة فى العيال، إن اتسع بعلها صانت
ماله، وإن ضاق سترت حاله، نعم قعدة الغيور ، لا تسبق إليها الظنون،
ولا تثبت معها القرون، ألوف عروف، غير عزوف ولا عيوف (محاضرات الأدباء
للأصبهاني)^(٢) .

(١) ج ٢ ص ٢١ طبع الكتب الثقافية .

(٢) هامش المستطرف ج ٢ ص ١١٨ .

سادساً:

يستحب أن تكون جميلة نوعاً، ولست أقصد الجمال البارع المجرد من الاعتبار الأخرى، الذى تنشأ عنه الآفات التى ذكرت من قبل، بل المراد أن تكون فى جمال لا ينفر الرجل منها، بل مقبل عليها عند استمتاعه بها، ويربط قلبه بها فتعفه عن التطلع إلى غيرها. والجمال كما تقدم، أمر نسبي يختلف باختلاف الأنظار والميول، ولا دخل للألوان فيه، فقد تكون السمراء أحب إلى بعض الرجال من البيضاء، كما قيل:

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب

فلكل أن يقدر من الجمال ما يشاء، وهو مرغوب فيه شرعاً، والناس تميل إليه طبعاً، وبه يحصل التحصن وتقوى العفة لأن جماع الجميلة يستدعى استفراغ ماء الرجل الذى هو داعية الشهوة ولذا راعى أصحابنا فى الأئمة وترتيب أفضليتهم أن تكون زوجته حسناء.

ولهذا أباح الشرع لمن أراد أن يتزوج أن يتعرف جمال المرأة، فينظر إلى وجهها، فإن ذلك أحرى أن يؤدم بينهما، أى يورث الألفة والمودة، وهو مأخوذ من وقوع الأدمة على الأدمة، وهى الجلدة الباطنة، وهذا كناية عن تمام الائتلاف وكمال الانسجام، وقد مر قول النبى ﷺ: «خير نساءكم من إذا نظرت إليها سرتك...» ويخاطب الله رسوله بما يدل على تقدير الحسنى والرغبة فى الجمال فيقول: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنَهُنَّ﴾ [الأحزاب ٥٢]، وقد جعل الله الحور العين من الجمال بحيث يلهب الحماس فى قلوب المؤمنين، ويعظم الرغبة فيهن، فيسارعون إلى تقديم مهورهن بالعمل الصالح.

ولعظم رغبة الناس فى الجمال تفننوا فى وضع مواصفات له، محتالين على ذلك بالاقْتباس من وصف الله للحور العين، فقال بعض الأدباء: إذا كانت المرأة حسناء خيرة الأخلاق، سوداء الحدقة والشعر، كبيرة العين بيضاء اللون، محبة

لزوجها قاصرة الطرف عليه فهي علي صورة الحور العين، المذكورة في قوله سبحانه: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]، ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * غُرَبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧]. والعرب جمع عروب وهي العاشقة لزوجها والحور جمع حوراء، وهي شديدة بياض العين شديدة سوداها.

وقد صرف النظر عن الجمال الحسى بعض من لهم مقصد آخر من النكاح، فمنهم من قصد حسن إدارة البيت ورعاية الأولاد، كأحمد بن حنبل الذى اختار امرأة عوراء عاقلة على أختها الجميلة، فيقال: إنه ذهب لخطبة إحداهما فلما رأى العوراء علم أنها سينكسر قلبها عندما يخطب أختها الجميلة، فأراد أن يدخل السرور عليها فتزوجها هى. وكمن تزوج جارية تسمى «بلاغ» ولما قيل له: كان لك من شرفك ومنزلتك ما ييسر لك مصاهرة الملوك والأمراء، أجابهم بما يقصده من النكاح وهو الإعفاف والخدمة لينصرف هو إلى النظر فى الكتب والاجتهاد فى استنباط الأحكام وقال: إن فى بلاغ لبلاغا، ونسب هذا إلى الإمام الشافعى، وكمن تزوج امرأة بها جذرى تكريماً لها وتطيباً لحاظرها، ذكره الغزالي فى إحياء علوم الدين ج-٣ ص ٨٩ طبعة عثمان خليفة.

ومنهم من خشى كثرة النفقة وزيادة المطالب للمرأة الجميلة، فانصرف إلى غيرها لتخف المؤنة عليه، ولعل هذا ما أراده مالك بن دينار إذ يقول: يترك أحدكم أن يتزوج بيتيمة فيؤجر فيها إن أطعمها وكساها، وتكون خفيفة المؤنة، ترضى باليسير، ويتزوج بنت فلان وفلان، يريد أبناء الدنيا، فتشتهي عليه الشهوات، وتقول: اكسنى كذا وكذا، وهو ما يشير إليه قول الرجل فى تفضيل نكاح العجوز، كما تقدم.

وعلى كل حال فالمرء طبيب نفسه، وهو أعرف بما يصلح له، فإن تآقت نفسه إلى الجمال فليطلب الجميلة، إذا لم يأمن على نفسه الفتنة إن لم يستعف بها، فالتمتع بالمباح حصن للدين.

سابعاً :

رأى بعض العلماء أن تكون المرأة خفيفة المهر، مستدلاً على ذلك بحديث أخرجه ابن حبان عن ابن عباس مرفوعاً: « خيرهن أيسرهن صداقاً » وله من حديث عائشة « من يمن المرأة تسهيل أمرها وقلة صداقها » .

ولعل الحكمة فى ذلك أن ولى الزوجة إذا لم يشتط فى تقدير المهر كان ذلك أمانة منه على رغبته فى الزوج وميله إليه، وإذا كان هذا الشعور موجوداً عنده فإن المهمة ستكون سهلة، والعقد التى تحصل بين الزوجين فيما بعد سيسهل حلها على ضوء هذه الروح السمحة .

ويمكن أن يشير الحديث إلى الترغيب فى تزوج من هى فى درجة الزوج أو أقل منه اجتماعياً ومالياً ليسهل عليه معاشرتها بعد . ولتقل تكاليفها، ويحقق معها معنى القوامه، ومثل هذه المرأة يكون مهرها قليلاً بالنسبة إلى درجة الزوج، وإن كان مناسباً لدرجتها هى، وبالطبع يكون ذلك من عوامل النجاح للزواج واستمراره . وفى موضوع الصداق توضيح لهذه النقطة .

ثامناً :

يرى بعض العلماء أن تكون الزوجة بعدى، أى لا تكون قريبة أصلاً . أو تكون قرابتها غير قريبة، فالقرابة درجات، وذلك لتتم الرغبة والاقبال عليها حيث ينتفى الحياء أو يقل كثيراً بينهما، بالمقارنة مع القريبة، وهذا أنجب للولد كما يقولون، ويعلمون هذا التوجيه بأن القريبة لكثرة اختلاط الرجل بها ودوام نظره إليها واطلاعه على أحوالها تقل رغبته فيها ويضعف ميله إليها، وبالتالي تقل شهوته نحوها، وليس ذلك من مصلحة الولد الناتج منهما، فإن اللذة تنبعث بقوة الاحساس بالنظر واللمس، وذلك فى الغريب الحديد أقوى وأتم، أما المعهود الذى دام النظر إليه والاتصال العام به فإنه يضعف أثر الحس ولا يبعث الشهوة قوية . وفى ذلك يقول سيدنا عمر، كما رواه إبراهيم الحربى فى غريب الحديث، يا بنى السائب قد أضويتم فانكحوا فى الغرائب^(١)، وقال الشاعر:

(١) الإحياء للغزالي ج٢ ص ٣٨ .

تجاوزت بنت العم وهى حبيبة مخافة أن يضوى على سليلي
وقال آخر:

انذر من كان بعيد الهم تزويج أولاد بنات العم
فليس بناج من ضوى وسقم

وقال آخر:

ألا فتى نال العلا بهمه ليس أبوه بابن عم أمه
وتقول امرأة تهاجم زواج ذوى القربى:

أيا عجباً للخود يجرى وشاحها تزف إلى شيخ من القوم تنبال
دعاها إليه أنه ذو قرابة فويل الغواني من بنى العم والخال

ذكر الدكتور محمد وصفى فى زواج القرابة القريبة^(١): إنه يورث النفور
الجنسى، بمعنى أن القرابة ينفر منها الرجل بحكم الطبيعة والألف، إلا عند
الشذاذ الذين لا يبالون، وعند مدمنى الخمر، وذكر أن الحيوانات منها ما ينفر من
الاتصال الجنسي بين الأقارب.

وقال: إن زواج الأقارب فيه خطر اجتماعى، فهو يمنع التعارف بين
الجماعات والأأم، ويجعله قاصراً على الأسرة فقط، كما قال: إن فيه إضعافاً
للجنس، وذلك بعدم دخول عناصر جديدة فيه، وعللت كثرة انقراض الأسر
المالكة فى مصر القديمة وحلول غيرها محلها بمثل هذا الزواج^(٢)، ويقول: إن
الاغتصاب أفضل لعدم توارث القبح والشذوذ الخلقي، وزواج أبناء الأعمام
والخالات يقرب فى الضرر من زواج الأخوات ولذلك نصح الرسول عليه الصلاة
والسلام باجتنابه فقال: « لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويًا » رواه

(١) مجلة لواء الإسلام ١٦ سبتمبر ١٩٤٧م.

(٢) يقول إبراهيم الفراوى كبير مفتشى المتحف المصرى: إن زواج الأخت عند المصريين
كان خاصاً بالأسر المالكة كنوع من الامتياز، أما بقية الشعب فلا يجوز لهم ذلك « مجلة النهضة
بالكويت ٢٤-٤-١٩٧٦ » وانظر: عقد الزواج فى الإسلام.

إبراهيم الحربى مرفوعاً إلى النبى، ورواه موقوفاً على عمر، وهو إبراهيم بن إسحق ابن بشير بن عبد الله بن ديسم أبو إسحق الحربى، ولد ١٩٨ هـ وتوفى ٢٨٥ هـ.

وقال الدكتور محمد وصفى: إن اليهود قد لوحظ فيهم - لاتباعهم طريقة زواج الأقارب كالحالات والعمات والأغراق فى نكاح أولاد الأعمام والحالات بدافع التكتل - انتشار شلل الأطفال المصحوب بالبلاهة.

نشر فى الأهرام (١٣/٥/١٩٧٣) أن مرضاً وراثياً يعرف باسم (تى ساكس) ينتشر فى شمال أوروبا ووسطها وبين أطفال اليهود بالذات. لأنهم لا يتزاوجون مع غيرهم، ومن ثم ينتشر بينهم ضمن الأمراض الوراثية الأولى. وقد تمكن عدد من الباحثين الأمريكيين من كشف نوع الجينات (عناصر الوراثة فى الخلية) التى تؤدى إلى إصابة الأطفال بهذا المرض (برقية من شيكاغو فى ١٢/٥/١٩٧٣ روتر).

وجاء فى الأهرام ٢٣/٥/١٩٦٢ أن يهود إسرائيل لا يزوجون أو يتزوجون من يهود غيرهم، ولذلك احتج اليهود والهنود على هذا المسلك، فمنع التزاوج مع غيرهم يحرصون عليه إلى الآن، ولعله لعقيدتهم العنصرية أنهم شعب الله المختار، لا يجوز تلويث دمهم بدم غيرهم من الأميين.

وقال المختصمون: إن من أمراض هذا الزواج القريب مرض «الهييموفيليا» وهو مرض عائلى يصيب الذكور ويتميز باستعداد خاص للنزف بعد الجرح، وكانت العائلة الإسبانية السابقة مصابة به، وكذلك أبناء الملكة فيكتوريا وبعض أبناء قيصر روسيا السابق.

وقيل: إن سكان جزر «الودا» القاطنين فى جزيرة سيلان يتفشى بينهم قصر الأجسام إلى درجة يخشى منها الفناء، ويثبت أن الحد من تزاوج أبناء العم والحال أو أبناء العمات والحالات يقطع دابر بعض الأمراض بنسبة ١٥٪، ٥٠٪.

وقد تنبه العرب إليه فقال الأصمعى: بنات العم أصبر، والغرائب أنجب، وما قرع الأبطال كابن الأعجمية. وقال آخر:

فى لم تله بنت عم قربة فىضوى وقد فىضوى ردىء الأقارب

بعء هءا، لا فىقال: إءا ءبء الءءء عن النبى ﷺ بالنهى عن زواء الأقارب فلماءا زواء علىاً من فاطمة؟ لأن فاطمة لىست من القرابة القربة فهى لىست بنت عم على، بل بنت ابن عمه، ففىها نوع بعء فى القرابة، على أن هءا التوءىه ءالبى، بمعنى أنه لىس كل من نكء قربة ءحصل له الأءطار المءار إليها، فإن بعءها كالحىاء قد ىتلاشى فى هءا العصر، وقد ءكون القربة قد ءربء بعىءة عنه فلم فىحصل بىنهما إلف ولا طول مءاومة.

ومن أءل أن الأءطار لىست مءءققة ءماماً كان النهى عنه إرشاءاً لا ضرورياً، بمعنى أن الزواء القربى يكون مكروهأ ولىس ءرامأ، فالعلة لىست مءىقنة، وذلك كله على فرض أن الءءء ءبء بطرىق صءىء وأنه مرفوع إلى النبى ﷺ، أما لو كان موقوفأ على صءابى فإنه يكون منبعثأ عن ءءربة ملاءة لا عن طرىق ءشرىعى ءىنى، فىكون من الأمور ءنىوىة ءى ءءور ءشرىعها أو ءءولها فى الشرع على وءوء الضرر فإن ءءقق كان النهى وإلا فلا.

عاشراً:

وءءء فى بعض الكءب أن بعض الناس فىصى أن فىءءار الرءل زوءة فاركا، أى ءبءض زوءها، وىعلل هءا بأن ماءه ىسبق ماءها فىءءرء الولء ءبىها به، أى ءكراً، أو موصوفأ بصفاءه، وقد أورد هءا الرأى «الألوسى» فى كءابه «بلوء الأرب ءء ص ١٠» لكن هءا أمر ظنى لم ءءققه ءءءربة. وإءا ءزوءها كارهة له هل ءصفو ءىاءه معها وءءقق له معنى ءءعاون، والسكن والموءة والرحمة؟ فهل إنءاب الولء على ءاكلءه فىصء أن فىضىع المقاصء الأءرى من الزواء.

على أن إءضابها أو كراهىءها له إءا كانت علة لأصل زواءه بها، فلماءا لا يكون الإءضاب وإءارة الكراهىة ساءة الاءصال الءنسى فقط؟ إن هءا الكلام فىه ءرابة كبىرة.

وبعد، فهذه هي أهم المواصفات للمرأة التي تصلح أن يختارها الرجل لتكون زوجة له، وستظهر قيمة هذه المواصفات عند الحديث عن حقوق الزوجين، وستوجد مواصفات أخرى خلقها الزواج نفسه ولم تكن موجودة قبله كطاعة الزوجة لزوجها، وخدمته ورعاية ماله.... ولعل بعضكم لاحظ أن المتحدثين عن المواصفات لم يهتموا باختيار الغنية أو يندبوا إلى زواجها، لأن الغنية غنى يستحق أن يكون وصفاً بارزاً فيها له آفاته المذكورة سابقاً، لكن لا بأس أن يختار الزوج زوجة لها دخل ما يساعد على رفاهية الأسرة، بحيث لا يكون هو أساساً في تغطية نفقاتها فإذا انقطع انهارت الأسرة، ولكن على أن يكون مورداً مكماً لا غير، إذا انعدم استمرت الأسرة في أداء رسالتها، وهي على كل حال أحسن من الفقيرة تماماً التي لا تملك شيئاً، وسترون في بحث حقوق الزوجين أن المال الخاص لزینب الثقفية كانت له أهميته في معونة زوجها وأولاده منه.

وإذا كان الحديث هنا عن عدم الطمع القوی في مال الزوجة واختيار الغنية، فإن هناك بعض أشخاص يقصدون من زواج الفقيرة أن يفيدوا الزوجة لا أن يستفيدوا منها، كرجل غنى له قريبة فقيرة أراد أن يتزوجها رحمة بها ليعفها وينفق عليها ولترث من ماله بعد وفاته ما يحقق لها عيشاً مقبولاً، وهذا من غير شك قصد نبيل، وإن كان يستطيع أن يساعدها وهو غير متزوج بها، لكن زواجه يقطع الألسن، ويسد باب التهمة عندما يرى الناس إمداده لها وهي غير متزوجة، أو متزوجة بغيره، فالظنون الآثمة كثيرة.

* * *

الفصل الثالث

أسس اختيار الزوج

أولاً - المقاييس الوضعية:

كما اختلفت أنظار الناس فى المقاييس التى تقاس بها الزوجة، اختلفت أنظارهم فى المقاييس التى يقاس بها الزوج، تبعاً للبيئات والعصور، والنظرات الشخصية.

ففى الأمم الحربية التى تقوم حياتها على الكر والفر فى سبيل العيش أو اكتساب المجد، وعلى الكفاح والصبر والمعاناة فى هذا السبيل - نراها تقدر الشجاعة والبطولة فى الرجل وتقيس بها الزوج الذى يستحق أن يؤوى إليه امرأة يحميها ويدافع عنها.

وقد ذكر علماء الاجتماع أن من طقوس بعض هذه الأمم أن الخطيب يفرض عليه أن يضرب عدد كذا من الأسواط فى جمع حافل تحت نظر الخطيبة وأهلها، شريطة ألا يبدى امتعاضاً، أو أية إشارة تدل على ضعفه، فإذا ما قدر له التوفيق فى دفع هذا المهر الشاق أقبلت عليه خطيبته وأهلها لتضميد جراحه وتقديم ما يشعر بالغبطة بموقفه، لأنه أصبح زوجاً تفخر به فئاتهم أكثر مما تفخر بعقد ثمين على جيدها وتزهى به على أترابها.

وذكروا أنه فى غينيا البريطانية التى يبكر فيها بالزواج، لا يتزوج الرجل إلا بعد أن يثبت رجولته فيجرح عدة جروح، ولا بد ألا يظهر أى تألم، ويقطع الأشجار ويصطاد الحيوانات، ولا بد من تحمل مؤنة أسرة الخطيبة مدة من الزمن، ويجتمع الخطيبان فى أوقات فراغهما فى الحفلات والولائم، ويدعى الجيران بوساطة خيط معقد عدة عقد، يحل المدعو كل يوم عقدة حتى تنتهى العقد فيكون يوم الحفل، وهنا يتزين الجميع بالحلى وتزين قرود القرية، ويبدأ الرقص على الطبول بضعة أيام.

ومن الذين يقدسون قوة الرجل سكان جزيرة «سان بلاس» فى شمالى «بنما». فقد جاء فى جريدة الأهرام ١٩٥٥/١/٢٩ أن هذه الجزيرة تقع فى المنطقة الشرقية من بنما التى يسكنها عدد قليل من الهنود الحمر الذين يعادون المدنية، ولا يسمحون لرجل غريب أن يبيت فى الجزيرة.

ومن تقاليدهم فى الزواج أن الفتاة عندما تبلغ سن الزواج (١٤ سنة) تعتمد بعض النسوة إلى قص شعرها فى احتفال تغنى فيه السحرة ويرقصون، ويسجنونها فى كوخ لمدة ثمانية أيام لا يراها إلا امرأتان. إحداهما تحرسها ليلاً والأخرى نهاراً. وعلى كل منهما أن تسكب على رأس الفتاة وعاء من ماء البحر كل ثلاث ساعات خلال الأيام الثمانية ليلاً ونهاراً ليطهر جسدها وتطهر روحها، وفى خلال هذه الأيام الثمانية يقيم والدها المآدب على قدر الطاقة. وبعد انتهاء فترة إعدادها للزواج يحرم عليها التحدث مع أى أحد غريب عن أسرتها، والغلام هناك يبلغ مرحلة الرجولة عندما يستطيع أن يقوم بأعمال الرجال، وفى هذه المرحلة يضع فى أذنيه أقراطاً ذهبية ليقدّمها هدية لعروسه.

والفتاة هى التى تخطب العريس فتفضى لوالدها برغبتها فى زواجه. وعند موافقته يدفع لوالد الفتى مبلغاً من المال ويطلب منه إرسال ابنه لمحادثة بنته فى الزواج، فإذا وافق الوالد عهد إلى اثنين من الرجال بحمل ابنه قهراً إلى كوخ خاص حيث ستلحق به الفتاة، ويمكث عندها نصف ساعة فى اليوم الأول، ثم يغادر الكوخ، وفى اليوم الثانى يمكث وقتاً أكبر، وفى الثالث يمكث حتى منتصف الليل، وفى اليوم الرابع يمضى الليلة كلها، فإن كان لا يرغب فيها هرب بعد كل مقابلة، وعلى والده مطاردته كما يطارد الصيد حتى يرغمه على الذهاب إليها، فلو هرب بعد الليلة الرابعة لا يمكن إرجاعه ويفشل المشروع فتعود هى لاختيار شاب آخر، أما العريس الهارب فلا يستطيع أن يتزوج بعد من هذه القرية، ولو نجح مشروع الزواج حمل الشاب بعد الرابعة كمية خشب للوقود دليلاً على الرضا، ثم يقضى شهر العسل ثلاثين يوماً لا يراها أحد.

وهذه صور أخرى لتقديس الشجاعة فى الزواج « مجلة الاثنين ١٣ سبتمبر ١٩٥٤م » فى قبائل الزولو، عندما يريد الرجل أن يتزوج يجب عليه أن يسبح فى نهر ملىء بالتماسيح أو يصارع أسداً وهو مسلح بخنجر فقط، وذلك ليثبت لفتاته وأهلها أنه شجاع، فإذا خرج منتصراً دفع إلى أهل العروس عشرين رأساً من الغنم، ووجب عليه أن يصحب حماته معه لتعيش شهر العسل بجوار زوجته.

وفى قبائل البوندو، يقاتل الرجل الشجاع منافسيه من طالبى الزواج بفتاته، ليثبت تفوقه عليهم، ثم يقام حفل الزواج، وهو يبدأ من الفجر ويستمر حتى فجر اليوم التالى، ولا ترى العروس عريسها إلا بعد انتهاء الحفل، حيث تذهب إلى بيتها الجديد، وتعد طعام الإفطار لزوجها، لتناوله عند عودته بعد الفجر.

ويعتقد الأهالى أنه إن تناول الطعام بشهية كان معناه أن حياته ستكون سعيدة مع زوجته، فيحاول أن يظهر أنه يتناوله بشهية، وهو مكون من بعض الخضروات وأنواع عديدة من اللحوم منها لحوم الضفادع والثعابين والقروء، وكثير من الأزواج يتناولون مقداراً كبيراً من الخمر المحلية، حتى يساعدهم على تناول هذا الإفطار.

وفى موندا بالبنغال، يطلى كلا الزوجين جسمه باللون الأصفر، ثم يوثقان فى شجرتين متقابلتين ويجب أن يفكا وثاقهما دون مساعدة خارجية.

وفى صحراء كلهارى بجنوبى غربى إفريقيا، يجب على الزوج أن يعيش مع أهل زوجته مدة خمس سنوات، ويشتغل عندهم أو لحسابهم طول هذه المدة، وبعد ذلك يصبح له الحق فى الانتقال إلى بيت مستقل. ومن تقاليد هذه المنطقة، أن الزوج يشتري زوجته بثمن يتراوح بين عشرين وخمسين رأساً من الماشية، وذلك حسب جمال الفتاة ومركز عائلتها، وإذا ضايقته الزوجة زوجها فإنه يذهب إلى أبيها ويشكوها، فيعمد الأب إلى نصح بنته، فإن عادت الشكوى فإنه يعاقبها بالجلد، أما إذا لم تكن هناك فائدة فى إصلاحها فإنها تعود إلى أبيها ويسترد الزوج ماشيته، وهذا يحدث نادراً.

وتقوم العروس وصدقاتها ببناء البيت الذى ستسكنه بعد زواجها ويراعى فى الزوج أن يكون قوياً شجاعاً ليثبت لأهلها أنه إذا حاق بها خطر فإنه لن يهرب، بل يدافع عنها.

وجاء فى مجلة «المصور ٤ من فبراير ١٩٤٩» أن من عادات جنوبى السودان امتحان الخطب بقلع ثنيتيه الأماميتين دون إبداء أى ألم، فإن تألم كتب عليه الحرمان من الزواج إلى الأبد، وإن نجح اختارت الفتاة من يتقدم بأكبر عدد من البقر.

ولا يثبت الزواج إلا بعد الاختبار، فإن ولدت بنتاً ثبتت، وإن ولدت ذكراً كان للزوج أن يعيدها مع ولدها المشئوم إلى والدها ويسترد نصف بقره، وإن لم تلد تختبر تحت شخص آخر ثبت أنه غير عقيم بأن تكون له ذرية، ويختار من أقارب الزوج، فإن ولدت قضى بينهما بالانفصال وضاعت بقره، وإن لم تلد قضى بالانفصال وأخذ بقره.

وسترى فى تعرف الزوجين عادات «مدغشقر» فى اختيار الزوج ملخصاً من كتاب «حاضر العالم الإسلامى» ومثل هذا الاختبار موجود فى قبائل «نيام نيام». ويزكر أن فى بعض قرى الصين إذا كثر خطاب العروس أقيم حفل تركب فيه الفتاة جواداً وتجرى فى أحد الميادين يتابعها الخطاب، فمن ظفر بها أخذها، ومن الطريف أنها تحمل معها سوطاً تطارد به من لا تريده.

وجاء فى كتاب «الرحالة المسلمون» من رواية «السيرافى» أن فى المحيط الهندى جزائر تريد فى المهر أن يقدم لل بنت رأس رجل من الأعداء، فإذا قتل اثنين تزوج اثنتين، حتى لو قتل خمسين تزوج بعددهم من النساء، وذلك لكثرة أعدائهم، فقيمة الرجل عندهم شجاعته.

وجاء فى هذا الكتاب أن ابن بطوطة قال عن نساء «زبيد»: إن للغريب عندهم مزية، ولا يمتنعن عن تزويجه كما يفعل نساء بلادنا، المغرب، فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته، وإن كان بينهما ولد فهى تكفله وتقوم بما يجب له

إلى أن يرجع أبوه، ولا تطالبه في أيام غيابه بنفقة ولا كسوة ولا سواهما، وإن كان مقيماً فهي تقنع منه بالقليل، ولكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبداً، ولو أعطيت إحداهن ما تحب أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل.

ومن تقديس القوة ما رآه ابن بطوطة في الهند عند زواج الأمير سيف بأخت سلطان «دلهي»، وسيأتي في بحث الزفاف.

وعرب الجزيرة كانوا يحبون القوة والشجاعة في الرجل، ومن حكاياتهم المكتوبة في ذلك ما ذكره السيوطي في تاريخ أمراء المؤمنين (ص ١١٨) أن عبد الرحمن بن ملجم المرادي قاتل على، خطب امرأة من الكوفة حسناء، اسمها «قطام» بنت شجنة التيمية، أو قطام بنت علقمة، أو بنت الأخضر، كان على بن أبي طالب قد قتل أباه وأخاها يوم «النهران».

فاشترطت عليه أن يدفع لها مهراً ثلاثة آلاف درهم وعبداً ووصيفة وقتل على، ففعل ذلك، وفي هذا يقول الفرزدق:

فلم أر مهراً ساقه ذو سماحة
ثلاثة آلاف وعبد وقينة
فلا مهر أغلى من على وإن علا
كمهر قطام بين غير معجم
وضرب على بالحسام المصمم
ولا قتل إلا دون قتل ابن ملجم

والأمم التي تقدر العنصرية وتعيش على العصبية، وتنظر إلى الأحساب والأنساب نظرها إلى ضروريات الحياة لا ترضى بالزوج إلا إذا فحصت نسبه، وبحث شجرة أصوله، حتى ينتهي البحث إلى الجذور الغائرة في أعماق القدم، فهي تفخر بمن علا نسبه وزكا أصله وعزت قبيلته.

ومن هؤلاء الأمة العربية في جاهليتها، عندما كانت روح التعصب متحكمة فيها، متسلطة على شعورها مكيفة اتجاهاتها، فما كانوا يصهرون إلى القبائل الذليلة أو الوضيعة في نسبها، المغمورة في أصلها، بل لا يرضون بغير العرب أصهاراً، فغيرهم عجم لا قيمة لهم مهما بلغوا من الجاه والسلطان، وذلك

كله احتراماً لعنصرهم، وصوناً لدمهم أن تلوثة الكدورات الأعجمية، وتشوبه شائبة دخيلة، ليس لها عراققتها بالمعنى الذى يفهمون .

وخبر همام بن مرة ومنعه بناته من الزواج لعدم وجود الأكفاء قد سبق ذكره .

وروى أن النبى ﷺ قال : « إذا جاءكم الأكفاء فأنكحوهن ولا تربصوا بهن الحدثنان » أى نوائب الدهر، رواه فى الفردوس عن ابن عمر بسند ضعيف، وقيل : موضوع « الجامع الصغير للسيوطى » .

والأدب العربى زاخر بالتمدح بالعمومة والخؤولة حتى بالاسترضاع، ولا يزال لهذه النعرة الجاهلية أثر فى بعض القبائل فى وقتنا الحاضر .

ويرى بعض الناس الذين يسبحون فى عالم الحب ويحلقون فى سماء الخيال أن الحب هو مقياس الرجولة، أو عنوان شرف الفتى، فإن كان دقيق الحس رقيق الشعور كان هو أمل الفتاة، ولهم فى اختبار حبه أوضاع غريبة شاذة دخلها التطور بتطور الزمن .

ذكر المؤرخون الاجتماعيون أنه فى بعض بلاد أسبانيا لا يحظى الرجل بقبول الفتاة له زوجاً إلا إذا برهن على حبه بكل ما وسعه جهده، فتراه يقف تحت نافذة الغرفة التى تقطنها الفتاة ساهراً يقاسى ألم البرد ووحشة الظلام، ويستمر على ذلك ساعات طويلة فى ليال عدة، يستشفع ويتضرع لعلها أن تعيره لفته أو ترمى إليه بكلمة تشفى غلته، وهى فى دلها متأبية مستعصية، حتى إذا أتم العدة المفروضة عليه، وهو بهذه الحال، التى لا تعرف الملل مهما اشتط الغزال الشارد فى نفااره . عرفت الجامحة أنه هو المدنف المعنى، فتوفى دين غريمها بعد أن كان ممطولاً، وترضاه زوجاً لها تشاطره أحلامه الحلوة .

وهكذا اختلفت الشعوب قديماً وحديثاً فى نظرتها إلى الرجل الجدير بتكوين الأسرة، وبحسب بساطة الحياة وتعقدها، ووحدة أهدافها وتعددتها، تعددت المقاييس واختلفت المعايير، وهذه الملاحظة كما ترى فى الأمم نراها فى

الأفراد، فلكل بنت نظرتها الخاصة فى الفتى، وكذلك لولى أمرها نظرتة الخاصة فيه، قد يوافق عليها العرف وقد يخالفها، ومخالفتها للعرف تكون تحت تأثير قوى، ولا يتحمل المخالفة إلا رجل له شخصية قوية وشجاعة أدبية ظاهرة، أو بنت لها استقلالها ولها أسلوبها المتحرر فى الفكر والسلوك، ومهما يكن من شىء فإن من أهم نظراتها فى فتى الأحلام، ما يأتى :

١ - المال :

يريد البعض من الزوج أن يكون غنياً، لتنال الزوجة فى كنفه ما تريد من متع الحياة، وبخاصة فى عصرنا الحديث الذى كثرت مطالبه وتنوعت متعه، تريد الزوجة زوجاً سهلاً فى إنفاقه، لا يعارض فى الاعتمادات المرصدة فى ميزانية الأسرة الحديثة، وتتغالى بعض النسوة فى تقدير الغنى إلى أن يطغى على الاعتبارات الأخرى، فلا يهتمها من الزوج سلوكه، ولا سنه ولا شكله .

وكما تحرص الفتاة على غنى الفتى، كذلك يحرص بعض أولياء الأمور عليه لمصلحته هو قبل مصلحة البنت، كما يشاهد فىمن ركبه دين أو حلت به أزمات لا يفكها إلا ثرى طاعن فى السن أو فتى وارث أموالاً طائلة برز بها فى المجتمع بسهراته وحفلاته وما إلى ذلك، فهو يبيع بنته بيعاً ليفوز بقبض الثمن ولا يهتم انعكاس ذلك على الفتاة .

ومن الصور التى تبرز لنا اهتمام الناس بالمال، ما جاء فى تقرير لوفد مصرى^(١) عن السودان الجنوبى، أن الأبقار هناك هى الثروة الوحيدة، التى تحدد مركز الشخص الاجتماعى والتى تدفع مهوراً فى الزواج، وجاء فيه: أن من العادات هناك ألا تشرب البنت العذراء اللبن مطلقاً حتى تصل إلى سن الزواج، وعندما تبدأ شربه يكون ذلك علناً أمام الناس، فيبدأ الشبان يتهافتون عليها. أو يبدأ شقيقها بالبحث عن زوج غنى حتى يستفيد من الأبقار التى تدفع مهراً.

(١) صلاح سالم وأحمد حسن الباقورى نشر فى آخر ساعة ٢١-١-١٩٥٢م.

وجاء فى أهرام ٥/٩/١٩٧١ أن هناك حفلاً يسمى « حفل وداع الأصدقاء » فى بعض بلاد أوروبا وأمريكا، حيث تحرص فيه صديقات العروس على إقامة حفل وداع لصديقتهن صباح يوم زفافها، كما يحرص أصدقاء العريس على إقامة حفل مماثل .

ولهذا الحفل قصة قديمة، فيقال : إن أحد أهالى هولندا عارض زواج ابنته من طحان فقير، بحجة عدم استطاعته تقديم الهدايا اللازمة لعروسه، فأقامت صديقات العروس حفلة قدمن لها خلالها كثيراً من الهدايا ووافق الأب بعد هذا الحفل على زواج ابنته .

إن حرص الفتاة وولى أمرها على اختيار الفتى لمجرد غناه بغض النظر عن كل شىء سواه له أخطار منها :

(أ) أن المال غير مأمون الزوال، خصوصاً إذا أرهق الرجل بالمطالب التى تتجدد كل يوم، ولا تقف عند حد، فستأتى أيام تقاسى فيها الفتاة مر العذاب، بعد أن تمتعت أياماً بما لذ وطاب، وستبقى لها الصفات المرذولة الأخرى التى كان يغطيها فى الرجل ثراؤه وأعمالها الغنى عن النظر إليها، فما أشبه حياتها بكأس فى أسفله سم، هو فى أوله حلو المذاق، وفى نهايته سم زعاف، وينطبق على هذه الحالة المثل المصرى العامى « يا واخدة القرد على ماله، المال يفنى ويبقى القرد على حاله » .

(ب) أن الناس ليسوا جميعاً ذوى ثراء كبير كما تريده المرأة، فأمثال هؤلاء عددهم محدود، ولا يكفى هذا الجيش اللجب من النساء فلو رفض الناس الإصهار إلى من دونهم لكثرت العوانس وازدحمت بهن الأسواق، وطلبن منفذاً غير شرعى لتلبية نداء الغريزة، وهو نداء صارخ، لا يمكن أن تصم دونه آذان الطبيعة البشرية .

(ج) أن سعادة المرأة ليست فى المال وحده، وإلا فبريك قل لى، ما موقف المرأة المتزوجة فى بيت فيه سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة،

وزرأبى مبنوثة، قد تحلت فيه بأفخر أنواع الحلى، ولبست فيه أرق الثياب وأرقاها، وأكلت من الطعام مشتتهاها، ثم لا تجد من زوجها فى الصباح إلا الضرب والسباب، وفى المساء إلا السهر والشراب، والتردد على بيوت الأصدقاء والصديقات، وهى تتقلب على جمر الانتظار لمن يؤنسها، ويملاً عليها فراغ حياتها، فما يكون منها إلا أن تندب حظها العاثر، وأملها الضائع.

إن الحياة السعيدة تتطلب شيئاً كبيراً وراء المال، ورحم الله سعيد بن العاص، الذى أبى أن يزوج بنته لزياد بن أبيه، حينما بعث إليه يخطبها وساق إليها الهدايا، فأخذها سعيد وقسمها على الناس، ووقع فى أسفل كتابه ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْنَى ﴿﴾ .

وقد نبه الله إلى خطر هذه النظرة المادية بقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢].

وأبو بكر رضى الله عنه يقول فى هذه الآية: انجزوا ما أمركم الله به من الزواج ينجز لكم ما وعدكم من الغنى. «تفسير ابن كثير». وكذلك عمر يقول: عجبى ممن لا يطلب الغنى فى الزواج وقد قال الله: «إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ»؟ «تفسير القرطبي».

والحديث الشريف قد شجع على معونة الناكح الذى يريد العفاف، بل قال فيه وفى غيره «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد فى سبيل الله، والمكاتب الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العفاف» وقد تقدم.

وليس المقصود هو التنفير من الغنى، فإن أى إنسان يحبه، والإسلام نفسه يشجع عليه فى كثير من النصوص، ولكن الغنى المحبوب هو الذى قال فى مثله النبى ﷺ: «نعم المال الصالح للعبد الصالح» رواه أحمد عن عمرو بن العاص بسند جيد، أما الغنى الخالى من التقوى والعمل الصالح فهو المذموم، والإسلام راعى فى بناء الأسرة القدرة على تكاليفها. ولكن ليس المراد تكاليف الرفاهية التى لا يستطيعها إلا الأثرياء، أو تكاليف بعيدة عن رقابة الله وتقواه، فإذا كنا

نذم الغنى هنا كمقياس للزوج السعيد فإنه الغنى المجرد عن الصفات الأخرى اللازمة للسعادة الزوجية الحقة، فإذا اجتمع المال والخلق كانت النعمة عظيمة:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتماعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

٢ - الحسب والنسب :

وكذلك يريد بعض الناس من الزوج أن يكون ذا منصب عال ونسب زاك، ومقام كبير فى الوسط الذى يعيش فيه، وذلك ليفخروا بالإصهار إليه .

وهذا خلق قديم فى الناس يفخرون بأنسابهم وأوضاعهم الاجتماعية، ولئن كان فى هذا الفخر اعتزاز بطهارة النسب وتوارث المجد فى الذرية إيدانا بتأثير عامل الوراثة، والبيئة أيضاً، فى التربية، كما جاء أن الرسول ﷺ نفسه أخبر عن نفسه بأنه ابن العواتك من سليم، وأنه ما ولد من سفاح بل ولد من نكاح - فإن هذا الفخر قد يقصد به معنى التعالى والكبر والغرور، لا التحدث بنعمة الله، وهو ما يهدف إليه كثير من الناس، فالذين يحبون الإصهار إلى ذوى الحسب إنما يكونون غالباً راجين من وراء ذلك خدمة دنيوية عاجلة، أو شهرة ترضى غرورهم وتلفت الأنظار نحوهم، وهم فى ذلك لا يباليون بخلق أو دين، فالحسب والنسب عندهم كل شيء .

وفى هذه النظرة من الأخطار ما فى النظرة إلى الغنى، فالمناسب أعراض زائلة، والأنساب لا تفيد إن كان الفرع سيئاً، فكل إنسان وعمله، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه، وصدق الشاعر إذ يقول :

لئن فخرت بأباء ذوى حسب لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

وليس كل الناس من هذا الصنف الذى تريده المرأة أو أولياؤها . فليتقوا الله فى الفتيات اللاتى يردن العيش فى كنف أسرة آمنة، وليضعوا أمام أعينهم هذه القصة الرائعة التى تتمثل فيها النظرة السامية لنواحي الكمال فى الرجل، وهى قصة سعيد بن المسيب علامة التابعين بالمدينة المتوفى على أحد الأقوال سنة ٩٤هـ، حين زوج بنته من رجل فقير أنس فيه التدين والخلق الكامل .

يقول عبد الله بن أبي وداعة^(١):

كنت أجالس سعيد بن المسيب، فافتقدني أياماً، فلما أتيته قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: هلا أخبرتنا فشهدناها!! قال: ثم أردت أن أقوم فقال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله تعالى، ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا، فقلت: وتفعل؟ قال: نعم، فحمد الله تعالى وصلى على النبي ﷺ وزوجني على درهمين، أو قال على ثلاثة قال: فقمتم وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي وجعلت أفكر ممن أخذ ومن أستدين فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي فأسرجت وكنت صائماً، وقدمت عشائي لأفطر، وكان خبزاً وزيتاً، وإذا بابي يقرع، فقلت: من أنت؟ قال: سعيد، قال: ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب وذلك لأنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد، قال: فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بداله، فقلت: يا أبا محمد، لو أرسلت إلى لأتيتك، فقال: لا، أنت أحق أن تؤتى، قلت: فما تأمر؟ قال: إنك كنت رجلاً عزباً فتزوجت، فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك. وهذه امرأتك، وإذا هي قائمة خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها فدفعتها في الباب ورده، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب ثم تقدمت إلى القصة التي فيها الخبز والزيت، فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه، ثم صنعت السطح فرميت الجيران، فجاءوني وقالوا: ما شأنك؟ قلت: ويحكم!! زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم، وقد جاء بها الليلة على غفلة، فقالوا: إن سعيداً زوجك؟ قلت: نعم قالوا: وهي في الدار؟ قلت: نعم، فنزلوا إليها، وبلغ ذلك أمي فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام، قال: فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها،

(١) جاء في الإحياء في كتاب النكاح أنه زوج بنته لأبي هريرة، على درهمين، وحملها إليه، وجاء بعد سبعة أيام يسلم عليها، ونقل ذلك عن أبي طالب المكي صاحب قوت القلوب، فهل كان لسعيد بنتان زوج إحداهما لأبي هريرة والأخرى لأبي وداعة؟ وأما خبر ابن أبي وداعة فقد ذكره في باب «ما على المرء من ترك التزويج وفعله».

فإذا هي من أجمل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله، وأعرفهم بحق الزوج، قال فمكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه، وكلما هممت بالخروج قالت: إلى أين؟ قلت: إلى مجلس سعيد، قالت: اجلس هنا أعلمك علم سعيد.

فلما كان بعد الشهر أتيتها وهو في حلقتة، فسلمت عليه فرد على السلام، ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس فقال: ما حال الإنسان؟ فقلت: بخير يا أبا محمد، على ما يحب الصديق ويكره العدو، قال: إن رابك منه أمر فدونك والعصا، فانصرفت إلى منزلي فوجه إلى بعشرين ألف درهم اهـ.

وقد خطر ببال بعض الذين يسمعون هذه القصة أن البنت كانت دميمة أو بها عيب آخر جعل أباهما يزوج بها في أحضان فقير لا يملك إلا درهمين، ثم يساعده بعشرين ألف درهم بعد الزواج، ولكن لو علمت أنها زوجة مثالية في جمالها وخلقها وعلمها وغناها وحبها لزال ما يجول بخاطر هؤلاء، فهذه هي صفات الكمال في المرأة الصالحة.

على أن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان كان قد خطبها لولي العهد ابنه الوليد، لكن سعيداً أبى أن يزوجها له، وعظم عليه أن يضع بنته في بيئة لا تعجبه، فاختر لها هذا الزوج المتواضع ليرعى حرمتها وحرمة أبيها، ويحافظ على حق الله فيها، وقد غضب عبد الملك على سعيد فعذبه عذاباً شديداً على عدم إصهاره لأmir المؤمنين.

ومثل هذا ما ذكر أن أبا العتاهية لم يرض أن يزوج بنته للمنصور أخى هرون الرشيد، وكان له بنتان سماهما: لله، بالله. وكانت المخطوبة هي «الله» فادعى أنها خطبت لابن أخيه، ولما سأله الرشيد عن سبب رفضه الإصهار إلى أمير عباسي قال: إنما طلبها ابن المهدي لأنها بنت أبي العتاهية، وكأني بها قد قلها فلم يكن لي إلى الانتصاف منه سبيل، وما كنت لأزوجها إلا بائع خزف وجرار، ولكنني أختاره لها موسراً.

يريد بعض الناس زوجاً مدنياً متحضراً يفهم الأوضاع الحديثة ويجيد ما تنفست عنه المدنية في حفلاتها وسهراتها، ليجارى الفتاة وأهلها في مظاهر التمدن، ويفخروا به في الأوساط المعروفة، إنهم يحبونه وسيما أنيقاً يجيد التحدث وغشيان المجتمعات.... ويختفى عند هؤلاء، عامل الخلق والفضيلة، فتلك كلمات لا معنى لها عندهم، ولا يخفى على أحد تلك المآسى التي شكا منها المصلحون من جراء هذا الاتجاه الأعرج.

ثانياً - المقياس الإسلامى :

إذا كانت المقاييس الوضعية مختلفة بهذا القدر، فما هو المقياس الصحيح للزوج الذى تسعد به الزوجة وتسعد الأسرة؟

١ - يريد الإسلام زوجاً ذا دين يخشى الله فى زوجته ويراقب ربه فى معاملتها، ويؤدى لها واجبها الذى فرضه الله لها، ويستجيب لنداء الشرع فى سياستها على الوجه الذى سنينه فى بحث حقوق الزوجين.

ويقول النبى ﷺ موصياً بالحرص على إجابة رغبة الرجل التقى إن طلب الزواج، ومبيناً الآثار التى تترتب على الرفض «إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير» قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه قال: «إذا جاءكم من ترضون دينه...» ثلاث مرات، رواه الترمذى من حديث أبى هريرة، ونقل عن البخارى أنه لم يعده محفوظاً، وقال أبو داود إنه خطأ، ورواه الترمذى أيضاً من حديث أبى حاتم المزنى وحسنه. ورواه أبو داود فى المراسيل، وأعله ابن القطان بإرساله وضعف رواته. وهذا الحديث فى الجامع الصغير للسيوطى، وجاء فيه: رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة، وهو صحيح. وفى تعليقات على الجامع الصغير: أنه حسن.

ومما أثر من الحوادث فى هذا الموضوع ما رواه أحمد وأبو يعلى بسند صحيح عن أنس قال^(١):

(١) الطالب العالية ج ٣ ص ١٣.

خطب النبي ﷺ على جليبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال الرجل: حتى أستأمر أمها، فقال النبي ﷺ «فنعم إذن» فانطلق الرجل إلى امرأته فذكر لها ذلك، فقالت: لا، ها الله، - هذا قسم - إذا ما وجد رسول الله إلا جليبيباً وقد منعناها من فلان وفلان^(١) قال: والجارية في سترها تسمع، قال: فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبي ﷺ بذلك، فقالت الجارية: أتريدون أن تردوا على رسول الله أمره؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه، فكأنها جلت عن أبيها - أي كشفت غمة - وقالوا: صدقت، فذهب أبوها إلى النبي ﷺ فقال: إن كنت قد رضيتَه فقد رضينا، قال «فإني قد رضيتَه»، فزوجها^(٢) ثم فرغ أهل المدينة، فركب جليبيب فوجدوه قد قتل وحواله أناس من المشركين قد قتلهم، قال أنس: فلقد رأيتها وإنما لمن أنفق بيت في المدينة، قال في الفتح الرباني: حديث صحيح.

وجاء في رواية أحمد عن أبي برزة الأسلمي أن جليبيبا كان امرأاً يدخل على النساء يمرنهن ويلاعبهن، فقلت لأمرأتى: لا تدخلن عليكن جليبيبا، فإنه إن دخل عليكن لأفعلن.. قالت: وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم - ليس لها زوج - لم يزوجهما حتى يعلم: هل للنبي فيها حاجة أم لا، فقال النبي لرجل من الأنصار «زوجني ابنتك» قال: نعم وكرامة يا رسول الله ونعمة عين، فقال النبي ﷺ: «لست أريدها لنفسى» فقال: لمن؟ قال «لجليبيب» فقال: أشاور أمها.. وقالت الجارية: أتردون على رسول الله؟ ارفعوني إليه فإنه لن يضيعني ونزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقيل: نزلت في خطبة النبي زينب بنت جحش لزيد بن حارثة.

ولأجل أهمية التدين في الزوج زوج سعيد بن المسيب بنته إلى رجل تقى، لأن التقى - كما يقول الحسن البصرى لمن استشاره فيمن خطب بنته - إن أحبها

(١) في رواية أن أمها قالت: حلتى لجليبيب تستنكر ذلك.

(٢) وفي رواية أن النبي دعا للبننت بقوله: «اللهم صب الخير عليها صبا، ولا تجعل

عيشها كدا كدا».

أكرمها، وأن أبغضها لم يظلمها. وزواج هذا شأنه يديم الصلة ويوثق العروة ويريح النفس، ويكون ولى أمر الفتاة قد وصل رحمها حيث وضعها هذا الوضع الكريم مصداقاً لقول الشعبي: من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها. رواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس، ورواه الثقات من قول الشعبي باسناد صحيح، أى أن هذا ليس حديثاً صحيحاً ولا حسناً عن النبى ﷺ.

٢ - يريد الإسلام زوجاً حسن الخلق، وحسن الخلق مظهر من مظاهر التدين، يقصد به دماثة أخلاقه وسماحته، ولطف عشرته، لينسيها غربتها، وليكون متفطناً يقظاً لمواطن الذلة والهوان فيجنبها نفسه وبيته، ويكون، كما تقول أعرابية تصف زوجها - ضحوكاً إذا ولج، سكيته إذا خرج، أكلا ما وجد، غير سائل عما فقد، «السكيت هو دائم السكوت».

هذان الوصفان فى غاية الأهمية، وبدونهما ينعكس المقصود من الزواج، فلا مناص من تقديرهما وجعلهما فى رأس القائمة لمواصفات الزوج الكامل، وكرام الرجال يقدرّون فى الزوج هذه المعانى الدينية ويتسامحون فى الناحية الاقتصادية نوعاً، فإن حسن العشرة فوق كل شىء، وهذا ما نوه به عم النبى ﷺ وهو يخطب خديجة له بقوله: إن كان فى المال قل فإن المال عرض زائل....

وإلى جانب هاتين الصفتين الأساسيتين هناك صفات أخرى وضعها العلماء فى مواصفات الرجل الصالح، وهى كلها نابعة منهما أو مكملات لهما، فإن وجدت كانت خيراً عظيماً، وإن فقدت ففى التدين كفاية، ومن هذه المواصفات:

٣ - أن يكون الزوج على شىء من الجمال النسبى، بمعنى ألا يكون فيه عيب منفر يجعل المرأة لا تحس معه بالسعادة وتتمنى أن يكون لها زوج خال من هذا العيب، والنفس بطبيعتها تتطلع إلى الجمال وتتلسمه فى كل شىء، وهو من عوامل دوام الألفة وتمازج الصحبة، والنسوة يرغبن فيه ويبحثن عنه، كما يهفو إليه الرجال وينقبون عنه.

ذكر ابن الجوزى فى كتابه «آداب النساء» حديث الزبير بن العوام رضى الله

عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يعمد أحدكم إلى ابنته فيزوجها القبيح الدميم، إنهن يردن ما تريدون ». وقال عمر رضى الله عنه : لا تنكحوا المرأة القبيح الدميم، فإنهن يحببن لأنفسهن ما تحبون لأنفسكم»^(١). وجاء فى رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن ماجه أن ثابت بن قيس كان دميماً وأن أمرته قالت : لولا مخافة الله إذا دخل على لبصقت فى وجهه، ولهذا اختلعت منه^(٢).

ومن الأدب المأثور فى ذلك؟ قال أبو العيناء : ذكرت لبعض القيان فعشقتنى على السماع، فلما رأتنى استقبحتنى، فقلت :

وشاطرة لما رأتنى تنكرت وقالت : قبيح أحول ماله جسم
فإن تنكرى منى احوالاً فإننى أديب أريب لا غبى ولا فدم

فردت عليه : إننا لم نرد أن نوليك ديوان الزمام «القدم بفتح الفاء، العى عن الكلام»^(٣).

٤ - أن يكون كفاء للفتاة فى سنها، فلا يقبل المسن الكبير زوجاً للفتاة الشابة، إذ ليس من الانصاف أن يزج الإنسان بفتاة فى مقتبل العمر وريعان الشباب، تتمنى أن تبتسم لها الأمل، وتسبح بروحها فى عالم الخيال، وكانت تؤمل أن يسوق لها القدر من يشاركتها آمالها، ويحقق لها خيالها، ليس من الإنصاف أن يزج بهذه الفتاة بين أحضان شيخ لا ترى منه إلا نوم العشاء وسعال السحر كما تصف العبارة الأدبية، زهدت فيه الدنيا وودعه الشباب إلى غير رجعة، وأوشك أن يكون فى عالم الذكريات.

سارت مشرقة وسرت مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

ويقول الشاعر :

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٢٤، عيون الأخبار ج ٤ ص ١١.

(٢) بلوغ المرام ص ٢٢٢.

(٣) زهر الآداب للحصرى ج ١ ص ١٥٨ طبعة الحلبي.

إن هم النساء فى الرجل معروف كهـم الرجال فى المرأة، كل يريد طرفا آخر
ينسجم معه فى سنه وعواطفه .

يقول عبدة بن علقمة الفجل :

طحابك قلب فى الحسان طروب
فإن تسألونى بالنساء فاننى
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
يردن ثراء المال حيث علمنه
بعيد الشباب عصر حان مشيب
عليم بأحوال النساء طيب
فليس له فى ودهن نصيب
وشرخ الشباب عندهن عجيب^(١)
وقال هرون بن على بن يحيى المنجم :

الغانيات عهدهن إلى انصرام وانقضاب
من شاب شبن له المودة بالخدیعة والكذاب
فانعم بهن وزند سنك فى الشبيبة غير خاب
ما دمت فى ورق الصبا وغصونه الخضر الرطاب
فافخر بأيام الصبا واخلع عذارك فى التصابى
واعط الشباب نصيبه ما دمت تعذر بالشباب^(٢)

معنى شبن مزجن وخلطن، والكذاب هو الكذب، وخابى أى منطفئ من
خبت النار انطفأت أى أنعم بالنساء ما دام شبابك ملتهباً قوياً واخلع عذارك أى
تمتع كيف شئت .

وكان ابن الرومى دائماً معتماً لأنه أصلع، وقال شعرا يعلل فيه ذلك، وعند
مشيبه قال شعرا آخر فيه :

طربت إلى المرأة فروعتني
فأما شيبة ففزعت منها
وأما شيبة فصفحت عنها
فأعجب بالدليل على مشيبى
طوالع شيبتين ألتابى
إلى المقراض حبا للتصابى
لتشهد بالبراءة من خصابى
أقمت به الدليل على شبابى^(٣)

(١) زاد المعاد لابن القيم ج٣ ص ١٠٨ .

(٢) زهر الآداب للحصرى ج١ ص ٢٢٠ طبعة الحلبي .

(٣) زهر الآداب للحصرى ج١ ص ٢٥٨ طبعة الحلبي، ونسب هذا الشعر أيضاً إلى

سأل عمرو بن حريث أبا العريان، وقد كبرت سنه فقال: أجدني قد ابيض مني ما كنت أحب أن يسود - وهو الشعر - واسود مني ما كنت أحب أن يبيض - وهو الوجه - واشتد مني ما كنت أحب أن يلين - وهي المفاصل - ثم أنشد:

اسمع أنبئك بآيات الكبر تقارب الخطو وسوء في البصر
وقلة الطعم إذا الزاد حضر وكثرة النسيان فيما يذكر
وقلة النوم إذا الليل اعتكر نوم العشاء وسعال في السحر
وتركى الحسناء في قيل الظهر والناس يبلون كما تبلى الشجر^(١)

وقال شاعر أشمط (أى شعره أسود مع بياض):

سألتها قبلة في ثغرها ورأت شيبى وقد كنت ذا مال وذا نعم
فأعرضت عن سؤالي وهى قائلة أفى الحياة يكون القطن حشوفمى؟
تريد أنها إذا قبلته في رأسه أو فى فمه ذى اللحية والشارب فى بياضهما فكأنما وضعت فى فمها قطناً، والقطن لا يوضع فى الفم إلا عند الموت.

لما خطب دريد بن الصمة الخنساء، وكان طاعناً فى السن، استشارها أبوها وقال لها: أتاك فارس هوازن وسيد بنى جشم، وهو من تعلمين، فقالت: يا أبت، أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح، وناكحة شيخ بنى جشم، هامة اليوم أو غد؟ وأبت أن تتزوجه.

وجاء فى عيون الأخبار لابن قتيبة (ج٤ ص ٤٦) أنه لما خطبها بعثت إليه جاريتها وقالت: أنظرى إذا بال أيقعى أم يبعثر، فلما عادت قالت: بل يبعثر، فقالت: لا حاجة لى فيه، وكان هذا من علامة الكبر أو الضعف^(٢).

والرباب بنت علقمة بن حفصة الطائى^(٣) خطبها الحارث بن السليل الأسدى، فاستشارتها أمها وقالت: أى الرجال أحب إليك، الكهل الجحجاح،

(١) أسد الغابة لابن الأثير - ترجمة «أبو العريان».

(٢) كتاب أعلام العرب - الخنساء ص ٦٠.

(٣) ذكرها عمر كحالة فى كتابه «أعلام النساء» فى موضع آخر باسم: الزباء بنت علقمة

ابن خصفة.

الفاضل الهياج أم الفتى الوضاح، الزموك الطماح؟ قالت الرباب: الزموك الطماح،
قالت لها: إن الفتى يغيرك، والشيخ يغيرك، وليس الكهل الفاضل، الكثير النائل،
كالحدث السن، الكثير المن. قالت: يا أمه، إن الفتاة تحب الفتى كحب الرعاة
أنيق الكلا، قالت: يا بنية، إن الفتى شديد الحجاب، كثير الغياب، وإن الكهل
لين الجناح، قليل الصياح، قالت: يا أمه، أخشى الشيخ أن يدنس ثيابي، ويبلى
شبابي، ويشمت بي أترابي، فلم تزل بها أمها حتى غلبتها على رأيها، فتزوجها
الحرث على خمس ديات من الإبل وخادم وألف درهم، فلما رحل إلى قومه بها
جلس ذات يوم بفناء مظلمته، وهى إلى جنبه إذ أقبل فتية من بنى أسد نشاط
يعتلجون ويصطرعون، فتتنفست صعداً ثم أرخت عينيها بالدموع: فسألها لماذا
قالت: مالى والشيخ، الناهضين كالفروخ، فقال لها: ثكلتك أمك، تجوع الحرة
ولا تأكل بشديها، فذهبت مثلاً. ثم قال لها: الحقى بأهلك فلا حاجة لى فيك.
فقالت: أسر من الرفاء والبنين.

الجحجاح: السيد، الزموك: سريع الغضب، يغيرك: يغار عليك أو يدخل
الغيرة عليك، يغيرك: يطعمك، أترابي: زميلاتى فى السن، خمس ديات: ٥٠٠
ناقة، أسر من الرفاء والبنين: أى طلاقها أحسن من تهنئتها بالزواج. وصعداء أى
نفساً طويلاً، والنشاط جمع نشيط.

كانت امرأة تحت غنى مسن فطلقت منه وتزوجت شاباً فقيراً، فاحتاجت
يوماً إلى طعام. فطلبت من زوجها الأول لبناً، فقال لها: الصيف ضيعت اللبن،
فذهبت مثلاً.

نشرت آخر ساعة فى ٤/٣/١٩٥٣ أن «دوينى» كان أحد الفرسان النبلاء
فى عهد هنرى الثالث من اليجونوت، وقد لجأ إلى جنيف حيث تزوج بنتاً
صغيرة، وكان هو فى الثانية والسبعين، فاختر القسيس الذى عقد الإكليل لهما
هذه العبارة من الإنجيل: سامحهم يا رب، إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون.

إن تزويج الفتاة من شيخ مسن فيه أخطاء كثيرة منها:

(أ) أن من أهم مقاصد الزواج لكلا الطرفين المتعة الجنسية، وقد عجز الشيخ المسن عنها، وتفاوتت قواهما في هذه الناحية، غلبت عليها الحرارة وغلبت عليه البرودة، فإن لم يسعفها بحاجتها كان الكبت والألم النفسى إن كانت ذات دين تعرف قيمة العفة والشرف، أو كان اللجوء إلى معين آخر بدل المعين الذى غاض مأؤه، وهنا قد ينسحب هرمه على غيرته فيتغاضى، ويقر سلوكاً غير شريف فيكون هو الديوث الذى لا يجد ريح الجنة.

(ب) أنها تعد عليه الأيام وتتمنى موته فى أقرب فرصة، وهذا الشعور يدفعها إلى الكيد له، والعمل جهدها على التخلص منه، فتقحمه فى المخاطر، وتزين له المهالك، وتستعدى عليه النوائب، لتخلص من الغل وتحرر من القيد، فترث ثروته التى أقحمتها فى هذه المهواة، وتستعد بها لمن يقاسمها من بعده لذة الحياة، فيحقق لها ما تمنته، ويعوضها ما فقدته، وقد يدفعها البغض إلى التخلص العاجل منه.

(ج) أن عشرته معها ستكون قاسية أشد القسوة، تفعل ما لا يحب، وترك ما يرغب، يتناول عليه لسانها، وينفر عنه قلبها، إن نظرت إليه كان النظر شزرا، وإن سألته كان سؤالها أمرا، وإن وعدته سوف وماطلت، وإن استدعاها نفرت وتابت.

يقول حبيب الطائى :

نظرت إلى بعين من نم يعدل	لما تمكن حبها من مقتلى
لما رأت وضع المشيب بلمتى	صدت صدود مجانب متحمل
فجعلت أطلب وصلها بتذلل	والشيب يغمزها بالأ تفعلى

اللمة بكسر اللام هى الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن، فإذا بلغ المنكبين فهو جمعة بضم الجيم.

ويقول شاعر آخر:

لم يوافق طباع هذى طباعى فأنا وهى دهرنا فى صراع
وتحريت أن أنال رضاها فأبت غير جفوة وامتناع
فتفكرت لم بليت بهذا فإذا: إن ذا لضعف المتاع

المراد بالمتاع العضو المعروف .

(د) أن هذه الفتاة، وقد حرمت من أكبر لذة يريدها أمثالها، تحب أن تعوض بعض ما فقدت، إذ فاتتها المتعة الجنسية فلتعوضها بمتعة مادية أخرى، تسرف فى طلب الكماليات، وتشتط فى إحضار ما تريد من حلى وملبس ومأكل وأثاث تريد أن تستنزف ماله بعدما أعيها استنزاف خيره الآخر، وهى بهذه المتع المادية غير قاصرة طرفها عليه . بل تستعد لغيره، وتتطلع إلى سواه، فهو بهذا الإرهاق المادى الذى يغدقه عليها كالزراع فى غير أرضه، والبانى فى غير ملكه، والمربى لغير ولده .

(هـ) فى هذا الزواج ضرر صحى بالغ لكلا الطرفين، فالفتاة وهى قوية الشهوة بحكم سنها، لا تستطيع أن تستكمل متعتها معه وهو الضعيف المتراخى الأعصاب، البارد الطبع، وهذا له تأثيره الشديد على نفسيتها وبالتالي على صحتها العامة .

والشيخ - إن أراد أن يظهر أمام الفتاة بمظهر الشاب القوى - يحاول عبثاً أن يجذب قلبها إليه، فيجهد نفسه ويستعين بما استطاع من عقاير يبعث بها الراقد، ويوقظ النائم، يستر بها ضعفه ويشد أزره، ولكن عما قليل سيفتضح الأمر وينكشف السر:

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا التحفت به فانك عار

وسياتى فى بحث شروط الزواج التحذير من الزواج غير المتكافئ، فى السن، والنعى على ما يحصل فى بعض البلاد كالهند، من تهيئة البنت الصغيرة

للحياة الجنسية بذكر هذه الأمور أمامها، وهي بعد لم تنهياً نفسياً ولا بيولوجياً لها، لأن زواج الكبار بالصغيرات منتشر هناك، وله عواقبه الخطيرة في الحمل والولادة، وفي أمور أخرى، ويوجد في معبد شارس بالهند صور جنسية^(١).

نعم هناك بعض حالات ترضى فيها الصغيرة بزواج الكبير إذا كانت لها نظرة في الزواج وراء المتعة الجنسية، كما رضيت نائلة بنت الفرافصة بزواج عثمان ابن عفان على كهولته، حيث قال لها: لا تكرهى ما ترين من الشيب، فإن وراءه ما تحبين، فقالت: إنى من نسوة خير أزواجهن الكهول فقال لها: إنى قد جاوزت حد الكهول إلى الشيخوخة، فقالت: أفنيت عمرك في خير ما يفنى فيه العمر^(٢).

وقد ترضى أيضاً بهذا الزواج إذا كانت هناك دواع أخرى، ولكن هذا الرضا مشوب بالألم النفسى، والرجل الحكيم لا يقدم على هذه الخطوة أبداً.

ومن طريف ما روته كتب الأدب، أن هنداً بنت معاوية بن أبى سفيان وكانت من أبر الزوجات لزوجها عبد الله بن عامر بن كرز، جاءته يوماً بالمرآة فرأى شبابها وجمالها، وقارنه بالشيب فى لحيته قد ألحقه بالشيوخ فقال لها: الحقى بأبيك، ولما عادت إلى أبيها وعلم ما جرى استدعى زوجها وسأله لماذا طلقها فقال: إن الله من على بفضله، وخلقنى كريماً لا أحب أن يتفضل على أحد، وإن ابنتك أعجزتنى مكافأتها لحسن صحبتها. فنظرت فإذا أنا شيخ وهى شابة لا أزيدها مالا إلى مالها، ولا شرفاً إلى شرفها، فرأيت أن أردّها إليك لتزوجها فتى من فتيانك كأن وجهه ورقة مصحف^(٣).

* * *

(١) أمة تبعث، لأحمد حسين، وهو كتاب عن الهند ص ١١٢.
(٢) محاضرات الأدباء للأصبهاني ج١ ص ١٠ على هامش المستطرف.
(٣) أعلام النساء لعمر كحالة، نقلها عن تاريخ ابن عساكر.

الفصل الرابع

الكفاءة فى الزواج

سيتناول الحديث فى هذا الفصل، معنى الكفاءة وما تتحقق به ، ودور
الولى فيها، وقيمة إشراك المرأة واستشارتها فى قبول الزواج.
أولاً - الكفاءة:

الكفاءة فى اللغة تعنى المساواة، والمراد بها فى النكاح المساواة بين الزوجين
فى أمور خاصة يعتبر الإخلال بها مفسداً للحياة الزوجية^(١).

وهذا المعنى أمر درج عليه الناس من قديم الزمان، بدليل أنهم كانوا
يختارون شريكاً أو شريكة فى الحياة من بين الكثيرين الموجودين، فالاختيار نفسه
دليل اعتبارهم للأصلح والأنسب لقيام الحياة الزوجية بمعناها الصحيح، وإن لم
تكن معتبرة كان يمكن الاتصال الجنسى دون تدقيق فى الاختيار، لكن الاتصال
الجنسى وحده ليس كل شىء فى الحياة الزوجية فهناك مقاصد النكاح الأخرى
التي تقدم ذكرها، تلك المقاصد التي تتطلب البحث عن شريك أو شريكة
مكافئة ليستطيع الطرفان التعاون على إقامة هذه الحياة المنشودة، وسيأتى كلام
عن الكفاءة عند غير العرب.

والعرب كغيرهم من الأمم حريصون أشد الحرص على اعتبار الكفاءة فى
الزواج، وبخاصة ما يتصل بالنسب كما تقتضيه طبيعة اجتماعهم، بل إنهم كانوا
حريصين على التكافؤ فى النزال والمبارزة، لا ينازل الشجاع منهم إلا شجاعاً
مثله، ولا ينازل الكبير منهم صغيراً، ولا الشريف وضيعاً.

وفى غزوة بدر ما يثبت هذا الاتجاه العربى، فكانت المبارزة هى التى تسبق
التحام الصفوف، وطلبت قريش أن يبرز النبى لهم أكفاهم من قومهم. وحدث

(١) انظر : عقد الزواج فى الإسلام.

أن أبا جهل لما أراد ابن مسعود أن يجهز عليه أشار إلى سيفه هو ليأخذه ويقتله به، حتى يكون قتله بسيف شريف إن أعوزه أن يكون القاتل شريفاً.

وأخت عمرو بن ود رثته لما قتله على بن أبي طالب فى الخندق، بما يشير إلى أنها تعزت بأن قاتله من أكفائه، فكان فيما قالت :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله بكيته أبداً ما دمت فى الأبد
لكن قاتله من لا نظير له وكان يدعى أبوه بيضة البلد

وبيضة البلد، كناية عن حاميتها وشريفها وكبيرها، كما تحمى البيضة فرخها فى داخلها، وكما تحمى بيضة الحديد رأس صاحبها ضد أخطار القتال.

إن الذى ذكرناه من مقاييس اختيار الزوجين يراد به الانسجام بين الطرفين بأقصى ما يمكن، حتى يكون بناء الأسرة على أساس متين. وقد ذكر الفقهاء صفات أخرى، رأوا أنه لا بد من مراعاتها عند العقد ليكون صحيحاً أو لازماً، وقد اختلفوا فى تقديرها مراعين فى ذلك البيئات والأوضاع التى ألفها الناس ومرنوا عليها، وأصبحت من مقومات شخصيتهم، وتمسك بعضهم بها حتى جعل الإخلال بها مانعاً من صحة العقد، وهو ما يعبر عنه بوجوب الكفاءة بين الزوجين، الوارد فيها قول النبى ﷺ: « لا تنكحوا النساء إلا الأكفاء، ولا يزوجهن إلا الأولياء » رواه الدارقطنى عن جابر، وقوله « قريش بعضهم أكفاء لبعض، بطن بطن، والعرب بعضهم أكفاء لبعض، قبيلة بقبيلة، والموالى بعضهم أكفاء لبعض، رجل برجل ». أخرجه البزار عن معاذ.

وإن كان فى هذين الحديثين مقال، وكذلك قول عمر رضى الله عنه :
لأمنعن زواج ذوى الأحساب إلا من الأكفاء.

١ - وللعلماء فى تقدير الكفاءة وجهان :

(أ) الوجه الأول أنها شرط لصحة النكاح، متى فقدت بطل العقد، وهو قول الشافعية وأحد الروایتين عن أحمد، وبه قال أبو حنيفة إذا زوجت العاقلة نفسها ولها ولى عاصب لم يرض بالنزواج قبل العقد.

(ب) الوجه الثانى أنها شرط للزوم النكاح، يصح العقد بدونها، ويثبت الخيار فى النكاح، وهو الرواية الثانية عن أحمد، والكفاءة بهذا حق للأولياء كما أنها حق للمرأة.

٢ - ثم اختلفوا فى العناصر التى تراعى فى الكفاءة، أو فى مقوماتها.

(أ) فقال مالك فى ظاهر مذهبه: أنها الدين، وفى رواية عنه: أنها ثلاثة: الدين، والحرية والسلامة من العيوب.

(ب) وقال أبو حنيفة: هى النسب والدين.

(ج) وقال أحمد فى رواية عنه: هى الدين والنسب خاصة، وفى رواية أخرى هى خمسة: الدين والنسب والحرية والصناعة والمال، والنسب نفسه فيه عنه روايتان: إحداهما أن العرب بعضهم لبعض أكفاء، والثانية أن قريشاً لا يكافئهم إلا قرشى، وأن بنى هاشم لا يكافئهم إلا هاشمى، وعلى الأولى ليس غير العربى كفاء اللعربية. وكل القبائل العربية متساوية فيها، وتمسكوا بحديث معاذ المذكور، ولكنه معلول، وقال الشوكانى: فى نيل الأطار: لم يثبت فى الكفاءة فى النسب حديث صحيح، وأما حديث مسلم والترمذى عن وائلة بن الأسقع «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم» فالاحتجاج به فى الكفاءة فى الزواج فيه نظر، بدليل ما سيأتى بعد، من إمضائه زواجاً ليس فيه هذا النسب.

ولذلك قال أبو يوسف: إن المولى إذا اشتهر بفضل من علم أو أحرز ما يرفع مكانته عند الناس يصير كفاءاً للقرشية بل الهاشمية، ويؤيده تزويج النبى زينب بنت عمته من زيد بن حارثة، وكفاءة النسب عرفية، يرجع فيها إلى عرف الناس فى تقديرها.

(د) وقال أصحاب الشافعى: يعتبر فى الكفاءة: الدين والنسب والحرية والصناعة والسلامة من العيوب المنفرة، ولهم فى اعتبار الغنى واليسار ثلاثة

أوجه، اعتباره فيها، وإهماله، واعتباره في أهل المدن والغاؤه في البوادي، أى يراعى الوسط في تقدير الغنى .

وعلى هذا لا يكون العجمى كفاء للعربية، ولا غير القرشى للقرشية، ولا غير الهاشمى للهاشمية، ولا غير المنتسب للعلماء والصلحاء والمشهورين بالتقوى لمن هى منتسبة إليهم، ولا العبد يكون كفاء للحرية، ولا من به عيب مثبت للفسخ كفاء للسليمة، والحجام والحائك والحارس ليسوا أكفاء لبنات التجار والخياطين ونحوهم، ولا المحترف يكون كفاء لبنت العالم، ولا الفاسق للعفيفة، ولا المبتدع للسنية .

ويلاحظ أن اعتبار الشافعية لعناصر الكفاءة محله عند إجبار الولى للبنت على التزويج، فإن رضيت وكانت أهلا للرضا، بأن تكون مكلفة جاز الزواج مع اختلاف هذه الأمور، ما عدا الدين « انظر كتاب تنوير القلوب للشيخ الكردي » .

هذا، وكفاءة الإسلام تعتبر فى تزويج الموالى وهم الذين لا نسب لهم بعد الإسلام إلا دينهم، وكذلك الحرية معتبرة عندهم فقط، لأنه لم يقبل من العربى إلا الإسلام أو القتل، وقد اعتبرت كفاءة الحرية، لأن الرق أكبر عاراً من عار النسب الحقير .

وكفاءة المال تصور بما يكفى المهر ونفقة الزوجية، فالعاجز عنهما ليس كفاء للمرأة، وقيل : العجز عن النفقة هو الذى يعتبر فى عدم الكفاءة، أما المهر فلا، لأنه يستطيع الحصول عليه من أقاربه أو بأية وسيلة أخرى .

كما تصور كفاءة المال بأن يكون الطرفان قريبين فى الغنى واليسار، والأصح عدم اعتبارها بهذه الصورة، لأنها أمر عرضى، واعتبار الكفاءة يكون فى الأمور الذاتية الثابتة غالباً .

وكفاءة الدين يراد بها التدين والطاعة، فالفاسق لا يكافئ بنت الصالح، لأن فسقه عار كبير، ورأى بعضهم عدم اعتبار ذلك، لأن الفسق عارض قد يزول بالهداية والتوفيق .

وكفاءة الحرفة معناها تقارب الزوجين فيها، ولم يعتبرها بعضهم إلا إذا فحشت، ومثلوا لذلك بالحجام والدباغ وما تعارف الناس على أنه حقير، إذن المدار في الكفاءة في هذه الأمور العرضية على العرف، والناس في تطور، والبيئات على اختلاف كبير في تقدير الحرف، فقد تكون الحرفة الوضيعة في بلد شريفة في بلد أخرى، وما تراه القرون الماضية حقيراً يراه العصر الحاضر شريفاً.

هذا، وقد قال القشيري أبو نصر: وقد يعتبر النسب في الكفاءة في النكاح، وهو الاتصال بشجرة النبوة، أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين في الزهد والصلاح، والتقى المؤمن أفضل من الفاجر النسيب، فإن كانا تقيين فحينئذ يقدم النسيب، كما يقدم الشاب على الشيخ في الصلاة إذا استويا في التقوى.

٣ - ثم إن الكفاءة عند الجمهور حق للأولياء وللمرأة، وقال أحمد في رواية عنه: إنها حق لله، وعلى هذه الرواية لا يعتبر إلا في الدين فقط، فإنه لم يقل أحمد ولا غيره: إن نكاح الفقير للموسرة باطل وإن رضيت، ولا إن نكاح الهاشمية لغير الهاشمي، والقرشية لغير القرشي باطل.

قال الشوكاني في نيل الأوطار: الكفاءة تغتفر برضا الأعلى، والعقد بدونها صحيح، ويكون التقصير على الأولياء الذين فرطوا في حقهم كما قال الشافعي.

٤ - إن الذي حدا بالعلماء إلى العناية بتقدير مقومات الكفاءة إلى هذا الحد، ما رأوه من طباع الناس التي توارثتها الأجيال، من وجود التنافر عند الاختلاف الواسع بين الزوجين في الوضع الاجتماعي أو الاقتصادي، وما لمسوه من سخط الرأي العام في بعض العصور على عدم التكافؤ في هذه الصفات، وهم يريدون من الزواج أن يكون على أتم صورة يتحقق معها الانسجام المرجو من تكوين الأسرة.

ومن الصور التي تبين حرص الناس حتى في أوائل عهد الإسلام على الكفاءة بين الزوجين ما يأتي:

(أ) ما يزال العرب في الجزيرة العربية يحافظون على مراعاة أن يكون الزوج معلوم النسب لا مجهوله، والمجهول في نظرهم هو ابن الصائغ وابن النجار وابن الحداد، وذلك لأن آباءهم ما كانوا يزاولون هذه الحرف التي أتقنها ومارسها الأجنب عنهم الوافدون إليهم .

(ب) روى أن سلمان الفارسي خطب إلى عمر رضى الله عنه ابنته، فوعده بها، فشق ذلك على عبد الله بن عمر، فلقى عمرو بن العاص وشكاه ذلك، فقال عمرو: سأكفيكه، فقال عمرو لسلمان: هنيئاً لك يا أبا عبد الله « كنية سلمان » أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل في تزويجك ابنته، فغضب سلمان وقال: لا والله، لا تزوجت إليه أبداً، وصحح بعضهم أنه عرضها بعد ذلك على سلمان، كما ذكره القرطبي في تفسير آية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وكان سلمان قد خطب إلى أبي بكر ابنته فأجابه كما قال القرطبي .

(ج) ذكر القرطبي أيضاً أن بلالاً خطب بنت البكير، فأبى أخوتها، فقال بلال: يا رسول الله ماذا لقيت من بنى البكير!! خطبت إليهم أختهم فمنعوني وآذوني، فغضب رسول الله ﷺ من أجل بلال فبلغهم الخبر فأتوا أختهم فقالوا: ماذا لقينا من سببك!! فقالت أختهم: أمرى بيد رسول الله، فزوجوها .

(د) ذكرت كتب الأدب أن عبد الملك بن مروان عاب على عبد الله بن جعفر تزويج ابنته أم كلثوم من الحجاج بن يوسف الثقفي، قائلاً له: إنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب وسيدة بنى عبد مناف ففرشتها عبد ثقيف، يتفخذها، وكتب فوراً إلى الحجاج بتطليقها، ففعل^(١) .

إن أمثال هذه الحوادث وما نراه في العصور المتتالية من الحرص على التكافؤ في النسب خاصة هي حالات فردية لا ينبغي أن تقاوم الأصول الصحيحة الثابتة،

(١) المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي ج٢ ص ١٨٥، وذكرها ابن عبد ربه في العقد الفريد ج١ ص ١٠٤ منسوبة إلى الوليد بن عبد الملك .

والروح العامة للدين، الذى كان من أبرز مبادئه المساواة ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾، ولذلك قال الكرخى وهو من مجتهدى الحنفية: إن الكفاءة لا تعتبر فى حال من الأحوال (١).

وسأذكر بعض الأصول المسجلة فى القرآن والسنة لتأكيد هذه الحقيقة:
(أ) قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال: ﴿ فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء: ٣]، وقال: ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ [النور: ٢٦]، وقال: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١].

(ب) وقال النبى ﷺ: « إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقى وفاجر شقى، الناس بنو آدم وآدم خلق من تراب » رواه أبو داود وحسنه عن أبى هريرة - والعبية بضم العين وكسرهما مع تشديد الباء وكسرهما وتشديد الياء « الترغيب ج٣ ص ٢٢٧، ص ٢٣٨ » وعن عمرو بن العاص، سمعت رسول الله ﷺ جهارا غير سر يقول: « إن آل بنى فلان ليسوا بأوليائي، وإنما وليي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أبلها ببلالها » رواه البخارى ومسلم، واللفظ للبخارى « رياض الصالحين ص ١٥٨ ».

وروى البخارى ومسلم عن سهل بن سعد أن النبى ﷺ مر عليه رجل فقال: « ما تقولون فى هذا؟ فقالوا: حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع. وإن قال أن يسمع، ثم مكث فمر رجل من فقراء المسلمين فقال « ما تقولون فى هذا؟ قالوا: حرى إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال ألا يسمع، فقال رسول الله ﷺ « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا ».

(١) الأحوال الشخصية للشيخ أبى زهرة ص ١٤٢.

وسبق حديث: «إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه...».

(ج) والنبي ﷺ أكد هذه المبادئ بفعله إلى جانب ورودها في القرآن وتأكيدها بقوله: كما طبقها الصحابة الذين استجابوا بسرعة إلى أوامر الدين وتخلصوا من رواسب العادات القديمة.

فزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش وهي بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب، وهي الحرة أصلاً والقرشية الجميلة، زوجها من زيد بن حارثة مولاه، وهو من بنى كلب وأحواله من طيب، وذلك الزواج تم على الرغم من اعتراضها أولاً حيث قالت: أنا بنت عمتك يا رسول الله، فلا أرضاه لنفسى، ولكن النبي ﷺ أمضاه ليقضي على العنصرية الجاهلية، وجاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقد ظهر أثر ذلك في سلوكها معه، وانتهى الأمير أخيراً بالطلاق وكان هذا الزواج لحكمة أخرى في تشريع جديد هو إبطال التبنّي وإلغاء أحكامه الأولى.

وزوج النبي ﷺ فاطمة بنت قيس الفهرية من أسامة بن زيد بن حارثة، وقد أبت ذلك أولاً، ولكنها اغتبطت به أخيراً ووجدت فيه خيراً، وقد تقدم ذلك في بيان مهمة الاختيار، وروى الدارقطني من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أن أبا هند. وكان مولى بنى بياضة، لما حجم النبي ﷺ سر منه وقال: «من سره أن ينظر إلى من صور الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى أبي هند» وقال لبنى بياضة «أنكحوا أبا هند - واسمه يسار - وأنكحوا إليه» رواه أبو داود والحاكم بسند جيد عن أبي هريرة «بلوغ المرام» وحكايته مع بلال حين رده بنو البكير قد مرت.

وكذلك الصحابة ساروا على هدى النبي ﷺ في اعتبار الدين فقط هو مقياس الكفاءة وفي تغاضيهم عن النسب الذي كانت تتمسك به الجاهلية.

فعبد الرحمن بن عوف زوج أخته هالة لبلال بن رباح، وأبو حذيفة بن

عتبة بن ربيعة، وكان قد شهد بدرًا، زوج هنداً «وتسمى فاطمة» بنت أخيه الوليد لسالم وهو مولى لأمرأة من الأنصار، وكان قد تبناه أبو حذيفة، كما أخرجه البخارى .

وضباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود ، واسم أبيه عمرو بن ثعلبة، تبناه الأسود بن عبد يغوث، وهو أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهر الإسلام - كما قال القرطبي - .

والحسين بن على أعتق جارية وتزوجها بالمدينة، فكتب معاوية بن أبى سفيان إليه : أما بعد، فإنه بلغنى أنك تزوجت جاريتك وتركت أكفاءك من قريش، ممن تستنجبه للولد، وتمجد به فى الصهر، فلا لنفسك نظرت، ولا لولدك انتقيت .

فكتب إليه الحسين، أما بعد، فقد بلغنى كتابك وتعييرك إياى بأئنى تزوجت مولاتى، وتركت أكفائى من قريش، فليس فوق رسول الله منتهى فى شرف، ولا غاية فى نسب، إنما كانت ملك يمينى، خرجت عن يدى بأمر التمسست فيه ثواب الله تعالى، ثم ارتجعتها على سنة نبيه ﷺ، وقد رفع الله بالإسلام الخسيصة، ووضع عنا به النقيصة فلا لوم على امرئ مسلم إلا فى أمر مآثم، وإنما اللوم لوم الجاهلية^(١) .

وبعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية ودخول عناصر كثيرة فى الإسلام فى الإسلام وامتزاجهم بالعرب وتذويب الإسلام لقدر كبير من جليد العنصرية والعصبية، لم يراع عند التزاوج ما كان يراعى قديماً فى الكفاءة، وتلك هى سنة التطور فى الحياة، وتغير الأفكار التى توجه سلوك الناس .

لمقد تزوج عبد الملك بن مروان أعرابية وهى «ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير العيسى» فولدت له : الوليد وسليمان، وهما خليفتان . والمهدى العباسى تزوج الخيزران « وهى سبية من خرسنة » وولدت له موسى الهادى وهرون الرشيد، والوليد بن عبد الملك تزوج « شاهسفرم بنت فيروز بن يزد جرد بن

(١) زهر الآداب للحصرى ج١ ص ٦٣ طبعة الحلبي .

شهریار بن کسری ابرویز» فولدت له : یزید الناقص وإبراهیم المخلوع، وهو إبراهیم الذی جلس فی الخلافة بعد أخیه یزید مدة یسیره، ثم جاء مروان بن محمد بن مروان آخر ملوک بنی أمیه، فخلعه وولی بعده^(١).

وبعد عرض هذه الصور يمكننا أن نطمئن إلى القول بأن مقياس الكفاءة في الزواج هو الدين ويترك ما بعد ذلك من عوامل للظروف التي تتغير بحسب البيئات والعصور.

فليس على عبد تقى نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم وتعجبني في هذا المقام نظرة ابن الجوزي إلى الكفاءة، فيرى أن الميل القلبي والعاطفة الروحية الشريفة أساس كبير في الانسجام يجب أن يراعى ويقدر بمعرفة الأولياء والبنات معاً وهو لا يتوقف على غنى أو نسب، فقد تكون الفتاة ماجدة الأعراق تتفق روحها مع من هو أقل منها، وتستطيع بخلقها وأصلها أن تبني بيتاً كريماً، ربما لا يتيسر لها بناؤه لو اقترنت بمثلها في نسب أو ثراء.

وقد يرى الرجل كفاءً لل بنت لغناه أو جاهه ولكنها لا تميل إليه لمعنى من المعاني، ولا تحس معه بالراحة في الوسط الذي يهيؤه لها، حتى لو كان أفخم من الوسط الذي تعيش فيه مع أبويها، والواقع يؤيد ذلك، ولا يحتاج إلى دليل بعده.

ومما ورد في كتب الأدب من هذه الصورة ما ذكره السيوطي في كتابه تاريخ أمراء المؤمنين، وياقوت الحموي في الجزء الأول ص ١٨٨ عن ميسون بنت بحدل الكلبيّة زوجة معاوية بن أبي سفيان وأم يزيد ابنه، قيل إنها كانت بنت حسان بن مالك الكلبي، الذي كان والياً على الأردن وفلسطين، وبه مهد الحكم لمروان بن الحكم.

لما تزوجها معاوية، وكانت ذات جمال باهر وحسن غامر، أعجب بها وهياً لها قصرًا مشرفاً على الغوطة، وزينه بأنواع الزخارف، ووضع فيه من أواني الفضة

(١) زهر الآداب ج١ ص ٢٤٥.

والذهب ما يضاھيه، ونقل إليه من الدجاج الرومى الملون والمواشى ما هو لائق به، ثم أسكنها مع وصائف لها كأمثال الحور العين، فلبست يوماً أفخر ثيابها، وتزينت بما أعد لها من الحلى والجوھر، الذى لا يوجد مثله، ثم جلست فى روشنھا وحولھا الوصائف، فنظرت إلى الغوطة وأشجارھا، وسمعت تجاوب الطير فى أوكارھا، وشمت نسيم الأزهار، وروائح الرياحين والنوار، فتذكرت نجدا وحتت إلى أترابھا وأناسھا، وتذكرت مسقط رأسھا. فبكت وتنهدت، فقالت لها بعض الوصيفات: ما يبكيك وأنت فى ملك يضاھى ملك بلقيس؟ فتنفست الصعداء ثم أنشدت:

أحب إلى من قصر منيف	لبيت تخفق الأرواح فيه
أحب إلى من لبس الشفوف	ولبس عباءة وتقر عيني
أحب إلى من أكل الرغيف	وأكل كسيرة فى كسر بيتي
أحب إلى من نقر الدفوف	وأصوات الرياح بكل فج
أحب إلى من قط أليف	وكلب ينبح الطراق دوني
أحب إلى من بغل زفوف	وبكر يتبع الأظعان صعب
أحب إلى من علج عنيف	وأخرق من بنى عمى نحيف

فلما بلغ معاوية ذلك طلقھا وأمتعھا بما فى القصر، وسيرھا إلى أهلھا بنجد، حيث وضعت هناك بالبادية ولده يزيد.

والأرواح هى الرياح، وكسر البيت وسطه، والبكر هو الفتى من الإبل، والأظعان هى الإبل التى عليها الهوادج، والزفوف هو المسرع، والأخرق ضد الرفيق، والعلج هو الكافر أو الغليظ السمين وهو أوفق بقولھا: نحيف.

٥ - هذه الكفاءة التى تحدث عنها العلماء هى فى الرجل، ولا يشترط فى المرأة أن تكون كفاءً له، فهو الذى يختار ويرضى بمن تكون أقل منه زوجة له، وذلك لأن النصوص كلها تتحدث عن الكفاءة فى الرجل، ولأن العار لا يلحق بالأسرة من جهة البنت، بل من جهة الولد. لأن النسب له لا لها، ولأن الرجل

الرفيع فى نظر الناس ترتفع امرأته تبعاً له، وليس العكس، حيث لا يرتفع الرجل برفعة قدر المرأة ومركزها، فهى التابعة له علواً وهبوطاً، وليس هو التابع لها، وهو أيضاً يملك دفع العار عنه بغير المكافئة له وذلك بالطلاق، لكنها لا تملك الطلاق من الذى يلحقها به عار، فهو لا حق لها.

لكن أبا حنيفة قال: إن الكفاءة قد تعتبر فى المرأة فى بعض الحالات وذلك إذا كان الرجل هو الذى يزوج الصغير والمجنون، بحكم ولايته عليهما وليس هو أباً ولا جداً ولا ابناً، أو كان واحداً منهم ولكن عرف بسوء الاختيار، فإن كفاءة المرأة لا بد من تحققها، كما تعتبر كفاءتها إذا وكل رجلاً وكيلاً له فى الزواج وأطلق التوكيل ولم يعين له واحدة من النساء بأوصاف خاصة، فلا يصح للتوكيل أن يزوجه إلا من امرأة تكافئه، وإلا كان لا بد من إجازة الموكل.

٦ - وقال العلماء: إن الصفات المعتبرة فى الكفاءة لا بد من تحققها عند العقد فقط، لأنها شرط إنشاء لا شرط بقاء، ولو تخلفت صفة من صفات الكفاءة بعد العقد لا يؤثر ذلك على النكاح إذا كانت هذه الصفة مما يقبل التحول والتغيير كالمال.

ثانياً - ولى النكاح:

سبق أن قلنا إن الكفاءة فى الرجل حق للأولياء وللبنت أيضاً، فهما شريكان فى تقديرها وعلى أساس ما يقدرانه يكون قبول الزواج ورفضه وصحة العقد وبطلانه.

وقد قلنا إن هناك أصليين عظيمين فى الكفاءة هما الدين مع الميل القلبي والعاطفة الروحية، فمن الذى يزن الدين ويقدر الخلق فى الرجل ومن يحس بالميل وتتحرك فى جوانحه العاطفة؟

الجواب سهل ميسور، فإن تقدير الدين والسلوك لا يكون إلا من عاقل حكيم يزن الأمور بميزان العدل البعيد عن تأثير العواطف، وذلك أحرى بالرجال وهم أحرى به، والاحساس الداخلى المعتبر هو وقف على شريكة الحياة، وهى

الزوجة، وليس للأولياء فيه أدنى حظ ولا أقل نصيب، وإن كان لها هي أيضاً بعض الاشتراك في تقدير الناحية الدينية في الرجل، فإن الحظ الأوفر في موضوع الاحساس الداخلى لها هي فقط، إن لم يكن لها الحظ كله وهذا حق يجب أن يحترم ويقدر، ولكن الحقوق دائماً محدودة بحدود وضوابط، ولها مدى معلوم ومجال معين، ليكون من ورائها النفع لصاحب الحق للمجتمع بأسره.

المرأة بطبعها، وهذا تكوين ليس لها فيه اختيار، حادة المزاج قوية العاطفة، أو بمعنى أخف هي رقيقة الشعور سريعة التأثر، تنقاد بسهولة ويسر إلى الفكرة قبل أن تدقق النظر فيها، وبخاصة ما كان منها متصلاً بالقلب والعاطفة، فهي تميل أكثر ما تميل إلى النواحي التي تتطلبها الطبيعة وتقتضيها الأنوثة.

وقد يطغى هذا الميل على النواحي الأدبية الأخرى، وهذه حقيقة نفسية وبيولوجية لا مرء فيها، والأحداث تؤيدها كل يوم بل كل ساعة ولحظة، وذلك الحكم هو للغالبية توجد معه استثناءات.

ومما أثر من ذلك في الأدب العربي حكاية بنت الضَّيْن الغساني التي أحبت من هجم على ملك أبيها ودلته على الطريق التي يستطيع بها الاستيلاء على الحصن، فقد باعت شرف أبيها وملكه بحبها لعدوه وبنزوتها الجامحة التي توارت معها القيم الأدبية^(١).

بل إن المرأة لو تركت وشأنها تقترن بمن تحب، لسلكت كل طريقة للوصول إلى غايتها، كالتى أرادت أن تتزوج ابن عمها فاحتالت على أبيها ليرضى به بعد الرفض، وادعت ما جعله يخضع للأمر الواقع.

ولو تركت لتختار وحدها لجعلت الرجولة هي مقياس الكفاءة في الرجل، وهذا ما يشاهد في الأوساط الغربية، حيث يرمى بالبنت في خضم الحياة الصاخب، تحتال وتختار وتغرى وتسلك المسالك الملتوية، وتركب الصعب

(١) المحاسن والمساوى، للبيهقي ج٢ ص ٢٠٣.

والذلول لتظفر بمن تريد، ولعل هذا يسرع بنا إلى إيراد قول النبي ﷺ: « لا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها » رواه أصحاب السنن.

قد تختار البنت غنياً لأنه غنى وحسبها ذلك، إن غلب على مزاجها المتاع المادى، ولا يعينها منه دمامة أو كبير سن أو سلوكه. وقد تختار جميلاً وسيماً إن كانت ممن يستهويهن الجمال والأناقة، ولا يعينها منه بعد ذلك خلقه أو دينه، وقد تختار رجلاً مفتول الساعد قوى العضلات ممتلىء الشباب إن جمحت بها الغريزة الجنسية، ولا يهتمها بعد قوته مادته أو سلوكه، وقد تختار مدنياً عصرياً ليساعدها على إرضاء شهوتها فى حضور الحفلات وغشيان المجتمعات ولا يهتمها بعد هذا سلوكه الشخصى وعلاقاته الغرامية الأخرى وعدم ثبات شخصيته التى تتجاذبها المغريات ويكفيها بريق المعروضات، وقد تعجب امرأة عريقة الأصل شريفة المحتد بفنان إن غلبت على روحها الناحية الفنية التى تؤثرها على المراكز الدبلوماسية والمناصب العالية، غير مبالية بنقد العرف ومعارضة الأسرة.

والأمثلة كثيرة وتقدم بعضها فى مقاييس اختيار الزوج، وفى بحث تعدد الزوجات خوفت أم عبد أم سلمة حين تمنعت على الرسول ﷺ لما خطبها إذ قالت لها: أتريدين ما يتحدث به نساء قريش؟ يقلن: إنما ردت محمداً لأنها تريد من قريش أحدث منه وأكثر مالاً.

روى مسلم فى صحيحه عن سيرين بن معبد الجهنى أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح قال: فأذن لنا النبي ﷺ فى المتعة، وهى الزواج المؤقت كما سيأتى تفصيله، فانطلقت أنا ورجل إلى امرأة من بنى عامر، كأنها بكرة عيطاء، أى شابة طويلة العنق فى اعتدال كالناقة الشابة، فعرضنا عليها أنفسنا، فقالت: ما تعطينى؟ فقلت: ردائى، وقال صاحبى: ردائى، وكان رداء صاحبى أجود من ردائى، وكنت أشب منه، فكانت إذا نظرت إلى رداء صاحبى أعجبها، وإذا نظرت إلى أعجبته، ثم قالت: أنت وردائك تكفينى... إلى آخر الحديث، وهنا وضع طغيان الغريزة الجنسية. وتقدم شعر أبى العيناء فيمن لم تقبل زواجه لكبير سنه.

ومن أجل هذا جعل الله للمرأة شريكاً فى اختيار الرجل، له من حسن

التقدير وبعد النظر ما يضمن للبننت حياة طيبة فى زواجها، وهذا الشريك هو ولى النكاح.

والولاية فى النكاح هى القدرة على إنشاء عقد الزواج من غير حاجة إلى إجازة أحد، وقد قسمها الفقهاء إلى قسمين، ولاية إجبار وولاية اختيار، وتسمى الأخيرة ولاية الشركة أو ولاية الاستحباب، وولاية الإجبار ولاية كاملة يستبد فيها الولى بالعقد لا يشاركه فيه أحد، وهى تثبت على فاقدى الأهلية كالمجنون والمعتوه والصبى غير المميز والمجنونة والمعتوهة والصبية غير المميزة.

وولاية الاختيار تكون على البالغة العاقلة، فيقرر جمهور الفقهاء أن عليها ولاية، لأنها ليس لها أن تنفرد بالزواج، أما أبو حنيفة فلا يثبتها، ولكن يستحسن أن يتولى وليها العقد، وينحصر حق هذا الولى فى الاعتراض على الزواج إذا كان عصبه وذلك فى حالتين: (أ) إذا زوجت البالغة نفسها من غير كفاء، ومصلحة الولى فى الاعتراض أنه يعير بمصاهرة غير الكفاء.

(ب) إذا زوجت نفسها بغير مهر المثل.

والولاية فى الزواج على الصغيرة سببها الصغر عند أبى حنيفة، وسببها البكارة عند مالك والشافعى وأحمد على قول، ولهذا تمتد الولاية على البكر حتى بعد بلوغها ما دامت بكرًا.

والذى له ولاية الإجبار عند مالك وأحمد بن حنبل هو الأب، وجعلها الشافعى للأب والجد، وقال أبو حنيفة هى للعصبات جميعاً، ودليل كل من هؤلاء موجود فى كتب الفقه، وقد اشترطوا فى الولى أن يكون كامل الأهلية، أى عاقلاً بالغاً حراً متحداً فى الدين مع من له الولاية عليه، وأن يكون عدلاً كما رآه الشافعى وأحمد فى أحد القولين، ولم يشترط العدالة مالك وأبو حنيفة وأحمد والشافعى فى قول آخر لهما.

واشتراك الولى فى العقد جاء فيه قول النبى ﷺ: «أىما امرأة أنكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فإن أصابها فلها مهرها بما أصاب منها، فإن اشتجروا فالسلطان ولى من لا ولى له»

رواه أصحاب السنن مرفوعاً من طريق عائشة، وحسنه الترمذى، كما جاء فيه أيضاً حديث « لا نكاح إلا بولي » رواه أصحاب السنن أيضاً، وفي السنن كذلك « لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها »، وفي صحيح ابن حبان عن عائشة حديث « لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل، وما كان من نكاح على غير ذلك بهو باطل، فإن تشاحوا فالسلطان ولي من لا ولي له ».

ذكر النووي في شرح صحيح مسلم « ج ٩ ص ٢٠٥ » أن العلماء اختلفوا في اشتراط الولي في صحة النكاح، فقال مالك والشافعي: يشترط ولا يصح نكاح إلا بولي، وقال أبو حنيفة: لا يشترط في الثيب ولا في البكر البالغة، بل لها أن تزوج نفسها بغير إذن وليها، وقال أبو ثور: يجوز أن تزوج نفسها بإذن وليها. ولا يجوز بغير إذنه. وقال داود: يشترط الولي في تزويج البكر دون الثيب.

واحتج الشافعي ومالك بالحديث المشهور « لا نكاح إلا بولي » وهذا يقتضى نفى الصحة. واحتج داود بأن الحديث المذكور في مسلم صريح في الفرق بين البكر والثيب، وأن الثيب أحق بنفسها، والبكر تستأذن وأجاب عنه أصحابنا بأنها أحق، أى شريكة في الحق، بمعنى أنها لا تجبر، وهى أيضاً أحق في تعيين الزوج.

واحتج أبو حنيفة بالقياس على البيع وغيره، فإنها تستقل فيه بلا ولي، وحمل الأحاديث الواردة في اشتراط الولي على الأمة والصغيرة. وخص عمومها بهذا القياس، وتخصيص العموم بالقياس جائز عند كثير من أهل الأصول.

واحتج أبو ثور بالحديث المشهور « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل » ولأن الولي إنما يراد ليختار كفاءاً لدفع العار، وذلك يحصل بإذنه.

قال العلماء: ناقض داود مذهبه في شرط الولي في البكر دون الثيب، لأنه إحداه قول في مسألة مختلف فيها، ولم يسبق إليه، ومذهبه أنه لا يجوز إحداه مثل هذا.

ثالثاً - مشورة الزوجة :

١ - لو استبد الولي بالاختيار وانفرد بالعقد، ولم يعن بتلمس إحساس المرأة واستشفاف عاطفتها من قولها أو فعلها أو إشارتها، كان جانياً عليها، وائداً لها وأداً نفسياً، تاركاً إيها تتجرع وحدها الكأس المرة في هذا الجو القاتم الذي قدر لروحها أن تحبس في ظلماته، وتهوى في أعماق سجونه .

من أجل هذا شرعت استشارتها، وكما يقول بعض الكتاب في تعاون الولي والمرأة على اختيار الزوج وإتمام صفقة الزواج: إن المرأة في عاطفتها القوية كحامض الكبريتيك المركز، فيه خطر كبير، والولني كالماء الذي يخفف من تركيزه فيجعله صالحاً لتوليد الكهرباء بين القطبين وينتفع بهذه القوة انتفاعاً كبيراً .

إن استشارة المرأة في الزواج مبدأ عرفه العرب من قديم الزمان، حتى قبل مجيء الإسلام، وقد أظهروا في ذلك مبلغ تقديرهم لعواطف المرأة واحترامهم لحقوقها في هذه الناحية بالذات، ما عدا بعض صور كالعضل والإرث كرها، وقد أثرت عنهم أشياء تشهد لهم بالسبق في هذا المضمار، فإن اليهود، وهم أهل كتاب وأولو علم وفقه بالنسبة للعرب، ما كانوا يقيمون وزناً لمشورة البنت « حمورابي ص ٣٧ » .

وإليك مثالين رواهما ثقات الأخبار، وهما على طولهما فيهما ذخيرة أدبية، وذلك إلى جانب الأمثلة الأخرى، التي تقدم منها خبر خطبة دريد بن الصمة للخنساء والحرث الأسدي للرباب .

(أ) ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد^(١) أن هند بنت عتبة بن ربيعة لما انفصلت عن زوجها الفاكه بن المغيرة المخزومي بسبب التهمة المشهورة التي اتهمها بها وبرئت منها - قالت لأبيها: يا أبت إنك زوجتني من هذا الرجل ولم تؤامرنى في نفسي فعرض لى معه ما عرض، فلا تزوجنى من أحد حتى تعرض

(١) ج ٢ ص ١٩٢ .

على أمره، وتبين لى خصاله، فخطبها سهيل بن عمرو، وأبو سفيان بن حرب،
فدخل عليها أبوها وهو يقول:

أتاك سهيل وابن حرب وفيهما
وما منهما إلا يقاس بفضله
وما منهما إلا كريم مرز
فدونك فاخترى فأنت بصيرة
رضا لك يا هند الهنود ومقنع
وما منهما إلا يضر وينفع
وما منهما إلا أعز سميذع
ولا تخدعى، إن المخادع يخدع

قلت: يا أبت والله ما أصنع بهذا شيئاً، ولكن فسر لى أمرهما، وبين لى
خصالهما، حتى أختار لنفسى أشدهما موافقة لى، فبدأ بذكر سهيل فقال:
أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العيش، إن تابعته تابعك، وإن ملت عنه
حط إليك، تحكمن عليه فى أهله وماله.

وأما الآخر فموسع عليه، منظور إليه، فى الحسب الحسيب، وفى الرأى
الأريب، مدره أرومته، وعز عشيرته، شديد الغيرة، كبير الطهرة، لا ينام على
ضعة، ولا يرفع عصاه عن أهله.

فقلت: يا أبت، الأول مضىاع للحررة، فما عست أن تلين بعد إباتها،
وتضيع تحت جناحه، إذا تابعها بعلها فأشرت، وخافها أهلها فأمنت، فساء عند
ذلك حالها، وقبح عن ذلك دلالتها، فإن جاءت بولد أحمقت، وإن أنجبت فعن
خطأ ما أنجبت، فاطو ذكر هذا عنى، ولا تسمه على بعد.

وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة، الحررة العفيفة، وإنى للتى لا أريب له عشيرة
فتعيه، ولا تصيره بذعر فتضيره، وإنى لأخلاق مثل هذا الموافقة، فزوجنيه،
فزوجها من أبى سفيان، فولدت معاوية، ومن قبله يزيد.

وتزوج سهيل بامرأة فولدت له ولداً، فبيننا هو سائر معه إذ نظر إلى رجل
يركب ناقة ويقود شاة، فقال لأبيه: يا أبت هذه ابنة هذه، يريد الشاة ابنة الناقة،
فقال أبوه: يرحم الله هنداً، يعنى: ما كان من فراستها فيه بقولها: إن جاءت بولد
أحمقت.

(ب) جاء في المستطرف للأبشيهي «ج ٢ ص ١٨٦» أن الحرث بن عوف المرى، سيد بنى ذبيان^(١). - ذهب مع خارجة بن سنان ليخطب بنتاً من بنات أوس بن حارثة بن لام الطائي، وبعد إيبائه أولاً قبل الخطبة عندما أشارت عليه زوجته بذلك، فاستدعى بناته الثلاث على انفراد، لاستشارتهن في أيتهن تقبل أن تكون زوجة له.

فقال لكبراهن: يا بنية، هذا الحرث بن عوف سيد من سادات العرب، قد جاءني طالباً خاطباً، وقد أردت أن أزوجك منه، فما تقولين قالت: لا تفعل، قال: له؟ قالت: لأنى امرأة فى وجهى ردة- قبح مع شىء من الجمال- وفى خلقى بعض العهدة - الضعف - ولست بابنة عم له فيسرعى رحمى، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى، فيكون على فى ذلك ما فيه، قال: قومى، بارك الله عليك.

ثم استدعى الوسطى لاستشارتها، فأجابت بمثل إجابة الأولى، وقالت: إنى خرقاء - لا أحسن صنعة - وليست بيدي صناعة، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون على فى ذلك ما تعلم، وليس بابن عمى فيرعى حقى، ولا جارك فى بلدك فيستحييك، قال: قومى، بارك الله عليك.

ثم استدعى صفراهن «بهيسة»^(٢) فاستشارها، فقالت: أنت وذاك، فقال لها: قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه، ولم يذكر مقالتيهما فقالت: لكنى والله الجميلة وجهاً، الصناعات يداً - الحاذقة فى الصناعة - الرفيعة خلقاً، الحسبية أباً، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير، فقال: بارك الله عليك، فتزوجها الحارث.

ولم ترض أن يقربها فى منازل أبيها عند أهلها، ولا فى الطريق كما يفعل

(١) كان من قواد غطفان ضد النبى فى غزوة الأحزاب، أسلم بعد غزوة تبوك فى وفد بنى مرة، كما فى الزرقانى على المواهب اللدنية، ج ٤ ص ٥٨.

(٢) أسد الغابة ج ٤ ص ٢٨٦ ترجمة عمر أبو بهيسة.

بالأخيذة الأسيرة، ولا فى بيته حتى يقوم ويفصل بين المقاتلين فى حرب داحس والغبراء، بين عبس وذبيان، ويتحمل الديات وينحر الذبائح، فكانت منجبة ذات همة وعقل كبير.

هذا، وقد كانت بنت العربية تستعين بغيرها لتكوين رأى فىمن يتقدم لخطبتها، وهذا يحدث كثيراً، فقد تكون الأخبار عنه غير كافية لمعرفة، وقد يعرف غيرها عنه أكثر منها.

خطب جماعة من بنى عامر «بطن من الأزد» خوذة بنت مطرود البجلية، إلى أبيها فاستشارت أختها «عثمة» فيهم، فقالت لها:

ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل

اسمعى منى كلمة: إن شر الغربية يعلن، وخيرها يدفن، انكحى فى قومك، ولا تغررك الأجسام، فلم تسمع نصيحتها، وتزوجت أحدهم، ثم ندمت بعد رحيله بها، فقد وقع أسيراً فى معركة^(١).

٢ - جاء الإسلام واحترم رأى المرأة عند الزواج كجزء من تكريمه لها، على ما هو مفصل فى بحث «الحجاب بين التشريع والاجتماع» وسنتحدث عن الاستشارة من جهة صيغتها، وحكمها.

(أ) أما صيغة الاستشارة أو أسلوبها، فقد قرر العلماء أن الشيب - من سبق لها زواج - لا بد أن تصرح برأيها قبولاً أو رفضاً، لأنها مارست حياة الزواج قبل ذلك، وليس عندها من الحياء - كال بكر - ما يمنعها من التصريح، أما البكر، فإنها لفرط حيائها، اكتفى بسكوتها وعدم معارضتها، فإن نطقت وصرحت برأيها كان أتم وأكمل، ويحسن أن يرجع إلى الأم فى طلب رأى البنت، فإن الكلفة بينهما مرفوعة نوعاً، وعليه يحمل حديث «آمروا النساء فى بناتهن» رواه أبو داود والبيهقى عن ابن عمر^(٢)، حتى اليتيمة إذا أراد وصيها أن يستغل

(١) أعلام النساء لعمر كحالة.

(٢) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير، وقال الالبانى: ضعيف.

وصايته عليها فيتزوجها دون رضاها طلب الشارع أن تستأمر أيضاً، ففي السنن الأربعة عن النبي ﷺ: «اليتيمة تستأمر في نفسها، فإن صممت فهو إذنها، وإن أبت فلا جواز عليها».

ولا يشترط أن يكون الرضا أو القبول باللفظ في البكر والثيب، فكما جعل الرسول ﷺ صمات البكر علامة الرضا يمكن أن تقبل كل إشارة تدل عليه في عرف الناس، ذكر العلماء الاجتماعيون والرحالة أنه في شمالي سكنديناوه يشعل والد الفتاة شمعة، فإن تركتها الفتاة موقدة كان ذلك قبولاً منها، وإن أطفأها دل ذلك على رفضها، ويتم ذلك دون امتعاض^(١)، وفي جهات من السويد تتم الموافقة إن أكلت مع رجل من رغيف واحد، فيذهب هو إلى أبيها ليتم الزواج في حفلة يسمونها بيس إبل.

وقد جاءت روايات مختلفة في الاستئذان، منها حديث رواه مسلم «جهه ص ٢٠٢» عن أبي هريرة «لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن» قالوا: يا رسول الله: وكيف إذنها؟ قال: «أن تسكت».

وفي رواية ابن عباس «الأيم أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأذن في نفسها وأذنها صماتها».

وفي رواية له أيضاً «الثيب أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأمر، وإذنها سكوتها».

ومنها حديث الطبراني والبيهقي عن العرس بن عميرة مرفوعاً «آمروا النساء في أنفسهن، فإن الثيب تعرب عن نفسها، وإذن البكر صمتها» ذكره السيوطي في الجامع الصغير، وهو صحيح.

قال النووي، بعد أن بين اتفاق اللغويين على أن الأيم من لا زوج لها ثيباً كانت أم بكر، صغيرة أم كبيرة، وأن الصمات «بضم الصاد» السكوت - قال: اختلف العلماء في المراد بالأيم هنا، فقال علماء الحجاز والفقهاء كافة: المراد

(١) كتاب «بنات حواء» لمحمد ثابت.

الثيب، واستدلوا بأنه جاء مفسراً في الرواية الأخرى بالثيب كما ذكرنا، وبأنها جعلت مقابلة للبكر، وبأن أكثر استعمالها في اللغة للثيب.

وقال الكوفيون وزفر: الأيم هنا كل امرأة لا زوج لها بكراً كانت أم ثيباً، كما هو مقتضاه في اللغة، قالوا: فكل امرأة بلغت فهي أحق بنفسها من وليها، وعقدها على نفسها النكاح صحيح، وبه قال الشعبي والزهرى. قالوا: وليس الولي من أركان صحة النكاح بل من تمامه.

وقال الأوزاعي وأبو يوسف ومحمد: تتوقف صحة النكاح على إجازة الولي.

قال القاضي - عياض - : واختلفوا أيضاً في قوله ﷺ : «أحق من وليها» : هل هي أحق بالإذن فقط، أم بالإذن والعقد على نفسها، فعند الجمهور بالإذن فقط، وعند هؤلاء بهما جميعاً.

وقوله ﷺ : «أحق بنفسها» يحتمل من حيث اللفظ أن المراد أحق من وليها في كل شيء من عقد وغيره، كما قاله أبو حنيفة وداود، ويحتمل أنها أحق بالرضا، أي لا تتزوج حتى تنطق بالأذن، بخلاف البكر. ولكن لما صح قوله ﷺ : «لا نكاح إلا بولي» مع غيره من الأحاديث الدالة على اشتراط الولي تعين الاحتمال الثاني.

واعلم أن لفظة «أحق» هنا للمشاركة، معناه أن لها في نفسها في النكاح حقاً، ولوليها حقاً، وحقها أوكد من حقه، فإنه لو أراد تزويجها كفاء وامتنعت لم تجبر، ولو أرادت أن تتزوج كفاء فامتنع الولي أجبر، فإن أصر زوجها القاضي، فدل على تأكيد حقها ورجحانه.

وأما قوله ﷺ : «ولا تنكح البكر حتى تستأمر» فاختلفوا في معناه، فقال الشافعي وابن أبي ليلى وأحمد وإسحق وغيرهم: الاستئذان في البكر مأمور به، فإن كان الولي أباً أو جداً كان الاستئذان مندوباً إليه، ولو زوجها بغير استئذانه صح، لكمال شفقتة، وإن كان غيرهما من الأولياء وجب الاستئذان ولم يصح إنكاحها قبله.

وقال الأوزاعي وأبو حنيفة وغيرهما من الكوفيين: يجب الاستئذان في كل بكر بالغة.

وأما قوله ﷺ: «إذنها صماتها» فظاهره العموم في كل بكر وكل ولي، وأن سكوتها يكفي مطلقاً، وهذا هو الصحيح.

وقال بعض أصحابنا - الشافعية - : إن كان الولي أبا أو جدا فاستئذانه مستحب، ويكفي فيه سكوتها، وإن كان غيرهما فلا بد من نطقها، لأنها تستحي من الأب والجد أكثر من غيرهما.

والصحيح الذي عليه الجمهور إن السكوت كاف في جميع الأولياء، لعموم الحديث ولوجود الحياء، وأما الثيب فلا بد فيها من النطق بلا خلاف سواء كان الولي أبا أو غيره، لأنه زال كمال حياؤها بممارسة الرجال.

(ب) تبين من عرض الأقوال السابقة حكم الاستشارة وجوباً أو ندباً، وحكم النكاح الحاصل بدونها.

وقد جاءت عدة روايات بحوادث أكدت وجوب استشارة البنت، وأنه لو حدث أن زوجها وليها بدون استشارتها ثبت لها الخيار في الفسخ وعدمه، منها:

١ - ما رواه البخاري أن خنساء بنت خدام (بالدال أو الذال) زوجها أبوها، وهي كارهة، وكانت ثيباً، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها.

٢ - وفي السنن من حديث ابن عباس أن جارية بكرأ أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباهما زوجها وهي كارهة، فخيرها النبي ﷺ، وهذه الجارية غير «خنساء» لأنها في هذه الرواية «بكر» وفي الأولى «ثيب» فهما قضيتان.

٣ - روى أحمد والنسائي وابن ماجه أن رجلاً زوج بنته بغير استشارتها، فشكت إلى النبي ﷺ وقالت: يا رسول الله، إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته، فجعل النبي ﷺ الأمر إليها، فلما رأت ذلك قالت: أجزت ما صنع أبي، ولكنني أردت أن أعلم النساء أنه ليس للأبَاء من الأمر شيء.

ويجوز أن تكون هذه البنت إحدى ما ورد في الحديثين السابقين.

وفى بحث حقوق الزوجين قصة «بريرة ومغيث» لما عتقت ولم ترض أن تبقى معه، وجرى وراءها يسترضيها، فأبت، وتدخل النبي ﷺ بينهما، فقالت له: يا رسول الله، هل أنت شافع أم أمر؟ فقال «بل شافع» فلم تقبل فجعل الخيار إليها، وهذه الجرأة فى التمسك بالحق حتى مع شفاعة النبي فيه جعلت المرأة المسلمة تحس بوجودها فى هذه الناحية بالذات، وترفض بصراحة من لا يعجبها من الخطاب حتى لو كان ذا مركز مرموق. ذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد «ج ٢ ص ٩٩» أن عبد الملك خطب بنت عبد الرحمن بن الحرث بن هشام فقالت: لا تزوجنى أبا الذباب، وكان فمه يدمى فيقع عليه الذباب، فتزوجها يحيى بن الحكم.

٤ - روى عبد الرزاق بسنده عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: كانت امرأة من الأنصار تحت رجل من الأنصار، فقتل عنها يوم أحد، وله منها ولد، فخطبها عم ولدها ورجل آخر، إلى أبيها، فأنكح الآخر، فجاءت إلى النبي ﷺ فقالت: انكحني أبى رجلاً لا أريده، وترك عم ولدى، فأخذ منى ولدى، فدعا رسول الله ﷺ أباه، فقال: «أنت الذى لا نكاح لك، اذهبي فانكحي عم ولدك».

٥ - فى المطالب العالمة «ج ٢ ص ٩» أن عبد الله بن عمر طلب من أبيه أن يخطب له بنت إبراهيم بن صالح «نعيم بن النحام» فرض عمر، لأنه يعرف أن «صالحاً» عنده يتامى يؤثرهم على غيرهم، فقام بالخطبة عمه زيد بن الخطاب، فلما طلبها رد عليه صالح: لي يتامى، ولم أكن لأترب لحمى وأرفع لحمكم، إنى أشهدكم أنى قد أنكحتها فلاناً - لأحد اليتامى - وكان هوى أمها إلى عبد الله بن عمر، فأتت النبي ﷺ وأخبرته بذلك وقالت: إنه لم يؤامرها، فأرسل النبي ﷺ إلى صالح وقال له: «أنكحت ابنتك ولم تؤامرها»؟ قال: نعم، فقال النبي ﷺ: «أشيروا على النساء فى أنفسهن» مرتين. فقال صالح: إنما فعلت هذا لما يصدقها ابن عمر، فإن لها من مالى مثل ما أعطاه. ذكره الحارث فى مسنده، وهو مرسل صحيح الإسناد، رواه أحمد.

وفى مقابل هذا ما رواه أحمد ورجاله ثقات والحاكم وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي، وهو حديث عبد الله بن عمر. قال: توفي عثمان بن مظعون وترك ابنة له من خويلة بنت حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص، قال: وأوصى إلي أخيه قدامة بن مظعون، قال عبد الله: هما خالاي. قال: فخطبت إلي قدامة بن مظعون ابنة عثمان بن مظعون فزوجنيها. ودخل المغيرة بن شعبه إلي أمها فأرغبها في المال فحطت إليه. وحطت الجارية إلي هوى أمها، فأبيا حتى أرتفع أمرهما إلي رسول الله ﷺ، قال قدامة بن مظعون: يا رسول الله، ابنة أخي أوصى بها إلي، فزوجتها ابن عمتها عبد الله بن عمر، فلم أقصر بها في الصلاح ولا في الكفاءة، ولكنها امرأة، وإنما حطت إلي هوى أمها، فقال رسول الله ﷺ: «هي يتيمة ولا تنكح إلا بأذنها».

قال: فانتزعت والله منى بعد أن ملكتها، فزوجها المغيرة بن شعبه وجاء حديث ابن عمر بلفظ «احملوا النساء على أهوائهن» ذكره السيوطي في الجامع الكبير طبعة مجمع البحوث ج ١ ص ٢٤٩ برقم ١٧٤ / ٧٥٧، أخرجه ابن عدى، وهو ضعيف، وذكره في الجامع الصغير برقم ٢٧٦.

وعندما ذكر ابن القيم حديث ابن عباس المخرج في السنن، المذكور آنفاً قال: وقد نص أحمد على القول بمقتضى هذا، فقد قال في صغير زوجه عمه: إن رضى به في وقت من الأوقات جاز، وإن لم يرض به فسخ. وأورد قول سفيان في يتيمة زوجت، ودخل بها الزوج ثم حاضت عنده. فقال: تخير، فإن اختارت نفسها لم يقع التزويج، وهي أحق بنفسها، وإن قالت: اخترت زوجي فليشهد وهما على نكاحهما. قال أحمد: جيد.

هذا، وأما ما ورد من أن النبي ﷺ حكم بصحة الزواج بدون استئذان المرأة أو رضاها، فلم يكن إلا مع زينب بنت جحش، حين أمرها أن تقبل الزواج من زيد بن حارثة مولاه، ولما أبت نزلت الآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وذلك كان من خصوصيات النبي ﷺ ولم يجز لغيره أن يفعل ذلك «انظر مبحث تعدد الزوجات».

٣ - قال النووي فى شرح صحيح مسلم « ج٩ ص ٢٠٦ » : أجمع المسلمون على جواز تزويجه بنته البكر الصغيرة - بعد أن ذكر أن ذلك بغير إذنها لأنه لا إذن لها - وإذا بلغت فلا خيار لها فى فسخه عند مالك والشافعى وسائر فقهاء الحجاز . وقال أهل العراق : لها الخيار إذا بلغت .

أما غير الأب والجد من الأولياء فلا يجوز أن يزوجها عند الشافعى والثورى ومالك ، وابن أبى ليلى وأحمد وأبى ثور وأبى عبيد ، والجمهور قالوا : فإن زوجها لم يصح . وقال الأوزاعى وأبو حنيفة وآخرون من السلف : ويجوز لجميع الأولياء ويصح ، ولها الخيار إذا بلغت ، إلا أباً يوسف فقال : لا خيار لها .

واتفق الجماهير على أن الوصى الأجنبى لا يزوجها ، وجوزه شريح وعروة وحماد قبل البلوغ ، وحكاه الخطابى عن مالك أيضاً .

قال الشافعى وأصحابه : يستحب ألا يزوج الأب والجد البكر حتى تبلغ ويستأذنها ، لئلا يوقعها فى أسر الزوج وهى كارهة ، ما لم تكن هناك مصلحة تفوت لو لم يزوجها ، كما أقدم أبو بكر على تزويج عائشة للنبي ﷺ ، فيستحب ذلك ، لأن الأب مأمور بتحصيل مصلحة ولده فلا يفوتها ، وسيأتى مزيد توضيح لذلك فى الفصل الخاص بتحديد سن الزواج .

خاتمة :

١ - بعد أن بينا مقاييس اختيار الزوجين ، وذكرنا أن المرأة لا تستقل بالاختيار بل يشركها فيه ولى أمرها ، نقول : من الذى يختار للزوج زوجته ؟ إذا كان الزوج أهلاً للعقد أى مكلفاً بالغاً عاقلاً ليس فيه مانع من مباشرة العقد بنفسه ، فإنه هو الذى يختار الزوجة ، وليس لغيره أن يجبره على زوجة معينة ، وإذا تدخل آخر فإنما يكون التدخل للمشورة لا غير ، حتى لو كان هذا الآخر هما الوالدان .

ذلك أن الذى يتأثر بحلوا الزواج ومره هو الرجل نفسه أولاً وبالذات ، لا هؤلاء الذين يتصلون به ، ولئن تأثروا مثله فإن ذلك بسيط بالنسبة له ، وقد

رأينا في عادات الأقدمين أن الصينيين هم الذين يختارون للولد زوجته دون معارضة في ذلك، وفي قبائل الشيشيميكا في مكسيكا لو تجرأ الابن وتزوج بدون استشارة أبيه قتله^(١). وكتب الرحلات فيها غرائب كثيرة.

وابن تيمية تحدث عن هذا عندما أثيرت مسألة: هل يطلق الولد زوجته لرغبة والديه، وبين أنه: كيف يصح أن يرغب الإنسان على تجرع مرارة قاسية طويلة، وهو لا يمكنه أن يتجرع لقمة واحدة مرة، فلا يجوز لأحد أن يتدخل في رغبة أحد آخر إلا بقدر النصح والمشورة، لا الضغط والالزام، وكان هذا الضغط موجوداً في أرياف مصر إلى عهد قريب، ولكن التطور والنضج الفكري وبدء استقلال الأولاد عن والديهم بسبب ظروف العمل قللت من حدة هذا الضغط، وكاد يتلاشى.

٢ - اعتاد بعض الناس أن يلجأوا إلى التنجيم والطرق المختلفة لمعرفة مستقبل هذا الزواج الذي شرع فيه بالبحث والاختيار، فيذهبون إلى العرافين، وما أكثر فنونهم.

وهذه الطريقة لا يقرها الدين. بل يحذر منها، والنصوص في ذلك كثيرة، منها قوله ﷺ: «ليس منا من تطير أو تطير له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار عن عمران ابن حصين بإسناد جيد، وروى بعضه عن جابر، من قوله «ومن أتى كاهناً...» وقوله: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم يقبل له صلاة أربعين يوماً» رواه مسلم عن صفية بنت أبي عبيد عن بعض أزواج النبي ﷺ.

والكاهن هو الذي يخبر عن بعض المضمرات، فيصيب بعضها ويخطئ أكثرها. ويزعم أن الجن تخبره بذلك. والعراف كالكاهن. وقيل: هو الساحر، وقال البغوي: العراف هو الذي يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب، يستدل بها على مواقعها، كالمسروق من الذي سرقه ومعرفة مكان الضالة ونحو ذلك، ومنهم من يسمى المنجم كاهناً. اهـ.

(١) مجلة الأزهر مجلد ٥ ص ١٩٧.

قال المنذرى: المنهى عنه من علم النجوم هو ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية فى مستقبل الزمان... ويزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب واقترانها وظهورها فى بعض الأزمان، وهذا علم استأثر الله به، لا يعلمه أحد غيره «الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٥٦، ٢٥٧».

وإذا كان لا بد من وسيلة يمكن الاطمئنان بها على هذا الأمر، فهناك الوسيلة المشروعة وهى الاستخارة التى وردت عن النبى ﷺ. فقد روى البخارى وأصحاب السنن الأربعة عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول لهم:

«إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، أو قال: وعاجل أمرى وآجله، فاقدره لى ويسره لى، ثم بارك لى فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، أو قال: عاجل أمرى وآجله، فاصرفه عنى واصرفنى عنه، واقدر لى الخير حيث كان، ثم رضنى به» قال: ويسمى حاجته.

فالحذر الحذر من الاتكال على الأمور التى حرمها الشرع، فقد تفوت بسببها فرص طيبة، وقد يقع الطرفان فى شر خطير.

* * *

الباب الثالث

الخطبة

الخطبة بكسر الخاء مصدر خطب، واسم الفاعل خاطب، وخطيب بمعناه،
واسم المفعول مخطوبة، وخطيبة بمعناه، وقد يطلق على الخاطب «خطيب» بمعنى
مخطوب، أى وقع عليه اختيار المرأة ووليها، وفى الغرب يكون الرجل مخطوباً
لأن الفتاة هناك تخطب كما يخطب الفتى. وتدفع هى المهر فى صورة «دوطه»
على ما سيأتى ذكره. والخطبة وهى طلب الرجل يد امرأة معينة للزوج بها،
سيكون الحديث فيها موزعاً على ثلاثة فصول وخاتمة، وسيتناول بيان مقدماتها
ثم إجراءاتها ثم آثارها وما يتصل بها.

* * *

الفصل الأول

تعرف الزوجين

قبل أن يخطب الفتى فتاته لابد أن يتعرف عليها ويتلمس النواحي التي تعجبه فيها حتى يقدم على خطبتها وهو مطمئن على حسن اختياره، وإذا كان الشأن في الصداقة ألا يقدم عليها الإنسان إلا بعد أن يتحسس في صديقه ما يدعوه إلى عقد الصلة معه، فإن الشأن في الزواج أكد في أهمية تعرف الزوجين بعضهما على بعض قبل عقد العقد، بل قبل البدء في التفاهم معها أو مع ولي أمرها لاختيارها زوجة له، لأنها ارتباط طويل سيكون له ثمرات هامة.

إن وسائل التعرف متعددة بتعدد البيئات، متنوعة بتنوع الأعراف، متغيرة بتغير العصور، فلكل بيئة وسيلة، ولكل عصر طريقة، ولكل عرف خطة، وقد مر في باب مقاييس اختيار الزوجين بعض الصور عند الجماعات والقبائل، وسنعرض هنا صوراً أخرى ليتضح إشراق الصورة الإسلامية عند المقارنة والمقابلة.

أولاً: نرى الأمم القبلية التي لم تنضج مادياً ولا ثقافياً، والتي تحلم بالقوة وشدة البأس، ولا تملك من التشريعات المنظمة ما يحول دون اختلاط الجنسين وتلاقيهما - ترى أن من ضمن طقوسها في تعرف الخطيبين - كما قال الرحالة وعلماء الاجتماع ونقلته الأخبار - أن يذهب راغب الزواج إلى النهر أو البحيرة التي تملأ منها البنات «أوانيهن» فيتعرض لهن في الطريق مقلبا نظره في هذا المتاع المعروف بسخاء، ويرشق الفتاة، وهي حاملة جرتها، بنظرة تستشف منها الفتاة ما استكن في قلبه، وتقرأ بفراستها هذه الرسالة التي بعث بها إليها فؤاده المتيم، فيترجمها قلبها، وتنهض جوارحها معلنة الرضا والقبول، فتطرح بجرتها من فوق رأسها على رأس هذا المتيم ليتبلل جسمه بماء الرضا عن أمله المنشود، ثم يذهب إلى بيتها حيث تتم مراسيم الزواج.

يحدثنا الرحالة محمد ثابت أن زواج أفريقيا وقبائل الهاوسا في شمالي

نيجيريا يقيمون حفلة راقصة فى الليالى القمرية، يختلف إليها الفتيان والفتيات، فيعرف الفتى ما يريد معرفته من الفتاة.

ويحدثنا الباحثون عن بعض وسائل التعرف على قدرة الخطيب على الكر والفر والتحمل، فيقولون: فى كينيا يمنعون الشبان من الزواج حتى يمضوا مدة الخدمة العسكرية، ولا يعدون شجعاناً إلا إذا خضبوا حراهم بدماء الغير مراراً، ولا يحترمون الشاب إلا إذا صارع ثوراً عنيفاً، كما يتحدثون عن قبائل الشيلوك وغيرها فى جنوب السودان، فيقولون: يصحب الفتى الفتاة التى يخطبها إلى نهر فتلقيه فيه ويظل يغالب الأمواج والأهوال حتى يجيء طبيب يخذش جبهته دون أن يبدي أى ألم، فتغسله الفتاة معلنة رضاها عنه، ثم يشربان نخباً مخصوصاً مصنوعاً من الدقيق بطريقة معينة.

ويحدثنا هؤلاء أيضاً أنهم فى جنوبى السودان يمتحنون الخاطب بقلع ثنيتيه الأماميتين، فإن تحمل الألم أجيب إلى طلبه، وإن أظهر التألم كتب عليه الحرمان من الزواج إلى الأبد^(١).

وفى تقرير عن جنوب السودان^(٢) إن الفتاة لا تشرب اللبن إلا عند سن الزواج، فتشربه علناً أمام الناس، فيتعرفون أنها ترغب الزواج، فيكثر الخطاب، الذين قد يبحث عنهم أخوها، ويطلقون على البنت حينئذ اسم «نيادى كوان» أى المرأة السريعة.

وعندما يستقر رأى على شاب ويوافق والدها عليه يذهب العريس وبعض أصدقائه إلى منزلها فيذبح الوالد الشاة تحت أقدامهم ثم يقطع إحدى أذنيها ويربطها عند إحدى ركبتى بنته، ويصلى الجميع من أجل «نياكانج» وهو الجد الأكبر للملك الحالى، ثم يحدد موعد الزواج.

(١) مجلة المصور ٤-٢-١٩٤٩م.

(٢) آخر ساعة فى ٢١-١-١٩٥٣ بقلم صلاح ذهنى مقتبس من تقرير للباقرى وصلاح سالم عن قبائل الشيلوك، والدنكا والنوير وغيرها.

وكلما زادت كمية الأسماك التي يصطادها العريس كل يوم، ويقدمها لوالدى العروس زاد رضاها عنه ووافقا على تقديم موعد الزفاف.

ويحدثنا المسيو «فران» فى كتابه عن «مدغشقر» إن الفتى إذا أراد أن يتزوج تنكب قوسه وحمل ترسه على ذراعه، وذهب مساءً إلى من يخطب منهم، فيقول له رب الدار: ادخل، ويفاجئه بضربة حربة يجب على الفتى أن يتقيها بلباقة، دون أن يحدث للضارب أى أذى، فإذا وفق جلس بين أفراد الأسرة مكرماً، وأخذ الفتاة، وإن لم يوفق بأن أصيب أو أصاب خرج مستحياً يجر أذيل الخيبة والفشل.

وجاء فى كلمة رئيس وفد مدغشقر فى مؤتمر الشباب الأفريقى الأسيوى بالقاهرة واسمه:

«رامامو نجيسو كليمون» أن الزوج هناك نوعان: زواج حب، وزواج منفعة، ويتم النوع الثانى بين رجل وامرأة أبوها غنى، أما الأول فلا يتدخل فيه الأهل ما دام الطرفان يحب بعضهما بعضاً، وهناك يتبادل أهل كل منهما النقود، وتنتهى مراسم الزواج.

والفتيات فى جنوبى مدغشقر حتى سن الخامسة عشرة كاشفات صدورهن، ومن أعجب العادات أن أهل الميت يخرجونه كل شتاء من مقبرته، ويلفونه بأقمشة جديدة، خوفاً عليه من برد الشتاء ورطوبته^(١).

وفى كتاب «شعوب العالم» لإدوارد رياض، أنه فى غينيا البريطانية لا يمكن قبول الرجل زوجاً إلا بعد إثبات رجولته، حيث يجرح عدة جروح دون تألم، ويقطع الأشجار، ويصطاد الحيوان، ولا بد من تحمله مؤنة أسرة الخطيبة مدة من الزمن، ويجتمع الخطيبان فى أوقات الفراغ فى الحفلات والولائم، وفى يوم حفلة الزفاف يتزين جميع المدعوين، بل تتزين قرود القرية، ثم يبدأ الرقص على الطبول بضعة أيام وقد تقدم.

(١) سكان مدغشقر خمسة ملايين، واحتلها الفرنسيون سنة ١٨٩٥م، والمسيحية هى الدين الغالب، لكن سكان الساحل الغربى مسلمون، لوجود العرب بينهم.

كما تقدم فى ص ٢٢٧ ما طلبته قطام من خطيبها ابن ملجم، وما ساقه لها من المهر وهو قتل على، وما فى جريدة الشعب « ٣٠ / ١١ / ١٩٥٨، إن من العادات الشائعة فى قرى اسكتلندة أن يسلم الخطيب وخطيبته قبل عقد الزواج منشراً كبيراً ذا مقبضين، لكى يستعملاه معاً فى إسقاط شجرة ضخمة فإذا استطاعا ذلك فى أقل من يومين كان دليلاً على استعدادهما للتعاون والتفاهم، وتم الزواج وإلا فسخت الخطبة.

وفى أيامنا الحديثة صور من التعرف الذى يتم عن طريق اختلاط الجنسين فى الأسواق والحفلات، وفى رومانيا سوق يسمى « سوق الفتيات » وفى عيد ٢٩ يونية تجتمع الأنسات بكامل زينتهن، على ذروة جبل جاينا، ويأتى الشبان مع آبائهم لاختيار الخطيبة، وله صورته فى اليونان، فتقام حفلة، رقص بعد موسم الحصاد، يختار خلالها الزوجان^(١).

وصور التعرف فى الأسواق والحقول والشوارع موجودة الآن فى بعض بلادنا الإسلامية بشكل أو بآخر، وفى تحقيق لأنيس منصور أن مواسم (امليشيل) أروع أعياد البربر فى جبال الأطلس العليا بالمغرب يلتقى فيه الشبان والفتيات للتعارف تمهيداً لعقد صفقات الزواج التى تتم بالجملة فى شهر أكتوبر من كل عام (آخر ساعة ٢٣ / ١٠ / ١٩٧٤).

ويحدثنا السيد / طلعت وفا، مدير بوليس جدة، فى مقابلة مع مندوب مجلة الاثنين ١٩٤٨ م: أنه فى جنوب المملكة العربية السعودية أربع قبائل تنسب كلها إلى قحطان، ومن تقاليدهم فى الزواج أن سوق الثلاثاء الذى يقام فى مدينة « أبها » يفد إليه الفتيان والفتيات بزینتهن. ويجلسن متشاغلات ببيع الفواكه، ويحرص شبان القبائل الراغبون فى الزواج على حضور هذا السوق، فإذا تقدم فتى إلى فتاة سألها فى بساطة وأدب: هل ترضين أن تتزوجينى؟ فإن قالت: لا، ترك مكانه لسواه وإن سكتت حياء كان ذلك بمثابة الرضا، فيسأل عن أبيها،

(١) بنات حواء لمحمد ثابت.

ويتقدم إليه بطلب يدها . وغرض الفتى والفتاة هنا واضح فى أنه الجمال وحسن الهيئة، ولا يهم ما وراء ذلك .

وأبها عاصمة أقليم « عسير » كان فيها مشاركة المرأة للرجل، ولكن لما نزح إليها الكثيرون جاءوا معهم بالحجاب وفرضوه على أهل البلد، وحملت جريدة « عكاظ » فى الرياض على ذلك، داعية إلى التطور إلى الأمام لا إلى الخلف، وترك الناس على ما هم عليه من المشاركة والاختلاط . « مجلة العربى يوليو ١٩٦٩م » .

ونشرت آخر ساعة بتاريخ ١١ / ١١ / ١٩٥٩م أن الزواج فى بلاد النوبة وهى المنطقة الواقعة بين أسوان وحدود السودان على نهر النيل، من بنات العم، وقد تزف العروس فى سن العاشرة، وهناك يوم اسمه « يوم الحب » يقف فيه البنات والشبان كل على جانب، ثم تعلقو البنت صخرة وتغنى، فإذا رد عليها أحد الشبان كان ذلك دليل حبه فيختارها زوجة، ويذهب العريس بعدها ليدفع المهر لوالدها، فيعطيه الوالد حقيبة بها ملابسها، ويعطيه عقداً به ست حبات من ذهب وأربع أساور فضة، وقرطاً من ذهب تضعه العروس فى أنفها بعد الزفاف وأما طقوس الزفاف عندهم فهى مذكورة بعد .

وهذه الصور التى تعرض فيها الفتيات معلنات عن رغبتهن فى الزواج، تأخذ مظاهر أخرى كالإعلان فى الصحف والمجلات، وهى منتشرة فى البلاد الغربية، وانتقلت عدواها إلى البلاد الشرقية وفى الصحف العربية .

وفى بعض البلاد التى لا تتوافر فيها وسيلة الإعلان الصحفى، وفى النطاق المحلى الضيق يأخذ الإعلان شكلاً آخر، ففى مرسى مطروح حيث يغلب الطابع البدوى لسكان الصحراء الغربية بمصر، إذا رغبت الفتاة فى الزواج أعلنت عن رغبتها بشرائط أبيض يتدلى من حزامها الأحمر العريض الذى تشد به ثيابها .

وفى تحقيق صحفى لمدونة جريدة الجمهورية فى ٢٧ أغسطس ١٩٥٦، أن العروس هناك لها حق اختيار عريسها، وتمشى معه قبل الخطوبة وبعدها، والجهاز يكون على الزوج، كما يقوم بكسوة أهل العروس جميعاً، وقد يستمر الفرح

خمسة عشر يوماً، ولا يتم الزفاف إلا عصراً وتصاحب العروس سيدتان من أقارب العريس، تقود إحداهما الجمل، بينما تجلس العروس داخل الكرموز «الهودج».

ويذكر لنا محمد ثابت في رحلته: أن البنت في يوغوسلافيا تعلق شارات للإعلان عن طلبها للزواج، والشارة تكون دمية، والجميع هناك يعلقون سنابل القمح على المنازل، فإن سرقت كان ذلك فألا حسناً بقرب زواج البنت.

ويذكر أيضاً في كتابه «بنات حواء» عن شعوب «بورما» أنه لا يتاح للفتاة رؤية خطيبها إلا بعد التاسعة مساءً، حيث تبقى معه فترة، ووالدها يرقبانه بكل حذر، وفي الملايو يربي الطفلان من الصغر مع بعضهما إلى أن يتم زواجهما، ولا يعلمان إلا أنهما شقيقان لا خطيبان حتى ليلة الزفاف.

وجاء في مجلة بناء الوطن - نوفمبر ١٩٦٢ أن مقاطعة «أو» باليابان كانت في القديم إذا أراد الرجل أن يخطف فتاة يرشق عصا ملونة صغيرة في الأرض أمام المرأة التي يحبها، ويمضي، فإذا كانت أحبته تسللت من المنزل وخطفت العصا، والرجل مخطف بعيداً يراقبها.

وفي الصين منذ خمس وأربعين سنة كان لا يرى أحد الخطيبين الآخر إلا ليلة الزفاف، حيث تذهب إليه العروس منتقبة، وعند باب بيته يكشف وجهها، فإن أعجبتته أدخلها، وإلا أعادها إلى أهلها، ويدفع له أهلها نقوداً في مقابل رفضها «الأهرام ٢٩/٨/١٩٦٨ بعنوان منذ ٧٥ سنة بتاريخ ٢٩/٨/١٨٩٣».

وهذه الصور قد يكون في بعضها تسامح، والعرف يسيغها نوعاً، بالمقارنة بالصور الأخرى الموجودة في بعض البلاد المتحضرة والمتخلفة على السواء، وهي تقوم على معرفة صلاحية البنت للزواج بكثرة من اتصلوا بها جنسياً قبل خطبتها.

يقول محمد ثابت في رحلته عن قبائل اليوروبا في نيجيريا: إن الفتاة تصادق من تشاء ما دامت بكرًا، ولا يرغب الشبان في زواجها إلا إذا حملت سفاحاً، وهنا يعتقدون أن الراغبين فيها كانوا كثيرين، وهذا بالطبع عند غير

المسلمين، فهل المقياس عندهم هو صلاحية المرأة للحمل؟ ربما يكون ذلك كما قال محمد ثابت في كتابه «بنات حواء» أن الزواج يتم في ألبانيا، ولكن لا يعلن أو يحتفل به إلا بعد أن تلد ولداً.

ونشرت آخر ساعة في ١٨/٣/١٩٥٣: أنه في «تورين» يسأل الزوج عروسه ليلة الزفاف ويقول: هل قبلك رجل قبلى؟ فإن أجابت لا، رفضها، وقد يقتلها، ويعلل ذلك بقوله: إننى لا أستطيع أن أكون الرجل الأبله الذى يرضى بالزواج من امرأة لم يجد فيها أحد قبلى شيئاً يجذبه إليها ويدفعه إلى تقبيلها.

ويقول «جوستاف لوبون» نقلاً عن دراسة نشرتها المجلة العلمية: إن السفاح بين الفتيات والفتيان قبل الزواج وفي أعراسه ومراقبة العامة لا يزال عادة مرعية عند أقوام من أهل أوروبا يعيشون فى هذا العصر، فهم يرون أن مما تعاب به الفتاة أن تتخلف عن هذا السفاح، كما يرون أن العفاف مستهجن، حتى يصعب على الفتاة التى لا تحمل سفاحاً قبل الزواج أن تجد من يتزوجها.

ونشر فى الصحف أنه فى بعض جزر الفيليبين ينتشر الاختلاط بين الجنسين، وتعد العلاقات الجنسية تجربة ضرورية لمعرفة ما إذا كانت الفتاة قادرة على الحمل أو أنها عقيم، فإذا ظهرت عليها أعراض الحمل تقدم الشبان للزواج منها، ونشر أيضاً فى جريدة الجمهورية فى ١٥/١٠/١٩٥٩ أن المرأة فى جزيرة «تاهيتى» تضع خلف الأذن اليسرى زهرة فى عيد الربيع إذا كانت تبحث عن صديق، أو تضعها خلف الأذن اليمنى إذا كانت تبحث عن زوج.

إن الأم الحديثة التى تشبعت بحضارة الغرب الأوروبى والأمريكى وتعدت فيها مشاكل الحياة الزوجية، وتمتعت بالحرية على نطاق واسع تجاوزت به حد المعقول، نرى هذه الأم ترمى بالبنت فى خضم الحياة الاجتماعية، وتطلق لها العنان تصادق وتراقص وتخالل، ليسهل على الفتى أن يعرف فيها الجمال والسلوك، ويسهل عليها أيضاً أن تعرف منزلته الخلقية ووضعه الاجتماعى وطاقته الاقتصادية، واشتطت هذه الأم فى هذا التقليد فأباحت عن طيب خاطر

أن يصحب الفتاة لمدة معلومة من أجل دراسة الخلق والنواحي الأخرى، ونظمت هذه الصحبة فجعلت لها أيام معدودة كسنة أشهر عند بعض جهات البندقية.

وفي روسيا نرى البنت هي التي تغازل وتخطب الرجل، نتيجة للإفراط في الحرية الشخصية، وعدم الاهتمام بالعفة فلا صلة لها بالعمل والإنتاج الذي هو إله الشيوعيين.

ونظراً لأن عادة الاختلاط لتعرف الزوجين قد زحفت بطقوسها الغربية إلى البلاد الإسلامية. ورأى بعض المتحللين من الدين والخلق فيها منفذاً للمتعة الوقتية، وفرصة لطرح الأثقال وفك الأغلال التي قيدتهم بها البيئة الشرقية والآداب الدينية، واجتهدوا في ترويح هذا التقليد كمظهر من مظاهر التمدين، الذي تمليه عليهم عقدة النقص بالنسبة للغرب، وهوى التقليد للأجنبي، وبخاصة إذا كان مسيطراً عليهم بالاستعمار أو بالنفوذ بأى شكل من الأشكال.

نظراً لهذا أحب أن أنبه المفتونين بهذه الفكرة إلى أخطارها التي تمس الطرفين على السواء، ضاماً صوتي إلى صوت الواقع الملموس والحوادث المؤلمة التي يخجل منها كل غيور على شرفه وكرامته.

١ - إن هذا التقليد لا يقره الدين الإسلامي، أولاً لأنه بدعة سيئة، وضلالة ترمى بصاحبها في النار، ولعلها مما تنبأ به (١) الرسول ﷺ بقوله: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لتتبعتموهم»

(١) لفظ تنبأ يقصد به الأخبار بالشيء قبل وقوعه، أو توقع حصوله، وقد يستعمل مع غير الأنبياء فيقال: لقد تنبأ العالم الفلاني بهذا الأمر من قبل كذا من الأعوام، وليس المراد به عندهم حصول نبوة أو نزول وحى، يعلم به الغيب، بل هو استنتاج من مقدمات قد يصدق وقد يكذب، فهو من نوع الفراسة، التي أقرها العلماء واستندوا فيها إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» رواه البخاري في التاريخ والترمذي عن أبي سعيد وابن عدي عن أبي أمامة وهو ضعيف.

وإذا قال نبي شيئاً من ذلك فالغالب أنه من اطلاع الله له عليه، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٥، ٢٦].

قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال «فمن غيرهم»؟ رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى ونهى عنه بقوله «من تشبه بقوم فهو منهم» رواه أبو داود من حديث ابن عمر. وقوله «ليس منا من تشبه بغيرنا» رواه الترمذى.

وثانياً لأن فيها محرماً يرتكب، وهو النظر بين الأجنبى والأجنبية، فما زالوا أجنبين حتى يرتبطا بعقد الزواج، ومع النظر قد يكون لمس وتقبيل وخلوة وقد يكون أكثر من ذلك، وهل غاب عن هؤلاء قول الرسول ﷺ: «أن يطعن فى رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له» رواه الطبرانى والبيهقى عن معقل بن يسار، ورجال الطبرانى ثقات رجال الصحيح.

على أن هذه المصاحبة لا يؤمن معها أبداً على الفتاة، وعرضها هو أعلى وأثمن ما تملك، وهو أكبر شيء يحرص على صيانتها كل شريف كريم، إذ كيف يؤمن على شاب جن جنون شهوته، وفتاة تهيأت لها الفرصة للاستشارة، مع غياب وازع الدين وراء العاطفة الجموح وخلو المكان من الرقيب، وارتفاع الكلفة ومواتاة الفرصة. والأمل المغرى بالقران، كيف يؤمن عليها فى هذا الجو الملتهب المهياً من الوقوع فى الخطأ الذى لا يوجد له مخلص - حتى لو كان الزواج - يستر فضيحته؟ يقول النبى ﷺ: «والذى نفسى بيده ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما» رواه الطبرانى عن أمامة، وهو حديث غريب، أى رواه راو فقط كما تقدم.

٢ - إن المعاملة التى تظهر من كل منهما نحو الآخر، كلها تصنع ونفاق، والخلق الطبيعى الحقيقى لكل منهما كامن مستتر دفين، مهما أثير ونبش فإنه يخفى منه الكثير، وبخاصة فى هذه الفترة وتحت سيطرة هذا الشعور.

وقد حذرت سيدات أجنبيات من هذا الخلق المصطنع، وهو تحذير نابع من ممارسة عملية رأين خطرهما فى بلادهن، لقد قالت إحدى الخطيبات لخطيبها، وقد دعاها إلى فسحة لدراسة خلقها، اعتقد أننى سأناق فى معاملتى لك، وسأجتهد ما استطعت فى إخفاء ما لو اطلعت عليه لزهدت فى، وستجد من ظاهرى ما يكذبه باطنى.

٣ - إن هذه الصحبة تتطلب عبثاً مالياً قد يكون كبيراً، لأن الفتى يريد أو يحاول أن يظهر أمام الفتاة بأنه فتى أحلامها ذو الثراء الواسع والأدب الجم، فهو ينفق عن سعة في المسارح والخلوات، ويسرف في تقديم الهدايا لينتزع رضاها، الذى يتأبى إلا على من بذل أقصى ما عنده لتحقيق رغباتها التى قد تشتت فيها دون رحمة أو حياء.

وكثيراً ما اضطر أمثال هذا المخدوع الذى وقع تحت يد تجار الأعراض إلى استدانة ما يعجز عن سداده، والويل كل الويل له إن ضاعت جهوده سدى، فنفر منه الغزال اللعوب، وشرد إن لوح له الحظ بخطيب آخر يفوقه ثراء ومجاملة، وكم من حوادث انتحار كانت نهاية حتمية لهذا السلوك، وكان ضحاياهم من المتعلمين المروجين لضلالة الاختلاط، ومع كثرة هذه الحوادث ليس فى القوم من مدكر:

أمرتهمو أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلاضحى الغد

٤ - فى هذا التقليد الغريب تشويه لسمعة الخطيبين إن أسفرت التجربة عن فشل وعدول عن الزواج، فالناس لا بد متحدثون ومعلقون على هذه التمثيلية التى أسدل ستارها على مأساة الخيبة والفشل، ستكثر الآراء حول البطلين الفاشلين، فتتهم البنت برداءة الخلق أو بذاءة اللسان، أو يعيب بدنى أو نفسى مستور كشف البطل الآخر ستره وعرف سره، وربما كانت الفتاة مظلومة فى هذا الاتهام، ولكن كيف يبسر الناس انصراف خطيبها عنها إلا بمثل هذه الظنون، التى تلبس ثوب الحقائق بسريانها على كل الألسنة وستكون من أكبر الصوارف عن الفتاة، ومن أخطر الأشباح التى تخيف من تحدته نفسه بالتقدم لخطبتها، بعدما قرأ بوضوح نهاية التجربة التى أجراها من قبله فانتهدت بالفشل.

على أن بعض الناس يأنف من هذا الطعام الذى امتدت إليه الأيدي، وربما تكون الأيدي ملوثة، فجنت جناية كبيرة لا يمكن أن يطهر منها العرض مهما غسل وبولغ فى غسل العار عنه، يصور ذلك قول بعضهم:

وأترك حبها من غير بغض وذاك لكثرة الشركاء فيه

إذا وقع الذباب على طعام
رفعت يدي ونفسي تشتهيهِ
وتجتنب الأسود ورود ماء
إذا كان الكلاب ولغن فيه

كما أن الناس سيتحدثون عن الفتى وما صرفها عنه، فسيتهم بفقر
انكشف أمره، أو خلق ظهر سره، وهذا بدوره يجعل الناس يوجسون خيفة إن
تقدم إليهم هذا الفتى ليعقد معهم مصاهرة، وقد يتشاءمون منه، خوفاً أن تفشل
التجربة أيضاً مع بنتهم كما فشلت مع السابقة، وعلى فرض إجابة رغبته فإن
العاطفة القوية المشتركة التي يجب أن تكون متبادلة بين الطرفين عند الخطبة
ستنخفض درجتها إلى حد ما، عندما ينظر أهل الفتاة الجديدة إليه وقد زهدت
فيه الفتاة الأولى، التي تحاول أن تشيع عنه ما يبزر انفصالها منه، وحتى لو كان
هو الزاهد في تلك الفتاة، فإن الهواجس سترجح الطرف الآخر، وكأنهم يقرءون
على شفاه البتلة الأولى وهي تتمتم بهذه الحكمة التي كانت نهاية المطاف
وخاتمة المقال ومحصلة التجربة:

سبكانه ونحسبه لجينا فأبدي الكير عن خبث الحديد

ثانياً - بعد عرض هذه الصور على المستوى البدائي والحضارى، القديم
والحديث، جاء الإسلام بصورة معقولة نابعة من وحي الطبيعة فى حب
الاستطلاع، وفى حب الذات التى تختار لنفسها أحسن ما يكون وبخاصة عند
الإقدام على بناء بيت الزوجية، والصورة فى الوقت نفسه تراعى الضوابط التى
تحجز هذه الطبيعة عن الانطلاق فى الاستطلاع، والإسراف فى حب الذات،
تلافياً لما يحدث من نتائج وخيمة، وما يتنافى مع الكرامة الإنسانية والرسالة
السامية.

وهدى الإسلام فى رسم الصورة المعقولة لتعرف كل من الطرفين على الآخر
تحده هذه الخطوط:

١ - أباح للرجل أن ينظر إلى من يريد الزواج منها ليعرف ناحية الجمال
فيها، وهو مرغوب بالطبع، كما مرت الإشارة إليه، وأدلة جواز النظر ومداه
موضحة فى البحث الشامل عن «الحجاب بين التشريع والاجتماع» فليرجع إليه.

٢ - أما معرفة الأحوال الاقتصادية للفتى والفتاة، فيمكن أن تتم عن طريق السؤال لمن يتصل بهما، أو من واقع الأوراق الرسمية إن كانت لهما أعمال رسمية، أو ممتلكات مسجلة، أو بوسيلة أخرى، كمراقبة تصرفات كل منهما ونظامه في المعيشة.

٣ - ومعرفة صلاحية كل منهما للإنجاب وخلوه من الأمراض الوراثية، وهو أمر جد حديثاً، تمكن عن طريق المكاتب التي أنشئت لفحص الراغبين في الزواج، وهي متوفرة في كثير من البلاد.

٤ - أما ناحية الخلق والتدين، وهي المهمة في بناء الأسرة، فمعرفة الرجل ميسورة، وذلك لسهولة الاختلاط به من ولي أمرها أو غيره في تعامل أو محادثة أو سفر... وله أن يسأل ويستفسر، ضاماً إلى ذلك ألسنة الخلق، فهي غالباً أقلام الحق، في الوسط الذي ما زال يحترم الدين.

وعلى الرجل أن يكون صريحاً صادقاً فيما يخبر عن نفسه، لتكون علاقته الزوجية مبنية على أساس سليم، وليأخذ لنفسه هذه الأسوة الحسنة من السلف الصالح.

ذكر ابن عبد ربه «العقد الفريد ج ٣ ص ١٩٤» أن بلالاً وأخاه قيل إنه صهيب، ذهب إلى أهل بيت من بنى ليث من العرب يخطبان، فقيل لهما: من أنتما؟ فقال بلال: أنا بلال وهذا أخى صهيب، كنا ضالين فهدانا الله، وكنا مملوكين فأعتقنا الله، وكنا عائلين فأغنانا الله، فإن تزوجونا فالحمد لله، وإن تردونا فسيحان الله. فقالوا: بل تزوجان والحمد لله. وعندما لأمه صهيب على عدم ذكر المحاسن التي تشرف بها تاريخهما في جهادهما مع الرسول عليه الصلاة والسلام، قال له: اسكت. فقد صدقت فأنكحك الصدق.

وفى «أسد الغابة - ترجمة «أبو رويحة الخثعمي»: أن الذي ذهب هو بلال وأبو رويحة، وخطبا من خولان في الشام، بعد فتح عمر بن الخطاب لها «ج ٣٧ عدد ١١٤».

وإذا سئل إنسان عن حال الخطيئين فليقل الصدق، وليخبر بالحقيقة التي يعرفها، وليبين العيب الذي فيهما، ولا يعد هذا غيبة، فهو مشروع للنصيحة، على أن هذا من حق المسلم على المسلم الذي جاء في الحديث الشريف، ومنه «وإذا استنصحك فانصحه» رواه مسلم عن أبي هريرة .

والذي يخرج من تبعه النهي عن الغيبة «وهي ذكرك أخاك بما يكره وإن كان فيه» هو النية والقصد، فالأعمال بالنيات، فليكن القصد من ذكر العيوب إسداء النصيحة والتحذير من الوقوع في الخطر، ولا يقصد التشفي والقذح والانتقام من المتحدث عنه وتشويه سمعته، ومن الأدلة الخاصة المباشرة لجواز ذلك، ما سبق أن النبي ﷺ قال لفاطمة بنت قيس حين استشارته في معاوية وأبي جهم «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه» .

إن معرفة خلق المرأة وتدينها فيها بعض العسر، وهي تأتي بطريق غير مباشر، نظراً لفرض الحجاب وعدم السماح باختلاط الجنسين، والتأكيد على المرأة بالاستقرار في البيت، فكيف يعرف الرجل أخلاقها ودقائق سلوكها؟

إن معرفة نسبها وأصولها، والبيئة التي تعيش فيها، وعلى الأخص سلوك والديها، وما يشاع عنهما على ألسنة الناس ربما يدخل الطمأنينة في النفس أن الفتاة الناتجة من هذا الأصل، والنابئة في هذه البيئة تكون على شاكلة من انتسبت إليهم وتربت فيهم، وهذا أمر غالبى قد تكون له بعض الحالات الشاذة .

وقد رغب كبار القوم والسلف الصالح في التزوج من بنات الصالحين لعلمهم أن صلاحهم سينعكس على سلوك بناتهم، جاء في كتاب «مفيد العلوم ومبيد الهموم» للخوارزمي ص ٢٤٩ أن عبد الله بن عمر بن عثمان تزوج إليه أربعة من الخلفاء: الوليد بن عبد الملك تزوج ابنته «عبدة» وأخوه سليمان بن عبد الملك تزوج ابنته «عائشة» ويزيد أخوه تزوج ابنته «أم سعيد» وهشام أخوه تزوج ابنته «رقية» .

والطريق الأيسر لمعرفة التدين والخلق عن طريق مباشر نوعاً، هو إرسال

وسيط يقوم بهذه المهمة، مع التزود بآراء الجيران ومن يتصلون بها عن قرب، والنساء فى هذه الوساطة أحرى وأدرى، فالوسيطه ترقب تصرف الفتاة فى حكمة، وتستشف أخلاقها بلباقة، دون أن يشعر أحد بمهمتها أو غرضها من الزيارة التى ينبغى أن تتكرر، حتى لا يكون هناك مجال للتصنع، أو محاولة لستر الكامن من الأخلاق والأوصاف غير المرضى عنها.

ذكر صاحب « كفاية الأخيار » أن النبى ﷺ بعث أم سليم إلى امرأة، وقال: « انظري عرقوبها، وشمى معاطفها ». وذكر الشعرانى فى كتاب « كشف الغمة » أنها لما ذهبت لتخطبها قالوا لها: ألا نغذيك يا أم فلان؟ قالت: لا أكل إلا من طعام جاءت به فلانة، قالت: فصعدت فى رف لهم، فنظرت إلى عرقوبها، ثم قلت: افلينى^(١) يا بنية، ففلتني، فجعلت أشم عارضها. قال أنس: فلما جاءت وأخبرت النبى ﷺ تبسم. رواه أحمد والطبرانى والبيهقى والحاكم عن أنس. واستنكره أحمد، والمشهور فيه من طريق عمارة عن ثابت عنه. ورواه أبو داود فى المراسيل عن موسى بن إسماعيل عن حماد مرسلًا، قال: ورواه محمد بن كثير الصنعانى عن حماد موصولًا « نيل الأوطار للشوكانى ج٦ ص ١١٨ » « جمع الجوامع للسيوطى ج١ ص ١٤٣٨ ورقم الحديث ٩٠-٤٥٧٥. والفتح الربانى ج١٦ ص ١٤٥. وكذلك ذكر السهيلي فى الروض الأنف ج٢ ص ٢١٩ أن النبى ﷺ أرسل عائشة تخطب له امرأة.

وحذار ثم حذار أن يعهد الخاطب بهذه المهمة إلى وسيطة محترفة أو مغرضة قد تنفس على المخطوبة أو تنفس عليه، حتى لا تشوه الحقائق، بل ينبغى أن تكون القائمة بهذه المهمة ذات خلق ودين وعفة نفس واتزان عقل، لا تنخدع بمظهر تراه، ولا تتأثر بهدية تقدم إليها، أو حفاوة تقابل بها، فإن كثيراً من اللاتى اتخذن هذه الوساطة مهنة لا يهمن من ذلك إلا النفع المادى، وبقدر ما يبذل من مال يكون الجهد، ولهن فى هذه الناحية أسلحة عدة، وشباك محكمة الصنع

(١) فلى رأسه من القمل يفليه من باب: رمى.

لاصطياد الفريسة، فحلاوة منطقتها وجودة سبكها للوصف، وحرركاتها التي تدعم قولها، وزينتها التي تخطف اللب، كل ذلك يستهوى العقول، ويلهب العواطف، ويكيف الأفكار والآراء، فهي تخلق - إن شاءت - من القرد غزالاً، ومن قمر المحاق بدرًا كاملاً، ومن الجبان شجاعاً، ومن باقل سحبان، ومن المريبة عفيفة ومن الحاملة صناعاً ماهرة.

فلتتق الله هذه الوساطة، التي سيبنى على شهادتها وتقريرها مشروع الحياة المستقبلية، التي يريد لها الزوجان متينة البنيان، ثابتة الأركان، وعليها أن تتحرى الصدق وتخبر بالحق، دون تزييف لمصلحة الفتى أو الفتاة، فالله أولى بهما.

كما أنه يجب على الفتاة وولى أمرها أن يبيننا كل شيء، ويخبرنا عن كل عيب، دون خوف أن ينصرف الفتى إن عرف الحقيقة، فربما كان هواه فيما عرفه، فالأذواق مختلفة، وكل له ما يهواه، ولعل اطمئنانه إلى صدق الخبر يكون حافزاً له على الزواج، لأنه أنس أن الحياة سيسودها الصدق والصراحة دون غش أو نفاق، وذلك من أقوى دعائم الاستقرار في الحياة الزوجية.

وإليك مثلاً ينبغي أن يكون قدوة: روى مسلم عن أم سلمة رضی الله عنها، ضمن حديث، قالت: أرسل إلى رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لى بنتاً وأنا غيور... وفي رواية للنسائي وغيره: فقالت: إن فى خلا لا ثلاثا أخافهن على رسول الله ﷺ، أنا امرأة شديدة الغيرة، وأنا امرأة مصيبة، وأنا امرأة ليس لى هنا أحد من أوليائى فيزوجنى.

وقد اشتهم عمر رضی الله عنه - وقد كان النبى ﷺ أرسله أيضاً ليخطبها له - أنها ترد رسول الله بكلامها هذا، فغضب، ولكنها أرادت أن تعرف الرسول حقيقة أمرها ليكون على بينة منها، وتمام الحديث عن خطبتها مذكور فى ترجمتها فى بحث تعدد الزوجات.

ومثل ذلك حدث عندما خطب النبى ﷺ أم هانئ بنت عمه أبى طالب، لقد بينت أن حق النبى عليها عظيم، ولكن عندها أيتام لهم حق، وهى تخشى

أن تقصر في حقهم للوفاء بحق الرسول . فقال النبي ﷺ « خير نساء ركن الإبل نساء قريش، أحناء على ولد، وأرعاه على بعل في ذات يده، ولو علمت أن مريم بنت عمران ركبت جملاً لاستثنيتها » رواه مسلم في فضائل أم هانئ « ج ١٦ ص ٧٩-٨١ » .

وفي رواية له عن أبي هريرة قال : عندما روى الحديث « نساء قريش خير نساء ركن الإبل، أحناء على طفل وأرعاه على زوج في ذات يده، قال : ولم تركب مريم بنت عمران بغيراً قط، فهذه الزيادة من قول أبي هريرة، وفي رواية عنه « خير نساء ركن الإبل صالح نساء قريش... » .

لكن الصراحة في ذكر أوصاف المرأة وإظهار عيبها يتعارض مع ما جاء في مسند الحارث وغيره عن الشعبي أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب فقال : إن لى ابنة وأدتها في الجاهلية، فاستخرجتها فأسلمت، فأصابت حداً فعمدت إلى شفرة فذبحت نفسها، فأدركتها وقد قطعت بعض أوداجها فداويتها فبرأت، ثم إنها نسكت فأقبلت على القرآن، وإنها تخطب إلي، فنخبر من شأنها بالذي كان . فقال عمر : تعمد إلى ستر ستره الله فتكشفه، فإن بلغنى أنك ذكرت من شأنها شيئاً لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار، بل أنكحها نكاح العفيفة المسلمة . « المطالب العالية لابن حجر ج ٢ ص ٤٠ » .

يقال : برأ من المرض أو برئ . والأول عند أهل الحجاز من باب : قطع . والثاني من باب سلم، فالمضارع واحد وهو يبرأ، ومصدر الأول : براء، ومصدر الثاني : براءة . ويقال : نسك بفتح السين ينسك بضمها نسكا بالسكون مع ضم النون، أى عبد . ويقال : نسك ينسك بضم السين فيهما، أى صار ناسكاً .

وقد يقال في هذا الموضوع : إن الخاطب لو طلب بيان الحال كان على الخطوبة وأوليائها أن يبينوا كل شيء، وإن لم يطلب لا يلزمهم البيان، بل يكون مندوباً . ولعل عمر رأى من تدين البنت ما يجعله ينصح ألا يخبر أبوها الناس بماضيها . وقد يكون هذا التدين في نظر خاطبها مرجحاً للزواج بها شفقة أو تكريماً وتقديراً .

وقد وضع الشرع حداً للخبث الوسطاء المضللين، أو الذين يكتمون الحق بوجه عام من الزوجين والأولياء، فمع نهيهِ عن الكذب والغش والخداع فى نصوص عامة كثيرة فى القرآن والسنة، جاءت نصوص تخص هذه الحالة بالذات، فقد روى أحمد فى مسنده من حديث يزيد بن كعب بن عجرة^(١) أن رسول الله ﷺ تزوج امرأة من بنى غفار، فلما دخل عليها، ووضع ثوبه وقعد على الفراش أبصر بكشحها بياضاً، فأماز عن الفراش ثم قال: «خذى عليك ثيابك» ولم يأخذ مما آتاها شيئاً.

الكشح ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف. والخاصرة هى الوسط، والبياض المراد به البرص، وأماز يعنى تنحى، مأخوذ من ماز الشئ عزله.

وجاء فى نيل الأوطار «ج٦ ص ١٣٤» أن هذا الحديث مروى عن جميل بن زيد عن زيد بن كعب أو كعب بن زيد، وجميل ضعيف، وقد اضطرب فى هذا الحديث.

وجاء فى بعض الروايات قوله «دلستم على» كما ذكره الزرقانى على المواهب اللدنية ج٥ ص ٢٨٢.

وجاء فى موطأ الإمام مالك عن عمر أنه قال: «أىما امرأة غربها رجل، بها جنون أو جذام أو برص فلها المهر بما أصاب منها، وصدّاق الرجل على من غره».

هذا فى عيب المرأة، وقد قرر العلماء أنه لو شرط جمالها أو سلامتها أو بياضها أو بكارتها، أو كان ذلك معروفاً عندهم، فإن العرف كالشرط، فله الفسخ.

وانظر إلى حكم الشرع فى العيب يظهر بالرجل، وكان خفياً على الفتاة: جاء فى سنن أبى داود من حديث عكرمة عن ابن عباس: طلق عبد يزيد أبو ركانة زوجته أم ركانة، ونكح امرأة من مزينة، فجاءت إلى النبى ﷺ فقالت:

(١) زاد المعاد لابن القيم ج٤ ص ٣١ وعجزة بضم العين وسكون الجيم.

ما يغنى عنى إلا كما تغنى هذه الشعرة. لشعرة أخذتها من رأسها، ففرق بينى وبينه، فأخذت النبي حمية... وذكر الحديث، وفيه أن النبي ﷺ قال له: «طلقها، ففعل..... (انظر بحث الطلاق).

وعن ابن سيرين أن عمر بن الخطاب بعث رجلاً على بعض السعاية، فتزوج امرأة، وكان عقيماً، فقال له عمر: أعلمتها أنك عقيم؟ قال: لا، قال: فانطلق فأعلمها، ثم خيرها. «انظر زاد المعاد ج ٤ ص ٣٠».

وتزوج رجل على عهد عمر، وكان قد خضب، أى كانت له شيبة خضبها، فنصل خضابه، أى زال الخضاب وظهر الشيب، فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا: حسبناه شاباً، فأوجعه عمر ضرباً، وقال: غررت القوم، ورد نكاحه «الإحياء ج ١ ص ١٢٧».

وقد ذكر العلماء أنها لو اشترطت صفة فيه، ككونه شاباً جميلاً أو ذا صنعة ليست دنيئة تشينه، فبان خلافه فلها الفسخ، على ما ارتضاه ابن القيم لموافقته لقواعد الشريعة.

* * *

الفصل الثانى

إجراءات الخطبة

الخطبة بمعنى تقدم الخاطب إلى ولى أمر الزوجة ليطلب منه يد المرأة التى تحت ولايته لم تكن معروفة فى بعض البيئات والعصور السابقة كخطوة أولية تتم قبل العقد، بل كانت هى الخطوة الأولى والأخيرة فى الزواج، لا يعرف فيها وعد بالزواج ثم عقد ثم دخول، على النسق المعروف عند الأمم المستقرة المنظمة.

وسيكون حديثنا عن إجراءات الخطبة فى الإسلام مسبقاً بحديث عن إجراءاتها فى التشريعات والأديان السابقة، إلى جانب الصور التى مرت فى الفصل السابق. وكذلك عن إشهارها وإعلانها.

أولاً:

(أ) كانت الخطبة فى العصور القديمة عند الغربيين أيام البرابرة والجرمان مضمونة، وذلك بدفع عربون يأخذه الرجل كله لو فسخت الخطبة قبل «القبلة» وهى المعروفة عندهم باسم اسكولوم ويأخذ نصفه بعد القبلة، هذا عند البرابرة، أما الجرمان فإن الزواج عندهم كان يؤول إلى عمليتين، الخطبة والزواج، والخطبة هى أن يشتري الخاطب المرأة من ولى أمرها بعد المساومة على الثمن الذى حدده القانون فيما بعد، وهو ضرورى فى صحة الخطبة، لأنها تعتبر عقداً، وكانت المحادثات تدور بين الأقارب دون استشارة المرأة، لأن ذلك غير لازم عندهم، وقد تطور الثمن فضوعف، وانقسم إلى قسمين أو جزأين، جزء بسيط يدفع لأقارب المرأة، وجزء آخر يدفع لها ويسمى «دوطة» ثم تطور الحال فصارت استشارتها ضرورية، وصارت هى التى تخطب رأساً، وليس عن طريق أقاربها، الذين اكتفى بإذنهم لها فقط.

(ب) والخطبة عند اليهود عقد يتفق فيه الخاطبان على الزواج فى أجل مسمى، بمهر مقدر بشروط ويتفقان عليها، ولا تعد الخطبة شرعية إلا بالعهد

الشرعى المعروف عندهم باسم «القنبان» وهى وعد غير ملزم بالزواج. لكنه يلزم بالتعويض عند الفسخ غير المحق وإلحاق الضرر بالخطيب المحافظ على العهد، ويسقط التعويض عندهم بالفسخ فى بعض الحالات مثل: ظهور عيب فى أحدهما لم يكن يعلم به الآخر، وطروء العيب أو الجنون أو المرض المعدى، وارتكاب الفحشاء شرعاً وثبوتها على إحدى عائلتى الخطيبين، واعتناق قريب من إحدى العائلتين ديانة أخرى، وسوء سلوك الخاطب، وعلمه بعد الخطبة أن المخطوبة مات لها زوجان.

جاء فى كتاب «عادات الزواج وشعائره» للشنتناوى ص ٥١: إن هناك شعيرتين عند الخطبة تختار إحداهما، الأولى تعرف باسم «كاسف» أى المال، والثانية تعرف باسم «كدوش» أى الوثيقة المكتوبة. وفى الشعيرة الأولى يقدم الخاطب قطعة من النقود زهيدة القيمة للخطيبة قائلاً: كوني زوجة لى، وهذه الشعيرة هى البقية الباقية عند اليهود من عادة الزواج بالنساء التى كانت شائعة من قبل. وفى عهد البطارقة قدم خادم إبراهيم تحفاً ثمنية لأم رفقة وأخيها، لكى يزوجا «رفقة» لإسحاق ابن سيده، واضطر يعقوب، وكان فى المنفى من غير مال يدفعه لامرأة يتزوج منها، أن يخدم عمه «لابان» أربعة عشر عاماً ليتزوج من ابنته «راحيل» (سفر التكوين)، الاصحاح ٢٩: ١٦-٣٠.

وقال بعض الكتاب: إن نظام الخطوبة بمقتضى شعيرة «الكاسف» لم يكن موجوداً قبل عهد الملك «هيروود» الذى حكم من ٤٠-٤٤ ق.م، ولعل اليهود اقتبسوه من الرومان، واستبدل اليهود «دبلة الخطوبة» بالعملة خلال العصور الوسطى تأثراً بعادات الرومان.

أما الخطوبة بطريقة «الكدوش» فهى عبارة عن وثيقة مكتوبة يقدمها العريس إلى العروس فيها: أنا فلان الفلانى أخطب بمقتضى هذه الوثيقة فلانة الفلانية وفقاً لشريعة موسى وإسرائيل، وكانت الشريعة تنص على وجود شاهدين عدلين فى كلتا الحالتين، وبعد هذه الشعيرة تتلى خطبة العرس بمعرفة حاخام أو ولى الزوجة.

وسيجيء كلام قريب من هذا فى الفصل الثانى الذى يتحدث عن صور للزواج عند اليهود والنصارى .

(ج) وفى القانون الكنسى المكتسب من القانون الرومانى ليست الخطبة ملزمة للزواج، بل هى وعد فقط، إلا أن قصد بها الزواج المعتبر فيه رضا الطرفين، ومجمع «الترانت» الذى انعقد فى القرن السادس عشر جعل الوعد بالزواج إلزاماً بتمامه كشرط ابتدائى . وفى سنة ١٦٣٩م صدر مرسوم ملكى فرنسى بوجوب تحرير الخطبة كتابة، وتكون ملزمة للتنفيذ إن رضى الطرفان .

وعلى كل حال فهى جائزة الفسخ برضاها، أو لعارض فقر أو مرض، فإن فسخت بدون مبرر قانونى يجازى البادئ بالحرمان من العشيرة، ولئن مانع من الطرفين مقاضاة الطرف الآخر أمام الكنائس، فيجازى دينياً لا مدنياً، وأما الحق المدنى فيطالب به أمام المحاكم المختصة، وفى النهاية ليست الخطبة ملزمة بالزواج فى جميع المذاهب المسيحية .

والخطبة لها مدة معينة تنفسخ بعد انقضائها إلا إذا جدها الطرفان، وهى سنتان عند الكاثوليك وسنة عند الأرثوذكس، والكاثوليك يحكمون برد الهدايا بعينها أو ثمنها إذا كان الطرف المقدم لها ليس هو الذى فسخ الخطبة، وعند الأرثوذكس تفسخ الخطبة بالتراضى، أو رجوع أحدهما عنها، أو التفرير بها وتركها أى ترك الخطيبة، وعند بعضهم إذا ارتكب أحدهما جنائية، وبعد الفسخ يرد العربون والهدايا، إن كان الفسخ بالتراضى، أو وجدت عاهة بالزوج تمنع إتمام العقد، أو علة لم تعلم عند الخطيبة، وترد الهدايا، والعربون وحده ضعفين عند بعض طوائف الأرثوذكس إذا كان الراغب فى الفسخ هى الخطيبة، أو امتنعت عن إجراء العقد فى مدته المعينة .

ولا تعاد الهدايا ولا العربون إذا غدر هو بها، ثم استنكف عن العقد لزمه تأدية بدل البكارة أيضاً مع فقدان العربون، أو كان هو طالباً للفسخ لوجود علة بها كان يعلمها عند الخطيبة ورضى بها، أو امتنع عن إتمام العقد فى مدته .

(د) والقانون الفرنسى سكت عن الخطبة، وذلك لإعطاء الحرية الكاملة

للطرفين، فلا إلزام ولا حدود، وكذلك لم يهتم بها فى القانون السوفيتى، لكنها موجودة على المستوى الشعبى، وفى مجلة آخر ساعة ٤/٣/١٩٥٣ أن الولايات المسكوفية فى قلب روسيا لها طقوس غريبة فى الاحتفال بالخطبة، فقد كان أبو الفتاة يضربها بالسوط، ثم يسلم السوط إلى الزوج المرتقب. فهل يعنى هذا أن أباهما هو الذى كان مسئولاً عنها يؤدبها ويعاقبها، ثم صار الزوج هو المسئول، أو أن المعنى إرشاده إلى أن سياستها لا تكون إلا بالشدة والضرب؟

وجاء فى المجلة أيضاً أن فنلندة كانت فيها الفتاة فى سن الزواج تتمنطق بحزام فيه غمد مدية، وعندما يرغب أحد الشبان فى الزواج منها عليه أن يولج فى هذا الغمد السكين التى تكون مطابقة له محكمة فيه. ويتوقف قبول الزوج أو رفضه على رضا السكين أو أبائها الولوج فى الغمد، فهل معنى ذلك أن يكون الفتى على درجة عالية من أداء العملية الجنسية بإحكام، أو هناك معنى آخر؟

(هـ) وفى بعض التشريعات الوضعية الحديثة أعطيت الحرية الكاملة للطرفين، وفى بعضها الآخر مثل القانون الألمانى والتركى والصينى يلزم الناكل بالتعوض إن كان هناك شرط جزائى، والقانون الفرنسى جعل هذا الجزاء على الناكل أن كان بغير مبرر إذا حصل إيذاء للطرف الآخر، سواء أكان الضرر مادياً أم أدبياً، فهو من باب الجزاء على الأضرار، شأن أى ضرر آخر، لا ينظر فيه إلى الناحية الدينية، وكانت المحاكم المختلطة فى مصر سائرة عليه. وقد ألغيت هذه المحاكم فى ١٥/١٠/١٩٤٩ م. وصار القضاء كله وطنياً^(١).

(و) والخطبة كاجراء يسبق العقد كانت موجودة عند عرب الجاهلية كما سيأتى الحديث عنها عند بيان أنواع النكاح فى الجاهلية، ومن أمثلة ذلك ما تقدم فى الباب السابق من استشارة هند فى الزواج عند خطبة سهيل وأبى سفيان لها، وكذلك خطبة الحرث المرى.

(١) هذه المعلومات ملخصة من مقالات الأستاذ بكير المحامى والمنشورة فى مجلة الأزهر وكذلك من كتاب الزواج فى الشرع الإسلامى والقوانين اللبنانية للأستاذ أنور الخطيب.

ثانياً :

والخطبة فى الإسلام هى طلب الرجل يد امرأة معينة للتزوج بها، وهى مرحلة بين التفكير فى الزواج وبين العقد النهائى الذى يملك به حق الانتفاع بالمرأة، وهى تواعد متبادل بين الطرفين أو من يمثلهما بعقد الزواج، والحديث هنا سيكون عن شروط المرأة المخطوبة، وعن الذى يقوم بالخطبة، أما أحكامها وآثارها فستكون فى الفصل التالى إن شاء الله.

١ - من تجوز خطبتها:

وضع الإسلام شروطاً لمن تجوز خطبتها، وفصلها الفقهاء، فى كتبهم، ومن أهم هذه الشروط:

(أ) ألا تكون متزوجة وزوجيتها قائمة، لأنه لا يحل نكاحها فلا تجوز خطبتها، قال تعالى: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ... ﴾ أى المتزوجات وهى معطوفة على المحرمات فى الآية السابقة عليها ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ... ﴾ [النساء: ٢٣، ٢٤].

والمعتدة يختلف حكم خطبتها، فإن كانت فى عدة وفاة حرمت خطبتها بلفظ صريح كقوله: أريد أن أتزوجك، وذلك حفاظاً على شعور أقارب الميت، أما الخطبة بالتعريض، وهو ما يحتمل الرغبة فى النكاح وعدمها كقوله: أنت جميلة، فلا مانع منها، وجاز التعريض لأنها لا تكذب فى قدر العدة فهى محدودة بوضع الحمل للحامل، ويتمام الأشهر الأربعة والأيام العشرة لغيرها، وهما أمران واضحان لا مجال لإخفائهما. ودليل جواز الخطبة بالتعريض قوله تعالى، بعد الآية التى تتحدث عن عدة الوفاة ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، فقد أجازت الآية الخطبة تعريضاً، ويفهم منها عدم جوازها تصريحاً.

ومعنى «أكننتم فى أنفسكم» أضمرتم فى قلوبكم فلم تذكروه بالسنتكم. وهو الرغبة فى الزواج بهن، ومعنى «لا تواعدوهن سراً» السر هو الجماع لأنه مما يسر. أو المراد به الزواج لأنه وسيلة له، والنهى عن المواعدة به هو للتصريح لا للتعريض، وهو ما يفيد قوله «إلا أن تقولوا قولاً معروفاً» أى غير منكر وهو التعريض، ثم نهت الآية عن عقد النكاح قبل انتهاء العدة. وكان النهى عنه بالنهى عن العزم عليه من باب المبالغة كالنهى عن قربان الزنى. والكتاب هو العدة لأنها مفروضة بالكتاب.

ومما وقع من خطبة المعتدة عن وفاة، ما روته سكيمة بنت حنظلة قالت: استأذن على محمد بن على بن الحسين، ولم تنقض عدتى من مهلك زوجى، فقال: قد عرفت قرابتى من رسول الله ﷺ، وقرابتى من على، وموضعى من العرب. قلت: غفر الله لك يا أبا جعفر، إنك رجل يؤخذ عنك، تخطبنى فى عدتى؟ قال: إنما أخبرتك بقرابتى من رسول الله ومن على^(١).

وإن كانت المعتدة تعدد من طلاق، فإن كان الطلاق رجعياً حرمت خطبتها تصريحاً وتعريضاً، لأنها ما زالت فى حرم الزوجية الأولى، وقد تكذب فى عدتها انتقاماً من مطلقها.

أما إن كان الطلاق بائناً فتحرم الخطبة بالتصريح وتجوز بالتعريض، وقيل تحرم بهما، لأن الله لم يجز التعريض إلا فى المتوفى عنها، فما عداها تحرم خطبتها تصريحاً وتعريضاً.

وكل هذا لغير الزوج الذى طلقها، فإنه يجوز له خطبتها تصريحاً وتعريضاً.

(ب) ألا تكن المخطوبة محرمة عليه تأييداً كالأخت أو توقيتاً كأخت الزوجة، فإن الخطبة عبث لأنها لا تؤدى إلى نتيجة، وهى فى الوقت نفسه استهانة بتحريم الله لهذه المخطوبة، فكان الخاطب يقول: ما دامت خطبتها جائزة فزواجها جائز.

(١) الأحوال الشخصية لأبى زهرة.

(ج) ألا تكون مخطوبة للغير، والخطبة فى هذه الناحية قوية، ولو أنها لا تعدو أن تكون وعداً بالزواج، فهى تمنع غير الخاطب أن يتقدم لخطبتها، احتراماً لشعور الأخوة الإسلامية، ومنعاً للفتنة التى تترتب على جرح كرامة الخاطب الأول، وطعنه فى حبه .

والنهى عن خطبة المخطوبة قيل للتحريم وهو ما عليه الجمهور، وقال الخطابى: إنه نهى تأديب وليس نهى تحريم، وعلى كلا الأمرين فإن النهى لا يؤثر على العقد، بمعنى أنه لو خطبها وعقد عليها صح العقد ولزمه الإثم .

وتحريم خطبة المخطوبة للغير مشروط بشروط، منها:

١ - أن يصرح ولى أمرها بإجابة الخاطب الأول .

٢ - ألا يأذن الخاطب الأول لغيره أن يخطبها .

٣ - ألا يتركها .

٤ - أن يعلم الخاطب بالخطبة السابقة .

٥ - أن تكون الخطبة الأولى جائزة، فإن كانت محرمة كخطبة المعتدة فلا تحرم الثانية بعد انتهاء العدة .

٦ - ألا تأذن المرأة لوليها أن يزوجه ممن يشاء، فإن أذنت له كذلك صح وحل أن يتقدم لخطبتها كثيرون، واحداً بعد الآخر .

٧ - واشترط بعضهم شرطاً مختلفاً فيه وهو أن يكون الخاطب الأول مسلماً، فإن خطب كافر ذمى جاز للمسلم أن يخطبها، وقيل: لا يجوز .

ودليل النهى عن خطبة المخطوبة ما رواه مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ « لا يبيع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، إلا أن يأذن له » . وفى رواية له عن عقبه بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: « المؤمن أخو المؤمن، فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر » أى يترك .

قال النووى فى شرح صحيح مسلم: وقد أجمع على تحريمها إذا كان قد صرح للخاطب بالإجابة، ولم يأذن، ولم يترك . فلو خطب على خطبته وتزوج

والحالة هذه عصى وصح النكاح ولم يفسخ، وهو مذهب الجمهور، لكن قال داود: يفسخ النكاح. وعن مالك روايتان، وقال جماعة من أصحاب مالك: فسخ قبل الدخول لا بعده، أما إذا عرض له بالإجابة، ولم يصرح ففى الخطبة على خطبته قولان للشافعى، أصحهما لا يحرم.

وقال بعض المالكية: لا يحرم حتى يرضوا بالزواج ويسمى المهر، واستدلوا لما ذكرناه من أن التحريم إنما هو إذا حصلت الإجابة بحديث فاطمة بنت قيس، فإنها قالت: خطبنى أبو جهم ومعاوية، فلم ينكر النبى ﷺ خطبة بعضهم على بعض، بل خطبها النبى لأسامة.

وقد يعترض على هذا الدليل بأنه ربما يكون الثانى لم يعلم بخطبة الأول، وأن النبى لم يخطب لأسامة، ولكنه أشار عليها بزواجه.

واتفقوا على أنه إذا ترك الخطبة رغبة عنها، أو أذن فيها جازت الخطبة على خطبته لحديث المرأة التى وهبت نفسها للنبى، وعندما لم يجبها، سأله أحد الصحابة أن يزوجه لها إن لم تكن له بها حاجة، فأذن له النبى، على أن يقدم لها ولو خاتماً من حديد، ولما لم يجد تزوجته على ما معه من القرآن كما سيأتى عند الكلام عن الصداق.

كما أجاز ابن حزم أن يخطب على الخطبة إذا كان الخاطب الثانى أحسن ديناً وعشرة لها من الأول ويستأنسون لهذا بالإشارة من النبى على أسامة بخطبة فاطمة بنت قيس لأنه أحسن لها من معاوية وأبى جهم لأن الأول صعلوك لا مال له، والثانى لا يضع العصا عن عاتقه.

وهذا الحكم شامل للخطبة على خطبة الكافر، فذلك حرام، وذكر الأخ فى الحديث خرج مخرج الغالب لكن ربما يقال: لماذا خطب النبى ﷺ عائشة من أبى بكر، مع أنها كانت مسماة على جبير بن مطعم؟

والجواب: إن هذه الخطبة كانت بمكة، وتحريم الخطبة على خطبة الغير تشريع مدنى، على أن النبى يجوز أنه لم يعلم بتلك الخطبة السابقة، إلا بعد أن أخبره أبو بكر بها، وحدث بعد ذلك أن جبيراً ترك الخطبة.

والخطبة فى الإسلام ليست لها إجراءات معينة رسمياً، فهى عمل مستقل عن أنظمة الحكومة، وقد جدت نظم حديثة جعلت لها إجراءات لا بد من القيام بها حتى يؤذن فيها وتسير فى خطواتها، كما حدث فى لبنان من وجوب تقديم طلب إلى جهة معينة لفحصه أولاً وتقدير القبول أو الرفض وهو إجراء تنظيمى إن استهدف مصلحة فلا بأس به. ومع ذلك لو تمت الخطبة بدونها فهى صحيحة ولها آثارها شرعاً.

٢ - من الذى يقوم بالخطبة؟

فى عرض الصور السابقة للخطبة رأينا أن الخاطب قد يكون هو الزوج نفسه، وقد يكون ولى أمره، وقد تخطب البنت بنفسها.

والإسلام يجيز أن يكون الرجل نفسه هو الذى يتقدم بالخطبة، وهذا أصل لا يحتاج إلى دليل، وقد خطب النبى بنفسه كما سيأتى فى بحث تعدد الزوجات، وخطب عمر أم كلثوم بنت على، وهى مذكورة بالتفصيل فى بحث «الحجاب» وذكرها ابن الجوزى فى سيرة عمر ص ١٦٥.

ويجوز أن تكون هناك وساطة للخطبة، وهذا الذى يتوسط قد يكون رجلاً وقد يكون امرأة، والنساء بذلك أليق، وقد سبق التحذير من الخطابات، ومن ذوى الأغراض، ويحضرنى فى هذا ما أورده الأصبهاني فى كتابه محاضرات الأدباء «ج ٢ ص ١٢٢» من أن المغيرة بن شعبة قال: ما خدعنى أحد ما خدعنى غلام من بنى الحرث، فإنى ذكرت له امرأة أريد أن أتزوج بها فقال: لا تفعل، فإنى رأيت رجلاً يقبلها، ثم ذهب الغلام فتزوجها، فقلت له فى ذلك، فقال: رأيت أباه يقبلها.

وفى توسط الرجال فى الخطبة حدثت عدة حوادث منها:

أن النبى ﷺ عهد إلى النجاشى وعمرو بن أمية الضمرى بخطبة أم حبيبة له، وهى مذكورة بالتفصيل فى بحث تعدد الزوجات، وكذلك توسط حاطب بن أبى بلتعة فى خطبة أم سلمة للنبى، أو قيام أبى بكر وعمر بهذه المهمة على ما هو مفصل فى ترجمتها ضمن أزواج النبى ﷺ.

وخطبة النبي زوجة لجليبيب تقدمت، وإرساله زيداً ليخطب زينب بنت جحش للنبي بعد أن طلقها، كما ذكر القرآن الكريم في سورة الأحزاب، ذكر ذلك مسلم في صحيحه عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: «اذكرها علي» قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي. فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن.

وتوسيط الرجال في الخطبة لا يلزم أن يترتب عليه نظر للأجنبية، فقد تتم الخطبة بدونه، وإذا كان في بعضها نظر فلعله وقع قبل التحريم، وهاتان الخطبتان في شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٣.

وفي توسيط النساء في الخطبة خبر نفيسة بنت منية في خطبة خديجة للنبي، وخبر خولة بنت حكيم في خطبة سودة بنت زمعة وعائشة للنبي أيضاً، وهو مذكور في بحث تعدد الزوجات، وسبق إرسال النبي أم سليم لخطبة امرأة، وإرسال عائشة لخطبة امرأة مذكور في الروض الأنف للسهيلى ج ٢ ص ٢١٩.

(نفيسة بضم النون ومنية بضم الميم).

٣ - إشهار الخطبة وإعلانها:

لا بأس من إشهار الخطبة وإعلانها بأية وسيلة من الوسائل المشروعة، والناس مختلفون فيها، والفيصل فيما تشهر به أن يكون مما لم يمنعه الإسلام، وذلك كنشر الخبر في الصحف، وإقامة زينات على بيت الخطيبة، أو عمل وليمة يدعى لها الأصدقاء، ويطعم منها الفقراء، مع الحفاظ على عدم السفور والاختلاط وتناول المحرمات في مثل هذه الاجتماعات.

وكان من عادة العرب قديماً عند الخطبة دعوة جماعة من الأقارب والأصدقاء، وعمل طعام كانوا يسمونه «الملاك» بكسر الميم أو «الإملاك» وقد تسمى الخطبة بهذا الاسم، أما الطعام فيسمونه «الشندخ» بضم الشين والبدال أو فتحها كما ذكره الألوسى في كتابه «بلوغ الأرب» ج ١ ص ٣٨٦.

وكان من عاداتهم أيضاً إلقاء خطبة يعلن فيها الرغبة فى الزواج، ويرد عليها بخطبة تدل على الموافقة، وقد استحبه العلماء كمظهر من مظاهر إشهار الخطبة وإعلانها، وقد تكون معها خطبة أخرى تسمى خطبة الحاجة، وهى فى بدء الحديث عن طلب يد البنت من ولى أمرها.

روى عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً «إذا أراد أن يخطب لحاجة من النكاح وغيره فليقل: الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله» ثم قرأ هذه الآيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] رواه الطيالسى والأربعة والحاكم والبيهقى. وهناك روايات بها زيادات.

ومن خطب العرب عند الخطبة خطبة أبى طالب عند خطبة خديجة لمحمد وهى:

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء معد «الضئضىء هو الأصل والمعدن، وفيه أوزان فى اللغة» وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمة، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً. وجعلنا الحكام على الناس ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به، «وفى الرواية: شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً». فإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، ومحمد ممن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها ما آجله وعاجله من مالى كذا «فى رواية قال: وقد خطب إليكم راغباً كريمكم،

وقد بذل لها من الصداق ما حكم عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ذهباً ونشاً، أى نصف أوقية» وهو بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم، فتزوجها.

وفى المنتقى: فلما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل فقال: الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبتنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا على يا معاشر قريش بأننى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار ثم سكت. فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها أشهدوا على يا معاشر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وشهد على ذلك صناديد قريش.

والذى زوجها هو عمها على الصحيح، واسمه عمرو بن أسد، فإن أباه خويلداً مات قبل حرب الفجار.

هذا وقد تكفى خطبة الخطبة عن خطبة العقد، فقد يكون المجلس واحداً، وستأتى خطبة النبى ﷺ فى تزويج فاطمة من على.

واعتماد الناس فى عصرنا أن يقرءوا الفاتحة بدل الخطبة، وهى كوثيقة ارتباط أو رغبة فيه لا تعطى، كما قلنا، التزاماً قانونياً ولا شرعياً بالزواج، بل هى وعد فقط، إلا أنه وعد مؤكد فى عرف الناس اليوم، وذلك يختلف طبعاً باختلاف الناس فى أقاليمهم ومدنهم وقراهم.

ولو أن الكلام بين الطرفين اشتمل على إيجاب وقبول مع حضور الشهود ومعرفة لرغبة الفتاة فليس ببعيد أن يعتبر ذلك عقداً ملزماً، والعرف له حكمه فى هذه الحالة.

هذا، وما روى عن النبى ﷺ من قوله: «أظهروا النكاح وأخفوا الخطبة» فهو ضعيف وإن كان السيوطى صححه فى الجامع الصغير، وقد أخرجه فى الفردوس عن أم سلمة.

* * *

الفصل الثالث

آثار الخطبة وأحكامها

للخطبة آثار تترتب عليها أو تلزمها، ومن أهمها:

١ - حل نظر الخاطب إلى خطيبته على الوجه المبين في بحث «الحجاب» وهذا الحكم ثابت عند الرغبة في الخطبة ليتعرف عليها. وبعد إتمام الخطبة ما زالت أجنبية لا يحل نظره إلا ما أباحه الشرع لكل أجنبية وهو الوجه والكفان على تفصيل في ذلك مذکور في محله. ويحرم أن يختلى بها أو يلمسها أو يقبلها، على ما أشرنا إليه من قبل.

٢ - عند إتمام الخطبة لا يجوز لغيره أن يخطب هذه الفتاة، كما تقدم القول في ذلك.

٣ - الخطبة، كما قلنا، وعد وليست ملزمة، وعلى هذا يجوز لكل من الطرفين العدول عنها، ومع ذلك يكره فسخها بدون مبرر، لأن وقعه أليم على النفس، والإسلام لا ضرر فيه ولا ضرار، فإن وجد مبرر كمعرفة عدم صلاحيتها أو صلاحيتها بدنياً أو خلقياً جاز الفسخ، بل قد يتحتم، إلقاء للضرر وابتغاء للخير، قياساً على طلب الحنث في اليمين إذا رأى خيراً منها، وهو هنا أولى، فإن اليمين ارتباط بحلف، وهذا بغيره.

أما الفسخ لغرض دنيوي، كوجود خاطب أغنى، أو مصادفة عروس أحسن فهو جريمة، لها عقابها عند الله، فإن تسبب الفسخ في ضرر لأحدهما فله عقوبة دنيوية، كما سيأتي ذكره.

٤ - وهنا يجيء سؤال: ما حكم الأشياء التي قدمها الخطيب لها قبل الفسخ أو العدول، هل يستردها أو لا؟ وسألخص أقوال العلماء في الإجابة على هذا السؤال، مأخوذة من كتاب «الأحوال الشخصية» للمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة، وكتاب «الزواج في الشرع الإسلامي والقوانين اللبنانية» للأستاذ أنور

الخطيب، وما نشره المرحوم الشيخ مصطفى خفاجي بمجلة البريد الإسلامي، عدد ربيع الأول سنة ١٣٨٨هـ،^(١) وذلك على الوجه التالي:

المدفوع للمرأة قبل العدول عن الخطبة إما أن يكون مهراً، وإما أن يكون هدايا، والشبكة المتعارف عليها أحقها بعضهم بالهدايا، وجعلتها لجنة تعديل القوانين الشخصية بمصر سنة ١٩٦٢ جزءاً من المهر تسرى عليه أحكامه.

(أ) فالمهر وما في حكمه يأخذه كله إن كان قد دفعه كله، أو يأخذ ما دفعه منه، وذلك إن كان قائماً، فإن هلك استرد مثله إن كان مثلياً، أو قيمته إن كان مما يقوم، ويستوى في هذا الحكم أن يكون الفسخ من جهته أو من جهتها، لغرض مشروع أو غير مشروع.

(ب) أما الهدايا، فإما أن تكون مما يبقى كالحلى، وإما أن تكون مما يستهلك كالطعام، فإن كانت مما يبقى ففيه خلاف للفقهاء:

فأبو حنيفة يجيز ردها ولو تغيرت بالاستعمال، فإن هلكت عندها أو تصرفت فيها فلا رد، وكذلك إن تغيرت صفاتها ومعالمها، لأنها هبة يصح الرجوع فيها ما دامت في يد الموهوب له ولم تتبدل، فلو أهداها خاتماً مثلاً كان له الرجوع عند الفسخ إن كان عندها، فإن ضاع أو باعته فلا رجوع بالمثل ولا بالقيمة، وإن كان قماشاً فخاطته ثوباً فلا رجوع، ويستوى في هذا العدول عن الخطبة أن يكون منه أو منها.

وقال مالك: إن كان العدول من الخاطب فليس له أن يسترد شيئاً من الهدايا، ولا يرجع بشيء مما أنفق عليها، وإن كان من جهتها فله الرجوع عليها بما أنفقه، وأن يسترد ما أهداه إليها إن كان قائماً، أو بقيمته أو مثله إن كان هالكاً، لأن الذي أعطاه لها كان لغرض ولم يتم لمانع منها، وهو الذي استظهره الشمس اللقاني، وجاء في بعض النقول في مذهب مالك: أنه لا يسترد شيئاً حتى لو كان الرجوع من جهتها.

(١) نشرت في ذلك فتوى في أهرام ٢٧/١١/١٩٥٥ وفي المساء ٢٦/١١/١٩٥٧ وغيرهما.

ومذهب الإمام الشافعي استرداد الهدايا أيا كان المهدى، فإن كانت قائمة بذاتها ردت وإن لم يمكن ردها بذاتها ردت قيمتها، وكذلك الهالكة.

وجاء في مشروع قانون الأحوال الشخصية الذى وضعتة اللجنة الفنية بمجلس الوزراء المصرى سنة ١٩٥٦ أن للمهدى أن يرجع بما قدمه من هدايا عينا أو قيمتها نقداً عند الشراء إذا هلكت أو استهلكت وذلك إذا كان العدول من الطرف الآخر، وليس له أن يسترد شيئاً إذا كان العدول منه.

(ج) وإن كانت الهدايا مما يستهلك كالطعام، فإنه لا يرد بدله أو قيمته، لأن الهدية هبة، وهلاكها من موانع الرجوع فيها، كما رآه أبو حنيفة، وعليه العمل فى المحاكم المصرية وهذا كله إذا لم يكن هناك شرط عند تقديم الهدايا، أو عرف يقضى بغير ذلك، فيتبع.

٥ - ثم يجىء سؤال آخر وهو: ما الحكم إذا تسبب الفسخ فى ضرر أحدهما، كأن يقوم هو، أو تقوم هى بعمل جهاز أو استقالة من عمل، أو استئجار مسكن، أو استدانة لبناء بيت للزوجية، ثم يكون العدول سبباً فى ضياع ذلك الذى أعد، أو تراكم الدين، أو ترك العمل؟

قال العلماء: ليس فى كتب الفقه تعرض لمثل هذه المسألة، والمفهوم أن الخطبة وعد بالزواج، ولا توجب أكثر من ذلك من الالتزامات وإن أوجبه خلقاً ودينياً. وعلى هذا فليس من المعقول إلزامهما بالعقد، وما دام العدول حقاً لكل منهما فلا مؤاخذة فيه، وما أصاب الطرف الآخر من جراء ذلك إنما نشأ من تقصيره فى حق نفسه، وعدم استيثاقه من صاحبه وأخذ الضمانات الكافية قبل أن يحمل نفسه ما حملها، وهو يعلم أن الطرف الآخر له حق العدول، فإذا لم يستوثق فعليه حتماً نتيجة تقصيره دون أن يشركه فيها أحد.

وفى هذا الموضوع جاءت بعض أحكام القضاء، وبعضها حكم بتعويض على الذى عدل عن الخطبة، باعتبار أنه عوض عن ضرر أصاب الآخر، والأضرار تجبر بالتعويض. وقد يكون لهذا رأى الأخير وجهته لو أن الضرر الذى حدث للآخر كان بسبب من عدل. كأن طلب الخاطب من المخطوبة نوعاً خاصاً من

الجهاز، أو حملها على ترك وظيفتها فتركها بناء على ذلك، ثم عدل عن الخطبة، أو طلبت هي منه إعداد المنزل ثم عدلت هي، فإن ذلك ونحوه يدخل تحت التغيرير وهو يوجب الضمان .

خاتمة:

هناك عادات كثيرة، قديمة وحديثة، في التعبير عن ارتباط الطرفين بالزواج قبل العقد أو قبل الزفاف، ومن هذه العادات لبس الخاتم أو ما يطلق عليه «الدبلة»، كما أن لبسه له أصبع معينة، وله وضع قبل الزفاف وبعد الزفاف .

ولخاتم الخطوبة أو الزواج قصة ترجع إلى آلاف السنين، فقد قيل أن أول من ابتدعه الفراعنة، فقد اعتادوا صنع دائرة أو حلقة صغيرة يلبسها كل من العروسين في أصبعه كرمز أبدى للحياة والحب والسعادة^(١)، ثم ظهر ذلك عند الأغريق كما أثبتته دراسة هندية^(٢) .

وقيل: إن أصله مأخوذ من عادة قديمة، هي أنه عند خطبة الفتى للفتاة توضع يدها في يده ويضمهما قيد حديدى عند خروجها من بيت أبيها، ثم يركب هو جواده، وهي سائرة خلفه ماشية مع هذا الرباط حتى يصل إلى بيت الزوجية، وكثيراً ما تكون المسافة بين البيتين بضعة أميال .

ثم أصبحت عادة الخاتم تقليداً مرعياً في العالم كله، بصرف النظر عن الجنسيات والأديان، وصار مصدر ثروة تجارية كبيرة، ففي أمريكا وحدها لا يقل مجموع ثمن دبل الزواج سنوياً عن عشرة ملايين من الدولارات .

وتفنن الناس في شكل الدبلة ونقشها، والمعروف أن نقش ما يعبر عن العواطف أمر قديم قدم دبل الزواج، فقد نقش خاتم في القرن الخامس عشر بعبارة: لا تقطعوا ما أمر الله به أن يوصل . وكانت سيدة إنجليزية قد تزوجت أربع مرات، تلبس دبلة نقشها: لو أحياني الله لظفرت بالخامس .

(١) أهرام ١٠/٢١، ١٩٦٢، ٤/٢٨، ١٩٦٣، ٥/٩، ١٩٧٠ .

(٢) أهرام ١٢/٢٥، ١٩٧٥ .

ولم تكن الدبل تلبس دائماً في الإصبع البنصر ولا في اليد اليسرى، فقد لبست في غيرهما، وإنما ترجع عادة لبسها في بنصر اليسرى إلى أن الإغريق كانوا يعتقدون أن عرق القلب يمر في هذه الإصبع، وأكثر الشعوب تمسكاً بوضعها في اليد اليسرى هم الإنجليز، وذلك بعد أن أشار كتاب «الصلاة» الانجليزي الصادر في عام ١٥٤٩م إلى أنه على العروسين أن يضعوا خاتم الزواج في اليد اليسرى^(١).

ويقولون: إن الإغريق كانوا على شبه حق فيما قرروه من مرور عرق القلب ببنصر اليد اليسرى، ففي مؤتمر طبي عقد أخيراً في روما أكد أحد الأطباء الإيطاليين، واسمه «برانزاني» أنه عند مستوى العظيمة الأولى من البنصر اليسرى توجد أعصاب رفيعة تتحكم في وظيفة عضلة القلب، ولكن هذا الرأي يختلف عن رأي الإغريق، فهم يقولون بضرورة لبس الخاتم في بنصر اليسرى، لكن الطبيب الإيطالي يطالب بأنه من باب الاحتياط لا ينبغي لبس دبلة الزواج في بنصر اليسرى، لأن احتكاك الحلقة بالإصبع يؤدي، مع مرور الوقت، إلى إحداث اضطراب في القلب، فتصبح دقاته غير منتظمة أو سريعة، أو يشعر الشخص بضيق في التنفس.

وأكد الطبيب أنه عند مستوى البنصر اليسرى تمر أعصاب متصلة بالأعضاء، واحتكاك الدبلة قد يتسبب في حدوث ارتباكات في الأمعاء، كالتهابات مزمنة، أو صعوبة في عملية الهضم.

ويطلب الدكتور «برانزاني» من المتزوجين أن يضعوا الدبلة في البنصر اليمنى تجنباً لأية اضطرابات. وبخاصة إذا كان القلب حساساً والأمعاء رقيقة.

وقيل: إن خاتم الخطوبة تقليد نصراني، فقد كان العريس يضع الخاتم على رأس إبهام العروس اليسرى ويقول: باسم الأب، ثم ينقله واضعاً له على رأس السبابة، ويقول: باسم الابن، ثم يضعه على رأس الوسطى ويقول: وباسم روح القدس. وعندما يقول: آمين يضعه أخيراً في البنصر حيث يستقر. اهـ من جواب

(١) أهرام ٥/٩/١٩٧٠.

«إنجيلا تلبوت» على سؤال وجه إلى مجلة المرأة التي تصدر في لندن في عدد ١٩ آذار سنة ١٩٦٠ ص ١٨ من كتاب «آداب الزفاف لناصر الدين الألباني» .

هذه معلومات قصدت بها بيان أفكار الناس وعقائدهم وعاداتهم، ولم أقصد تأييدها أو الدعوة إليها، فما أغنانا عنها!!

ولكن الذى أريد توجيه الأنظار إليه أن المسلمين أخذوا عادة وضع الخاتم عند الخطوبة من غيرهم، وحرصوا على أن يلبسه الطرفان، ويتوهم أحدهم أن الطرف الآخر إذا خلعه، أو غير وضعه، كان ذلك إما أمانة على الكراهية، أو على العزم على فسخ الخطوبة، وهذا كله لا يقره الدين، ولا ينبغى أن تبني حقائق على أوهام.

ومن المؤسف أن المسلمين لبسوا هذه الخواتم من الذهب، بل من أغلى أنواع الجواهر، وتورط فى لبس الذهب بعض من كان يجب أن يكون قدوة فى معرفة حكمه الشرعى ونهى الناس عنه .

ولبيان الحكم الشرعى فى لبس الذهب أقول :

إن لبس الذهب للرجال حرام، إلا فى ضرورات، ولبسه بمناسبة الزواج ليس من هذه الضرورات، قال النووي فى شرحه لصحيح مسلم «ج ١٤ ص ٣٢» .

خاتم الذهب حرام على الرجال بالإجماع، وكذا لو كان بعضه ذهباً وبعضه فضة، حتى قال أصحابنا: لو كان سن الخاتم ذهباً أو كان مموهاً بذهب يسير فهو حرام، وذكر فى ص ٦٥ أنه حكى عن ابن حزم إباحته، وعن بعض أنه مكروه لا حرام. ثم قال: والنقلان باطلان، وقائلهما محجوج بهذه الأحاديث التى ذكرها مسلم، مع إجماع من قبله على تحريمه، مع قوله صلى الله عليه وسلم: «إن هذين حرام على ذكور أمتي» .

ومن أدلة التحريم ما رواه مسلم من حديث البراء بن عازب: «نهانا عن خواتيم أو عن تختم بالذهب» وفى رواية «نهانا عن خاتم الذهب، أو حلقة الذهب» «مسلم ج ١٤ ص ٣٣» . وما روه مسلم «ص ٦٥» عن ابن عباس أن

رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب فى يد رجل فنزعه فطرحه، وقال « يعمد أحدكم إلى جمرة نار فيجعلها فى يده » فقبل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ : خذ خاتمك انتفع به، قال : لا والله لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله ﷺ .

ومن الأحاديث أيضاً ما رواه أبو داود بإسناد حسن عن على أنه قال : رأيت رسول الله ﷺ أخذ حريراً فجعله فى يمينه، وذهباً فجعله فى شماله، ثم قال : « إن هذين حرام على ذكور أمتى » .

وأما المرأة فإن الذهب حلال لها، لحديث الترمذى الذى قال : إنه حسن، عن أبى موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : « حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتى، وأحل لإناثهم » .

من الغريب أن صاحب كتاب « آداب الزفاف » يحرم الذهب على النساء ويورد فى ذلك عدة أحاديث، وهى مناقشة لم تسلم من الطعن، بل إنه يحرم خاتم الحديد أيضاً على الرجل، ولا يسلم بقول النبى « التمس ولو خاتماً من حديد » فى حله . فإنه لا يلزم من التماسه جواز لبسه . وهو يمنع ما قاله ابن حجر من الإجماع على حل الذهب للنساء .

هذا، وقد ذكر السفارينى فى كتابه « غذاء الألباب ج ٢ ص ١٧٤ » أن المتأخرين اعتمدوا جواز كون الخاتم من فضة وفصه من ذهب .

لكن أحاديث التحريم صريحة فى المنع، وجاء فى المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر « ج ٢ ص ٢٨٠ » عن إبراهيم التيمى قال : كانوا يرخصون للغلام أن يلبس خاتم الذهب، فإذا بلغ ألقاه . ورجاله ثقات .

* * *

الباب الرابع

عقد الزواج

عقد الزواج هو الخطوة الهامة التي تثبت للزوج حقوقاً فعلية على الزوجة، وكذلك للزوجة على الزوج، وإن لم تكن هذه الحقوق كاملة، فإنها لا تكمل إلا بالخطوة الأخيرة وهي الدخول والزفاف، ولاشتراك هاتين الخطوتين في إثبات الحقوق بين الزوجين كانتا خطوة واحدة عند بعض الأمم، أو لم يكن بينهما فارق كبير في ثبوت هذه الالتزامات.

ولما كانت الصورة التي تمكن الرجل من الاستمتاع بالمرأة، وتثبت لها حقوقاً عليه، تختلف باختلاف البيئات والأزمان، ولما كانت الصور غير الإسلامية كثيرة، وتحتاج إلى عرض مفصل نوعاً ليمكن بمقابلتها بصورة الإسلام وهي العقد معرفة سمو التشريع الإسلامي، سأجعل الحديث في هذا الباب قسمين، القسم الأول لعرض الصور غير الإسلامية، والقسم الثاني لبحث العقد في الإسلام، وسيكون تحت كل قسم فصول طويلة لطول البحث في موضوعها.

* * *

القسم الأول

صور الزواج فى غير الإسلام

فى هذا القسم سيكون الحديث فى ثلاثة فصول، الفصل الأول فى صور بدائية ووضعية، والفصل الثانى فى صور دينية فى اليهودية والنصرانية، والفصل الثالث فى صور عند عرب الجاهلية.

الفصل الأول

فى الصور البدائية والوضعية

يذكر الباحثون أن القبائل المتوحشة لا تعرف عقوداً أو اتفاقات كالتى تواضع عليها المتمدنون لاستمتاع الرجل بالمرأة، فإنهم يعيشون كما تعيش الحيوانات التى تكون فى مجموعات وقطعان كالقروود والفيلة، يحصل الذكر على الأنثى بطريق التقاتل والغلب.

وقد ذكر هربرت سبنسر فى كلامه عن زواج المتوحشين، أن الرجل منهم إذا أحبته امرأة وأراد أن يستأثر بها قاتل زوجها، فإن تغلب عليه أخذ منه امرأته، وهى تنقاد له خاضعة لا تجد من يحميها منه، ويشيع ذلك فى قبائل «الشيبويان» بأفريقيا، وهذه الوسيلة وهى القتال شائعة فى قبائل استراليا، فإنه إذا حدث قتال بين قبيلتين وانتصرت إحدهما على الأخرى ذهب نساء المغلوبين إلى الغالبين عن طيب نفس، وبدون أية مقاومة، كأنهن يجدن الأمان فى كنفهم. وليس للزواج لفظ فى قبائل كاليفورنيا وأمريكا الشمالية ولا احتفال به، لأنهم يتخالطون كالبهائم والطيور.

وفى كثير من بلاد المتوحشين يتم الزواج بالاختطاف، فمتى تمكن رجل من اختطاف امرأة أصبحت زوجته، رضيت أم كرهت، فإن اتفق أن اختطفها من زوجها رجل آخر صارت زوجة له رغم أنفه.

والخطف - كما يقول الرحالة محمد ثابت - موجود عند بعض الأوروبيين خصوصاً في الجنوب والشرق، وعند بعض العرب والتركستان وأجزاء من أفريقية، وكذلك في أمريكا الجنوبية وفي استراليا، غير أنه من الملاحظ أن بعض صور الخطف التي تحدث عنها كان فيها اتفاق على الزواج، والخطف بمثابة زفاف، أو كان الخطف وسيلة اختبار ثم تم العقد بعد ذلك، أما الصور البدائية السابقة فالخطف فيها هو صيغة الارتباط أو الأسلوب الوحيد للمتعة بين الطرفين.

يقول محمد ثابت في كتابه «بنات حواء»: في تركستان يقام حفل عند شعوب «القرغيز» من الرعاة، والعروسان غائبان عن الحفل، ولا يعرفان عنه شيئاً، وتظل العروس شهوراً بعد ذلك مع أبويها تجهز الخيمة وأثاثها من صنع يديها، متوقعة أن يخطفها زوجها عنوة أو خلسة. فتصبح زوجته، وفي رومانيا والمجر يمتطى العريس جواداً رافعاً علم الزواج، سائراً بين أصدقائه، وفي حفلة الرقص ينقض العريس على الخطيبة ويحملها على فرسه إلى بيته.

وستأتى صور من ذلك عند الحديث عن الزفاف والدخول.

ومن صور الخطف الموجودة في البلاد الإسلامية، وهو خطف بديل من الاختيار والخطبة المعروفة، يعقبه عقد صحيح، ما نشرته جريدة الأخبار المصرية «١٩٥٨/٨/٥» عن الأكراد الضاربين على حدود سوريا والعراق، ناقلة الحديث عن «سليمان هاجر أغا» من قبيلة «الهافريكان» في قرية «بتور البيض» على الحدود السورية العراقية. فيقول:

إن الفتاة عندنا من حقها أن تقول لا، إذا لم يعجبها العريس... وعادة خطف البنات للزواج عندنا مشروعة، وهي تتم بالاتفاق بين البنت وخطيبها، وحسب قوانين خاصة وضعتها شريعتنا، ولا يمكن لأحد أن يعيد عنها، أن الفتاة المخطوفة تصحب صديقاً من أسرتها تثق به، ويصحب عريسها صديقاً له أيضاً، ويلتقى الأربعة في مكان معين، ويتقدم صديق العريس ويجرى بها، ويحاول صديقها اللحاق به، ولكن صديق العريس يعطله حتى لا ينجح في مهمته،

ويلجأ العروسان إلى أسرة كبيرة يكونان قد اتفقا معها من قبل... ويقوم عميد الأسرة باستقبالهما، ويكونان في حمايته. وبعد ساعات يحضر المأذون ويتم الزواج وتنطلق الزغاريد.

ويظل العروسان في ضيافة زعيم الأسرة طوال شهر العسل، في منزل خاص بهما، ويعمل العريس عنده في الحقل، والمقصود بهذه الفترة إعطاء فرصة لأسرة العروس لتهدأ أعصابهم من حادث الخطف، تجنباً لما لا تحمد عقباه.

وبعد انتهاء الشهر يذهب الزعيم إلى والد العروس ويقابله مباشرة ويخبره بتزويج بنته من فلان. ويسأله عن الحق الذي يطلبه، وله الحق أن يطلب ما يشاء، والعريس ووالده ملزمان بدفعه، فإذا دفع المطلوب فعليه أن يشتغل بالزراعة أو الرعى ويأخذ والدها أجره حتى يتم الوفاء بكل ما تعهد به.

ويقول: الخطف مباح للفتيات فقط، ولو هربت زوجة مع حبيبها كان جزاؤها القتل حيث يجدونهما في أى مكان، والقبيلة كلها متضامنة في قتلها. مثل هذه الصورة في الخطف موجودة في درعا بسوريا حيث يسكن الحورانيون، ونشر ذلك في مجلة النهضة الصادرة بالكويت في ٣/٨/١٩٧٤ بقلم: جميل الباجورى.

فهذه الصورة ليست كالصورة التي عرضناها من قبل عند استيلاء الرجل على المرأة بدون اتفاق أو تراض. أو سابق معرفة.

ثم يقول علماء الاجتماع: في بعض القبائل المتوحشة يتم الزواج إذا أصرم الطرفان ناراً وجلسا بجانبها، وفي بعضها يتم متى قامت الزوجة ببعض الخدمات البيئية للزوج، وعند قبائل غينيا الجديدة يتم الزواج متى أعطت المرأة لزوجها قليلاً من التبغ، وعند قبائل «التفاجوس» يحصل الزواج بمجرد جلوس الرجل والمرأة في قصعة كبيرة، وأكلهما معاً من الأطعمة الموضوعة فيها.

وذكرت مجلة آخر ساعة «٥/٩/١٩٥١» أن قبيلة «فاكليجا» الهندية لا

تستطيع الفتاة فيها أن تتزوج إلا إذا أحضرت لزوجها المقبل عقلتين من أصبعين من يد أمها اليمنى، ويعد هذا بمثابة قبول الزواج.

ويتحدث محمد ثابت فى كتب رحلاته عن العجر، فيقول: إنهم وفدوا من الهند إبان فتح الاسكندر الأكبر المقدونى لها، ودخلوا مصر أولاً، ثم نزلوا الشام، ثم رحلوا إلى فرنسا وإيطاليا وإنجلترا وتفرقوا فى سائر البلاد، وهم كثير فى أوروبا، ويسمون «جيسى» ويقال: إن هذه الكلمة محرفة عن إيجيبت، لكنهم أصلاً ليسوا مصريين، بل هنود، وهم يعيشون عيشة الرحل، وفى نسائهم جمال، ويتمتعون بحرية عظيمة^(١)، ثم يقول عنهم:

إذا أراد الأب أن يختار لابنه زوجة حمل زجاجة نبيذ، وربط حولها منديلاً وأخذ يصيح قائلاً: لقد فقدت بقرتى الصغيرة، فيرد عليه والد الفتاة التى فى سن الزواج قائلاً: كم تدفع إلى إن أنا أرجعتها إليك؟ ثم يتفق على المدفوع، ويكون ذلك أسلوباً للعقد، وتقام الأفراح ثلاثة أيام.

ويقول: إن حفل الزواج فى ضواحي «بودابست» جميل للغاية، فيه رقص ومساومة على المهر، وحلف كل من الزوجين على الإخلاص للآخر، ثم يقوم الأب ويخدش جرحاً بسيطاً فى معصم الزوج الأيسر، وآخر فى معصم الزوجة الأيمن، وتضمم اليدان بعضهما إلى بعض حتى يمتزج الدم. اهـ.

يقول الدكتور مصطفى الخشاب فى كتابه «دراسات فى الاجتماع العائلى» سنة ١٩٥٧: من وسائل الزواج ما يأتى:

١ - الاستيلاء بالقوة، أى السبى، وهو موجود فى كثير من العشائر الأولى، وقد وصفه تشريع «مانو» بأنه نظام قائم مشروع، وكان سائداً عند بعض القبائل

(١) فى مجلة المعرفة: إنهم استوطنوا إيران عدة قرون حتى جاء الغزو المغولى فرحلوا إلى أرمينيا ووصلوا القوقاز سنة ١٣٠٠م ثم الدانوب، وفى سنة ١٩٥٠ جند ملك هنغاريا «المجر» كثيراً منهم فى جيشه وانتشروا فى أوروبا.

ولغتهم تتكون من ألف كلمة فيها ٢٩ من أصل إيرانى، ١٢ من أصل أرمنى، ٢٥ من أصل يونانى، وهناك دراسة عنهم باسم «جنكانة» فى دائرة المعارف الإسلامية.

كأمر عادي، وعند بعضها الآخر كحالة استثنائية، وعند آخرين كتمهيد للزواج بالتراضي.

وقد قال بعض الباحثين: إن السبى هو أقدم طرق الزواج، لأن الناس كانوا يعدون البنات للفقير، فكانوا في حاجة إلى نساء، لأن عددن قليل، فكان السبى بالقوة للحصول على امرأة، وذلك تطبيق لقانون العرض والطلب. قلت السلعة فكثير التزاحم عليها فكانت القوة هي المنطق السائد - ويقول: للسبى مظاهر وإن كانت بسيطة في حياتنا الحاضرة، من تمنع العروس ولعب التحطيب والفروسية عند الزواج، ثم يحكم الخشاب على هذا الرأي بالفساد، أى أنه أقدم طرق الزواج.

٢ - التبادل بين أفراد الأسرتين، وكان شائعاً في فيجي وبولينيزيا وبعض جزر استراليا، غير أنه لم يكن الطريق الوحيد، بل خرج عنه البعض إلى طرق أخرى، وكان التبادل وسيلة للسلام والتعاون بين الأسر.

٣ - الشراء، كأية سلعة من السلع، وليس شبيهاً بالسبى أو الرق، فإن النساء في هذا حرائر، على الرغم من قبول مبدأ البيع والشراء فيهن، وهو صورة للمهر في العصر الحديث، وهو يختلف بحسب الجاه والشراء.

- فى أوغنده لا يثبت الزواج إلا بعد دفع ثمن المرأة، وإذا أعسر الزوج يمهل خمس عشرة سنة، وبعدها يأخذونها بأولادها ليزوجوها من يدفع ثمناً أكبر^(١).

٤ - تطور مظهر الشراء إلى تأدية خدمات معينة، بدلاً من دفع المادة، كالرعى والزراعة لمدة معينة، إن أتقنها قبلت العائلة. وهذا بمثابة اختيار له، وعلى هذا الأساس تزوج موسى عليه السلام ابنة الشيخ الكبير.

٥ - ملك اليمين، حيث يحق للرجل معاشرة الإماء بدون عمل طقوس للزواج وأما المرأة فلا تعاشر رقيقها.

٦ - التعاقد عن رضا وقبول، كما يفعل فى الطلاق أيضاً. اهـ.

(١) أنظر بحث تعدد الزوجات.

هناك وثيقتان لعقد الزواج فى مصر القديمة تعتبران أقدم ما عرف فى مصر بل فى العالم كله، ترجع أولاهما إلى العهد الإقطاعى الثانى سنة ٨٩٥ ق. م وهو آخر عهود الفراعنة، وأما الثانية فترجع إلى سنة ٢٣١ ق. م.

ونص الوثيقة الأولى :

فى الشهر الثانى من موسم الفيضان فى عهد فرعون نكتانيوس إله الحياة والمجد والسعادة أنا «أوزيران» من إدفو والمنتمى لمعبد نكتانيوس أقول للسيدة «فوشين» التى أبوها «امنحوتس» وأمها «تومانيس» إني قد أصطفيتك زوجة وأعطيتك خمسة أعشار وزنة من الفضة، وأكرر لك أن هذا كصداق، وإذا خطر لى أن أهجرک واخترت زوجة أخرى فعلى حينئذ أن أدفع لك خمسة أعشار وزنة من الفضة مرة أخرى، وأكرر لك أن ذلك لا علاقة له بالخمسة الأعشار الأولى، وأنى أنزل لك عن ثلث ما أملكه وما أكسبه الآن من متاع وعقار والأطفال الذين تلدينهم يؤول إليهم كل ما أملك، أما قائمة الجهاز فقد نصت على أن جميع المقتنيات المدونة بها ملك للزوجة ما دامت تحت سقف بيت الزوجية، أما إذا هجرته هى فمن حق الزوج أن يحتفظ بالجهاز مقابل الصداق.

والوثيقة الثانية لأمنحوتب وتاحاتريقول فيها لها: لقد اتخذتك زوجة، وللأطفال الذين تلدينهم لى كل ما أملك وما سأحصل عليه، الأطفال الذين تلدينهم يكونون أطفالى، ولن يكون فى مقدورى أن أسلب منهم أى شىء مطلقاً لأعطيه إلى آخر من أبنائى أو إلى أى شخص فى الدنيا، سأعطيك من النبيذ والفضة والزيت ما يكفى لطعامك وشرابك كل عام، ستأخذين طعامك وشرابك الذى سأجريه عليك شهرياً وسنوياً وسأعطيه لك أينما أردت. وإذا طردتك أعطيتك خمسين قطعة من الفضة وإذا اتخذت لك ضرة أعطيتك مائة قطعة من الفضة.

ويقول أبى: تناولى عقد الزواج من يد ابنى كى يعمل بكل كلمة فيه، إني موافق على ذلك وقد شهد على هذا العقد ستة عشر شخصاً. ويؤخذ من هاتين الوثيقتين: أن الطلاق كان معروفاً وله تعويض كما كان

تعدد الزوجات معروفاً، وأن قائمة الجهاز كانت معروفة. كما كان الإشهاد على الوثائق، والمهر أيضاً معترف به والالتزام بنفقة الزوجة والأولاد.

(من مقال عز العرب فؤاد فى مجلة «المجتمع» الكويتية بتاريخ ١١/٧/١٩٧٠ عدد ٣٢١).

كما يحدثنا المختصون أن الجرمان كان الزواج يتم عندهم بطريق بيع المرأة وشرائها، وذلك كما يحصل فى أى نوع من أنواع المعاملات وهو أمارة على أن المرأة سلعة من السلع، أو حيوان خلق لخدمة الرجل.

وكان يتبع هذا الشراء مظهر من مظاهر الخشونة، وهو اختطاف المرأة بعد إتمام الصفقة، ثم تطورت هذه الصورة فصار الشراء أمراً رمزياً، ولم تعد المرأة فى نظرهم سلعة تختلف قيمتها صعوداً وهبوطاً، بل جعل المقابل رمزاً للتملك لا غير، فاكتمى بدفع القليل، وعلى هذا تزوج «كلوفيس» ملك الإفرنج «كلوتيلد» ودفع ديناراً وصلدياً واحداً، وعندهم إذا تزوجت الأرملة دفع زوجها إلى أقارب الزوج الأول تعويضاً.

وفى القانون الرومانى القديم إذا تزوجت المرأة انقطعت صلتها بأهلها واندمجت فى بيت زوجها، ويوجد عندهم نظامان للزواج، زواج بسلطة، وآخر بدون سلطة.

أما الأول فإن المرأة تقع فيه تحت سلطة الزوج أو أبيه كسلطة والدها عليها، فهى كبنت له، وترتب عليه عدم وجود مال خاص بها، فكل ما تملكه هو ملك رب الأسرة، ولا أهلية لها للكسب، وتقرير هذه السلطة يكون بأحد أمور ثلاثة:

(أ) القربان، وفيه تقام حفلة دينية يقدمان فيها قرباناً لكوكب المشتري «معبودهم» وهو قربان مصنوع من الحلوى، يقسم بينهما مع ترديد عبارات خاصة بحضرة شهود عشرة، يمثلون القبائل الرومانية، وهذا النوع خاص بالأشراف.

(ب) الشراء، وهو طريقة غير دينية وخاصة بالعوام، وهى ظل للصور القديمة.

(ج) الاستعمال، أى المساكنة بينهما لمدة سنة بلا انقطاع، ولا يلزم منها اتصال بالأجسام، بل المراد هو المساكنة فقط، وهو أشبه بوضع اليد، وقد اندثر

هذا النوع الأخير، وبقي الأول مدة طويلة فهو شرط للدخول فى الكهنوت، وإن كان الزواج بسلطة قل فى العصور الحديثة.

وأما النوع الثانى، وهو الزواج بدون سلطة، فلا تندمج فيه المرأة فى الأسرة الجديدة، بل ترتبط برياسة أهلها، ويترتب عليه احتفاظها بمالها كالأجنبية تماماً، وعدم ميراثها لزوجها، ولا ترتبط مدنياً بأولادها، ويمكن فصم الزواج بسهولة، وليست له صفة دينية، غاية الأمر أنه يعاشرها كزوجة، والأولاد شرعيون لا غير.

وهذا النوع يتم كإى عقد مدنى، لاحاجة فيه إلى الكاهن، ويكفى رضا الطرفين، وقد نظمته الكنيسة المسيحية فجعلت للمرأة تعويضاً عند فصم الخطبة، خصوصاً إن حصلت هدايا أو قبلات ولهم تقاليد شعبية فى الزفاف، فالزوج يقابل الزوجة بالماء والنار، وتحمل هى إليه وتدفع حتى تمر على عتبة داره.

وعند الغربيين طريق آخر للتمتع بالمرأة قانوناً وهو المخاللة أو اتخاذ الخليفة، وقد ظهر هذا النوع فى بدء القرن الخامس عند الرومان، وهو عبارة عن زواج يحصل بين الأشخاص المختلفة مراكزهم الاجتماعية، وهذا النوع قديم الأصل من آثار الطبقات وتقديس الفوارق الاجتماعية، وليست له آثار قانونية من التزامات وغيرها، فأمانة المرأة التى يعتد بها فى الزواج لا يهتم بها فى المخاللة، وعلاقة الأب بأولاده من خليلته ليست كعلاقته بأبنائه من زوجته، وإن كان فى العصر الحاضر تقرر إمكان الاعتراف بنسب الأولاد الذين يولدون من أبوين غير محصنين وغير متزوجين، ويسمونهم «أولاد الطبيعة» فلأب أن يتبناهم كما يتبنى أى أجنبى، كما يستطيع توريثهم كأولاد الأجانب، لكن الأم ملتزمة بهم كأثر لولادتهم منها لا للزواج، فبينها وبينهم توارث وغيره.

وقد تغير الحال فى عصر الإمبراطورية الثانية، فاعتبر التسرى أو المخاللة نوعاً من الزواج، لكنه أقل منه درجة، والفضل فى هذا ليس للمسيحية، بل لقوانين الإغريق والشرق الذى كان فيه زواج بلا تحرير عقد، وهو صورة التسرى.

ولهذا النوع صورة عصرية فى ألمانيا الغربية سنة ١٩٥١م، حيث تكون المرأة هى الراغبة فيه والمعلنة عن طلبه فى الصحف وغيرها، لاجتذاب رجل يوفر لها حاجتها الطبيعية دون عقد رسمى حتى لا ينقطع معاشها لترملها بعد الحرب.

الفصل الثانى

صور للزواج عند اليهود والنصارى

(أ) اليهودية دين سماوى جاء به سيدنا موسى ونزلت عليه التوراة التى حكم بها أمته، وكان فيها تنظيم لهذا الشعب متعدد ألنواحى، ومن ضمن ما جاء من التنظيم اليهودى الزواج، وبانضمام ما فى التوراة الحقيقية التى نزلت على موسى إلى ما وضعه اليهود من كتب وشروح « التلمود » وما تواضعوا عليه يمكن أن نعطى هذه الصورة المبسطة لنظام الزواج عندهم^(١).

١ - عقد التقديس، أى تسمية المرأة، وتقديسها عليه بقبولها. ولو بخاتم يعطيه لها، وذلك بحضور شاهدين.

٢ - وثيقة العقد، أى العقد المكتوب، الذى يذكر فيه المهر وتبين حقوق الزوجية وواجباتها وهذه الوثيقة هامة، وقد أصدر المجلس الأعلى لليهود قانوناً بها، ينص فى البند الأول فيها على صيغة العقد، ثم ينص على المهر الذى كان لا يقل عن خمسين شاقل « الشاقل يعادل جنيهاً مصرياً تقريباً » للبكر ونصفه للثيب، وينص البند الثالث على الهبة « الدوطة » التى يتلقاها الزوج مع عروسه من الآباء والأقارب أى أقارب الزوجة. وينص فى البند الرابع على نظام الوراثة فى حالة إنعدام الذرية، والبند الخامس خاص بالطلاق والسادس خاص بالعقوبات التى تفرض على الزواج عند إساءة معاملته للزوجة، ثم أضيف أخيراً نص على الحد من تعدد الزوجات « من كتاب: عادات الزواج للشنتناوى ص ٥٧ ».

٣ - العلانية، أى الإشهار للعقد، وذلك بالصلاة الدينية بحضور عشرة رجال على الأقل.

وعندهم مهر معجل وآخر مؤجل يدفعه الزوج، كما أن عندهم ملاً تدفعه الزوجة أو أقاربها ويسمى « الدوطة » أو « البائنة ».

(١) من كتاب « الزواج » لأنور الخطيب.

ويطلب من الزوجين حفظ وثيقة الزواج ما دامت الزوجية قائمة، فإذا فقدت وجب تجديدها فى الحال، وإلا كانت زوجيتها بمنزلة زواج الأخدان.

(ب) وفى هذا الكتاب أيضاً أن المسيحيين عندهم عقد للزواج، وله شروط واحتياطات تختلف باختلاف مذاهبهم، فبعضها يوجب الإعلان عن الزواج قبل إجرائه حتى إذا كان هناك مانع يتقدم الناس بالإخطار عنه، ولا يجوز عقد الزواج سراً إلا لظروف ضرورية، والمهر عندهم هو ما يقدمه الزوج، وعندهم كذلك نظام «البائنة» أى ما تقدمه المرأة أو أقاربها، وذلك كالنظام المتبع عند اليهود.

وهذا المال ملك لها، والزوج ينتفع به إذا أذنت له حال قيام الزوجية، ولها أحكام خاصة عندهم لا داعى لذكرها.

ونظام المخاللة معروف عند المسيحيين ومنتشر فى البلاد التى تدين بالمسيحية، على ما هو معروف فى الحديث السابق عنها.

وكذلك نظام الزواج بسلطة وبغير سلطة، فالمعروف أن القوانين الكنسية استمدت كثيراً من القوانين الرومانية واليونانية السابقة.

وبلاد الحبشة وهى مسيحية رسمياً فيها ثلاثة أشكال للزواج:

(أ) الزواج أمام الكنيسة المعروف لدى جميع المذاهب المسيحية، وهو عقد أمام سلطة دينية بحتة وله نتائج الشرعية المعروفة.

(ب) الزواج العرفى، وهو عقد يضى بين الزوج وولى أمر الزوجة يتعهد فيه الزوج بما يأتى:

١ - تقديم كشف بما يمتلكه من عقارات ومنقولات.

٢ - قبول تنازله بمقتضى العقد عند الطلاق عن نصف ما يملكه حالاً كما هو مبين بالكشف المذكور، مضافاً إليه ما يستجد فى أثناء الزواج من عقارات ومنقولات.

٣ - تقديم ضامن يكفل تنفيذ الاتفاق عند عجزه وهربه وفي هذه الحالة يملك الزوج حق طلاق الزوجة. وهذا النوع العرفي شائع في طبقات قليلة معينة.

(ج) زواج المعاشرة، وهو شائع في طول البلاد وعرضها وهو عبارة عن أن يستأجر الرجل امرأة بقصد معاشرتها معاشرة الأزواج مقابل أجر معين عن كل شهر، ويتجدد العقد في أول كل شهر عند دفع الأجر المعين بطريق المشاحنة، ويفسخ عند عدم الدفع، وعند إظهار أحد الفريقين رغبته في ترك الآخر «جريدة الشورى» الصادرة بدمشق في ٢ رمضان ١٣٧٧هـ (٢٣ مارس ١٩٥٨م).

وجريدة الأهرام نشرت الصورة الثالثة في ٢٦/١٢/١٩٦٠، ونشرت جريدة «القبس» الكويتية بتاريخ ٢٠/٣/١٩٧٤ برقية من «أديس أبابا» أن ألف فتاة من بائعات الهوى قمن بمسيرة تطالب فيها بزيادة أجورهن إلى عشرين دولاراً أثيوبياً عن اللقاء الواحد، مع رفع حظر التجول الذي تسبب في الحد من نشاطهن بصورة ملحوظة، وهددت بائعات الهوى بالإضراب عن العمل وممارسة الحب ما لم تجب مطالبهن.

فهل ما قامت هذه المسيرة لأجله هو النوع الرابع من المعاشرة، أو هو إجراء مدني بعيد عن الدين، يعد بغاء تنظمه الحكومة؟.

* * *

الفصل الثالث

صور للزواج عند العرب فى الجاهلية

كانت عند العرب قبل الإسلام عدة صورة لاتصال الرجل بالمرأة لكن أمثلها هو الذى كان عن طريق تقدم الزوج أو أقاربه إلى أقارب الزوجة لطلب يدها، ثم إذا تمت الخطبة كان العقد الملزم، وقد تمسك بهذه الطريقة أشرف العرب، وكان منه زواج عبد الله والذ النبى ﷺ من آمنة بنت وهب والذته، وكذلك زواج النبى ﷺ قبل البعثة من خديجة. وكل أجداد النبى ﷺ من هذه السلسلة الطاهرة التى قال فيها: « ما ولدنى من سفاح الجاهلية شىء، ما ولدنى إلا نكاح الإسلام » وروى هذا الخبر بلفظ « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمى، فأنا خيركم نسباً، وخيركم أباً » رواه البيهقى فى دلائل النبوة عن أنس. وقال الألبانى المخرج لأحاديث الجامع الصغير للسيوطى: إنه ضعيف جداً.

والمراد بالسفاح المذكور فى الحديث ما هو أعم من الزنى، فىشمل كل الصور الباطلة التى سنتحدث عنها، وقد روى البخارى وغيره حديثاً عن عائشة فيه بعض صور النكاح فى الجاهلية، ونصه:

« كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء، فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل ابنته أو وليته، فىصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر، كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسها حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد، فكان يسمى نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة، فىدخلون على المرأة، كلهم يصيبونها فإذا حملت ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا

عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذى كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تلحقه بمن أحبت، فلا يستطيع أن يمتنع. ونكاح آخر رابع، يجتمع كثير من الناس فيدخلون على المرأة فلا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن الرايات، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحدهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لها القافة، فألحقوا ولدها بالذى يرون، والتاط به، ودعى ابنه لا يمتنع منه، فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم^(١).

هذا وللنكاح فى الجاهلية صور أخرى وردت فى القرآن والأحاديث وكتب التاريخ سنتحدث عنها كلها بشيء من التفصيل فيما يلى:

١ - السفاح:

كانت المرأة تخالط الرجل بالمعاشرة الجنسية مدة من الزمن كتجربة فإن أعجب كل منهما بالآخر تم الزواج بعد ذلك، وإلا فسخت الخطبة، ولعله هو نكاح التجربة الذى ذكره بعض الكتاب ضمن أنكحة الجاهلية وكان كثير من القبائل يحظر اتصال الخطيبين اتصالاً جنسياً. ويكتفى بالمظاهر الأخرى على ما يفعله بعض المتفرنجين اليوم فى البلاد الإسلامية ولهذا اللون صورة عند قبائل أفريقيا والبلاد المتخلفة كما مر ذكره.

٢ - الاستبضاع أو المباشعة:

وهو ما ذكرته السيدة عائشة فى حديثها المتقدم، وكان الغرض منه نجابة الولد، على نحو ما يفعل بالخيول واختيار ذكور أصيلة لها أو بالحيوانات الأخرى لتحسين النسل، وهذا النوع كان عند اليونان القدامى، فقد ذكروا أن سقراط أعطى زوجته جزانتيب إلى صديقه اليسياب لتنجب ولداً جميلاً، فقد كان سقراط دميماً جاحظ العينين كبير الأنف واسع الفم، وقد أجاز مشروع أسبرطة

(١) صحيح البخارى طبعة الشعب ج٧ ص ٢٠ - باب من قال لا نكاح إلا بولي، وإغاثة اللهفان ص ١٥١ لابن القيم.

المشهور «ليكورغ» هذا النظام، وحث الشيوخ من الأزواج على أن يبحثوا لزوجاتهم عن شبان فيهم جمال وخلق لتستمتع بهم نساءؤهم، وعد هذا من أعمال الفضيلة والإيثار والوطنية، وبهذا يعرف أنه كان نظاماً قانونياً في اليونان في المدينتين الكبيرتين، «اسبرطة» كما شرعه ليكورغ، «وأثينا» كما أجازته سقراط ونفذه بنفسه^(١).

وهذا النوع ظاهر في كونه زنى، تأنف منه الحرائر، وربما كان دليله قول هند عند المبايعة: أو تزنى الحرة؟ عندما جاء قوله: «ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن» والولد من نكاح الاستبضاع ينسب للزوج لا للرجل الذى استبضعت منه المرأة فالولد عندهم هو للفراش، عند التنازع فإذا كان يعلم صاحب الفراش ورضاه فهو له.

٣ - نكاح ما دون العشرة لامرأة واحدة:

وهو ما ذكرته السيدة عائشة في حديثها المتقدم، وهذا النوع صورة من صور تعدد الأزواج لزوجة واحدة، على ما هو مفصل في بحث «تعدد الزوجات». ويقول الدكتور على وافى: يظهر من نص حديث عائشة. وهو: أن يجتمع الرهط ما دون العشرة، أن عدد الرجال الذين كان يباح لهم الزواج بامرأة واحدة وفق هذا النظام ما كان يصح أن يزيد على تسعة، فإن زادوا اعتبرت المرأة بغياً، وطبق عليها نظام البغايا، الذى ذكرته السيدة عائشة في حديثها أيضاً، على أن معاشرتهم للزوجة لم تكن دائمة، ولم تكن لها سمة الحياة العائلية.

٤ - نكاح البغايا أو البغاء:

وهو في حديث عائشة أيضاً، وكان منتشراً في الجاهلية وتترتب عليه آثاره من ثبوت النسب إذا ألحقت البغى المولود ببعض من اتصل بها عن طريق القيافة. ومعنى «التاط به» الواردة في الحديث: لصق به ولحقه. جاء في القاموس: التاطه،

(١) الأسرة والمجتمع لعلى وافى ص ٦٢-٦٤ وقصة الفلسفة اليونانية للدكتور غلاب ص ١٥٦ وكتاب «مقارنات» لعلى منصور ص ١٤٥.

ادعاه ولدًا وليس له، كاستلاطه والتايط بقلبي لصق به، وكلا المعنيين محتمل في الحديث .

غير أن التي كانت تقوم بهذه الحرفة الدنيئة هي الأمة، فهو مقصور على الإماماء . والعرب يمجتتون هذا النوع من الاتصال، وما كانوا يبيحونه لعربية أن تحترفه، ومن أمثالهم الشهيرة: تموت الحرة ولا تأكل بثدييها . وكانت البغايا يتوارين عن العيون بمنجاة من المدائن والقرى ومضارب خيام البادية، وينصبن على بيوتهن رايات تكون آية على مهانتهم ولا يذهب إليهن إلا السفلة، الذين كانوا يترددون عليهن في الظلام يجرون أطراف مآزرهم وراءهم لتطمس آثار أرجلهم على الرمال، ولذلك أطلق على البغايا اسم «المظلمات» كما يطلق عليهن اسم «المهينات» . وكان من جوامع كلمهم في المدح: فلان لا يرخي لمظلمة إزاره . وفي ذلك تقول العوراء بنت سبيع في رثاء:

طيان طاوى الكشح لا يرخي لمظلمة إزاره

والطيان صفة مشبهة، مأخوذة من الطوى وهو الجوع، والعرب ترى من السيادة ألا يشبع الرجل، ومنه أيضاً: طاوى الكشح، أى ضامر ليس بضخم الجنين «دكتور على وافى» .

وظل هذا البغاء موجوداً حتى بعد ظهور الإسلام، فكان لعبد الله بن أبى بن سلول ست جوار مخصصات للبغاء، وضرب عليهن الضرائب فشكا ثنتان منهن هما «مسيكة وأميمة» إلى النبي ﷺ فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتِغُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]، رواه مسلم عن جابر . وإكراه النساء على البغاء محرم مطلقاً، سواء أردن التحصن أم لا، والنص عليه في الآية لبيان الواقع وتسجيل الحادثة التي نزلت فيها الآية، والآية نزلت في حالة علمها النبي ﷺ، وكان منهن في الجاهلية أكثر من عشر كما يقول الألوسى في كتابه «بلوغ

الأرب» ج ٢ ص ٥». وكان البغاء موجوداً عند غير العرب فى العصور القديمة (١) وصورته عندهم أخف من تلك الصور لأنه عند العرب يثبت به نسب المولود ويستلحقه رجل ابناً له يربيه ويحفظ حقوقه.

٥ - نكاح الشغار:

وهو أن يزوج الرجل ابنته أو موليته لرجل على أن يزوجه هو بنته وليس بينهما صداق. وسمى بذلك لخلوه من المهر وعدم معاوضة البضع، مأخوذ لغة من شغف البلد أى خلا من الناس. وليس فى هذا النوع عيب إلا خلوه من الصداق، فهو لا يمس الشرف والعرض، وقد أبطله النبى ﷺ بقوله: «لا شغار فى الإسلام» رواه مسلم عن ابن عمر، والعلة فى تحريمه كما قال العلماء أن البضع جعل مقابل البضع، فلم تستفد منه المرأة شيئاً، وعليه الإمام الشافعى، أما أبو حنيفة فقد أجازته وألزم كلا بمهر المثل، وحكى ذلك عن عطاء والزهرى والليث وغيرهم.

وهذا النوع من النكاح موجود فى قبائل التنجس شرقى سيبيريا كما ذكره بعض الكاتبين فى الاجتماع (٢).

٦ - نكاح البدل أو المبادلة:

قال ابن زيد: هذا شىء كانت العرب تفعله، يقول أحدهم: خذ زوجتى وأعطنى زوجتك، روى الدارقطنى عن أبى هريرة قال: كان البدل فى الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: انزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى، وأزيدك. فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنَهُنَّ﴾ قال: فدخل عيينة بن حصن الفزارى على رسول الله ﷺ وعنده عائشة، دخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: «يا عيينة فأين الاستئذان؟» فقال: يا رسول الله ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت - أى بلغت - قال: من هذه الحميراء إلى جنبك؟ قال رسول الله ﷺ: «هذه عائشة أم المؤمنين» قال أفلا أنزل لك عن

(١) انظر بحث حقوق الزوجين.

(٢) كتاب «الإنسان والبيئة» تأليف: لويس اسكندر سنة ١٩٤٤م.

أحسن الخلق؟ فقال « يا عيينة إن الله قد حرم ذلك » قال : فلما خرج قالت عائشة :
يا رسول الله من هذا قال « أحقق مطاع ، وإنه ، على ما ترين ، لسيد قومه »^(١) .

وقد أنكر الطبري أن يكون زواج البدل حدث عند العرب ، وحديث عيينة
ليس فيه تبديل ولا أراد ذلك ، وإنما احتقر عائشة لأنها كانت صبية ، فقال هذا
القول قال القرطبي : وما ذكرناه من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن
أبي هريرة من أن البدل كان في الجاهلية يدل على خلاف ما أنكر من ذلك .

٧ - نكاح الخدن :

وهو نكاح السر الذي يحاول فيه الطرفان ألا يعرفهما أحد ، ولعل من عده
من نكاح الجاهلية ، أخذه من قوله تعالى : ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء :
٢٥] ، وقوله ﴿ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ [المائدة : ٥] والخن هو الصديق ، فكان
العلاقة بينهما علاقة صداقة لا تحتاج إلى عقد .

٨ - نكاح السبي :

ويكون بالاستيلاء على المرأة بالقوة إذا نجح في الانتصار على من يقاومونه ،
ويعتبر هذا بمنزلة عقد الزواج ، سواء أكان في حرب نظامية أم عن طريق المباحة
وكانوا يطلقون على السبية اسم « النزيعه » أى التى انتزعت من أهلها ، وكانت
مكة منذ عهد قديم مركزاً لبيع السبي من مختلف البقاع ، وكان العرب يعتقدون
أن أبناء السبايا من خيرة الأبناء ، وزواجهم بالسبايا كان ضرباً من الفروسية ، ومنه
قول حاتم الطائي :

فما أنكحونا طائعين بناتهم
فما رادها فينا السباء مذلة
ولكن خلطناها بخير نساءنا
وكائن ترى فينا من ابن سبية
ويأخذ رايات الطعان بكفه

ولكن خطبناها بأسيافا قسرا
ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا
فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا
إذا لقي الأبطال يطعنهم شزرا
فيوردها بيضا ويصدرها حمرا

« عادات الزواج للشنتناوى ص ٧٨ » .

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٢١ .

٩ - نكاح الوراثة :

ويكون باستيلاء أحد أقارب الميت على زوجته، بإلقاء ثوب عليها، فإن شاء تزوجها، وإن شاء زوجها وأخذ صداقها، رضيت أم كرهت، وإن شاء عضلها لتفتدي نفسها بما ورثته من زوجها، وقد أبطله الإسلام بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ [النساء: ١٩].

وفي بحث «الحجاب» ذكرت أن هذا النظام كان عند اليهود، وما زال معمولاً به عندهم إلى الآن، فإذا توفي شخص يهودي دون أن ينجب أولاداً تصبح أرملته زوجة لشقيقه أو أخيه لأبيه، ولا تحل لغيره ما دام حياً إلا إذا تبرأ منها.

١٠ - العضل :

ذكره بعض الكتاب من نكاح الجاهلية، وصورته أن بعض الآباء وأولياء الأمور يتحكمون في بناتهم وفيمن لهم عليهن الولاية من الأيامي فيعضلوهن عضلاً تاماً عن الزواج أحياناً، ويزوجوهن أحياناً بدون أخذ رأيهن أو على كره منه، ولكن هذا النوع هو زواج بعقد ومهر، ولا ينقصه إلا استشارة الزوجة.

١١ - نكاح المقت :

ومن صورته أن يطلق الأب زوجته فيتزوجها ابنه، أو يتزوجها الولد بعد موت أبيه، وفي شعب «الदनكا» بجنوب السودان صورة منه، فعندما يهرم الرجل له أن يزوج امرأته إلى ابنه خشية أن تطلب الطلاق لكبره فيخسر المهر الذي دفعه وهو أربعون بقرة، كما يقول محمد ثابت في رحلته.

وسمى نكاح زوجة الأب مقتاً، لأن الغالب أن من يتزوج امرأة كان لها زوج أن يمقت الزوج الأول، ومقت الولد لوالده لا يجوز، ومن هنا حرم زواج أمهات المؤمنين حتى لا يمقت النبي.

وقد حرم الإسلام هذا النوع من النكاح فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء : ٢٢].

جاء في «أسد الغابة» ترجمة «أبو قيس الأنصاري» أنه لما توفي خطب ابنه قيس امرأته، فاستفتت رسول الله ﷺ فنزلت الآية. وقيل: إنه أبو قيس صيفى بن الأسلت، لما توفي خطب ابنه واسمه «محسن» زوجة أبيه واسمها قيل: أم عبید بنت ضمرة، وقيل: كبيشة بنت معن بن عاصم «ابن الأثير مجلد ٦ ص ٢٥٥، ٢٥٧» وتفسير ابن كثير، وروى أنه لم ينفق عليها ولم يورثها من المال شيئاً، فأتت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقال: «ارجعى لعل الله ينزل فيك شيئاً» فنزل ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ...﴾ وقيل: نزلت في الأسود بن خلف، تزوج امرأة أبيه وهى بنت أبى طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار «تفسير ابن كثير» وقيل: نزلت في صفوان بن خلف، تزوج امرأة أبيه واسمها فاخنة بنت الأسود بن المطلب بن أسد، وفي منظور بن رباب، تزوج امرأة أبيه مليكة بنت خارجة.

ويقال: إن ممن حدث معهم هذا: كنانة بن خزيمه بن مدركة على زوجته برة بنت مر بن أد بن طابخة. وقال المفسرون: إن حكمة قوله تعالى ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، إخراج نسب النبي ﷺ من العيب، لأن قريشاً من نكاح المقت هذا. هكذا قيل.

لكن قال الحافظ قطب الدين عبد الكريم: ولما وقفت على هذا أقمت مفكراً مدة، لكون أن برة المذكورة كانت زوجاً لخزيمة فخلف عليها كنانة بن خزيمه، فجاء له منها النضر بن كنانة، وأن هذا وقع في نسب النبي ﷺ، وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال «ما ولدنى من سفاح أهل الجاهلية شيء، إنما ولدت من نكاح كنكاح الإسلام» إلى أن رأيت أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قال فى كتاب له سماه بكتاب الأصنام: وخلف كنانة بن خزيمه على زوجة أبيه بعد وفاته، وهى برة بنت أد بن طابخة جد كنانة بن خزيمه، ولم تلد لكنانة ولداً ذكراً ولا أنثى،

ولكن كانت ابنة أخيها برة بنت مرة أد بن طابخة تحت كنانة بن خزيمة فولدت له النضر بن كنانة، قال: وإنما غلط كثير من الناس لما سمعوا أن كنانة خلفه على زوجة أبيه لاتفاق اسمهما وتقارب نسبهما، وهذا الذي عليه مشايخنا وأهل العلم والنسب، قال: ومعاذ الله أن يكون أصاب نسب النبي ﷺ نكاح مقت، وقد قال ﷺ: «ما زلت أخرج من نكاح كنعان الإسلام حتى خرجت من بين أبي وأمي» ثم قال: ومن اعتقد غير هذا فقد كفر وشك في هذا الخبر، قال: والحمد لله الذي نزهه عن كل وصم، وطهره تطهيراً. اهـ «حياة الحيوان للدميري- مادة القرش».

والحرث بن سامة، تزوج ناجية بنت جرم بن ريان بعد أبيه سامة بن لؤى. وهاشم بن عبد مناف، خلف أباه على «وافدة» وهي من بنى مازن بن صعصعة، وعمرو بن أمية، خلف أمية بن عبد شمس على آمنة بنت أبان بن كليب، وولدت له: مسافرا وأبا معيط، وكان لها من أمية أبو العيص وغيره^(١).

هذه زيجات كانت في الجاهلية حرمها الإسلام بالآية المذكورة، ويقول الفخر الرازي: إن الله وصف هذا النكاح بأوصاف ثلاثة للقبح. القبح العقلي، والقبح الشرعي، والقبح العادي، فقوله: فاحشة، إشارة إلى الأول، وقوله: مقتا، إشارة إلى الثاني، وقوله: وساء سبيلاً، إشارة إلى الثالث.

وروى أحمد والنسائي وغيرهما عن البراء رضي الله عنه قال: لقيت خالي أبا بردة ومعه الراية، فقال: أرسلني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه أن أقتله وأخذ ماله. وذكر ابن أبي خيثمة في تاريخه من حديث معاوية بن قره عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ بعثه إلى رجل عرس بامرأة أبيه فضرب عنقه، وخمس ماله. قال يحيى بن معين: هذا حديث صحيح، وسيأتي حكم ذلك واضحاً في بحث المحرمات من النساء.

وقالوا: إن هذا النكاح يسمى أيضاً نكاح الضيزن، ويسمون الابن بهذا

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٠٢، ١٠٤، بلوغ الأرب للالوسي ج ٢.

الاسم «الضيزن». كما ذكره ابن كثير في تفسيره، وقيل إن نكاح الضيزن هو مشاركة الولد لأبيه في زوجته أى زوجة الأب وهو حى .

قال العلماء: ومثل زوجة الأب فى الحكم أمتة، روى ابن عساکر فى ترجمة «خديج الحمصى» مولى معاوية أنه اشترى له جارية بيضاء، فأدخلها عليه مجردة وبيده قضيب، فجعل يهوى به إلى متاعها ويقول: نعم المتاع لو كان له متاع، اذهب بها إلى يزيد بن معاوية. ثم قال: لا، ادع لى ربيعة بن عمرو الحرسى - وكان فقيها - فحكى له ما حدث. فقال: لا تصلح ليزيد، ثم أعطاها معاوية لعبد الله بن مسعدة الفزارى- وكان آدم شديد الأدمة - وقال له: دونك هذه، بيض بها ولدك، وكان عبد الله بن مسعدة هذا وهبه رسول الله ﷺ إلى فاطمة بنته، فربته ثم أعتقته، ثم كان بعد ذلك مع معاوية على على رضى الله عنه «تفسير ابن كثير: ﴿وَلَا تَكْحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾» .

١٢- افتراع الملك أو الرئيس للبكر قبل زفافها لزوجها:

كانت هذه الصورة موجودة فى الجاهلية، فى بعض الروايات القديمة أن الملك فى قبائل «طسم» وهى من العرب البائدة كان يفعل ذلك. وتقول الروايات: إن الفضل فى القضاء على هذا النظام هو لفتاة عربية تدعى «غفيرة» أو «غفيرة بنت غفار» عظيم قبيلة «جديس» ورئيسها. كما ذكره الجاحظ فى كتابه «المحاسن والأضداد» ج٢ ص ٦٢^(١) وفيه تفصيل وشعر كثير، وذكر أن مثل هذا النوع موجود فى يهود المدينة، وأورد ذلك صاحب كتاب «أعلام النساء»، وملخص ما ذكر.

إنه كان لطسم وجديس ملك يقال له «عمليق» ظلوم غشوم، وكانت لا تزف جارية إلى زوجها إلا بدءوه بها فافترعها، وردها إلى بعلها، ويقول الأصبهاني فى الأغاني، ويقوت فى معجمه عن سبب اتخاذه هذا القرار، إن هزيلة الجدسية الشاعرة طلقها زوجها «ماشق» فتخاضما إلى عمليق فى ولد

(١) طبعة الكتب الثقافية.

لهما، فلم يعجبها حكمه، فأنشدت شعراً تدمه، فأمر ألا تتزوج بكر من جديس وتهدى إلى زوجها حتى يفتريها هو .

ثم إن رجلاً من جديس تزوج عفيرة بنت غفار، أو بنت عباد، ويقال لها: الشموس، وهى بنت عظيم جديس ورئيسها، فلما أراد أن يهدوها إلى زوجها بدءوا بها عمليق، فأدخلوها عليه ومعها القيان - الجوارى المغنيات - يغنين ويضربن بالدفوف ويقلن:

وبادرى الصبح لأمر معجب
ولم يكن من دونه من مذهب

أبدى بعملق وقومى فاركبى
فسوف تلقين الذى لم تطلبى
أو « وما لبكر عنده من مهرب » .

فجعلت تقول وهى تزف:

أهكذا يفعل بالعروس؟
من بعدما أهدى وسيق المهر^(١)
خير له من فعل ذا بعرساله

ما أحد أذل من جديس
يرضى بهذا يا لقومى حر
لأن يلقى المرء موت نفسه

فلما دخلت عليه افتريها، ثم خلى سبيلها فخرجت ووقفت على أخيها الأسود بن غفار، وهو قاعد فى نادى قومه، وقد رفعت ثوبها عن عورتها، وأنشأت تقول:

وأنتم رجال فيكم عدد الرمل
عشية زفت فى النساء إلى البعل
فكونوا نساء فى المنازل والحجل^(٣)

أصلح ما يؤتى إلى فتياتكم
وترضون هذا يا لقومى لأختكم^(٢)
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه

(١) أو: أهدى وقد أعطى وسيق المهر.

(٢) وقيل: وتصبح تمشى فى الرعاء عفيرة، والرعاء جمع الراعى مثل جائع وجياع.

(٣) الحجل هو القيد، وهو الخللخال أيضاً، وروى هذا الشطر هكذا: فكونوا نساء لاتعاب

من الكحل.

ودونكم طيب النساء فإنما
 فلو أننا كنا رجلاً وكنتم
 فقبحا لبعل ليس فيه حمية (٣)
 فموتوا كراماً أو أصيبوا عدوكم
 وإلا فـخلوا داركم وترحلوا
 ولا تخرجوا للحرب يا قوم إنها
 فيهلك فيها كل وغد مواكل

خلقتكم جميعاً للتزين والكحل (١)
 نساء لكننا لا نقيم على ذحل (٢)
 ويختال يمشى بيننا مشية الفحل
 بدهية توري ضراماً من الجزل (٤)
 إلى بلد قفر خلاء من الأهل (٥)
 تقوم بأقوام شداد على رجل
 ويسلم فيها ذو الطعان وذو القتل (٦)

فلما سمعت جديس شعرها أنفت أنفاً شديداً، وأخذتهم الحمية، فتأمروا
 بينهم وعزموا على اغتيال الملك وجنوده، فدعوهم إلى طعام وباغتوهم بالسيوف،
 وجعل الأسود يرتجز:

يا صبحه يا صبحه العروس
 يا طسم ما لقيت من جديس
 حتى تمشت بدم جميس
 هلكت يا طسم فهيسى هيسى

ومثل عمليق في عمله هذا «الفطيون» ملك تهامة والحجاز، فإته أمر ألا
 تزف من اليهود في مملكته امرأة إلا بدءوه بها، فلبث على ذلك عدة أحوال،
 حتى زوجت امرأة من اليهود من ابن عمها، وكانت ذات جمال رائع، وكانت
 أخت مالك بن عجلان، فلما أرادوا أن يهدوها إلى زوجها خرجت إلى نادى
 الأوس والخزرج رافعة ثوبها إلى سرتها، فقام إليها مالك بن العجلان، فقال:
 ويحك وما دهاك؟ فقالت: وما يكون من الداهية أعظم من أن ينطلق بى إلى غير

(١) رويت هذه الشطرة هكذا: خلقتكم لأثواب العروس وللنسل.

(٢) الذحل هو الحقد والعداوة. يقال: طلب بذحله أى بثأره.

(٣) روى هذا الشطر: فبعدا وسحقاً للذى ليس دافعاً.

(٤) الجزل هو الحطب الكثير اليابس ورويت هذه الشطرة هكذا: ودبوا لنار الحرب بالحطب

الجزل.

(٥) روى هذا البيت هكذا: وإلا فخلوا بطنها وتحملوا إلى بلد قفر وموتوا من الهزل وجاء

بعده: فللموت خير من تماد على الأذى ولا الموت شر من مقام على الذل.

(٦) الوغد هو الرجل الدنىء الذى يخدم بطعام بطنه.

بعلى بعد ساعة؟ فأنف من ذلك أنفاً شديداً، فدعا بيزة - ثوب - امرأة، ولبسها، فلما انطلقوا بالمرأة إلى الفطيون صار كواحدة من نساءها اللائى ينطلقن بها، متشبهاً بامرأة، وقد أعد سكيناً خلفه، واغتاله عندما أراد أن يختلى بها، واستحث اليهود عليه فقتلوه وجنده، وقيل: قتله «أبو بجيلة» من ملوك اليمن فى «حرض» وهو واد بالمدينة عند أحد، ومثل هذه العادة كان لبعض الملوك فى أوروبا فى العصور الوسطى، كما سيأتى فى موضوع الزفاف.

هل يمكن أن يقال: إن العرب سكتوا حيناً على هذه العادة، لأنهم كانوا يستسيغون أن تسلم المرأة إلى رجل ممتاز لتحمل منه بولد نجيب، وهو الاستبضاع المذكور؟ ومعلوم أن الملك أو زعيم القبيلة من هؤلاء الرجال الممتازين الذين يستبضع منهم، فلعلهم سكتوا حتى تنجب العروس بكرةً هو على شاكلة الملك.

ولم يهبوا للقضاء عليها أنفة من الفعل نفسه، بل أنفة من الذل. حيث تحكم فيهم هذا الطاغية وأرغم نساءهم على قبول هذا العمل، وإلا فإنه كان يعمل برضاهم، فالثورة كانت ثورة للحرية وضد التحكم والاستبداد والذل، لا ضد الشرف والعفاف. هذا ما أراه.

١٣ - نكاح المتعة:

وهو زواج مؤقت بأجر معلوم يختلف باختلاف المدة، كالصورة المذكورة عند الحبشة، ويقال: إن المتعة لم تكن موجودة فى الجاهلية ولكن المسلمين هم الذين طلبوها لظروف الغزو، على ما سيأتى توضيحه فى فصل خاص إن شاء الله.

* * *

القسم الثاني

عقد الزواج في الإسلام

مقدمة:

أبطل الإسلام كل صور الاتصال الجنسي السابقة، وهذب منها كثيراً، وحصر حل الاستمتاع بالمرأة في طريقتين، الأولى العقد بين الطرفين بإيجاب وقبول، وهو المعروف بالنكاح، والثاني وضع اليد على المرأة بطريق مخصوص على نظام يخول له أن يتمتع بها، وهو المعروف بالتسرى أو ملك اليمين، وكان من النوع الأول نكاح مؤقت لأجل حدث في حله وحرمته خلاف كبير بين فريقى السنة والشيعية وهو الذى عرف بالمتعة، وستكلم بإذن الله عن هذه الأنواع بالتفصيل، وسيكون الحديث فى فصول كثيرة متنوعة، يمكن إدماج بعضها فى بعض، ولكن لطول الكلام على بعض النقط فى الفصل الواحد جعلت لها فصلاً أو فصولاً مستقلة.

١ - وعقد النكاح، وهو الصورة المثالية لارتباط الزوجين، عرفه فقهاء الشافعية تعريفاً اصطلاحياً فقالوا: إنه عقد يقتضى إباحة وطء المرأة والاستمتاع بها بلفظ نكاح أو تزويج أو نحوهما، فالذى يباح بالعقد هو الاستمتاع الذى كان محرماً قبله، ولا بدفيه من لفظ تزويج ونحوه، على ما سيأتى توضيحه، حتى لا يدخل فيه أى اتفاق على إيجاد علاقة بين رجل وامرأة بطريق آخر لا يوافق عليه الدين.

٢ - وقد تقدم بيان لفظ النكاح، وما يطلق عليه حقيقة أو مجازاً، من العقد أو الوطاء، ويبدو لى أن النصوص التى تذكر لفظ النكاح يقصد بها منه العقد كوسيلة للوطء الحلال، فإن العقد مجرد العقد غير مقصود غالباً، بل الغالب هو قصد الوطاء والتمتع الحلال والعقد وسيلة له، ولا يصح مثلاً أن يراد من مثل قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الوطاء، فقد يتوهم أنه أمر

وإباحة للمتعة الجنسية بأية وسيلة، بل المراد هو العقد والارتباط الأسرى الذى يلزمه غالباً التمتع، أو المراد هو التمتع عن طريق العقد، أما عند الحديث عن الوطاء والمتعة فإن النصوص تستعمل لفظاً غير لفظ النكاح. مثل الإتيان والمباشرة والمسيس والرفث، وهذا يكون مع الزوجات وملك اليمين خاصة، لا مع النساء بوجه عام، فمثلاً فى قوله تعالى ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] لفظ «نسائكم» يراد به خصوص الزوجات، والرفث هو الجماع، وفى قوله بعد ذلك فى الآية نفسها ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ يراد به «جامعوهن» وفى قوله ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] لفظ «نساؤكم» يراد به الزوجات، وعبر عن جماعهن بالإتيان.

ولم أجد، فيما أعلم، نصاً يريد تكوين الأسرة استعمل لفظ الإتيان أو المباشرة، فهذا مقامه فى الزوجات، وأما عند تكوين الأسرة فاللفظ الغالب هو النكاح والزواج.

وفى مثل قوله تعالى فى المطلقة ثلاثاً ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، فهل يراد بالنكاح مجرد العقد دون الحاجة إلى الوطاء، أو لا بد مع العقد من وطاء، أو يراد به الوطاء عن طريق العقد، قال بالأول جماعة، ولكن الجمهور حتموا الوطاء مستدلين بحديث ذوق العسيلة الذى يأتى فى حينه إن شاء الله.

٣ - وعقد النكاح فى الإسلام لا يقوم إلا بأمر هو: الزوجان، والصيغة التى تربط بينهما، وشاهدان على العقد، وولى عن الزوجة عند بعض المذاهب، والزوجان هما الركنان الأساسيان فى النكاح، والصيغة هى العبارة التى تفيد الارتباط الشرعى بينهما، وأما الشاهدان فلا إثبات الواقعة وتسجيلها فى المجتمع ضمناً لما يترتب عليها، والولى جعله بعض الفقهاء ركناً فى الواقعة، ولم يحتمه البعض الآخر، وقد تقدم الكلام عليه فى باب «أسس اختيار الزوجين».

٤ - وكل أمر من هذه الأمور لا بد له من شروط حتى يصح العقد أو يلزم،

إلى جانب شروط لازمة لسعادة الحياة الزوجية بعد تكوينها بالعقد، والشروط الأخيرة لها بحث خاص فى جزء معين من هذا الكتاب الكبير. أما الشروط الأولى فهى قائمة على تحقيق الحكم الوضعى الخاص بالصحة والفساد والبطلان.

ولن أدخل فى تفاصيل كثيرة فى هذا النوع من الشروط، فإن كثيراً منها فيه خلاف كبير بين كبار فقهاء المذاهب، بل بين فقهاء المذهب الواحد، وكتب الفقه وقت ذلك بما لا مزيد عليه للباحث والفقهاء. وسيكون تناولى لها بإيجاز مع الاهتمام بالناحية الاجتماعية والأدبية المتعلقة بها.

وقبل بيان هذه الشروط أقدم بكلمة عن نظرة الناس فى عرفهم وتقاليدهم وقوانينهم وفى أديانهم إلى شروط الزواج، وهى نظرة مبسطة لناخذ صورة للمقارنة بها فى الإسلام من شروط استهدفت سعادة الحياة الزوجية وسعادة المجتمع كله.

لم يعرف الهمجيون للزواج شروطاً تنظمه، فإن إشباع الغريزة طغى على كل اعتبار، والرجل كان يشبع غريزته مع أية أنثى حتى لو كانت أخته كما كان يفعل بعض قدماء المصريين فى الأسر الحاكمة بالذات وما يمارسه بعض سكان جزر هاواى، ولم تكن الأسرة قديماً من الأهمية بحيث توضع لها شروط و ضمانات، وقد جرت العادة - كما يقول علماء الاجتماع - بأن الاهتمام بوضع الشروط والضوابط فرع الاهتمام بقيمة المشروط له، وما وضعت له الضوابط وال ضمانات، وبالتدرج أمكن للناس أن يفهموا رسالة الأسرة وأهميتها، فبدءوا فى وضع أنظمة لها تطورت بتطور الزمن وسعة الإدراك وتقدم التفكير.

ويقولون: إن القانون الرومانى القديم لم يهتم كثيراً بتقرير شروط للزواج، واعتبروه واقعة مادية، ولرؤساء العائلات أن يقرروا ما يشاءون وبالتطور اعتبر الزواج أمراً قانونياً، ووضعت له شروط وتتلخص هذه الشروط الموضوعية فى العصر العلمى فى:

(أ) عدم المانع من جهة السن، الذى يحدده رؤساء الأسرة، وإن كان «جوستنيان» حدده فيما بعد باثنتى عشرة سنة للبنات وأربع عشرة سنة للذكور (هذا التحديد خولف فى القرن السادس عشر، فقد تزوج هنرى الثانى ملك فرنسا، مارى ستيوارت بنت جيمس الخامس البريطانى، بعد أن هربت من نكاح ولى عهد هنرى الثامن البريطانى، وكان سنها وقت الزواج ست سنوات) .

وكذلك عدم المانع من جهة القرابة أو المصاهرة أو الكفاءة، ومانع القرابة تجاوزوا عنه فى زواج الامبراطور «كلود، بزوجته «أجربين». واعتبر فى الكفاءة عدم التزاوج بين الأشراف والعامّة. ثم تجاوزوا عن هذا وتركوا الحرية للنبلاء أن يتزوجوا المثلات، خصوصاً عندما أراد «جوستنيان» أن يتزوج يونانية ساقطة أحبها، وهى الراقصة «تيودورا» ٥٠٨-٥٤٨ م.

وفى عهد جوستنيان منع الزواج بين أرباب العقائد المختلفة كاليهود والمسيحيين، وكذلك منع زواج الزانى من المزنى بها، والمرأة بغاويها.

(ب) ومن الشروط رضا الطرفين ورؤساء الأسر، وقد تطور هذا النظام وجعل له وضع آخر، وكذلك التحقق من السن وتحديدته كما تقدم.

وعندهم لا تزوج المعتدة إلا بعد سنة للمتوفى عنها، أما المطلقة فيحل زواجها بدون تربص، وقد حصل من جراء ذلك اختلاط فى الأنساب، فمنعته المسيحية فى عصر الامبراطورية الثانية إلا بعد سنة.

وقد تقدم بعض ما عند اليهود والنصارى من شروط للزواج وسيأتى بعضها فيما بعد.

* * *

الفصل الأول

شروط الزوجين

أولاً - الشروط المشتركة :

هناك شروط مشتركة بين الزوجين، وشروط خاصة بكل منهما. أما الشروط المشتركة فأهمها :

١ - وجود الكفاءة بينهما :

ومراعاة الكفاءة فى الزواج، كما أشرنا إليه نظام قديم، وله أهميته بوجه خاص عند أهل الأديان السماوية، فاليهود القدامى يحرمون زواج اليهود بالمسلمين والمسيحيين، وإن كان ذلك قد خف اليوم، والقوانين الكنسية فى العصور الوسطى حرمت زواج المسيحيين بغيرهم، وعند قيام ثورة «مارتن لوثر» كانت الفرق لا تزوج بعضها بعضاً، وجاء^(١): «إن الأسقف «إسحق غطاس» أسقف طيبة للأقباط الكاثوليك ألقى كلمة فى المجمع المسكونى، حث فيها على إعادة النظر فى القوانين التى تجعل زواج الكاثوليك من الأرثوذكس، الذى يعقده رجال الدين الأرثوذكس، باطلاً، وأشار إلى أن مثل هذا الزواج لم يكن يعتبر باطلاً قبل القرار الذى أصدرته الكنيسة الكاثوليكية عام ١٩٤٩ م. اهـ.

ومما يدل على عدم التقيد بهذه القوانين أن «جاكلين كيندى» أرملة رئيس الولايات المتحدة (١٩٦٣/٦١) كاثوليكية، وتزوجها المليونير اليونانى «أرسطوطاليس أوناسيس» الأرثوذكسى (توفى ١٩٧٥ م) وقد أجاز ذلك صديق أسرة كيندى الكاردينال «كاشنج» فى بوسطن، قائلاً: لا أرى سبباً واحداً يمنعك من الزواج، إن قوانين الكنيسة الكاثوليكية واضحة فى هذا الأمر إنها تمنع الزواج، ولكن هناك استفسارات، أنا مثلاً، أختى تزوجت من شاب يهودى، وكذلك

(١) أهرام ٢٨/١١/١٩٦٨.

وافق بطريك اليونان على زواج أوناسيس وجاكلين. «آخر ساعة فى
١٩٧٥/٣/١٩».

وهناك قيود للكفاءة مرجعها «اتنولوجى» للخصائص والمميزات كما حرم
قدامى العبرانيين التزاوج بينهم وبين قبائل كنعان، لأنهم أقل منهم فى الجنس،
وحرم الرومان الزواج بغير رومانية، وجاهلية العرب حرمة كذلك بين العربية
والعجمى، بل بين القبائل بعضها مع بعض، وهناك تحريم الزواج بين البيض والسود
فى أمريكا كأثر للتفرقة العنصرية كما أن هناك قيوداً اجتماعية طبقية عند
براهمة الهند^(١).

وسبق فى باب مقاييس اختيار الزوجين أن اعتمدنا الكفاءة من جهة الدين،
دون نظر إلى اختلاف الأحوال الاقتصادية والمراكز الاجتماعية.

وتفريعاً على اعتبار الكفاءة فى الدين لا يصح أن يتزوج الكافر بمسلمة
حتى لو كان هو كتابياً، أى يهودياً أو نصرانياً، لأن سلطته عليها ربما تخرجها عن
دينها وهو خاتم الأديان الذى نسخ ما قبله ولم ينسخه شىء بعده، إذ أن اليهود
والنصارى لا يقرون بنبو محمد عليه الصلاة والسلام وهم لا يمكنون الزوجة
المسلمة من ممارسة عقيدتها وطقوس عبادتها، وذلك بخلاف العكس، وهو زواج
المسلم من الكتابية، على ما سيأتى توضيحه، فهو مقر بالأديان السماوية
الصحيحة كلها، ويحترم عقيدة زوجته فى إيمانها بالله واليوم الآخر، وهذا دليل
سماحة الإسلام الذى لا يكره أحداً على اعتناقه، فإن بالعقائد لا تغرس بالقوة
والإكراه، بل بالقبول والاقتناع، كما أنه دليل على دعم الإسلام للوحدة
الإنسانية، وتوفير الأمن والسلام لكل الذين يستحقون أن يعيشوا متدينين.

ومن اعتبار الكفاءة الدينية لا تكون المرتدة كفاء للمسلم، وكذلك
الوثنية والزنديقة التى لا تنتسب إلى نبي ولا تؤمن بكتاب، والمجوسية التى تعبد
النار، لأن هؤلاء أبعد ما يكن عن الانسجام مع الزوج، وبالتالي لا ينتظر منهم

(١) الدكتور الخشاب.

إخلاص له وللأسرة، وينعدم مقصد أسمى من مقاصد النكاح وهو التعاون الذي يوحى به السكن والمودة، فالزواج من مثيلات هؤلاء، شهوانى فقط لا لتكوين أسرة طيبة كما يريد الإسلام.

(تنبيه) هناك اختلاف فى تحديد معنى كلمات: الصائبة، المجوسية وغيرهما، وعرض الآراء موجود فى كتب الكلام والعقائد ومن أهمها كتاب الفصل فى الملل والنحل لابن حزم، وكتاب الملل والنحل للشهرستانى.

ولاختلاف الفقهاء فى تعريف الصائبة اختلفوا فى حل زواجهن وحرمتهم فأبو حنيفة يرى أن الصائبة صنف من النصارى ولهذا يجوز الزواج منهم، وأبو يوسف ومحمد يريان أنهم من عباد الكواكب فيحرم الزواج منهم، والشافعى فى الأم يحكم عليهم بحسب ما ينتمون إليه، فيقول إن كانوا من بنى إسرائيل ودانوا باليهودية أو النصرانية جاز، وإن خالفوهم فى أصل التوراة حرم الزواج منهم كما يحرم كل ذبائحهم.

وقال مجاهد: إن الصابئين قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين. ونقل ذلك أيضاً عن الحسن البصرى، كما نقل عنه أنهم يعبدون الملائكة. واختار الرازى أنهم يعبدون الكواكب، ومنهم جماعة الآن على ضفاف أنهار العراق، ولم يعرف تماماً مذهبهم الدينى، وعلى كل حال فأكثر الأقوال على حرمة المصاهرة معهم.

والمجوس كذلك مختلف فى تحديدهم، فقليل هم أهل كتاب غير التوراة والإنجيل، ووقع أميرهم وهو سكران على أخته وحاول تبرير ذلك بما كان من أولاد آدم، ولكن ذلك لم يؤيد بدليل، وهم الآن عبدة النار، والنبى وإن أخذ منهم الجزية فقد حرم نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم.

والشافعى يقول: ولا أعلم مخالفاً فى عدم نكاح نسائهم، وكذلك أحمد استنكر عداهم من أهل الكتاب، ولم يخالف الجمهور إلا الظاهرية وأبو ثور وتحمس ابن حزم فى المحلى لجواز مناعتهم، وطعن فى حديث مصالحة النبى لهم

على الجزية وتحريم نسائهم بأنه مرسل، لكن الأكثرية على قبول هذا الحديث، وتحريم نسائهم.

وجاء عن الشيخ محمد مهدي الخالصي أن في إيران طائفة من المجوس نحو مليونين ويكثرون في مدينتهم المقدسة «يزد» يعبدون النار في معابد هناك، ويقولون بالتناسخ وإباحة نكاح المحارم (ملخص من مجلة البلاغ الكويتية ١٩٧٤/٦/٩).

والإجماع على أن المسلم لو تزوج بغير كتابية كان زانياً، ووجب عليه الحد، ولا يثبت به نسب، كما أجمعوا على كفر من اعتقد حله وسيأتي دليل التحريم.

أما زواج المسلم من الكتابية، أي اليهودية أو النصرانية، فالإجماع على أنه حلال، لأنهن غير داخلات في المشركات المنهى عن نكاحهن، وإن دخلن فقد استثناهن الله من المشركات وأحل نكاحهن، ومع حله كرهه بعض الصحابة، لأن في المسلمات كفاية وتام أنس وسكن ومودة، وخوفاً من أن يكون زواجهن لمجرد الشهوة فلا يرى المسلم من أجل ذلك بأساً أن يتزوجها ولو كانت غير عفيفة.

هذا هو خلاصة الحكم، ولتوضيحه أنقل لك ما قاله علماء قدامى، وما أفتى به علماء محدثون، مع تنظيم ييسر فهم الموضوع والاقتناع بالحكم ومع التصرف في النقول التي أوردها.

(أ) جاء في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي قوله: أما الكتابية فإن كانت قد دانت بعد التبديل أو بعد مبعث النبي، ومع ذلك ليست من نسب بنى إسرائيل فلا يجوز للمسلم أن يتزوجها ما دامت قد عدت كلتا الخصلتين، فإن عدت النسب فقط ففي جواز نكاحها خلاف، وإن كانت كتابية دانت قبل التبديل وقبل مبعث النبي ﷺ، أو كانت من نسب بنى إسرائيل جاز نكاح المسلم لها لأن دينها وعقيدها تجعلها أقرب إلى الانسجام والطاعة وإدراك المثل العليا للزوجية من تلك التي لا تدين بكتاب، ولا عقيدة صحيحة.

(ب) وجاء في كتاب تنوير القلوب للشيخ الكردي (ص ٣٥٠) عن حل زواج الكتابية، شرطه في الاسرائيلية يقينا ألا يعلم دخول أول آبائها في ذلك الدين بعد بعثة تنسخه، كبعثة عيسى بالنسبة إلى دين موسى، وكبعثة نبينا بالنسبة إلى دين عيسى، وذلك بأن يعلم دخوله في ذلك الدين قبلها أو يشك فيه.

وشرطه في غيرها أن يعلم ذلك قبلها بالتواتر أو شهادة عدلين أسلما، والمراد بأول الآباء أول جد عرفت قبيلتها به، وأمكن انتسابها إليه ولو من قبل الأم، ولا نظر لمن هو أنزل منه حتى لو دخل في ذلك الدين بعد البعثة الناسخة له لم يضر.

هذا الكلام يمثل رأى الشافعية في قصر الكتابية اليهودية والنصرانية على من تنسب لبنى إسرائيل، أما الداخلة في أحد الدينين بعد نسخهما وليست ذات نسب ففيها خلاف. والحق أن وصف الكتابية لا للنسب بل للدين لأن النبي لما أرسل كتاباً إلى هرقل الرومي بالإسلام ضمنه الآية ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ...﴾ والرومان ليسوا من بنى إسرائيل.

وأبو حنيفة لا يرى قصر الكتابية على اليهودية والنصرانية، بل يعم من كانت ذات كتاب ولو قديماً حتى شبهة كتاب، فيدخل فيها المجوسية، بل توسع بعضهم فأدخل فيها الهنادك والبوذيين لجواز أن يكون لهم كتاب سماوى وإن لم نعرفه.

ولما كان مثل هذا الكلام فيه بعض الغموض أو فيه عسر في تحقيق دخول الكتابية في دينها وانتسابها لمن دخل فيه، نشرت مقالات وتحقيقات كثيرة^(١) وصدرت فتاوى رسمية من خيرة العلماء أختار من ذلك كلمتين فقط لأنهما خلاصة ما كتب ونشر.

(ج) قال الشيخ محمد حسنين مخلوف ما خلاصته مع تصرف:

(١) مجلة الوعي الإسلامى صفر ١٣٩٢، مجلة الإسلام عدد ٣٥ من السنة الثالثة مجلة نور الإسلام عدد رمضان ١٣٧٥هـ. ومبىر الإسلام محرم ١٣٨٦هـ ومجلة الأزهر مجلد ٢٤ ص ١٩١١.

١ - أهل الكتاب فى إطلاق كثير من آيات القرآن هم من كانوا من أهل التوراة والإنجيل، وهم اليهود والنصارى.

والحق أن غيرهم لا يدخل فيهم، من أهل الكتب السابقة على التوراة والإنجيل، لضيعها، والقرآن صرح بأن أهل الكتاب هم خصوص هاتين الطائفتين، قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦]، ولذا لم يسم النبي مجوس هجر من أهل الكتاب، فعندما أخذ منهم الجزية قال: سنوا بهم سنة أهل الكتاب، فجعلهم مثلهم وليسوا منهم.

والمشركون من ليسوا من أهلها، ويدل على ذلك آيات كثيرة، منها ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، ومنها ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وغيرهما من الآيات التى فصل فيها بين المشركين وأهل الكتاب بالعطف الذى يقتضى المغايرة لغة عند الإطلاق.

على أنه قد وردت آية تصف أهل الكتاب الذين حرفوا وبدلوا بأنهم مشركون. قال تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ... سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. وعلى هذا ذهب ابن عمر إلى أنهم مشركون، فحرم على المسلم الزواج منهم، روى البخارى وغيره أن ابن عمر كان إذا سئل عن نكاح الرجل المسلم النصرانية أو اليهودية قال: حرم الله تعالى المشركات على المسلمين، ولا أعرف شيئاً من الإشراف أعظم من أن تقول المرأة: ربها عيسى أو عبد من عباد الله.

٢- حكم الزواج: اتفق جمهور الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة وفقهاء مذاهبهم والظاهرية وجمهور الزيدية والأمامية على إباحة تزويج المسلم بالكتابية.

بعض الأمامية حرموه، تمسكاً بآية البقرة ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ﴾ [٢٢١]، فيكن مثلهن فى الحكم، وبآية المتحننة ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ﴾ [١٠]، فالكتابيات مثلهن كوافر.

لكن هاتين الآيتين إما منسوختان بآية المائدة ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ [٥]، إذا شملت هاتان الآيتان الكتابيات لأن سورة المائدة آخر السور التي تحدثت عن زواج المسلمات نزولاً، وإما أن تكون هاتان الآيتان خاصتين بالمشركات دون الكتابيات، والتحقيق أثبت ضعف رأيهم.

ومما يدل على جواز نكاح الكتابيات عدة وقائع للصحابة، فقد تزوج عثمان نائلة بنت الفرافصة الكلبية، وهي نصرانية، وتزوج حذيفة بن اليمان يهودية من الشام، كما تزوج أيضاً طلحة بن عبيد الله يهودية من الشام. ولم يعلم عن أحد من الصحابة والتابعين تحريم نكاحهن، وروى عن عبد الله بن عمر أنه كره نكاحهن، وروى عنه أيضاً أن قوله تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ عام في الشركات والكتابيات.

وعلى هذا يكون معنى الآية ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أى إذا دخلن فى الإسلام، ولكن رأيه غير مستقيم لأن الله سبحانه حين قرر حل نسائهم أورد فى القرآن عقائدهم بأن قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾.

والظاهر أن مراده منهن اللاتى يشركن مع الله آلهة أخرى من عباده، وعلى الرواية الأولى لا يحرم تزوجهن، بل يكره فقط، كما يكره نساء أهل الحرب من الكتابيات كما يدل عليه عطف الكتابيين على المشركين فى كثير من الآيات. وآية البقرة التى عممت الشركات سابقة على آية المائدة والتوبة، وآية التوبة جعلتهم مشركين - أى فى العقيدة - ولكن المائدة وهى آخر السور نزولاً خصت منهن أهل الكتاب.

وعلى هذا، فالاتفاق على الحل، بناء على أن آية البقرة خاصة بالمشركات، أى غير الكتابيات وآية المائدة خاصة بالكتابيات، أو أن آية المائدة ناسخة أو مخصصة لآية البقرة، على فرض عمومها، وابن عمر إما متوقف فى الحكم فلا

يكون له رأى، وإما أن رأيه الكراهة فقط دون التحريم، وإما أن رأيه التحريم بناء على أنهن مشركات اعتقاداً.

(د) وقال الشيخ محمد فرج السنهورى^(١) ما ملخصه مع التصرف:

نزلت سورة البقرة فحُرِّمَتِ الزَّوْجُ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَغَيْرِهِ مُطْلَقًا ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ . وقد اختلف في المشركة: هل هي غير الكتابية، أو هي غير المسلمة مطلقاً فتدخل تحتها الكتابية.

ثم جاءت سورة المتحججة أعم ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ... وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ ﴾^(٢) ثم بقى التحريم قائماً بين المسلم وغيره والمسلمة وغيرها حتى جاءت سورة النساء متعرضة لتحريم بعض النساء من قوله تعالى ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ... ﴾ وقوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ... ﴾ وقوله: ﴿ وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ... ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ [النساء: ٢٢-٢٤]، وما وراء ذلك لا يتناول الكافرة، فهو عام مخصوص. إذ الإجماع على تخصيصه بما ورد النص على تحريمه في الكتاب والسنة، والكتابيات محرمات بسورة المتحججة، ومنه بعض صور الرضاع محرمة بالسنة، وكذلك الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها.

ثم نزلت أخيراً سورة المائدة فى حجة الوداع وفيها ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ

(١) حديث فى إذاعة مصر يوم الأربعاء ٢٩ من ربيع الآخر ١٣٧٥هـ (١٤/١٢/١٩٥٥م).

(٢) فى الصحيحين فى سبب النزول، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ وهى عاتق، فجاء أهلها يسألون رسول الله أن يرجعها إليهم، حتى أنزل الله فى المؤمنات ما أنزل، رواه البخارى عن المسور بن مخرمة «حسن الأسوة».

وفى البخارى «طبعة الشعب ج٧ ص ٦٢» قال عطاء: عن ابن عباس كانت قريبة بنت أبى أمية عند عمر بن الخطاب، فطلقها، فتزوجها معاوية بن أبى سفيان، وكانت أم الحكم بنت أبى سفيان تحت عياض بن غنم الفهرى، فطلقها، فتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفى.

الطَّيِّبَاتُ ... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴿﴾ فكانت الكتابيات محررات
ثم نسخ تحريمهن بهذا النص، على ما ذهب إليه جمهور العلماء.

وقال بعضهم: إن تحريمهن باق لم ينسخ.

وقد أجمع المسلمون من أول العصور إلى وقتنا هذا على حل زواج المسلم
بالكتابية، وعلى تحريم زواج المسلمة من غير المسلم أيا كانت درجته، وأجمعوا
على أنه لو حدث كان زنى، ولا يثبت به نسب، وأن المسلم لو اعتقد حله كان
كافراً. اهـ.

ومع رجحان القول بنكاح الكتابيات لآية المائدة اختلفوا فى وصفهن
بالمحصنات، فرأى بعضهم أن المحصنات هن العفائف دون المومسات، ورأى
بعضهم أنهن الحرائر لا الإماء، وعلى هذا فعلى الرأى الأول يجوز زواج الأمة إذا
كانت عفيفة، وعلى الثانى، يجوز زواج الحرة ولو كانت فاحشة.

والحق أن وصف المحصنات يطلق على الحرائر وعلى العفيفات، وهو شرط
استحسان لا شرط صحة، فهن أولى من المومسات والإماء، لأنه إذا أبيع تخطى
المسلمات إلى غيرهن فليكن فيهن وصف يلطف كفرهن وهو الحرية والعفة، لا
أن تكون هناك خستان: كفر وفحش، أو كفر ورق وهو ما أرشد إليه عمر حين
وجه خطاباً لحذيفة بالخوف من نكاح المومسات منهن، مع عدم تحريمه.

هذا وقد أخذت بعض الحكومات ببعض الاحتياطات عند زواج المسلم
بالكتابية حتى لا تخدع هى أو تطلب مالا يحق لها، فاشتطت توثيق الزواج أمام
القاضى، والتوقيع على وثيقة فيها بعض البيانات مثل: للزوج أن يعدد الزوجات،
وأن يطلق متى شاء، وأن عليها الطاعة فى مسكنه الشرعى، ولا تخرج إلا بإذنه،
وأن الأولاد منها يكونون مسلمين، ولا توارث بينها وبين زوجها لاختلاف
الدين، وأن الأولاد يرثون أباهم ولا يرثونها، ولها حق الحضانة برأى القاضى، ولها
حق إرضاعهم، والأجرة على أبيهم.

هذا، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينهى عن زواج المسلم بغير
المسلمة حتى لو كانت كتابية، وثبت أنه اعترض على زواج حذيفة بن اليمان من

يهودية. فقد جاء في تاريخ الطبرى « ج ٦ ص ١٤٧ »: لما كانت القادسية ولم يجد الناس نساء مسلمات، تزوجوا نساء أهل الكتاب، فلما كثر المسلمات بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى حذيفة بن اليمان، بعدما ولاه المدائن، يقول: بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب، فطلقها، فكتب إليه حذيفة فى صراحة وجرأة وحرية: يا أمير المؤمنين، ولماذا أطلقها؟ لا أفعل حتى تخبرنى: أحلال هذا أم حرام، وما أردت بذلك، فكتب إليه عمر البصير الملهم الذى جعل الله الحق على لسانه وقلبه: لا يا حذيفة، هذا الزواج حلال، ولكن فى نساء الأعاجم خلافة وخداع، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نساءكم، فقال حذيفة، وقد أقنعه عمر: الآن أطلقها اه بتصرف.

وروى محمد بن الحسن فى كتابه « الآثار ص ٧٥ »^(١) خبر حذيفة. وأن عمر عزم عليه ألا يضع كتابه حتى يخلى سبيلها، قائلاً: فإنى أخاف أن يقتدى بك المسلمون فيختاروا نساء أهل الذمة لجمالهن، وكفى بذلك فتنة لنساء المسلمين، قال محمد: وبه نأخذ، لا نراه حراماً، ولكننا نرى أن يختار عليهن نساء المسلمين، وهو قول أبى حنيفة اه وحكم ابن كثير بصحة إسناد خبر حذيفة عن الصلت بن بهرام عن شفيق، عند تفسير « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ».

وقال ابن كثير أيضاً: لما غضب عمر على حذيفة وطلحة هم أن يسطو عليهما، فقالا: نحن نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب، فقال: لئن حل طلاقهن لقد حل نكاحهن، ولكنى انتزعهن منكم صغرة قماة، رواه ابن جرير. وعقب عليه ابن كثير بقوله: حديث غريب جداً، ومعنى صغرة قماة أى ذلاً.

ويروى الجصاص خبر حذيفة وعمر، ويقول: إن عمر كتب إليه جواباً على قوله: أحرام هى؟ لا ولكنى أخاف أن تواقعوا المومسات منهن فيتلخص رأى عمر فى أنه ما كان يرى زواج الكتابية حراماً، ولكنه كان يكرهه لمصلحة اجتماعية، وهى الخوف على المسلمين أن يفتنوا بالكتابيات فيتزوجوا المومسات مأخوذتين بجمالهن، ويكون فى ذلك غمط للمسلمة التى ليست فى جمال الكتابية أو عزوف عنها.

(١) تاريخ الفقه الإسلامى للدكتور محمد يوسف، ص ٨٧.

وعلى رأى عمر فى كراهة زواجهن رأى ابن عباس، ولكنه فى الحربيات أى الساكنات فى دار الحرب، فهو يرى حل الذميات منهم ويمنع الحربيات لأمرين، الأول أن مودة الكفار وبخاصة المحاربون محظورة بالآيات الكثيرة، والثانى أن الحياة الزوجية نفسها لا بد فيها من الحب والمودة، وحب الكفار ممنوع، أو لا يتحقق الحب مع زواج الكافرة، وبهذا لا تستقر الأسرة.

وكان رأى ابن عباس خاصاً بتحريم الحربيات لأن الله أمرنا بقتالهم جميعاً سواء أكانوا كفاراً غير كتابيين أو كتابيين، قال تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

هذا، والشريعة الجعفرية لا يجوزون نكاح الكتابية إلا متعة، أى نكاحاً مؤقتاً، أما مؤبداً فهو محرم. «الدين بين السائل والمجيب لميرزا حسن الأحقافى ص ٥٣».

والحق أن زواجهن له مضار إلى جانب ما فيه من معنى إسلامى عام، وقد تقدم فى باب مقاييس اختيار الزوجين ما يؤكد ذلك من حوادث ولو كانت هناك جالية مسلمة وسط أجناب لا يجوز ترك المسلمة وتزوج الأجنبية، حتى لا تتعرض المسلمات للخطأ للعدول عنهن، وقد يلجأ إلى الزواج من الأجناب، وهو الطامة الكبرى.

تنبيه:

لا يقال: لماذا لم يجرز للمسلمة أن تتزوج غير مسلم، ما دتم قد أبحتم للمسلم أن يتزوج كتابية غير مسلمة؟ والجواب ما تقدم من أن غير المسلم لا يعترف بدين المسلمة فقد يحملها على الكفر استغلالاً سيئاً لحقه فى وجوب طاعة الزوجة لزوجها، أو بسبيل الإغراء الذى تتعدد ألوانه والله سبحانه قرر أنه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً.

وقد أجمع العلماء على حرمة زواجها بغير المسلم، ويعد زنى، ولا يثبت به

نسب، ويكفر مستحله، ومن المؤسف أنه حصلت زيجات بين المسلمات والكافرين، وجاء فى التاريخ أن الفاريز، من أعضاء بعثة البرتغال فى الحبشة يروى أن الحرب التى شنت فى عهد النجاشى «لبنادينجل» كان سببها رفض ملك الملوك الزواج من ابنة ملك «هيدا» وهو مسلم. فكانت الامارات التى يحكمها المسلمون على حدود الحبشة يتقربون إلى النجاشى بعقده على بناتهم^(١)، وهذا النجاشى حاربه جيوش إسلامية فى عهد سليم الأول فى القرن السادس عشر وفى الدولة الأموية بالأندلس حدثت زيجات بين المسلمين وغيرهم. ولئن جاز زواج المسلم بكتابية ونشأ عن ذلك وجود أمراء وحكام فى الدولة أمهاتهم غير مسلمات، فإن من المؤسف حدوث زواج غير المسلم من مسلمة، ومن ذلك: زواج «ونقة بن ونقة» ملك نيره «نافارا» من أرملة أمير الثغر الأعلى موسى بن فرتون بن متى بعد وفاته وكذلك زواج جميلة أخت محمود ابن عبد الجبار المصمودى الذى أعلن الثورة فى بلدة «ماردة» سنة ٢١٣هـ (٨٢٨م) على الأمير عبد الرحمن الأوسط، والذى اضطر بعد هزيمته إلى اللجوء إلى «جليقية» مع أسرته، لما مات تزوجت أخته - وكانت فارسة جميلة - بأحد حكام «جليقية» وأنجب منها ولداً أصبح بعد «قسا» على مدينة «شتياق» كبرى كنائس أسبانيا، والأميرة زائدة المسلمة زوجة المأمون بن المعتمد بن عباد التى فرت إلى قشتالة بعد مقتل زوجها على يد المرابطين عند دخولهم قرطبة، تزوجها ملك قشتالة الفونسو السادس، وأنجب منها ابنه الوحيد «سانشو» الذى قتل فى موقعة «اقليش» أمام المرابطين سنة ٥٠١هـ (١١٠٨م).

«د. أحمد مختار العبادى - مجلة عالم الفكر - يوليو وأغسطس وسبتمبر

١٨٧٩م، ص ٣٤٧».

وفى العصر الحاضر حدثت زيجات المسلمات من كفار، ونشر بعضها فى الصحف ولو أن هذه الحالات، التى يوجد غيرها كثير لم ينشر، وقعت من أفراد

(١) كتاب أضواء على الحبشة ص ٦٥.

من عامة الناس لقلنا أنها نزوة شيطانية دفع إليها تسلط الشهوة أو إغراء المال، ولكن من المؤسف أن بعضها وقع من قيادات تعليمية ومن أسر حاكمة، واستنكار الرأي العام الإسلامى لمثل هذه الحوادث لا يكفى، فقد تكثر وتستسيغها بعض الأذواق المنحرفة، ولا علاج لها إلا إقامة الحدود الشرعية. ولولا خوف زيادة التشهير لسجلت هنا بعض هذه الأسماء^(١).

٢ - عدم وجود قرابة محرمة:

إن القرابة بوجه عام دون تحديد لدرجتها كانت من العوامل القديمة فى منع الزواج بين الأقارب، ولكن بعض الأمم كانت لا ترى به بأساً إن كانت هناك مصلحة فيه، يقول الدكتور الخشاب فى كتابه «دراسات فى الاجتماع العائلى»: مانع القرابة كان موجوداً عند التوتيمين، وعرب الجاهلية، وبعض المجتمعات القديمة لم تر بأساً من زواج الأقارب، ففى مصر القديمة كان يباح زواج الأخوات وزواج الأمهات، وفى فارس لا ضير فى زواج الرجل ابنته أو أخته - لعل هذا من أثر المجوسية كما سنه زعيمهم وفعله - وفى فينيقيا وبعض القبائل الصقلبية كان زواج الأقارب منتشراً . اهـ .

ومما جاء عن المصريين القدامى فى ذلك ما نشره الدكتور حسين مؤنس^(٢) من أن زواجهم بالبنات والأخت كان جائزاً لكن غير شائع، وذكر أن رمسيس الثانى تزوج ابنته «بنت عنتا» أو «بنت عناث». وتزوج هو أكثر من عشرين. وأنجب منهن أكثر من مائة وستين اهـ.

وفى «عادات الزواج للشنتناوى» ص ٩٩ «أنه فى عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت «أهموسى نفرت أرى» زوجة لأخيها «أحموس» وكانت سيدة تدعى

(١) مجلة الأصالة الجزائرية ص ١٦ وجريدة الأهرام ٢٨/٨/١٩٧١ أن سبع حالات فى إحدى دول الخليج، وجريدة الشعب ١٥/١/١٩٥٩ عن فتاة فى دولة عربية على البحر الأبيض المتوسط...

(٢) المصور أول أبريل ١٩٥٥.

«أحموسى» زوجة لأخيها «تحتمس الأول» وكانت «آرات» زوجة لأخيها «تحتمس الرابع».

ولعل زواج الأخت عندهم مستوحى من عقيدتهم أن الإله «أوزيريس» تزوج أخته «إيزيس» ومما جاء عن اليونان القدامى ما ذكره المقريزى فى خططه عن البطالسة الذين حكموا مصر، وأصلهم من اليونان^(١). أن بطليموس شوطار حاكم الاسكندرية كان قبيحاً، تزوج أخته ثم فارقها، ثم تزوج ربيبتة التى كانت بنت أخته، ثم زوجها من ابنه المولود له من أخته، وكثرت فواحشه، ونفاه أهل الاسكندرية حتى مات، وقال المقريزى «ص ٢٤٣»: إن فيليب أبا الاسكندر زوج بنته كليوباترا إلى ختنه «أخى امرأته» وخال ولده الاسكندر، ثم اغتيل أثناء الزفاف. وكان اسم امرأته «أوليمبيا»، وتقدم فيما سبق: زواج «أكريبين» أم الطاغية «نيرون» الذى ولدته سنة ٣٧م، بعمها الامبراطور «كلوديوس»، ويقال: أنها لما ترملت وسنها ٣٨ سنة أرادت أن تصرف ابنها نيرون وكان عمره سبع عشرة سنة عن الفتيات. فحاولت أن يتخذها عشيقه له، لكنه أبى.

وذكروا أن «كليوباترا» تزوجت أباها بطليموس، وكان سنها اثنتى عشرة سنة، وسنه عشر سنوات، وأن هناك سبع نساء سمين جميعاً باسم كليوباترا فى تاريخ مصر تزوجن بأخوتهن وكانوا يسمون أيضاً باسم بطليموس، وكان من أسباب زواج الأخوات المحافظة على نقاء الدم. وهو ضار من الوجهة الطبية، وإن كانت له فوائد فى توارث الصفات والأخلاق، ويذكر فى الأساطير الأسبانية أن أسرة من أسرها المالكة كانت بشرتها تمتاز بالبياض، وكانت تحرص على زواج الأقارب خوفاً على تلوث الدم وتغير اللون، وكان الشعب أسمر الجلد، ولما كانت البشرة البيضاء تظهر فيها أوردة الدم بلون أزرق ظن الشعب أن الأسرة المالكة دمها أزرق، وصار ذلك علامة على النبيل والشرف الملكى^(٢).

(١) ج ١ ص ٢٤٩.

(٢) د. حسن فريد أبو غزالة، من إذاعة الكويت صباح الأحد ١٩٧٤/٢/٣.

وذكروا أن قبائل التنجس كان فيها زواج الرجل بأخت زوجته^(١) وجاء في زاد المعاد « جء ص ٧ » لابن القيم : أن فيروز الديلمي أسلم وتحتة أختان، فقال له النبي ﷺ : « اختر أيهما شئت »^(٢).

والأديان السماوية كانت تعتبر القرابة على تفاوت في درجاتها من موانع الزواج، وجاء عن اليهود في أسفارهم كلام كثير عن حب سليمان لأخته من أبيه، وقد أكد ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان ص ١٤١» أن نكاح الأخت أو المحارم لم يكن مباحاً في الأديان السماوية قبل الإسلام كما ادعى اليهود.

في أسفار اليهود لا يتزوج الرجل أخته غير الشقيقة أو زوجة ابنه أو خالته أو عمته ولا يتزوج من أرملة أخيه أو من أخت زوجته إبان حياة زوجته. ولا يتزوج الرجل من امرأة أبيه ولا من كنته، ولا يجمع الرجل بين المرأة وأمها ولا يتزوج بامرأة عمه « سفر اللاويين : اصحاح ١٨ : ٦-١٨ واصحاح ٢٠ : ١١-٢٠ » وزاد التلمود أنه يحرم على الرجل أن يتزوج مطلقة التي تزوجت مرة أخرى ثم ترملت أو التي طلقت للمرة الثانية « عادات الزواج للشنتناوى ص ٤٧ ».

والإسلام حرم نكاح الأقارب من درجة معينة كما سيأتى بيانه وكان لهذا التحريم حكمة، فهو إلى جانب ما سبق بيانه في باب مقاييس اختيار الزوجين، يتنافى مع الطبع السليم، إذ كيف تقبل نفس الولد على الاتصال بأمه أو بنته مثلاً. ذلك لا يأتيه إلا من فيهم شذوذ. كالأمثلة التي ذكرت عن اليونانيين من قبل، ولو لم يحرم تناكح الأقارب لجاز الخطأ مع غير الزوجة لكثرة الاختلاط بينهم، بل لجاز وقوع الشاب في خطأ الزنى مع أمه أو أخته لكثرة اختلاطهم بحكم ظروف المعيشة في الأسرة وسهولة الاطلاع على العورات لرفع الكلفة بين من ينضمون في خلية واحدة، وهذا يؤدي إلى الاتصال الجنسي في الأعم الأغلب، كما أن الزواج يتعرض كثيراً إلى سوء تفاهم بين الزوج وزوجته وهو

(١) انظر شيئاً عنهم في بحث المهر.

(٢) راجع كتاب حياة الحيوان « قرش » للدميرى.

مشاهد في الخلافات العائلية كثيراً، ولو جاز تناكح الأقارب لكان ذلك سبباً في
قطيعة الرحم بينهم لكثرة المنازعات، والإسلام نهى عن ذلك وأكد كثيراً صلة
الرحم، على أن الإنسان في حاجة إلى توسيع دائرته الاجتماعية في علاقاته
بالأفراد والأسر، فلو جاز التزاوج بين أفراد الأسرة لقل اتصال الإنسان بالأسر
الأخرى لعدم عقد صلة المصاهرة القوية معهم والإسلام يدعو إلى تقوية الروح
الجماعية بين المسلمين، وكما يقال: إذا تصاهر الأقارب وأهينت الزوجة أو اعتدى
عليها فمن الذي يحميها أو ينتصف لها؟ إن القريب هو الذي يقوم بهذه المهمة،
فكيف إذا كان القريب نفسه هو المعتدى.

ولوجود النص بتحريم درجات معينة من القرابة، أجمع الفقهاء على بطلان
العقد بين المحارم، بل وضع الإسلام عقوبة صارمة لمن يخالف هذا الحكم، وهي
القتل، ففي حديث ابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وقع
على ذات محرم فاقتلوه» وهو ليس خاصاً بالاتصال عن طريق الزواج، بل هو عام
في كل اتصال بزواج أو غيره.

ذكر الجوزجاني أنه رفع إلى الحجاج رجل اغتصب أخته على نفسها - لعله
بالزنى - فقال: احبس، وسلوا من هاهنا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوا
عبد الله بن مطرف فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من تخطى حرم المؤمنين
خطوا وسطه بالسيف» زاد المعاد ج ٣ ص ٢٠٢ «وقد سبق في بيان أنكحة
الجاهلية ما ورد من الذم الشديد لنوع من أنواع زواج الأقارب، وهو زوجه الأب،
وما وضع له الإسلام من عقوبة شديدة «راجع نكاح المقت» ..

قال أحمد بن حنبل: إن من تزوج امرأة أبيه أو ذات محرم يقتل، ويدخل
ماله بيت المال، وقال ابن القيم: إن هذا هو الصحيح، لأنه مقتضى حكم رسول
الله ﷺ، وقال الشافعي ومالك وأبو حنيفة: حده حد الزنى، ثم قال أبو حنيفة:
إن وطئها بعقد عزز ولا حد عليه.

ومحرمات النكاح للقرابة سبب تحريمهن إما بالنسب وإما بالمصاهرة وإما
الرضاعة، وقد نص عليهن فى القرآن الكريم والسنة المطهرة.

أما فى القرآن الكريم فى الآيتين ٢٢، ٢٣ من سورة النساء، قال تعالى:
﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَاءَ سَبِيلًا * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ
وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ
وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن
لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن
تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا *﴾.

وأما فى السنة فقولهُ ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» رواه
البخارى ومسلم عن عائشة بلفظ «الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة». إلى جانب
أحاديث كثيرة فى الرضاع ستأتى بعد.

وقوله ﷺ: «لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها» رواه
البخارى ومسلم وغيرهما، وجاء فى رواية أخرى «لا تنكح المرأة على عمتها ولا
على خالتها، ولا على ابنة أخيها، ولا على ابنة أختها، إنكم لو فعلتم ذلك
لقطعتم أرحامهن». والرواية عن أبى هريرة.

وهؤلاء المحرمات إما محرمات على التأييد، وأما محرمات تحريمًا مؤقتًا،
وإليك البيان:

أولاً - المحرمات على التأييد:

هن اللاتى كان سبب تحريمهن وصفًا غير قابل للزوال كالبنوة والأخوة، وهن
ثلاثة أنواع: محرمات بسبب النسب، ومحرمات بسبب المصاهرة، ومحرمات
بسبب الرضاعة.

١ - فالمحرمات بسبب النسب تحريمًا مؤبدًا هن:

(أ) فروع الرجل من النساء وإن نزلن، وهن: بنته، وبنت ابنه، وبنت
بنته، وكذلك من تناسل من هؤلاء، فهن جزء منه.

(ب) أصول الرجل من النساء وإن علون، وهن : أمه، وجدته أم أمه، وجدته أم أبيه، ومن علا من هؤلاء، فهو جزء منهن.

(ج) فروع أبويه من النساء وإن نزلن، وهن : أخته الشقيقة، وأخته لأب، وأخته لأم، ومن تناسل من هؤلاء الأخوات جميعاً، كبنات الأخت وبنات بنتها، وبنات ابنتها.

وبنت أخيه كذلك إذا كان شقيقه، أو لأب، أو لأم، ومن تناسل من بنت الأخ وابن الأخ.

(د) فروع الأجداد والجندات إذا انفصلن بدرجة واحدة، وهن : العممة، والخالة، لأنهما منفصلتان بدرجة واحدة، أما بنات الأعمام والعمات وبنات الأخوال والخالات ومن يتناسل منهن فحلال.

وهؤلاء يطلق عليهن المحارم، وأما الأرحام فأعم منهن يشملن من يحل زواجهن من الأقارب كبنات العم والعممة، وبنات الخال والخالة، ومن لا يحل كمن ذكرن.

وقد حرمهن الله على التأييد للحكم السابقة المذكورة فيما سبق، وأيد هذه الحكم قول الكاساني في البدائع: إن نكاح هؤلاء يفضى إلى قطع الرحم، لأن الكاح لا يخلو من مباحات تجرى بين الزوجين عادة، وبسببها تجرى الخشونة بينهما أحياناً، وذلك يفضى إلى قطع الرحم، فكان النكاح منهن سبباً لقطع الرحم ومفضياً إليه، والمفضى إلى الحرام حرام، وهذا المعنى يعم الفرق « السبع » لأن قرابتهن محرمة القطع واجبة الوصل، وتختص الأمهات بمعنى آخر، وهو أن احترام الأم وتعظيمها واجب، ولهذا أمر الولد بمصاحبة الوالدين بالمعروف وخفض الجناح لهما والقول الكريم في خطابهما، ونهى عن التأفيف لهما. فلو جاز النكاح، والمرأة تكون في طاعة الزوجة، وطاعته مستحقة عليها، للزمها ذلك، وأنه ينافى الاحترام، فيؤدى إلى التناقض اهـ.

وقال الدهلوى فى كتابه « حجة الله البالغة » - موضحاً أنه لو جاز نكاح

الأقارب لوجب عدم تلاقى الرجال الأقارب بقريباتهن حتى لا يتولد الطمع فيهن، وإذا منعنا التقاء الأخ بأخته أو الرجل بعمته لكان الحرج والضيق، ولما ساعد ذلك على صلة الرحم، فكان تحريم الزواج ليتيسر اللقاء من أجل صلة الرحم، ومنعاً للطمع فيهن - قال: الأصل في التحريم جريان العادة بالاصطحاب والارتباط، وعدم إمكان لزوم الستر بينهم، وارتباط الحاجات بين الجانبين على الوجه الطبيعي دون الصناعي، فإنه لو لم تجر السنة بقطع الطمع عنهن والإعراض عن الرغبة فيهن لهاجت مفاصد لا تحصى... وأيضاً لو فتح باب الرغبة فيهن ولم يسد، ولم تقم اللائمة عليهم فيه، لأفضى ذلك إلى ضرر عظيم عليهن فإنه يكون سبب عضلهن عن يرغبن فيه لأنفسهن. اهـ^(١).

٢ - والمحرمات بسبب المصاهرة على التأبید أيضاً هن:

(أ) من كانت زوجة أصله، وإن علا ذلك الأصل، سواء أكان من العصبات كأبي الأب، أم من ذوى الأرحام كأبي الأم، وسواء أدخل بها الأصل أم لم يدخل، وهؤلاء هن من عنتهن الآية الناهية عن نكاح ما نكح الآباء، الذى هو نكاح المقت، والآباء لفظ يشمل الأجداد إما على الحقيقة وإما على المجاز، ومع ذلك فالإجماع منعقد على تحريم زوجات الأجداد.

وحرمت زوجة الأب لأن زواجها يفضى إلى قطيعة الرحم، لأن الأصل لو فارقتها قد يفكر فى إعادتها فيكون زواج ابنه مانعاً لتحقيق رغبته وذلك يتنافى مع بر الآباء، وأيضاً زوجة الأب بمنزلة الأم، فلو تزوجها لكانت هى المطيعة لمن هو بمنزلة ابنها فيكون التناقض، ويكون العقوق لو أهانها، أو كلفها ما يشق عليها.

(ب) من كانت زوجة فرعه، سواء أكان من العصبات كابن الابن، أم من ذوى الأرحام كابن البنت، وسواء أدخل بها الفرع أم لم يدخل. ويشترط أن يكون الفرع من الصلب ليخرج الابن بالتبني وهو ما نصت عليه الآية ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾، والإجماع قائم أيضاً على هذا التحريم، وحكمته

(١) من كتاب الأحوال الشخصية لأبى زهرة ص ٧٠.

المحافظة على العلائق الأسرية والبعد عما يحمل الولد على عقوق أبيه، فإن الأب لو تزوج امرأة ابنه بعد أن يطلقها، ربما أراد الولد إعادتها له، فيكون زواج الأب بها مانعاً لتحقيق رغبتة، فيحتد عليه وتسوء العلاقة بينهما، هذا إلى أن زوجة الابن بمنزلة بنت الرجل فلا يصح أن يتزوج بنته ومن على شاكلتها إبقاء على المعاني الأدبية السامية.

(ج) أصول من كانت زوجته وإن علون، وهى المرادة بقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ والنص على الأمهات يدخل فيه الجدات، أو هن مقيسات على الأمهات قياساً جلياً أى بالأولى، وكذلك أجمع الفقهاء على تحريم جدات الزوجة.

ويستوى فى تحريم أم الزوجة الدخول بالزوجة وعدم الدخول بها، فالعقد على البنات يحرم الأمهات، وهذا رأى جمهور الفقهاء، بدليل ظاهر الآية فى عدم التقييد بالدخول، كما قيد فى الرثائب، ولا يعدل عن الظاهر بدون داع.

وليس هناك داع فإن المعنى مستقيم بدون التقييد بالدخول، وقد أيدت السنة هذا الظاهر وعينته، فقد روى حديث وإن كان فيه كلام لكن هناك ما يعضده من المروى بمعناه، وإفتاء كثير من الصحابة به، وهذا الحديث هو «أبما رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها أو ماتت عنده فلا بأس أن يتزوج ابنتها، وأبما رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها، أو ماتت عنده فلا يحل له أن يتزوج أمها».

وهناك رأيان آخران، أحدهما يقيد تحريم أم الزوجة بالدخول على الزوجة، ولا يكفى مجرد العقد، مثلها فى ذلك مثل الربيبة التى سيأتى الحديث عنها، وثانى الرأين لزيد بن ثابت يقول: إن حصل فراق البنت عن طلاق قبل الدخول بها حلت له أمها، وإن كان الفراق بسبب الوفاة فلا تحل، لأن الفراق بالموت كالدخول يثبت المهر كاملاً فكان مثبتاً للتحريم أيضاً.

وحكمة تحريم أم البنت بمجرد العقد على البنت ما تمس إليه الحاجة من

الاختلاط بأمها قبل الدخول للتحديث فى إجراءات الزفاف نحوه، فلو كانت غير محرمة عليه، أى يجوز له أن يتزوجها قبل الدخول ببنتها لحرم عليه الخلوة بها، ولأنه ربما لو طلق البنت قبل الدخول بها وتزوج أمها دبت العداوة فى قلب البنت نحو أمها، وقد كانت هى التى تريد أن تحظى بالزواج ويكفى أمها ما سبق لها من زواج.

(د) فروع من كانت زوجته التى دخل بها، وإن نزلت هذه الفروع كبنت الزوجة وبنت بنتها، وبنت أبنها، وقد سمت الآية هذه البنت بالربيبية، وحرمتها ثابتة سواء أكانت فى حجر زوج أمها أم لا، لأنه قيد على الغالب من الأحوال، أو وصف كاشف لا مؤسس. واعتبره الظاهرية قيدياً، تمسكاً بالنص، ولما يروى عن على فيه، وقال ابن المنذر والطحاوى: لم يثبت عن على «انظر القرطبي».

وذكر هذا الوصف لإثارة عاطفة الحنو عليها كأنها بنته. على الرغم من أنها بنت رجل آخر كان يتمتع بأمها التى صار يتمتع بها الآن بعده. والطبع ينفر غالباً من الزوج السابق ومن أولاده وكل ما يتصل به، فإذا كان القدر قد ساق أم البنت لتكون فى كنف غير أبيها وبدلاً من أن تحس بالفراغ الكبير بعد أبيها وأمها حث الإسلام على تعويضها بعض ما نقص منها وندب إلى الحنو عليها فى مقابل حنو أبيها، وإشعارها بأن أمها وإن كانت تحت غير أبيها فإن هذا الجديد فى حياة أمها كأنه لم يغير من جوها النفسى والعاطفى. ولذلك رفع الله من معنوياتها فحرمها على زوج أمها، ولا يتم التحريم إلا إذا انفصلت أمها عنها وتركتها لتعيش فى ظل الزوج الجديد أى بدخوله بها. وسواء انتقلت هذه البنت مع أمها لتعيش فى حجر الزوج، أم ظلت بعيدة عن منزل الزوجية الجديد، فإنها يجب أن تربط إليها أدبياً وروحياً وتعامل كالابنة وأقل ما يحقق هذه المعاملة الأدبية هو تحريمها على زوج أمها.

ولم يقيد تحريمها بكونها فى الحجر حقيقة إلا قول مروى عن على، لكن المحققين طعنوا فى نسبة هذا القول إليه لأنه ينافى صريح الآية أو مفهومها، حيث

لم تذكر الآية ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ الحالة التي تكون فيها البنت أى ليست فى حجره، كما نص على حالها فى الفقر السابقة ﴿ وَرَبَائِبِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ .

وحزمت الربيبة لأنها بمنزلة البنت، ويقوى وصف البنت بها عندما تكون فى الحجر، أى عند دخول الرجل بأمرها، أما قبل الدخول فما زالت بنوتها ضعيفة، وكذلك ليست هناك حاجة للاختلاط بالبنت قبل الدخول بأمرها، وأيضاً لو فارق أمها قبل أن يدخل بها، ثم تزوج بنتها لا تجد الأم من الغضاضة فى زواج بنتها منه ما تجده البنت من الغضاضة فى زواج أمها من زوجها الذى فارقها حتى قبل الدخول على ما سبق ذكره. لأن الأم مهما كان أمرها تحب الخير لبنتها أكثر من حبه لنفسها، ومن هنا لم يجد الإسلام حرجاً فى العدول عن زواج المرأة بعد العقد عليها ليطلقها ويتزوج بنتها قبل الدخول بالأم، أما بعد الدخول فقد التصقت البنت بزواج أمها التصاقاً قوياً وصارت كبنته، فلا يحل له زواجها بعد طلاق أمها المدخول بها.

وسياتى فى باب الدخول والزفاف ما يتحقق به الدخول بالمرأة، هل المراد به الوطء فقط، أم المراد ما يشمل الخلوة الصحيحة واللمس والنظر بشهوة إلى الفرج، وعلى الأول الشافعية، وعلى الثانى الحنفية.

والدخول المحرم لبنت الزوجة هو الدخول بعقد صحيح، وكذلك الدخول بغير عقد، إن كان الدخول حلالاً فى أصله كالدخول بملك اليمين أو كان حراماً فى ذاته ولكن وجدت شبهة أسقطت الحد ومحت وصف الجريمة ولم يعتبر زنى، وذلك كالدخول فى بعض الأنكحة الفاسدة أى بالعقد الفاسد، أو الوطء بشبهة، ويعتبر الدخول فى هذه الأحوال أيضاً كالعقد يحرم ما يحرمه.

أما الدخول الذى يعتبر زنى، أى بلا عقد فى غير ملك اليمين، فالشافعى يرى أنه لا يوجب تحريماً أى يجوز لمن زنى بالمرأة أن يتزوج بنتها من غيره، وكذلك يتزوج بالبنت الحادثة من هذا الزنى لأن الزنى عنده لا يتحقق به نسب، فهى ليست بنته.

وقال أبو حنيفة والأوزاعي: إن الدخول بصورة الزنى يعتبر محرماً لما يحرمه النكاح والدخول بعقد صحيح، وأما مالك فالمرؤى عنه فى الموطأ مثل قول الشافعى، وروى عنه مثل قول أبى حنيفة، وسحنون يذهب إلى أن الصحيح عند مالك ما رواه فى الموطأ وهو الموافق لرأى الشافعى، ويؤثر عن الشافعى فى التفريق بين الدخول الحلال والدخول الحرام قوله عند مناظرته لمحمد بن الحسن من أصحاب أبى حنيفة: وطاء حمدته به، ووطء رجمت به، فكيف يشتبهان؟

هذا والحكمة فى التحريم للصنفين الأخيرين، وهما أم الزوجة و بنت الزوجة، أنه موافق للفقرة السليمة، فأم الزوجة كأمه، و بنتها كبنته، وفى الحل قطيعة للرحم وزرع للعداوة فى القلوب.

٣ - والمحرمات على التأييد بسبب الرضاع هن:

(أ) الأم المرضعة، وبعبارة أعم: جميع أصوله من الرضاعة، سواء أكن من جهة الأب، كأم أبى من أرضعته وكذلك أم أبيه رضاعاً، أو من جهة الأم كأم من أرضعته، والأب الرضاعى هو زوج الأم الرضاعية الذى كان سبب اللبن الذى رضع منه الطفل، فإذا كانت امرأة متزوجة برجل أعقت منه نسلًا، فوضع طفل من لبن ذلك النسل^(١) فهو ابن للزوج، ولو كانت هى وقت الأرضاع ليست زوجة لصاحب اللبن، ودليل التحريم ﴿ وَأُمَّهَاتِكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ والأمهات شاملة لكل امرأة فى أصول هذه المرضعة.

(ب) الأخت من الرضاعة، ويعبر عنها بفروع أبويه من الرضاع وإن نزلن، سواء أكانت صلتهم من جهة الأب أم من جهة الأم، فيشمل أخته الرضاعية التى أرضعتها أمه، وفروعها، ويشمل أخته التى رضعت من امرأة كانت زوجة لأبيه. إذا رضعت من لبن كان أبوه سببه، وفروعها كذلك، ودليله ﴿ وَأَخَوَاتِكُم مِّنْ

الرَّضَاعَةِ ﴾.

(١) المراد باللبن الذى يرضع منه هذا النسل، أما صاحب اللبن فهو الرجل الذى أعقب هذا النسل.

(ج) فروعه من الرضاع، فتحرم عليه ابنته رضاعاً، وهي التي رضعت من لبن كان هو سبب وجوده، وابنة بنته من الرضاع، وهي من أرضعتها ابنته الصلبية، أو ابنته الرضاعية، وكذلك بنت أبيه من الرضاع.

(د) فروع أجداده، إذا انفصلن بدرجة واحدة، سواء أكن جدوداً من جهة الأم، أم من جهة الأب، وسواء أكانت فروعهن طريق الاتصال بينهم وبينه الأب أم الأم.

(هـ) الأصول الرضاعية لزوجته، فأمها التي أرضعتها تحرم عليه، وجدتها كذلك، سواء أكانت أم أمها رضاعاً أم أم أبيها، وسواء أدخل بزوجته أم لم يدخل، لأن الرضاع في المصاهرة كالنسب فيها.

(و) فروع زوجته من الرضاع إن دخل بزوجته، فتحرم عليه ابنتها رضاعاً، وحفيدتها رضاعاً، سواء أكان طريقها البنت، أم كان طريقها الابن.

(ز) زوجة أصله الرضاعي، وأصله الرضاعي هو من كان أباً لمن أرضعته، أو كان هو سبب اللبن الذي رضع منه.

(ح) زوجة فرعه، فتحرم عليه زوجة ابنه الرضاعي، وهو الذي رضع من ابن كان هو سببه، كما يحرم عليه زوجة ابن بنته الرضاعي، ويشمل ابن بنته الصلبية الذي أرضعته، وابن بنته الرضاعية. وتحريم هؤلاء الستة بحديث «الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة» وقد سبق، وكذلك بالاجماع بعد الآية المحرمة للأم والأخت، فهما ترمزان إلى تحريم الأصول والحواشي، ويفهم منها تحريم الفروع وبقية ما ذكرنا، وقد صح أن النبي ﷺ لما طلب إليه أن يتزوج بنت عمه حمزة قال: «لا تحل لي إنها ابنة أخي من الرضاعة، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب».

وروى أن عائشة كانت قد رضعت من امرأة أبي القعيس من ولادة منسوبة إليه، فجاء أفلح أخوه يستأذن عليها، فلم تأذن له وقالت: إنما أرضعتني امرأة أخيه، فلا آذن له حتى استأذن رسول الله ﷺ، فلما ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ

قال « ايذنى له، فإنه عمك تربت يداك » وستأتى أحاديث أخرى فى الفصل الذى سيعقد خاصاً بالرضاع، مع تحديد تطبيق الحديث الذى يقول « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » ففيه فروق تمنع تطبيق ظاهره بحذافيره .

ثانياً - المحرمات مؤقتاً :

والمحرمات مؤقتاً بسبب القرابة عن طريق النسب أو الرضاع أو المصاهرة، هن من كان سبب تحريمهن أمراً قابلاً للزوال، أى يكون تحريمهن موجوداً مدة بقاء هذا الأمر، فإن زال زال التحريم، وهن : من يدخلن تحت هذه القاعدة، كل امرأتين بينهما علاقة محرمة بحيث لو فرضت إحداهما ذكراً حرمت عليه الأخرى، ولا يشترط إمكان فرض كل منهما ذكراً كما سيأتى، بل يكفى إمكان فرض إحداهما ذكراً وهن إحدى ثلاث :

(أ) الأختان ، فلا يصح الجمع بينهما، وتبقى أخت الزوجة محرمة على زوج أختها ما دامت أختها فى عصمة هذا الزوج، فإن زالت هذه العصمة بطلاق أو موت مع اعتبارات أخرى زال التحريم وصح لهذا الزوج أن يتزوج هذه الأخت، وبتطبيق القاعدة المذكورة لو فرضت إحداهما ذكراً حرمت عليه الأخرى لأنها أخته، ودليل التحريم قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ . وكان الجمع بينهما مباحاً قبل الإسلام، فقد جمع يعقوب بين راحيل وليا .

(ب) المرأة وعمتها، فلا يصح الجمع بينهما، لأن إحداهما لو فرضت ذكراً كانت الأخرى محرمة عليه، فهو إما عم ، وإما ابن أخ، والأخرى إما عمة وإما بنت أخ، ودليل التحريم الحديث المذكور فى ص ٣٥٩، ولو فارق الرجل واحدة أو ماتت حل له زواج الأخرى، فالتحريم مؤقت .

(ج) المرأة وخالتها، فلا يصح الجمع بينهما، لأن إحداهما لو فرضت ذكراً كانت الأخرى بنت الأخ أو بنت الأخت، وهما محرمتان، ودليل التحريم الحديث السابق أيضاً كما أن الإجماع منعقد على هذا التحريم، وشذ عن الاجماع فى غير الاختين بعض الخوارج، تمسكاً بالنص فى الآية، وعدم اعتبار الحديث، وكذلك

قال الشيعة الجعفرية: يجوز الجمع بين البنت وعمتها أو خالتها برضاها «الدين بين السائل والحبيب للأحقافى ص ٥٥» ولو حصل فراق زال التحريم.

وبتطبيق القاعدة المذكورة قال أبو حنيفة والصاحبان: لا يحرم الجمع بين المرأة وزوجة أبيها، لعدم إمكان فرض إحداهما ذكراً. وهى زوجة الأب، لأنه فى هذه الحال لا يمكن اعتبارها مع هذا الفرض زوجة الأب، ومثله عدم حرمة الجمع بين المرأة وزوجة ابنها. لعدم إمكان فرض زوجة الابن ذكراً، وخالف فى هذا «زفر» والنص فى تحقيق المحرمية بأنه إذا أمكن فرض إحداهما ذكراً حرمت الأخرى ولا يشترط إمكان فرض كليهما ذكراً. ولذلك قرر عدم الجمع بين المرأة وزوجة أبيها، لأن هذه المرأة لو فرضت ذكراً حرمت عليها زوجة الأب.

وكما يحرم الجمع بين محرمين حال قيام الزوجية يحرم الجمع إذا كانت إحداهما معتدة من طلاق لبقاء حكم الزوجية فى بعض النواحي كالنفقة وأطلق أبو حنيفة العدة، وقيدها الشافعى بالعدة من طلاق رجعى، أما الطلاق البائن فلا يحرم الجمع معه أثناء العدة، لانتهاء عقد الأولى، وقال ابن المنذر، إن قول مالك مثل قول أبى حنيفة، وهناك تفصيلات فقهية فى الجمع بعقد أو عقدين يرجع إليها فى كتب الفقه «انظر كتاب أبى زهرة ص ٩١».

وحكمة التحريم فى الجمع واضحة، وهى البعد عن قطيعة الرحم، وتوفير السكن والراحة للأسرة، والجمع بين المحارم ممنوع، سواء أكانت المحرمية سببها النسب أم الرضاع، وذلك عند جمهور الفقهاء وخالف فى ذلك ابن تيمية وابن القيم، فأجاز الجمع بين المحارم رضاعاً، لعدم وجود نص بالتحريم بسببه فالصلة النسبية هى المرادة عند الاطلاق فى المحرمية، كما أن علة التحريم لا توجد أو لا تظهر فى محرمية الرضاع وهى قطيعة الرحم، لأن الصلة بين الرضعاء ليست كقوة الصلة النسبية بدليل أنها لا توجد نفقة ولا توارثاً غير التحريم فيقتصر على مورد النص وما فى معناه.

هذا، والجمع بين الأختين أو بين المرأة وعمتها وبينها وبين خالتها كما يمنع بالزواج يمنع بملك اليمين، لعموم النص، وعليه قول الجمهور والأئمة الأربعة.

هذه هي القرابة المحرمة للزواج بسبب النسب والمصاهرة والرضاع، وهناك موانع مؤقتة أخرى للزواج، ولكنها ليست موانع قرابة ستذكر بعد .

٣ - ألا يكون أحدهما محرماً :

فالعقد ممنوع ما دام الاحرام بالحج أو العمرة قائماً، فهو منع مؤقت، والمرأة محرمة على الرجل مدة بقاء الاحرام، فاذا انتهى زالت الحرمة .

روى مسلم عن عثمان بن عفان أن رسول الله ﷺ قال : « لا ينكح المحرم، ولا ينكح ولا يخطب »، لكن روى مسلم أيضاً عن أبي الشعثاء أن ابن عباس قال : تزوج رسول الله ﷺ ميمونة وهو محرم .

وإزاء هذين الحديثين ذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور علماء الصحابة ومن بعدهم إلى أن نكاح المحرم لا يصح اعتماداً على الحديث الأول، وقال أبو حنيفة والكوفيون : يصح نكاحه، للحديث الثاني . وقد أجاب الجمهور بأجوبة، منها :

١ - أنه تزوجها حلالاً، ورواه أكثر الصحابة، فقد روى مسلم عن يزيد بن الأرقم قال : حدثتني ميمونة بنت الحرث أن رسول الله ﷺ تزوجها وهو حلال . قال : وكانت خالتي وخالة ابن عباس . ولم يرو تزويجها في الاحرام إلا ابن عباس وحده، ورواية الأكثر مقدمة، خصوصاً أن ميمونة أخبرت بذلك، وكذلك يزيد، وهو أدري، وكذلك أبو رافع، لأنه كان رسولاً بين النبي وميمونة .

٢ - أو يقال : إن ابن عباس عنى بقوله : وهو محرم، أنه في الحرم ولو كان حلالاً .

٣ - أو أراد بقوله : تزوجها، بنى بها، وأما العقد فكان وهو حلال، لكن يجيب سؤال : كيف يبنى الرسول بها وهو محرم، ألا يفسد ذلك الاحرام؟ إلا أن يقال : دخل بها أي دخل قبتها ولم يباشرها، وإن كان ذلك بعيداً، فهذه الإجابة الثالثة من الجمهور غير واضحة أو غير سديدة .

٤ - أو يقال: إن ذلك من خصوصيات النبي ﷺ «راجع شرح الزرقاني على المواهب ج ٥ ص ٢٣١».

٥ - أن أبا رافع أدري وأضبط، لأنه كان بالغاً، أما ابن عباس فكان له عشر سنين.

٦ - أن ابن عباس لم يكن مع النبي ﷺ في عمرة القضية التي حصل فيها الزواج، بل كان بمكة من المستضعفين من الولدان، فروى الحادثة عن غيره.

٧ - غلط الصحابة ابن عباس، ولم يغلطوا أبا رافع.

٨ - قول أبي رافع موافق لنهي النبي ﷺ عن نكاح المحرم، وقول ابن عباس يخالفه، فأما أن يكون ذلك نسخاً أو خصوصية فلا دليل على واحد منهما.

والحكمة في النهي عن النكاح في الاحرام أنه مظنة الجماع، وهو مفسد له، بخلاف أصطحاب الزوجة معه في الاحرام، فإن النفس تواقه إلى الجديد، راغبة إلى حد ما، عمن اعتادته وطالت صحبته، وهي الزوجة، والاحرام، وهو مظهر التجرد والزهد في متاع الدنيا، يأبى أن تنتهك حرمة بأعظم لذة يتمتع بها الإنسان، وهي المباشرة الجنسية، التي قد تنسى معها الواجبات الهامة الأخرى^(١).

٤ - ألا يكون بينهما لعان :

فإذا رمى الرجل زوجته بالزنى ولم يكن هناك شهود تثبت الزنى فشهد هو أربع شهادات بالله أنه صادق في اتهامها، وقال في الخامسة عليه لعنة الله إن كان من الكاذبين، وشهدت هي أربع شهادات بالله أنه كاذب، وقالت في الخامسة: عليها غضب الله إن كان من الصادقين، فرق الإمام بينهما، ولا يحل لهما أن يتزوجا بعد ذلك أبداً للحديث الذي رواه أبو داود في سننه « المتلاعنان لا يجتمعان أبداً »، اللهم إلا إذا كذب نفسه، فإذا فعل ذلك أقيم عليه حد القذف ثمانين جلدة، لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ

(١) راجع بحث تعدد الزوجات.

شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدةً ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون *
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٠﴾ [النور: ٤، ٥] ،
وبعد ذلك تحل له فيتزوجها بعقد جديد (١).

وحكمة التفريق وتحريم الزواج أن الثقة بينهما قد فقدت، فكيف يطمئن الرجل على من رماها بالزنى، وكيف تعيش هي مع شعوره نحوها بالخيانة، فإن تاب من فعلته كان ذلك بمثابة رد اعتبار لها، وربما قبلت أن تتزوجه ثانية، خصوصاً تحت ضغط من وجود أولاد هي الكافلة لهم لأنهم ثمرة اللعان.

ثانياً - الشروط الخاصة بالزوج:

١ - أهليته للعقد بنفسه أو وليه، فإن عقد لنفسه اشترط أن يكن بالغاً عاقلاً، فإن كان صبيّاً أو مجنوناً أو سفيهاً عقد وليه، ومن الأهلية أن يكون مختاراً لأن الإكراه يبطل العقود.

٢ - علمه بحل المرأة له، وقيل عدم علمه بتحريمها عليه، فلو عقد جاهلاً بحرمتها صح العقد، فإذا ظهر أنها محرمة انفسخ العقد، وكان وطؤه لها شبهة، وأولاده ينسبون إليه، أما إذا عقد عالماً بحرمتها فالعقد باطل.

٣ - أن يكون معيناً، فلا يصح أن يزوج أحد ولدين مثلاً دون تعيين.

٤ - معرفته للمعقود عليها اسماً ونسباً أو عيناً.

٥ - ألا يكون كافراً والزوجة مسلمة لعدم التكافؤ، كما مر في ص ٣٤٤ قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠] وقد ثبت عن السلف الصالح أنهم كانوا يفرقون بين النصراني وزوجته إذا أسلمت، وفرق عمر بين رجل من بنى ثعلب أبي أن يسلم وبين زوجته التي أسلمت، وهذا العمل من الصحابة لا يكون إلا عن دليل عرفوه عن النبي ﷺ وانعقد الاجماع عليه.

(١) انظر اللعان في بحث الطلاق.

وقد قرر الفقهاء أن المسلمة لا ينعقد زواجها على غير المسلم. ولو كانا كافرين فأسلمت دونه فرق بينهما واختلفوا في وقت التفريق هل هو من وقت الإسلام أو بعده عند امتناع زوجها عن الإسلام، على أنهم قالوا: يكون التفريق عند امتناعه بعد أن تنتهي عدتها، فإن أسلم قبل انتهاء العدة فهي زوجته، وقال بعضهم بل تكون الفرقة عقب امتناعه عن الإسلام في الذميين، أما في الحريين فبانتهاؤ العدة.

وإسلام الشخص لا يكفي فيه النطق بالشهادتين، بل لا بد من البعد عن كل عمل ينافي الشهادة، كتردده على الكنائس أو الإسهام فيها... فهذا لا يدل على إذعانه للإسلام، وقد قرر علماء الكلام ذلك.

وهذا يسد الباب على من يتحايلون على زواج المسلمة بإظهار إسلامهم لكنهم مرتبطون بدينهم الأول.

ثالثاً: الشروط الخاصة بالزوجة:

١ - ألا تكون في عصمة رجل آخر، لأنه لا يصح أن تكون المرأة الواحدة في عصمة رجلين في وقت واحد، قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، والمحصنات معطوف على ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ المعمول لقوله ﴿حُرِّمَتْ﴾ ومعنى المحصنات: المتزوجات.

تنبيه:

ورد الإحصان في القرآن على أربعة معان:

(أ) التزوج كآية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ وآية ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ أى متزوجين غير زانين، ويقال فلان محصن أى متزوج، أو سبق له زواج.

(ب) الحرية، كما فسرت بذلك ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أى الحرائر، وقوله ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحِ الْمُحْصَنَاتِ﴾

المؤمنات .. ﴿ أى الحرائر، فإنه لا يجوز العدول عنهن إلى الإماء إلا عند العجز وخوف العنت .

(ج) العفة، كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وكما فسر بها ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ﴾ عند من يرى عدم تزوج الزانيات منهن .

(د) الإسلام، كما فى قوله ﴿ فَإِذَا أَحْصَنَ فَإِنَّ أَيْتَانَ بِفَاحِشَةٍ ... ﴾ أى أسلمن، على ما فسر به بذلك بعضهم .

فلا يجوز تزويج المتزوجة، أما الأمة التى سببت فى الحرب المشروعة وهى متزوجة فيجوز التمتع بها بعد الاستبراء المعروف .

وقد نزلت هذه الآية فى غزوة أوطاس عقب الفتح الأعظم لمكة، كما رواه مسلم وغيره عن أبى سعيد الخدرى قال: أصبنا سبياً من سبى أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبى ﷺ، فنزلت هذه الآية . ومما يؤسف له أن بعضاً من الساقطات يتزوجين عدة مرات، وما تزال الواحدة منهن فى عصمة رجل آخر، ولذلك عملت احتياطات عند العقد بطلب إثبات بوفاة الزوج السابق أو طلاقها منه، وإن كان التزوير قد يضيع أثر هذه الاحتياطات . وهذا الإجراء التنظيمى يؤيده الدين فهو للمصلحة ودرء المفسدة، ولا يصح من غير فاهم لدينه أن يرفض هذا الاجراء، زاعماً أنه شىء مبتدع، وضلالة فى النار .

٢ - ألا تكون معتدة للغير ولا مستبرأة، والاستبراء هو تربص الأمة مدة لمعرفة براءة رحمها، وهو أشبه بالعدة عند الحرائر، وسيأتى توضيحه . قال تعالى ﴿ وَلَا تَعْرِمُوا عِدَّةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، روى مسلم (ج ١٠ ص ١٤) عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ أتى بامرأة مُجَحَّ، أى حامل قربت ولادتها، على باب فسطاط، فقال: لعله يريد أن يلم بها - يتزوجها - فقالوا: نعم، فقال رسول الله ﷺ « هممت أن ألعنه لعناً يدخل معه قبره، كيف يورثه وهو لا يحل له، كيف يستخدمه وهو لا يحل له » .؟

وروى الترمذى، وحسنه، وغيره أيضاً من حديث رويغ بن ثابت عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماءه ولد غيره» أى لا يتزوج امرأة حاملاً حتى تضع حملها وتنتهى عدتها من زوجها السابق، وسيأتى فى بحث الطلاق مقدار العدة وما يتصل بها.

وروى مسلم حديث سبيعة الأسلمية التى توفى عنها زوجها سعد بن خولة، وهى حامل، فوضعت بعد موته بقليل، وتجملت للخطاب، فنهاها أبو السنابل بن بعكك عن ذلك حتى يمر عليها أربعة أشهر وعشر، فذهبت سبيعة إلى النبي ﷺ واستفتته فقال «قد حللت حين وضعت حملك». وقد روى عن عمر أنه عزر من تزوج امرأة قبل انقضاء عدتها وفرق بينهما وجعلها محرمة عليه إلى الأبد، وقال: أيما امرأة نكحت فى عدتها، فإن كان زوجها الذى تزوجها لم يدخل بها فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من الأول، ثم كان الآخر خاطباً من الخطاب، وإن كان قد دخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من الأول، ثم اعتدت من الآخر ثم لا يجتمعان أبداً. «الموطأ شرح السيوطى ج ٣ ص ٩» «مناهج الاجتهاد فى الإسلام لمحمد سلام مذكور ج ٢ ص ٥٤٠».

والحكمة فى اشتراط هذين الشرطين، حفظ الأنساب، واحترام حقوق الآخرين، والبعد بالزواج عن أن يكون مجرد الشهوة.

وقال العلماء فى نكاح الحامل: لو كان الحمل من زنى ففى صحة العقد قولان، أحدهما بطلانه، وهو مذهب أحمد ومالك وجمهور الفقهاء. والثانى صحته، وهو مذهب الشافعى وأبى حنيفة، ولكن لا يدخل بها إلا بعد وضع الحمل، لحديث النهى عن سقى زرع غيره.

جاء فى السنن عن سعيد بن المسيب عن بصرة بن أكثم قال: تزوجت امرأة بكرأ فى كسرهما، فدخلت عليها فإذا هى حبلى، فقال النبي ﷺ: «لها الصداق بما استحلتت من فرجها، والولد عبد لك، وإذا ولدت فاجلدوها» وفرق بينهما «زاد المعاد ج ٤ ص ٤».

وحكمه بعبودية الولد له، قيل : حكمته أنه لما كان الولد من زنى لا أب له، وقد غرته المرأة وغرم الصداق، أخدمه النبي ﷺ ولدها كالرقيق، لا أنه رقيق .
وقيل : يحتمل أن النبي ﷺ حكم برقته، عقوبة لأمه . ويكون هذا الحكم خاصاً بالنبي ﷺ لا يجوز لغيره، وخاصاً بهذا الولد أيضاً .

ويحتمل أن يكون هذا الحكم منسوخاً، وقد قيل : إنه كان في أول الإسلام يسترق الحر في الدين، وعليه حمل بيعه ﷺ لرقيق في دينه . «المصدر السابق» .

٣ - ألا تكون رقيقة والناكح حراً قادراً على طول - مهر - الحرة ، ولم يخف العنت - الزنى - وذلك صوتاً للذرية من الرق، فإن الولد يتبع أمه رقاً وحرية وهذا في زواج الأمة بعقد، أما تمتع السيد بها لأنها ملك يمينه، فإن الولد الناتج من هذا التمتع يكون حراً، ويكون سبباً في عتق أمه، التي يطلق عليها أم ولد . والإسلام من أجل هذا الغرض وهو تحرير الرقاب لا يمانع، بل لو قيل يشجع ما كان هناك بأس، في التمتع بملك اليمين، بدون حد . وليس الغرض إطلاق الحرية للشعب من الشهوة، بل لأنه سبيل تحرير الرقيق . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ... ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النساء: ٢٥] فيفهم من هذا عدم حل الأمة إلا عند العجز عن مهر الحرة وخوف الوقوع في الزنى لو لم يتزوج، ولم يشجعه القرآن خشية رق النسل، بل ندب إلى الصبر ومقاومة الشهوة حتى يغنيه الله ويتزوج حرة، وبالأولى لا يصح زواجه بالأمة وعنده حرة في عصمته .

٤ - ألا تكون كلها أو بعضها ملكاً للناكح باليمين، فإن الملك أقوى من النكاح في الاستمتاع، وذلك لتعدد الانتفاع بالمرأة المملوكة، أما المتزوجة فلا ينتفع منها بغير الاستمتاع .

٥ - ألا تكون خامسة لأربعة تحت يده، فإن الزيادة على الأربع في عصمة

واحدة حرام، وتوضيح ذلك مذكور في بحث تعدد الزوجات، ويستوى في ذلك أن يكن في عصمته أو في عدة طلاق معه، فالمعتدة الرجعية بالذات في حكم الزوجة لا يجوز للرجل أن يتزوج خامسة حتى تنتهي عدة المطلقة، وأما عدة الطلاق من البائن ففيها خلاف، أجاز الشافعي الزواج فيها ومنعه أبو حنيفة.

ومما يدل على بطلان الجمع بين أكثر من أربع حديث غيلان الثقفى لما أسلم وتحتة عشرة، أمره النبي ﷺ بامساك أربعة ومفارقة سائرهن، وجاء في المطالب العالية لابن حجر «ج ٢ ص ٧٨» في رواية عن ابن عباس في مسند الحارث أن غيلان أسلم وتحتة عشر نسوة، وأن صفوان أسلم وعنده ثمان نسوة، فأمرهما النبي بامساك أربعة ومفارقة الباقي.

٦ - ألا تكون مطلقة منه ثلاثاً ولم تنكح غيره، فإن نكحت غيره نكاحاً صحيحاً ثم فارقت وانتهدت عدتها يجوز لزوجها الأول أن يتزوجها، قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا - أى للمرة الثالثة - فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وقد أجمع العلماء على ذلك. وتفصيل هذا في مبحث الطلاق.

٧ - رضا الزوجة، وقد مر ذلك واضحاً في باب مقاييس اختيار الزوجين. وبناء على هذا الشرط، هل يصح زواج الصغيرة، إن أذنها لا يصح إلا بعد بلوغها، فهو باطل قبل أن تبلغ، لكن الشافعي أجاز أن يزوج الرجل بنته الصغيرة بغير إذنها على ما مر بيانه.

وجاء في معجم المغنى لابن قدامة أن للولي إجبار الصغيرة البكر على الزواج من الكفء، مع كراهتها وامتناعها، أما البكر البالغة ففي جواز إجبارها روايتان «ص ٩٨٧». وليس لغير الأب إجبار، وفي رواية يجوز الإجبار لغيره، أما الثيب فلا يجوز إجبارها إن كانت كبيرة.

أما إن كانت صغيرة فلا يجوز أيضاً، وفي وجه يجوز، وسيأتى في تحديد السن توضيح أكثر.

وينبنى على شرط رضاها ألا تكون الزوجة يتيمة، لأن وصف اليتيم يكون

للصغيرة، أى قبل البلوغ، ورضاها لا يعتبر إلا بعد البلوغ، وقد مر فى حديث
«اليتيمة تستأمر فى نفسها، فإن صمتت فهو إذنها، وإن أبت فلا جواز عليها» .

لكن ابن القيم قال: إن وصف اليتيم لا يكون إلا قبل البلوغ، فلا يتم
بعده، فدل ذلك على اعتبار أذنها فى هذه الفترة، فيصح زواجها، وذلك مذهب
عائشة، وعليه يدل القرآن والحديث . وقال به أحمد وأبو حنيفة، قال تعالى :
﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي
يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ .. ﴾ [النساء :
١٢٧]، قالت عائشة: هى اليتيمة تكون فى حجر وليها فيرغب فى نكاحها ولا
يقسط لها سنة صداقها، فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن سنة صداقهن،
رواه مسلم فى التفسير . والبخارى جـ ٧ ص ١٠، ويراجع بحث تعدد الزوجات .

٨ - اشترط بعض الفقهاء فى المرأة ألا تكون زانية، بدليل أن مرثدا الغنوى
- وكان يحمل الأسارى بمكة^(١) استأذن النبي ﷺ فى نكاح «عناق» وكانت
بغياً، فقراً عليه ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ
مُشْرِكٌ وَحَرِّمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٣]، وقال: «لا تنكحها» رواه أبو
داود والترمذى والنسائى، والحاكم، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . قال
الخطابى : هذا خاص بهذه المرأة إذ كانت كافرة، أما الزانية المسلمة فإن العقد
عليها صحيح لا ينفسخ، وقال الشافعى : قال عكرمة : معنى الآية أن الزانى لا
يريد ولا يقصد إلا نكاح زانية . وقال سعيد بن المسيب وغيره : إن هذه الآية
منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ .. ﴾ فهى عامة .

ولكن من شرط عدم الزنى منع النسخ، لأن النبي ﷺ حث على نكاح
الحرائر والإماء، بشرط الإحصان وهو العفة ، لأن زواجها ربما يؤدي إلى فساد
أخلاق الرجل ودينه، فتلحق به غير ولده، أو تنشئ أولاده على الفساد .

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ١٦٨ .

وقد رأى ابن القيم حرمة الزواج بالزانية، وقال: التزوج بها خبيث، لقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦]، ومن أقبح القبائح أن يكون الرجل زوج بغي، وهذا مستقر في فطر الخلق، وهو عندهم غاية المسبة، وأيضاً فإن البغي لا يؤمن أن تفسد على الرجل فراشه وتعلق عليه أولاداً من غيره، وأيضاً فرق النبي بين الرجل وبين المرأة التي وجدها حبلى من الزنى - اللعان - وأيضاً: استأذن أبو مرثد النبي ﷺ في أن يتزوج «عناق» وكانت بغياً فقراً عليه آية النور وقال: لا تنكحها «زاد المعاد ج٤ ص ٧» والقرطبي ج١٢ ص ١٦٨.

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد «ج ٤ ص ١٠٣»: لو زنى بامرأة ثم أراد أن يتزوجها لا يصح إلا بعد علمه بتوبتها، وذلك بمراودتها على الزنى، فإن أبت كانت تائبة. اهـ.

وبناء على هذا لا أرى بأساً من زواج من كانت زانية إذا علمت توبتها، وذلك صوتاً لها عن التردى في الهاوية مرة أخرى، وتهيئة لجو جديد تصلح فيه ما وقع من أخطاء، وربما كان لنية الزوج دخل في تكييف هذا الحكم، فإنه لو تزوجها حباً في جمالها فقط، فقد تضعف فرصة استقامتها بالزواج، أما إن تزوجها ليعفها ويبعدها عن الفتنة فقد يصلح أمرها بالزواج، لأنه سيكون رقيباً يقظاً على سلوكها.

هذا، وقد قال العلماء: إن من تزوج بمن زنى بها جاز له وطؤها حتى لو كانت حاملاً، لأن الحمل منه ولا يدخل في النهي عن سقى الإنسان زرع غيره^(١)، لأنه زرعه. أما من تزوج بمن زنى بها غيره فإن كانت غير حامل فقد أجازوا الدخول بها بعد العقد عليها، لكن كره محمد الدخول قبل استبراء رحمها لجواز حملها، أما إن كانت حاملاً فقد سبق حكم العقد عليها والدخول بها وهو رأيان بالمنع والجواز.

(١) سبق الحديث الخاص به في ص ٣٧٤.

ثم قال العلماء: إذا تزوج رجل بامرأة ثبت أنها كانت حاملاً وقت العقد، بأن أتت بالولد لأقل من ستة أشهر، فإن العقد يكون فاسداً لفرض أن الحمل من غير زنى، إذ يحمل حال المؤمن على الصلاح (١).

هذا. وقد قال الأحناف والحنابلة: الزنا يوجب حرمة المصاهرة، فمن زنى بامرأة حرمت عليه أمها وبناتها، وحرمت هي على أبي الزانى وابنه، ولم يفرقوا بين حصول الزنا قبل الزواج أو بعده، فإذا زنى الرجل بأمر زوجته أو زنى ابن الرجل بزوجة أبيه حرمت الزوجة على زوجها مؤبداً، بل فى كتاب «ملتقى الأنهر» للأحناف: لو أيقظ زوجته ولبس معها، فوصلت يده إلى ابنته منها فقرصها بشهوة وهى ممن تشتهى فظن أنها أمها حرمت عليه الأم حرمة مؤبدة، ولك أن تصورها من جانبها بأن أيقظته هى كذلك فقرصت ابنه من غيرها «الفقه على المذاهب الخمسة لمحمد جواد مغنية».

* * *

(١) الأحوال الشخصية أبى زهرة ص ١٤١

الفصل الثانى

صيغة العقد

صيغة العقد هي العبارة التي تدل على ارتباط الرجل بالمرأة ارتباطا شرعيا تترتب عليه الحقوق والواجبات الخاصة بالعلاقة الزوجية . وقد وضع الفقهاء لها شروطا لصحتها من أهمها :

١ - أهلية العاقدين بالبلوغ والعقل، وهل يجوز أن يكون العاقد واحدا يقوم بالايجاب والقبول؟

يجوز إذا كانت للعاقد ولاية إنشاء العقد من الجانبين ولم يكن فضوليا بالنسبة لأحدهما . بأن كان وكيلا عن الرجل والمرأة . أو وكيلا من جانب وأصيلا من جانب . كأن توكله أن يزوجه من نفسه، أو وليا من الجانبين، كأن يزوج بنت ابنه من ابن عمها الذى هو حفيده أيضاً وهما فى ولايته، أو يكون وليا من جانب ووكيلا من جانب آخر، كأن يوكل رجل رجلا آخر فى أن يزوجه من ابنته التى هى فى ولايته، أو يكون وليا من جانب وأصيلا من جانب آخر، كأن يزوج نفسه من بنت عمه التى هى فى ولايته .

وقد أجاز ذلك أبو حنيفة ومحمد، وخالفهما الشافعى وزفر، وحجة الفريقين، مع بعض المسائل المستثناة مذكورة فى كتب الفقه، ونراجع فى المرجع السابق «أبو زهرة ص ٥٢» .

٢ - أن يكون الإيجاب والقبول فى مجلس واحد، ويجوز أن يتم بالكتابة والمراسلة إذا لم يكن الطرفان المتعاقدان فى بلد واحد، وهنا لا يتحتم شرط اتحاد المجلس (١) .

(١) لتوضيح هذه النقطة يرجع إلى كتاب الاحوال الشخصية لأبى زهرة ص ٤٦ .

٣ - عدم رجوع الموجب في إيجاب قبل قبول الآخر.

٤ - ألا يصدر من العاقد الثاني بعد الإيجاب ما يدل على الإعراض،
كالفصل بكلام أجنبي.

٥ - موافقة القبول للإيجاب، ولو ضمنا.

٦ - أن تكون الصيغة بلفظين، ماضيين أو أحدهما للماضي والآخر
للمستقبل مثل: زوجتك. قبلت. أو أزوجك، قبلت. أو: زوجنى وقبلت.

٧ - أن تكون منجزة غير معلقة ولا مضافة للمستقبل، فلا يصح: زوجتك
إن حضر فلان، ولا: زوجتك يوم الجمعة الآتى. لأن عقد الزواج تترتب عليه
أحكامه فور إنشائه فلا تتراخى آثاره عن السبب..

٨ - ألا يقارنها ما يدل على التوقيت، بل لابد أن تكون مؤبدة، فلا يصح:
زوجتك لمدة شهر.. لأن هذا الزواج هو زواج المتعة. وسيأتى حكمه في فصل
خاص. وقيل: ان المتعة لا بد فيها من لفظ: أتمتع. أما إن كان بلفظ الزواج أو
النكاح فلا يضر التوقيت وينعقد مؤبدا.

٩ - أن يكون العقد بلفظ يدل على النكاح حقيقة أو مجازا. مثل
زوجتك.. وقد اتفق الفقهاء على صحته بهذين اللفظين. أما غيرهما فاختلفوا.
قال الشافعى: لا يصح بدونها. لأن الشرع ورد بهما فقط. والحنفية توسعوا
فأجازوه بلفظ البيع إن دلت القرينة على أنه زواج. والمالكية والحنابلة بعضهم
أجاز وبعضهم منع. قال العلماء: الألفاظ المستعملة في العقد أربع طبقات:

(١) الزواج والنكاح. واتفق الفقهاء على صحة العقد بهما.

(ب) ألفاظ تدل على تمليك الأعيان في الحال بغير عوض كالهبة. وذلك

أن تقول المرأة للرجل: وهبتك نفسى، فإن عقد الزواج بهذا اللفظ مع استيفاء
جميع ما يشترط في النكاح من ولى وشهود وغير ذلك من الشروط. فإما أن
يذكر معه صداق أو لا يذكر، فإن ذكر فإن الشافعى يحكم ببطلانه. لأن ألفاظ
العقد عنده محصورة فى الزواج والنكاح. بل إنه لم يجعل للنبي ﷺ خصوصية

فى ذلك، فهو كباقى أفراد أمته، وأما آية «ان وهبت نفسها للنبي» فيجاب عنها بأن المراد بالهبة إسقاط المهر، وممن وافق الشافعى على هذا الثورى وأبو ثور وكثيرون من أصحاب مالك. وأجازه بعض الشافعية للنبي خاصة.

وقال أبو حنيفة ينعقد النكاح بكل لفظ يدل على التملك المؤبد، ومنه الهبة. لأن هذا اللفظ ورد فى القرآن، وهو مجاز مشهور لا تخفى فيه القرينة. وفى رواية عن مالك أنه ينعقد بلفظ الهبة والصدقة والبيع إذا قصد به النكاح. سواء ذكر الصداق أم لا، وفى رواية لأبى من ذكر المهر، وقال أحمد بانعقاد الزواج بلفظ الهبة.

أما إذا لم يذكر صداق وأريد بلفظ «الهبة» إسقاطه، فهذا الإسقاط لا يعتبر، بل يجب مهر المثل. وقال بعضهم: ذلك فى غير النبي. أما هو فلا يجب عليه مهر.

(ج) ألفاظ تدل على تملك الأعيان فى الحال بعوض إذا قصد بها الزواج وقامت القرينة الدالة على المجاز، كالبيع. فقد اختلف فيه فقهاء الحنفية وبعض المالكية بين الجواز والمنع.

(د) ألفاظ تدل على تملك المنفعة فى الحال، فالصحيح عند الحنفية عدم انعقاد الزواج بها. وإذا أرادت المرأة بلفظ: وهبت نفسى لك «أنها ملك للرجل لا تريد منه صداقا ولا تحتاج إلى ولى ولا شهود... وهو نص فى تبسيط إجراءات الزواج لشدة الرغبة فيه وسرعة إتمامه أو تأكيد كتمانها، فهو باطل بالاتفاق.

١٠ - أن تكون الصيغة بلغة مفهومة للعاقدين والشهود، واللغة العربية هى الأصل فى عقد النكاح فإن كان لا يفهمها المتعاقدان ومن يشهد على العقد فاتفق العلماء على جواز العقد بغيرها، أما إن كان فهمها حاصلًا ويمكن العقد بها، فالأئمة الثلاثة علم الجواز بغير العيبة، والشافعى يمنع العقد فى هذه الحالة بغيرها.

أما الأخرس فإن عقده تكفى فيه الكتابة أو الإشارة المفهومة .

١١ - خلو العقد من الشروط الفاسدة التى تخل بمقصود النكاح . وذلك كشرط عدم وطئها، وهو ما يحدث أحيانا فى نكاح المحلل، وكشرط خروجها من المنزل بغير إذنه .

أما الشروط التى يقتضيها النكاح كالنفقة وغيرها فلا مانع من اشتراطها . جاء فى الصحيحين - البخارى ومسلم - أن النبى ﷺ قال : « إن أحق الشروط أن توفوا ما استحللتم به الفروج » وفى الحديث « المسلمون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا » رواه الحاكم عن أنس وعائشة وصححه بلفظ « المسلمون عند شروطهم ما وافق الحق من ذلك » أخرجه فى الجامع الصغير .

ومن هنا فإن الشروط التى شرطت فى العقد يجب الوفاء بها إلا إذا تضمنت تغييرا لحكم الله ورسوله، واتفق العلماء على عدم الوفاء باشتراط ترك الوطء وترك الانفاق والخلو من المهر، واختلفوا فى شرط الإقامة فى بلد الزوجة وألا يتسرى عليها أو لا يتزوج أخرى عليها، ولهذا الشرط الأخير توضيح فى بحث تعدد الزوجات (١) .

واختلف فى شرط البكارة والنسب والغنى والجمال والسلامة من العيوب على ثلاثة أقوال، قول بالفسخ عند ظهور تخلف الشرط . وقول بعدمه، وثالث بعدم الفسخ عند عدم النسب خاصة، وعليه فيبطل شرط طلاق اختها ولا يوفى به، لكن يوفى بشرط عدم التزوج عليها : لأن فى طلاق الأخت ضررا لا يوجد فى الثانى .

قال النووى : حديث الوفاء بالشرط فيما يقتضيه النكاح من نفقة وعشرة وبالمعروف إلخ . لكن ما يخالف مقصود النكاح لا يجب الوفاء به . كألا يقسم لها . ولا يتسرى عليها ولا يسافر بها، لقول النبى ﷺ . « كل شرط ليس فى

(١) ومن هنا لا مانع من الزواج الذى يطلق عليه زواج المسيار المنتشر فى بعض البلاد الإسلامية (ينقل من كتاب : فتاوى وأحكام للمرأة المسلمة) .

كتاب الله فهو باطل» رواه البراز والطبراني عن ابن عباس وصححه . وقال أحمد وجماعة: يجب الوفاء بالشروط مطلقاً لعموم الحديث .

روى الترمذى عن عمر قال: إذا تزوج الرجل المرأة وشرط لها ألا يخرجها من مصرها فليس له أن يخرجها بغير رضاها .

رفع رجل إلى عمر قضية زوجته التي شرط لها دارها، وعزم على الرحيل إلى أرض أخرى . فقال له لها شرطها . فقال الرجل: هلك الرجل إذ لا تشاء امرأة أن تطلق زوجها إلا طلقت . فقال عمر: المؤمنون على شروطهم عند مقاطع حقوقهم . وستأتى تكملة للشروط فى الجزء الثالث « حقوق الزوجين » .

وعن على أنه سئل عن ذلك فقال، شرط الله قبل شرطها . أخرجه الترمذى أيضاً .

قال ابن قدامة فى المغنى^(١) عن حكم الشروط فى النكاح ما ملخصه:

● هناك ثلاثة أنواع من الشروط:

(أ) ما يلزم الوفاء به، وهو ما يعود إلى الزوجة نفعه، مثل أن يشترط لها ألا يخرجها من دارها أو بلدها، فإن لم يف لها فلها الفسخ، فإن شرطت عليه أن يطلق ضررتها لم يصح الشرط، وقيل: هو شرط لازم، لأنه لا ينافى العقد . ولها فيه فائدة .

(ب) ما يبطل الشرط ويصح العقد، كأن يشترط أن لا مهر لها، أو لا ينفق عليها، أو تشترط هى ألا يطأها، أو أن يكون لها النهار دون الليل، أو تنفق هى عليه . فكلها شروط باطلة . أما العقد فصحيح .

(جـ) ما يبطل النكاح من أصله، كما لو اشترط تأقيت النكاح، أو أن يطلقها لوقت بعينه، أو أن يعلق النكاح على شرط، كأن يقول: إن رضيت أمها... (ولاستكمال موضوع الشروط من حيث صحة العقد وبطلانه ومن الوفاء وعدمه يراجع بحث تعدد الزوجات) .

(١) معجم المغنى طبعة أوقاف الكويت .

الفصل الثالث

الولي والشاهدان

تقدم فى باب مقاييس اختيار الزوجين الكلام عن الولي وأهميته فى الزواج. والخلاف فى صحة العقد بدونه فيرجع إليه.

وشرط الفقهاء لصحة النكاح حضور شاهدين على الأقل، وذلك لإثبات الواقعة وضمان عدم جحودها، وإنكارها، وحفاظاً على الحقوق المترتبة على الزواج بين الزوجين، وبينهما وبين الأولاد، ومحواً للعار عن الأنساب ودفعاً للتهم والقبيل والقال إذا رأى الناس اتصال رجل بامرأة ووجود ذرية ولم يعلموا أنهما زوجان شرعيان.

على أن بعض الأئمة، انطلاقاً من هذه الحكم المذكورة للشاهدين، لم يشترط وجودهما، إذا أعلن النكاح وأشتهر بين الناس بغيرهما، وهو مذهب مالك، وبه قال بعض الصحابة والتابعين فالإعلان عنده شرط لصحة العقد، أما الشهادة فشرط لصحة الدخول، وعند مالك قول بعدم لزوم الشاهدين لصحة الدخول، بل يكفي الاعلان لصحة العقد وصحة الدخول على أن يكون الاعلان وقت العقد، ولا يجوز تأخيرها، وأجاز تأخيرها أبو ثور كما حكاه ابن رشد عنه وعن بعض الفقهاء «أبو زهرة ص ٥٦». وأهل المدينة يشترطون الاعلان دون الشهادة، وشرط بعض الصحابة الشهادة دون الإعلان كما ذهب إليه الشافعى وأبو حنيفة وأحمد والثورى.

وقد صح أن النبى ﷺ لما تزوج صفية وهو عائد من خيبر، لم يعرف الناس أولاً أن كان تزوجها أو اتخذها سرية حتى حجبتها فعرفوا أنها زوجة. ولما ذكر مسلم هذه الواقعة علق عليها النووى «ج ٩ ص ٢٢٤ - ٢٢٦» بقوله: فيه دليل على أن يصح النكاح بغير شهود إذا أعلن، وهو ما قاله المالكية ومن وافقهم، لأنه

لو استشهد لم يحف عليهم، وهذا مذهب جماعة من الصحابة والتابعين، وهو مذهب الزهري ومالك وأهل المدينة، شرطوا الإعلان دون الشهادة وقال جماعة من الصحابة ومن بعدهم تشترط الشهادة دون الإعلان، وهو مذهب الأوزاعي والثوري والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم.

وبمناسبة الاكتفاء بالإعلان، هل يكفي أن يعقد الزوجان بدون حضور شهود ثم يعلن في الصحف أنهما تزوجا، أو يعلن عن ذلك بأية وسيلة من الوسائل الحديثة؟ إن مقتضى قولهم يبرر القول بالاكتفاء بأمثال هذه الوسائل، وهو قول أبي ثور الذي يجيز تأخير الإعلان عن العقد وقول بعض الفقهاء.

قال ابن المنذر: لا يثبت في الشاهدين في النكاح خبر. وقال يزيد بن هارون: أمر الله تعالى بالإشهاد في البيع دون النكاح. فاشتراط أصحاب الرأي الشهادة في النكاح ولم يشترطوها في البيع. والشيعة يجيزون النكاح بغير شهود، وكذلك داود الظاهري، ويقال إن ابن عمر وابن الزبير فعلاه، وروى عن الحسن بن علي أنه تزوج بغير شهادة ثم أعلن «نيل الأوطار للشوكاني».

وأجمع الأئمة على أنه لو عقد سرا بدون شهادة وإعلان لم ينعقد. أما إذا عقد سرا بشهادة عدلين فهو صحيح عند الجمهور، لأن وجود شاهدين ينفي سريته، وقال مالك: لا يصح، لاشتراط الإعلان «النووي على مسلم ج ٩ ص ٢٢٧».

هذا وتأكيدا لإثبات الزواج وضمانا للحقوق المترتبة عليه وتيسيرا لفض النزاع رأت الحكومات تسجيل الزواج في سجلاتها الرسمية بمقتضى وثائق معدة لذلك. وبدون هذه الوثائق لا تسمع دعوى الزوجية ولا ما يترتب عليها من حقوق، لكن: هل الزواج الخالي من التوثيق صحيح أو لا؟

هناك زواج يعرف لدى الناس باسم الزواج العرفي، وهو زواج مستكمل لكل شروطه، لكنه لم يسجل في سجلات الحكومة لأمر من الأمور، كالحفاظ على معاش الأرملة الذي ينقطع عنها بزواجها.

وهذا الزواج صحيح شرعا. لكن الحكومة لا تسمع الدعوى به. وقد جاء فى بيان « جبهة علماء الأزهر » أن المنع من سماع دعوى الزواج العرفى حرام لا دليل عليه فى الشرع، وهو شرع حكيم تام، وقد جعل الإسلام القضاء لكل خصومة فى الإسلام، فمنع القضاء من نظر الخصومة فى زواج عرفى حرام.

وقد عانى الكثيرون من مساوىء هذا المنع بمقتضى قانون ٧٨ لسنة ١٩٣١ فى مصر، فأهدر حقوقا ومنع زيجات مشروعة من حقوقها فى النفقة والميراث والصدقات والمعاش وغيرها. . والداعون إلى منع التصديق على الزواج يدعون الى ظلم المزوجة وإعنات الذرية وإشاعة ما يجب ستره مما يتعلق بالأعراض.

لكنى أرى أن إثبات الزواج رسميا تنظيم يجب طاعة أولى الأمر فيه، والناس مقصرون فى تنفيذ هذه التعليمات، وهم لا ينفذونها غالباً لأمر غير قانونى أو لغرض غير حميد، ولو فرض ان الحكومة غير محقة فى ذلك، فإن على الذين يريدون أن يصلوا إلى حقوقهم من « الظالمين » أن يأتوا البيوت من أبوابها وهى أبواب ليس فيها معصية أبدا، فالتسجيل ليس معصية. وعلينا أن نطيع أولى الأمر فيه.

غير أنه إذا تبين للحكومة صحة ما يدعيه الزوجان بغير طريق التسجيل فالواجب قبول الدعوى وترتيب أثارها عليها. وبهذا يجب أن تستكمل القوانين لتشمل أمثال هذه الوقائع، لا أن تحصر الرسمىات فى التوثيق الكتابى. بل يكون التوثيق توكيدا للأصل وهو الشهادة. وهو ما قاله العلماء فى كتابة الدين لتقوى بها شهادة الشهود، بناء على أن الأمر بالكتابة للارشاد، فإن كان للوجوب، فهل يثبت الدين بشهادة الشهود عند عدم الكتابة أو لا يثبت؟ فيه خلاف للعلماء، والإشهاد على الزواج سنة عند الشيعة، وواجب عند الدرور، وأقله أربعة.

● وعند القائلين بوجوب الولى والشاهدين لصحة العقد، اشترطوا فيهم شروطا منها:

١ - الإسلام، وتجاوزا عن شرط الإسلام فى الولى إن كانت الزوجة كتابية،

وأما فى الشهادة فلم يتجاوز عن شرط الإسلام إلا أبو حنيفة وأبو يوسف إذا كانت الزوجة كتابية، فيصح أن يكون الشاهدان كتابيين «أبو زهرة ٥٨»، ويقال: أن نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان بن عفان كان وليها أخاها «ضبا» وكان مسلما (عيون الأخبار لابن قتيبة ج ٤ ص ٤٦).

٢ - البلوغ.

٣ - العقل لأنهما مناط التكليف واستحقاق الاستقلال بالتصرف، وقد أجاز العلماء على زواج النبى من أم سلمة، عند من قال: إن وليها كان ابنها سلمة وكان صغيرا، بأنه من خصوصيات الرسول، والبحث واسع فى زاد المعاد لابن القيم فيرجع إليه. وقيل إن وليها كان غيره.

٤ - الحرية، لأن التزويج والشهادة من باب الولاية والشهادة، والرقيق ليس أهلا لهما. ومذهب أحمد جواز شهادة العبيد، لأنه لا يوجد كتاب ولا سنة تنفيها، ونقل عن أنس أنه قال: ما علمت أحدا رد شهادة العبيد والله تعالى يقبلها يوم القيامة (أبو زهرة ص ٥٨).

٥ - الذكورة. وهى شرط فى الولى عند الشافعى، فالمرأة لا تزوج نفسها ولا تكون ولية عن غيرها. للحديث الذى رواه أصحاب السنن «لا تزوج المرأة المرأة ولا المرأة نفسها» وهذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]. وكذلك لا تعتبر عند الشافعى شهادة المرأة فى الزواج حتى لو كانت مع الرجل. وذلك صيانة واحتياطا للابضاع.

وعند الأحناف تجوز الشهادة برجل وامرأتين. ولا تجوز بهن وحدهن الا فى مسائل استثنائية. ولأن النساء وحدهن لا يكفين للاعلان. لعدم غشيان المسلمة للمجالس والمحافل، وإن كن يعلن ذلك بينهن فقط. على الغالب.

٦ - عدم اختلال التفكير بهرم أو خبل.

٧ - سماع كلام العاقدين وفهمه شرط فى الشاهدين ومعرفتهما لهذا

الكلام.

٨ - العدالة وقوامها: فعل المأمورات واجتناب المنهيات . وهو ما يعنيه قولهم: عدم الفسق، أو عدم ارتكاب الكبائر، مع القيام بأداء الواجبات، بل إن الشافعي رأى من العدالة ألا يعمل شيئاً مخالفاً بكرامته في عرف الناس حتى لو كان مباحاً، كأكله ما شيا، وكشف رأسه وأعتقد أن العدالة في عصرنا هذا في غاية الندرة . أما اشتراطها في الولي فقد قال به الشافعي وأحمد في أحد قوليهما لما روى « لا نكاح إلا بولي مرشد، وشاهدي عدل » وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد والشافعي في قول آخر لهما: إن الفاسق لا تسلب منه ولاية التزويج، لعموم الخطاب لكل المكلفين . وقالوا: انعقد إجماع الناس من لدن عهد النبي في كل العصور على عدم منع الفاسق العاقل من تزويج أولاده . وشرط عدالة الولي لا يلزم إن زوج أمته، لأن سلطته عليها بالملك لا بالولاية .

أما الشهود . فالحديث « لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل » ولأن الشهادة يقصد بها حماية الأعراض والأنساب والحقوق فلا بد أن يكون الشاهدان غير مجرحين، إلى جانب أنها تكربة لا يستحقها إلا العدول .

وهذا الشرط تمسك به الشافعي وأحمد في رواية عنه .

أما أبو حنيفة وأصحابه فلم يشترطوه ناظرين إلى أن الشهادة للاعلان وهو يحصل بغير العدول وإلى أن الفاسق له أن يزوج نفسه فيجوز أن يشهد على نكاح غيره . لكن هذه العلة لا تناهض نص الحديث المشترط للعدالة، وكذلك ليس الغرض منها فقط الاعلان، بل ضمان الحقوق، وقياس صحة شهادة الفاسق على صحة زواجه لنفسه لا يعتبر مع النص .

وقد استظهر كمال الدين بن الهمام أن الفاسق يقبل شاهداً في الزواج إذا لم يكن في حال تلبسه بالفسق، وأرى أن يتجاوز عن شرط العدالة لتعذر وجودها في هذا الزمان، بل تكون مستحبة، وبخاصة أن العقود الآن تسجل، والتسجيل ينفي إنكارها، ما لم يكن هناك تزوير، وإمكان التزوير حادث في كل شئ .

هذا، والنكاح بدون الولي والشاهدين من خصائص النبي ﷺ . لضمان عدم الجحود . كزواجه بزینب بنت جحش « انظر الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٣ ص ٢٤٦ » .

الفصل الرابع

المهر أو الصداق

سيكون الحديث عن الصداق في هذا الفصل متناولا شيئا عن فكرته في البيئات والقوانين السابقة. ونظرة الناس إليه. ثم عن الشخص الذي يدفعه، وعن مقداره. وكيف يتفق عليه، هل في صلب العقد يكون تقديره شرطا لصحته. ثم عن بعض أحكامه، كيف يلزم، وكيف يكون عند فسخ العقد أو انتهائه..

١ - المهر أو الصداق عوض يدفع عند النكاح، وكان معروفا عند كثير من الأمم السابقة كالساميين والهنود، كما عرفه الأوروبيون القدامى، وهو موجود إلى الآن في اليابان والصين، وعند جميع الأمم الإسلامية.

وهذا العوض كان يدفع أولا من الرجل وأسرته ثمنا للزوجة، كما كان يتصوره البدائيون، ويختلف قدره باختلاف الزوجة في صفاتها ومكانتها، فهو كالسلعة يساوم عليها وتوضع لها قيمة تناسبها عند الشراء، وتطور معنى الثمن فصار يدفع باسم المهر والصداق. في أوغندا تشتري المرأة بثلاثة ثيران، وفي الكردستان بخنزير صغير، وفي قبائل الكفرة بثمان بقرات، وفي السنغال بمقدار من جلود الحيوانات المتوحشة، وعند الاسكيمو بصندوق صغير من التبغ «روز اليوسف - عدد ١٢٩٩ في ٦/١٠/١٩٥٢م».

وفي «سابو» بولاية «مانيبور» بالهند يجب أن يتكرر دفع ثمن الواحدة منهن كل عام «آخر ساعة ٢٣/٧/١٩٥٢».

وفي قبائل جنوب السودان، وحول بحيرة «البرت» مهر الواحدة من النساء ثلاثون بقرة، لهذا كانت البنات أحب إلى الرجال من الأولاد، لأنهن مصدر ثراء له «رحلات محد ثابت». وقد يزوج الرجل امرأته من ابنه ليأخذ البقر منه.

وفى « بوروندى » بوسط أفريقيا مهر الزوجة من ٢ - ٣ بقرات، كما قالتها « موامى كازى » ملكة بوروندى « عاصمتها أوزمبورا » وهى رئيسة الجمعية النسائية لتعليم الخياطة والطهى، وتقول إن المرأة تشارك الرجل فى زراعة الأرض « الأهرام ٢٢ / ٢ / ١٩٦٣ ». والعروس فى قبيلة « ماندى » بالباكستان توزن، ويدفع ريال عن كل رطل فيها، ويأخذ والدها كل القيمة « آخر ساعة ٣١ / ١٠ / ١٩٥١ » (أنه من أفحش أنواع الاحتقار للمرأة، فهى تباع بالوزن كالبهائم ليؤكل لحمها، ووالدها يأخذ ثمنها كما يأخذ ثمن البقرة المبيعة تماما).

وفى قبائل التنجس فى شرقى سيبيريا (من نهر ينسى إلى شبه جزيرة كمتشكا) عندما يتزوجون يقدم أهل الرجل لوالد الفتاة هدية من حيوان « الرنه » ويسمون الهدية تورى وهى شبيهة بالمهر عند رعاة آسيا وبلاد العرب، وقد يشترك فيها بعض رجال العشيرة من أقارب الرجل .

والمهر عندهم يتفاوت بتفاوت جمال العروس ومهارتها ومركزها الاجتماعى، غير أن نصف المهر يرد لأهل الزوج كهدية للعروس مع بعض الأوانى والجلود . ويبقى المهر ملكا للعروس يرثه بناتها من بعدها .

وإذا عجز الزوج عن تقديم المهر لفترة عاش مع أسرتهامدة من الزمن يصيد معها الحيوانات معوضا بذلك المهر، وكثيرا ما تتبادل الأسر الفتيات فلا يكون بينهم مهر « كتاب الانسان والبيئة . تأليف لويس اسكندر » .

وكون المهر ثمنا للمرأة كان معتبرا عند قدماء العبريين، حيث كان فى شريعتهم جواز بيع الرجل المعوز لابنته ببيع الرقيق بثمن صريح، على شرط أن يتعهد المشتري بزواجها لنفسه أو تزويجها لأحد أبنائه، وبهذا البيع تعتبر البنت زوجة، فهو كعقد الزواج، وإن كان يعتبر فى نظر الناس أقل قيمة من الزواج الخالى من صفقة البيع هذه . ومن صور جعل المهر ثمنا للزوجة أو المتعة بها إباحة تمتع الرجل بالرقائق اللاتى يشترينهن .

والعرب قبل الإسلام كانوا يدفعون المهور كثمن للزوجة يختلف قدره باختلاف قدر المرأة، وكان التغالى فى المهر عنوانا لعلو قدر الزوجة، وضرب المثل فى ذلك بكندة حيث كان مهر البنت عندهم مائة من الابل، وهو موضع المباهاة بينهم، كما يتباهون بعلو الأنساب وعلو المنزلة الاجتماعية. فقد أمر عبد المطلب بن هاشم بمائة ناقة ومائة رطل من الذهب لزوجه فاطمة بنت عمر. وكانت البنت التى تمهر مهراً كبيراً محبوبة عند أهلها، على الرغم من كراهيتهم للبنات بصفة عامة، وكانوا يتمنون للبنت المولودة أن تكون من ذوات المهور الغالية ليستفيد منها أهلها، فكانوا هم الذين يستولون عليه. وكانت تهنتهم للرجل عند ولادة البنت «هنيئا لك النافجة» أى المعظمة لملك. ولكن بعضهم كان لا يتغالى فى طلب المهر لبناته تيسيرا لزواجهن. بل كان يرد ما دفعه الزوج إليه فرغب الناس فى بناته كثيرا، ومنهم الحرث بن هشام كما ذكر حكايته الابشيهى فى كتابه «المستطرف ج ٢ ص ١٨٨».

والفقراء من الناس كانوا يدفعون مهورا متواضعة، وقد يتغاضى عن قلّتها ولى البنت تحت ضغط الظروف أو لاعتبارات خاصة.

يقال إن المهلهل بن ربيعة لما هزم أمام بكر فى يوم «تحلاق اللمم» رحل بآل بيته مستجيرا بقبيلة «مذحج» واضطر تحت ضغطهم إلى تزويج ابنته برجل من غمار بنى جنب بمهر هو بضع رقاع من جلد، ثم قال فى ذلك شعرا يصف فيه حاله وضرورته:

أنكحها فقدما الأراقم من جند	ب وكان الحباء من آدم
ليسوا بأكفائنا الكرام ولا	يغنون عن عيلة ولا عدم
لو بأبانين جاء يخطبها	ضرج منه جبينه بدم

الأراقم حى من تغلب وهى قبيلة المهلهل. والحباء أى العطاء وهو المهر، والأدم هو الجلد، وجنب هى قبيلة وضيفة. وابانان جبلان تقيم بينهما تغلب.

والأمم التي كانت تدفع المهور كانت تدفعها إما دفعة واحدة وإما على نجوم
أى دفعلت، وكان بعض الأمم يسترد المهر عندهم إما مطلقا، وإما يسترد كله
أو بعضه عند ظهور عيب كعقم المرأة أو لم تأت له بذرية .

وإلى جانب المهر الذى يدفع كثمن للزوجة كانت تدفع هدايا عند الخطبة
أو العقد أو الزفاف . وكان هذا التقليد موجودا فى الأمم البدائية . ومنه وليمة
يقيمها أهل الزوج لأهل الزوجة عند العشائر الاسترالية والأمريكية مع تقديم
هدايا أيضا، وكانت الولائم أحيانا تتكلف كثيرا ربما تؤدى بصاحبها إلى الفقر
والافلاس، ولذلك سموها باسم يؤدى هذا المعنى . وقد تكون الهدايا متبادلة بين
الطرفين، ومازال هذا التقليد موجودا إلى الآن . وكان العرب فى هذه الولائم
ينثرون « النثار » من التمر أو النقود .

وفى بعض الأحيان يكون العوض المدفوع من الرجل ليس مالا أو عينا . بل
خدمة من الخدمات، بدلا من المال وكان الشعب العبرى يقبل ذلك . ونحن نقرأ
فى القرآن أن موسى عليه السلام تزوج بنت الشيخ الكبير على أن يكون أجيرا
عنده ثمان سنوات . قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ
عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ
عَلَيْكَ ﴾ [القصص : ٢٧] .

وكانت هذه الخدمة أحيانا امتحانا لقدرة الرجل ومعرفة بأخلاقه .

وإلى جانب هذا النظام وهو دفع المهر من الرجل للزوجة كان هناك نظام آخر
تدفع فيه المرأة عوضا للرجل، ويسمونه « دوطة » وكان سائدا عند اليونان والرومان
القدامى، وكانت الدوطة فارقا عند أثينا بين الزواج الصحيح والتسرى . وكذلك
كانت نظرة الرومان إليها بل كانت نظرهم أقوى . وكان يستوى فى تقديم
الدوطة الطبقات الغنية والفقيرة، وما يزال هذا النظام موجودا فى أوروبا إلى
اليوم . وعند اليهود والمسيحيين . والقانون الفرنسى لا يجعلها واجبة . ولكن

الناس متمسكون فيها بالمعروف القديم. وهى تعتبر ملكا للزوج وحده. أو للزوجين معا على خلاف فى ذلك عندهم.

وقد تقدم أن نظام الدوطة موجود عند اليهود والنصارى ويسمى البائنة.

ذكرت جريدة الكفاح عدد ٢٤ فى ١٢/٣/١٩٤٥م أن (جلاديز فندربلت) حفيذة فندربلت الملقب بملك السكك الحديدية كانت من أجمل النساء وأرخمهن صوتا، تعلمت الغناء من المغنى المشهور عندهم «جان دى رزكى» وكانت مشغوفة بجمع التحف، ولها خادمة تحمل شهادة عالية براتب سنوى قدره ٢٤٠ جنيها تشتغل نصف ساعة يوميا.

ومع الوضع المالى والاجتماعى لهذه البنت كان من المفروض أن المهر الذى يدفعه لها الزوج يتناسب مع قدرها، وكان يطمع فيها الكثير من الأثرياء، ومع كل ذلك فانها هى التى دفعت المهر لخطبها، وهو «الدوطة» دفعت لمن خطبها وهو الكونت «لازيوزشنى» من أشرف المجر، ستة ملايين من الجنيهات. وهو أعظم مهر عرف فى التاريخ. كما تقول هذه الجريدة أيضاً أن «مارى جوكله» دفعت «دوطة» قدرها مليونان للدوق «ماربورد».

هذه صورة عن المهر عند الأمم غير الإسلامية، استقيت كثيرا منها من كتاب «الأسرة والمجتمع» للدكتور على وافى.

٢ - أما فى الإسلام. فالمهر يدفعه الرجل ولا تدفعه المرأة، وهو عوض رمزى فى مقابل استمتاعه بها، بل فى مقابل طاعتها وخدمتها له، لأنها هى أيضاً استمتعت كما استمتع الرجل، ولذلك سماه بعضهم هدية لأن الله وصفه بقوله «نحلة» فليس فيه معنى العوض. لأنه لو كان عوضا كان مثله مثل الأجرة يجب تقديم تسميتها، وليس هو كذلك. وهو يعطى للزوجة لتستعد به فى ثياب وعطور ونحوها يقول الشيخ أبو زهرة. تشريع المهرله حكم منها:

١ - انه عون للمرأة على إعداد ملابسها وزينتها وما تحتاج إليه.

٢ - وتكريم لها، لنقل الولاية عليها من والديها إلى زوجها، فلا بد أن يكون هناك مقابل لتمتعه هو بهذه الولاية.

٣ - قال صاحب البدائع فى فوائد المهر: إن ملك النكاح لم يشرع لعينه، بل لمقاصد أخرى لا حصول لها إلا بالدوام على النكاح، والقرار عليه لا يدوم إلا بوجوب المهر بنفس العقد. لما يجرى بين الزوجين من الأسباب التى قد تحمل الزوج على الطلاق، من الوحشة والخشونة. فلو لم يجب المهر بنفس العقد لا يبالى الزوج عن إزالة الملك لأدنى خشونة تحدث بينهما، ولا يشق عليه إزالته.

ولأن مصالح النكاح ومقاصده لا تحصل إلا بالموافقة، ولا تحصل الموافقة إلا إذا كانت المرأة عزيزة مكرمة عند الزوج، ولا عزة إلا بانسداد طريق الوصول إليها بما له خطر عنده، لأن ما ضاق طريق إصابته يعز فى الأعين، وما تيسر طريق إصابته يهون فى الأعين ومتى هانت فى عين الزوج تلحقها الوحشة، فلا تحصل مقاصد النكاح «الأحوال الشخصية لأبى زهرة ص ١٧٨».

والمهر يعتبر فى نظر الإسلام للزوجة لا يحق لولى أمرها ولا لزوجها أن يأخذ منه شيئاً إلا برضاها. قال تعالى: ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾ [النساء: ٤]، والخطاب للأزواج أو للأولياء. وقال أيضاً: ﴿ وَإِن أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

كما أن الإسلام أقر تفاوته بحسب مكانة المرأة وجمالها وبحسب الاعتبارات الأخرى، وكثرت فى عبارات الفقهاء عبارة «مهر المثل» أى المهر الذى يتناسب مع مكانتها ومكانة الوسط الذى تعيش فيه أو تنتسب إليه، وذلك إذا تزوج امرأة ولم يسم لها مهراً ودخل بها، فعليه أن يدفع لها مهر المثل.

وليس للصدّاق حد أدنى فى الإسلام، فىجوز بكل ما يمول، أى له قيمة، ودليله أمر النبى ﷺ لمن أراد أن يتزوج من الواهبة نفسها للنبى، أن يلتمس ولو خاتماً من حديد. وعندما لم يجد تزوجها على ما معه من القرآن الكريم (مسلم شرح النووى ج ١ ص ٢١٤). وأخرج الترمذى أن امرأة من بنى فزارة تزوجت على نعلين. فقال رسول الله ﷺ «رضيت من نفسك ومالك لنعلين»؟ قالت: نعم. فأجازه. حديث صحيح. وفى البخارى ومسلم أن عبد الرحمن بن عوف تزوج على صدّاق قدره خمسة دراهم - وهى مقدار وزن النواة من الذهب - وأقره النبى على ذلك. ومر أن سعيد بن المسيب زوج بنته من ابن أبى وداعة على درهمين.

وهذا مذهب الإمام الشافعى وجماهير السلف والخلف وبعض أصحاب مالك. وقال مالك: أقله ربع دينار كنصاب السرقة. لكن قال القاضى عياض: هذا مما انفرد به مالك وحده. وقال أبو حنيفة وأصحابه أقله عشرة دراهم، وقيل غير ذلك. وكلهم محجوجون بحديث خاتم الحديد. وأما أكثره فلا حد له. ودليله قوله سبحانه ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

على أنه يجوز أن يكون الصدّاق منفعة، كتعلم القرآن. كما ذهب إليه الشافعى، ومنعه أبو حنيفة^(١). ومع أن الإسلام لم يجعل للمهر حداً أعلى فقد ندب إلى اتباع هدى الرسول ﷺ فيه، والميل إلى يسره ترويحاً للزواج وصرفاً للنظر عن كونه تقويماً مادياً للمرأة أو ثمناً لسلعة من السلع، وتقدم فى باب

(١) روى النسائى أن أبا طلحة خطب أم سليم، فقالت: والله يا أبا طلحة ما مثلك يرد، ولكنك رجل كافر وأنا مسلمة، ولا يحل لى أن أتزوجك، فإن تسلم فذاك مهرى فأسلم فكان ذلك مهرها. قال ثابت: فما سمعنا بامرأة قط كانت أكرم مهراً من أم سليم، فدخلت به فولدت له.

مقاييس اختيار الزوجين الترغيب في اختيار الزوجة الميسرة المهر، وروى أبو عمر التوقاتي عن عائشة وصححه عن رسول الله ﷺ: «أن أعظم النساء بركة أصبحن وجوها وأقلهن مهراً» ولأحمد والبيهقي عن عائشة بإسناد جيد «من يمن المرأة أن تيسر خطبتها وأن ييسر صداقها، وأن ييسر رحمتها» يعنى بالولادة. أخرجهما العراقي علي أحاديث الإحياء في كتاب النكاح.

روى مسلم «ج ٩ ص ٢١٥» عن عائشة قالت: كان صداق النبي ﷺ لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشا. قالت: أتدرى ما النش؟ قلت: لا. قالت: نصف أوقية، فتلك خمسمائة درهم. والمراد بالأوقية أوقية الحجاز وهي أربعون درهما^(١).

وقال عمر: ما علمت رسول الله ﷺ نكح شيئاً من نسائه. ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من أربعمائة درهم. قال الترمذي: حديث حسن صحيح. بل إن البزار روى عن أنس قال: تزوج رسول الله أم سلمة على متاع بيت قيمته عشرة دراهم. قال البزار. ورأيت في موضع آخر: تزوجها على متاع بيت ورحى قيمته أربعون درهما. رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد، وكلاهما ضعيف.

وزوج النبي ﷺ ابنته فاطمة من عليّ على أربعمائة مثقال. أي أربعمائة وثمانين (٤٨٠) درهما.

وكره النبي ﷺ التغالي في المهور ولم يرض لفقير أن يكلف نفسه فوق طاقته فيدفع مهراً كبيراً بالنسبة إليه، روى مسلم «ج ٩ ص ٢١٠ وما بعدها» حديث الرجل الذي تزوج عليّ أربع أواق. فاستنكره النبي ﷺ وقال: «كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل،!! ما عندنا ما نعطيك، ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه...».

(١) تحقيق الوزن من مجلة الأزهر عدد رجب ١٣٧٤هـ.

وما ورد أن صدقاً أم حبيبة كان أربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار فيجاب عليه - إن صح - أن الذي دفعه هو النجاشي تكريماً للنبي ﷺ .

وعمر رضى الله عنه بدت له فكرة الحد من غلاء المهور . وكاد أن يجعله أمراً لازماً لولا اعتراض العجوز عليه . وكان وقافاً عند كتاب الله .

وذكر قصته القرطبي في التفسير « ج ٥ ص ٩٩ » وابن الجوزي في سيرة عمر « ص ١٥ » وأخرجها عبد الرزاق كما روى هذا الخبر أبو يعلى عن مسروق ، وفيه . بعد أن قال : كل الناس أفتقه من عمر . إنه ركب المنبر فقال : أيها الناس إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا فى صدقاتهن على أربعمائة ، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب . وأظنه قال : من طابت نفسه فليفعل . قال الهيثمي : رواه أبو يعلى فى الكبير ، وفيه مجالد بن سعيد . وفيه ضعف . وقد وثق « المطالب العالمة لابن حجر ج ٢ ص ٥ » . وقال ابن كثير فى تفسيره : اسناده جيد قوى . وقال السيوطى : سنده جيد كما نقله عنه صاحب كتاب حسن الأسوة .

وقال القرطبي عند تفسير قوله تعالى فى سورة النساء ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ ﴾ **اِسْتِبْدَالَ زَوْجٍ ...** ﴿ : فيه دليل على جواز المغالاة فى المهور . لأن الله لا يمثّل إلا بمباح . وخطب عمر فقال : ألا لا تغالوا فى صدقات النساء ، فإنها لو كانت تكرمه فى الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ . ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتى عشرة أوقية . فقامت إليه امرأة فقالت : يا عمر . يعطينا الله وتحرمنا . أليس الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ ؟ فقال عمر : أصابت امرأة ، وأخطأ عمر . وفى رواية : فأطرق عمر . ثم قال : كل الناس أفتقه منك يا عمر . وفى أخرى : امرأة أصابت . ورجل أخطأ . وترك الإنكار . أخرج أبو حاتم البستي فى صحيح مسنده عن أبى العجفاء السلمى . وأخرج ابن ماجه فى مسنده عن أبى العجفاء وزاد بعد قوله « أوقية » : وإن الرجل ليثقل صدقة امرأته ، حتى تكون لها عداوة فى نفسه ، ويقول قد كلفت إليك عرق القرية أو عرق القرية . أى تعبت حتى حصلت على

الصدّاق وسافرت في الصحراء وعرقت واحتجت إلى الماء. (عرق بفتح العين وضمها وبفتح الراء).

وجاء في بعض الروايات ان عمر قال في نهيهِ عن المغالاة في المهر: ولو كانت بنت ذى القصة. فمن زاد ألقىت الزيادة في بيت المال، فقالت امرأة من صف النساء طويلة في أنفها فطُس.. « الفطس هو تطامن قصبه الأنف وانتشارها ».

وقال قوم: إن هذه الآية لا تعطى جواز المغالاة في المهور، لأن التمثيل بالقنطار إنما هو على جهة المبالغة. كأنه قال: وآتيتم إحداهن هذا القدر العظيم الذي لا يؤتية أحد. وهذا كقوله ﷺ: « من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة » ومعلوم أنه لا يكون مسجد كمفحص القطاة. وقد قال ﷺ لابن أبي حدرد. وقد جاء يستعينه في مهره، فسأله عنه فقال: مائتين، فغضب رسول الله ﷺ وقال « كأنكم تقطعون الذهب والفضة من عرض الحرّة، أو جبل » فاستقرأ بعض الناس من هذا منع المغالاة في المهور، وهذا لا يلزم. وانكار النبي على هذا الرجل المتزوج ليس إنكارا لأجل المغالاة في المهور. وإنما الإنكار لأنه كان فقيرا في تلك الحال. فأحوج نفسه إلى الاستعانة والسؤال، وهذا مكروه باتفاق.

وقد أصدق عمر أم كلثوم بنت علي من فاطمة أربعين ألف درهم.

ثم قال القرطبي: وأجمع العلماء على أنه لا تحديد لأكثر الصدّاق لقوله ﴿ وآتيتم إحداهن قنطارا ﴾ ويبدو أن عمر أصر على فكرته في الحد من مغالاة المهور. فقد جاء في كتاب « أدب الدنيا والدين » ص ١٣٢ أنه أخذ صدّاق أم كلثوم الذي دفعه إليها طلحة ليضعه في بيت المال. روى عبد الرحمن بن محمد قال: أصدق طلحة بن عبيد الله أم كلثوم بنت أبي بكر مائة ألف درهم. وهو أول من أصدق هذا القدر، فمر بالمال على عمر بن الخطاب فقال: ما هذا؟ قالوا: صدّاق أم كلثوم بنت أبي بكر، فقال: أدخلوه بيت المال. فأخبر بذلك طلحة. وقيل له: كلمة في ذلك، فقال: ما أنا بفاعل، لكن كان عمر يرى لي فيه حقا لا

يرده كلامي . وان كان لا يرى فيه حقا ليردنه . قال : فلما أصبح عمر أمر بالمال فدفع الى أم كلثوم .

وقد يقال : إن هذه الحادثة كانت قبل مناداته بعدم المغالاة في المهور ، وكانت أحد الأسباب في إعلان فكرته ، وقد تكون له فكرة خاصة في بعض الناس فأجاز لهم المغالاة ، إما لأنهم يستطيعون أن يدفعوا هذا المال كله . وإما مراعاة لكرامة العروس التي زف إليها هذا المهر ، كبنت أبي بكر مع طلحة ، وكبنت فاطمة بنت النبي (أم كلثوم) مع عمر نفسه .

هذا ، والمهر في الإسلام إما أن يدفع مرة واحدة ، وإما أن يدفع على نجوم أي أقساط ، وذلك حسب الاتفاق . ومن أحكام المهر أن الشريعة تلزم الرجل بدفع نصفه إن طلقها قبل الدخول ، ويسترد النصف الآخر إن كان قد دفعه كله ، أو يسقط عنه إن لم يكن قد دفعه ، فقال تعالى ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] . أما الطلاق بعد الدخول فلا يبيح له استرداد شيء من المهر .

كما أنه ليس في الإسلام نظام دفع المرأة للزوج شيئا على أنه مهر . أما إن كان ذلك من قبيل الهدايا فلا مانع منه . وقد تقدم في الخطبة حكم الهدايا بين الزوجين قبل العقد إن فسخت الخطبة كما أن الإسلام يؤكد دفع المهر ولا يبيح خلو الزواج منه كما مر في صورة نكاح الشغار ، الذي كان في الجاهلية . لقوله سبحانه ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء: ٤] ولقوله ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [النساء: ٢٤] فذكر أن النساء تطلب بدفع الأموال ، وأن الاستمتاع بهن يوجب مقابلا ، سماه أجرا . والمراد به المهر ، لقوله تعالى بعد هذه الآية ﴿ فَاذْكُرُوا أَهْلَهُنَّ وَأَتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصِنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ .

وقوله في حل المحصنات المؤمنات وأهل الكتاب ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مَحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَخَدِّي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

وهل يشترط أن يسمى المهر في صلب العقد، قال العلماء: تسن تسميته كما يسن تعيينه وتقديره في صلب العقد. لأنه أقطع للتنازع وأنفع للمرأة عند الاختلاف. فان حدث طلاق قبل الدخول وجب لها نصف المسمى. فان لم تكن هناك تسمية لم يجب لها شيء من الصداق. بل تجب المتعة، ولا تجب التسمية الا في صور، محلها في كتب الفقه، وهي تتلخص في ضمان حق من يجب حفظ مالها والعمل لمصلحتها أو لمصلحته.

ولو عقد النكاح بلا صداق صح. لكن يجب مهر المسمى. والوجوب بمجرد العقد. وقيل بالدخول كما رآه الشافعي «تفسير القرطبي ج ٥ ص ٩٩ وما بعدها. ص ١٢٨، ١٣٢».

هذا. وللمهر أحكام كثيرة وفروع فقهية متنوعة لا مجال لذكرها هنا، فيرجع إليها في كتب الأحوال الشخصية» للشيخ محمد أبي زهرة.
ومن الأحكام التي يشترك فيها الدخول الحقيقي بالزوجة والخلوة الصحيحة بها:

- ١ - تأكيد المهر كله.
 - ٢ - وجوب العدة بعد الفرقة.
 - ٣ - ثبوت النسب، وذلك قضاء لاديانة.
- وتترتب على العدة أحكامها من النفقة وعدم التزوج بخامسة وعدم الجمع بين الأختين.

وتختلف الخلوة عن الدخول في أحكام:

- ١ - عدم حرمة الريبة.
 - ٢ - عدم حل المطلقة ثلاثا.
 - ٣ - الطلاق بعدها بائن، أما في الدخول فقد يكون بائنا ورجعياً، التزوج بعد ذلك كالأبكار لا الثيبات. عدم الميراث، عدم الإحصان.
- ويمكن الرجوع في ذلك أيضاً إلى كتاب الدكتور محمد شلبي ص ٣٩٨

الفصل الخامس

تحديد سن الزواج

١ - علمت مما سبق أن التشريعات القديمة لم تهتم أولاً بموضوع تحديد السن للزواج، حتى جاء في أوروبا «جوستنيان» فحدده باثنتي عشرة سنة للبنات. وبأربع عشرة للولد، وإن كان هذا لم يحترم في أوروبا بعد دخول النصرانية إليها، كما حدث في زواج ماري ستيوارت بهنرى الثانى وسنها ست سنوات.

والزواج المبكر كان منتشرًا في بعض البلاد الشرقية في العهود القديمة. وما تزال صورته في العصر الحديث، فالهند كانت تزوج الأجنة وهى فى البطون، وقد حدث أن والد غاندى خطب له العروس «كاستورباى» وسنه سبع سنوات ولم يعلم بذلك إلا ليلة الزفاف الذى حدث وهما فى سن الثالثة عشرة، وكان قد خطب له قبلها فتاتين ماتتا على التوالى.

وفلسفة الهنود فى التبكير بالزواج تقوم على وجوب الاسراع فى إيجاد نسل كثير يقوم بالشعائر الدينية عن نفس الاب بعد موته، وإلا ذهبت هذه النفس بائسة شقية، فإن مجرد اسم الابن وهو: «بوترا» معناه «المخلص» لنفس أبيه من جهنم التى يسمونها «يوثا» وقد حكى الرحالة وكتب الكتاب أن فى بعض بلاد الهند معبدا فيه صور جنسية لتعليم صغار الأزواج كيف يقومون بالعملية الجنسية^(١).

وفى غينيا البريطانية كذلك يزوجون الصغار، وهذا من أسباب كثرة الوفيات بين المواليد، بل بين الوالدات الصغار اللاتى لا يطقن عملية الوضع. وقد ذكرت كتب الرحلات والتاريخ الاجراءات القاسية لعملية الوضع للزوجة الصغيرة، مما يتنافى مع الرحمة والكرامة الانسانية^(٢) وهذا جعل برلمان الهند يقرر

(١) رحلات محمد ثابت، كتاب: أمة تبعث لأحمد حسين ص ١٢٠.

(٢) انظر بحث «الحجاب».

فى جلسة ١٧ / ٩ / ١٩٥٤ رفع سن الزواج للبننت الى ثمان عشرة سنة، وللمذكر إلى إحدى وعشرين سنة، وكان قبل ذلك أربع عشرة، ثمان عشرة^(١)، وكان قبل ذلك بلا حدود.

ووضعت الدول، مجاراة لسنة التطور، وإدراكا لخطر الفوضى فى الزواج، حدودا للسن لا يجوز العقد قبل بلوغها، وإن كان الناس يتحايلون بطرق رسمية أو غير رسمية على إثبات بلوغ هذا السن، وقد يلجئون الى طرق أخرى يتم فيها الزواج بعيدا عن رقابة القانون. كالزواج العرفى، ثم يوثقونه عند بلوغ السن القانونية. وفى بعض بلاد الوجه القبلى فى مصر يبكر بزواج البننت خوفا عليها من العار أن تتعرض له. وبعض القرى فى مصر تزوج أولادها وهم فى مدارس المرحلة الأولى. بدافع اقتصادى تجارى أو زراعى، وفى واحة سيوة بمصر تزوج البننت وهى فى سن العاشرة تقريبا. وقد تجبر على زواج شاب مكتمل الرجولة أو رجل كبير. فلا تطيق معاشرته وتهرب منه وتزوج غيره حتى تبلغ وتحمل فتلد نسلا ضعيفا. أو تموت هى عند الولادة، أو يموت الطفل.

وفى بعض قبائل الزوج يحددون سن الزواج بعشر سنين، وهو على كل حال حد لا يتجاوز مرحلة الصغر الا بقليل، فى حين أن بعض قبائل جنوب افريقيا لا يسمح للشبان بالزواج إلا بعد بلوغ الأربعين، وفكرتهم فى ذلك أن الزواج يعتبر عائقا عن المهمة الأولى للشباب وهى الصيد والحرب، فاذا ما وصل الى سن الأربعين عدوه غير صالح لهذه المهمة، فيسمح له بالزواج ليقضى حياته الباقية وهو متعطل عن العمل الأساسى.

٢ - والاسلام لم يضع حدا لسن الزواج، وإنما جعل حد التكيف بالأوامر الدينية بوجه عام، وهو الذى يجوز عنده الاستقلال بالتصرف وتحمل نتيجة العمل، هو البلوغ، والبلوغ فى الأنثى يكون بالعادة الشهرية. وفى الذكر

(١) المصور ٢٤ / ٩ / ١٩٥٤.

بالاحتلام، وقد يحصل ذلك فى أى سن، وتتحكم فيه الى حد كبير الظروف الصحية للولد والبنت، وكذلك ظروف المناخ والبيئة والاعتبارات الأخرى، فإن لم تحصل هاتان العلامتان كان حد التكليف هو البلوغ بالسن، وهو خمس عشرة سنة قمرية.

غير أن هذا السن لم يجعله الاسلام أساساً لصحة العقد، فقد أجازة قبل البلوغ، فولى الصبى وولى البنت يتوليان عقد الزواج عنهما.

والإسلام على الرغم من أنه لم يحدد سناً للزواج يستحسن أن يتم فى وقت يدرك فيه الطرفان قيمة الحياة الزوجية، وبخاصة الولد الذى يتحمل نتائج عمله فى بناء الأسرة ومسئوليته الضخمة المتنوعة وذلك من باب مراعاة الصالح العام، وهو يستحسن أن يبكر به. لا على معنى أن يتم قبل البلوغ، ولكن فى أوائل سنوات البلوغ وهو سن الرشد والتكليف شرعاً، حيث تكون الشهوة فى هذه السنوات قوية وخصوبة الفتاة شديدة، وذلك خشية الانزلاق الى السوء عند ضعف الوازع الدينى، فالزواج خير دواء يعصمها من الفتنة، وهو يكره تأخير الزواج عن هذه الفترة مع وجود الاستطاعة وعدم الموانع الأخرى، ويحث على التبكير به للفتاة بنوع خاص، وقد سبق موقف بنات همام بن مرة من أبيهن الذى أخرج زواجهن انتظاراً لوجود الأكفاء.

٣ - واليك ما قاله العلماء فى زواج الصغيرة:

أجمع المسلمون على جواز تزويج الأب أو الجد بنته البكر الصغيرة أى التى لم تبلغ حد التكليف، على النحو الذى ذكرناه، وذلك لحديث عائشة الذى رواه مسلم: تزوجنى رسول الله ﷺ لست سنين. وبنى بى وأنا بنت تسع سنين.

وهذا فى الأب والجد. لأنهما أدرى بالبنت. ولرحمتها بها. وذلك يقتضى اختيار المصلحة لها غالباً. وقد ذهب إلى هذا الشافعى ومالك. وإذا بلغت فلا خيار لها عندهما وعند سائر فقهاء الحجاز، وقال أهل العراق: لها الخيار عند البلوغ.

أما الأولياء الآخرون غير الأب والجد، كالعم والأخ وابنيهما، فلا يجوز لأحد منهم ان يزوج الصغيرة، على ما ذهب اليه الشافعى والثورى ومالك وأحمد والجمهور، وحكموا بعدم صحة العقد، لكن أبا حنيفة وآخرين من السلف أجازوا لجميع الأولياء ذلك، ويصح العقد عندهم، ولها الخيار إذا بلغت، غير أن أبا يوسف منع الخيار.

أما الوصى الأجنبى فاتفق الجمهور على عدم جواز تزويجه حتى تبلغ، وأجازه شريح وعروة وغيرهما، وحكاه الخطابى عن مالك أيضاً.

غير أن الشافعى شرط لجواز تزويجها وصحة العقد عليها شروطاً فى مصلحتها، تتلخص فيما يأتى:

أ - ألا تكون هناك عداوة بينها وبين وليها، أو بين من يتزوجها.

ب - أن يكون الزوج كفءاً.

ج - أن يكون موسراً بحال الصداق أى معجله.

د - ألا يكون ممن تتضرر بالمعيشة معه، كأعمى وهرم مثلاً.

هـ - ألا يزوجها بدون مهر مثلها.

وهذه شروط تحقق فى الغالب مصلحة البنت الصغيرة، ومع هذا فان الشافعى كره تزويجها قبل البلوغ وقبل استئذانها، لئلا يوقعها فى أسر الزوج وهى كارهة.

ولا يعترض على هذا الاستحباب بحادث زواج النبى من عائشة فانه يجاب عليه، بأن تنظيم أمور الزواج لم يشرع بمكة. وقد كانت خطبتها أو العقد عليها بمكة. ثم بنى بها فى المدينة. وبأن هذا الزواج كان لمصلحة تفوت عليها لو انتظر والدها حتى تبلغ. فربما ينصرف النبى ﷺ عن زواجها، على أن النبى ﷺ مأمون جانبه من إلحاق ضرر بالبنت فهو رسول الرحمة وهو الأسوة الحسنة. ومن هنا كانت المصلحة فى التبكير بإجابة أبى بكر للنبى ﷺ فى زواجها، ومن من الأباء والأزواج كأبى بكر ومحمد ﷺ؟

ومثل هذا يقال فى تزويج النبى ﷺ لفاطمة من على، فقد تم وهى داخله فى سن العاشرة. كما يقول علماء الشيعة «الدين بين السائل والمجيب للحاج ميرزا حسن الحائرى الأحقافى ص ٤٥».

هذا كله فى التزويج أى العقد، أما الزفاف والدخول فان اتفق الطرفان على شىء لا ضرر فيه على الصغيرة عمل به، وان اختلفا فقال أحمد: تجبر على ذلك بنت تسع سنين دون غيرها، وقال مالك والشافعى وأبو حنيفة: حد ذلك أن تطبق الجماع. ويختلف ذلك باختلافهن، وليس له ضابط زمنى محدود، وهذا هو المعقول.

ومهما يكن من شىء فإن التبكير الشديد بالزواج - أى قبل سن الرشد وهو البلوغ شرعا - فيه إرهاب للصبي وهو لم يدرك بعد معناه وإيقاع للبنات الصغيرة فى أسر الحياة الزوجية، وهى لم تنقطع بعد من علاقتها ببلداتها وأترابها ولهوها معهن، وفى ذلك ضرر كبير على مستقبل الحياة الزوجية، وهدم مبكر لصحة الطرفين، حيث لم يكمل بعد نموها الجسمى، بل لم يكمل نموها العقلى والعاطفى.

وكم حدثت مشكلات بين الطرفين، وأقيمت قضايا بين الأسر من جراء عدم فهم المعنى الصحيح للحياة الزوجية عند الطفلين، وفى رأى أن بعض الحكومات التى حددت سن الزواج قد أحسنت صنعا فى ذلك، واعتمدت شهادات الميلاد أو تقدير الأطباء المختصين لبلوغ الحد المطلوب، وإن كان التحايل على ذلك. كما قدمت، ممكنا، وأنا أهيب بالمسلمين أن ينظروا إلى المصلحة العامة فى الزواج، وألا يندفعوا وراء مغنم مادية أو غرض شخصى فى التبكير بزواج أولادهم، فالحياة الزوجية ليست هينة. والمشكلات إذا اعترضت طريق الصغيرين مبكرة تعقدت نفوسهما وأظلمت الحياة فى وجوههما. «راجع فى هذه النقطة ما سبق فى باب مقاييس اختيار الزوجين» ص ٢٣٨، ٢٦٩.

الفصل السادس

الرضاع المحرم للزواج

سيكون الحديث في هذا الموضوع عن نقط أربعة: عدد الرضعات المحرمة، كمية الرضعة. مدة الرضاع المحرم، من يحرم به.

١ - عدد الرضعات:

لا توجد في المصحف آية تبين عدد الرضعات التي تحرم الزواج. وقد ورد أن هذه الآية نسخت تلاوتها، ففي الصحيحين عن عائشة رضی الله عنها: كان فيما نزل من القرآن «عشر رضعات معلومات يحرمن» ثم نسخن بخمس معلومات. فتوفى رسول الله ﷺ وهي فيما يقرأ من القرآن.

وجاء في الحديث النبوي «لا تحرم المصة ولا المصتان» وفي رواية عن أم الفضل بنت الجرث «لا تحرم الإملاجة والإملاجتان» وفي لفظ آخر: أن رجلا قال: يا رسول الله، هل تحرم الرضعة الواحدة؟ قال «لا» رواه مسلم عن عائشة.

● وآراء الفقهاء في عدد الرضعات تتلخص فيما يأتي:

١ - قليل الرضاع وكثيره سواء في التحريم، أي بالمرة الواحدة والمرات الكثيرة وبالقدر القليل في الرضعة الواحدة والكثير منها. وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة. وزعم الليث بن سعد أن المسلمين أجمعوا على أن قليل الرضاع وكثيره يحرم في المهمل ما يفطر به الصائم. وهذا القول رواية عن أحمد.

وحجتهم أن الله علق التحريم باسم الرضاعة، فحيث وجد اسمها وجد حكمها، ولأنه فعل يتعلق به التحريم فاستوى قليله وكثيره، وذلك للاحتياط في الأبضاع بالذات، ولأن انشاز العظم وإنبات اللحم يحصل بالقليل والكثير، ولأن أصحاب العدد اختلفت أقوالهم في الرضعة وحققتها، واضطربت أشد الاضطراب. وما كان هكذا لم يجعل الشارع له نصا لعدم ضبطه والعلم به.

ولأن النبي ﷺ لما رفعت له قضية عقبة بن الحرث الذي تزوج أم يحيى بنت أبي إهاب، وجاءت أمة سوداء فقالت: قد أرضعتها - لم يسأل عن عدد الرضعات، وهو في الصحيحين عن عقبة.

لهذه الأسباب كلها قال أصحاب هذا الرأي: إن الرضاع يحرم الزواج بصرف النظر عن كمه وكيفه، أى لم يعتدوا بعدد الرضعات ولا بالكمية التي رضعها الرضيع.

٢ - لا يثبت التحريم بأقل من ثلاث رضعات، وهو رواية ثانية عن أحمد. ودليل هذا الرأي الأحاديث التي وردت بعدم تحريم الرضعة الواحدة والرضعتين، فليكن التحريم بأكثر منهما، وأول مرتبة في الأكثرية هي الثلاث أى أنها أقل الجمع. وذلك لعموم الآية ونفى السنة تحريم مادونهما، أى ما دون الثلاث. ولأن عدد الثلاث معتبر في مواطن كثيرة.

وأصحاب هذين الرأيين السابقين الذين لم يأخذوا بالرضعات الخمس، ردوا حديث عائشة السابق، لأنها نقلته نقل قرآن، ولا يقبل فيه الآحاد، بل لا بد في قبوله من التواتر، وعلى هذا لا يثبت به حكم ما دام غير قرآن. وتوضيح هذا الرد أن عائشة لو قالت مثلاً: إن التحريم كان بعشر رضعات ثم نسخ بخمس ولم تنسب ذلك إلى القرآن لكان قولها يقبل قبول الأحاديث ويكفى في قبوله خبر الواحد ولا يشترط في نقله التواتر، أما وقد نقلته نقل قرآن، فلا يقبل من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر. ولهذا فإن قولها لا يقبل كقرآن لعدم التواتر، ولا يقبل كحديث لأنها نقلته قرآناً لا حديثاً.

وقد اجاب أصحاب الرأي الأخير، أى اشتراط الخمس، بأن خبرها يقبل قبول الأحاديث ويكفى فيه خبر الواحد، لأنه مادام لم يقبل كقرآن فليس هناك إلا أن يقبل كحديث نبوى لأنه لا يصح نسبته إليها كقول خاص بها، فإن هذا الأمر لا يقال فيه بالرأى، وما كان كذلك فقد عده رجال الحديث من السنة النبوية.

٣ - رأى الثالث من الآراء فى عدد الرضعات المحرمة للزواج أن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات، وهو مذهب الشافعى وأحمد فى ظاهر مذهبه، وقول ابن حزم، مخالفاً داود الظاهرى فى هذه المسألة، وهو أحد الروايات الثلاث عن عائشة، والرواية الثانية عنها: أنه لا يحرم بأقل من سبع رضعات، والثالثة: لا يحرم بأقل من عشر.

وحجة القائلين بالخمس حديث عائشة المذكور سابقاً فى العشر التى نسخت وأن الرسول ﷺ توفى والأمر على ذلك. أى على الخمس ولم تنسخ. قالوا: ويكفى فى هذا قول النبى ﷺ لسهلة بنت سهيل «أرضعى سالماً خمس رضعات تحرمى عليه» رواه مسلم.

قالوا: وعائشة أعلم الأمة بحكم هذه المسألة هى ونساء النبى ﷺ. وكانت عائشة إذا أرادت أن تدخل عليها أحداً أمرت إحدى بنات أخوتها أو أخواتها فأرضعته خمس رضعات.

قالوا: ونفى التحريم بالرضعة والرضعتين صريح فى عدم تعليق التحريم بالقليل والكثير، وهى ثلاثة أحاديث صحيحة صريحة. والتعليق بالخمس لا يخالف نصاً، وإنما هو تقييد لمطلق، فهو بيان لا نسخ ولا تخصيص. ومن علق التحريم بالثلاث خالف أحاديث الخمس.

٢ - مقدار الرضعة:

مقدار الرضعة يترك للعرف، لأن الرضاع ورد مطلقاً لم تبين فيه الكمية، فلو التقم الطفل الثدي فامتص منه ثم تركه باختياره من غير عارض كان ذلك رضعة، والقطع لعارض لتنفس أو استراحة يسيرة، أو شىء يلهيه ثم يعود عن قرب لا يخرج عن كونه رضعة واحدة. هذا هو مذهب الشافعى، وهناك تفصيل طويل فى المذاهب يمكن الرجوع إليه فى زاد المعاد «ج ٤٠ ص ١٧٥».

٣ - مدة الرضاع:

فى الصحيحين عن عائشة عن النبى ﷺ «إنما الرضاعة من الجماعة». وفى

الترمذى عن أم سلمة عن النبي ﷺ « لا يحرم من الرضاعة الا ما فتق الأمعاء فى الثدي وكان قبل الفطام » قال الترمذى : حديث صحيح . وفى سنن الدارقطنى باسناد صحيح عن ابن عباس مرفوعا : « لارضاع الا فيما كان فى الحولين » وفى سنن أبى داود من حديث ابن مسعود مرفوعا أيضاً « لا يحرم من الرضاع الا ما أنبت اللحم وأنشز العظم » .

وفى مسلم عن عائشة قالت : جاءت سهلة بنت سهيل إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إني أرى فى وجه أبى حذيفة من دخول سالم - وهو حليفه - فقال النبي ﷺ « أرضعيه تحرمى عليه » وفى رواية له عنها : قالت له : وكيف أرضعه وهو رجل كبير؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال « قد علمت أنه كبير » .

هل معنى هذه العبارة، أننى علمت أنه كبير، وكبره لا يمنع من جعل إرضاعه مبيحا لدخوله عليك (على معنى أنه لا يشترط أن يكون الرضيع صغيراً) .

أو أن سؤال «سهلة» كان عن كيفية إرضاعه وهو كبير . كيف يلمس ثديها أو يطلع عليه وهى أجنبية عنه، وقد يكون فيه اطلاع على أكثر من الثدي . و٤٠٧ يكون رد النبي بمثابة قوله : إنه للضرورة . والضرورات تبيح المحظورات .

أو أن المراد أن تتصرف «سهلة» فى وسيلة لإرضاعه بحيث لا يطلع عليها أو يمسهما، كأن تحلب له اللبن ويرضع هو منه .

وفى رواية لمسلم أن أم سلمة قالت لعائشة : إنه يدخل عليك الغلام الأيفع أى الطويل الكبير، مأخوذ من اليفاع وهو المرتفع من الأرض، الذى ما أحب أن يدخل على . فقالت عائشة : أمالك فى رسول الله ﷺ أسوة؟ إن امرأة أبى حذيفة قالت : يا رسول الله إن سالما يدخل على وهو رجل، وفى نفس أبى حذيفة منه شئ، فقال : « أرضعيه حتى يدخل عليك » وساق أبو داود هذا الحديث بتطويل وجاء فيه : أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس كان قد تبنى سالما،

وأنكحه ابنة أخيه هند بنت الوليد بن عتبة، وهو مولى لامرأة من الأنصار، كما
تبنى رسول الله ﷺ زيدا، وفيه: فجاءت سهلة بنت سهيل بن عمرو القرشي ثم
العامري، وهي امرأة أبي حذيفة، فقالت: يا رسول الله إنا كنا نرى سالما ولدا،
وكان يأوى معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد، ويراني فضلا، وقد أنزل الله
فيهم ما قد علمت « ادعوهم لآبائهم » فقال رسول الله ﷺ « أرضعيه » فأرضعته
خمس رضعات، فكان بمنزلة ولدها من الرضاعة، فبذلك كانت عائشة تأمر بنات
أخوتها وبنات أخواتها أن يرضعن من أحببت عائشة أن يراها ويدخل عليها، وإن
كان كبيرا، خمس رضعات، ثم يدخل عليها، وأبت ذلك أم سلمة وسائر أزواج
النبي ﷺ أن يدخلن عليهن أحدا بتلك الرضاعة من الناس حتى يرضعن في
المهد، وقلن لعائشة: والله ما ندرى لعلها كانت رخصة من النبي ﷺ لسالم دون
سائر الناس.

تدل الأحاديث المذكورة - غير حديث سهلة - على أن الرضاع المحرم هو
ما كان قبل الفطام في زمن الارتضاع المعتاد، وفيه آراء للعلماء:

١ - الرضاع المحرم ما كان في الحولين، لا ما كان بعدهما، وعليه الشافعي
وأحمد وأبو يوسف ومحمد، وصح عن عمر، وابن مسعود، وسعيد بن المسيب.
وابن حزم وداود.

٢ - الرضاع المحرم ما كان قبل الفطام. ولم يقيد بزمن، فلو فطم الرضيع وله
عام واحد واستمر فطامه ثم رضع في الحولين لم يحرم هذا الرضاع، وصح عن أم
سلمة وابن عباس وهو قول الأوزاعي.

٣ - الرضاع المحرم ما كان في الصغر، ولم يوقته هؤلاء بوقت، وزوى عن ابن
عمر وأزواج الرسول ﷺ ما عدا عائشة.

٤ - الرضاع المحرم ما كان في مدة ثلاثين شهرا. وقال به أبو حنيفة وزفر،
وفي رواية أخرى عن أبي حنيفة أنه قال كقول أبي يوسف ومحمد. أى بالقول
الأول.

٥ - الرضاع المحرم ما كان فى الحولين وما قاربهما، وهو قول مالك فى المشهور من مذهبه .

٦ - الرضاع المحرم مدته ثلاث سنين، وبه قال جماعة من أهل الكوفة .

٧ - الرضاع المحرم مدته سبع سنين . وروى عن عمر بن عبد العزيز .

٨ - وقالت طائفة من السلف والخلف : يحرم رضاع الكبير ولو أنه كان شيخا، وجحتهم حديث سهلة .

وتتلور هذه الأقوال فى قولين . الأول ان الرضاع المحرم ما كان فى الصغر، وإن اختلفوا فى تحديد مدة الصغر، وأقصاها سبع سنين، والثانى أن الرضاع المحرم ما كان فى الصغر أو الكبير على السواء، حتى لو كان الرضيع شيخا .

● حجة القول الأول :

١ - قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ

يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

٢ - حديث الدارقطنى والأحاديث المذكورة . غير حديث سهلة . وقال الذين حددوا المدة بالحولين : إن الحولين مدة الجماعة المذكورة فى الحديث الوارد بالقصر عليها . وهى مدة الثدي الذى قال فيه الحديث « لارضاع الا ما كان فى الثدي » أى فى زمنه، وهذه لغة معروفة عند العرب . يقال : فلان مات فى الثدي . أى فى زمن الرضاع قبل الفطام، ومنه الحديث المشهور « أن إبراهيم مات فى الثدي، وإن له مرضعا فى الجنة تتم رضاعه » يعنى ابنه إبراهيم .

قالوا : وأكد ذلك بقوله : « لا رضاع الا ما فتق الأمعاء وكان فى الثدي قبل الفطام » والرضاع فى الحولين هو الذى ينبت للجم وينشز العظم، بخلاف الكبير فى كل ذلك .

ورد أصحاب هذا رأى على رأى الثانى القائل بأن رضاع الكبير بحرم، بناء على حديث سهلة، ردوا بثلاثة مسالك :

(أ) أن حديث سهلة منسوخ، ولكن يرد على ذلك بعدم وجود نص يثبت النسخ، وعدم وجود بيان لتاريخ المتقدم والمتأخر من الحكمين حتى يكون الآخر هو الناسخ للأول، وبأن عائشة كيف يغيب عنها نسخته وقد روت الحديثين، ولها فيهما نقاش، فهي على دراية تامة بالموضوع.

(ب) أنه حكم مخصوص بسالم، ولا يشترط لبيان الخصوص أن ينص على أنه لا يجوز لغيره. وكون الرضاعة من الجماعة يتعين للصغير لا للكبير، لأن معناه: أن من لا يسد جوعه إلا الرضاعة من الثدي هو الصغير. لأنه لا يجد عوضاً عنه من خبز ونحوه، أما الكبير فلا يشبع برضاع الثدي. بل بالأكل المعروف لغير الرضع.

وأما حديث عائشة فإنها، وإن رأت رضاع الكبير مبيناً للتحريم لم يوافقها عليه بقية أزواج النبي ﷺ، فهو اجتهاد من كل من الطرفين، ولكل منها الأجر، أصاب أو أخطأ.

(ج) أن التحريم برضاع الكبير رخصة للحاجة، لمن لا يستغنى عن دخوله على المرأة، ويشق احتجابها عنه، وارتضاه ابن تيمية.

وقد قال هؤلاء أيضاً في رد حديث سهلة: إنه كان أول الهجرة، لأن قصته كانت عقب قوله تعالى ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ وهي قد نزلت في أول الهجرة، والرايون لأحاديث التحريم في الحولين ابن عباس وأبو هريرة، والأول قدم المدينة قبل الفتح، والثاني أسلم عام خيبر، فكلاهما قدم المدينة بعد قصة سالم في الرضاعة من امرأة أبي حذيفة.

لكن يرد على هذا الرد بأن ابن عباس وأبا هريرة سمعا من غيرهما عن الرسول ﷺ. وبأن نزول سورة الأحزاب لا يتعين أن يكون في أول أيام الهجرة، والظاهر أنها بعد غزوة الأحزاب في السنة الرابعة والخامسة إلا أن يكون أولها نزل أول الهجرة.

● حجة القول الثاني :

اعتمد أصحاب الحكم بتحريم رضاع الكبير كالصغير على حديث سهلة المذكور، وهو حديث صحيح. وقالوا: إن تحديد الحولين في الآية فائدته عند التنازع بين الأبوين على إرضاع الولد من أجل النفقة، بدليل تكملة الآية. وليس في الآية تحريم للرضاع بعد الحولين ولا انقطاعه بهما، وجاء إطلاق الرضاع في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتِكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ وعلى هذا فلا يقيد المطلق إلا بنص معتبر، وآثار التحريم برضاع الكبير جاءت مجيء التواتر فهي صحيحة.

هذه هي حجتهم، ولا يرد عليهم الاعتراض بأن رضاع الكبير خاص بسالم، كما قال بعض نساء النبي، لأن قول نساء النبي: إنه خاص بسالم، جاء بصيغة لا تفيد اليقين «وما ندرى لعله رخص لسالم». فهو ظن بلا شك، والظن لا يعارض السنن الثابتة، على أنه لو كان خاصا بسالم لنص النبي ﷺ على أنه لا يجوز لأحد غيره، كما نص على غير ذلك من الخصوصيات.

وقالوا: المجاعة حجة لنا، لأن شرب الكبير للبن يدفع مجاعته كالصغير أو قريبا منه، وقد ذكر النبي ﷺ المجاعة لرد القطرة أو المصة الواحدة التي لا تغني من جوع، ولا تنبت لحما ولا تنشز عظما، وعائشة حريصة على الشرف وستر رسول الله لا ينتهكه من لا يحل له انتهاكه، وهي المبرأة من فوق سبع سموات، وقد أعلوا حديث أم سلمة «ما فتق الامعاء في الثدي وكان قبل الفطام» بأنه منقطع، لكن خصومهم منعوا الانقطاع وأثبتوا وصله، على أن كثيرا من الصحابة قد أفتى بما أفتت به أم سلمة.

هذه هي المعركة الدائرة بين الطرفين، فأيهما أقرب للقبول؟ فقد ارتضى فقهاء المذاهب الرأي الأول فلتكن عليه الفتوى.

٤ - من يحرم بالرضاع :

لقد سبق بيان من يحرم من النساء بالرضاع «ص ٣٦٥» وإليك مزيد بيان

للموضوع :

قال تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ [النساء: ٢٣]. وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ «الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة» وفيهما عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه أريد على ابنة حمزة فقال: «إنها لا تحل لى إنها ابنة أخى من الرضاعة، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»، وفيهما عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: «أئذنى لأفلح أخى أبى القيس، فإنه عمك» وكانت امرأته أرضعت عائشة.

قال العلماء فى توضيح التحريم بالرضاع:

إن الآية ذكرت الأمهات والأخوات، ولما كان قد سمي الله المرضع أما وابنتها اختا فهم من ذلك أن الرضاع كالنسب فى التحريم، لا يقتصر على الأم والأخت فقط، بل يشمل غيرهما كما يشمل النسب غير الأم والأخت. وذكرهما فقط إشارة الى من عداهما من عمود النسب والحواشى.

وجاء حديث ابنة حمزة مؤكدا لعدم الاقتصار على الأم والأخت، فشمّل التحريم فيه ابنة الأخ من الرضاعة. كما كان حديث أفلح دالا على تحريم العم وهو أخو زوج المرضعة.

التحريم بالرضاعة كما تحرم الولادة حكم متفق عليه بين الأمة. فمن رضع من امرأة فهو كولدها الذى ولدته تماما فى حرمتها عليه كأمه التى ولدته، وزوجها كوالده. وطبق هذا على من تفرع منهما أو اتصل بهما.

قال النووى: أجمعت الأمة على ثبوت الحرمة بين الرضيع والمرضعة، فى أنه يصير ابنها يحرم عليه نكاحها أبدا، ويحل النظر إليها والخلوة بها والمسافرة، ثم قال: ولا يترتب عليه - أى الرضاع - أحكام الأمومة من كل جهة، فلا يتوارثان، ولا يجب على واحد منهما نفقة الآخر، ولا يعتق عليه بالملك، ولا ترد شهادته لها، ولا يعقل عنها - فى دفع الدية - ولا يسقط عنها القصاص بقتله، فهما كالأجنين فى هذه الأحكام. ١ هـ.

أما الرضيع فان التحريم لا يتعدى إلى غيره ممن هو فى درجته من إخوته وأخواته، فيباح لآخيه فى النسب نكاح المرضعة، أو من اتصل بها من فروع وأصول، كبناتها وجداتها وعماتها وخالاتها... ويباح لأخته من النسب زواج صاحب اللبن - وهو زوج المرضعة - وأبيه وابنه، وكذلك لا ينتشر التحريم إلى من فوقه من آباءه وأمهاته ومن فى درجتهما من العمات والحالات والأعمام والاقوال.

وقياسا على النسب فى تحريم الرضاع ما يحرم به قال الأئمة الأربعة إن المصاهرة بالرضاع تحرم أيضاً، فيحرم عليه مثلاً أم امرأته من الرضاع، وبناتها من الرضاع، ومال ابن تيمية إلى عدم التحريم.

ووضح ابن القيم فى زاد المعاد رأى شيخه ابن تيمية بأن الآية والأحاديث الخاصة بالرضاع لم تذكر المصاهرة، وأن المعانى التى تكون فى النسب وتثبت حرمة المصاهرة بسببها لا توجد فى الرضاعة. فبينهما فوارق عظيمة.

ثم قال العلماء فى ذلك إن التحريم بسبب المصاهرة ثبت من قرابة الرجل والمرأة حتى لا يكون ما يؤدي إلى قطع الرحم، ولكن لا رحم فى الرضاعة يخشى عليها، ولا نص ولا قياس يجعل أقارب المرأة رضاعاً كأقاربها نسباً، ولهذا كان الحل هو الثابت بعموم قوله تعالى ﴿ وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ ﴾.

● تنبيهات :

(أ) التنبيه الأول :

يشترط فى اللبن أن يكون له وصف اللبن ومنه اللبن والزبد والسمن - فلا يثبت التحريم بما يسمى بالمصل أو المش الحصير الذى يكون فى ثدى كبيرة السن. كما يشترط أن تكون المرضعة قد بلغت تسع سنوات تقريباً لاحتمال أنها بلغت، سواء كانت بكراً أو خلية أو غيرهما، ولبن الميتة يثبت به التحريم عند غير الشافعية « انظر الشرقاوى على التحرير ج ٢، ص ١٤١ ».

(ب) التنبيه الثانى :

يؤخذ من حديث أفلح أن لبن الفحل معتبر فى التحريم، وهذه المسألة قد خالف فيها بعض التابعين كسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وعطاء بن يسار والنخعى، فهم يرون أنه لا يكون به تحريم، وتبعهم الشافعى فى أحد قولييه .

وجمهور الصحابة والتابعين وجمهور الفقهاء على أن لبن الفحل يحرم، فإذا أرضعت الأم طفلة بلبن جاءها بسبب حمل من رجل حرمت تلك الطفلة على أقاربه، فتحرم على أخيه لأنها صارت ابنة أخيه، وتسمى مسألة «لبن الفحل» وقد جاء عن الإمام أحمد فى تفسيره لبن الفحل أن يكون للرجل امرأتان فترضع هذه صببية وهذه صببياً، لا تزوج هذه من هذا. ومما احتج به الجمهور ما رواه البخارى أن ابن عباس سئل عن رجل له امرأتان أرضعت هذه غلاماً وهذه جارياً، هل يصح للبالغ أن يتزوج الجارية؟ قال: لا، اللقاح واحد .

قال النووى: وأما الرجل المنسوب ذلك اللبن إليه لكونه زوج المرأة، أو وطعها بملك اليمين أو شبهه، فمذهبنا ومذهب العلماء كافة ثبوت حرمة الرضاع بينه وبين الرضيع ويصير ولدًا له، وأولاد الرجل أخوة الرضيع وأخواته، وتكون أخوة الرجل أعمام الرضيع، وأخواته عماته، ويكون أولاد الرضيع أولاد الرجل، ولم يخالف فى هذا إلا أهل الظاهر وابن عليه، فقالوا: لا تثبت حرمة الرضاع بين الرجل والرضيع ونقله المازرى عن ابن عمر وعائشة، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّن الرِّضَاعَةِ﴾ ولم يذكر البنت والعمة كما ذكرهما فى النسب. وقد رد الجمهور على هذا الاحتجاج بأن الآية ليس فيها نص بإباحة البنت والعمة ونحوهما، لأن ذكر الشئ لا يدل على سقوط الحكم عما سواه لولم يعارضه دليل آخر، وكيف وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بالتحريم؟ «مسلم ج ١٠ ص ١٩» (١).

(١) الباب مستوفى فى زاد المعاد ج ٤ ص ١٧١ وتفسير القرطبى ج ٥ ص ١١ .

وقد رأت اللجنة التي ألفت سنة ١٩٦٥ لمراجعة قانون الأحوال الشخصية في مصر الأخذ بمذهب من يقول: إن الرضاعة لا تحرم إلا قرابة الموضع «المرأة» وحدها، فمن أرضعته امرأة وكان لزوجها ابنة من غيرها حل له أن يتزوجها^(١).

(ج) التنبيه الثالث في بنك اللبن:

أنشئ في بعض البلاد الإسلامية بنك للبن الأمهات، يجمع اللبن من عدة نسوة ثم يخلط ويرضع منه المحتاجون من الأطفال، لأنه اللبن الأمثل أو الغذاء الأمثل في فترة الطفولة الأولى. فهل من يرضعون من هذا اللبن المجموع من عدة نساء تصير بينهم قرابة تحرم الزواج بسبب الرضاعة؟

لقد أفتى الشيخ أحمد هريدي مفتي مصر سنة ١٩٦٣م بأن التغذية باللبن المجموع في هذا البنك لا يثبت بها تحريم. وقد جاء في الفتوى:

نص في مذهب أبي حنيفة على أن الرضاع لا يحرم إلا إذا تحققت شروطه، ومنها أن يكون اللبن الذي يتناوله الرضيع لبن امرأة، وأن يصل إلى الجوف عن طريق الفم أو الانف، وألا يكون مخلوطا بغيره.

فإذا خلط اللبن بغيره، فإما أن يخلط بسائل كالماء والدواء ولبن الشاة، وإما أن يخلط بجامد من سائر أنواع الطعام، وإما أن يخلط بلبن امرأة أخرى.

فإن خلط بجامد من الطعام وطبخ معه على النار فلا يثبت به التحريم باتفاق أئمة المذاهب. سواء أكان اللبن غالبا أم مغلوباً، أما إذا لم تمسه النار فلا يثبت به التحريم أيضاً عند أبي حنيفة في الأصح. سواء أكان الطعام غالباً أم مغلوباً، لأنه إذا خلط الجاف بالمائع صار المائع تبعاً، فيكون الحكم للمتبوع وهو الجامد - الطعام - وقال أبو يوسف ومحمد: إن العبرة في ذلك بالغلبة. فإذا غلب اللبن حرم وإلا فلا يحرم.

(١) ص ٢٠ من تقرير لجنة التنسيق العليا لأعمال اللجان القانونية التابعة لرياسة الجمهورية ١٩٦٥م.

ولو خلط بالسائل كالماء والدواء ولبن الشاة فالعبرة بالغلبة . والمعتبر فى الغلبة الاجزاء أو تغيير اللون والطعم . وعند محمد رحمه الله : الغلبة إخراجة عن اللبنين . كذا فى السراج الوهاج .

ولو اختلط لبن امرأتين فقال أبو يوسف : ان العبرة بالغلبة . فأيهما كان أكثر فانه يثبت به التحريم دون الآخر . وإن استويا ثبت التحريم بهما ، وقال محمد : إنه يتعلق بالتحريم بهما جميعا ، وهو الراجح فى المذهب .

كما نصوا على أن الرضاع لا يثبت بالشك . ولا يجعل اللبن مخيضا أو رائبا أو جبنا ، ففى البدائع وغيره : لو جعل اللبن مخيضا أو رائبا أو جبنا فتناوله الصبى لا تثبت به الحرمة ، لان اسم الرضاع لا يقع عليه ، وكذا لا ينبت اللحم ولا ينشز العظم . ولا يكتفى به الصبى فى الاغتذاء ، فلا يحرم .

وفى الفتح : فلو شك فيه بأن أدخلت الحلمة فى فم الصغير وشكت فى الارتضاع لا تثبت الحرمة بالشك ، وهو كما إذا علم أن صببية أرضعتها امرأة من قرية ولا يدري من هى ، فيتزوجها رجل من أهل تلك القرية صح ، لأنه لم يتحقق المانع فى خصوصية امرأة .

وفى البحر عن الخانية : صببية أرضعها قوم كثير من أهل قرية أقلهم أو أكثرهم ، ولا يدري من أرضعنها ، وأراد واحد من أهل تلك القرية أن يتزوجها . قال أبو القاسم الصفار : إذا لم تظهر له علامة ولا تشهد له بذلك يجوز زواجها .

وفى الفتاوى الهندية : صببية أرضعها بعض أهل القرية لا يدري من أرضعها منهن ، فتزوجها رجل من أهل تلك القرية فهو فى سعة من المقام معها فى الحكم ، كذا فى المضمرة .

ويقول الشيخ هريدى بعد نقل ذلك كله :

وبالنظر فى موضوع السؤال يتبين أن اللبن المجفف بطريقة التبخير . والذى صار مسحوقا جافا لا يعود سائلا بحيث يتيسر للأطفال تناوله إلا بعد خلطه بمقدار من الماء يكفى لإذابته ، وهو مقدار يزيد على حجم اللبن ويغير من أوصافه

يعتبر غالبا عليه، وبالتطبيق على ما ذكرنا من الأحكام يثبت التحريم شرعا بتناوله في هذه الحالة .

هذا، ومن جهة أخرى فإن لبن الرضاعة الذي يجمع لإعداده لتغذية الأطفال بأحد الطريقتين المشار إليهما يجمع من نساء عديدات غير محصورات ولا متعينات بعد الخلط .

والنصوص الفقهية السابقة واضحة في أنه لا مانع من الزواج بين الصغيرين اللذين تناولا هذا اللبن من الوجهة الشرعية، لعدم امكان إثبات التحريم في حالة عدم تعيين السيدة أو السيدات اللاتي ينسب إليها أو اليهن لبن الرضاعة .

أما في حالة تبريد اللبن وبقائه مدة شهرين أو ثلاثة صالحا للتناول وإعطائه للأطفال بحالة طبيعية، فإن عامل الجهالة يبقى في هذه الحالة أيضاً، ومن ثم لا يكون هناك ما يمنع من الزواج للمعنى الذي أشرنا إليه «الأهرام ١٠/٩/١٩٦٣» .

(د) - التنبيه الرابع :

كثير من النساء في الريف، وبعض منهن في المدن، يرضعن أولادا، وينسين أنهم جمعن على الثدي أولادا يعتبرون أخوة، فيكون بينهم زواج قد ينكشف أمر بعضه ويظل الباقي سرا مطويا، والنسوة اللاتي يترددن على الملاجئ التي تؤوى اللقطاء ويتعهدن بأرضاعهم، لا يعرف بعد تسليمهم إلى الملجأ مصيرهم ولا علاقتهم بمن رضعوا مع بعضهم من امرأة واحدة، وقد يكون بين الأخوة والأخوات تزواج دون علم، ثم يحدث بعد ذلك أن يعلما .

روى البغوى في مصابيح السنة «المحرمات» أن عقبة بن الحارث تخبره امرأة بارضاعه هو وزوجته، فأنكر وأنكر الأهل، فسأل النبي ﷺ فأشار بالمفارقة قائلا: كيف وقد قيل؟ .

وقد يحدث أن امرأة تريد صرف ولدها عن زواج بنت معينة فتدعى أن بينهما رضاعا، ولهن في ذلك حيل خبيثة، ويمكن بالإثبات الكتابي تلافى أمثال هذه الحوادث .

وإني أرجو ممن ترضع طفلاً أن تدون اسمه أو تثبت هذا الرضاع وعدده في سجل خاص يفيد في المستقبل، صيانة للحرمت والأنساب، ومنعاً للشك واستغلال الرضاع استغلالاً خبيثاً.

(هـ) التنبيه الخامس - نقل الدم:

لم يكن نقل الدم معروفاً أيام النبي ﷺ ولا في عهد السلف الصالح، ولم يتحدث عنه الفقهاء الأولون بل هو أمر من مستحدثات الطب، فهل يحرم به الزواج؟

إن التحليل والتحریم بوجه عام حق له سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام، ومعرفة الأحكام الشرعية تكون عن طريق النص أو الاجماع أو القياس بالشروط المعروفة، والمحرمات من النساء مذکور أكثرهن في سورة النساء التي جاء فيها بعد ذكر المحرمات ﴿وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ﴾.

ومن هنا قال العلماء: نقل الدم لا يكون سبباً من الأسباب الموجبة لتحریم المصاهرة، معززين قولهم هذا بأن الأصل في الأشياء الحل حتى يقوم دليل على الحرمة.

لكن هذا ليس محل اتفاق بينهم، فان بعض الفقهاء قال: إن الأصل في الأبضاع الحرمة حتى يأتي دليل على الحل. وذلك محافظة عليها وصيانة لها.

غير أن هناك وجهة نظر تقول: لماذا لا يقاس نقل الدم على الرضاع بجامع أن لكل من اللبن والدم تأثيراً في تكوين الخلايا ونموها ولهذا يكون نقل الدم محرماً للزواج مع مراعاة الشروط المذكورة في الرضاع، لكن القائلين بالحل قالوا: إن قياس نقل الدم على الرضاع قياس مع الفارق فالدم ليس مغذياً بأصله كاللبن، بل هو ناقل للغذاء ويستعمل استعمال الدواء.

ولئن كان هذا القول غير مسلم على إطلاقه فإن ظاهر النص وقواعد الاجتهاد يرجح معها القول بعدم اعتبار نقل الدم محرماً للمصاهرة «انظر كتابنا: الدين ومشاكل الحياة».

الفصل السابع

نكاح المتعة

نكاح المتعة هو اتفاق الرجل مع المرأة على التمتع بها لمدة معينة لقاء أجر معين، ولهذه الصورة من الاتصال الجنسي مثل في العهود السابقة، وفي العصر الحاضر أيضاً، وأقرب هذه الصور ما هو موجود في بلاد الحبشة اليوم، كما سبق ذكره.

وهذه الصورة من النكاح من المسائل الأساسية في الفرق بين مذهب أهل السنة وبين الشيعة وقد تناولها الفقهاء والمفسرون والمتحدثون في مؤلفاتهم وبحثوا نواحيها الشرعية والاجتماعية وألفت فيها كتب خاصة.

وسيكون حديثي عنها متناولاً لأصل وجودها في الإسلام، ثم حكمها الشرعي عند الفقهاء، ثم تحديد الوقت أو العصر الذي حرمت فيه، ثم بيان مراتب تحريمها أو العام الذي حرمت فيه، ثم ذكر بعض أحكامها الفقهية عند القائلين بحرمتها أو حلها.

وأبادر فأقول أن تلخيص ما قيل في هذا الموضوع صعب، وذلك لكثرة الأقوال وتفرقتها في عدة مؤلفات، وعدم تنظيمها وتنسيقها، وسأحاول بقدر الإمكان أن أضع أمام القارئ صورة مبسطة واضحة من نواحي مختلفة^(١).

أولاً - أصلها:

يقول بعض الكاتبين أنها كانت حلالاً في صدر الإسلام. بمعنى أنه لم

(١) من مصادر البحث:

كتب التفسير وبخاصة القرطبي، زاد المعاد لابن القيم، شرح النووي على صحيح مسلم، المتعة وأثرها في الإصلاح الاجتماعي لتوفيق الفكينكي، المختصر النافع في فقه الشيعة، أصل الشيعة وأصولها لمحمد الحسين آل كاشف الغطاء، بحث للدكتور علي وافى بمجلة منبر الإسلام جمادى الآخرة ١٣٧٦، بحث تاريخي بمجلة العربي أغسطس ١٩٧٠، بحوث ومقالات متفرقة.

يتعرض لها بحكم فبقيت على أصلها القديم . وهو جواز تمتع الرجل بالمرأة لفترة معينة لقاء أجر معلوم، ولكن هذا القول يعوزه الدليل، فلم نر في مصدر موثوق به أن هذا النوع كان من أنكحة الجاهلية التي تحدث عنها القرآن وتحدثت عنها السنة، كما مر.

على أنها لو كانت حلالا لاستطاع الصحابة أن يمارسوها في غزواتهم عند احتياجهم إليها، ولكنهم لم يفعلوا، لأنهم طلبوا من الرسول أن يرخص لهم في الخصاء لمواجهة شهوتهم الجنسية التي لم يجدوا لها منفذا حلالا، فلم يأذن لهم في الاختصاء، ولكن أذن لهم في المتعة، فعلم بهذا أنها كانت حراما ثم أبيحت مؤقتا للضرورة، ولو كانت حلالا ما لجئوا لسؤال الرسول ﷺ عن الخصاء.

ثانياً - حكمها :

خلاصة الآراء في حكمها ثلاثة: التحريم مطلقا، والحل مطلقا، والتحريم لغير الضرورة.

(أ) القول الأول وهو التحريم المطلق هو الذى عليه جميع الفقهاء من أهل السنة، لم يشذ عنهم أحد، وقد ثبت التحريم بالقرآن والسنة والاجماع.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرُ مُلْمُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦، ٧].

وقد احتج بها القاضى يحيى بن أكثم التميمى على المأمون الذى أراد أن يجعل المتعة حلالا. حيث قال له القاضى: يا أمير المؤمنين، زوجة المتعة ملك اليمين؟ قال: لا، قال: هى الزوجة التى عند الله ترث وتورث ولها شرائطها؟ قال: لا، قال: فقد صار من يتجاوز هذين من العادين.. ومن السنة أحاديث كثيرة منها:

١ - عن سلمة بن الأكوع: رخص لنا رسول الله ﷺ عام «أوطاس» في المتعة ثلاثاً، ثم نهى عنها. رواه مسلم. وعام أوطاس هو عام الفتح، لأن غزوة أوطاس، وهو موضع بالطائف كانت متصلة بفتح مكة.

٢ - عن جابر قال: كنا نستمتع الأيام بالقبضة من التمر والدقيق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر. وفي رواية: وعلى عهد عمر، حتى نهى عنها عمر في شأن عمرو بن حريث. رواه مسلم.

٣ - عن عمر رضی الله عنه قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما. متعة النساء ومتعة الحج.

٤ - عن سبرة الجهني أنه غزا مع النبي ﷺ فتح مكة. وقال فأقمنا بها خمسة عشر، فأذن لنا رسول الله ﷺ في متعة النساء، فلم أخرج حتى حرمها رسول الله. وفي رواية أنه كان مع النبي ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيمتوهن شيئاً» رواه مسلم.

٥ - عن علي رضی الله عنه أن النبي ﷺ نهى يوم خيبر عن المتعة ولحوم الحمر الأهلية رواه مالك في الموطأ.

ورواه الدارقطني، وروى عنه أنه قال: «نسخ صوم رمضان كل صوم، ونسخت الزكاة كل صدقة، ونسخ الطلاق والعدة والميراث، المتعة، ونسخت الاضحية كل ذبح» «تفسير القرطبي - فما استمتعتم به منهن...».

٦ - عن علي رضی الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها. رواه الزهري عن عبد الله والحسن بن محمد ابن الحنفية من أبيهما عن علي بن أبي طالب. وقد أورده القاضي يحيى بن أكثم للمأمون، وسأله المأمون عن هذا الحديث أهو محفوظ؟ فعلم أنه رواه مالك.

٧ - عن ابن عباس قال: إنما كانت المتعة في أول الإسلام، كان الرجل يقدم البلدة، ليس فيها معرفة، فيتزوج المرأة بقدر ما يرى أنه مقيم، فتحفظ متاعه، وتصلح له شأنه حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ... ﴾ [المؤمنون: ٦، ٧]. قال ابن عباس: فكل فرج سواهما حرام. رواه الترمذى عن محمد بن كعب. ويؤخذ من هذا الخبر أن المتعة ما كانت لظروف الحرب فقط، بل كانت لكل سفر ولكل غربة. وأنها نسخت بالآية، مع أن هذه الآية نزلت بمكة قبل الهجرة، لأن سورة «المؤمنون» مكية، ولم يكن قبل الهجرة غزو. حتى السفر العادى ما كان معروفًا في هذه الفترة سوى هجرة الحبشة، ولعل ما قاله القاضى يحيى بن أكثم للمأمون فى الاستدلال بها هو الأوفق. فإنه جعل نكاح المتعة من الذى هو وراء الزواج والتسرى، فيكون عدوانا، ولم يقل له: إن المتعة منسوخة بهذه الآية.

هذا وقد جاء فى تفسير الرازى أن هناك ثلاث روايات عن ابن عباس:

١ - إحداها القول بالإباحة المطلقة. قال عمارة: سألت ابن عباس عن المتعة أسفاح أم نكاح؟ قال: لا سفاح ولا نكاح. قلت: فما هى؟ قال: متعة كما قال تعالى. قلت: هل لها عدة؟ قال: نعم حيضة. قلت: هل يتوارثان؟ قال: لا.

٢ - والرواية الثانية: (إن الناس لما ذكروا الأشعار فى فتيا ابن عباس فى المتعة) قال ابن عباس: قاتلهم الله، إني ما أفتيت بإباحتها على الإطلاق لكنى قلت: إنها تحل للمضطر كما تحل الميتة والدم ولحم الخنزير. (وروى أيضاً عن طريق ابن جبير).

٣ - والرواية الثالثة عنه أنه أقر بأنها منسوخة. روى عطاء الخراسانى عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ قال: صارت منسوخة بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ وروى أيضاً أنه قال عند موته: اللهم إني أتوب إليك من قولى فى المتعة. وانصرف. (المتعة للفكيكى ص ٥٦).

هذه هي النصوص التي اعتمد عليها فقهاء السنة في الحكم بحرمة نكاح المتعة، وصار هذا الحكم مجمعا عليه، وما كانت حلالا إلا لفترة معينة اقتضتها ظروف الحرب، ثم نسخ حلها واستقر النهى عنها وتحريمها إلى يوم القيامة.

والحكمة في تحريمها أنها لا تحقق الأغراض الأصلية من النكاح الدائم المستقر، فإن أية متعة لا يكون معها تأييد لا تنتج استقرارا. ولا طلاق ولا نسب للمولود.. على ما سيجىء بيانه، فأين في هذا النكاح الاستقرار والسكن والمودة والرحمة والذرية الصالحة المرعية رعاية طيبة، وأين فيه كرامة المرأة التي يعقد عليها الرجل ليستمتع بها مدة ثم يتركها ليتمتع بها آخر، فهي بين الرجال كالسلعة، لا تعدو أن تكون مجرد أداة لقضاء الشهوة أو المتعة كما يدل عليها أسمها؟ وليس هناك فرق كبير بين هذه الصلة وما يشبهها من أنواع المخادنة واتجار المرأة بعرضها.

وعلى الرغم من قول الشيعة بحلها فإن الأسر الطيبة لا ترضى لبناتها أن تمارس هذا النوع من العلاقة. ويحاول المجتمع الشيعي أن ينكر أنه موجود عندهم. وذلك لاشتمزازهم منه، ذلك في الوقت الذي يدافع عنه كبار فقهاءهم، وينادون بتعميمه بين المسلمين. ويقول موسى جار الله في كتابه: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة «بعد أن تأسف من تدهور أخلاق النساء في شوارع مدن العجم بما لا يوجد عند الأمم الشيعوية: إن الحكومة الإيرانية قد ابطلت نكاح المتعة (المتعة للفكيكي ص ٧٥).

(ب) القول الثاني: وهو الحل المطلق: هو الذي عليه الشيعة وبخاصة الامامية الاثنا عشرية، وخلاصة شبهتهم في حله النصوص التي جاءت أولا بحلها. وعدم الاعتراف بنسخها لا من القرآن ولا من السنة. وعبارتهم في رفض النسخ هي: المشروعية دراية والنسخ رواية، ولا تطرح الدراية بالرواية. وكذلك عدم اعترافهم بنهي عمر عنها لموقفهم العدائي منه على ما هو معروف.

وقد تمسكوا بالقرآن والسنة ليثبتوا رأيهم في الحل .

فمن القرآن قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ [النساء: ٢٤] حيث قالوا: المراد بالآية المتعة بالمرأة لقاء أجر معين . وقد رد الجمهور على ذلك بوجهين :

(أ) الوجه الأول ان المقصود بالآية، كما قال الشيعة، هو المتعة . وكما قال جمهور المفسرين، وقد قرأ ابن عباس وأبى وابن جبير ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ ، لكن هذا الحكم نسخ . واختلف العلماء في بيان الناسخ، فقال سعيد بن المسيب : نسختها آية المواريث، إذ كانت المتعة لا ميراث فيها، وقالت عائشة والقياسم بن محمد : تحريمها ونسخها في القرآن، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ ... ﴾ . وليست المتعة نكاحا ولا ملك يمين . وروى الدارقطني عن علي بن أبي طالب قال : نهى رسول الله عن المتعة، وقال : وإنما كانت لمن لم يجد . فلما نزل النكاح والطلاق والعدة والميراث بين الزوج والمرأة نسخت . وسبق ما روى عن علي قوله : نسخ صوم رمضان كل صوم، ونسخت الزكاة كل صدقة، ونسخ الطلاق والعدة والميراث المتعة، ونسخت الأضحية كل ذبح .

(ب) والوجه الثاني في الرد أن الآية لا يراد بها المتعة الاصطلاحية، بل المراد هو التمتع الذي أباحه الشرع عن طريق الزواج، وذكر اتيان الأجور لهن لا يحتم أن يكون ذلك عن طريق هذه المتعة، لأن كل ما يقابل منفعة يسمى أجرا، والصداق في النكاح يسمى أجرا . قال تعالى ﴿ فَانكحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [النساء: ٢٥] ومن المعلوم أن النكاح بإذن الأهلين هو الزواج الشرعي بولي وشاهدين، ونكاح المتعة ليس كذلك، وقال تعالى في حل الكتابيات ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [المائدة: ٥] والمراد به المهر وسماه الله أجرا، وقال في شأن المهاجرات المؤمنات ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ

أَجُورَهُنَّ ﴿ [المتحنة: ١٠] ففي الآية أجور في مقابل النكاح، والمراد بها المهور.

ومن استدلالهم بالسنة:

١ - عن عمران بن حصين: نزلت آية المتعة في كتاب الله. ففعلناها مع رسول الله ﷺ. رواه البخارى. ذكر الفكيكى فى كتابه «المتعة» ص ٣٧ أن الفخر الرازى أورد هذا الحديث وفيه تكملة هى: ولم ينزل قرآن يحرمها، ولم ينهاه عنها حتى مات ﷺ.

وينقل عنه رواية أخرى جاء فيها: أنزل الله فى المتعة آية وما نسخها بآية أخرى، وأمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة وما نهانا عنها، ثم قال رجل برأيه ما شاء (ص ٣٦) قال الرازى: يريد به عمرين الخطاب (ص ٤٢). ويرد عليه بأنه كان مرخصا فيها ثم نهى النبى عنها بعد ذلك، والادلة على النهى مذكورة فى قول الجمهور.

٢ - عن جابر: كنا نستمتع الأيام بالقبضة من التمر والدقيق. رواه مسلم. ويرد عليه بأن الرواية جاءت كاملة تحمل النهى عنها بعد أن كانت حلالا، وقد سبقت.

٣ - عن سبرة الجهنى أنه غزا مع رسول الله ﷺ فتح مكة وقال: فأقمنا بها خمسة عشر، فأذن لنا رسول الله ﷺ فى متعة النساء. ويرد عليه بأنهم لم يكملوا إيراد الحديث: فلم أخرج حتى حرمها رسول الله ﷺ. وقد سبق.

وكذلك أوردوا حديث سلمة بن الأكوع المذكور، ويرد عليه أيضاً بأن فيه نصا بالنهى عنها، فخلاصة الرد على هذه الأحاديث التى تشبثوا بها أنها كانت حلالا ثم نهى عنها، وهم لم يسلموا أبدا بالنهى فيحتجون ببعض الرواية ويتركون بعضها الآخر، وذلك لعدم ثقتهم بالرواة. ولكن هل من العقل أن يصدق الراوى فى بعض الحديث ويكذب فى بعضه الآخر، فإما أن تقبل روايته

كلها وإما أن ترفض كلها، وكذلك هم لا يعترفون بتحريم عمر لها لموقفهم المعروف منه . ومما يدل على أنهم يركنون في أنها كانت مشروعة إلى روايات أهل السنة، وفي الوقت نفسه يرفضون ما جاء في هذه الروايات من أن النبي نهى عنها بعد أن أحلها، ما جاء في كتاب «المتعة» تأليف توفيق الفكيكي ص ٩٠، بعد أن ذكر حديث سلمة بن الأكوع في النهي عن المتعة بعد الترخيص بها في أوطاس حيث قال : فتكون المتعة في العام الثامن من الهجرة معمولاً بها، أما النهي الذي أشار إليه سلمة بن الأكوع بعد ذلك العام فلم يصح عندنا خبره ولم يقيم برهان لتأييده . ونسب إليهم في أهرام ٨ / ١ / ١٩٨٩م حديث عن النبي ﷺ «من تمتع مرة نال درجة الحسن، ومن تمتع مرتين نال درجة الحسين . ومن تمتع ثلاث مرات نال درجة أمير المؤمنين، ومن تمتع أربع مرات نال درجتى» .

وإزاء هذا الحكم فالشيعة مصررون عليه . وحاولوا قديماً ان يفرض على جميع المسلمين، وكاد المأمون أن يأمر به حتى دخل عليه القاضي يحيى بن أكثم التميمي وهو متغير، فسأله : ما غيره؟ فقال يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام، وهو النداء بتحليل الزنى، فقال : الزنى؟ قال : نعم، المتعة الزنى، قال : من أين لك هذا، قال من كتاب الله وحديث رسوله . ثم ساق له آية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ وناقشه فيها، كما سبق، وحديث الزهري الذي رواه مالك أيضاً، وقد سبق، فقال المأمون بعد ذلك : أستغفر الله، وأمر فنودي بتحريم المتعة .

(ج) القول الثالث : وهو التحريم إلا لضرورة : قال به ابن عباس وابن مسعود، وقيل إن عمران بن حصين معهما، وقيل : إنه مع القول الثاني وهو الحل المطلق .

قال هؤلاء : إن الأصل في نكاح المتعة هو التحريم ولكن التحريم غير مؤبد، بل هو مقيد بعدم الضرورة، كالميتة والدم محرمان إلا للمضطر ومما يتصل بابن عباس ما يأتي :

روى البخارى أن رجلا سأل ابن عباس عن متعة النساء . فرخص له . فقال له مولى له : إنما ذلك فى الحال الشديدة وفى النساء قلة ، أو نحوه ، قال ابن عباس : نعم .

وروى عطاء الخراسانى أن ابن عباس قال : ما كانت المتعة إلا رحمة من الله تعالى ، رحم بها عباده ، ولولا نهى عمر عنها ما زنى الا شفى^١ أى قليل من الناس (١) .

ويرد على ما ورد عن ابن عباس بأنه عدل عن رأيه أخيراً لما رأى توسع الناس فيها وعدم اقتصارهم على الضرورة . قال سعيد بن جبير لابن عباس : قد سارت بفتياك الركبان وقالت فيها الشعراء . قال : وما قالوا؟ قال : قالوا :

قد قلت للشيوخ لما طال مجلسه يا صاح هل لك فى فتيا ابن عباس
وهل ترى رخصة الأطراف آنسة تكون مثواك حتى مصدر الناس؟
وروى هذان البيتان على النحو الآتى :

اقول للركب إذ طال الشواء بنا يا صاح هل لك فى فتيا ابن عباس
فى بضرة رخصة الأطراف ناعمة تكون مثواك حتى مرجع الناس؟

فقال ابن عباس : سبحان الله ما بهذا أفيتت . وما هى إلا كالميتة لا تحل إلا للمضطر (المتعة للفكيكى ص ٥٦) .

بل ورد ما يصرح بأنه قال إنها نسخت . فقد روى الترمذى عن محمد بن كعب عن ابن عباس أن المتعة كانت فى أول الإسلام لحاجة الغريب إليها حتى نزلت الآية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ . . . فقال ابن عباس : فكل فرج سواهما حرام . وقد تقدم ذلك .

(١) بداية المجتهد لابن رشد - نقل الفكيكى ص ٤٢ .

وأما ابن مسعود فعن بيان رأيه فى المتعة أخرج البخارى ومسلم عنه قال :
 كنا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس معنا نساء . فقلنا يا رسول الله ألا نستخصى ؟
 فنهانا عن ذلك . ثم رخص لنا بعد أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل . ثم قرأ عبد الله
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
 الْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٧] .

وابن مسعود عندما قرأ هذه الآية كان يرد على من حرّمها مطلقا وعلى من
 أحلها مطلقا . فأولها يرد به على التحريم المطلق ويبين أنها من الطيبات التى أحلها
 الله فلا يجوز تحريمها ، وآخرها يرد به على التحليل المطلق وتوسع الناس فيها
 حتى استعملوها فى الحضر ومع كثرة النساء ، ويبين أن تجاوز الضرورة فيها
 يسمى اعتداء والله لا يجب المعتدين . ويمكن الرد على ذلك بأن ابن مسعود
 لم يبلغه النهى الجازم عنها . وإن علمه لم يعلنه . وكل هذه الآراء محجوجة
 بنصوص النهى عنها . التى قد نسخت حلها سواء كان ذلك لضرورة أم لغير
 ضرورة .

وأما عمران بن حصين فقد سبق ما رواه البخارى عنه فى أن آية المتعة نزلت
 فى كتاب الله وفعّلها الصحابة فى زمن رسول الله . والرد عليه أن ذلك نسخ .
 هذا والشيعة ينسبون إلى عبد الله بن عمر أنه كان يقول بحل المتعة
 ويخالف أباه فى ذلك . ويروون فى كتبهم حديثا للترمذى أن رجلاً من أهل
 الشام سأل ابن عمر عن متعة النساء ، فقال : هى حلال . فقال إن أباك قد نهى
 عنها . فقال ابن عمر : رأيت أن كان أبى نهى عنها وصنعها رسول الله ، أنترك
 السنة وتبّع قول أبى . نقله الحلى فى كتابه « نهج الصدق » .

ومهما يكن من شىء فإن هؤلاء جميعاً محجوجون بالرواية الأصح فى
 نسخها .

ثالثاً : متى حرمت ؟

الحديث فى هذه النقطة يدور حول ما إذا كانت المتعة التى كانت حلالاً

حرمها النبي ﷺ . أو تركها حلالا، وعندما تولى أبو بكر الخلافة تركها كذلك على حلها، فلما جاء عمر حرمها ونادى بتحريمها. وبعبارة أخصر: هل حرمت المتعة في عهد النبي أو بعده في عهد عمر؟

الظاهر من النصوص السابقة أن الذي حرمها هو النبي ﷺ . لأنه هو الذي يملك التشريع أصلا، والنصوص الواردة في تحريمه لها أصح وأثبت من غيرها.

لكن هناك من يقول: إن النبي ﷺ عندما أباحها لم يحرمها، وتوفى وهي مباحة، والشيعنة يؤيدون هذا الرأي، ويطعنون في تحريم عمر لها. ويؤكدون أنها ما تزال مباحة إلى يوم القيامة. ويستندون إلى مثل ما روى عن عمران بن حصين من أنه لم ينزل ما ينسخها أى ينسخ حلها، ولم ينه عنها النبي حتى توفى، وإلى اضطراب الأقوال في العام الذي حرمت فيه على ما سيأتى بيانه. وإلى أنه لو حرمها النبي ما كان لابن مسعود وغيره أن يقول بحلها، وما عارض ابن عمر أباه في تحريمها. . إلى غير ذلك من مستندات، ومن أقواها:

١ - ما رواه مسلم عن جابر: كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر. وفي رواية: وعلى عهد عمر، حتى نهى عنها عمر في شأن عمرو بن حريث وقد تقدم.

٢ - ما ثبت عن عمر أنه قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما، متعة النساء ومتعة الحج. وقد سبق. ففي هذين اعتراف بأنها كانت تمارس على عهد النبي وعهد أبى بكر.

وقال المحرمون لها على عهد عمر: إن عمر كانت له السلطة في تحريمها لأن الرسول ﷺ أمرنا باتباع ما سنه الخلفاء الراشدون من بعده.

والذين قالوا: إنها حرمت في عهد النبي ﷺ صححوا الأحاديث التي وردت في ذلك، ومنها حديث سبرة الذى يقول إنها حرمت عام الفتح، وحديث سلمة في تحريمها عام أوطاس، وحديث على في أمر النبي له بأن ينادى

بتحريمها.. إلى غير ذلك من النصوص، وكون البخارى لم يرو حديث سبرة لا يمنع صحته، فهو غير ملتزم باخراج كل صحيح.

وقالوا أيضاً فى الرد على من ادعى تحريمها فى عهد عمر: إن ابن مسعود كان يعلم بتحريمها أيام النبى ولكنه كان يرى أن تحريمها لغير الضرورة، فكأنه اجتهاد منه فى فهم النص.

وحديث جابر الذى يقول: إنهم كانوا يستمتعون أيام النبى وأبى بكر، يحمل على أنه لم يبلغه تحريم النبى لها، أو أن التحريم لم يكن قد اشتهر، حتى كان زمن عمر، فلما وقع النزاع فيها ظهر تحريمها واشتهر.

وأما قول عمر: إنها كانت على عهد رسول الله ﷺ فهو صحيح، لأنها حلت زمنًا ثم حرمت، وكونها كانت موجودة أيام أبى بكر جائز عند من يجهل تحريمها.

رابعاً: هل كان تحريمها مرة واحدة ومتى؟

لقد كان الخلاف شديداً جداً فى العام الذى حرمت فيه المتعة، وهل كان تحريمها مرة واحدة، أو أنها أبيضت وحرمت عدة مرات. وسأنقل لك ثلاثة نقول فيها عرض لآراء العلماء فيها، ومدى اختلافهم فى تحديد الزمن الذى حرمت فيه، الأمر الذى جعل الشيعة يقولون: إن الروايات فيها مضطربة فيسقط الاحتجاج بها، ويبقى الحكم بحلها هو الثابت الذى لا ينقضه خبر يركن إليه.

(أ) قال القرطبى فى تفسيره (جـ) قال ابن العربى:

وأما متعة النساء فهى من غرائب الشريعة، لأنها أبيضت فى صدر الإسلام ثم حرمت يوم خيبر، ثم أبيضت فى غزوة أوطاس، ثم حرمت بعد ذلك، واستقر الإسلام على التحريم، وليس لها أخت فى الشريعة إلا مسألة القبلة، لأن النسخ طرأ عليها مرتين، ثم استقرت بعد ذلك.

وقال غيره ممن جمع طرق الأحاديث فيها: إنها تقتضى التحليل والتحريم

سبع مرات، فروى ابن أبي عمرة أنها كانت في صدر الإسلام، وروى سلمة بن الأكوخ أنها كانت عام أوطاس، ومن رواية على تحريمها يوم خيبر، ومن رواية الربيع بن سبرة أباحتها يوم الفتح، وهذه الطرق كلها في صحيح مسلم. وفي غيره عن علي نهيه عنها في تبوك، رواه إسحق بن راشد بسنده عن علي. ولم يتابع إسحق على هذه الرواية.

وفي مصنف أبي داود من حديث الربيع بن سبرة النهي عنها في حجة الوداع، وذهب أبو داود إلى أن هذا أصح ما روى في ذلك. وقال عمرو بن ميمون عن الحسن البصرى: ما حلت المتعة قط إلا ثلاثاً، في عمرة القضاء، ما حلت قبلها ولا بعدها، وروى هذا عن سبرة أيضاً. فهذه سبعة مواطن، أحلت فيها المتعة وحرمت.

هذا معرض الأقوال في مواطن تحليلها وتحريمها. لكن النقاد قالوا: إن حديث سبرة في إباحة النبي لها في حجة الوداع خارج عن معانيها كلها، ولم يجدوا هذه الرواية إلا عند عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز خاصة. وقد رواه إسماعيل بن عياش عنه، فذكر أن ذلك كان في فتح مكة. وأنهم شكوا إليه العزبة، فرخص لهم فيها ومحال أن يشكوا إليه العزبة في حجة الوداع، لأنهم كانوا حجوا بالنساء، وكان تزويج النساء بمكة يمكنهم، ولم يكونوا حينئذ كما كانوا في الغزوات المتقدمة.

ويحتمل أنه لما كانت عادة النبي ﷺ تكرر مثل هذا في مغازيه وفي المواضع الجامعة ذكر تحريمها في حجة الوداع، لاجتماع الناس حتى يسمع من لم يكن سمعه. فأكد ذلك حتى لا تبقى شبهة لأحد يدعى تحليلها. ولأن أهل مكة كانوا يستعملونها كثيراً. (ويراجع أيضاً القرطبي ج ١٢ ص ١٠٦).

(ب) ويقول ابن القيم في كتابه زاد المعاد:

إن تحريمها كان مرة واحدة يوم فتح مكة بعد إباحتها، وأما في خيبر فلم يبجحها النبي ﷺ، وذلك لأمر، منها:

١ - أنه لم يكن في خيبر مسلمات يتمتع بهن، والكتابيات من يهود خيبر لم يحل نكاحهن إلا في حجة الوداع، ذلك أن حلهن جاء في سورة المائدة ﴿الْيَوْمَ أَحَلُّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ وهذه الآية متصلة بآية ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمْتُمْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُمْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. وهذا في حجة الوداع.

٢ - لم يعهد في الشريعة نسخ الحكم مرتين.

وأما ما روى عن علي في الصحيح أن النبي ﷺ نهى يوم خيبر عن المتعة ولحوم الحمر الأهلية فإن الظرف من نصب على تحريم لحوم الحمر فقط لا المتعة، وقد روى كلامه بتقديم وتأخير عرف من بعضه ما قيد بالظرف. ويقول ابن القيم أيضاً: والذي دعا علياً إلى جمع المتعة والحمر في حديث واحد، مع عدم الجامع بينهما، إirاده لهما في مقام المناظرة مع ابن عباس الذي كان يرى حلها. أهـ.

ويمكن أن يناقش كلام ابن القيم (أ) باحتمال أن يكون هناك مسلمات حول خيبر (ب) وجواز أن يكون حل الكتابيات سابقاً على يوم حجة الوداع، ويرجح هذا الاحتمال جعل حلهن مع المحصنات المؤمنات في سلك واحد والأخيرات حلال قبل الوداع، (ج) وبأن عدم عهده للنسخ مرتين في الحكم الواحد لا يمنع جوازه، (د) وبعدم الحاجة للتشقيق في كلام علي، مع ورود كثير من الروايات يفيد انصاف الظروف عليهما.

(ج) وقال النووي:

كانت المتعة حلالاً قبل غزوة خيبر، ثم حرمت يوم خيبر، ثم أبيحت يوم فتح مكة، وهو مراد من قال: يوم أوطاس، لاتصالهما، ثم حرمت يومئذ بعد ثلاثة أيام تحريماً مؤبداً إلى يوم القيامة.

هذه نماذج من أقوال العلماء ونقولهم، ويمكن تلخيصها فيما يأتي:

فى وقت تحريم المتعة بناء على الروايات المعتمدة أربعة أقوال :

(أ) قول بتحريمها زمن الفتح، وهو الصحيح.

(ب) قول بتحريمها زمن خيبر أى قبل الفتح.

(ج) قول بتحريمها عام أوطاس، وهو راجع إلى القول الأول، لأن عامهما

واحد، والمكانان متجاوران.

(د) قول بتحريمها عام حجة الوداع، وهو وهم خلط فيه الراوى بين مكة

يوم فتحها، ويوم حجة الوداع بها، والوهم يكثرفى الخلط بين الأزمنة والأمكنة.

وخلاصة هذا الأقوال قولان: قول بالتحريم يوم الفتح، وقول بالتحريم عام

خيبر، فمن قال بالتحريم يوم الفتح استدل بالروايات المتعددة، ورد القول بتحريمها

يوم خيبر بأمرين:

(أ) أنها لم تبح فى خيبر، لعدم وجود النساء المسلمات، وعدم رغبة

المسلمين فى زواج الكتابيات، لأن حلهن جاء فى عام حجة الوداع فى سورة

المائدة.

(ب) لو حرمت يوم خيبر بعد حلها، ثم حلت يوم الفتح وحرمت كان

هناك نسخ للحكم الواحد مرتين، وهو غير معهود فى أمر هام كهذا الأمر.

ومن قال بأن التحريم كان قبل فتح مكة فى عام خيبر استدل بحديث على

فى مناظرته لابن عباس، حيث جمع بين تحريمها وتحريم لحوم الحمر الإنسية يوم

خيبر، ويرد عليه بأن الروايات اختلفت، وجاء فيها إرجاع الظرف «يوم خيبر»

للتحريمين، مع أن عليا فى مناظرته لابن عباس صرح له بالتحريم، كما صرح له

بتحريم الحمر يوم خيبر، فالظرف هو لتحريم الحمر ولا يتناول المتعة.

الموضوع شائك حق والكلام المختلف فيه كثير، ويمكن أن يقال: إن تحريم

المتعة المؤبد كان يوم الفتح، وقد أكد النبى ﷺ النهى عنها فى عدة مواطن،

وكان من آخرها يوم حجة الوداع وكل صحابى حدث بما سمع، وخفى على

البعض ما خفى، وكان الذين يمارسونها بعد تحريمها إما أنهم لم يبلغهم التحريم،

وإما لأنهم فهموا أن التحريم كان لغير الضرورة، ورأوا أن الضرورة لا تقتصر على العزبة في الحرب، بل قد تكون في الحل أيضاً، ولعل من ذلك ما جاء في المطالب العالية لابن حجر (ج ٢ ص ٧٠) مما يدل على أنها كانت تمارس في المدينة في عام تبوك، فقد روى أن النبي ﷺ رأى في ثنية الوادع مخرجه إلى تبوك مصابيح ونساء يبكين. فقال: «ما هذا»؟ فقيل: نساء تمتع منهن يبكين. فقال «حرم» أو قال: «هدم المتعة النكاح والطلاق والعدة والميراث» رواه أبو يعلى، وفي سنده راو وثقة ابن معين وابن حبان، وضعفه البخارى وغيره وبقيه رجاله رجال الصحيح. ويؤخذ من الحديث أن المتعة ليس فيها طلاق ولا عدة ولا ميراث على ما سيأتى توضيحه.

خامساً: أحكام المتعة:

من أحكام المتعة ما يأتى:

(أ) هل عقد المتعة صحيح؟

المتعة عند الشيعة عقد مخصوص يكون رابطة زوجية إلى أجل مسمى وبمهر معلوم. ويتوقف العقد على الإيجاب والقبول، ويبطل عند عدم ذكر المهر والأجل. هكذا قال الفكيكى فى كتابه «المتعة». وهذا العقد فى نظر فقهاء السنة باطل لأنه مقرون بالتوقيت أى محدد بمدة. وهذا التحديد يبطل العقد.

ورأى أبو حنيفة أو زفر أن التوقيت هو الباطل وأن العقد يقع مؤبداً إذا كان بلفظ الزواج والنكاح^(١) والشافعية يرون بطلانه لأنه عقد خال من الشهود. لكن عقد المتعة قد يقع بصور أخرى غير هذه الصورة التى حددها أهل الشيعة،

(١) وفى المغنى لابن قدامة أن التوقيت إذا كان فى النية صح العقد، وعلى هذا يمكن الاستفادة برأى أبى حنيفة وأحمد عند الضرورة كالذى يذهب لبعثة تعليمية أن يتزوج لمدة محددة ينتهى بعدها العقد أو يجدد إذا خاف على نفسه الزنا إن لم يتزوج.

وعلى كل حال . إذا تخلف شرط من الشروط المعروفة عند أهل السنة، فالعقد باطل .

قال ابن عطية - كما ذكره القرطبي في تفسيره - كانت المتعة أن يتزوج الرجل المرأة بشاهدين وإذن الولي إلى أجل مسمى، وعلى أن لا ميراث بينهما . ويعطيها ما اتفقا عليه، فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل .

ويستبرئ رحمها، لأن الولد لا حق فيه بلا شك، فان لم تحمل حلت لغيره .

قال ابن قدامة في المغنى (طبعة أوقاف الكويت للمعجم ص ٩٩٤) : لو تزوجها بغير شرط المدة إلا أن في نيته طلاقها بعد شهر، أو إذا انقضت حاجته في هذا البلد فالنكاح صحيح . وأن تزوجها بشرط أن يطلقها في وقت معين لم يصح النكاح، سواء أكان الوقت معلوما أم مجهولا، ونكاح المتعة لا حد فيه .

(ب) هل المتعة نكاح أم سفاح ؟

قال القرطبي : لا هذا ولا هذا، كما قال ابن عباس .

وقال أبو جعفر النحاس في كتابه . الناسخ والمنسوخ . وإنما المتعة أن يقول لها .. أتزوجك يوما أو ما أشبه ذلك، على أنه لا عدة عليك ولا ميراث بيننا ولا طلاق ولا شاهد يشهد على ذلك، وهذا هو الزنى بعينه، ولم يبح قط في الإسلام، ولذلك قال عمر : لا أوتى برجل تزوج متعة إلا غيبته تحت الحجارة .

أورد ابن حزم في كتابه المحلى : أن امرأة قالت لعمر : إن رجلا لقيها وهي ترعى الغنم، فحفن لها ثلاث حفنات من تمر، ثم أصابها، ولما استوثق من كلامها قال : مهر، مهر، مهر . ثم تركها .

وقالت له امرأة : إن الجوع أجهدنا فسألت راعيا الطعام فأبى حتى تعطيه نفسها، فحشى لها ثلاث حثيات من تمر . فقال عمر . مهر، مهر، مهر، درأ عنها الحد .

فى مثل هذه الصورة التى قد تكون صورة متعة حيث تمت بالرضا مع مقابل ولم يكن شهود، يقول ابن حزم: إن أبا حنيفة يصححها ولم يرها زنى مادام فيه عطاء واستئجار، فليس زنى ولا حد فيه.

وقال أبو يوسف ومحمد وأبو ثور وسائر الناس هو زنى كله وفيه الحد، ثم أخذ يسرد المذاهب الأخرى.

ومهما يكن من شىء فإن هذه الصورة من الصور التى تتم فيها المتعة. ولعل عمر رضى الله عنه درأ الحد عن المرأة لأن فى عملها هذا رضا بايجاب وقبول ومهر، فيه شبهة حل يدرأ بها الحد، وإن كان يحرمه.

وروى مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن خولة بنت حكيم أنها دخلت على عمر بن الخطاب. فقالت له: إن ربيعة بن أمية استمتع بامرأة فحملت منه، فخرج عمر بن الخطاب فرعا يجر رداءه. فقال: هذه المتعة، ولو كنت تقدمت لرجمت. قال ابن حزم فى المحلى (ج ٩) بعد ذكر من قال بالمتعة: وعن عمر إنما أنكرها إذ لم يشهد عليها عدلان فقط، وأباحها بشهادة عدلين.

وقد مر فى ص ٤٢٩ أن القاضى يحيى بن أكثم التميمى قال عن المتعة: إنها زنى، لأنها ليست زواجا ولا ملك يمين. وبهذا يمكن أن يقال: إن المتعة على الرغم من تحريم المسلمين لها، وعدهم لها من قبيل الزنى، فإنهم لا يقيمون بها الحد، وإن جاز التعزير الذى يحمل عليه موقف عمر ممن تعاطوها. لكن بعض العلماء قال: إن عمر كان يقيم حد الزنى على من يثبت عليه نكاح المتعة، وروى مسلم فى باب متعة الحج والعمرة من طريق أبى نضرة عن ابن عباس: أن عمر قال: وأبئتوا نكاح هذه النساء فلن أوتى برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة.

كما روى عنه أنه قال: لا نؤتى برجل تمتع وهو محصن إلا رجمته، ولا برجل تمتع وهو غير محصن إلا جلده.

قال القرطبي (ج ٥ ص ١٢٥ - ١٢٩): اختلف العلماء إذا دخل في نكاح المتعة هل يحد ولا يلحق به الولد، أو يدفع الحد للشبهة ويلحق به الولد؟ على قولين، قيل بالأول وقيل بالثاني ويعزر ويعاقب.

ونكاح المتعة كان على حكم النكاح الصحيح، ويفارقه في الأجل والميراث.. فإذا فعلها أحد رجم في مشهور المذهب - المالكية - كما قال ابن العربي، وفي رواية أخرى عن مالك: لا يرحم، لأن نكاح المتعة ليس بحرام، ولكن لأصل آخر لعلمائنا غريب انفرد به دون سائر العلماء، وهو: أن ما حرم بالسنة هل هو مثل ما حرم بالقرآن أم لا؟ فمن رواية بعض المدنيين عن مالك أنهما ليسا بسواء، وهذا ضعيف.

(ج) النسب:

هل لو حملت المرأة من نكاح المتعة يلحق الولد أباه؟ فيه خلاف للعلماء في ذلك. وقد مر ما ذكره القرطبي فيه، كما مر أن ابن عطية يلحق الولد بأبيه، لكن أبا جعفر النحاس صاحب: الناسخ والمنسوخ. يقول إنه خطأ، وإن الولد لا يلحق في نكاح المتعة.

(د) هل في نكاح المتعة ميراث؟

يقول علماء السنة: إنه لا توارث فيه، لأنه نكاح مؤقت لقضاء شهوة عابرة، لا يقصد به استقرار عائلي، وقيل: يرجع فيه إلى الشرط القائم بينهما في عقد نكاح المتعة، ولكن: ما معنى قول علماء السنة ببطلان عقد المتعة، ثم قولهم بالميراث بينهما مع بطلان الأصل الذي يوجد الميراث، فبأي علاقة بين الاثنين يكون التوارث؟

(هـ) هل في نكاح المتعة طلاق؟

قال العلماء: إنه لا طلاق فيه، فإن العقد ينفسخ بانتهاء المدة المتفق عليها، وأقول أيضاً: إن البحث في وجود الطلاق وعدمه لا معنى له، لأن الأصل وهو

العقد باطل عندهم، والطلاق هو حل عقدة النكاح، ولا عقدة صحيحة في نكاح المتعة.

(د) هل على المرأة عدة بعد انتهاء أجل المتعة؟

يكاد يكون الاتفاق على وجوب العدة أو الاستبراء، وذلك للتأكد من براءة رحمها، إلا أنهم اختلفوا في القدر الذي تستبرئ به إن لم يكن حمل، فقيل: إنه حيضة، وقيل بأكثر من ذلك.

هذا، وقد تتم صورة للاتفاق على المتعة عند من يقولون بها. لا يكون فيها طلاق ولا نسب ولا توارث ولا عدة ولا غير ذلك، ولعل هذه الصورة الشاذة هي التي دعت الكتاب إلى تعداد مفسد هذا النكاح، كالذي رأيناه في كتاب: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة لموسى جار الله، وكرحلات محمد ثابت، التي يقول فيها: إن الأطفال الناتجين عن نكاح المتعة تعلق في آذانهم حلقات تميزهم عن غيرهم، وإن الوسطاء لتقديم نساء المتعة يكثرون في المواسم الدينية في العراق وإيران، وأن المرأة تتزوج بعد فراقها ممن تمتع بها ولو بعد يوم واحد، لأنه ليس هناك ما يثبت بعد عقدها به، ويقول: إن هذه العادة جعلت الأمراض السرية تتفشى بكثرة، وإنها ربما كانت مأخوذة من عادة قديمة للحجاج في معابد «اشتر ومردوك».

والأولى في بيان أحكام المتعة أن نعرفها من كتب الشيعة أنفسهم الذين يعتقدون حلها.

جاء في كتاب «النهاية» في مجرد الفقه والفتاوى لأبى جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ هـ. وهو من كتاب الشيعة، ونشر كتابه في طهران سنة ١٣٤٣ هـ ما يلي:

وليس في نكاح المتعة توارث، شرط نفى الميراث أو لم يشترط، اللهم إلا إن شرط أن بينهما التوارث، فإن شرط ذلك ثبتت بينهما الموارثة..

ويجوز للرجل العزل وإن لم يكن شرط، ومتى جاءت بولد كان لاحقابه،
سواء عزل أو لم يعزل . وجاء فى هذا الكتاب أيضاً :

وعدة المتمتعة إذا انقضت أجلها أو وهب لها زوجها أيامها حيضتان أو
خمسة وأربعون يوماً، إذا كانت لا تحيض وفى سنها من تحيض (من ص ٤٩٧ -
٥٠٢).

كما جاء فى كتاب «المختصر النافع» لأبى القاسم نجم الدين جعفر بن
الحسن الحلبي المتوفى سنة ٦٧٦هـ والذي طبعته الأوقاف المصرية سنة ١٣٧٦هـ
عند الحديث عن أحكام النكاح المنقطع (نكاح المتعة) ما يلي (ص ١٨٢).

يجوز العزل من دون إذنها، ولحق الولد وإن عزل، لكن لو نفاه لم يحتج إلى
لعان، ولا يقع بالمتعة طلاق إجماعاً، ولا لعان على الاظهر. ولا يثبت بالمتعة
ميراث بين الزوجين. وقال المرتضى: يثبت ما لم يشترط السقوط، نعم لو اشترط
الميراث لزم. وإذا انقضت أجلها فالعدة حيضتان على الأشهر، وإن كانت ممن
تحيض ولم تحض فخمسة وأربعون يوماً.

وجاء فى كتاب «المتعة» لتوفيق الفكيكي :

ومن أحكامها أنها تحرم على غير الكتابية من الكفار، وتحرم الأمة على الحرّة
بدون إذنها، وبنات الأخ والأخت من دون إذن العمة والحالة ويلحق به الولد وإن
عزل، ولا يقع بها الطلاق ولا لعان ولاظهار، وتعتد بعد الأجل بحيضتين أو
خمسة وأربعين يوماً، وعلى قول بستين يوماً وفى الموت بأربعة أشهر وعشر أما
التوارث ففيه خلاف ينحصر فى ثلاثة أقوال، ترث مع الشرط، وبعده، لا ترث
وإن شرط.

وجاء فى كتاب «الدين بين السائل والمجيب للاحقافى ص ٦١»: أن حدود
المتعة هى: الأجرة، والأجل، العقد المشتمل على الايجاب والقبول، الافتراق
بانقضاء المدة أو البذل، العده. عدم التوارث. ص ٦١ ولا يشترط فيها إسهاد بل

هو سنة ص ٦٧ . ويحرم التمتع بزوجة الابن وزوجة الأب بالمتعة، وكذلك الجمع بين الأختين فى متعة واحدة ص ٧٠ . ويجوز التمتع بعشرات مع زوجاته الأربع ص ٦٦ .

وبعد، فهذه صورة عن نكاح المتعة ورأى علماء السنة فيه، وتمسك الشيعة به، ولقد وجدنا نشاطا لبعض الكتاب اليوم يدعو إلى إباحة المتعة لمحاربة البغاء السرى بالذات، والقضاء على انهيار الاخلاق عند الشبان الذين لا يستطيعون إقامة حياة زوجية مستقرة، وبخاصة إذا كانوا مغتربين، ولا مجال لبناء أسرة، فليكن فى هذا اللقاء المتفق عليه لهؤلاء الذين سيعودون من مغتربهم إلى بلادهم وأسرهم .

وقام كتاب عصريون بترويج هذه المتعة مشيدين بالحل الذى وضعه «بزتراندرسل» عندما كان فى أمريكا، وهو زواج الصغار مدة طلب العلم لإشباع الشهوة الجنسية، على ألا تقوم بهذه العلاقة أسرة ولا يكون بين الشابين ذرية، ويقول هذا الكاتب: إن الإسلام حل هذه المشكلة بزواج المتعة، ونادى بتحليلها للجنود والطلاب وكل من لا يستطيعون إقامة أسرة دائمة .

والرأى العام الإسلامى لا يستسيغ هذه الفكرة، لأنها تغرى الشباب بعقد هذه الزيجات المؤقتة، ويصرفهم عن إقامة الأسرة المستقرة وقد رأينا أن بعض الدول الشيعية استنكرته إما على المستوى الرسمى القانونى، وإما على المستوى الشعبى العرفى، وإذا ثبت فشل تجربة هل ندعو إلى ممارستها أو ندعو إلى القضاء عليها؟

● تكملة:

هناك ما يسمى بالزواج المدنى، بمعنى أنه لا يشترط فى تعاقد الزوجين أن يكون بمعرفة رجال ذوى خبرة بالأمر الدينية، بل يجوز تسجيل الزواج كما تسجل أية واقعة فى مكتب رسمى .

إن الزواج له صيغته الدينية وقد وضعت له الأديان كلها مواصفات لا بد من تحقيقها حتى يثمر ثمرته المطلوبة، ولهذا كانت الزيجات فى كل عصر لا تتم إلا بمعرفة المشتغلين بالأمر الدينية، والإجراء المدنى إجراء لجأت إليه الدولة العلمانية أو اللادينية، لتسهيل عملية الزواج، وهى لا تراعى فيه ما يراعى فى الدين .

وفى الغرب كان الزواج حتى سنة ١٧٥٣م لا يتم فى إنجلترا إلا أمام رجال الكنيسة، وفى سنة ١٨٥٧م أنشئت محاكم مدنية خاصة بالزواج والطلاق وما يتبع ذلك، فحلت محل المحاكم الكنسية .

وفى قانون ١٩٤٩م نص على أن الزواج المبرم أمام أى المحكمتين شرعى، وهو يتم أمام قس وحضور شاهدين بعد إعلان الزواج .

وقد قام بعض الكتاب المعاصرين بالدعوة إلى جعل الزواج مدنيا . أو اعتبار أنه غير باطل على الأقل، وذلك على أثر ما أفتى به الشيخ حسن مأمون مفتى مصر من عدم جواز تطبيق نظام الزواج المدنى فى مصر .

وأقول : إن المواصفات التى وضعها الشرع للعقد الصحيح معروفة، فإن تمت كان العقد صحيحا . ولا يهم بعد ذلك تسجيله أمام مكتب مدنى، أو فى دائرة شرعية، فإن التوثيق نفسه أمر طارئ للتنظيم لا غير، وقد تعقد زيجات فى أطراف نائية عن العمران بمعرفة كبار الرجال من القبائل، ولا يكون لها توثيق طيلة حياة الزوجين، فإن أحبا توثيقه كان هناك تصادق عليه من يوم العقد ليتمكن أن تسمع الدعوة بالحقوق المترتبة عليه .

غير أن التوثيق فى دائرة شرعية فيه اطمئنان لتوافر الشروط اللازمة لصحة العقد، أما الإجراء المدنى فليست فيه الضمانات الكافية لتوافر هذه الشروط .

ومهما يكن من شىء فإن المدار كله على توافر المواصفات الشرعية، فى عقود الزواج، وليس هناك اعتبار للناحية التى تسجل فيها أو تتم أمامها، وليس ذاك زواجا مدنيا أو عرفيا أو شرعيا، فالتسمية لا تضر مادام المسمى الشرعى موجودا .

* * *

الفصل الثامن

التسرى

التسرى هو التمتع بالسرية، والسرية هي الأمة، وهذا التمتع له طريقتان، الأولى امتلاك امرأة بسبب الحرب الإسلامية، التي بين المسلمين والكفار. إذا ضرب عليها الامام الرق. والتمتع بها يحل لمن وقعت في سهمه من غير تلفظ بأى لفظ يدل على التملك أو غيره، وذلك بعد أن تستبرأ مدة، أي تنتظر مدة دون اتصال جنسى حتى يتأكد خلو رحمها من حمل.

والطريق الثاني للتمتع بالسرية هو تملكها ممن يملكها بطريق الشراء أو الهبة أو الارث أو غير ذلك من طرق التملك.

وقد اتفق دوليا على إلغاء الرق فى أواخر القرن التاسع عشر، فلم يعد لهذا النوع من النساء وجود فى العالم الإسلامى إلا عند قلة من الدول التى لم توقع على هذه الاتفاقية.

والتسرى غير زواج الأمة، فالأول يحل التمتع فيه بمجرد امتلاك الأمة دون إجراء عقد خاص، أما الثانى فهو زواج كامل له كل مقومات عقود الزواج، وهو لا يجوز إلا عند العجز عن زواج الحرة وخوف الوقوع فى الزنى.

والأمة المملوكة بشراء ونحوه أى الطريق الثانى لا يجوز التمتع بها قبل استبرائها، فان كانت غير متزوجة وجب هذا الاستبراء، أى تربص مدة لمعرفة براءة رحمها من الحمل، وقدرت المدة بوضع الحمل إن كانت حاملا، وبحيضة واحدة إن كانت من ذوات الحيض، وبشهرين إن لم تكن من ذوات الحيض كالأيسة، أى المتقدمة فى السن التى انقطع حيضها، وله أن يستمتع بها قبل الاستبراء بدون وطء، أى بالتقبيل ونحوه.

وإن كانت متزوجة، قال قوم: يمتنع عليه التمتع بها حال زواجها. وقال

آخرون: يجوز بعد ملكه لها، ويعد هذا التملك طلاقاً لها من زوجها، لعموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، أى وحرم عليكم المتزوجات من النساء إلا المملوكات بملك اليمين فلا يحرم من وهن متزوجات، وتفصيل هذا الموضوع لمن يريد الاستزادة منه موجود فى شرح النووى على صحيح مسلم «ج ١٠ ص ٣٦».

والأمة المسبية فى الحرب يحل وطؤها لسببها، ولكن بعد الاستبراء المتقدم بيانه، حتى لو كانت متزوجة. للآية المذكورة، وإلى هذا ذهب الشافعى وأحمد وهو الصحيح. ويروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً إلى «أوطاس» فلقى عدواً فقاتلوهم فظهروا عليهم وأصابوا سبايا، وكان أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ تخرجوا من غشيانهن. من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ...﴾ أى فهن حلال لكم إذا انقضت عدتهن.

ودل الحديث على جواز الاستمتاع بهن ولو كن وثنيات. لأن سبايا أوطاس لم يكن كتابيات، أى يهوديات أو نصرانيات، ولم يشترط فى وطئهن إسلامهن، ولم يجعل المانع منه إلا الاستبراء، ومما يدل على عدم شرط إسلامهن حديث الترمذى فى جامعه عن العرياض بن سارية أن النبى ﷺ حرم وطء السبايا حتى يضعن ما فى بطونهن، فجعل للتحريم غاية واحدة هى وضع الحمل، وفى السنن والمسند عنه «لا يحل لامرء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبى حتى يستبرئها».

وفى السنن عنه أنه قال فى سبايا أوطاس «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير حامل حتى تحيض حيضة واحدة» «يراجع زاد المعاد فيه فوائد قيمة».

هذا وقد اشترط الشافعى فى حل الاستمتاع بالسبايا إسلامهن إن كن غير كتابيات، وحمل جواز وطء ما ورد فى الحديث على الإسلام، ذكره النووى فى شرح صحيح مسلم «ج ١٠ ص ٣٦».

وصرح بعض الفقهاء بأن من سبى معها زوجها لا تحل لغيره، فاعتبروا في الحل اختلاف الدار، دار الإسلام ودار الحرب. وبعضهم لا يعتبر ذلك.

وقد أجاز الإسلام سبى النساء والتمتع بهن صيانة لهن من الضياع، لأن أزواجهن أو أولياء أمورهن محاربون هلك بعضهم أو انقطعت صلته بهن بعد سبيهن، وليس من المصلحة إعادتهن إلى بلادهن، فقد لا يجدن أزواجهن أو من يعولهن، ويتعرضن للسوء، ولا يقال: فليكن ذلك وإثمها على قومها، لأن الحرب الإسلامية تراعى المعانى الانسانية على الرغم من عداوة الدين.

على أن التمتع بالأسيرة وسيلة لحريتها، لأنها إذا حملت من مالكها وهو سيدها عتقت عليه بعد موته وكان ولدها حرا، وهذا هو السرفى إطلاق التمتع بهن دون عدد. لأنه طريق لحريةهن وحرية أولادهن، بخلاف التزوج من الإماء فإنه لا يجوز إلا عند العجز عن زواج الحرة وخوف العنت أى الزنى، لأن الذرية الناتجة عن زواج الاماء تكون من عداد الأرقاء. على ما تقدم ذكره. والإسلام لا يحب زيادة عدد الأرقاء، بل يشجع على الاقلال منهم ويرغب فى عتقهم.

والرسول عليه الصلاة والسلام عندما ملك صفية بنت حبيى بن أخطب التى وقعت أسيرة فى غزوة خيبر لم يتمتع بها بملك اليمين، بل أعتقها وتزوجها، على ما مر ذكره.

ومعذرة فى التطويل نوعا فى الحديث عن التسرى، على الرغم من أنه أبطل الآن قانونياً ودولياً، لأننى أريد بيان هدى إسلامى تاريخى. اتخذه بعض المبشرين مطعنا فى الدين، فى الوقت الذى لا يعرف كثير من المسلمين شيئا عن أحكام الرق فى الإسلام، ومن أراد الاستزادة من الموضوع فليرجع إلى كتابى «الرق فى نظر الإسلام».

فإذا قامت حرب الآن فلا يصح أن يكون فيها رقيق، بل يكون فيها أسرى، ولهم أحكامهم الدولية المتعارف عليها، ولا يجوز حسب ذلك أن يتمتع بالنساء الاسيرات بعد هذا الالتزام، لأن الأسيرة لا تكون أمة إلا إذا ضرب عليها الامام الرق، وهو ممنوع دوليا من ذلك.

على أن الحرب التي يكون فيها الرقيق الذي تحدثنا عنه هي الحرب التي بين الكافرين والمسلمين، أما التي بين المسلمين بعضهم مع بعض فلا، وإن أردت الاستزادة من معرفة بطلان الاسترقاق الآن فانظر تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا «ج ٥ ص ١٠». هذا، وقد ظن بعض النساء أن العبد المملوك لهن يجوز التمتع به بملك اليمين، كما يتمتع الرجل بأمته المملوكة. روى معمر عن قتادة قال:

تسرت امرأة بغلامها، فذكر ذلك لعمر. فسألها: ما حملك على هذا؟ قالت: كنت أراه يحل لى بملك يمينى، كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين. فاستشار عمر فى رجمها أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: تأولت كتاب الله على غير تأويله، لا رجم عليها. فقال عمر: لا جرم، والله لا أحلك لحر بعده أبدا. عاقبها على فعلها بتحريم الزواج عليها. ودرأ الحد عنها. وأمر العبد ألا يقربها. وحدث مثل ذلك فى أيام عمر بن عبد العزيز، حيث جاءته امرأة بغلام لها وضىء فقالت: إنى استسررت. فمنعنى بنو عمى عن ذلك. وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطؤها. فَإِنَّهُ عَنِ بَنِي عَمَى.

فقال عمر: أتزوجت قبله؟ قالت: نعم قال: أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة. ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يخرج به إلى غير بلدها. تفسير القرطبي فى سورة النور ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ.....﴾.

● تكلمة:

حرص كثير من الناس على جعل عقد الزواج فى وقت معين من أيام الأسبوع، أو أيام الشهر، حرصا يترتب عليه أحيانا نزاع أو تشاؤم ورجم بالغيب عن فشل الزواج إن خولف فيه المعتاد من هذه الأوقات.

وهذه عادة جاهلية باطلة توارثتها الأجيال، وقواها تخرص الفلكيين الذين اجتهدوا فى ربط حركات الكواكب بالطبائع الانسانية، وهم كاذبون ولو صدقوا، فأخبارهم ظنية، ولا ينبغى أن تبنى على الظن حقائق، أو تتخذ على أساسها إجراءات هامة، فان الظن لا يغنى من الحق شيئا.

تحدثنا السيدة عائشة رضی الله عنها فتقول: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وبنى بي في شوال، فأى نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني؟ رواه البخاري من طريق عروة، قال عروة، وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها في شوال.

وهذا الحديث رد على هذا الوهم الجاهلي وهو التشاؤم من بعض الأيام والشهور، فإنهم كانوا يتطيرون بشوال، لما في اسمه من الأشالة والرفع، يقال: شال لبن الناقة، أى ارتفع وقل، وذلك عندما تحمل، فهي تمنع الفحل من طرفها، ويقال: إنها شالت بذنبها، وهذا أمر يتشاءمون منه فيخافون أن تمتنع الزوجة عن اتصال زوجها بها، وقيل: إن شولان الأبل بأذنانها يكون عند اللقاح قبولا ورفضها، ويقال أيضاً: شالت نعامتهم إذا ماتوا وتفرقوا، كأن لم يبق منهم الا بقية، والنعامة يراد بها الجماعة، كما قاله ابن الأثير في «النهاية». يقول أبو عاصم، إنما كانوا يتشاءمون منه، أى شوال، لطاعون وقع فيه قديما، كما ذكره الزرقاني على المواهب اللدنية «ج ٣ ص ٢٣٢».

ونحن لا يهمنا أصل تشاؤمهم من شوال، إنما المهم أنهم كانوا يتشاءمون. وذلك معروف عندهم، كما أنهم كانوا يتطيرون، ويتطير الناس معهم اليوم، باسم جمادى وصفر، ويتيامنون بربيع ورجب^(١).

وقد ذكرت كتب السيرة أن النبي ﷺ عقد لفاطمة بنته على علي بن أبي طالب. بعد بنائه بعائشة بأربعة أشهر ونصف. وإذ قد علمنا أن بناءه بعائشة كان في شوال، فيكون زواج فاطمة في منتصف شهر صفر من السنة الثانية من الهجرة، وذكر بعضهم أن عقد فاطمة كان في أوائل المحرم.

بعد هذا، بقى الحديث عن إشهار الزواج وإعلانه، وسأرجئه إلى باب الزفاف والدخول إن شاء الله.

* * *

(١) ذكر الرحالة محمد ثابت في كتابه «بنات حواء» أنه في اليابان يحدد العرافون يوم الزواج، وذلك خشية النحس.

الفصل التاسع

آثار العقد

ذكرنا أن العقد على المرأة هو الخطوة العملية الأولى من خطوات تملك الانتفاع بالمرأة، وليس هو كل شيء تلتزم به الحقوق والواجبات بين الزوجين، وإنما يتم ذلك بالدخول بالمرأة، غير أن العقد وحده تترتب عليه آثار شرعية وأحكام فقهية، نذكر منها ما يلي:

١ - العقد يجيز خلوة الرجل بامرأته، وكان ذلك محرما عليه، فقد أصبحت الآن زوجته.

٢ - العقد يجيز له الاستمتاع الجنسي بزوجه، وكان ذلك ممنوعا قبله، ويعد هذا دخولا تتم به الالتزامات. كما تعد الخلوة بها دخولا عند بعض الأئمة.

٣ - ثبوت التوارث بينهما لو مات أحدهما بعد العقد وقبل الدخول.

٤ - وجوب المهر على الرجل: إن كان مسمى تسمية صحيحة في العقد، أو وجوب مهر المثل إن كان المسمى فاسدا، أو لم يكن هناك مسمى ولم يكن تفويض، كما ذهب إليه الشافعي، وقد وضع هذا النقطة القرطبي في تفسيره لآية ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾.

٥ - حرمة أم الزوجة على الزوج، أي صارت أمها محرما بمجرد العقد، لا يحل له زواجها حتى لو طلق بنتها قبل الدخول بها. وسبقت حكمة ذلك في بيان المحرمات من النساء.

٦ - حرمة جمع عمة الزوجة وخالتها وأختها عليها.

٧ - لو حصل طلاق مرة واحدة بعد العقد وقبل الدخول يعد طلاقا بائنا،

لا تحل إلا بعد عقد جديد . أما لو طلقها واحدة بعد الدخول يعد ذلك طلاقا رجعيا، يجوز له أن يراجعها في العدة دون الحاجة إلى عقد جديد .

٨ - لو طلقها قبل الدخول لا تلزمها عدة، فيجوز لها أن تتزوج من غيره مباشرة . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤٩] .

٩ - لو أبطل العقد قبل الدخول فللزوجة نصف المهر، إن لم يكن إبطاله منها أو بسببها، وإلا سقط كله، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، لكن الفراق لو حصل بعد الدخول وجب المهر كله .

١٠ - عدم وجوب نفقة الزوجية على الرجل مادام لم يدخل بها، لأنها لا تجب إلا بالتمكين التام، وقال العلماء : إن العقد لا يوجب عوضين مختلفين، وهما المهر والنفقة، كما يقول الشافعي، خصوصا أن النفقة مجهولة الآن والعقد لا يوجب شيئا مجهولا .

ودليله أن النبي ﷺ تزوج عائشة رضي الله عنها وهي بنت ست سنين، ودخل عليها وهي بنت تسع سنين، ولم ينقل أنه أنفق عليها قبل الدخول، ولو كان حقا لساقه إليها، ولو وقع لنقل .

لكن قد يقال : إن معونة أبي بكر للنبي ﷺ وللدعوة عامة تأبى أن يكون هناك حديث بينهما عن النفقة، وقد يكون تقرير هذه الحقوق تشريعا مدنيا بعد الهجرة من مكة .

لكن الزوجة لو عرضت نفسها على الزوج ليدخل بها وأمكنه ذلك وامتنع لزمته النفقة من حين العرض، لأنه مقصر .

١١ - ثبوت النسب للمولود الذى تلده الزوجة بعد العقد حتى لو لم يحصل دخول فعلا، مادام الدخول ممكنا، وتفصيل هذه المسألة مذكور فى الجزء الخاص بحقوق الأولاد.

وملخص ما هناك : أنه لو عقد على زوجة ثم جاءت بولد لمدة الامكان، وهى ستة أشهر من حين العقد لحقه هذا الولد، مادامت الزوجة قد صارت فراشا بعقده عليها، وذلك لحديث مسلم «الولد للفراش وللعاهر الحجر» وتترتب على لحوقه أحكامه من توارث وغيره.

قال فى بدائع الصنائع «ج٤ ص ١٢٠»: ومحلله إذا ادعاه الزوج فلا يلزمه ولد أولده غاصب للزوجة ثم رجعت لزوجها.

ومعنى «للعاهر الحجر» للزانية الخيبة، وهو مثل تقوله العرب للخائب. فهم يقولون: له الحجر وبفيه الاثلاث، أى بقمه التراب، ولا يصح أن يراد بهذا التعبير الرجم بالحجر، فليس كل من زنى يَرجم، وإنما الرجم للمحصن خاصة.

قال أبو حنيفة: إن مجرد العقد كاف فى صيرورتها فراشا وفى لحوق الولد، حتى لو نكح مشرقى مغربية ولم يثبت إمكان اجتماعها، أو طلق عقب العقد مباشرة من غير إمكان وطء فولدت لستة أشهر من العقد لزمه الولد، وحجته إطلاق الحديث المذكور.

وقال الشافعى ومالك وسائر العلماء: لا بد بعد العقد من إمكان الوطاء، وذلك بحصول اجتماع أو احتمال ذلك إذا كانا ببلدة واحدة ومضت مدة بعد العقد يمكن فيها اجتماعهما. والمثال الذى ضربه أبو حنيفة للمشرقى والمغربية لا يثبت به نسب.

وقال ابن تيمية: لا يكتفى بالعقد وإمكان الوطاء، بل لا بد من الدخول المحقق بها، حتى يكون لحوق الولد به على يقين، وذلك لخطورة الأنساب.

هذه بعض آثار العقد الصحيح، أما العقد الفاسد أو الباطل فهذه أحكام يمكن الرجوع إليها فى كتب الفقه المذهبى لكثرة الخلاف فيها.

الباب الخامس

الزفاف والدخول

الزفاف مصدر زَفَ، يقال زف العروس إلى زوجها أي ساقها إليه . والدخول هو التقاء العروسين التقاء شرعيا بالوطء أو بمقدماته على خلاف في ذلك، ويقال: أيضا، بنى بأهله إذا دخل بزوجته . وقال أهل اللغة: الأحسن أن يقال: بنى على أهله، لأن العادة إذا جاءت العروس إلى زوجها بنى عليها قبة ليحجبها عن الناس لنفسه . ويقال كذلك: عرس بأهله، وهذه، كما يقول أهل اللغة، لغة العامة والصحيح أن يقال: أعرس بأهله، وذلك إذا بنى بها أو عليها، وإذا غشيها . كما قال أهل اللغة: إن لفظ: عروس يستوى فيه الرجل والمرأة ماداما في إعراسهما فيقال: رجل عروس ورجال عرس، وامرأة عروس ونساء عرائس^(١) . والعرس بكسر العين امرأة الرجل، والجمع أعراس، وربما سمي الذكر والأنثى عرسين . كما قال أهل اللغة: بناء الرجل بامرأته في أهلها يسمى « عمرة » فان نقلها إلى أهله فذلك العرس . كما أن العرس هو طعام الوليمة يذكر ويؤنث، وجمعه: أعراس وعرسات . وأعرس فلان أى اتخذ عرسا .

تحت هذا العنوان سنتحدث عن المرحلة الأخيرة النهائية من مراحل تكوين الأسرة، أو كما يقال في لغة البناء، عملية التشطيب للمنزل، أى التهيئة الأخيرة له، حيث تنتقل المرأة من ولاية أبويها وحمايتهما لها إلى ولاية الزوج وكفالتة إياها، وقد اعتاد الناس أن يزفوا الزوجة إلى الزوج ولهم في إظهار فرحهم بهذه المناسبة عادات وتقاليد تتوارثها الأجيال، وقد تكون مظاهر الفرح عند مجرد العقد، وقد تكون عند الزفاف وقد تكون عند المناسبتين معا . فعامل السرور موجود في كليهما .

وسيكون الحديث في الباب في فصول، عن بعض مظاهر الزفاف والدخول عند غير المسلمين، وعن مظاهره الإسلامية المشروعة، وعمّا ابتدعه الناس في هذه المناسبة، ثم عن الدخول الشرعى وكيف يتحقق، وكذلك عن الآثار المترتبة عليه، وأخيرا عن إشهار الزواج وإعلانه ونقل بعض العادات في ذلك . مع ذكر تكملات تتصل بالزواج عامة .

(١) سأستعمل كثيرا لفظ عريس للرجل وعروس للمرأة للتمييز بينهما كعادة الكتاب .

الفصل الأول

الزفاف عند غير المسلمين

سأسوق هنا بعض مظاهر الزفاف عند غير المسلمين كنوع من الطرائف ولزيادة المعرفة بعادات الشعوب، ولإمكان المقارنة بين الإسلام وبينها. وإن كان بعض ما أسوقه يجمع إلى الزفاف الخطبة والعقد كطريق إلى الزواج في القبائل المختلفة والبيئات المتنوعة، لأن الكاتبين لم يفصلوا بين كل مرحلة ومرحلة في الحديث عن هذه الطقوس، وليس المراد هو الاستقصاء، بل إعطاء صورة عامة ولو مجملة عما يحدث خارج نطاق التشريع الإسلامي. ولن ألتزم الترتيب في إيرادها فليس له كبير فائدة في هذا المقام. وهي في أكثرها مستقاة من كتب الاجتماع ورحلات العلماء، وأخبار الصحافة ووسائل النشر بوجه عام، بالإضافة إلى ما سبق نقله في الخطبة وتعرف الزوجين.

يقول محمد ثابت في كتابه «بنات حواء»: إن اليابانيين بعد أن يحددوا يوم الزواج بمعرفة العرافين خشية مصادفة يوم النحس، تحمل العروس على هودج، ويسير خلفها حاملو الهدايا، وعندما يصل الموكب إلى دار الزوج ترفع الأيدي بالمشاعل على جانبي العتبة، وفي كل جانب رجل يسحق الأرز، وبمجرد وصول الموكب يخلط بالمسحوق الأيمن مع المسحوق الأيسر، ويتقدم أحد أقارب العروس، ويربط طرفي شمعتين بعضهما ببعض، ليمثل ارتباط الزوجين، ثم يشتعل الفتيل، ويتقدم رجل ليطفئه، دلالة على موتهما سوياً، ثم تقدم الوليمة، والزوجان يشربان من إناء واحد له أنبوبتان، دلالة على تمنيات الوفاق.

وفي الصين يسبق الاحتفال بليلة الزفاف ثلاثة أيام حزن وحداد لأنهم ينظرون إلى زواج الأبناء كندير للموت «آخر ساعة في ٤/٣/١٩٥٣».

وفي تايلاند «سيام» يوضع خيط رفيع أبيض يصل بين رأسى العروسين.

وذلك تفاعلاً بدوام الصلة بينهما، وكذلك ترش أيديهما بماء من قوقعة صغيرة لمباركة هذه الصلة «أخبار اليوم ٢٠/١٢/١٩٥٢».

ويقول ثابت في حديث إذاعي بمصر^(١) عن زوج أفريقيًا: يقام حفل طعام كبير، فيأتي العريس وينتهز فرصة انشغال الناس بالأكل فيخطف الزوجة من بينهم، وعندما ينتبهون إليه يحاولون أخذها منه بشتى الوسائل، ويستمر النضال بينهم وبينه حتى يفوز بها أخيراً، ويذهب بها إلى بيته، كمكافأة على نضاله الناجح، وهذا الاختطاف موجود إلى الآن في كثير من بلدان أوروبا وآسيا وأمريكا وأستراليا.

وفي حديث أيضاً بالاذاعة^(٢) يقول عن قبيلة «نيام نيام» بجنوب السودان البالغ عددهم أربعة ملايين يقيمون بالكونغو وأفريقيا السوداء، يقول: بعد أن يقدم العريس عدداً من السهام كمهر للعروس التي اختارها له رئيس القبيلة، يظل يشتغل عند أهلها ويدفع السهام مدى الحياة، ما لم يثبت أنها عقيم. وإلا كان عليه أن يعطوه بدلها. والرئيس يسلم العروس للعريس من يدها، ثم تقام حفلات موسيقى ومآدب يجلس فيها الرجال مع النساء في هذه المناسبة فقط، أما في غيرها فلكل من النوعين مآدب خاصة. ويرقص الرجل في الحفلة، وهم مصنفون شعورهم تصنيفاً يلقون فيه تعباً كبيراً، أما المرأة فانها ترسل شعرها على الطبيعة، وتتحلى العروس بعقد من أسنان الكلب.

وظاهرة استمرار وجود الزوج في بيت زوجته حتى ينجب موجودة في الواحات الداخلة بمصر، كما سيأتي بيانه.

ونشرت آخر ساعة في ٤/٣/١٩٥٣: أنه في قبيلة الهوتنتوت من زوج أفريقيًا يجلس الرجال في دائرة على هيئة القرفصاء، ويجلس العريس وسطهم، أما العروس فتجلس وسط دائرة من النساء، ويرشها الكاهن أو الساحر بقطرات

(٢) ١٩٥٠/٢/٢٨

(١) ١٩٤٩/٩/٢٨

من بوله، ويقول لهما: فلتكونا سعيدين، وليولد لكما ولد يكون شجاعا وصيادا ماهرا.

ويقول محمد ثابت فى كتابه «جولة فى ربوع الشرق الأدنى» ص ٢٦ ، ٧٨ عن اليزيديين: أن شيخهم هو الذى يقود الزوجة إلى زوجها ليلة الزفاف، ولا تخطو عليه الباب إلا بعد ذبح شاة تطأ دمها عند الدخول، لتوثيق عرى الزوجية يضرب الزوج جرة «قلة» بها مجموعة أجراس فى الحائط فوق رأسها، ثم يكسر رغيفها ليعلمها كيف تكون رحيمة بالجائعين.

ويقول عنهم: إنهم جماعة يزعمون أن جدهم نوح، وهم أولاد آدم الأخير «وهم اثنان وسبعون آدمًا، وليسوا أبناء حواء، بل أولاد حورية زفتها الملائكة الجن إليه، ويقرعون الطبول عند الزواج للاشهار، ويبيحون تعدد الزوجات، ولا يبيحون الطلاق، نساؤهم سافرات، إلا فى الأسبوع الأول من الزواج، حيث تظل الزوجة فى عزلة تامة، والأمير يستطيع بسلطاته أن يسلب أية فتاة شاء، ولا عيب فى ذلك عندهم.

ويقول: إن غالبهم موجود بالموصل، وهم نحو عشرين ألفا، ويكثرون حول «باعذرى» بقرب الكوش فى كردستان، وتراب المكان مقدس، يعجنون منه الأقراص التى تكسر عند زفاف الزوجة، وتوضع قطعة منها فى فم الميت قبل دفنه.

وفى آخر ساعة «٤/٣/١٩٥٣» عن جورجيا: يجدل القسيس فى الكنيسة حبلاً رفيعاً من خيوط حريرية بيضاء يحيط به خصرى الخطيين ويربط طرفى الحبل ويختمه بالشمع الأحمر، ولا يجوز للزوجين أن يفكا هذا الحبل الا فى اليوم الثالث أو الرابع، ويكون هذا بمثابة امتحان لمقدرتهما على التمسك بأهداب العفة.

وكما توجد مثل هذه العادات فى آسيا وأفريقيا، توجد فى الغرب الأوروبى

والأمريكى، ففى «ليتوانيا» عندما تكون الفتاة على وشك أن تقاد إلى فراش الزوجية، فانه يقص شعرها بينما يرقص المدعون حولها، ثم تضع النساء فوق رأسها طاقية من الزهر تربط تحت قناع أبيض، وتظل تحملها الى أن يولد لهما طفل: وبعد ذلك يأخذ المدعوون فى دفعها الواحد نحو الآخر، وهم يتظاهرون بضربها إلى أن يلقوا بها فوق الفراش «المصدر السابق».

وقد مر فيما سبق شىء من عادة المجر ورومانيا، وجاء فى جريدة الوطن التى تصدر بمصر، فى نوفمبر ١٩٦٣، أنه بعد انتهاء الحفل الصغير فى منزل الزوجة يقوم أهلها بكسر جميع الأوانى التى استعملتها العروس قبل مغادرتها للمنزل، كما يوقدون نارا على عتبه لتعبرها الزوجة، وهى خارجة، فذلك يسعد حياتها فى نظرهم، وعند وصولها إلى منزل الزوج تدخل من باب المطبخ، إشارة الى أن سعادتها فى جذب قلب زوجها عن طريق المطبخ بالطعام الجيد، وفى اليوم التالى للزفاف تبدأ هى الزيارات بصحبة حماتها، وفى اليوم الثالث تكون بصحبة زوجها، وبعد أن تعرف الزوجة كل شىء عن البيت الجديد يقام حفل صغير تعطى فيه السلطة من الحماة إلى الزوجة، وذلك بتقديم إناء مغطى فوقه ملعقتان تسلمهما الحماة إلى العروس «من كلام ليلى السوسى».

وفى أرمينيا يركب الخطيبان جوادين أثناء ذهابهما إلى الكنيسة ويتقدم الشاب بجواده، ويكون على رأسه وصدرة شبكة من الذهب والفضة تغطيهما. أو يكون الغطاء قناعا من الشاش الأحمر القانى، ويمسك فى يده اليمنى بطرف حزام تمسك الخطيبة بطرفه الآخر، ويسدل على الخطيبة قناع من الشاش الأبيض، يصل الى سيقان جوادها. ويرافقهما الأهل والأصحاب الذين يسيرون مترجلين على نغمات الموسيقى، وهم يحملون الشموع. «آخر ساعة ٤/٤/١٩٥٣».

وفى كتب الرحلات يقولون عن غرب كندا: يقدم العريس الهدايا لأهل العروس، ولا يستطيع أن يظهر بها إلا بعد عراك ونضال تستعمل فيه الأسلحة الخطيرة، حتى يتم له النصر عليها.

وكانت عادة التقاتل موجودة إلى زمن قريب في الجزر البريطانية فإن الحسنة التي يرغبها الرجل تكون من تصيب الفارس الذي يناضل الآخرين في حفل كبير يسمى بلغتهم «تورمانت» .

وفي كتاب «عادات غريبة في الحب والزواج» لوليام فيلدنج: قال كريستين دي تروى: إن من عادات فرنسا في العصور الوسطى أن من حق أى فارس أن يطالب بمنازلة فارس آخر إذا قابله وهو يصطحب معه فتاة تروق في عينه، فتقوم المبارزة بينهما ومن حق الفائز أن يأخذ الفتاة دون حرج أو خوف من قانون، فالقانون يقف بجواره «من كتاب زوجات مفترسات للدكتور عبد المحسن صالح ص ١٥٤» .

ومثل هذه المظاهر التي تدل على المهارة في الفروسية شائعة عند العرب الذين يقدسون الشجاعة، فيزفون العروس إلى عريسها على جواد في حفل عظيم، كما سيأتى بيانه .

● تنبيه :

هذه الصور عهدتها على مصادرها، وقد تكون في قرية من بلد، أو جماعة خاصة لا تعطى حكما عاما على البلد كله أو المجتمع بأسره، بل قد تكون هذه الصورة قد تغيرت وتطورت ، ويكون تدوينها هنا، كما سبق أن قلت في منهج البحث، لإعطاء صورة اجتماعية عن عادات الناس في فترة من الفترات، فلا ينبغي أن يتألم من كانت هذه الصورة منسوبة إليهم، ولا ينبغي أن يسرع بالتكذيب من لم يرها واقعة في المجتمع المعاصر أو البيئة التي يعيش فيها أو زارها أو قرأ عنها شيئا .

* * *

الفصل الثاني

الزفاف في الإسلام

إجراءات الزفاف في الإسلام مبسطة وخالية من كل ما لا يتفق وطهارة الإسلام واعتداله، مع المحافظة على إبراز شعور البهجة والسرور بهذه المناسبة السعيدة، وقد تركت الحرية لكل إنسان يقوم بها، ولكل بيئة ما يناسبها، في هذا النطاق.

وقد استصحب الإسلام ما كان عند عرب الجاهلية من مظاهر مع تطهيره من كل ما ينافي رسالة الدين، ولعل مما يدل على ذلك صورة زفاف عائشة للنبي ﷺ، وهي مذكورة في ترجمتها في بحث تعدد الزوجات، وقد رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما، وأحمد وغيرهم.

وكان زفافها بالنهار، وهو مما ليس به بأس، وقد ترجم البخاري بابا لجوازه، ويجوز أن يكون ليلا، وهو غالب ما يفعله الناس اليوم، وقد فعله النبي ﷺ مع بعض زوجاته كصفية بنت حيي بن أخطب، وهو عائد من خيبر عند سدّ الصهباء.

ذكر ابن سعد بأسانيده: أن النبي ﷺ لم يخرج من خيبر حتى طهرت صفية من حيضها، فحملها وراءه، فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها، فأبت عليه، فوجد في نفسه، فلما كان بالصهباء، وهو على بريد من خيبر، نزل بها هناك، فمشطتها أم سليم وعطرتها، قالت أم سنان الأسلمية، وكانت من أضوأ ما يكون النساء، فدخل بأهله فلما أصبح سألتها عما قال لها، فقالت: قال: ما حملك على الامتناع من النزول أولا؟ قلت: خشيت عليك من قرب اليهود، فزادها ذلك عنده وذكرت أنه سر بها، ولم ينم تلك الليلة، لم يزل يتحدث معها^(١).

(١) شرح الزرقاني على المواهب ج ٣ أزواج النبي ﷺ.

ويؤخذ من هذا أن تهيئة العروس ليلة الزفاف بما يزيد جمالاً ونضارة مستحب، وهو الدور الذي كانت تقوم به الماشطة قديماً، وصالونات الحلاقة للسيدات حديثاً «كوافير»، وقد نبهت على حرمة مباشرة الرجال في الصالونات لتزيين السيدات في البحث الخاص بحقوق الزوجين، كما نبهت على حكم وصل الشعر ولبس «الباروكة» والأصباغ وما يتصل بالتجميل عامة، وهو واف ومحرم.

وقد استحب الشرع أموراً عند الزفاف منها:

١ - أن يصلى كل من الزوجين ركعتين لله عقب الزفاف. والدليل على ستيتهما لم يكن قرآناً ولا حديثاً، بل هناك أثران منقولان عن السلف هما:

(أ) عن أبي سعيد مولى أبي أسيد، قال: تزوجت وأنا مملوك، فدعوت نفراً من أصحاب النبي ﷺ فيهم ابن مسعود وأبو ذر وحذيفة، قال: وأقيمت الصلاة، قال: فذهب أبو ذر ليتقدم، فقالوا: إليك. قال: أو كذلك؟ قالوا: نعم (يشيرون بذلك إلى أن الزائر لا يؤم المزور في بيته إلا أن يأذن له، لحديث «ولا يؤم الرجل في بيته ولا في سلطانه» رواه مسلم، قال: فتقدمت بهم وأنا عبد مملوك وعلموني فقالوا: إذا دخل عليك أهلك فصل ركعتين، ثم سل الله من خير ما دخل عليك، وتعوذ به من شره. ثم شأنك وشأن أهلك. أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة في «المصنف» وسنده صحيح إلى أبي سعيد، وهو مستور لم يذكر إلا في الإصابة لابن حجر فيمن روى عن مولاة أبي أسيد مالك بن ربيعة الأنصاري، وهو في ثقات ابن حبان.

(ب) والأثر الثاني: جاء رجل يقال له: أبو حريز، فقال: إني تزوجت جارية شابة «بكرة»، وإني أخاف أن تفركني - تبغضني - فقال عبد الله - يعني ابن مسعود - إن الألف من الله والفرك من الشيطان، يريد أن يكره إليكم ما أحل الله لكم. فإذا أتتك فامرها أن تصلى وراءك ركعتين. زاد في رواية أخرى عن ابن مسعود: وقل: اللهم بارك لي في أهلي، وبارك لهم في، اللهم اجمع بيننا

ما جمعت بخير، وفرق بيننا إذا فرقت الى خير. أخرجه أيضاً أبو بكر بن أبي شيبة فى المصنف . وسنده صحيح، وأخرجه الطبرانى بسندين صحيحين .

والأصح أن هذا الحديث موقوف على عطاء بن السائب، وليس مرفوعاً إلى النبى ﷺ . انتهى من كتاب آداب الزفاف فى السنة المطهرة . لمحمد ناصر الدين الألبانى .

وأعتقد أن هذه السنة لا تخطر على بال أحد، لا لخباء دليلها، ولكن لعدم التنبه لها فى هذا الجو العاطفى المشبوب، وإذا كانت الصلاة المفروضة نفسها متهاونا فيها فكيف بهذه النافلة فى هذا الظرف؟

وكان الأولون يحافظون عليهما، كما سيأتى فى بحث حقوق الزوجين حيث زفت إلى شريح القاضى زوجته زينب، فبدأ بصلاة ركعتين سنة، فلما سلم منهما وجدها خلفه تصلى .

٢ - أن يقول الزوج عند دخول امرأته عليه : بسم الله . ويأخذ بناصيتها، والمراد مقدم رأسها، ويقول : بارك الله لكل واحد منا فى صاحبه . ويقول ما ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه أبو داود وابن ماجه وغيرهما، فقد قال ﷺ « إذا تزوج أحدكم امرأته، أو اشترى خادماً، فليقل : اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه » وفى رواية « ثم ليأخذ بناصيتها وليدع بالبركة » .

وأعتقد ان الأخذ بالناصية أمانة الامتلاك . كما كان يؤخذ الأسير من ناصيته لينقاد مع أسرته مطعماً رأسه . وإذا كان لى أن أخفف لفظ الامتلاك فليكن : إن ذلك أمانة الخضوع والطاعة للرجل، وبالطبع أن هذه الصورة ليس لها وجود الآن على ما أعتقد، والأخذ بالذراع قد يحل محلها، بعيداً عن زينة الرأس التى أفرغ فى إحكامها وقت طويل .

٣ - من السنة أن يتقدم الناس بتهنئة العروسين والدعاء لهما بالبركة، ففى

الترمذى وأبى داود وابن ماجه أن النبى ﷺ كان إذا رفاً الانسان أى تزوج قال «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما فى خير» قال الترمذى: حديث حسن صحيح.

ويكره أن يقال: بالرفاء والبنين، كما ذكره النووى فى كتابه «الأذكار» ص ٢٢٧، فعندما تزوج عقيل بن أبى طالب امرأة من بنى جشم قالوا: بالرفاء والبنين. فقال: لا تقولوا هكذا، ولكن قولوا كما قال رسول الله ﷺ: اللهم بارك لهم، وبارك عليهم. رواه النسائى وابن ماجه، ولأحمد بمعناه، وله فى رواية: لا تقولوا ذلك قولوا: بارك الله لها فيك، وبارك لك فيها. قال فى النهاية لابن الأثير: الرفاً الالتئام والاتفاق، والبركة والنماء، ومنه قولهم. رفات الثوب رفاء، ورفوته رفاً. وإنما نهى عنه كراهية لأنه كان من عادتهم^(١).

ولا شك أن هذه التهنية قد تؤدى كتابة فى البرقيات أو الخطابات أو الصحف، وقد تؤدى بالمسرة «التليفون».

٤ - يسن إمداد العريس بالطعام مساعدة له على عمل الوليمة، كما ذكره النووى فى شرح مسلم «ج ٩ ص ٢٢٢، ٢٣١» مستدلاً بالحيس الذى صنعتته أم سليم، وأهدته إلى النبى ﷺ فى بنائه بزینب بنت جحش، وكذلك استدل بطلب النبى ﷺ من الصحابة ما يستطيعه كل منهم، ليصنع لهم وليمة عند بنائه بصفية، كما سيأتى فى ترجمتها فى بحث تعدد الزوجات، وفى الحديث عن الوليمة عند الكلام على إشهار الزواج «انظر البخارى طبعة الشعب ج ٧ ص ٢٨».

إن إمداد العريس بالطعام تقليد طيب يدل على روح التعاون ومشاركة الناس بعضهم لبعض فى أفراحهم وكذلك فى أحزانهم، وهو مبدأ إنسانى عام من المبادئ التى تدعو إليها الأديان كلها، ترتضيه العقول السليمة وتحرص عليه الأعراف فى كل مكان.

(١) نيل الأوطار ج ٦ ص ١٣٩ والآداب الشرعية لابن مفلح، وفى البخارى وأبى داود زفاف عائشة وقول النسوة: على الخير والبركة، وعلى خير طائر.

وقد جاء فى الأهرام « ١٩٧١ / ٩ / ٥ » أن إمداد العريس بالطعام له صورة فى أوروبا وأمريكا وبعض البلاد الأخرى، وهى إلقاء بكرة من النقود على العروسين، أو نثر الأرز عليهما، على معنى: فلتكن غرفة الخزين ممتلئة دائماً بالأطعمة، يشبهه نثر الملح فى بعض القرى المصرية على العروسين عند الزفاف، إما لاعتقاد أن ذلك يمنع الحسد عنهما « ليس لذلك أصل فى الدين » وإما تفاؤلاً بأنهما سيعيشان سعيدين أخذاً من اعتقادهم أن أكل العيش والملح يوحى بمراعاة الوفاء والصداقة القوية أهـ.

وهل إمداد العريس بالطعام يقوم مقامه ما يسمى اليوم بالنقود؟
لا شك أنه يتصل بالعرض من تقديم الطعام والمعونة له، فهو مساعدة للزوج على مواجهة متطلبات الزفاف وبناء العرش الجديد .

ولئن كان تقديم الطعام من أجل الوليمة، فإن النقود الآن اتخذ عدة أشكال، فقد يكون نقوداً، وقد يكون تحفاً أو ملابس، أو هدايا أخرى كباقات الورود^(١)، وأسهم الشركات، والسيارات.....

فالمقصود منه ليس عوناً على الوليمة، بل مساعدة عامة، أو تكريماً للعروسين. وقد قال علماء الشافعية فى النقود: إنه من باب الاعارة، يرجع به صاحبه، سواء أكان مأكولاً أم غير مأكول. « حاشية عوض على الخطيب فى باب الهبة ».

والناس يتطلعون باهتمام إلى النقود، ويحرصون على رد مثله فى مناسبة مماثلة، وقد يسبب التقصير فى ذلك مشاكل كبيرة، بل إن أولى الأمر فى العرس يدعون لحضور الزفاف أو العقد من سبق أن قدموا لهم هدايا ليستردوا منهم مثل ما قدموه، والأعراف على كل حال تختلف فى ذلك، ومهما يكن من شىء

(١) فى أهرام ١٩٧١ / ٩ / ٥: كان الرومان القدماء تحمل عندهم العروس فى يدها تحت الطرحة باقة من الأعشاب الطيبة الرائحة.

فالمجاملات طيبة، والأمل أن تكون بسخاء نفس، مع عدم انتظار لرد مثلها فإن ظروف الغير قد تحول دون تحقيق ما يريد، فلتكن هدايا لا إغارة، هدايا خالصة تعطيها نية الانسان قيمة عظيمة عند الله.

٥ - ومن المسنون عمل وليمة، والحديث عنها موجود في إشهار الزواج بعد.

٦ - كما أنه من تقاليد الأفراح أن يكون هناك غناء وطرب، والحديث عنه في إشهار الزواج أيضاً.

٧ - يشاهد الآن حرص الناس في جميع الأوساط تقريباً على طرحة الزفاف، وهو تقليد قديم كان رمزاً في العصور القديمة على العفة والطهارة أو دليلاً على استسلامها لزوجها، أو لحبس شعرها الذي يطيره الهواء. وكان الاغريق والرومان يغطون العروس بطرحة صفراء كبيرة تخفى كل جسمها. وصار وضعها على رأس العروس تقليداً متبعاً في أمريكا بعد أن وضعت «نيللى كوستيس» طرحة طويلة بيضاء على رأسها في حفل زفافها إلى «جورج واشنطن» أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، وقد لمحها الرئيس واشنطن وهي تضع الطرحة فوق رأسها، فازداد إعجاباً بها «الأهرام ٥ / ٩ / ١٩٧١».

ومثل الطرحة ثوب الزفاف الذي أخذ أشكالاً عدة في عصور مختلفة، كان في بعضها طويلاً جداً، يحمل ذيله عدة من الجوارى الفاتنات، ويتكلف نفقات كبيرة، وليس فيه من عيب شرعى الا الاسراف الذى يذمه الدين، أما المعقول منه، الذى يضيف على العروس جمالاً يدخل السرور على قلب الزوج فلا بأس به، وكانوا فى القديم وما يزالون، يستعيرون ثوب الزفاف، أو يستأجرونه لهذه الساعة فقط، لأنه لا يصلح للحياة المعتادة للمرأة.

وكان العرب يستعيرون للعروس الثياب والحلى، ولم ينكر الإسلام ذلك، فقد ترجم البخارى «ج ٧ ص ٢٩ طبعة الشعب» لجواز استعارة الثياب للعروس وغيرها، وذكر أن عائشة استعارت قلادة من أسماء فهلكت، فأرسل النبي ناساً فى طلبها، فأدركتهم الصلاة، فصلوا بغير وضوء، ونزلت آية التيمم.

الفصل الثالث

صور من الزفاف فى المجتمع الإسلامى

بعد الصورة الإسلامية التى عرضتها للزفاف فى الفصل السابق أعرض عليك صوراً للزفاف عند المسلمين فى عصور قديمة وحديثة كنموذج لاختلاف عادات الناس فيها، وسترى ما كان منها مشروعاً وغير مشروع.

وأعتقد أن العادات القديمة عند الأمم بقيت فى المجتمع على الرغم من وجود الإسلام وتحديد موقفه منها، ذلك أن العادات الموروثة من الصعب تركها أو نسيانها مرة واحدة. فما زالت فى عاداتنا الحاضرة صور جاهلية قديمة، إلا أنها إن اصطدمت مع حقائق الإسلام فهى من غير شك محرمة، وإلا كانت أموراً عادية تبقى على أصلها وهو الحل، ما لم تكن هناك عوامل أخرى كقرائن وأعراض وظروف تخرجها عن دائرة المسموح به إلى دائرة المحظور.

فدخول العروس عند وصولها إلى بيت العريس من تحت رجل حمايتها «أمة أو أخته مثلاً» هو رمز إلى أنها ستكون مطيعة لها وفى خدمتها، وكذلك حمل العروس زادا أو ماء على رأسها عند دخولها البيت الجديد فيه تفاؤل بأنها جاءت ومعها الخير والبركة وأن حياة الأسرة ستكون سعيدة، حتى لا يظن أن زوجها قد تحمل أعباء كثيرة كان بمنأى عنها، فأنها تقول له ولاهلهما: إنها جاءت بخيرها وزادها، فلتكن منشرح الصدر متفائلاً، فهى عون له على الحياة.

إن هذه المظاهر، وإن لم يكن فيها نص دينى، لها معان نفسية ودلالات طيبة لا يستطيع أحد أن ينكرها، وإن كنا نعتقد أن التطور الفكرى، وتشبع المرأة بمبادئ الحرية، وفهمها الجديد للحياة الزوجية، ومحاولة استقلالها عن أسرة الزوج فى المعيشة، سيجعل هذه الأمور المعتادة تأخذ طريقها إلى الانقراض، وبالفعل لم يبق منها إلا أثار فى القرى المصرية التى سيصلها التطور إن عاجلاً وإن آجلاً فتخلص من هذه الموروثات.

غير أنى أنبه أهل العريس إلى أنهم لا يصح لهم أن يعلقوا نتائج على فوات بعض هذه المظاهر، فكل إنسان له أسلوبه فى التعبير عما يريد من المعانى، والمدار كله على عدم معارضة التشريع الثابت، أو الخروج على الحد المعقول، أو المنافاة للغرض الأسمى من الزواج.

إن مجموعة الصور للزفاف فى الأوساط الإسلامية التى سأعرضها فى هذا الفصل مستقاة من عدة مصادر، وهى على عهدة من نقلت عنه وإن كان بعضها قد مسه التطور من قريب أو بعيد.

١ - صورة قديمة من الهند فى القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى « رواها ابن بطوطة^(١) عن زواج الأمير سيف الدين بأخت سلطان دلهى، وجاء فيها وصف إحضار المغنين وإعداد الطعام لمدة خمسة عشر يوما لكبار الناس والأمراء، وقبل الزفاف بليلتين جاء الخواتين «النساء العظام» من دار السلطان ليلا إلى هذا القصر، فزينه وفرشنه بأحسن الفرش، واستحضر الأمير سيف الدين، وكان عربيا غربيا، فحفظن به، وأجلسنه على مرتبة معينة له، وكان السلطان قد أمر أن تكون ربيبتة أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غدا. وأن تكون امرأة أخرى من الخواتين مقام أخته، وأخرى مقام عمته، وأخرى مقام خالته، حتى يكون كأنه بين أهله، ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء فى يديه ورجليه، وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن، وانصرفن إلى قصر الزفاف، وأقام هو مع خواص أصحابه، وعين السلطان جماعة من الأمراء يكونون من جهته، وجماعة يكونون من جهة الزوجة.

وعادتهم أن تقف الجماعة التى من جهة الزوجة على باب الموضع الذى تكون به جلوتها على زوجها، ويأتى الزوج بجماعته فلا يدخلون إلا إن غلبوا أصحاب الزوجة، أو يعطونهم الآلاف من الدنانير إن لم يقدروا عليهم.

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٧٧.

ولما كان بعد المغرب أتى إليه بخلعة حرير زرقاء مزركشة مرصعة، قد غلبت الجواهر عليها، فلا يظهر لونها مما عليها من الجواهر..

ثم ركب الأمير سيف الدين فى أصحابه وعبيده، وفى يد كل واحد منهم عصا قد أعدها، وصنعوا شبه إكليل من الياسمين والنسرين، وله رفرف يغطى وجه المتكلم به وصدره، وأتوا به الأمير ليضعه على رأسه، فأبى ذلك، وكان من عرب البادية لا عهد له بأمر الملك والحضر، فحاولته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه، وأتى باب الصرف، ويسمونه: باب الحرم، وعليه جماعة الزوجة، فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية، وصرعوا كل من عارضهم فغلبوهم، ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات.

وبلغ ذلك السلطان فأعجبه فعله، ويدخل إلى «المشور» وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج، مرصع بالجواهر. والمشور مملوء بالنساء والمطربات، وقد أحضرن أنواع الآلات المطربة وكلهن واقفات على قدم، إجلالا له وتعظيما، فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر، فنزل وخدم عند أول درجة منه، وقامت العروس قائمة حتى صعد، فاعطته «التانبول» عطر، بيدها، فأخذه وجلس تحت الدرجة التى وقفت بها، ونثرت دنانير الذهب على رءوس الحاضرين من أصحابه. ولقطتها النساء والمغنيات يغنين حينئذ، والأطبال والأنقار والأبواق تضرب خارج الباب.

ثم قام الأمير وأخذ بيد زوجته ونزل وهى تتبعه، فركب الفرس يظاً به الفرش والبسط، ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه. وجعلت العروس فى محفة^(١)، وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره، والخواتين بين يديها راكبات، وغيرهن من النساء ماشيات، وإذا مروا بدار أمير أو كبير خرج إليهم ونثر عليهم الدنانير والدراهم، على قدر همته، حتى أوصلوها إلى قصره.

(١) المحفة بكسر الميم مركب من مراكب النساء كالهودج. إلا انه لا تكون له قبة.

٢ - صورة يحكيها من ذيبة المهل، وهي «مالدبف»^(١).

يقول: إذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت، وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره. فإذا وصل إليها رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدامه، ويفعل هي إذا أتت هو إلى داره.

٣ - صورة من أندونيسيا حديثة:

تقول عفوة بنت الحاج بيضاوى، زوجة وزير الدولة الاندونيسى للشئون العسكرية والمدنية، أثناء زيارتها لمصر، أن من تقاليد الزواج أنه عندما يتجه العروسان نحو المنصة توضع أمامهما بيضتان. ويدوس العريس بيضة حتى تتهشم تماما، وكذلك تفعل العروس، ويرمز بهذا إلى التساوى بينهما فى الحقوق والواجبات، وبعد انتهاء مراسم الزواج يربط العروسان فى «سارونج» وهو السارى الاندونيسى، لإيجاد الألفة بينهما^(٢).

٤ - التركستان:

يقول محمد ثابت فى حديث بإذاعة مصر «١٩٤٩/٩/٢٨»: يقام فى التركستان حفل عظيم للخطبة، والعروسان غائبان عنه، وتمكث العروس مدة شهر وهى تجهز خيمة وتوثثها بما يروق لها، منتظرة أن يبحث عنها زوجها، فيظل فى طلبها حتى يعثر عليها. فان وجدها اختطفها.

٥ - فى صحراء سينا:

يقول أيضاً محمد ثابت فى هذا الحديث، إذا خطبت المرأة فى شبه جزيرة سينا هربت واشتطت فى هربها، فيظل الزوج يبحث عنها. فان عثر عليها حاولت الهرب منه فيلاحقها، ولا يزالان على هذه الحال حتى تستسلم له، فيخطفها إلى حيث يستقر بها.

(٢) أهرام ٤/٧/١٩٥٩.

(١) المرجع السابق ص ١٩٧.

٦ - عرب البدو فى قبائل الحجاز:

يقول عنهم أيضاً: فى بعض قبائلهم إذا تمت الخطبة يباح للزوجين المقابلة والتحدث، وعند إرادة الدخول يظل أبوها يبيحث عن هجين عظيم يعده لها لتركيبه، ويجرى وراءها العريس يقتنصها، وهى تهدده بالخنجر لتبعده عنها، ويظل ذلك المشهد أمام الناس الواقفين فى صفين، الرجال فى صف والنساء فى صف، حتى إذا ظفر بها زوجها يقبل مخضب الشعر بالحناء فيطعم الناس الطعام وتصير زوجها له، ومن العرب من يحمل العروس على كتفه، إعزازاً لها، وإشعارها بقوته وبأسه.

٧ - فى الواحات الداخلة بمصر:

تقول باحثة اجتماعية^(١) عن العادات هناك: إذا تزوج الرجل ظلت عروسه فى بيت أبيها ويعد خادمها لهم، أو على الأقل يكون سعيه كله لصالحهم. فلو أنجبت آخر العام كان له الحق فى أخذها إلى بيته وأن لم تنجب تركها وتزوج غيرها. وقد مر قبل ذلك زفاف البدويات فى مرسى مطروح.

٨ - بلاد النوبة^(٢):

جاء فى جريدة وطنى بتاريخ ١٦/٤/١٩٧٢، أن الزوج فى بلاد النوبة يبقى فى بيت أسرة الزوجة شهر العسل، وقد يمتد إلى أربعين يوماً. وقبل أن تحدثه العروس ليلة الزفاف لا بد من دفع «الترضية». وهى من جنينه إلى خمسة جنيهات، لتصرف الحماة منها على إقامة العريس عندها، وذلك كل ليلة، وفى النهار تكون العروس مع أهلها لا يراها عريسها حتى المساء، فتعود الترضية، ولذلك يحاول هو تقصير المدة ليفارقهم.

(١) فى برنامج «جرب حظك» باذاعة مصر مساء الجمعة ٣/٢/١٩٥٦.

(٢) هى المنطقة الواقعة بين أسوان وحدود السودان، وقبائلها: الكنوز والمحمي والسكوت، ولكل منها لغتها. وهم يعلقون رءوس التماسيح على الأبواب، وهواية الرجال صيدها وخاصة أيام الفيضان. والنساء يقمن بمعظم الأعمال فى النخيل «آخر ساعة ١١/١١/١٩٥٩» لكن الصورة تغيرت بعد السد العالى.

وجاء فى أهرام ١٥ / ١٠ / ١٩٦٣ : أن الزوج يقضى الليلة الأولى لزواجه فى بيت العروس لا يراها ولا تراه حتى يلتقى بها فى الصباح، وفى منزل أهلها يعيش معها أسبوعاً يتردد أهل العريس خلال كل مساء على منزل أهل العروس للاحتفال بالضيوف، ولا يظهر العروسان إلا نادراً للترحيب بهم.

ومن عاداتهم أن يتجه العروسان قبل شروق الشمس كل يوم إلى نهر النيل ليغسلا وجهيهما وأرجلهما، ثم يسرعان إلى المنزل قبل أن يراها أحد، ويقال : إذا خرج للاستحمام يأخذ معه سوطاً يمسكه بيمينه، ويربط سكيناً ذات حدين على ذراعه الأيسر، لمنع الحسد ومس الجان .. وقد يترك العريس السكين تحت وسادة زوجته، حتى لا تحضر الشياطين ويعشقوها أثناء غيابه.

وجاء فى آخر ساعة ١١ / ١١ / ١٩٥٩ : تبدأ حفلات الزواج بالنوبة لمدة أربعين يوماً بالطبول والغناء والرقص حتى الفجر، وفى ليلة الزفاف أو أسبوعه تصبغ العروس جسدها كله بالحناء، كما يصبغ هو كفيه وقدميه، ويرقص الجنسان رقصات إيقاعية فى حلقة كبيرة. يتوسطها العريس وفى يده خنجر، والرقص هناك موروث عن الفراعنة حركات اليدين والقدمين والعيون المغلقة والرأس المتحركة، العريس لا يراها فى أول يوم من الزفاف، وفى اليوم الرابع يأتون بها إليه لتجلس أمامه على الأرض، ويلقى العريس بقطع من النقود الفضية، تتزاحم النساء على التقاطها، ثم يتركن العروسين مع بعضهما لأول مرة، ويحاول العريس كلامها بالنقود التى لا يزال يرميها أمامها فإذا اقتنعت نفسها بما يرميه وتكلمت فاجأه النسوة بالدخول فيخطفنها من العريس. ولا تعود إليه إلا فى اليوم السابع من أسبوع الزفاف، ويحبس بعد ذلك معها أربعين يوماً. يخرجان معا ليشربا من ماء النيل، ثم يتركها ويسافر للعمل فى المدن.

٩ - فى السودان (١) :

نشرت مجلة المصور أن أول خطوة من خطوات الفرحة هى أن يبدأ بذهاب

(١) المصور أول مارس ١٩٥٧.

العريس ومعه والدته أو إحدى قريباته المسنات، إلى بيت العروس، فيدخل هو إلى أبيها أو من يقوم مقامه، وتدخل أمه إلى أمها، أو من تقوم مقامها، ويعرف هذا اليوم بيوم «سداد المال» وفيه يدفع العريس إلى أبيها المهر، وتهديها أمه هدية الزواج نيابة عن ابنها. والهدية مكونة من حلى ذهب وملابس فاخرة، ومن عطور أو أحذية.

وفى اليوم الثانى، ويسمى «يوم دق الريحة» تخلط الروائح التى قدمها العريس فى خلطات خاصة، وتدق فى أوعية دقيقة بعد إضافة بذور إليها، وهى بذور نادرة، وتعطر العروس بالخليط.

واليوم الثالث «يوم الحناء» تتحنى العروس فيه فى بيتها، ويتحنى العريس فى بيته.

والليلة الرابعة «ليلة الزفاف» تحلى العروس فى بيتها بكامل زينتها، وحولها الصديقات وسيدات الأسترتين، وقارعات الطبول وتفتتح العروس الليلة بالرقص، وتستمر ترقص حتى تتعب، فيتقدم منها عجوز تسمى «الوزيرة» أو «خادم الله» وتبقى قريبة منها، حتى يختل توازنها فتسقط على الأرض، وهنا تخفى الوزيرة رأسها فى طرحة كبيرة، وتركها حتى تستعيد أنفاسها، ثم يتقدم منها أقرب صديقاتها. وترفع الطرحة عنها، وتبقى العروس فى مكانها على الأرض تبتمسم وتنتظر العريس، وهنا يكون قد أقبل، فيدخل ويرأها لأول مرة بغير حجاب، يقترب منها وهى على الأرض، فيهدىها هدية الزفاف، ويقف أمامها لحظات، ينظر إليها، ثم ينسحب.

وبعد ذلك تقوم صديقاتها بملاسهن الشفافة المصنوعة من قماش. يسمى عندهم «هل تدرى يانعسان» ويرقصن فى حلقات لطيفة، يدرن حول العروس وأهلها والمدعوات فى دورات منظمة رشيقة، والعروس تصفق لهن فى نشوة، وتستمر الزغاريد والغناء، حتى ساعة مبكرة من الصباح.

وتستمر الحفلات فى بيتها ثلاث ليال أخرى. وفى الليلة السابعة تنتقل

هى إليه . وتظل فى بيته بعيدة عنه، وفى اليوم الرابع تتقدم إلى غرفته وفى يدها أبريق فيه لبن حليب، ويكون هو فى انتظارها ويده ابريق لبن . فيرشها باللبن، وترد عليه هى فترشه باللبن أيضاً . ويسمون هذا الاجراء «الجرتك» أى رش اللبن على وجهيهما، وهم «يتفائلون بذلك»، وهنا يكون قد تم اللقاء بين العروسين، وأيام الفرح تستمر خمسة عشر يوماً للفقير، أما الموسر فقد تستمر إلى أربعين يوماً .

هذه صورة من صور الحفلات فى السودان، ولعلها كانت تمثل ردينة معينة، أو قبيلة خاصة، ولكل ناحية ولكل قوم عاداتهم فى ذلك . واليكم صورة أخرى نقلها مبعوث من مصر إلى السودان عن الأفراح فى أم درمان جاء فيها:

تقف العروس ليلة الزفاف وسط الحلبة بكامل زينتها بين الشبان والفتيات والصغار والكبار، ويقطع العريس حزامها، ويدفع لذلك عوضاً، وتبدأ فى الرقص حوالى عشر دقائق، والعريس يرقبها حتى لا تسقط على الأرض، وهى تتعمد ذلك حتى يسرع فينتشلها امارة على يقظته ورعاية أهله، وبعد انتهاء دور العروس فى الرقص يراقص العريس من الفتيات من يشاء، وهذا الاجتماع فرصة لتعارف الجنسين من أجل الزواج، فان فرض الحجاب يجعل العريس لا يرى جمال البنت الا فى مثل هذه الحفلة التى ينزع فيها الحجاب .

وقال : ان العريس يزف بين أصحابه فى الشوارع، ثم يأخذ سوطاً ويتقدم بعض أصدقائه شبه عريان ليضربه عدة مرات لا يتأوه دليلاً على شجاعته، ليفوز باعجاب الفتيات، وقد تحدث آلام من الضرب لكنه يسر بذلك ويفخر .

١٠ - موريتانيا، أو شنقيط قديماً :

جاء فى جريدة «صحراء المغرب» بتاريخ ١٣/٣/١٩٥٧ : أنه لا يرى الرجل زوجته أثناء حفلات العرس، بل تبقى هى فى خيمة أمها مع رفيقاتها اللاتى يمشطنها ويطيبنها، ثم يحضر الزوج خيمة جديدة مفروشة بالزرابى

الجميلة، وبعد أن يتناول عشاءه مع ضيوفه داخلها. يرسل خدمه إلى خيمة أم العروس، حيث يأتين بها مصحوبة بأقاربها في مهرجان على الطريقة المغربية، فإذا وصلت إلى خيمته خرج الضيوف وانفرد بها، فإذا كان الصباح غادرت العروس البيت، ورجعت إليه في المساء، وتبقى كذلك طيلة سبعة أيام.

١١ - هذا، وفي بعض بلاد المسلمين يلجأ المترفون إلى إقامة حفلات راقصة تحتسى فيها الخمر، وتضم الخصور، وتتجاوب أصداء القبلات مع رنات الأوتار والعروسان في هذه الحلبة يطبعان في مخيلتهما هذه الصور الماجنة، هذا بالطبع من أقبح المنكرات التي لا يشك في حرمتها مسلم.

وقد يعمد البعض إلى استدعاء راقصات «وعوالم» لآحياء ليلة الزفاف، وفيها العرى والخلاعة والانطلاق، ولو كانت هذه الصورة خاصة بمجتمع النساء فقط لهان الأمر، ولكنها لا تحلو إلا باجتماع الجنسين معا، وبخاصة إذا كانوا عائلات.

ولجأ بعضهم إلى إقامة حفلات موسيقية غنائية، فإن صحبتها خمر، أو اختلاط وسفور كانت محرمة، وإن تمخضت لجنس واحد، مطربين ومستمعين قد تستساغ، إن لم تشتمل الأغاني على محرم أو مثير لكامن الشهوة في نفوس لا تجد لها متنفسا حلالا، ومهما يكن من شيء فإنها لهو عابث ينبغي أن تصرف نفقاته في وجوه أفضل.

وقد تنتهز بعض الخليعات فرصة هذه الحفلات، مع علم أزواجهم ورضاهم، فيتقدمن كوصيفات شرف للعروس، يظهرن من مفاتهن ما يكاد يغطى على جمال العروس، ويجذب إليهن الأنظار الشرهة في هذه الحفلة المختلطة، والعريس حائر بين هذه الزهرات، بوده أن يطلق له العنان ليلثم منها ما يشاء، وقد يفعل، والفرحة تملأ قلب صاحبة الكأس التي رشف منها العريس رشفة من شفيتها أو من وجنتيها، وهي لعمرى، دعارة سافرة ياباها كل أبي كريم.

لقد تخطت هذه التقاليد الجديدة الحدود - جريا على سنة الغرب - فجعلت من إكرام الحضور للعروس أن يقبلها الحاضرون في وجنتيها المتوردتين المصنوعتين في بيوت التجميل، ويقضم من تفاح الحدود ما يشركون به العريس في أخص مخصصاته، بل قد يفخر بعض التيوس، فيقدم العروس الى بعض الشخصيات البارزة ليطلع على خديها أو شفتيها قبله، تظل موضع فخر لهذا الديوث، لهذه المسكينة التي قد تكون مغلوبة على أمرها، أو مسرورة بما جرى لها.

١٢ - حفلات مشهورة:

من حفلات الزفاف المشهورة في التاريخ الإسلامي، حفل زفاف « قطر الندى»^(١) بنت خمارويه بن أحمد بن طولون والى مصر، إلى المعتضد بالله الخليفة العباسي.

لقد أصدقها المعتضد أربعين ألف دينار، وكان جهازها الذي جهزها به أبوها فيه عشرون صينية ذهبية، في عشرة منها « مشام » صندل وزنها أربعة وثمانون رطلا وعشرون صينية فضية، في عشر منها مشام صندل، زنتها نيف وثلاثون رطلا، وخمس خلع قيمتها خمسة آلاف دينار، وألف هاون ذهبي، ودكة أربع قطع من ذهب، عليها قبة من ذهب مشبك، في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا تعرف لها قيمة، وبنى لها على رأس كل منزلة قصرًا تنزل فيه بين مصر وبغداد، ودخلت على المعتضد في ربيع الأول سنة ٢٨٢هـ.

وعباسة بنت أحمد بن طولون بنت قصر الوداع بنت أخيها، فلما سارت قطر الندى عمر ذلك الموضع وصار بلدا، لأنه في أول أودية مصر من جهة الشام، فكان يقال له: قصر عباسة، ثم اختصر إلى عباسة « أعلام النساء لعمر كحالة ».

(١) قيل أن أسماها أسماء.

وكذلك زفاف بوران بنت الحسن بن سهل للمأمون العباسي . وقد ولدت بوران في صفر سنة ١٩٢هـ (ديسمبر ٨٠٧م) وخطبها المأمون في سن العاشرة، ولم تعقد حفلات العرس الا في رمضان سنة ٢١٠هـ (٨٢٦م) بقم الصلح بالقرب من واسط، وتوفيت بوران في ربيع الأول سنة ٢٧١هـ (سبتمبر ٨٨٤م) وسنها حوالي ٨٠ سنة « دائرة المعارف الإسلامية ».

ويقول السيوطي في تاريخ أمراء المؤمنين: إن المأمون لما تزوجها بلغ جهازها ألوفاً كثيرة، وقام أبوها بالخلع على القواد، والانفاق عليهم سبعة عشر يوماً، وكتب رقاعاً فيها أسماء ضياع له، ونثرها على القواد والعباسيين، فمن وقعت في يده رقعة باسمه تسلمها، ونثر صينية ملئت جواهر بين يدي المأمون عندما زفت إليه . أهـ.

وفي أعلام النساء: قال الصولي: لما دخل المأمون بيوران فرش لها الحسن حصيراً من ذهب، وقيل: أنفق عليها خمسة وعشرين ألف درهم.

يقول د. صلاح المنجد: العباسيون كانوا يرون أن الدعوات المشهورة في الإسلام ثلاثة، أولها عرس زبيدة بنت جعفر، التي تزوجها هارون الرشيد وقد أنفق فيه خمسون ألف درهم، عدا المهر والهدايا: وثانيها لعرس بوزان. وقد أنفق فيه خمسة وثلاثون ألف درهم « ٣٥ مليوناً » عدا المهر. وثالثها اعذار - طهور - المعتز بن المتوكل. الذي أنفق فيه ستمائة وثمانون ألف درهم « ٨٦ مليوناً ».

وهناك « طهور » ابن ذنون، أحد ملوك الطوائف في طليطلة من الأندلس، كان يضرب به المثل هناك في البذخ والسرف « مجلة الرسالة الإسلامية صفر ١٣٩٩ هـ ».

* * *

الفصل الرابع

الدخول بالمرأة

لا يتحقق الدخول الشرعى الذى تترتب عليه آثاره الا بوطء المرأة، كما ذهب إليه الشافعى فى القول المختار عنده، وهو قول داود أيضاً، وذلك لقوة الأخبار الدالة على أن الدخول يكون بالوطء، وما اعتمد عليه الآخرون فهى أخبار ضعيفة .

وذهب الحنفية والمالكية والثورى والأزواعى والليث بن سعد، وهو أحد قولى الشافعى، الى أن الدخول يحصل بالخلوة الصحيحة التى تقوم مقام الجماع كلمس الأماكن الحساسة من المرأة والنظر إليها بشهوة، وحجتهم فى ذلك حديث الدارقطنى وغيره . (من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق، دخل بها أو لم يدخل بها) . وهو قول عمر وعلى وزيد بن ثابت وابن عمر وجابر، كما رواه ابن المنذر، وروى خبر أيضاً « من نظر إلى فرج امرأة حرمت عليه أمها وبناتها » .

وقد روى عن زرارة بن أبى أوفى أنه قال : قضى الخلفاء الراشدون المهديون أنه إذا أرخى الستور وأغلق الباب فلها الصداق كاملاً، وعليها العدة دخل بها أو لم يدخل .

ومن جملة ما استدل به الحنفية قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ متأولين الإفضاء بالخلوة، ونقل هذا التفسير عن الفراء، وهو حجة فى اللغة، واستدلوا من جهة العقل بأن المعقود عليه من جهة المرأة لا يخلو . إما أن يكون الوطاء أو التمكين والتسليم، والأول لا يصلح العقد عليه لاتفاقهم على صحة نكاح المجهوب، وهو لا يتأتى منه الوطاء، فدل على أن المعقود عليه من جهتها شئ آخر، وهى لا تملك غير تمكين نفسها منه، فيكون ذلك مؤثراً فى استتباع الخلوة ما يستتبعه الجماع من مهر وغيره .

وتأويل عمر وعلى وابن عباس وزيد بن ثابت المسيس في آية ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ بأنه الخلوة، كما رواه أبو بكر الرازي في تفسير سورة البقرة.

ويجىء سؤال، على ما رآه الشافعي من أن الدخول لا يتم إلا بالوطء، وهو لو أزيلت بكاراة البنت بغير جماع كأن أزالها الزوج بيده، أو أزالها امرأة، فهل يتحقق بذلك الدخول أو لا؟

وقبل الإجابة على السؤال أقدم بكلمة عن البكاراة ونظرة الناس إليها فأقول:

البكاراة: أمانة على عفاف البنت وعدم قربان أحد لها قبل زواجها والأم الحية تحرص عليها وتعرف لها قيمتها، أما الأم البدائية التي تعيش كالحوانات، والأم المعاصرة الغارقة في التمدن والانطلاق الحر المتماذي، فانها لا تنظر إلى البكاراة نظرة اهتمام، بل قد تفخر بزوالها كدليل على أن البنت لها معجبون كثيرون اتصلوا بها، فمن يتزوجها تزوج فتاة سوقها رائجة في نظرهم، والأديان السماوية التي تحرم الزنى وتحافظ على العرض تقدر بكاراة البنت دليلا على شرفها وعفافها.

والعروس عند زفافها واجتماع زوجها بها لأول مرة يصادفه غشاء رقيق في المدخل هو غشاء البكاراة، وله أشكال عدة تحدث عنها الأطباء، وهو يسد المجرى ولا يسمح بمرور شيء إلا البول، فهو عبارة عن كيس رقيق مملوء بالدم، فان جامعها تخرق هذه الغشاء وسال منه الدم.

وللأم عادات مختلفة في فض البكاراة والاحتفاء بها كدليل على طهارة البنت، ويقول الدكتور الساعاتي^(١): إن الاهتمام بفض البكاراة عادة قديمة يرجح أنها متوارثة من عهد الاغريق، فقد كانوا عندما يدخل العريس غرفة عروسه

(١) مجلة حواء ٢٠/٩/١٩٥٨.

يتجمعون خارج الغرفة، وينشدون أغاني تدور حول تقديس عذرية الفتاة، وفرحة العريس بشرف عروسه وعفتها كما يحصل في ريف مصر.

ويقول محمد ثابت^(٢): إن همج استراليا يحتمون فض البكارة عقب أول حيض للبنت على يد امرأة محترفة، ولا بد أن يتصل بها بعد ذلك رجل أو اثنان قبل أن تتزوج، حتى لا يتشاءم الزوج من رؤية الدم المسفوح.

وعند أهل جزر «سيلبيس» يقوم بهذه العملية الأب نفسه، وفي الفيلبين وجرينلاندا يقوم بها رجال محترفون أو أحد القساوسة.

وعند شعوب البانتو تضرب الفتاة بالعصى ضربا مبرحا حتى تطهر من أخطاء حياتها السابقة، وعند الهنود الحمر تعزل الفتاة ستة أشهر وتكلف بعمل يدوي، ثم تصوم أياما.

وفي كندا يفرض على الفتاة أن تحتشم إلى حد كبير، لدرجة أنها إذا صادف أن رآها رجل وهي عارية تستحم فلن يغفر ذنبها إلا بزواجها منه، وقد اتخذ الشبان هذه المفاجآت وسيلة للزواج ممن يحبون ولو كره الآباء.

وفي جزر «اندمان» عند نزول دم الحيض تطير الفتاة الخبر لأبويها، فينتحبان بكاء، وتشرع هي إلى البحر لتستحم ساعتين كل يوم، ثم تنزع عنها زينتها، وتكسو جسمها بأوراق الشجر، وتبقى في حجرة منعزلة، ورجلاها مطوقتان تحتها، وذراعها متعانقتان، وتظل ثلاثة أيام بلا نوم ولا طعام.

وفي جزر «مارشال» لا بد أن يدعو الأب رجلا من عليه القوم يتناسب مع علو مركزه ليفض بكارة بنته، فان لم يوجد لجأ الأب إلى وجيه من جزيرة أخرى.

وأقصى ما رأته في شمال السودان والحبيشة حيث تحمي البكارة بعملية الخفاض الفرعوني، بأن يخاط ما حول غشاء البكارة منذ الطفولة، وفي ليلة الزفاف يقدم للزوج خنجر يفض به البكارة.

(١) كتاب «بنات حواء».

ومن أعجب ما علمته عن بلاد المغرب أنهم يقيمون حفل الزواج، ويجتمع الرجال فى مجلس الموسيقى والرقص، و يقيمون ولائم الطعام، أما العروس فتلبس كامل زينتها. وتعزل وحدها فى جانب من خيمة الحرىم، يحجبه ستار. وفى الجانب الآخر يجتمع صواحباتها يأكلن الحلوى ويشربن الشاى بالنعناع الأخضر، وماهى إلا لحظة حتى ينسل رجل يتخفى فى زى النساء، ويزيح الستار، ثم يدخل على الفتاة دون أن يثير ذلك اهتمام أحد، بل يظل القوم يطربون ويسمرون، بعد دقائق يعود الرجل وقد أدى رسالته، دون أن تعرف شخصيته.

هذا ما قاله الرحالة محمد ثابت، والعهدة عليه، وبخاصة فى هذه الظاهرة الأخيرة فى بلاد المغرب، ويقول الأستاذ على منصور^(١) عن فض البكاراة ما ملخصه:

هذه العادة نشأت عن تقديس كبار رجال الأسرة تحت اسم «طوطم، أو تابو» تحريم الزواج من أفراد العشيرة الواحدة، ونشأ عن عقيدة «اللامساس» وهى ألا يحل لأحد أن يريق دم أى فرد من أفراد عشيرته. وحال ذلك دون فض بكاراة الأنثى بواسطة أحد افراد عشيرتها، وإن كانت عقيدة اللامساس لا تحرم زواج أفراد العشيرة بعضهم من بعض.

وتخلصا من هذا الإشكال وجدت عادة سعى الأمهات لدى الأعراب ليقوموا بازالة بكاراة بناتهن حتى يمكن الزواج من أبناء العشيرة، وكان ذلك موجودا فى إقليم ملابار بالهند. أما فى كمبوديا فكان الآباء يذهبون فى صحبة بناتهم إلى القسيس ليقوم بهذه المهمة مقابل مكافأة سخية.

وقد تسربت هذه العادة إلى أوروبا فى العصور القديمة، حيث كان القساوسة يقومون بهذه المهمة، نيابة عن الآلهة. ثم انتقل هذا الحق إلى الأفراد فى العصور الوسطى. وسمى بحق «الليلة الأولى».

(١) مفارنات ص ١٤٣، ١٤٤.

وقد أصدر الملك «أفانوس» فى اسكتلنده، وهو معاصر للإمبراطور أغسطس ، قانونا يخوله حق المبيت مع كل امرأة قبل أن يدخل عليها زوجها «قصة الحضارة، تأليف ول ديورانت ج ١ ص ٨٠ ، ٨١ - وكذلك كتاب الزواج لادوارد وسترمارك» .

ثم ذكر قصة ملك طسم وافتراع كل عروس قبل عريسها - وقد تقدمت .
وجاء فى كتابه: أن هيرودوت ذكر عن الفرس أنهم كانت لهم آلهة تدعى «أشنار» وهى آلهة الحب والجمال والشهوة والانجاب، وكانت تسمى نفسها «آلهة العاهرات» أو «العاهرة الرحيمة» وكان قربانها أن يقدم لها النساء بكارتهن قبل الزواج، بأن يذهبن إلى المعابد، حيث يستعرضهن الرجال، فكل من أعجبه واحدة ألقى فى حجرها قطعة من الفضة، فتسلم نفسها إليه ليزيل بكارتها .
«قصة الحضارة تأليف ول ديورانت ج ٢ ص ٢٢٠» .

وفض البكارة بغير معرفة الزوج حرام . ولا يثبت بها دخول مطلقا لعدم صلة الزوج بهذه العملية، فإذا فضها هو بنفسه بغير الجماع كأصبعه مثلا، فانه يثبت بها الدخول عند من قالوا: ان الخلوة الصحيحة تقوم مقام الجماع فى الدخول الشرعى، وبالطبع لا يتم فض البكارة إلا بخلوة ولمس ونظر .
أما الامام الشافعى فانه لا يثبت الدخول بفض البكارة بغير الوطء سواء كان فضها بأصبعه هو أو بأصبع غيره^(١) .

وفض البكارة بالأصبع، مع أنه لا يثبت الدخول، عادة لجأ إليها كثير من الناس وبخاصة فى الريف، نزولا على ضغط أولياء أمر الزوجة غالبا، وذلك ليحتفظوا بتلك الرقعة الملوثة كاعلان على طهارة بنتهم وعفافها، ومنعا للقليل والقال، والظنون التى كانت تتهم بها من قبل، وقد يزفون هذه الرقعة فى موكب بهيج إشهارا لطهارة البنت .

(١) حاشية عوض على الخطيب ج ٢ ص ١٣٦ .

كما أن فض البكارة قد يكون بمعرفة الزوج وحده، وقد يساعده في ذلك أقاربه أو أقاربها من النساء، وقد تقوم به الماشطة المحترفة، مع أن في قيام غير الزوج بفضها ذريعة لستر العار أحيانا عن العروس، فقد تحدث جنابة على بكارتها قبل الزواج، فيخفى أقاربها ذلك على الزوج، ويعهدون إلى نسوة بوضع كيس صغير من الدم في المكان المعهود، ثم يرقنه ويلطخن به قطعة قماش، وقد يحملن معهن قماشاً ملطخاً من قبل بدم، ثم يظهرن ذلك أمانة على بكارة البنت.

وهذه العادة لا يوافق عليها الشرع لأمر:

(أ) هذه الطريقة مضادة للفطرة الالهية والسنة المحمدية، فإن عضو المرأة رقيق لا يتحمل مشقة هذه الطريقة، وقد جعل الله في الرجل ما يناسبه، فهو لا يخدش ولا يجرح، ولا تحس البنت بكبير ألم عند فض بكارتها بالطريق الطبيعي، وهو ألم مهما قيل فيه لا يوازي ألم الأصبع الأثيمة ذات الظفر الحاد الذي يترك ليكبر من أجل هذه المناسبة.

(ب) هذا العمل يؤلم المرأة ألماً شديداً، والاسلام ينهى عن الضرر والضرار، ما دامت لم تدع إليه ضرورة، ولم يتعين طريقاً لعمل مشروع، ولا ضرورة هنا لهذا الألم الحاد، فهناك وسيلة أخرى لا تؤلم. ومن هنا كان ممنوعاً، لعدم الحاجة أو الضرورة إليه.

(ج) قد يكون هذا الاجراء سبباً في التهابات يصاب بها الرحم، ومضاعفات قد يمتنع معها الحمل، فتصبح المرأة عقيماً، كما قرر الأطباء، والإسلام حرم الجنابة على أى عضو بما يمنعه من أداء وظيفته.

(د) منظر فض البكارة يتنافى مع الأدب والوقار إذا تم بحضور النسوة اللاتي يجتمعن حولها كالزبانية، ينظرن عورتها في غير حياء. من غير ضرورة تلجىء إلى ذلك. وهذه المنطقة المحرمة ورد النهى عن النظر إليها إلا للزوج خاصة،

فيحرم نظرها على الأم نفسها، فما بالك بغيرها، والأدلة في ذلك معروفة، وهي مذكورة بالتفصيل في بحث الحجاب .

● تنبيهه :

قد لا تكون^(١) هناك بكاراة أى غشاء فى المدخل، أو تكون البكاراة كامنة فى جزء من الجسم، فعدمها ليس دليلا قاطعا على ثبوتة البنت، وقد تذهب البكاراة بعامل طبيعى كالمرض، أو عامل عارض كصدمة أو غيرها. وهناك يجب على العريس ألا يسرع باتهام زوجته، كما قال الأطباء وأفتى به العلماء، وأولى له الا يتحدث فى ذلك، اللهم إلا إذا غلب عليه الشك وقد شرط فى العقد أن تكون بكرا والغشاء دليل على البكاراة، وهنا يكون له الخيار فى الفسخ إن ثبت الغرر والخداع، وكانت البنت أو أهلها يعلمون بأنها ثيب حقيقة وأخفوا ذلك على الزوج.

* * *

(١) النحويون لا يستحسنون هذا التعبير الذى يفصل فيه بين قد والفعل وهو (قد لا يكون) ولكن لكثرة استعماله قديما وحديثا لا أرى به بأسا.

الفصل الخامس

آثار الدخول بالمرأة

إذا دخل الزوج بزوجه دخولا شرعيا ترتبت على هذا الدخول آثار، وثبتت أحكام لم تكن قبل العقد، وبالدخل الصحيح توثقت عروة الزوجية وانتهى المطاف الطويل فى البحث والاختبار والخطبة والعقد، وبدأت مرحلة جديدة بكل أثقالها وتبعاتها.

ومن طريف أحوال الأمم وعاداتها أن قبائل جنوب السودان، وبخاصة «نيام نيام» البالغ عددهم - كما يقول الرحالة والمؤرخون - نحو أربعة ملايين فى الكونغو وأفريقيا الوسطى - لا يثبتون الزوجية بالوطء، بل تمكث الزوجة تحت الاختبار مدة حتى تلد، فإن ولدت بنتا ثبتت الزوجية، وإن ولدت ولدا كان للزوج أن يعيدها مع ولدها المشئوم إلى والدها ويسترد نصف المهر، وهو البقر الذى دفعه، وإن لم تلد تختبر تحت شخص آخر ثبت أنه غير عقيم، بأن تكون له ذرية، ويختار من أقارب الزوج، فإن ولدت من هذا الآخر قضى بين الزوج وزوجه بالانفصال، وضاعت بقره، وإن لم تلد قضى بالانفصال وأخذ بقره، وكان الولد مشئوما لأنهم يحبون ذرية البنات، فهن طريق الكسب بالزواج وما يدفع فيه من مهر غالية من الأبقار التى يعتزون بها كثيرا. وقد تقدم ذلك.

ومن آثار الدخول الشرعى فى الإسلام ما يأتى:

١ - وجوب المهر الذى لم يسم فى العقد، كما تقدم بيانه فى آثار

العقد.

٢ - وجوب النفقة، فهي لا تجب على الزوج إلا بالتمكين، وقد تقدم ذلك.

٣ - المعاشرة بالمعروف، وتفصيل ذلك في جزء خاص بحقوق الزوجين.

٤ - تحريم بنت الزوجة «وهي الربيبة» على الزوج، كما تقدم في الفصل الخاص بالرضاع.

٥ - لو وقعت عليها طلقة اعتبرت رجعية، وأما الطلاق قبل الدخول فهو بائن بينونة صغرى كما تقدم.

٦ - عند طلاقها بعد الدخول وجبت عليها العدة، أما الطلاق قبل الدخول فلا عدة فيه.

* * *

الفصل السادس

إشهار الزواج وإعلانه

لفظ الإشهار يقصد به أن يكون الشيء مشهوراً واضحاً معروفاً، واللفظ العربي المختار هو: الشهر أى وضوح الأمر، تقول: شهرت الأمر شهراً من باب قطع، ويقال: شهرة أيضاً، كما يقال شهرت الأمر فاشتهر، واشتهرته أيضاً فاشتهر، وشهرته تشهيرا ولفلان فضيلة اشتهرها الناس.

وقد يقصد به عرفاً توثيق الأمر وتسجيله وإثباته رسمياً حتى لا يكون هناك إنكار، ولفظ الاعلان يقصد به الاظهار وهو ضد الإخفاء وضد السرية. وشهر الزواج وإعلانه أمر متفق عليه من قديم الزمان. بين الأعراف والتقاليد، وفي القوانين الوضعية والأديان السماوية.

١ - ولقد مرت صور كثيرة فى الأبواب والفصول السابقة تبين ما كان يعمل من الحفلات بما فيها من رقص وأكل وشرب ومبارزة.. لأنها مناسبة سعيدة تستحق الفرح وتستحق الاعلان. بدأ بها الولد مرحلة الرجولة وترك مرحلة الطفولة، وبدأت بها البنت كذلك مرحلة الأنوثة الكاملة بما تستتبعه من آثار، فهى عهد جديد لكل منهما، استقل به عن الخلية الأم ليكون خلية جديدة، وأصبح مستقلاً حراً متحملاً نتائج أعماله بعد أن كان تابعاً يحمل عنه غيره همومه ومتاعبه. وشعور الرجل وأهله بهذه المناسبة أقوى وأشد لأنهم أنتجوا عضواً طيباً عاملاً فى المجتمع يحيى ذكراهم ويمد آثارهم، وادخروه لوقت الشدة والحاجة عندما يكبرون.

٢ - واليهود وهم من الأمم الدينية التى جاءها دين سماوى يحرصون على اعلان الزواج كواجب دينى إلى جانب أنه ظاهرة اجتماعية عامة.

يقول المقرئى فى خططه « ج ٤ ص ٣٧٣ »: لا يصح النكاح عند اليهود إلا

بولى وخطبة وثلاثة شهود ومهر مائتى درهم للبكر ومائة للشيب ولا أقل من ذلك، ويحضر عند عقد النكاح كأس خمر وباقه مرسين، فيأخذ الامام الكأس ويبارك عليه، ويخطب خطبة النكاح، ثم يدفعه إلى الختن ويقول: قد تزوجت فلانة بهذه الفضة أو بهذا الذهب. وهو خاتم فى يده، وبهذا الكأس من الخمر وبمهر كذا، ويشرب جرعة من الخمر، ثم ينهضون إلى المرأة. ويأمرونها أن تأخذ الخاتم والمرسين والكأس من يد الختن، فإذا أخذت وشربت جرعة وجب عقد النكاح. ويضمن أولياء المرأة البكارة، فإذا زفت إليه وكل الولي من يقف بباب الخلوة وقد فرشت ثياب بيض. حتى يشاهد الوكيل الدم، فان لم توجد بكرا رجمت، ولا يجوز عندهم نكاح الاماء حتى يعتقن ثم ينكحن. أهـ.

وإلى جانب هذه الصورة التى رواها المقريزى، وربما يكون قد رآها بنفسه، سبق فى بيان أركان عقد النكاح عند اليهود المعاصرين كما ذكرها أنور الخطيب فى كتابه عن الزواج فى لبنان، ومن هذه الأركان العلانية أى إظهار العقد. بالصلاة الدينية بحضرة عشرة رجال على الأقل. وذكر الشنتاوى فى كتابه عادات الزواج ص ٥٣ أن العادة فى العهد المتقدم من التاريخ اليهودى كانت على أن ينصرم عام تقريبا بين الخطوبة وحفلة العريس التى يتم بها الزواج نهائيا. ولأهمية هذه الحفلة ضعفت رابطة الخطوبة وآثارها، فلو توفيت الخطيبة قبل حفلة العرس فان أباه هو الذى يرثها لا زوجها. والزوج لا يكون ملزماً بنفقتها أو نفقة دفنها قبل حفلة العرس.

٣ - ويقول المقريزى أيضاً ص ٤٠٨ من الجزء الرابع من خططه عن النصارى: أن النكاح لا يصح إلا بحضور شماس وقس وعدول ومهر، ويحرمون من النساء ما يحرم المسلمون.

هذا ما حكاه المقريزى مما رآه فى أيامه، وقد تغيرت تلك الصور كثيراً، وبخاصة الطقوس الشكلية، وقد سبق أن بعض مذاهبهم يوجب الاعلان عن الزواج قبل إجرائه، ولا يجوز عقد النكاح سرا إلا لظروف ضرورية.

وقد نشر محمد صالح بكير عدة بحوث عن إشهار الزواج عند الأمم الغربية إليك ملخصها^(١):

كان الزواج قبل مجمع الترانس دينيا محضا، فلم تفرض القوانين شيئا لإشهاره، بل كان يكفي رضا الزوجين، وهذا ضد عادة الجرمان الذين يشترطون لإشهاره الدخول.

وقد تقلصت تلك العادات بعد مرسوم «نيقولا الأول» الموجه للبلغاريين. ولم يعد للقسيس الا التبريك. وهو أمر في الدرجة الثانية، وعلى هذا فقد كان هناك زواج علني وزواج سرى يكتفى فيه برضا الطرفين، وهو زواج خطير، لأنه يؤدي الى جواز التعدد للزوجات والأزواج. والى الشك في نسب الأولاد، وإن كان فيه مزية استقلال الطرفين وحريةهما في إبداء رأيهما وعدم خضوعهما للعادات القاضية بأن الملك هو المسيطر على بنات الرعية فى الزواج، وللشريف إجبار تابعه على الزواج بامرأة مخصوصة، وشاع ذلك النوع من الانجلوسكسون المباليين للحرية. ولم يبطل فى ايكوسيا إلا سنة ١٨٤٨م.

وبعد مجمع الترانس كانت وظيفة القسيس مزدوجة، دينية ومدنية، فكانت البروتستانت لا يستطيعون الزواج امام قسيس الكاثوليك، ولجئوا إلى مأمورى الدولة، وكان هذا قبل الغاء مرسوم «نانت» فلما ألغى سنة ١٦٨٥م فى ٢٢ أكتوبر، تقرر عدم جواز إجراء الزواج أمام المأمورين.

وبهذا تعذر على البروتستانت الزواج إلا أمام قسيس الكاثوليك، وزاد فى صعوبة ذلك تصريح ١٣ أكتوبر ١٦٩٨م الذى لا يعترف بالبروتستانتية فى فرنسا، فكانوا يلجئون الى إنكار عقيدتهم ليتسنى لقسيس الكاثوليك تبريك زواجهم.

وفى القرن الثامن عشر خفت هذه الحدة، فأبيح لهم الزواج حسب رغبتهم أمام المأمورين، أو قسيسهم الخاصين.

(١) مجلة الأزهر أعداد ربيع الآخر ورجب وشعبان وذى الحجة ١٣٦٧هـ.

ولما أعلنت ثورة فرنسا ونادت بمبادئ الحرية رأوا أن الزواج كالعقود المدنية، ليس للقسييس تنظيمه، وذلك بدستور ١٧٩١م الذى قرر حرية العقائد، وبهذا فقد الزواج صفته الدينية. وإن أحيط بشروط لحماية المجتمع، وترتب على هذا التشريع أن القسييس يستطيع التزوج بعد أن كان محروما منه، كما أجازت الثورة الفرنسية الطلاق، وأدخلت تعديلات على موانع الزواج الدينية.

هذا هو الاشهار فى الديانتين وفى القوانين الغربية والكنائس المسيحية، ولكن، كما قلت، لكل أمة مع القواعد الرسمية طقوس ومظاهر فى حفلات الزواج لاشهاره على نحو ما رأيت فى صور الزفاف السابقة.

● الاشهار فى الإسلام:

والإسلام وضع نظاما لإشهار الزواج، بعضه واجب وبعضه مندوب، واليك إجمال هذا النظام:

١- شرط لصحة عقد الزواج حضور ولى وشاهدى عدل. وإن أجازه أبو حنيفة بشاهدين ولو غير عدلين، وفى هذا ضمان لعدم جحود الزواج. وباب نشره واعلانه، على أن بعض الأئمة لم يشترط الشاهدين إذا أعلن النكاح واشتهر. وقد تقدم الحديث عن ذلك فى موضعه.

وأجمع الأئمة على أن النكاح لو عقد سرا بدون إظهار لم يعقد ويرجع الى النووى فى شرح مسلم ج ٩ ص ٢٢٧.

٢- سن الإسلام اجتماع عدد كبير عند العقد. ويسن معه ما هو معهود من توزيع الحلو الجاف والسائل، فإن النبى ﷺ لما زوج فاطمة من على جمع الصحابة، وخطب فيهم خطبته المشهورة، لي شهر الزواج بينهم. ويقول أنس: فدعا بطبق من بسر. ثم قال «انتهبوا» فانتهبنا. ومعنى الانتهاب، أن يأخذ كل ما شاء. والبسر هو البلح قبل أن يكون رطبا وبعد الرطب يكون التمر.

وقد حرص النبى ﷺ على إعلان الزواج بالاجتماع حيث يكثر الناس،

وذلك كالمساجد أو السرادقات أو أى مكان آخر يصلح للاجتماع الكبير، على أن يكون ذلك فى حدود الطاقة مع الحفاظ على الآداب الإسلامية. ومن أولها عدم اختلاط الجنسين اختلاطاً فيه سفور. وبالأولى البعد عن مبتدعات العصر من المراقصة الشائبة وغيرها.

ورب قائل يقول: ان الاختلاط فى حفل الزواج قد يكون مباحاً، وذلك لأن النبى ﷺ حضر عرساً دعاه إليه أبو أسيد الساعدى. وكانت امرأته يومئذ هى خادم الحفل، وهى العروس. وقد روى ذلك البخارى^(١). والجواب أن ذلك الاجتماع لم يكن فيه سفور وكشف لما حرم الله من العورات، وهذا إذا كان الحفل قد أقيم بعد تشريع الحجاب، أما إن كان قبل ذلك فقد جاء الاجتماع على الأصل الذى كان عليه العرب قبل التشريع. ولو أن حفلات اليوم التزمت فيها الآداب الدينية ما كان هناك مانع من شهود الرجال والنساء لها، وبخاصة إذا كان مع المرأة زوجها أو محرماً. لكن المؤسف أن هذه المناسبات تتخذ ذريعة لعرض الأجسام والزينات.

٣ - ومع ندب الاجتماع تسن خطبة إعلامية للحاضرين بموضوع اجتماعهم، وهو كمنشأة إذاعية يتناقلها الحاضرون ويحملونها إلى غيرهم من الناس.

وإليك خطبة النبى ﷺ فى زواج فاطمة من على كما ذكرها ابن عساكر وأبو الخير القزوينى الحاكمى وغيرهما عن أنس:

« الحمد لله الحمود بنعمته. المعبود بقدرته. المطاع بسلطانه. المرهوب من عذابه وسطوته. النافذ أمره فى سمائه وأرضه. الذى خلق الخلق بقدرته، وميزهم بأحكامه. وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ، إن الله تبارك اسمه، وتعالى عظمته، جعل المصاهرة سبباً لاحقاً. وأمرنا مفترضاً، أو شج به الأرجام. وألزم به الانام. فقال عز من قائل ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا

(١) ج ٧ ص ٣٢ طبعة الشعب.

وَصَهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿١﴾ فَأَمَرَ اللَّهُ بِجَرَى إِلَى قَضَائِهِ، وَقَضَاؤُهُ يَجْرَى إِلَى قَدْرِهِ .
ولكل قضاء قدر، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب . ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ
وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ﴿٢﴾ ثم أن الله عز وجل أمرني أن أزوج فاطمة من علي بن
أبي طالب، فاشهدوا أني زوجته على أربعمئة مثقال ثم قال انتهبوا فانتهبنا .

ودخل على، فتبسم النبي ﷺ في وجهه، ثم قال «إن الله عز وجل أمرني
أن أزوجك فاطمة على أربعمئة مثقال فضة، أرضيت بذلك»؟ فقال: قد رضيت
بذلك يا رسول الله . فقال عليه الصلاة والسلام «جمع الله شملكما، وأعز
جدكما، وبارك عليكما، وأخرج منكما كثيرا طيبا»^(١) . والجند هو الحظ
والنصيب . ويقال أيضا للمال والغنى، كما يقال للعظمة والقدر .

ومن مآثور الخطب في ذلك خطبة عمر بن عبد العزيز، التي يرد بها على
خطبة محمد بن الوليد لأخته، وقد تكلم كلاما طويلا . قال عمر: الحمد لله ذي
الكبرياء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء، أما بعد، فإن الرغبة منك دعتك
إلينا، والرغبة فيك أجابتك منا، وقد أحسن بك ظنا من أودعك كريمته، واختارك
ولم يختر عليك . وقد زوجتكما على كتاب الله، وإمساك بمعروف أو تسريح
بإحسان^(٢) .

٤ - أباح الإسلام إظهار الفرح عن طريق الطرب والغناء المناسب، أو
الموسيقى وقد ورد في ذلك حديث ابن ماجه عن محمد بن حاطب عن النبي
ﷺ «فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت» ورواه الترمذي وحسنه، ولا
شك أن الموسيقى التي رمز اليها بالدف، والغناء الذي رمز إليه بالصوت، مما يظهر
الزواج ويعلنه . مما فيهما من أصوات عالية على غير المعتاد، وذلك يلفت الأنظار
حتما، والطبول وما يماثلها من كل ما يحدث صوتا عاليا أداة متعارف عليها من
قديم للإعلان والإعلام .

(١) المواهب اللدنية للقسلاني ج ١ ص ٩٠ وشرح الزرقاني ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ١٤٠ .

بل أن الأمر يتعدى مرتبة الاباحة الى مرتبة المطلوب، فقد صرح الحديث الشريف بطلبه والأمر به. أخرج الترمذى من حديث عائشة «أعلنوا هذا النكاح، واجعلوه فى المساجد، واضربوا عليه بالدفوف» قال الترمذى: حديث حسن. وضعفه البيهقى.

روى ابن ماجه عن عائشة أنها زوجت يتيمة اسمها الفارعة بنت أسعد لرجل من الأنصار هو نبيط بن جابر الأنصارى كما يقول العقاد فى كتاب - الصديقة بنت الصديق - وكانت عائشة فىمن أهداها إلى زوجها. فقال: لما رجعنا قال لنا رسول الله ﷺ «ما قلتى يا عائشة؟» فقالت: سلمنا ودعونا بالبركة، ثم انصرفنا. فقال: «إن الأنصار قوم فىهم غزل، ألا قلتى: أتيناكم أتيناكم، فحيونا نحييكم؟» وزاد فى رواية «ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم ولولا الحبة السوداء ما سرت عذرايكم» أو «ولولا الحنطة السمراء ما سمت عذرايكم» (١).

وجاء فى أسد الغابة لابن الأثير: أن أم نبيط الأنصارية هى القائلة فى عرس: أتيناكم أتيناكم.. فوقف عليها النبى ﷺ واستعاد ما قالت. فقال لها: قولى ولولا الحنطة السمراء ما سمت عذرايكم» (٢).

وروى ابن ماجه عن ابن عباس أن عائشة زفت امرأة إلى رجل من الأنصار. فقال النبى ﷺ: «يا عائشة أما كان معكم من لهو، فإن الأنصار يعجبهم اللهو» وضعف الألبانى هذا الحديث عن ابن عباس فى تخريج أحاديث الجامع الصغير. وفى كتاب «صفوة التصوف» جاء فى بعض الروايات أنها أرسلتها لزوجها بقاء - مكان جنوبى المدينة - وفى بعضها قول النبى ﷺ لعائشة «فأرسلت معهم بغناء، فإن الأنصار يحبونه»؟ قالت: لا. قال «فأدركيها بأرنب» وأرنب امرأة كانت تغنى بالمدينة. وقيل: اسمها زينب كما فى الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر.

(١) روى البخارى مثل الجزء الأول منه دون ألفاظ الغناء.

(٢) اعلام النساء لعمر كحاله.

وروى النسائي والحاكم وصححه، قال عامر بن سعد البجلي : دخلت على قرظة بن كعب وأبى مسعود الأنصارى فى عرس، فإذا جوار يغنين، فقلت : يا صاحبى رسول الله، يفعل هذا عندكم؟ فقالا : اجلس إن شئت فاستمع معنا، وإن شئت فاذهب، فانه قد رخص لنا اللهو عن العرس (١).

وجاء فى كتاب المطالب العالية لابن حجر «ج ٢ ص ٥٤» أنه كان معهم مع الجوارى ريخان، وقد أخبروا أن الرسول ﷺ رخص لهم فى الغناء فى العرس، والبكاء على الميت غير نوح، رواه البيهقى من طريق إسرائيل عن أبى إسحاق وأبو مسعود هو عقبه بن عمرو، وكان الثالث ثابت بن يزيد بن وديعة. ورواه أبو داود الطيالسى برجال ثقات.

لكن إذا أبيع اللهو بالموسيقى والغناء ورأى بعضهم أن المباح ما كان بما نص عليه الحديث فقط وهو الدف والصوت، فغير الدف ممنوع، ورجح الكثير إطلاق ما يطرب به أو تعميمه، وكون النبى اقتصر على الدف فلأنه كان هو المعروف إذ ذاك. فليكن ذلك بغير انتهاك حرمة أو فساد خلق، ويشير الى هذا حديث الربيع بنت معوذ، فانها قالت : جاء رسول الله ﷺ فدخل على غداة بنى بى، أو غداة بنى بى، وهو زوجها إياس بن بكير الليثى، فجلس على فراشى، وجويريات لنا يضربن بدفوفهن ويندبن من قتل من آبائى يوم بدر، إلى أن قالت إحداهن : وفيما نبى يعلم ما فى غد. فقال لها : «اسكتى عن هذا وقولى الذى كنت تقولين قبلها» رواه البخارى. ويراجع شرط عدم وجود محرم فى البخارى ج ٧ ص ٣٢، ٣٣ طبعة الشعب، والغناء فى العيد ج ١ ص ٣١٤ من مختصر الزبيدى، وفى شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ج ٨ ص ٢٤٦، وسيجىء توضيح لذلك فى الجزء الخاص بحقوق الزوجين (٢).

(١) الإسلام والمرأة المعاصرة للبهى الخولى.

(٢) راجع كتابنا «الإسلام ومشاكل الحياة»

٥ - وإلى جانب ما تقدم سن الإسلام عمل وليمة لمناسبة الزواج، شكر الله على النعمة، وإدخالاً للسرور على قلوب الفقراء، وتكريماً للأصدقاء والمدعوين .

وهي تكون من طرف الزوج لا من طرف الزوجة، وهي عادة عربية أقرها الإسلام بل دعا إليها، فقد كانت للعرب موائد تقدم للناس في مناسبات عدة، لكل منها اسمها، جاء في كتاب «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» للسيد / محمود شكرى الألوسى البغدادى «ج ١ ص ٣٨٦ طبعة دار الكتاب الحديثة بالقاهرة» ما يأتى ملخصاً:

ولائم العرب ست عشرة. الخرس الذى يصنع للنفساء. والعقيقة للمولود يوم السابع. والإعذار للختان. وذو الحذاق لحافظ القرآن. وهو بعد الإسلام. والملاك للخطبة. ويقال: الأملاك وطعامه يسمى «الشندخ» بفتح الدال وضمها، ووليمة العرس للزفاف. والوضيمة لأهل الميت. والوكيرة لبناء المسكن، والعفيرة لهلال رجب. والتحفة للزائر، والشندخ عند وجود الضالة، والنقيعة للقدوم من السفر، والقرى للضيف، والمأدبة ما ليس له سبب، والجفلى التى تعم دعوتها والنقرى التى تخص دعوتها.

ويقول النووى فى شرحه لصحيح مسلم «ج ٩ ص ٢١٦»: الضيافات عند العرب ثمانية أنواع: الوليمة للعرس، والخرس (بضم الخاء المعجمة) ويقال: الخرص (بالصاد المهملة) للولادة. والإعذار بكسر الهمزة وبالعين المهملة وبالذال المعجمة، للختان، والوكيرة للبناء، والنقيعة لقدم المسافر، مأخوذة من النقع وهو الغبار، ثم قيل: إن المسافر يصنع الطعام، وقيل يصنعه غيره له، والعقيقة يوم سابع الولادة، والوضيمة (بفتح الواو وكسر الصاد المعجمة) الطعام عند المصيبة، والمأدبة (بضم الدال وفتحها) الطعام المتخذ ضيافة بلا سبب.

وكما كانت الوليمة تقليدا عربيا قديما كانت تقليدا لليهود أيضاً. ففى

سفر التكوين، اصحاح ٢٩: إن «لابان» صنع وليمة عامة بمناسبة زواج يعقوب من ابنته.

١ - فالوليمة في الإسلام هي الطعام المتخذ للعرس خاصة، مشتقة من الولم وهو الجمع. لأن الزوجين يجتمعان، وهذا كلام أهل اللغة، وكذلك كلام الفقهاء، إلا أن بعضهم أطلقها على كل طعام. سواء أكان للعرس أم لغيره، وفي كتاب «المستوعب»: وليمة الشيء كما له وجمعه، وسميت دعوة العرس وليمة لاجتماع الزوجين.

٢ - وقد أبقى الإسلام على هذا التقليد العربي القديم لعدم منافاته أولاً لمقاصد الإسلام، ولما فيه ثانياً من خير شخصي واجتماعي كما تقدمت الإشارة إليه، وقد صحت فيها نصوص تطلبها وتحث عليها.

فقد روى البخارى ومسلم عن أنس قال: رأى النبي ﷺ على عبد الرحمن ابن عوف أثر صفرة فقال: «ما هذا»؟ قال: يا رسول الله إني تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب. قال «فبارك الله لك. أو لم ولو بشاة».

تناول النووى هذا الحديث فى شرحه لصحيح مسلم بالشرح. فبين الصفرة التى كانت على ابن عوف، ووضح معنى وزن نواة من ذهب، ثم ذكر حكم الوليمة، ومن الخير أن ألخص للقارىء ما قاله:

الصحيح فى معنى هذا الحديث أنه تعلق به أثر من الزعفران وغيره من طيب العروس، ولم يقصده، ولا يتعمد التزعفر، فقد ثبت فى الصحيح النهى عن التزعفر للرجال. وكذا نهى الرجال عن الخلق، لأنه شعار النساء، وقد نهى الرجال عن التشبه بالنساء، فهذا هو الصحيح فى معنى الحديث، وهو الذى اختاره القاضى والمحققون، قال القاضى: وقيل: أنه يرخص فى ذلك للرجل العروس، وقد جاء ذلك فى أثر ذكره أبو عبيد، أنهم كانوا يرخصون فى ذلك للشباب أيام عرسه، قال: لعله كان يسيرا فلم ينكر. قال: وقيل: كان فى أول

الإسلام من تزوج لبس ثوبا مصبوغا علامة لسروره وزواجه، قال وهذا غير معروف، وقيل: يحتمل أنه كان في ثيابه دون بدنه. ومذهب مالك وأصحابه جواز لبس الثياب المزعفرة، وحكاه مالك عن علماء المدينة، وهذا مذهب ابن عمر وغيره. وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا يجوز ذلك للرجل.

وعن تقديره وزن النواة قال: قدرت بخمسة دراهم كما قال أكثر العلماء. وقال أحمد: هي ثلاثة دراهم وثلاث. وقال بعض المالكية: النواة ربع دينار عند أهل المدينة. وظاهر كلام أبي عبيد أنه دفع خمسة دراهم. قال: ولم يكن هناك ذهب، إنما هي خمسة دراهم تسمى نواة، كما يسمى الأربعون أوقية. وقال النووي عن حكم الوليمة: في قوله «أولم ولو بشاة» اختلف العلماء في وليمة العرس، هل هي واجبة أم مستحبة والأصح عند أصحابنا أنها سنة مستحبة، ويحمل هذا الأمر في هذا الحديث على الندب، وبه قال مالك وغيره، وأوجبها داود وغيره.

ومن النصوص التي جاءت في الوليمة، حديث الطبراني من طريق وحشى ابن حرب مرفوعا، أي إلى النبي ﷺ «الوليمة حق». كما روى أحمد من حديث بريدة قال: لما خطب علي فاطمة قال رسول الله ﷺ «إنه لا بد للعروس من وليمة» وسنده لا بأس به.

فهم بعض من هذين النصين أن الوليمة واجبة، ولم يوجبها البعض الآخر. وفسر «حق» بمعنى: ليست باطلة.

وفي رواية عن أحمد أنها واجبة، وأوجبها بعض الشافعية، لهذه النصوص، ولأمر النبي ﷺ بإجابتها، فكانت واجبة. ولكن الأكثرين على أنها سنة، وإن كان ابن بطال قال: لا أعلم أحدا أوجبها.

وإلى جانب هذه النصوص القولية ثبت أن النبي ﷺ أقام الولائم في الزواج، وذلك في زواج فاطمة من علي، وفي زواجه من بعض نسائه.

(أ) أخرج الدولابي عن أسماء قالت : لقد أولم على فاطمة فما كانت وليمة في ذلك الزمان أفضل من وليمته، ورهن ذرعه عند يهودى بشرط شعير. وكانت وليمته أصعا من شعير وتمر وحيس. والحيس هو خليط التمر والأقط « اللين المخثر » وما يضاف إلى ذلك. ولعل فضل هذه الوليمة كان بالنسبة إلى غيرها في ذلك الحين، فقد كانت في أول الهجرة ولم تكثير حوادث الزواج، كما أن فضلها يظهر في كمية الشعير الذى يصنع منه الخبز، وهو مفضل عندهم إذ ذاك، أو لعلها لأنها كانت منسوبة للنبي ﷺ.

(ب) وعند زواج النبي ﷺ بعائشة لم يولم بذبح شاة أو جزور، بل بجفنة «قصعة» كان بعث بها إليه سعد بن عبادة، كما رواه أحمد^(١). وروى أحمد أيضاً من حديث أسماء بنت يزيد بن السكن، التى كانت مع عائشة حين تهيئتها للنبي ﷺ : أنه لم يكن عنده من قرى الا قدح لبن، فشرب وناول عائشة، فشربت على استحياء، ثم ناولتنا، فقلنا: لا نشتهيهِ. فقال « لا تجمعن جوعا وكذبا ».

(ج) وأولم النبي ﷺ على زينب بنت جحش روى مسلم « ج ٩ ص ٢٣١ » عن الجعد أبى عثمان عن أنس بن مالك قال : تزوج رسول الله فدخل بأهله. قال : فصنعت أمى أم سليم حيسا، فجعلته فى تور - إناء - فقالت : يا أنس، اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ فقل : بعثت بهذا اليك أمى، وهى تقرئك السلام، وتقول : إن هذا لك منا قليل يا رسول الله. قال : فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ فقلت : إن أمى تقرئك السلام وتقول : إن هذا لك منا قليل يا رسول الله. فقال : « ضعه » ثم قال : « اذهب فادع لى فلانا وفلانا وفلانا ومن لقيت » وسمى رجالا. قال : فدعوت من سمنى ومن لقيت. قال : قلت لأنس : عددكم كانوا؟ قال : زهاء ثلثمائة. وقال رسول الله « يا أنس، هات التور » قال : فدخلوا

(١) الزرقانى على المواهب ج ٣ ص ٢٣١.

حتى امتلأت الصفة والحجرة، فقال رسول الله « ليتحلق عشرة وعشرة وليأكل كل انسان مما يليه » قال: فأكلوا حتى شبعوا. قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم. فقال لى « يا أنس ارفع » قال: فرفعت فما أدرى حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت. قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون فى بيت رسول الله ﷺ ورسول الله جالس وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله ﷺ فخرج رسول الله فسلم على نسائه، ثم رجع، فلما رأوا رسول الله قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه. قال: فابتدروا الباب، فخرجوا كلهم، وجاء رسول الله حتى أرخى الستر، ودخل وأنا جالس فى الحجرة، فلم يلبث الا يسيرا حتى خرج على. وأنزلت هذه الآية وهى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وتسمى آية الحجاب.

فخرج رسول الله وقرأهن على الناس.. يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى... » قال الجعد: قال أنس بن مالك: أنا أحدث الناس عهدا بهذه الآيات، وحجب نساء النبى ﷺ.

وفى رواية ثابت عن أنس « ويكنى أبا حمزة » (١): قال أنس: وشهدت وليمة زينب فأشبع الناس خبزا ولحما، وكان يبعثنى فأدعو الناس. فلما فرغ قام وشيعته، فتخلف رجلان أستأنس بهما الحديث لم يخرججا، فجعل يمر على

(١) مسلم ج ٩ ص ٢٢٥.

نساءه، فيسلم على كل واحدة منهن «سلام عليكم، كيف أنتم يا أهل البيت»؟ فيقولون: بخير يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ فيقول «بخير». فلما فرغ رجوع ورجعت معه. فلما بلغ الباب إذا هو بالرجلين قد استأنس بهما الحديث، فلما رأياه قد رجع قاما فخرجا، فوالله ما أدري. أنا أخبرته أم أنزل عليه الوحي بأنهما قد خرجا. فرجع ورجعت معه، فلما وضع رجله في أُسْكُفَةَ الباب - العتبة - أرخى الحجاب بيني وبينه، وأنزل الله تعالى هذه الآية... ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾.

كانت وليمة زينب أكبر وليمة كما يقول أنس، وقد يكون ذلك لشكر النبي ربه على تزويجه لها بالوحي. وقيل: كانت أعظم الولائم لأن النبي أراد إشهار هذا الزواج بالذات لإعلان الحكم الشرعي بإبطال التبني وتأكيده، وقال ابن حجر في الفتح ما معناه: إن أنسا أخبر بأن وليمة زينب أكثر من غيرها بحسب علمه، أو لأن البركة فيها كانت كبيرة، لأن المسلمين شبعوا لحما وخبزا من الشاة الواحدة، واستظهر أن يكون النبي ﷺ أو لم على ميمونة بأكثر من ذلك، لأنه تزوجها في عمرة القضية بمكة، وطلب من أهل مكة حضور وليمتها فامتنعوا، فدعوته لأهل مكة تقتضى أن يكون أعد أكثر من شاة، لوجود التوسعة إذ ذاك، حيث كانت خيبر قد فتحت، ووسع الله على المسلمين منذ فتحها.

هكذا قال ابن حجر، وإن كان البعض - كالسفارينى - عقب عليه بأن النبي ﷺ لم يعد لأهل مكة طعاما كثيرا، بل طعاما قليلا، ودعاهم ليشبعهم منه ببركته التى إذا رأوها ربما أسلموا (نفثات صدر المكمد، وقررة عين المسعد، لشرح ثلاثيات مسند الامام أحمد، للشيخ محمد السفارينى الحنبلى ج ١ ص ٣٤٢، ٣٤٣).

(د) كما أولم النبي ﷺ على صفية، فقد روى مسلم فى صحيحه «ج ٩

ص ٢١٩» خبر زواجه منها وجاء فيه: حتى إذا كان بالطريق جهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح النبي ﷺ عروساً، فقال «من كان عنده شيء فليجيء به» قال: وبسط نطعا - جلد ذبيحة - قال: فجعل الرجل يجيء بالأقط، وجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن فحاسوا حيساً، فكانت وليمة رسول الله ﷺ وأولم أيضاً على ميمونة، كما ذكره ابن حجر في تعليقه على وليمة زينب فيما سبق.

٢ - ووقت الولاية اختلف فيه العلماء، كما يقول النووي، فحكى القاضى أن الأصح عند مالك وغيره أنه يستحب فعلها بعد الدخول، وعن جماعة من المالكية استحبابها عند العقد، وعن ابن حبيب المالكي استحبابها عند العقد وعند الدخول.

وهل إذا فعلت مرة تكرر أولاً؟ فى شرح النووى لمسلم أيضاً، قال القاضى - أى عياض - واختلف فى تكرارها أكثر من يومين، فكرهته طائفة، ولم تكرهه طائفة، واستحب مالك للموسر كونها أسبوعاً.

٤ - وما مقدار ما يقدم فى الولاية؟ قال النووى فى شرح مسلم: نقل القاضى الإجماع على أنه لا حد لقدرها المجزىء. بل بأى شيء أولم من الطعام حصلت الولاية. وجاء فى وليمة صافية أنها كانت بغير لحم. وفى زواجه بعائشة أنه لم يولم بذبح شاة أو جزور، وفى وليمة زينب أنه أشبع الناس خبزاً ولحماً. قال النووى: وكل ذلك جائز تحصل له الولاية، لكن يستحب أن تكون على قدر حال الزواج. أه.

وقيل: يسن ألا تنقص عن شاة، والأولى الزيادة عليها، لما يستفاد من قول النبي ﷺ لابن عوف: «أولم ولو بشاة» يعنى بشيء قليل هو شاة، فالذى فوقها يكون أفضل.

ومهما يكن من الأقوال، فإنه ينبغى أن يولم الانسان بما يستطيعه وبما

يناسب الوسط الذي يعيش فيه والجماعة الذين يدعوهم، فلا تكون أقل من طاقته حتى لا يرمى بالبخل أو يظن أنه غير سعيد بهذا الزواج، ولا يكلف فوق طاقته فهو إسراف مذموم.

٥ - يبقى بعد ذلك حكم إجابة الدعوة للوليمة.

ثبت في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إذا دعى أحدكم إلى الوليمة فليأت» وفي رواية «فليجب». وجاء في بعض الروايات من ينزل الاجابة على وليمة العرس، وفي بعضها الآخر من ينزل على العرس وغيره، وجاء في رواية عن النبي ﷺ النص على تعميمها وهي عن ابن عمر أيضاً: «من دعى الى عرس أو نحوه فليجب». وجاء في رواية جابر عن النبي ﷺ «إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب، فإن شاء طعم، وإن شاء ترك». وكان أبو هريرة يقول: بئس الطعام طعام الوليمة، يدعى إليه الأغنياء، ويترك المساكين، فمن لم يأت الدعوة فقد عصى الله ورسوله. ذكر ذلك موقوفاً على أبي هريرة، وروى مرفوعاً إلى النبي ﷺ (١).

وبناء على هذه الروايات الواردة قال النووي في حكم الاجابة للدعوة: لا خلاف أنه مأمور به، لكن، هل أمر بإيجاب أو ندب؟ فيه خلاف، الأصح من مذهبنا أنه فرض عين على كل من دعى لكن يسقط بأعذار سنذكرها، والثاني أنه فرض كفاية، والثالث مندوب.

هذا مذهبنا - الشافعية - في وليمة العرس، وأما غيرها ففيها وجهان لأصحابنا، أحدهما أنها كوليمة العرس، والثاني أن الاجابة إليها ندب وإن كانت في العرس واجبة.

ونقل القاضى اتفاق العلماء على وجوب الإجابة فى وليمة العرس. قال:

(١) شرح الخطيب على أبى شجاع ج ٢ ص ١٣٩.

واختلفوا فيما سواها، فقال مالك والجمهور: لا تجب الاجابة إليها، وقال أهل
الظاهر: تجب الاجابة إلى كل دعوة من عرس وغيره، وبه قال بعض السلف.

أما الأعذار التي تسقط بها الاجابة فكثيرة، منها^(١):

١ - ألا يخص بالدعوة الأغنياء، ويترك الفقراء، ومثل هذا الرجل لا يشجع
على عمله هذا.

٢ - أن يكون الداعى مسلما، فإن الاجابة من واجب الاخوة الإسلامية، أما
معاملة غير المسلم فلا تصل إلى حد الوجوب في مثل هذه المناسبة.

٣ - أن يكون المدعو مسلما، لأنه هو الذي يفهم ويقدر الأوامر الصادرة
من الرسول بالاجابة.

٤ - ان يدعوه في اليوم الأول، وتسبب الاجابة في اليوم الثانى وتكره في
الثالث.

٥ - أن يكون الداعى مطلق التصرف، فلا يجاب السفيه والمهجور عليه.
٦ - ألا يدعوه لخوف منه لو لم يحضر، أو طمعا فى جاهه، أو إعانته على
باطل.

٧ - أن يعين المدعو بنفسه أو نائبه، لا أن نادى فى الناس أو فتح الباب
وقال: ليحضر من أراد.

٨ - ألا يعتذر المدعو للداعى ويقبل عذره.

٩ - ألا يسبق الداعى غيره، يعنى ألا يكون المدعو مرتبطا بدعوة سابقة
تعارض مع هذه الدعوة.

١٠ - ألا يدعوه من أكثر ماله حرام، وإلا كرهت، فان علم أن عين الطعام
حرام حرمت الاجابة. وتباح إذا كان فى ماله شبهة.

١١ - ألا يكون الداعى ظلما أو فاسقا أو شريرا أو طالبا للمباهاة.

(١) النووى على مسلم ج ٩ ص ٢٣٤ - ٢٣٦ والخطيب على أبى شجاع ج ٢ ص ١٣٩.

١٢ - أن يكون المدعو حرا. لا رقيقا. فالرقيق لا يملك.

١٣ - ألا يكون المدعو قاضيا، وفي معناه كل ذى ولاية عامة، وذلك ضمنا لحياد القاضى ونزاهته.

١٤ - ألا يكون هناك من يتأذى بحضوره. أو لا تليق به مجالسته كالأراذل.

١٥ - ألا يكون المدعو أمرد يخاف من حضوره ريبة أو قاله، وبالأولى المرأة السافرة.

١٦ - ألا يكون فى الوليمة منكر لا يزول بحضوره كخمر وملاه وفرش حرير.. والمرأة إذا خافت من حضورها ريبة أو تهمة أو قاله لا تجب عليها الاجابة ولو أذن الزوج، والأولى عدم حضورها خصوصا فى هذا الزمان الذى كثر فيه الاختلاط مع الكشف من غير مبالاة. أهـ.

هذا ما قاله العلماء قديما فى مثل هذه الحفلات فكيف القول فى حفلات اليوم. وفيها ما فيها مما يسقط وجوب إجابتها. بل قد تحرم الاجابة.

جاء فى « كفاية الأخيار » فى فقه الشافعية: هناك وجه يجوز الحضور مع المنكر، ولا يسمع، بل ينكر بقلبه، كما لو كان بجواره منكر كطرب، فلا يلزمه التحول وأن بلغه الصوت. قال النووى: هذا الوجه غلط. وهو خطأ ولا يعتبر بجلالة صاحب « التنبيه » وغيره ممن ذكر. فعلى الصحيح لو لم يعلم المنكر حتى حضر نهاهم. فان لم ينتهوا فليخرج. فان قعد حرم عليه القعود على الصحيح، فإن تعذر الخروج بأن كان فى ليل وهو يخاف قعد وهو كاره، ولا يستمع، فان استمع فهو عاص، ولا يجامل بالحضور، فان المجاملة لا تكون على حساب الدين، لما دعت فاطمة بنت رسول الله ﷺ أباهما ووجد عندها قراما - ستر فيه صور - رجع مغضبا، ولم يجامل ابنته.

هذا، والمراد بالاجابة الحضور ولو لم يأكل. وإن قال البعض بوجوبه، حتى

لا يظن به صاحب الدعوة الظنون . وحتى لو كان صائما صياما واجبا، إلا أن المتنفل يندب له الفطر إن تأذى صاحب الدعوة بعدم أكله، فإن لم يتأذ فلا يفطر، ففي حديث ابن عمر مرفوعا «أجيبوا هذه الدعوة إذا دعيتم لها» متفق عليه . وزاد أبو داود «فإن كان مفطرا فليطعم وإن كان صائما فليدع» .

هذه هي بعض إجراءات الإسلام لإشهار الزواج . وقد أحسنت بعض المحاكم في البلاد الإسلامية صنعا بوجوب تسجيل العقود في سجلاتها الرسمية، فذلك يضمن الاستقرار للحياة الزوجية، كما يضمن الحقوق عند التنازع، وقد رفع إلى عمر رضى الله عنه رجل تزوج امرأة سرا، وكان يختلف إليها، فرآه جار له . فقذفه بها . فقال له عمر: أين بينتك على تزويجها؟ فقال له: كان أمر دون ما شهد عليها أهلها قط . فدرأ الحد عن قاذفه، وقال: حصنوا فروج النساء وأعلنوا هذا النكاح «كشف الغمة للشعراني» .

* * *

● خاتمة:

(أ) شهر العسل: هو الشهر الأول من الدخول، وسمى عسلا لحلاوته ولذته، ومنه سميت النطفة «عسيلة» وهذا التعبير حديث على المجتمع الإسلامي، وإن كان له أصل إلى حد ما في المأثورات الدينية. فإن الأيام الأولى للزواج لها ميزة خاصة على سائر الأيام، ندب الشرع إلى مراعاتها عند زواج الرجل على زوجته، فإن القسم بين الزوجتين في ليالي المبيت يجب أن يراعى فيه العدل، ولكن نظرا إلى أن الزوجة الأولى قد تعودت على زوجها وألفته، وأخذت منه حظا لم تأخذه الزوجة الجديدة كان من اللائق أن تحظى الجديدة بمزيد من الليالي حتى تألف الحياة الجديدة وتانس الى زوجها الذى تذوق معه لذة الحياة الزوجية لأول مرة، فجعل الشرع للجديدة إن كانت بكرًا سبعة أيام متتالية، وإن كانت ثيبًا ثلاثة أيام، ودليل ذلك مبسوط فى بحث تعدد الزوجات وفى الجزء الخاص بحقوق الزوجين. فهذه المدة الخاصة بالزوجة الجديدة تسمى فترة عسل عرفا وإن لم تبلغ شهرا.

ويقول الباحثون: إن شهر العسل له قصة، فقد كان قديما يبدأ عندما يقوم العريس بخطف عروسه. ولكيلا يعثر أهل العروس على ابنتهم كان العريس يخفيها فى منزل لا يعرف مكانه أحد، وكان العروسان يتناولان نوعا من العسل خلال فترة اختفائهما التى كانت تستمر ثلاثين يوما.

وقد جاء فى الأخبار الصحفية أن لشهر العسل علامة عند بعض الشعوب. حيث يقذف حذاء أحمر من فوق أسطح المنازل كدليل على أن العروسين سيبدأن شهر العسل^(١) وفى الجزء الخاص بحقوق الزوجين تعليمات تنبغى مراعاتها فى معاملة الزوجة فى شهر العسل، كقاعدة من قواعد السلوك الزوجى العام.

(ب) عيد الزواج:

تعود بعض الناس أن يحتفلوا بأعياد زواجهم، تذكيرا لأنفسهم بالمناسبة

(١) الأهرام ٥/٩/١٩٧١.

السعيدة التي بدأوا بها حياتهم الجديدة . وفى هذه المناسبة تقدم الهدايا بين الطرفين، وقد تكون من الأصدقاء والأقارب، وقد تقام لذلك حفلات تتسع أو تضيق حسب ظروف كل زوجين .

وهذا التقليد، وإن كان وافدا على المجتمع الإسلامى، إلا أنى لا أرى فيه بأسا أبدا، مادام فى الحدود المشروعة . واعتبره شكرا لله على نعمة الزواج، أو تذكرا لها على الأقل . وهو يعطى نوعا من الجدة للزواج . والحياة تحتاج الى التجديد والى ما يبعث فيها النشاط ويدفع الملل، ولا أحمد لبعض المتزمتين القول بمنع هذا التقليد، بحجة أنه بدعة لم يكن على عهد الرسول وصحابته، وقد ذكرت فى الجزء الخاص بحقوق الأولاد أن الاحتفال بعيد الميلاد للأطفال لا بأس به شرعا، بل قد يكون له أصل إذ كان الرسول ﷺ يصوم يوم الاثنين، ولما سئل عن حكمته قال « ذاك يوم ولدت فيه ويوم أرسل إلى فيه » رواه البخارى عن أبى قتادة . وأنا أكره أن يسمى كل شىء جديد بدعة حتى لو كان فى العادات والسلوك الدنيوى البحت، ويكون هذا الجديد وصاحبه فى النار لأنه ضلالة، وإلا لعددنا ركوب السيارات والطائرات ومظاهر التقدم البشرى بدعة، وهنا تكون الجناية على الإسلام بالفهم العقيم لرسالته وروحه وصلاحيته لكل زمان ومكان .

وأعياد الميلاد والزواج ليس فيها عبادة يتقرب إلى الله بمناسبتها حتى نعوذها من البدع الدينية المذمومة، وليس فيها ما ينافى ما جاء به الدين من مقررات ثابتة، فهى فى محل الاباحة إن لم ترتق بحسن النية إلى مرتبة المندوب إذا كان فيها إدخال للسرور على قلب الزوج أو الزوجة، ونحن نعلم أن مجرد التبسم فى وجه الأخ صدقة، فكيف به بين الزوجين، حيث يوطد المحبة بينهما، كمظهر من مظاهر المعاشرة بالمعروف .

وأنبه إلى أن هذه الأعياد يجب أن تكون بريئة من كل محرم، وينبغى أن تكون فى حدود الطاقة، كما ينبغى ألا يكون التقصير فيها لعذر مقبول حاملا على سوء الظن بالطرف المقصر، وألا يستغل ذلك ذوا الأغراض الخبيثة لتعكير صفو الحياة الزوجية .

● تذييل فى :

التزواج بين الإنس والجن

يسأل بعض الناس عن هذه القضية، هل هى ممكنة الحدوث أولاً، وإذا وقعت ما حكم هذه العلاقة فى نظر الإسلام.

وسأتحدث هنا عن نقطتين، الأولى فى إمكان التزواج وعدمه . والثانية فى حكمه :

● النقطة الأولى :

هناك رأيان فى إمكان هذا التزواج وعدم إمكانه .

(أ) فالجمهور من العلماء يقولون : إنه ممكن، مستدلين بما يأتى :

١ - قوله تعالى مخاطباً إبليس ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الاسراء : ٦٤]، وفسرت هذه المشاركة بما ورد فى الحديث « إذا جامع الرجل امرأته ولم يسم انطوى الشيطان إلى إحليله فجامع معه » ذكره . ابن جرير فى « تهذيب الآثار » وفسرت أيضاً بما قاله ابن عباس : إذا أتى الرجل امرأته وهى حائض سبقه الشيطان إليها فحملت، فجاءت بالخنث، فالخنثون أولاد الجن . رواه الحافظ ابن جرير .

٢ - أن هذا التزواج قد حصل بالفعل، وهذا دليل على إمكانه وسيأتى بيان ذلك .

ورد القائلون بعدم إمكانه على الدليل الأول بأن المشاركة الواردة فى الآية، لا يتعين تفسيرها بما ورد فى الحديث، إن صح، فقد تكون مشاركة وسوسة وغواية وإضلال، لا مشاركة جماع، على أن سند هذا الحديث غير قوى . والحديث الذى ثبت ندب فقط التسمية والاستعاذة من الشيطان عند الجماع،

وإن كان يشير إشارة خفيفة الى المشاركة، كما ردوا على قول ابن عباس بأنه ليس حجة لا فى سنده ولا فى متنه. فالعلم يمنع الحمل وقت الحيض فى أغلب الأحوال، وليس هناك دليل قوى على أن المخنثين - أى الذين فىهم أعضاء الذكورة وأعضاء الأنوثة - هم أولاد الجن..

وردوا على الدليل الثانى بالطعن فى حصول هذا التزاوج. وعدم صدق الأخبار عنه.

(ب) وقال بعض العلماء بعدم إمكان التزاوج بين الأنس والجن، مستدلين بأن الجن عنصر نارى، ولو تزوج جنى إنسية أو إنسى جنية، فإن النطفة مع اختلاف عنصرى الانس والجن لا تستقر فى الرحم، حيث لا تتفق الرطوبة مع النار.

ورد الجمهور على ذلك بما يأتى:

١ - أن الجن ليسوا باقين على عنصرهم النارى المحرق. كما لم يبق بنو آدم على عنصرهم الترابى، فأبو الجن فقط هو الذى من النار، كما أن آدم فقط هو الذى من التراب، وأما ذرية كل منهما فليست كذلك ومما يؤيد هذا:

(أ) أن النبى ﷺ أخبر أنه وجد برد لسان الشيطان، الذى عرض له فى صلاته، على يده لما خنقه. وفى رواية، قال النبى ﷺ «فما زلت أخنقه حتى برد لعابه».

وهذا دليل على تحول عنصر النار، وإلا فمن أين يكون لعاب الشيطان بارداً؟.

(ب) أن الحديث النبوى قال: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم» رواه البخارى ومسلم عن صفية بنت حبيى فلو كان باقياً على ناريتة لاحترق الانسان. وكذلك ما روى أن المصروع يدخل الجن بدنه.

٢ - كما رد الجمهور على أصحاب القول المانع من التزاوج بما يأتى:

(أ) بأن التعلل بعدم إمكان العلق بالنطفة لا يلزم منه عدم إمكان الزواج، لأن الصغيرة والآيسة والعقيم اللاتي لا يمكن العلق معهن يجوز نكاحهن شرعا، والجواز الشرعى فرع الامكان الطبيعى .

(ب) وبأن عدم حصول هذا التزاوج - على فرض التسليم بذلك - لا يدل على عدم الامكان، فان التناكح بين المجوسى والمسلمة غير موجود، مع إمكانه، وعدم ارتفاع الحديد فى الجو كان غير موجود قبل اختراع الطيران، وعدم وجوده ليس دليلا على عدم إمكانه، لأنه أمكن الآن وحصل بالفعل . فعدم الوجود لا يدل على عدم الامكان .

(ج) وبأن الزواج بين الجنسين وقع بالفعل، كما سيأتى ذكره .

● النقطة الثانية :

هناك رأيان للعلماء فى جواز التزاوج بين الانس والجن شرعا :

(أ) رأى بالمنع، وقد نص عليه جماعة من أئمة الحنابلة، كما نقل عن الفتاوى السراجية النهى عنه، واستدل أصحاب هذا الرأى بما يأتى :
١ - قول الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١] . وفسروا المودة بأنها الجماع، والرحمة بالولد .

وقول تعالى أيضا : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [النحل : ٧٢] . ووجه الاستدلال أن الله جعل الأزواج من أنفسنا أى من جنسنا . والجن ليسوا كذلك .

٢ - أن من يحل نكاحهن هن بنات العمومة والخثولة . وليس هناك بين الإنس والجن نسب حتى تكون عمومة وخثولة . هذا مع التسليم بوجود الجن والتناكح فيما بينهم .

٣ - أن المقصود من النكاح هو السكن والمودة والرحمة بين الطرفين . وذلك غير متوفر مع اختلاف الجنسين ، اللهم إلا بنوع من العشق والهوى ، كخوف أحد الطرفين على نفسه من الطرف الآخر ، فيضطر الى القبول ، مع عدم الانسجام التام أيضا ، لأن العداوة بين الطرفين حقيقة واقعة . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦] وقال ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه: ١٢٣] . وفى الحديث « الطاعون وخز أعدائكم من الجن » رواه الحاكم عن أبى موسى وصححه (١) .

وخلقه الجن من النار وهى عدو للطين والماء ، فالعداوة بين الجنسين طبيعية وشرعية .

٤ - قول الله تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء: ٣] ، والنساء اسم لإناث الإنس لا الجن . وتسمية بعضهم رجالا فى مقابلة تسمية الإنس ، قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن: ٦] .

٥ - أن النبى ﷺ نهى عنه .

هذه هى أدلة المانعين المحرمين للتزواج بينهما .

(ب) رأى آخر بجواز التزواج بينهما . ونقل هذا عن الحسن البصرى وقتادة والحكم بن عتيبة وغيرهم ، وإن كان الجواز لا ينفى أنه مكروه . كما نص عليه بعضهم . واستدل المجيزون بما يأتى :

١ - أن الأصل فى التكليف العموم . فيدخل فيه الانس والجن معا . وليس هناك ما ينص على تخصيص هذا العموم بالنسبة لهذه القضية بالذات . فتبقى على الجواز .

(١) الجامع الصغير .

٢ - أن ما أورده المانعون من أدلة وعلل غير مسلم . فيسقط به الاستدلال على مدعاهم، وذلك :

(أ) أن الآيتين المذكورتين ليس فيهما نص على المنع عند اختلاف الجنسين . فأقل ما يقال في هذا الوضع : أنه مسكوت عنه، ويطلب له دليل من موضع آخر .

(ب) وتفسير المودة بالجماع والرحمة بالولد ليس له دليل . فهو تفسير غير متعين .

(ج) وإلزام وصف العمومة والخثولة لجواز النكاح أو قصره عليه غير مسلم، فقد يحدث الزواج بين من لم تربطهما العمومة والخثولة، بل بين من لا يعرف له نسب .

(د) أن السكن والمودة والرحمة قد يكون ذلك مع اختلاف الجنسين ولو بقدر ضئيل، والعداوة لا تمنع الاتصال بين الطرفين، فإن القرآن قرر عداوة بعض الأولاد، فهل معناه مقاطعتهم؟

(هـ) أن تخصيص وصف النساء، باناث الانس ليس له دليل . وقد رأيت أن لفظ الرجال أطلق على الجن، فلماذا لا يجوز إطلاق لفظ النساء على الجن أيضاً .

(و) وبأن النهي الذي قيل أنه ورد عن النبي ﷺ مردود . لأنه ورد مرسلًا . وهو من طريق ابن لهيعة، وهو مطعون فيه . وبهذا لا ينهض الحديث دليلاً على المنع .

٣ - مما استدل به المحيزون أن التزواج وقع بالفعل، وجاءت بذلك أخبار رواها أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب «اتباع السنن والأخبار» وذكر أن منهم شيعا في عقائدهم . وحدثت حكاية للقاضي جلال الدين أحمد بن القاضي حسام الدين الرازي الحنفى، كما ذكر في حاشية كتاب «مسالك

الأبصار» وذكر أبو بكر الخرائطي أن الأعمش شهد نكاحا للجن بجهة «كوثى». ولو لم يكن جائزا ما شهدته.

هذا. وإذا كان هؤلاء يجيزون التزاوج بينهما فإنهم يكرهونه، لأنه لا تحدث به المودة والرحمة والسكن. لاختلاف الجنس، ولعدم الاطمئنان على حل المشاكل الزوجية بينهما كالطلاق والنفقة وغير ذلك، ولما ورد عن مالك في هذا الموضوع. فقد ذكر أبو عثمان سعيد بن العباس الرازى فى كتابه «الالهام والوسوسة» فى باب نكاح الجن: أن قوما من اليمن كتبوا إلى الإمام مالك: أن هاهنا رجلا من الجن يخطب إلينا جارية يزعم أنه يريد الحلال. فقال: ما أرى بذلك بأسا فى الدين، ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل قيل لها: من زوجك؟ قالت: من الجن. فيكثر الفساد فى الإسلام بسبب ذلك. يريد أن الزانية قد تبرر حملها المحرم بأنها متزوجة من جنى.

قال العلماء: كراهة مالك لهذا الزواج إنما هو فى زواج الجنى من الإنسية، أما إجازته فهو فى العكس أى فى زواج الإنسى للجنية^(١).

بعد عرض هذا كله أرى أن التزاوج بين الجن والإنس لم يثبت شرعا منعه، لكنه مكروه طبعاً، وفى الإنس متسع لمن ينشد الهدوء والاستقرار، وإذا حصل اضطراب كان لا مفر من الرضا، مع التمنيات لمن أصيب به أن يقيه الله الأخطار.

* * *

(١) ملخص من كتاب «آكام المرجان فى غرائب الأخبار وأحكام الجن» للشيخ المحدث القاضى بدر الدين أبى عبدالله محمد بن عبدالله الشبللى الحنفى المتوفى ٧٦٩هـ «ص ٦٦ - ٧٤» ومن كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للدميرى - مادة الجن.

● تكملة غريبة :

إذا وجد حيوان بحرى على هيئة إنسان . هل يجوز التزاوج بينه وبين
الآدمى؟

قال الدميرى فى كتابه « حياة الحيوان الكبرى » : إنسان الماء يشبه الانسان،
إلا أن له ذنبا . وحكى أن بعض الملوك حمل إليه إنسان ماء، فأراد الملك أن يعرف
حاله . فزوجه امرأة، فأتاه منها ولد يفهم كلام أبويه، فقال للولد : ما يقول أبوك؟
قال : يقول : أذئاب الحيوانات كلها فى أسفلها، فما بال هؤلاء أذئابهم فى
وجوههم؟ ذكره القزوينى . أهـ .
ولعله يقصد بها اللحى .

وأرى أنه إذا كان التزاوج بين الانس والجن لم يحصل فيه اتفاق مع أن
الجميع مكلفون بالشريعة وذلك لعدم المودة والرحمة والسكن واستقلال بنى آدم
بتحقيق الخلافة فى الأرض، فهل يوجد الأنس والسكن والمودة والرحمة بين
الانسان والأسماك؟

إن هذا الحيوان على الرغم من شكله هو من الأسماك، وإن اختلف العلماء
فى جواز أكله . وهل صحيح أن إنسان الماء استطاع أن يعيش بعيدا عن الماء
ويتزوج امرأة جاءت له بولد كما تذكر الحكاية؟ ربما يكون من فصيلة الحيوانات
البرمائية .

ولقد ذكرت هذه الحكاية من باب المعلومات والطرائف فقط، ولا يمكن
بهذا الشكل تكوين أسرة ..

انتهى الجزء الأول، ويليه الجزء الثانى إن شاء الله

وهو عن الحجاب بين التشريع والاجتماع

* * *

تعريف بالمؤلف

- ١ - الاسم بالكامل : عطية محمد عطية صقر، واسم الشهرة: الشيخ عطية صقر.
- ٢ - جهة الميلاد : بهناباي مركز الزقازيق مديرية « محافظة » الشرقية.
- ٣ - تاريخ الميلاد: يوم الأحد ٤ من المحرم ١٣٣٣ هـ « ٢٢ من نوفمبر ١٩١٤ م - ١٣ من هاتور ١٦٣١ قبطية.
- ٤ - النشأة : حفظ القرآن الكريم في كتاب القرية وسنّه تسع سنوات، وجوّد بالأحكام وسنه عشر سنوات، ثم التحق بالمدرسة الأولية « الإلزامية فيما بعد » والتحق بمعهد الزقازيق الديني سنة ١٩٢٨ م، وحصل من كلية أصول الدين على الشهادة العالمية سنة ١٩٤١ ومن تخصص الوعظ على شهادة العالمية مع إجازة الدعوة والإرشاد سنة ١٩٤٣ م، وكان ترتيبه فيهما « الأول ».
- ٥ - العمل : عُيّن فور تخرجه إماما وخطيبا ومدرسا بوزارة الأوقاف، وتسلم عمله بمسجد عبد الكريم الأحمدي بباب الشعرية بتاريخ ١٦ من أغسطس سنة ١٩٤٣ م ثم نقل إلى مسجد الأربعين البحري بالجيزة (عمار بن ياسر حاليا) في فبراير ١٩٤٤ م. ثم عين واعظا بالأزهر سنة ١٩٤٥ م، وتسلم عمله في طهطا بمحافظة سوهاج. ثم نقل إلى السويس سنة ١٩٤٨ م ثم إلى رأس غارب بالبحر الأحمر سنة ١٩٥١ م ثم إلى القاهرة سنة ١٩٥٥ م، ورفّي مفتشا ثم مراقبا للوعظ حتى أحيل إلى المعاش في نوفمبر سنة ١٩٧٩ . وعمل في أثناء ذلك : مترجما للغة الفرنسية بمراقبة البحوث والثقافة سنة ١٩٥٥، ووكيلا لإدارة البحوث سنة ١٩٦٩ م ومديرا لمكتب شيخ الأهر سنة ١٩٧٠ وأميننا مساعدا لمجمع البحوث الإسلامية، ومدرسا بالقسم العالي بالأزهر.

٦ - النشاط الخارجي : تعاقد مع وزارة الأوقاف بالكويت سنة ١٩٧٢ لمدة سبع سنوات . وسافر في رحلات إلى إيران سنة ١٩٧١م وإلى إندونيسيا في السنة نفسها، ثم إلى ليبيا سنة ١٩٧٢م وإلى البحرين سنة ١٩٧٦م وإلى الجزائر سنة ١٩٧٧م ثم السنغال ونيجيريا وبنين .

٧ - بعد المعاش : عمل مستشاراً لوزير الأوقاف، وعضواً بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالوزارة، وعضواً بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وعضواً بلجنة الفتوى ثم رئيساً لها، وانتخب عضواً بمجلس الشعب سنة ١٩٨٤م ثم عين بمجلس الشورى سنة ١٩٨٩م، ثم مديراً للمركز الدولي للسيرة والسنة النبوية بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالأوقاف سنة ١٩٩١م، مع رئاسته للجنة الموسوعة الفقهية بالمجلس . وسافر في مهمة رسمية إلى الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وباكستان وبنجلاديش وماليزيا وسنغافورة، وبروناي وروسيا والجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا «فازاغستان وأوزبكستان وأذربيجان وتركمان» وكذلك السعودية وزار لندن وبنكوك .

٨ - النشاط العلمي :

- ١ - المشاركة في البرامج الدينية بالإذاعة والتليفزيون .
- ٢ - الكتابة في الصحف والمجلات، مقالات وفتاوى .
- ٣ - الخطابة والوعظ وعقد الندوات في دور التعليم والجمعيات والمؤسسات المختلفة .
- ٤ - نشاط لجنة الفتوى ومجمع البحوث الإسلامية والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- ٥ - فحص الكتب والرسائل المحولة من الجهات المختلفة .
- ٦ - الرد على الاستفسارات الدينية شفوياً وتحريرياً .
- ٩ - حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى سنة ١٩٨٣، وعلى نوط الامتياز من الطبقة الأولى سنة ١٩٨٩م .

- ١٠ - المؤلفات : المؤلفات كثيرة، وبعضها فى حجم كبير بموضوعات تصلح لتكون رسائل مستقلة، ومن أهمها :
- ١ - موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام « ستة أجزاء » .
 - ٢ - أحسن الكلام فى الفتاوى والأحكام (سبعة أجزاء) .
 - ٣ - الدعوة الإسلامية دعوة عالمية .
 - ٤ - الدين العالمى ومنهج الدعوة إليه .
 - ٥ - بيان للناس عن موقف الإسلام من التيارات الحديثة (جزآن) .
 - ٦ - منارات على الطريق « كلمات رائدة فى الدين والأدب والاجتماع » .
 - ٧ - دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة .
 - ٨ - توجيهات دينية واجتماعية .
 - ٩ - المصطفون الأختيار فى الرد على شبهات حول عصمة الأنبياء .
 - ١٠ - الإسلام فى مواجهة التحديات .
 - ١١ - من نور القر الكريم .
 - ١٢ - س ، ج للمرأة المسلمة (فتاوى وأحكام) .
 - ١٣ - فتاوى للشباب .
 - ١٤ - المنهج السليم إلى صراط الله ال مستقيم « نعم، الإسلام هو الحل ولكن أين الطريق » .
 - ١٥ - مناقشة الفريضة الغائبة .
 - ١٦ - منهج الإصلاح فى دعوة محمد ﷺ .
 - ١٧ - الإسلام ومشكلات الحياة « مجموعة فتاوى » .
 - ١٨ - منزلة العمل فى نظر الإسلام .
 - ١٩ - التعريف بالإسلام « الإسلام عقيدة وسلوك » .
 - ٢٠ - الإسلام والتحرر من الجوع .

٢١ - الزكاة وآثارها الاجتماعية .

٢٢ - خير رفيق إلى بيت الله العتيق .

٢٣ - البابية والبهائية تاريخا ومذهبا .

٢٤ - التدخين في نظر الإسلام .

٢٥ - نظرة الإسلام إلى الرق .

٢٦ - التفرقة العنصرية .

٢٧ - الحجاب وعمل المرأة .

٢٨ - مغزى العبادات في الإسلام .

٢٩ - الإسلام ومكافحة المخدرات .

٣٠ - من أدب الدعوة .

٣١ - فن إلقاء الموعدة .

٣٢ - دولة العلم والإيمان .

٣٣ - المحافظة على الأسرار .

٣٤ - مختصر السيرة النبوية .

٣٥ - نظرات في التربية .

٣٦ - في رحاب القرآن الكريم .

* * *

فهرس الأحاديث المخرجة

الصفحة	الحديث
٨	١ - إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث
١٢	٢ - علم موسى والخضر بالنسبة إلى علم الله
١٢	٣ - سبب تسمية الخضر
١٢	٤ - من قال: إني عالم فقد جهل
١٢	٥ - يقول الله: أنا عند ظن عبدى بى
١٢	٦ - أول من تسعربهم النار يوم القيامة
١٧	٧ - ثلاثة لا يسلم منهم أحد، الظن والطيرة والحسد
٢١	٨ - إياكم وخضراء الدمن
٢٢	٩ - إن المرأة تقبل فى صورة شيطان وتدبر فى صورة شيطان
٢٢	١٠ - آية المنافق ثلاث
٢٢	١١ - حديث صلاة الاستخارة ودعائها
٢٣	١٢ - الحرب خدعة
٢٤	١٣ - إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد
٢٤	١٤ - إنى قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا
٢٥	١٥ - وعظنا رسول الله موعظة وجلت منها القلوب
٢٥	١٦ - أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم
٥٠	١٧ - أثر رجم القردة لقردة زنت

- ١٨ - تعليم جبريل لآدم كيف يأتي أهله ٦٩
- ١٩ - يحيى كان حصورا وان ذكره مثل هذه القذاة ٩٠
- ٢٠ - أتدرى ما رهبانية أمتى ٩٥
- ٢١ - إن الرهبانية لم تكتب علينا ١٠٣
- ٢٢ - لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم ١٠٣
- ٢٣ - أوصيك بتقوى الله فإنها أساس كل شيء ١٠٣
- ٢٤ - لكل أمة رهبانية ١٠٣
- ٢٥ - إن ابليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه ١٠٥
- ٢٦ - يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ١٠٦
- ٢٧ - جاء رهط إلى بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادته ١٠٧
- ٢٨ - نهى النبي لعثمان بن مظعون عن التبتل ١٠٧
- ٢٩ - من أراد أن يلقي الله طاهرا مطهرا فليتزوج الحرائر ١٠٧
- ٣٠ - أربع من سنن المرسلين ١٠٨
- ٣١ - انكحوا فإني مكاثركم ١٠٨
- ٣٢ - ثلاثة حق على الله عونهم ١٠٨
- ٣٣ - أربع حق على الله عونهم ١٠٨
- ٣٤ - النكاح سنتى ١٠٨
- ٣٥ - أمر النبي لربيعه بالزواج والوليمة ١٠٨
- ٣٦ - إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين ١٠٩
- ٣٧ - من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه ١٠٩

- ٣٨ - قول النبي لعكاف أنت إذن من إخوان الشياطين ١٠٩
- ٣٩ - شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم ١٠٩
- ٤٠ - النبي يعطى من الفىء حظين للمتأهل ١١٠
- ٤١ - خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ ١١٥
- ٤٢ - قلة العيال أحد اليسارين ١١٥
- ٤٣ - يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته ١١٥
- ٤٤ - حبيب إلى من دنياكم الطيب والنساء ١١٦
- ٤٥ - لا يتبعنى رجل ملك بضع امرأة ١٢٥
- ٤٦ - لكل عامل شرة، ولكل شرة فترة ١٢٦
- ٤٧ - على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ١٢٦
- ٤٨ - خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى ١٢٧
- ٤٩ - وفى بضع أحدكم صدقة ١٢٨
- ٥٠ - وإنك لن تنفق نفقة ١٢٨
- ٥١ - يوم من وال عادل أفضل من عبادة ستين سنة ١٢٨
- ٥٢ - كل شىء يلهو به الرجل باطل ١٢٨
- ٥٣ - طوبى لمن بات حاجا وأصبح غازيا ١٢٨
- ٥٤ - قوله لأسماء: حسن تبعل المرأة لزوجها ١٢٨
- ٥٥ - لم يرض النبي أن يتزوج رجل لا يجد صداقا إلا ثوبه ١٣٤
- ٥٦ - الرجل راع فى بيته ومسئول عن رعيته ١٣٧
- ٥٧ - كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت ١٣٧

- ٥٨ - لعن الله من عمل عمل قوم لوط..... ١٤٩
- ٥٩ - إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قول لوط..... ١٤٩
- ٦٠ - لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة في دبرها..... ١٤٩
- ٦١ - اقتتلوا الفاعل والمفعول به..... ١٤٩
- ٦٢ - سحاق النساء زنى بينهن..... ١٥٤
- ٦٣ - إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان..... ١٥٤
- ٦٤ - إذا استحلّت أمتي خمسا فعليهم الدمار..... ١٥٤
- ٦٥ - نهى رسول الله عن عشرة وعن مكامعة المرأة المرأة بغير شعار... ١٥٥
- ٦٦ - من وقع على بهيمة فاقتلوه واقتلوا البهيمة معه..... ١٦١
- ٦٧ - اقتتلوا الفاعل والمفعول به والذي يأتي البهيمة..... ١٦١
- ٦٨ - ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوى الألباب منكن... ١٨١
- ٦٩ - المرء على دين خليله..... ١٨٣
- ٧٠ - النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته..... ١٨٤
- ٧١ - استوصوا بالنساء خيرا. فإنما هن عوان عندكم..... ١٨٤، ١٨٥
- ٧٢ - عرض عمر بنته حفصة على عثمان وأبى بكر..... ١٨٦
- ٧٣ - فاطمة بنت قيس تستشير النبي في خطبة معاوية وأبى جهم..... ١٨٧
- ٧٤ - إياكم وخضراء الدمن..... ١٨٩
- ٧٥ - لا تنكح المرأة لجمالها فلعل جمالها يردبها..... ١٩٢
- ٧٦ - من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا دناءة..... ١٩٥
- ٧٧ - تنكح المرأة لأربع..... ١٩٩

- ٧٨ - ثلاثة لا يدخلون الجنة..... ٢٠١
- ٧٩ - الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة..... ٢٠٢
- ٨٠ - أربع من السعادة، المرأة الصالحة، والمسكن الواسع..... ٢٠٢
- ٨١ - أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة..... ٢٠٢
- ٨٢ - خير نسائكم من إذا نظرت إليها سرتك..... ٢٠٢
- ٨٣ - إن الله يبغض الثرثارين..... ٢٠٤
- ٨٤ - تزوجوا في الحجر الصالح، فإن العرق دساس..... ٢٠٦
- ٨٥ - قوله لصفية: وكيف تكونان خيرا منى وأبى هرون..... ٢٠٨
- ٨٦ - تزوجوا الولود فيأني مكاثركم..... ٢٠٩
- ٨٧ - خير نسائكم الولود الودود..... ٢٠٩
- ٨٨ - ذروا الحسناء العقيم، وعليكم بالسوداء الولود..... ٢١٠
- ٨٩ - قوله لجابر: هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك..... ٢١٠
- ٩٠ - قول عائشة للنبي رأيت لو مررت بشجرة قد أرتع فيها..... ٢١٠
- ٩١ - قوله لجابر: فأين أنت من العذارى ولعابها؟..... ٢١١
- ٩٢ - عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواها..... ٢١٢
- ٩٣ - خيرهن أيسرهن صداقا..... ٢١٧
- ٩٤ - من يمن المرأة تسهيل أمرها وقلة صداقها..... ٢١٧
- ٩٥ - لا تنكحوا القرابة القريبة..... ٢١٨
- ٩٦ - إذا جاءكم الأكفاء فأنكحوهن..... ٢٢٧
- ٩٧ - نعم المال الصالح للعبد الصالح..... ٢٣٠

- ٩٨ - إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ٢٣٤
- ٩٩ - النبي يخطب امرأة لجليب ٢٣٥
- ١٠٠ - الأثر: من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها ٢٣٦
- ١٠١ - النهى عن نكاح الدميم ٢٣٧
- ١٠٢ - لا تنكحوا النساء إلا الأكفاء، ولا يزوجهن إلا الأولياء ٢٤٥
- ١٠٣ - قريش بعضهم أكفاء بعض ٢٤٥
- ١٠٤ - إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ٢٤٦
- ١٠٥ - غضب رسول الله ممن منعوا أن يزوجوا بلالا ٢٤٩
- ١٠٦ - إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ٢٥٠
- ١٠٧ - إن آل بني فلان ليسوا لى بأولياء ٢٥٠
- ١٠٨ - هذا خير من ملء الأرض مثل هذا ٢٥٠
- ١٠٩ - تزويج النبي لزینب بنت جحش من زيد بن حارثة ٢٥١
- ١١٠ - مدح النبي لأبى هند الحجام وامرأة بنى بياضة أن ينكحوه ... ٢٥١
- ١١١ - لا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها ٢٥٧
- ١١٢ - امرأة من مكة تقبل المتعة من رجل فقير شاب ٢٥٧
- ١١٣ - أيما امرأة أنكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل ٢٥٨
- ١١٤ - لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل ٢٥٩
- ١١٥ - لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها ٢٥٩
- ١١٦ - آمروا النساء فى بناتهن ٢٦٣
- ١١٧ - اليتيمة تستأمر فى نفسها، فإن صمتت فهو إذنها ٢٦٤

- ١١٨ - لا تنكح الأيم حتى تستأمر..... ٢٦٤
- ١١٩ - الأيم أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأذن..... ٢٦٤
- ١٢٠ - آمروا النساء في أنفسهن، فإن الثيب تعرب عن نفسها..... ٢٦٤
- ١٢١ - خنساء بنت خدام يرد النبي نكاحها..... ٢٦٦
- ١٢٢ - جارية زوجها أبوها وهي كارهة فخيرها النبي..... ٢٦٦
- ١٢٣ - جارية زوجها أبوها من ابن عمها ليرفع بها خسيسته..... ٢٦٦
- ١٢٤ - قصة بريرة ومغيث وشفاعة النبي بينهما..... ٢٦٧
- ١٢٥ - أشيروا على النساء في أنفسهن..... ٢٦٧
- ١٢٦ - قوله لمن زوج بنتا من لا تريده أنت الذي لا نكاح لك..... ٢٦٧
- ١٢٧ - قوله في بنت مضعون هي يتيمة ولا تنكح إلا بإذنها..... ٢٦٨
- ١٢٨ - احملوا النساء على أهوائهن..... ٢٦٨
- ١٢٩ - ليس منا من تطير.. أو تكهن.. أو سحر..... ٢٧٠
- ١٣٠ - من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه..... ٢٧٠
- ١٣١ - لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر..... ٢٨١
- ١٣٢ - من تشبه بقوم فهو منهم..... ٢٨٢
- ١٣٣ - ليس منا من تشبه بغيرنا..... ٢٨٢
- ١٣٤ - أن يطعن في رأس أحدكم خير له من أن يمس امرأة لا تحل له..... ٢٨٢
- ١٣٥ - ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما..... ٢٨٢
- ١٣٦ - وإذا استنصحك فانصحه..... ٢٨٦
- ١٣٧ - بعث النبي أم سليم إلى امرأة تخطبها..... ٢٨٧

- ٢٨٨ - ١٣٨ - الرسول برسل حاطبا ليخطب له أم سلمة.....
- ٢٨٩ - ١٣٩ - خير نساء ركين الإبل نساء قريش.....
- ٢٨٩ - ١٤٠ - قول عمر لمن وأد بنته .. أنكحها نكاح العفيفة المسلمة.....
- ٢٩٠ - ١٤١ - تزوج النبي امرأة من غفار وأبصر بكشحها بياضا.....
- ٢٩٠ - ١٤٢ - قول عمر: أيما امرأة غربها رجل.....
- ٢٩٠ - ١٤٣ - طلاق عبد يزيد لزوجته أم ركانة.....
- ٢٩٧ - ١٤٤ - سكينه بنت حنظلة يخطبها رجل في العدة.....
- ٢٩٨ - ١٤٥ - لا يبيع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه.....
- ٣٠١ - ١٤٦ - إرسال النبي زيد بن حارثة ليخطب له زينب بنت جحش.....
- ٣٠٢ - ١٤٧ - خطبة الحاجة والنكاح. وخطبة أبي طالب في زواج النبي.....
- ٣٠٩ - ١٤٨ - قوله في الذهب والحريز: إن هذين حرام على ذكور أمتي.....
- ٣٠٩ - ١٤٩ - ونهانا عن خواتيم أو عن تختم بالذهب.....
- ٣١٠ - ١٥٠ - قوله لمن في يده خاتم ذهب: يعمد أحدكم إلى جمرة نار.....
- ٣١٠ - ١٥١ - حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأهل لإناثهم.....
- ٣١٠ - ١٥٢ - كانوا يرخصون للغلام أن يلبس خاتم الذهب.....
- ٣٢٤ - ١٥٣ - خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح.....
- ٣٢٤ - ١٥٤ - حديث عائشة في أنواع الأنكحة في الجاهلية.....
- ٣٢٨ - ١٥٥ - لا شغار في الإسلام.....
- ٣٢٨ - ١٥٦ - عيينة عن عائشة: من هذه الحميراء إلى جنبك.....
- ٣٣١ - ١٥٧ - من سألت النبي عن خطبة ابن زوجها لها.....

- ١٥٨ - أمر النبي بقتل من تزوج امرأة أبيه ٣٣٢
- ١٥٩ - قول ابن عمر حرم الله تعالى الشركات على المسلمين ٣٤٦
- ١٦٠ - سبب نزول ولا تمسكوا بعصم الكوافر ٣٤٨
- ١٦١ - من وقع على ذات محرم فاقتلوه ٣٥٦
- ١٦٢ - من تخطى حرم المؤمنين خطوا وسطه بالسيف ٣٥٦
- ١٦٣ - يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب ٣٦٤
- ١٦٤ - لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ٣٦٤
- ١٦٥ - قوله في بنت حمزة: لا تحل لى إنها ابنة أخى من الرضاعة ٣٦٤
- ١٦٦ - قوله لعائشة عن أفلح: ائذنى له فإنه عمك ٣٦٤
- ١٦٧ - لا ينكح المحرم ولا ينكح ولا يخطب ٣٦٧
- ١٦٨ - تزوج رسول الله ميمونة وهو محرم ٣٦٧
- ١٦٩ - قول ميمونة: إن الرسول تزوجها وهو حلال ٣٦٧
- ١٧٠ - المتلاعنان لا يجتمعان أبدا ٣٦٨
- ١٧١ - النهي عن الاستمتاع بالسيايا قبل الاستبراء ٣٧١
- ١٧٢ - نهى النبي عن زواج الحامل ٣٧١
- ١٧٣ - من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماءه ولد غيره ٣٧٢
- ١٧٤ - سبيعة بعد وضع حملها تزينت للخطاب ٣٧٢
- ١٧٥ - قوله في الحبلى التى تزوجت: لها الصداق .. والوليد عبد لك .. ٣٧٢
- ١٧٦ - إسلام غيلان الثقفى وتحتة عشر، وصفوان وعنده ثمان ٣٧٤
- ١٧٧ - مرثد يريد زواج بغى ٣٧٥

- ١٧٨ - تفسير آية ﴿ويستفتونك في النساء﴾ ٣٧٥
- ١٧٩ - إن أحق الشروط أن توفوا ما استحللتم به الفروج ٣٨١
- ١٨٠ - المسلمون عند شروطهم ٣٨١
- ١٨١ - كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ٣٨١
- ١٨٢ - قول عمر فيمن شرط لها ألا يخرجها من مصرها ٣٨٢
- ١٨٣ - زواج النبي صفة بغير شهود، اكتفاء بإعلانه ٣٨٣
- ١٨٤ - إجازة النبي زواج امرأة بنعلين برضاها ٣٩٤
- ١٨٥ - تزوج عبد الرحمن بن عوف على وزن نواة من ذهب ٣٩٤
- ١٨٦ - أم سليم تتزوج أبا طلحة وصادقها إسلامه ٣٩٤
- ١٨٧ - إن أعظم النساء بركة أصبحهن وجوها وأقلهن مهرا ٣٩٥
- ١٨٨ - من يمن المرأة أن تيسر خطبتها ٣٩٥
- ١٨٩ - كان صداق النبي ثنتي عشرة أوقية ونشأ ٣٩٥
- ١٩٠ - ما علمت رسول الله نكح على أكثر من أربعمئة درهم ٣٩٥
- ١٩١ - تزوج الرسول أم سلمة على متاع بيت ٣٩٥
- ١٩٢ - زوج النبي فاطمة من على على أربعمئة مثقال ٣٩٥
- ١٩٣ - قوله كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل ٣٩٥
- ١٩٤ - حادث عمر في النهي عن غلاء المهور ورد العجوز عليه ٣٩٦
- ١٩٥ - قول عائشة: تزوجني رسول الله لست سنين ٤٠٢
- ١٩٦ - كان فيما نزل من القرآن عشر رضعات ٤٠٥
- ١٩٧ - لا تحرم المصة ولا المصتان. وفي رواية: لا تحرم الإملاجة ٤٠٥

- ١٩٨ - عدم سؤال النبي عن عدد رضعات عقبة بن الحرث ٤٠٦
- ١٩٩ - قول النبي لسهلة: أرضعي سالما خمس رضعات تحرمي عليه.. ٤٠٧
- ٢٠٠ - إنما الرضاعة من المجاعة..... ٤٠٧
- ٢٠١ - لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء في الثدي..... ٤٠٨
- ٢٠٢ - لا رضاع إلا فيما كان في الحولين..... ٤٠٨
- ٢٠٣ - لا يحرم من الرضاع إلا ما أنبت اللحم وأنشز العظم..... ٤٠٨
- ٢٠٤ - إن إبراهيم مات في الثدي وإن له مرضعا في الجنة..... ٤١٠
- ٢٠٤ - حديث سلمة بن الأكوع في ترخيص النبي في المتعة..... ٤٢٢
- ٢٠٥ - حديث جابر في الاستمتاع بالقبضة من التمر..... ٤٢٢
- ٢٠٦ - قول عمر: متعتان كانتا على عهد رسول الله..... ٤٢٢
- ٢٠٧ - حديث سبرة في المتعة في فتح مكة..... ٤٢٢
- ٢٠٨ - حديث علي في النهي يوم خيبر عن المتعة..... ٤٢٢
- ٢٠٩ - قول علي: أمرني رسول الله أن أنادي بالنهي عن المتعة..... ٤٢٢
- ٢١٠ - قول ابن عباس في المتعة للسفر..... ٤٢٣
- ٢١١ - قول عمران بن حصين نزلت آية المتعة في كتاب الله..... ٤٢٦
- ٢١٢ - ترخيص ابن عباس للمتعة في الحال الشديدة..... ٤٢٨
- ٢١٣ - قول ابن مسعود في سؤال الاختصاص وإذن النبي في المتعة... ٤٢٩
- ٢١٤ - نساء في ثنية الوداع يبكين من المتعة..... ٤٣٥
- ٢١٥ - عمر وما روى عنه في حد نكاح المتعة..... ٤٣٧
- ٢١٦ - حديث أبي سعيد في إصابة السبايا في أوطاس..... ٤٤٤

- ٢١٧ - تحريم النبي وطء السبايا حتى يضعن ما في بطونهن..... ٤٤٤
- ٢١٨ - لا يحل لامرء أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها... ٤٤٤
- ٢١٩ - لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير حامل حتى تحيض حيضة واحدة..... ٤٤٤
- ٢٢٠ - قول عائشة: تزوجني رسول الله في شوال وبني بي في شوال.. ٤٤٧
- ٢٢١ - عقد فاطمة على علي وموعده..... ٤٤٧
- ٢٢٢ - الولد للفراش وللعاهر الحجر..... ٤٥٠
- ٢٢٣ - دخول النبي بصفية في الطريق من خيبر إلى المدينة..... ٤٥٨
- ٢٢٤ - قول بسم الله عند دخول عروسه عليه..... ٤٦٠
- ٢٢٥ - الدعاء عند الزواج: اللهم إني أسألك خيرها..... ٤٦٠
- ٢٢٦ - دعاء الناس للزوج: بارك الله لك وبارك عليك..... ٤٦٠
- ٢٢٧ - النهي عن قول: بالرفاء والبنين..... ٤٦١
- ٢٢٨ - جواز استعارة الثياب للعروس..... ٤٦٣
- ٢٢٩ - تقديم البسر في عقد فاطمة على علي..... ٤٨٧
- ٢٣٠ - عروس أبي أسيد تخدم الضيوف..... ٤٨٨
- ٢٣١ - فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت..... ٤٨٩
- ٢٣٢ - أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد..... ٤٩٠
- ٢٣٣ - عائشة وزفاف يتيمة والغناء في الزفاف (روايات)..... ٤٩٠
- ٢٣٤ - عامر الجلي يدخل على صحابييين يستمعان إلى غناء في عرس..... ٤٩١
- ٢٣٥ - حديث الربيع في النهي عن الغناء بغير المباح..... ٤٩١

- ٢٣٦ - رؤية النبي عبد الرحمن بن عوف وعليه أثر الصفرة ٤٩٣
- ٢٣٧ - الوليمة حق ٤٩٤
- ٢٣٨ - إنه لا بد للعروس من وليمة ٤٩٤
- ٢٣٩ - وليمة النبي على فاطمة ٤٩٤
- ٢٤٠ - وليمة النبي على عائشة ٤٩٥
- ٢٤١ - وليمة النبي على زينب بنت جحش ونزول الحجاب ٤٩٥
- ٢٤٢ - وليمة النبي على صفية ٤٩٧
- ٢٤٣ - وليمة النبي على ميمونة ٤٩٧
- ٢٤٤ - إذا دعى أحدكم إلى الوليمة فليأت ٤٩٩
- ٢٤٥ - أجيئوا هذه الدعوة إذا دعيتم إليها ٥٠٢
- ٢٤٦ - قول النبي عن يوم الاثنين: ذاك يوم ولدت فيه ٥٠٤
- ٢٤٧ - إذا جامع الرجل امرأته ولم يسم انطوى الشيطان إلى إحليله .. ٥٠٥
- ٢٤٨ - خنق النبي لشيطان عرض له في صلاته ٥٠٦
- ٢٤٩ - إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ٥٠٦
- ٢٥٠ - الطاعون وخز أعدائكم من الجن ٥٠٨

* * *

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الطبعة الثانية.....
٤	مقدمة الطبعة الأولى.....
٤	صورة عن حياتى الدينية.....
٧	التفكير فى تدوين الخطب والمحاضرات وفائدته.....
٨	نبذة عن مشاهير رجال الحديث.....
٩	فكرة عن مشروع: تاريخ الدعوة، وموسوعة الوعظ.....
١٠	بدء الاهتمام باخراج موسوعة الأسرة.....
١١	أثر عملى فى الوعظ فى مادة الكتابة وأسلوبها.....
١٣	أسباب المبادرة باخراج موسوعة الأسرة.....
١٣	رأى فى إصلاح المجتمع عن طريق إصلاح الأسرة.....
١٤	ملاحظات على المؤلفات فى الأسرة.....
١٦	جهدى المتواضع فى تأليف هذا الكتاب، وكلمة بينى وبين القراء.....
١٩	منهج البحث: مصادر الاستدلال:.....
١٩	القرآن وتفاسيره.....
	الحديث وشروحه. وكلمة عن أقسام الحديث، حكم رواية الحديث
١٩	الضعيف.....
٢١	أمثلة من اختلاف العلماء فى الحكم على الأحاديث.....
٢٣	بعض اصطلاحات فى الرواية، الرسول فى شخصيته الدينية والبشرية..
٢٤	أقوال الصحابة وحجيتها.....
	العصور التالية وقيمتها فى الاستدلال، وضرب المثل بعائشة بنت طلحة

٢٥ في سفورها
	من المصادر: كتب الفقه، والتاريخ، ومصادر أخرى وأشهر رجال
٢٦ المذاهب الفقهية
	قيمة الخبر في تصوير الحالة الاجتماعية، قيمة التجربة الشخصية في
٢٨ حل مشكلات الأسرة
٢٨ أحداث طارئة لا تحتاج إلى استدلال خاص
٢٩ النقل عن الكتب السماوية الأخرى
	عرض الآراء غير الإسلامية وفائدته. الربط بين النص وواقع الحياة ودقة
٣٠ التطبيق
٣٠ الاهتمام ببيان حكمة التشريع ورأى في الخلافات الفقهية
٣١ ترقيم الآيات، وتخريج الأحاديث. وبيان المصادر
٣٢ صورة عن أسلوب الكتاب. وحاجة الدراسة الاجتماعية إلى جهد كبير
	الطابع الترفيهي في عرض الحقائق. الأبحاث التي تتصل بالجنس وطريقة
٣٣ عرضها
٣٤ تسمية الكتاب، أقسامه إجمالاً
٣٧ الجزء الأول - مراحل تكوين الأسرة
	المقدمة:
٣٨ معنى عنوان الكتاب
٣٨ مفهوم الأسرة ونطاقها
٣٩ معنى الزواج في اللغة والاصطلاح
٤٠ العلاقة بين الزواج والأسرة، والتزاوج العام في الكون
٤١ الفرق بين التناسل الإنساني والتناسل الحيواني
٤٤ وظائف الأسرة

- ٤٤ قول علماء الإسلام فى المهام الرئيسية الثلاثة للأسرة.
- ٤٨ أصل نشأة الأسرة، أسرة آدم.....
- ٤٩ ما قيل عن المكان الذى هبط إليه آدم وحواء.....
- ٥٠ النظرة الطبيعية فى تكوين الأسرة، ما قيل عن رجم القرود للزانى.....
- ٥٢ نطاق الأسرة، تطوره قديما وحديثا.....
- ٥٤ العوامل المؤثرة على الأسرة.....
- ٥٧ أنواع الأسرة، وقول المقرئزى فى قبائل «البيعة».....
- ٥٩ عوامل تطور الأسرة.....
- ٦١ تاريخ الاهتمام بالأسرة، قانون الأحوال الشخصية فى مصر.....
- ٦٧ الباب الأول: مكانه الأسرة فى الإسلام.....
- ٦٨ الفصل الأول - الأسرة فى غير الإسلام:.....
- ٦٨ القوانين الوضعية، الأسرة فى العهود البدائية الأولى.....
- ٦٩ معنى لفظ «بدائية» وما قيل عن إرشاد جبريل لآدم عن السلوك الخاص ..
- ٧١ استمرار البدائية الى الآن.....
- ٧٢ الأسرة عند البيئات المتحضرة قديما:.....
- ٧٢ مصر، الصين، اليابان.....
- ٧٤ اليونان وتعاليم أفلاطون وارسطو.....
- ٧٧ الرومان ونظام الأسرة.....
- ٧٩ الأسرة فى نظر الفلاسفة المحدثين.....
- ٨١ الأسرة فى ظل القوانين الحديثة.....
- ٨٢ الأسرة فى المجتمعات المتأخرة فى العصر الحديث.....
- ٨٤ الأسرة فى الأديان السماوية.....
- ٨٦ الفصل الثانى - أهمية الزواج فى الإسلام.....

٨٦ نظرة القدامى إلى الزواج وسبب الحمل والتقاتل على المرأة
٨٧ رأى فى شيوعية النساء قديما وصور مختلفة للمعاشره الجنسيه
٨٧ تنظيم الأديان لحياة الأسرة
٨٩ موقف يحي وعيسى من الزواج
٩٠ الزواج عند اليهود والمسيحيين
٩٢ تاريخ الرهبنة
٩٢ ثورة لوثر والمعاصرين على الرهبنة
١٠٣ بنت لا تقبل رأى أبيها فى الدعوة إلى الرهبنة
١٠٤ الإسلام واهتمامه بالأسرة
١٠٥ اهتمام الشيطان بتخريب الأسرة
١٠٥ آيات وأحاديث فى الزواج، وتفسير الباءة
١٠٩ تحقيق نواة الذهب التى دفعت مهرا
١١٠ ما جاء فى ذم العزبة وتعريف بالصحابة
١١١ زوجات الخلفاء الراشدين
١١٤ تعريف بالتابعين
١١٥ النصوص المنفرة من الزواج ومناقشتها
١١٦ هل النكاح شهوة أو قرية؟
١١٧ الفصل الثالث - حكمة مشروعية الزواج
١١٧ كلمة عن حكمة المشروعية عامة
١١٩ فوائد الزواج: التناسل وأهمينه
١٢٣ التعاون فى الزواج ومظاهره
١٢٩ قضاء الشهوة
١٣١ برد العجوز وحكاية بنات همام بن مرة

- ١٣٣ تبعات الزواج الاقتصادية والنفسية والدينية
- ١٣٧ انصراف رابعة العدوية عن الزواج
- ١٣٨ صوارف شخصية
- ١٤٠ **الفصل الرابع** - الاتصالات الجنسية الشاذة:
- ١٤١ التلقيح الصناعي، تاريخا وحكما
- ١٤٧ نقل البويضة إلى رحم امرأة أخرى
- ١٤٨ اللواط تاريخا وحكما
- ١٥٤ السحاق، تاريخا وحكما
- ١٥٥ الاستمناء
- ١٦١ إتيان البهيمة
- ١٦٤ الاستنساخ
- ١٦٥ **الفصل الخامس** - حكم الزواج
- ١٦٦ التعريف بالحكم الشرعي وأقسامه
- ١٧٤ الزواج والحج، أيهما أولى؟
- **الباب الثاني**: مقاييس اختيار الزوجين:
- ١٧٦ المقدمة
- ١٧٨ **الفصل الأول** - أهمية الاختيار:
- ١٧٩ أثر المرأة على الرجل، وأمثلة لذلك:
- ١٨٠ الاسكندر وبنت دارا، أدوارد وتنازله عن العرش
- ١٨٠ هند وأثرها في أبي سفيان
- ١٨١ خالد بن يزيد وحبه لرملة بنت الزبير
- ١٨٢ من الآثار الحسنة: مشورة أم سلمة على النبي ﷺ
- ١٨٣ بيتوس وضرب زوجته لنفسها بالخنجر لتشجيعه

١٨٤ أشرف الناس منكحاً
١٨٤ أثر الرجل على المرأة
١٨٦ عرض عمر بنته على عثمان وأبى بكر
١٨٨ الفصل الثاني - أسس اختيار الزوجة
١٨٨ المقاييس الوضعية:
١٨٨ الجمال
١٩٠ المال
١٩٢ الحسب والنسب
١٩٣ هند بنت النعمان ورفض الزواج العلم
١٩٥ العلم
١٩٦ المدنية
١٩٧ الاجنبيات وأثرهن
١٩٧ صور حكاها المؤرخون عنهن
١٩٩ المقياس الإسلامى:
٢٠٠ الدين وأثره
٢٠٣ الخلق وقيمه وصفات قبيحة فى المرأة
٢٠٦ كرم الأصل وآثاره الطيبة
٢٠٧ أبو الأسود يحسن إلى أولاده قبل أن يولدوا
٢٠٨ المعتصم والمأمون وأثر عمالهما فى الدولة
٢٠٩ اختيار الولود
٢١٠ اختيار البكر ومميزاتها
٢١٠ توضيح معنى الحديث المرسل وحكم الاحتجاج به
٢١٠ عوامل تفضيل الثيب على البكر للحاجة

٢١٥ اختيار الجميلة نوعا
٢١٧ اختيار خفيفة المهر والبعدي في القرابة
٢١٧ رأى الخبراء في زواج القرابة
٢٢٠ اختيار الفارك، والرأى فيه
	الفصل الثالث - أسس اختيار الزوج
٢٢٢ المقاييس الوضعية وصور عامة عنها
٢٢٦ صورة عربية وقاتل على ومهر قظام
٢٢٨ المال
٢٣١ الحسب والنسب
٢٣٢ سعيد بن المسيب يزوج بنته لتلميذه
٢٣٣ أبو العتاهية لم يزوج بنته لأخى الرشيد
٢٣٤ المدنية
	المقياس الإسلامى
٢٣٤ التدين، وتزويج النبى لجليبيب
٢٣٥ حسن الخلق، وإرشاد ابن حنبل فى ذلك
٢٣٦ الجمال النسبى ورفض جارية لأديب دميم
٢٣٧ الكفاءة فى السن وشعر فى ذلك
٢٣٩ الخنساء ترفض دريدا لكبر سنة
٢٣٩ الرباب يطلقها الحرث لشوقها الى الشبان
٢٤٠ أصل مثل: الصيف ضيعت اللبن. وقس يتألم لزواج شيخ بصغيرة
٢٤١ آفات عدم التكافؤ فى السن، ونائلة وعثمان
٢٤٣ هند بنت معاوية يطلقها زوجها لتتزوج شابا
	الفصل الرابع - الكفاءة فى الزواج

٢٤٤	اهتمام الناس بالكفاءة، والمبارزة عند العرب
٢٤٥	اختلاف العلماء فى تقدير الكفاءة
٢٤٦	أمثلة من تقدير الكفاءة ورفض غير الأكفاء
٢٤٧	أمثلة فى اعتبار الكفاءة الدينية فقط:
٢٥١	زيد وزينب بنت جحش، أسامة وفاطمة بنت قيس
٢٥٣	عدم ارتياح ميسون لزواج معاوية
٢٥٥	ولى النكاح وأهميته، وأمثلة لذلك
٢٥٨	أقسام الولاية وشروطها، والنكاح بدون ولى
٢٦٠	مشورة الزوجة وأهميتها:
٢٦٠	هند بنت عتبة ومشورتها فى خاطبين
٢٦٢	بنات أوس بن حارثة ومشورتهن ورأى بهيسة
٢٦٣	صيغة الاستشارة وأسلوبها فى الإسلام
٢٦٦	حوادث ونصوص فى تقديس المشورة
٢٦٩	خاتمة فى أن الزوج هو الذى يختار زوجته
٢٧٠	حكم الاستعانة بالكهان والعرافين فى الاختيار
٢٧١	صلاة الاستخارة ومشروعيتها
٢٧٢	الباب الثالث: الخطبة
٢٧٤	الفصل الأول - تعرف الزوجين، وصور متنوعة منه
٢٨١	موقف الإسلام من التعرف المختلط
٢٨٤	هدى الإسلام فى طريق التعرف
٢٨٦	هل بيان العيب لمن يستشير يعد غيبة
٢٨٧	أم سليم وحيلتها للتعرف على الخطيبة
٢٨٧	التحذير من توسط الخاطبة المحترفة بالذات

- ٢٨٨ صراحة الخطبة ووليها في بيان الأوصاف:
- ٢٨٨ أم سلمة تبين للنبي عيوبها، وكذلك أم هانئ.
- ٢٨٩ متى يجوز إخفاء العيب وقضاء عمر فيه.
- ٢٩٠ الرد بالعيب يظهر لكلا الخطيبين.
- الفصل الثاني - إجراءات الخطبة**
- ٢٩٢ الخطبة قديما: عند الأوروبيين، وعند اليهود.
- ٢٩٥ الخطبة في القانون الكنسى، والقانون الفرنسى.
- ٢٩٦ الخطبة في الإسلام:
- ٢٩٦ من تجوز خطبتها؟
- ٣٠٠ من الذى يقوم بالخطبة؟ ووساطة الرجال والنساء.
- ٣٠١ إشهار الخطبة وإعلانها.
- ٣٠٢ خطبة الحاجة، وخطبة أبى طالب فى زواج النبى من خديجة.
- ٣٠٣ قراءة الفاتحة عند الخطبة وقيمتها.
- ٣٠٤ **الفصل الثالث - آثار الخطبة وأحكامها.**
- ٣٠٤ حكم الأشياء التى قدمها الخطيب إذا حصل عدول عن الخطبة.
- ٣٠٦ ما الحكم إذا تسبب فسخ الخطبة فى ضرر أحد الخطيبين؟
- ٣٠٧ خاتمة: خاتم الخطوبة، تاريخا وحكما.
- ٣١٢ **الباب الرابع: عقد الزواج.**
- ٣١٣ القسم الأول - صور للزواج فى غير الإسلام.
- ٣١٣ الفصل الأول - فى الصور البدائية والوضعية.
- ٣١٣ الاختطاف وصور منه عند الأمم المختلفة.
- ٣١٦ الغجر وأصلهم وبعض عاداتهم فى الزواج.
- ٣١٦ كلام الدكتور الخشاب فى وسائل الزواج.

٣١٨	وثائق مصرية قديمة للزواج
٣١٩	الزواج فى القانون الرومانى
٣٢٠	المخاللة عند الغربىين
٣٢١	الفصل الثانى - صور للزواج عند اليهود والنصارى:
٣٢١	اليهودية وأركان النكاح
٣٢٢	المسيحية، والعقد ونظام المخاللة
٣٢٢	أشكال النكاح فى الحبشة
٣٢٤	الفصل الثالث - صور للزواج عند العرب فى الجاهلية
٣٢٥	السفاح، الاستبضاع
٣٢٦	نكاح البغايا
٣٢٨	نكاح الشغار، نكاح البدل
٣٢٩	نكاح الخدن، نكاح السبى
٣٣٠	نكاح الوراثة والعضل والمقت
٣٣١	شخصيات تورطت فى نكاح المقت
٣٣٣	افتراء الملك أو الرئيس للبكر قبل زفافها:
٣٣٣	ملك طسم «عمليق» وشعر عفيرة
٣٣٥	القطيون ملك تهامة وافتراء اليهوديات
٣٣٦	نكاح المتعة «مختصر»
٣٣٧	القسم الثانى - عقد الزواج فى الإسلام
٣٣٧	مقدمة: عقد النكاح، وتحقيق معنى لفظ النكاح
٣٣٨	ما يلزم لعقد النكاح فى الإسلام
٣٣٨	شروط الزواج فى غير الإسلام، قديما وحديثا
٣٤١	الفصل الأول - شروط الزوجين

٣٤١ الشروط المشتركة بين الزوجين
٣٤١ ١ - الكفاءة
٣٤١ الكفاءة فى اليهودية والنصرانية قديما
٣٤٣ نبذة عن الصابئة والمجوس وزواجهم
٣٤٤ الزواج من الكتابيات
٣٤٩ زواج المسلمة من غير المسلم وبعض حوادثه
٣٥٣ ٢ - عدم القرابة
٣٥٣ القرابة عند التوتميين. المصريين وزواج الأخوات
	كليوباترا وأخوتها «بطليموس»، ورمسيس وبنته وعند اليونان
٣٥٤ وقبائل التنجس.. والقرابة عند اليهود
٣٥٥ حكمة تحريم نكاح القرابة القريبة
٣٥٧ المحرمات على التأيد: بسبب النسب
٣٥٨ قول الدهلوى والكاسانى فى حكمة تحريم نكاح القرابة
٣٥٩ المحرمات بسبب المصاهرة
٣٦٠ حكمة تحريم أم البنت بالعقد، والريبة بالدخول بالأم
٣٦١ الدخول المحرم للريبة وكيف يكون
٣٦٣ المحرمات بسبب الرضاع
٣٦٥ المحرمات مؤقتا
٣٦٧ ٣ - عدم إحرام أحد الزوجين والخلاف فى زواج ميمونة
٣٦٨ ٤ - عدم اللعان بين الزوجين
٣٦٩ الشروط الخاصة بالزوج
٣٧٠ الشروط الخاصة بالزوجة
٣٧٠ ١ - ألا تكون فى عصمة رجل ماعدا السبى

- ٢ - ألا تكون معتدة ولا مستبرأة..... ٣٧١
- ٣ - ألا تكون رقيقة والزوج حرا قادرا على حرة..... ٣٧٣
- ٤ - ألا تكون ملكا للناكح..... ٣٧٣
- ٥ - ألا تكون خامسة لأربعة..... ٣٧٣
- ٦ - ألا تكون مطلقة منه ثلاثا حتى تنكح غيره..... ٣٧٤
- ٧ - رضاها..... ٣٧٤
- ٨ - حكم نكاح الزانية..... ٣٧٥
- الفصل الثاني - صيغة العقد**..... ٣٧٨
- شروط صحتها..... ٣٧٨
- الألفاظ المستعملة في العقد..... ٣٧٩
- حكم الاشتراط في العقد..... ٣٨١
- الفصل الثالث - الولى والشاهدان**..... ٣٨٣
- الزواج العرفى..... ٣٨٤
- شروط الولى والشاهدين..... ٣٨٥
- الخلاف فى شرط العدالة..... ٣٨٧
- الفصل الرابع - المهر أو الصداق**..... ٣٨٨
- صور من المهر فى الأمم القديمة والحديثة..... ٣٨٨
- مهر عبد المطلب لفاطمة بنت عمرو..... ٣٩٠
- المهلهل يضطر لتزويج بنته على مهر حقير..... ٣٩٠
- الدوطة التى تدفع من المرأة ومثلان من أوروبا..... ٣٩١
- المهر فى الإسلام والخلاف فى حده..... ٣٩٢
- عمر وقصته فى الحد من غلاء المهور واعتراض العجوز..... ٣٩٦
- الفصل الخامس - تحديد سن الزواج**..... ٤٠٠

- ٤٠٠ الزواج المبكر فى الهند وغينيا البريطانيا
- ٤٠١ الإسلام لم يحدد سناً، ويوصى بالتبكير بالزواج
- ٤٠٢ حكم تزويج الصغيرة قبل البلوغ
- ٤٠٥ الفصل السادس - الرضاع المحرم للزواج
- ٤٠٥ عدد الرضعات والخلاف فيه
- ٤٠٧ مقدار الرضعة . مدة الرضاع والخلاف فى رضاع الكبير
- ٤١٢ من يحرم بالرضاع
- ٤١٥ لبن الفحل والخلاف فيه
- ٤١٦ بنك اللبن
- ٤١٨ النساء المرضعات وعدم معرفة من يرضعنهم
- ٤١٩ نقل الدم
- ٤٢٠ الفصل السابع - نكاح المتعة
- ٤٢٠ أصل المتعة
- ٤٢١ حكمها
- ٤٢٩ متى حرمت؟
- ٤٣١ هل حرمت مرة واحدة؟
- ٤٣٥ أحكام المتعة
- ٤٣٥ هل يصح العقد، وهل يعد زنى؟
- ٤٣٩ نقول من كتب الشيعة فى أحكام المتعة
- ٤٤١ الزواج المدنى
- ٤٤٣ الفصل الثامن - التبرى
- ٤٤٦ حكم تبرى المرأة بعبيدها وحادثان فى ذلك
- ٤٤٦ تحرى الأوقات للعقد وحكمه

٤٤٨	الفصل التاسع - آثار العقد
٤٥١	الباب الخامس : الزفاف والدخول
٤٥٢	تفسير كلمات الزفاف والعروس والبناء
٤٥٣	الفصل الأول - الزفاف عند غير المسلمين:
٤٥٣	صور شرقية
٤٥٥	اليزيديون، مذهبهم وعاداتهم
٤٥٥	صور غربية
٤٥٧	تنبيه بخصوص هذه الصور
٤٥٨	الفصل الثاني - الزفاف في الإسلام
٤٥٨	زفاف عائشة، صفية، تهيئة العروس
٤٥٩	مشروعية صلاة الركعتين عند الزفاف
٤٥٩	الدعاء بالبركة عند دخول العروس
٤٦٠	تهنئة العروسين وكلمة « بالرفاء والبنين »
٤٦١	إمداد العريس الطعام، والنقود والهدايا
٤٦٣	طرحه الزفاف وثوب الزفاف
٤٦٤	الفصل الثالث - صور من الزفاف في المجتمع الإسلامي
٤٦٥	١ - صورة قديمة من الهند رواها ابن بطوطة
٤٦٧	٢ - صورة قديمة من مالديف رواها ابن بطوطة
٤٦٧	٣ - صورة حديثة من أندونيسيا
٤٦٧	٤ - صورة حديثة من التركستان
٤٦٧	٥ - صحراء سيناء ٦ - وبدو الحجاز ٧ - واحات مصر
٤٦٨	٨ - بلاد النوبة
٤٦٩	٩ - صورتان من السودان

- ٤٧١ ١٠ - صورة من موريتانيا
- ٤٧٢ ١١ - صور حديثة صاخبة
- ٤٧٣ ١٢ - حفلات مشهورة فى التاريخ
- ٤٧٣ قطر الندى بنت خمارويه
- ٤٧٤ بوران بنت الحسن بن سهل
- ٤٧٥ **الفصل الرابع - الدخول بالمرأة وكيف يتم**
- ٤٧٦ البكارة تاريخا وحكما:
- ٤٧٦ عادات قديمة فى فض البكارة
- ٤٧٨ بلاد المغرب والمجهول الذى يفض البكارة
- ٤٧٨ الطوطميون وفض البكارة بمعرفة أجنبي
- ٤٧٨ القساوسة وحق فض البكارة فى أوروبا
- ٤٧٩ حكم الإسلام فى فض البكارة بغير الجماع الطبيعى
- ٤٨١ تنبيه. قد لا يوجد غشاء بكارة طبيعيا
- ٤٨٢ **الفصل الخامس - آثار الدخول بالمرأة**
- ٤٨٤ **الفصل السادس - إشهار الزواج واعلانه**
- ٤٨٤ اليهود والإشهار
- ٤٨٦ النصارى والأشهار وتطوره عندهم
- ٤٨٧ الأشهار فى الإسلام وإجراءاته
- ٤٨٧ ١ - حضور الشاهدين والولى فى العقد
- ٤٨٧ ٢ - اجتماع عدد كبير عند العقد
- ٤٨٨ ٣ - خطبة فى الاجتماع - وخطبة النبى فى زواج فاطمة
- ٤٨٩ خطبة لعمر بن عبد العزيز فى زواج
- ٤٨٩ ٤ - الغناء وحكمه فى الأفراح

٤٩٢ ٥ - وليمة الزواج: ولائم العرب وأسمائها ومناسباتها.
٤٩٢ الوليمة في الإسلام، الأمر بها. وتحقيق وزن النواة.
٤٩٤ حكمها.
٤٩٥ ولائم النبي ﷺ.
٤٩٨ وقت الوليمة.
٤٩٨ مقدار الوليمة.
٤٩٩ حكم إجابة الدعوة.
٥٠١ حكم المنكر الموجود بالولائم وموقف المدعو منه.
٥٠٢ عمر يعزز على زواج السر.
٥٠٣ خاتمة - شهر العسل وأصله.
٥٠٣ حكم الاحتفال بعيد الزواج.
٥٠٥ تذييل: التزاوج بين الانس والجن.
٥١١ تكملة غريبة، في زواج رجل على هيئة السمك.
٥١٢ تعريف بالمؤلف.
٥١٦ فهرس الأحاديث.
٥٢٩ فهرس الموضوعات.

* * *